

دايان ساترفيلد

ترجمة: نرمين نزار

أدب إنجليزي معاصر

رواية

مكتبة

المحروسة

حَدَثَ ذاتَ نَهر

عنوان الكتاب: حَدَثَ ذاتَ نَهر ONCE UPON A RIVER
المؤلف: دايان ساترفيلد DIANE SETTERFIELD
ترجمة: نرمين نزار
مراجعة لغوية: محمود شرف



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٦٨٨٩/ ٢٠٢٠
الترقيم الدولي: --313-977-978

حَدَثَ ذاتَ نَهر

دايان ساترفيلد

ترجمة

نرمين نزار



الطبعة الأولى 2022



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ساترفيلد، دايان

حَدَثَ ذاتَ نَهر: / دايان ساترفيلد؛ ترجمة/ نرمين نزار.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

573 ص؛ 14.5×21.5 سم

تدمك 978-977-313-375-2

1 - القصص الإنجليزية

أ- نزار، نرمين (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2021/25367

إلى أختيَّ: ماندي وبولا...

لا أكون أنا بدونكما

بمحاذاة هذا العالم يوجد آخرون.

توجد أماكن يمكنك أن تعبر إليها

هذا هو أحد هذه الأماكن

الجزء الأول



وتبدأ الحكاية...

في يوم ما، كانت توجد حانة تستقرُّ بسلامٍ على ضفاف نهر التامز عند رادكوت، على بُعد مسيرة يوم من المنبع. في زمن هذه القصة وجدت أعداد كبيرة من الحانات بطول الجزء الأعلى من التامز، وكان بإمكانك أن تسكر في أيٍّ منها، ولكن لكلٍّ منها متعة خاصَّة تمنحها، بالإضافة إلى البيرة وخمر التفاح. "رد ليون" في كلمسكوت مختصٌّ بالموسيقى، يعزف بحَّارة الصنادل النهرية الكمانَ في المساء، ويغني صُنَّاع الجبن بشَجنٍ عن الحب الضائع. إنجليشام كان لديها "جرين دراجون"، ملاذ التأمُّل المُعبَّق برائحة التبغ. إن كنتَ مُقامِرًا فـ"ستاچ" في إيتون هاستينجز هو مكانك، وإن كنتَ تُفضِّل الشِّجار فلا يوجد مكان أفضل من "زا بلاو" على أطراف بوسكوت. لـ "ذا سوان" في رادكوت تخصُّصها، كان المكان الذي تذهب إليه من أجل الحكي.

"ذا سوان" حانة عتيقة. أقدم منها جميعًا. بُنِيَت على ثلاث قطع: واحدة كانت قديمة، وواحدة كانت قديمة جدًّا، وواحدة كانت أقدم.

تناغمت هذه العناصر بفضل تسقيفة القشّ التي تعلوها والطحالب التي نَمَت على الأحجار القديمة واللبلاب الذي يتسلّق الحوائط. يأتي المتنزِّهون في الصيف من البلدات بالقطار الجديد ليستأجروا المراكب والزوارق من "ذا سوان"، ويقضون بعد الظهيرة في النهر مع زجاجة خمر تُفَّاح وطعام مُعَدٍّ للنزهات. ولكن في الشتاء، كان الشاربون جميعًا من السُّكَّان المحلِّيِّين، وكانوا يجتمعون في الغرفة الشتوية. غرفة بسيطة في الجزء الأقدم من الحانة بنافذة واحدة تخترق الحائط الحجريّ السميك. في ضوء النهار تريك النافذة جسر رادكوت والنهر الذي يسري عبر أقواسه الثلاثة الساكنة. أمَّا ليلًا (وتبدأ هذه القصة في الليل) فيغرق الجسر في السواد، وفقط عندما تلاحظ أذناك الصوت المنخفض اللا محدود لكميات ضخمة من الماء المتحرِّك ستتمكَّن حينها من تَبَيُّن السَّواد السائل الممتد الذي تنيره إضاءة خافتة أشعلها بطاقة ذاتية.

لا يعرف أحدٌ كيف بدأ تقليد الحَكْي في ذا سوان، ولكن ربما ارتبط ذلك بمعركة جسر رادكوت. عام 1387 قبل خمسمائة عام من الليلة التي بدأت فيها هذه القصة التقى جيشان عظيمان عند جسر رادكوت. مَن هم، وكيف هي قصَّةٌ أطول من أن تُحكَى، ولكن النتيجة أن ثلاثة رجال ماتوا في المعركة: فارس وخادم وصبي، وضاعت ثمانمائة نفس غرقوا في المستنقعات وهم يحاولون الهرب. نعم هذا حقيقي. ثمانمائة نفس. هذا حَكيٌ كثير. عظامهم ترقد الآن تحت ما أصبح حقولَ جرجير. يزرعون الجرجير حول رادكوت ويحصدونه ويضعونه في أقفاصٍ ويرسلونه إلى المدن على صنادِلَ، ولكنهم لا يأكلونه. يشتكون من أنه مُرٌّ. مُرٌّ لدرجة أنه يَردُّ لك العَضَّة. بالإضافة إلى ذلك مَن يريد أن يأكل أوراق تتغذَّى على الأشباح؟ عندما تحدث معركة مثل تلك على أعتاب بابك فإن الموتى يُسمِّمون مياه شُربِكَ، ومن الطبيعي أن تحكي عن ذلك مرَّةً تلو الأخرى. تصبح بقوة التكرار ماهِرًا في

الحكي. ثم عندما تنتهي الأزمة وتُحوِّل انتباهك لأشياء أخرى، فلا شيء طبيعي أكثر من تطبيق هذه الخبرة المكتَسَبة حديثًا على قصص أخرى. بعد مرور خمسمائة سنة، لا زالوا يحكون قصَّة معركة جسر رادكوت خمس أو ستَّ مرَّاتٍ سنويًّا في مناسبات خاصة.

كانت مارجو أوكويل هي مالكة ذا سوان. كانت عائلة أوكويل في ذا سوان منذ أبعد زمن يتذكَّره أي شخص، وعلى الأغلب منذ وجدت ذا سوان نفسها. كان اسمها، رسميًّا في القانون، مارجو بليس؛ لأنها متزوجة، ولكن القانون مكانه في البلدات والمدن. هنا في ذا سوان ظلَّت من عائلة أوكويل. كانت مارجو امرأةً وسيمة في نهاية الخمسينات من عمرها، تستطيع رفع البراميل بدون مساعدة، وتملك ساقين ثابتتَيْن، حتى إنها لم تشعر أبدًا بالرغبة في الجلوس. يُشاع أنها تنام واقفة على ساقيها، ولكنها أنجبت ثلاثة عشر طفلًا، فمن الواضح أنها لا بُدَّ أن تكون قد رقدت في وقتٍ ما. كانت ابنة صاحبة المكان السابقة، وأدارت جدَّتُها وأمُّ جَدَّتها الحانةَ قبل ذلك، ولم يرَ أي شخص في رادكوت مانعًا في أن تدير امرأةٌ ذا سوان. هكذا كانت تجري الأمور.

زوج مارجو هو جو بليس، وقد ولد في كمبل على بُعد خمسة وعشرين ميلًا في اتجاه منبع النهر، على بُعد خطوات من المكان الذي يخرج عنده التامز من الأرض كجدولٍ هزيل، حتى إنه لا يتجاوز كونه بقعة رطبة في التربة. عائلة بليس عُرضَة لأمراض الصدر. يولدون ضئيلين ومرضى، وأغلبهم يرحل قبل أن يكبر. رُضَّع عائلة بليس يزدادون نحافةً وشحوبًا بينما يزدادون طولًا حتى ينتهوا تمامًا، عادة قبل سِنِّ العاشرة، وكثيرًا قبل الثانية. الناجون، ومنهم جو، يَصِلون إلى البلوغ وهم أقصر وأصغر بنيةً من المتوسط. تُخَشخِش صدورهم في الشتاء وتسيل أنوفهم وتمتلئ عيونهم بالماء. هم طيِّبون بعيون وديعة وابتسامات لعوبات كثيرة.

ترك جو كيميل في سنٍّ الثامنة عشرة، يتيم وغير صالح للعمل البدني، كي يبحث عن حظِّه عن طريق فِعل شيء ما لا يعرفه. تنطلق من كيميل عدَّة اتجاهات يمكن للشخص أن يتبعها كما في أي مكان آخر في العالم، ولكن للنهر جاذبيته، عليك أن تكون مُشاكِسًا بشدَّة حتى لا تتبعه. مَرَّ برادكوت، ولأنه شعر بالعطش توقَّف ليشرب. جلس الشاب الهزيل بشعره الأسود المنسدل المناقض لشحوبه لا يفطن له أحدٌ وهو يرتشف خمر التُّفَّاح مُتأمِّلًا ابنةَ صاحب الحانة بإعجابٍ، وأنصت إلى قصة أو اثنتين. أَسَرَه أن يجد نفسه وسط أشخاص يحكون بصوت عالٍ نوعَ القصص التي كانت حيَّةً في رأسه منذ طفولته. خلال فاصل من الصمت، فتح فمه فخرجت... "حدث ذات يوم".

اكتشف جو بليس مصيره في ذلك اليوم. لقد أتى به التامز إلى رادكوت، وفي رادكوت بقي. بقليل من التمرين وجد أنه يستطيع أن يدير لسانه نحو أيِّ نوع من القصص، سواء كانت نميمةً أو تاريخيَّة أو تراثية أو شعبية أو خيالية. يستطيع وجهه المَرِن أن يوصل الدهشة والارتياع أو الارتياح أو الشك، وأي شعور آخر، بمهارة تُكافئ أي مُمثِّل. ثم توجد أيضًا مسألة حواجبه. وفيرة السواد، وتحكي القصة بقدر ما يحكيها هو. يَضُمَّان بعضهما البعض إن كان هناك حدث جَلَلٌ قادم، ويرتعشان عندما تستدعي تفصيلةٌ ما انتباهًا شديدًا، وتتقوَّسان إن كانت شخصيَّةٌ ما قد لا تكون حقيقتَها مثلما تبدو. بالنظر إلى حواجبه والانتباه إلى رقصتهما المعقَّدة ستلاحظ كل أنواع الأشياء التي كانت ستفوتك إن لم تفعل. بعد مرور أسابيع قليلة على بداية ذهابه إلى ذا سوان للشُّرب أصبح يعرف كيف يأسر المستمعين. أسر مارجو أيضًا، وهي بدورها أَسَرَته.

في نهاية الشهر، مشى جو ستِّين ميلًا بعيدًا عن النهر، حيث حكى قصة في مسابقة. بالطبع فاز بالجائزة الأولى، وأنفق ما ربحه على

خاتم. عاد إلى المنزل ببشرة رمادية من الإنهاك، وانهار في سريره لمدة أسبوع، في نهايته جَثَا على ركبتيه وتقدَّم إلى مارجو طالِبًا الزواج منها.

قالت أمها: "لا أدري... أبإمكانه العمل؟ هل بإمكانه كسب قوته؟ كيف سيعتني بأُسرَة؟".

نبَّهتها مارجو: "انظري إلى الإيراد. انظري إلى كمِّ الزحام عندنا منذ بدأ جو في حكي حكاياته. تخيَّلي لو لم أتزوَّجه يا ماما. قد يرحل عن هنا. ثم ماذا؟".

كان ذلك حقيقيًا. أتى الناس إلى الحانة أكثر في تلك الأيام، ومن أماكن أبعد، وبقوا لمُدَدٍ أطول وهم يستمعون إلى القصص التي يحكيها جو. جميعهم اشتروا مشروبات. كانت ذا سوان تزدهر.

"ولكن كل هؤلاء الشباب الوسيمين الأقوياء الذين يأتون إلى هنا ويعجبون بك جدًّا... أليس واحدٌ منهم أفضل؟".

قالت مارجو بحَسم: "جو هو مَن أريد. أنا أحبُّ الحكايات".

نالت مرادها.

كان كل هذا منذ أربعين عامًا تقريبًا قبل أحداث هذه القصة، وفي خلال ذلك الوقت أنشأت مارجو مع جو عائلةً كبيرة. أنجبا اثنتي عشرة ابنة عَفيَّة خلال عشرين عامًا. كان لجميعهنَّ شَعرُ مارجو البُنِّيُّ الكثيف وساقاها الثابتتان. كَبُرن ليُصبِحن شابَّاتٍ كواعِبَ، بابتسامات طائشة ومَرَحٍ لا متناهي. جميعهن مُتزوِّجات الآن. واحدة منهن أَسْمَنُ قليلًا، والأخرى أنْحَفُ قليلًا. واحدة أطول قليلًا، والأخرى أقصر قليلًا. واحدة أكثر سُمرَةً، والأخرى أكثر شُقرَةً ، ولكن على جميع الأصعدة الأخرى، كُنَّ يُشبِهن أُمَّهنَّ، حتى إن الشَّارِبين لم يكونوا يستطيعون التمييز بينهن، وعندما كُنَّ يَعُدن للمساعدة في الأوقات المزدحمة، كان الجميع يعرفهن باسم "مارجو الصغيرة". بعد إنجاب كل هؤلاء

الفتيات، ساد سكونٌ في زيجة مارجو وجو، وتصوَّرَا أن سنوات إنجابها قد انتهت، ولكن أتى الحمل الأخير ومعه چوناثان، ابنهما الوحيد.

لم يشبه چوناثان الأولاد الآخرين، برقبته القصيرة، ووجهه المستدير كالبدر، وعينيه اللوزيَّتَيْن بمَيْلِهم المبالَغ فيه إلى الأعلى، ودِقَّة تكوين أذنيه وأنفه، ولسانه الذي بدا أكبر من فمه دائِمِ الابتسام. وبينما هو يكبر، أصبح واضحًا أنه لا يشبههم في نواحي أخرى أيضًا. أصبح الآن في الخامسة عشرة، وبينما الأولاد الآخرون من نفس عمره كانوا يتطلَّعون بنفاد صبر إلى الرجولة، كان چوناثان قانِعًا بالاعتقاد أنه سيعيش في الحانة إلى الأبد مع أمه وأبيه، ولم يتمنَّ شيئًا آخر.

كانت مارجو لا تزال امرأة قويَّة ووسيمة، وقد ابْيَضَّ شَعرُ جو، مع أن حواجبه بقيت بنفس سوادها. أصبح الآن في السِّتِّين، وهو عمرٌ عتيقٌ بالنسبة لفرد من عائلة بليس. أرجع الناسُ بقاءَه لعناية مارجو لا النهائية به. في تلك السنوات الأخيرة، كان يُصاب أحيانًا بهُزال، حتى إنه يستلقي في السرير ليومين أو ثلاثة، بعيون مُغلَقة. لم يكن نائمًا- لا، كان في تلك الأوقات يزور مكانًا يتجاوز النوم. تعامَلَت مارجو مع نوبات غرقه بهدوء. كانت تُبقي النار مشتعلة لتجفِّف الهواء وتسكب حساءً مُبرَّدًا بين شفتيه، وتُمشِّط شَعرَه وتُملِّس حواجبه. يفزع الآخرون لرؤيته مُعلَّقًا يتذبذب بين كل نفس رطبٍ والذي يليه، ولكن مارجو كانت لا تبالي. كانت ستقول لك "لا تقلق، سيصبح بخير"، وسيحدث بالفعل. لقد كان من عائلة بليس وهذا كل ما في الأمر، تسرَّب النهر إلى داخله وجعل رئتيه كالمستنقع.

كانت ليلة الاعتدال الشمسي، أطول ليالي السنة. كانت النهارات تتقلَّص منذ أسابيع بالتدريج في البداية، ثم انزلقت حتى أصبحت الدنيا ظلامًا في وقت بعد الظهيرة. وكما هو معروف، فعندما تستطيل ساعات القمر يشرد الناس عن انتظام ساعاتهم الميكانيكية. تميل

رؤوسـهم عنـد الظهـيرة ويحلمـون في سـاعات الصحـو ويفتحـون عيونهـم عـلى اتِّسـاعها في وجـه الليـل حالـك السـواد. إنـه وقـت السَّـحَر. تتمدَّد الحـدود بـين النهـار والليـل لتصبـح شـفَّافةً، وكذلـك تفعـل الحـدود بـين العـوالم. تندمـج الأحـلام والقصـص مـع التجـارب المُعاشَـة، ويلمـس المـوتى الأحيـاء في ذهابهـم وإيابهـم، ويتلامـس الحـاضر مـع المـاضي ويتداخـلان. يمكـن أن تحـدث أشـياء غـير مُتوَقَّعـة. هـل كان للاعتـدال الشـمسي أي دخـل في الأمـور الغريبـة في ذا سـوان؟ عليـك أن تحكـم بنفسـك.

أنت الآن تعرف كل ما تحتاج أن تعرفه، يمكن للحكاية أن تبدأ.

كان الشـاربون المجتَمِعـون في ذا سـوان في تلـك الليلـة مـن الزبائـن الدائمـين. أغلبهـم مـن حُفَّـار الـرَّدم وعُـمَّال جمع الجرجـير وعُـمَّال الصنادل، ولكـن بسـزانت الـذي يعمـل في إصـلاح المراكـب كان هنـاك أيضًـا، وكذلـك كان أويـن ألبرايـت الـذي تَبِـعَ النهـر إلى البحـر منـذ نصـف قـرنٍ، وعـاد بعـد عقديـن رَجُـلًا ثريًـا. أصبـح ألبرايـت الآن مُصابًـا بالتهـاب المفاصـل، ولا شيء يُقلِّـل مـن ألم عظامـه سـوى الخمـر القـوي والحـكي. كانـوا هنـاك منـذ تَسـرُّب الضـوء مـن السـماء يفرغـون ويملـؤون كؤوسـهم وينقـرون عـلى غلايينهـم ويعيـدون حشـوها بالتَّبغ عبِـق الرائحـة ويحكـون قصصًـا.

كان ألبـيرات يحـكي حكايـة معركـة جـسر رادكـوت. تتعـرَّض أي قصـة لأن تفقـد جاذبيتهـا نوعًـا مـا، وقـد وجـد الحـكَّاؤون طريقـةً كي ينعشـوا أسـلوب إلقائهـا. ثبتـت بعـض أجـزاء القصـة بحُكـم التقاليـد -الجيـوش، لقاؤهـم، مـوت الفـارس وخادمـه، والرجـال الثمانمائـة الغارقـون- ولكـن مـوت الصبـي لم يكـن مـن ضمنهـا. لم يُعـرف عنـه أي شيء سـوى أنـه وَلَـدٌ وُجِـدَ عنـد جـسر رادكـوت ومـات هنـاك، مـن هـذا الفـراغ خـرج الابتـكار. في كل مـرة يُعـاد حـكي القصـة في ذا سـوان يقـوم الولـد مـن بـين الأمـوات ليُفـرض عليـه مـوتٌ آخـر. عندمـا تصبـح الحكايـة قصَّتَـك

التـي تحكيهـا يُسـمَح لـك بـأن تمـارس حريتـك في ذلـك- ولكـن الويـل لأيِّ زائـر يحـاول أن يفعـل نفـس الـشيء. مـن المسـتحيل أن تعـرف مـا الـذي فعلـه الصبـي نفسـه بإعـادة بعثـه المتكـرِّرة، ولكـن الفكـرة أن المـوتى ليسـوا شـيئًا غـير معتـاد في ذا سـوان، وهـي تفصيلـة تسـتحقُّ أن نتذكرهـا. تلـك الليلـة اسـتحضره أويـن أولبريـات في زيٍّ فنَّـان شـاب أتى لتسـلية القـوات بينـما ينتظـرون الأوامـر، انزلـق في الطـين وهـو يقـذف سـكاكين وتسـاقطت السـكاكين حولـه لتنغـرز نِصالُهـا في الأرض المبتلّـة، مـا عـدا الأخـير الـذي وقـع مُختَرِقًـا عينـه ليقتلـه فـورًا قبـل أن تبـدأ المعركـة. اسـتدرَّ هـذا التجديـدُ همهـمات استحسـانٍ زالـت سريعًـا، ومـن ثـم سَرَت القصَّـة كـما كانـت تكتمـل دائمًـا.

مـن بعدهـا سـاد صمـت. لا يَصِـحُّ أن تبـدأ قصـة جديـدة سريعًـا قبـل أن تهضـم السـابقة جيِّـدًا.

كان چوناثان يُصيخ السَّمع، وقال: "أتمنَّى لو أحكي حكاية".

ابتسـم -چوناثـان كان الصبـيَّ الـذي يبتسـم دائمًـا- ولكـن صوتـه حمـل الكثـير مـن التمنِّـي. لم يكـن غبيًّـا، ولكـن المدرسـة كانـت تُربِكُـه، والأطفـال الآخـرون يضحكـون عـلى وجهـه غـير المألـوف وسـلوكه الغريـب، وقـد تـرك المدرسـة لبضعـة شـهور. لم يكـن قـد تمكَّـن بَعـدُ مـن القـراءة والكتابـة. كان الزبائـن الدائمـون في الشـتاء معتاديـن عـلى الفتـى أوكويـل وغرابتـه.

اقترح عليه ألبرايت: "جَرِّب، احكِ لنا واحدة الآن".

فكَّـر چوناثـان في الأمـر. فتـح فمـه وانتظـر بلهفـة ليسـمع مـا الـذي سـيخرج منـه. لم يخـرج شيء. تغضَّـن وجهـه بشـدَّة مـن الضحـك، والْتَـوَت أكتافـه سـعادة بنفسـه.

صاح عندما تَمالَكَ نفسه: "لا أستطيع! لا أستطيع أن أفعلها!".

"في ليلة أخرى إذًا. فلتتدرَّبْ قليلًا، وسنسمعك عندما تكون مُستعدًّا".

قال چوناثان: "احكِ حكاية يا أبي. هيَّا".

كانت أول ليلة لجو في الغرفة الشتوية بعد واحدة من نوبات غرقه. كان شاحبًا، وقد بقي صامتًا طوال المساء. لم يكن أحدٌ يتوقَّع منه قصَّةً في هزاله، ولكنه ابتسم قليلًا لتشجيع ابنه، ونظر إلى رُكنٍ عالٍ من الغرفة حيث اسوَدَّ السقف بسبب سنواتٍ من دخان الخشب والتبغ. يتصوَّر چوناثان أن هذا هو المكان الذي تأتي منه قصص والده. عندما عادت عيون جو إلى الغرفة كان مستعدًّا وفتح فمه كي يتحدَّث.

"في يوم من...".

انفتح الباب.

كان الوقت متأخِّرًا على دخول شخص جديد. أيًّا كان الشخص فهو لم يستعجل الدخول. هزَّ تيَّارُ الهواء البارد شُعلةَ الشموع، وحمل معه لسعة النهر إلى الغرفة المعبَّقة بالدُّخان. رفع الشاربون عيونهم.

كل عينٍ رأت، ولكن ولبُرهَةٍ طويلة لم يتحرَّك أحدٌ. كانوا يحاولون فَهْمَ ما يرونه.

أجفلوا لرؤية الرجل -إن كان رَجُلًا- الذي كان طويلًا وقويًّا، ولكن رأسه كان وحشيًّا. هل كان وحشًا من قصة شعبية؟ هل هم نائمون وهذا كابوس؟ كانت الأنف معوَجَّة ومُسطَّحة، وتحتها فراغٌ مُفغَر مُظلِم من الدماء. كان المنظر في حدِّ ذاته مُخيفًا بما يكفي، ولكن الكائن البَشِع كان يحمل على ذراعيه دُميةً ضخمة بوجه شَمعيٍّ، وأطراف، وشعر مُلوَّن ببراعة.

مـا دفعهـم للتـصرُّف كان الرَّجُـلَ نفسـه. زأر في البدايـة بخـوارٍ ملتـوٍ مثـل الفـم الـذي خـرج منـه، ثـم تعـثَّر ومـال. قفـز فلَّاحـان مـن مقعديهـما في اللحظـة المناسـبة ليمسـكا بـه مـن تحـت ذراعيـه ويوقِفـا سـقطته، حتـى لا يُحطِّـم رأسـه عـلى بـلاط الأرض. قفـز چوناثـان أوكويـل في نفـس اللحظـة مـن جـوار النـار بذراعيـه ممدودتـين، وفيهـما سـقطت الدميـة ككُتلـةٍ صَـمَّاء فاجـأت مفاصلـه وعضلاتـه.

عـادوا إلى رُشـدهم، فرفعـوا الرَّجُـل فاقـد الوعـي عـلى طاولـة، وسُـحِبت طاولـة أخـرى كي يريحـوا سـاقَيْ الرَّجُـل عليهـا. وبعـد أن أرقـدوه وعدلـوه، وقفـوا جميعًـا حولـه ورفعـوا شـموعهم ومصابيحهـم فوقـه. لم ترمـش عينـا الرَّجُل.

تساءل ألبرايت: "هل هو ميِّت؟".

دارت همهمات مُبهَمَة والكثير من العبوس.

اقترح أحدهم: "اصفعوا وجهه لتروا إن كان ذلك يعيده إلى وعيه".

اقترح آخر: "رشفة من الخمر ستقوم بالواجب".

دفعتهـم مارجـو بكوعهـا لتُوَسِّـع مكانًـا لنفسـها حتـى رأس الطاولـة، وفحصـت الرَّجُـل: "لا تصفعـوه بالـذات ووجهـه عـلى هـذه الحالـة. ولا تسـكبوا شـيئًا في حلقـه. انتظـروا لدقيقـة".

اسـتدارت مارجـو نحـو المقعـد المجـاور للمدفـأة. كانـت فوقـه وسـادة، التقطتهـا وحملتهـا عائـدة بهـا إلى النـور. وجـدت بالاسـتعانة بالشـموع نقطـة بيضـاء عـلى القُطـن فالتقطتهـا بظفرهـا وسـحبت ريشـة. راقبتهـا وجـوه الرجـال بعيـون زادت الحـيرة مـن اتِّسـاعها.

قـال حَفَّـار الحـصى: "لا أظـن أنـك سـتوقظين رجُـلًا ميِّتًـا بـأن تدغدغيـه. ولا حتـى رَجُـلًا حيًّـا، إن كان في مثـل تلـك الحالـة".

ردَّت: "لن أدغدغه".

وضعت مارجو الريشة على شفاه الرجل. نظر الجميع. للحظة لم يحدث شيء، ثم ارتعشت شُعَيرات الرِّيشة.

"إنه يتنفَّس!".

سريعًا ما أفسح الإحساسُ بالراحة الطريق للحيرة مُجدَّدًا.

سأل أحد بحَّارة الصنادل: "ولكن مَن هو؟ هل يعرفه أحد؟".

تلت ذلك عدة لحظات من الهمهمات العامة بينما هم يفكِّرون في السؤال. قال أحدهم إنه يعتقد أنه يعرف كل الناس على ضفاف النهر من قلعة إيتون إلى دوكسفورد، وهي مسافة عشرة أميال تقريبًا. وهو متأكِّدٌ من أنه لا يعرف الرجل. رجلٌ آخر له أخت في ليكلايد، وهو متأكِّد أنه لم يرَ الرجل هناك مطلقًا. قال ثالث إنه يشعر أنه ربما رأى الرجل في مكان ما، ولكن كلما أطال النظر قَلَّت رغبته في الرهان على ذلك. تساءل رابعٌ إن كان هذا من غجر النهر؛ لأن مراكبهم تأتي إلى هذا الجزء من النهر في هذا الوقت، ويُنظر إليها بشكٍّ، ويحرص الجميع أن يوصدوا أبواب بيوتهم ليلًا، ويُدخِلون أي شيء يمكن حَملُه. ولكن بهذه السترة الصوفية الجيِّدة والحذاء الجلدي الغالي- فلا. هذا ليس رَجُلًا غجريًّا رَثًّا. حدَّق خامسٌ، ثم علَّق بإحساس الانتصار أن الرَّجُل كان بنفس طول وبنية ليديارد من مزرعة وايتلي. أليس لشَعرِه نفس اللَّون أيضًا؟ أشار سادسٌ أن ليديارد هنا على الطرف الآخر من الطاولة. وعندما نظر الخامس عبر الطاولة لم يستطع الإنكار. في نهاية تلك المناقشات ومناقشات أخرى اتَّفق الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وجميع الموجودين الآخرين أنهم لا يعرفونه -أو على الأقل لا يظنُّون أنهم يعرفونه- ولكن مَن سيتأكَّد وهو بهذه الهيئة؟

وسط الصمت الذي أعقب هذه الخاتمة تحدَّث رجلٌ سابِعٌ: "ما الذي جرى له؟".

كانت ثياب الرَّجُل تقطر بالماء وتفوح منه رائحة النهر عندما يكون مُرتَّقًا بالبُنِّيِّ والأخضر. كل ما كان واضحًا هو أن حادثة ما حصلت على الماء. تحدَّثوا عن خطورة النهر وعن الماء الذي يخدع حتى أكثر رجال النهر حِكمَةً.

اقترح بيسزانت الذي يُصلِح المراكب: "هل هناك مركب؟ هل أذهب وأرى إن كنتُ سأشاهد مركبًا؟".

كانت مارجو تغسل الدماء من على وجه الرجل بحركات حازمة ورقيقة. جفلت وهي تكشف الشَّجَّ الذي قسم شفته العليا وقسم جلده إلى قسمين متدلِّيَيْن ينفلجان ليُظهِرَا أسنانه المكسورة ولثته المدمَّاة.

أمرتهم: "دعوا المركب. إن الرجل هو المهم. ما يوجد هنا أكثر من قُدرتي على المساعدة. مَن سيركض ليأتي بريتا؟". نظَرَت حولها ولاحظت أحد عُمَّال المزرعة الذي كان أفقرَ من أن يشرب كثيراً: "نيث، أنتَ سريعٌ. هل يمكن أن تركض إلى كوخ راش وتأتي بالممرِّضة دون أن تتعثَّر؟ حادثة واحدة في الليلة تكفي".

غادر الشاب.

خلال كل هذا الوقت، بقي جوناثان بعيدًا عن الآخرين. كان ثِقَلُ الدُّمية المتشرِّبة بالماء مُرهِقًا؛ فجلس وساواها في حِجره. تذكَّر التِّنِّين الورقي الذي جلبته فرقةٌ من الممثِّلين من أجل مسرحية في عيد الميلاد الماضي. كان خفيفًا وصلبًا، وإن خبَطتَ بأظافرك على جانبه يصدح بـ "تا تات تات تات". لم تكُن الدُّمية مصنوعة بنفس الطريقة. فكَّر في الدُّمى التي رآها والتي تمتلىء بالأرز . كانوا ثقيلين وليِّنين. لم يشاهد أبدًا واحدة بهذا الحجم. استنشق رأسها. لا توجد فيها رائحة أرز- فقط النهر. الشَّعر مصنوعٌ من شَعرٍ حقيقي، ولم يستطع أن يحزر كيف وُصِل بالرأس. الأذن كانت تبدو حقيقيَّةً، حتى

إنها لا بُدَّ وقد صُبَّت من أذن حقيقية. ونظر بانبهار إلى الدِّقَّة الكاملة للرموش. تَسبَّب وضعه لطرف إصبعه بنعومة على أطرافها الرطبة التي دغدغته في أن يتحرَّك الجَفنُ قليلًا. لمس الجفن بأرقِّ اللمسات، وكان يوجد شيء خلفه زَلِقٌ وكرويٌّ وطَريٌّ ومُتماسِكٌ في نفس الوقت.

استولى عليه شيءٌ قاتم بلا تفسير. هَزَّ الدُّمية برقَّة من خلف ظهر والديه والشاربين. انزلقت ذراع وتَطوَّحَت من عند مفصل الكتف بشكل لا يجب أن تتحرَّك به الدُّمى وشعر بمستوى الماء يرتفع بقوة وسرعة داخله.

"إنها فتاة صغيرة".

لم يسمعه أحدٌ وسط كل النقاشات حول الرجل الجريح.

مرة أخرى وبصوتٍ أعلى: "إنها فتاةٌ صغيرة".

استداروا.

"لا تريد أن تستيقظ"، وأمسك الجسد الصغير المبتلَّ حتى يروا بأنفسهم.

استداروا وتحرَّكوا ووقفوا حول چوناثان. اثنا عشر زوجًا من العيون المصدومة استقرَّت على الجسد الصغير.

لمع جِلدُها كالماء. طيَّات ثوبها القطني كانت مُلتَصِقةً على خطوط أطرافها ورأسها مائل قليلًا على رقبتها بزاوية لا يستطيع أي صانع دُمى أن يُحقِّقها. كانت فتاةً صغيرة ولم يستطيعوا أن يروا ذلك. لم يستطع أي واحد منهم أن يرى ذلك مع أنه كان بديهيًّا. لِمَ يبذل صانِعُ دُمى كل هذا المجهود في صنع دمية على هذا القدر من الكمال ثم يلبسها جلبابًا قطنيًّا مثل ابنة أي فقير؟ أي صانع سوى الله يملك مهارة صنع استدارة عظمة فَكٍّ كهذه، واستواء قصبة الساق، وهذه

القدم الدقيقة بخمس أصابع، صُمِّم شكل وحجم وتفاصيل كل واحد منهم على حِدَة؟ بالطبع كانت فتاة صغيرة! كيف فكَّروا في غير ذلك؟

حلَّ الصَّمتُ في الغرفة التي تزدحم عادةً بالكلمات. الرجال الذين كانوا آباء فكَّروا في أبنائهم، وقرَّروا ألَّا يُظهِروا لهم شيئًا سوى الحب حتى نهاية أيامهم. الذين شابوا ولم يعرفوا طفلًا أبدًا، عذَّبَتهم لوعة غياب عظيمة. ومن ليس لديهم أطفال من الشباب طعنهم اشتياقٌ لحَمل أبنائهم بين أيديهم. أخيرًا كُسر الصَّمت.

"يا إلهي الرحيم".

"ماتت المسكينة الضَّئيلة".

"غرَقَت!".

"ضعي الريشة فوق فمها يا أمِّي!".

"آه يا چوناثان. لقد مضى الوقت بالنسبة لها".

"ولكن هذا نَجَحَ مع الرجل!".

"لا يا بُنيَّ، لقد كان يتنفَّس بالفعل. أرتنا الريشةُ فقط أن لا تزال به حياة".

"قد يكون لا تزال بها حياة أيضًا!".

"من الواضح أن الفتاة المسكينة قد رحلت. إنها لا تتنفَّس. كما أنه ليس عليك سوى النظر إلى لونها. مَن سيحمل الطفلة المسكينة إلى الغرفة الطويلة؟ خُذها أنت يا هيجز".

اعترض چوناثان "ولكن المكان هناك باردًا".

ربتت أمه على كتفه "هي لن تمانع. إنها لم تَعُد هنا، ولا يوجد بَردٌ أبدًا في المكان الذي رحلت إليه".

"دعوني أحملها".

"احمِلْ أنت القنديل وافتح الباب للسيد هيجز. إنها ثقيلة عليك يا حبيبي".

أخذ حفَّار الحصى الجثة من قبضة چوناثان المرتخية ورفعها كما لو كانت لا تزيد عن وزن إوزَّة. أنار چوناثان الطريق إلى الخارج وحول جانب الحانة نحو بناء حجري خارجي. فتح بابًا خشبيًّا سميكًا على مخزن ضيِّق بلا شباك، كانت الأرض من التربة والحوائط لم تُدهَن بالجصِّ أبدًا ولا غُطِّيَت بالأخشاب ولا دُهِنَت. في الصيف كان هذا مكانًا جيِّدًا لترك بطَّةٍ منزوعة الريش أو سمكة سلمون مُرقَّط لم يجوعوا بَعدُ ليأكلوها. في ليلة شتاء مثل هذه كانت مريرة. بَرَزَ رَفٌّ حَجريٌّ من أحد الحوائط، وأرقدها هيجز عليه. هدهد چوناثان الجمجمة مُتذكِّرًا رِقَّة العرائس الورقية -"كي لا تتألَّم"- وهي تلمس الحجر.

عكس قنديل هيجز دائرةً من الضوء على وجه الفتاة.

قال چوناثان: "إنها ميتة يا ماما".

"هذا صحيحٌ يا فتى".

"ماما إنها في مكان آخر".

"هي كذلك".

"إنها تبدو لي كما لو أنها هنا".

"لقد غادرتها أفكارها. روحها انتقلت".

"ألا يمكن أن تكون نائمِة؟".

"لا يا فتى. كانت ستصحو بعد كل هذا الوقت".

صنع القنديل ظلالًا تلتمع وتنطفئ على الوجه الجامد، وحاول دِفؤُه تغطيةَ البياض الميت للجِلد، ولكنه لم يكن بديلًا للنور الداخلي للحياة.

"نامت فتاةٌ لألف عام وصَحَت بقُبلَة".

رمش هيجز بشراسة "أظنُّ أن هذه ليست إلا قصَّة".

انتقلت دائرة الضوء من وجه الفتاة وأنارت قدَمَيْ هيجز وهما يجدان طريقهما إلى الخارج مرَّة أخرى، ولكنه اكتشف عند الباب أن چوناثان ليس بجواره.

استدار ورفع القنديل مرَّةً أخرى ليراه ينحني ويطبع قُبلَةً على جبين الطفلة في الظلام.

راقب چوناثان الطفلة بتركيزٍ ثم تهدَّلَت أكتافه. أغلقوا الباب خلفهم، ثم ابتعدوا.

جُثّة بلا قِصّة

كان يوجد طبيب على بُعد ميلين من رادكوت، ولكن لم يخطر في بال أحد أن يرسل في طلبه. كان عجوزًا، وباهِظَ الأجر، وأغلب مرضاه ماتوا، وهو ما لم يكن مُشجِّعًا؛ لذا بدلًا من ذلك، فعلوا ما يُمليه العقل وأرسلوا في طلب ريتا.

وهكذا أتى صوت خطوات خفيٍّ في الخارج، وانفتح الباب عن سيدة بعد نصف ساعة من وضع الرجل على الطاولات. فيما عدا مارجو وبناتها اللاتي كُنَّ جزءًا من ذا سوان بنفس قدر ألواح الأرض والحوائط الحجرية، كان مشهد امرأة في الحانة نادرًا، وكانت كل العيون مُعلَّقة بها وهي تدخل الغرفة. كانت ريتا سنداي متوسِّطة الطول، ولم يكن شَعرُها فاتحًا ولا داكِنًا. في كل ما عدا ذلك لم تكن ملامحها اعتياديَّةً. قَيَّمها الرجال فوجدوها ناقصةً من كل الجوانب تقريبًا. عظام خدها كانت عالية وحادَّة أكثر من اللازم. أنفها كبيرٌ أكثر من اللازم، وفَكُّها عريض أكثر من اللازم، وذقنها بارز للأمام أكثر من اللازم. أفضل ملامحها كانت عيونها، التي لا بأس بها من ناحية

الشكل، وإن كانت رماديَّةً، وتنظر إلى الأشياء بمباشرة شديدة من تحت حاجبين متطابقين. كانت أكبر من أن تُعتَبر شابَّةً، وقد شُطِبَت النساء الأخريات من نفس عمرها من قائمة النساء الصالحات للتقييم، ولكن في حالة ريتا -مع كل عادِيَّتها، وثلاثة عقود من العُذريَّة- كانت لا تزال تحمل شيئًا ما. هل كان تاريخها؟ وُلِدَت مُمرِّضتهم وقابلتهم المحلية في ديرٍ، وعاشت هناك حتى سِنِّ الرُّشد، وتعلَّمَت كل ما تملكه من طب في مستشفى الدير.

خطت ريتا داخل الغرفة الشتوية في ذا سوان. فتحت أزارر معطفها الصوفي الرزين كما لو أن جميع العيون لم تكن مُركَّزة عليها، وسحبت ذراعيها منه. كان الفستان من تحته داكِنًا وخاليًا من الزينة.

اتَّجَهَت مباشرة إلى المكان الذي يرقد فيه الرَّجُل مُدمًّى ولا يزال فاقِدًا للوعي على الطاولة.

قالت لها مارجو: "لقد سخَّنتُ لك الماء يا ريتا. والخِرَق هنا نظيفة. ماذا تريدين أيضًا؟".

"المزيد من الضوء إن أمكن".

"چوناثان يجلب القناديل الاحتياطية والشموع من أعلى".

كانت ريتا قد غسلت يديها وتستكشف برقَّةٍ مدى عمق الجرح الغائر في شَفَة الرَّجُل. "وعلى الأرجح.. شفرة ورَجُل بِيَدٍ رقيقة وثابتة في الحلاقة".

"يستطيع جو أن يفعل ذلك، أليس كذلك يا جو؟".

هزَّ جو رأسه.

"وخمر. أقوى ما لديكم".

فتحت مارجو خزانةً خاصَّةً كانت موصَدةً وأخرجت منها زجاجة خضراء لا يوجد عليها اسم. وضعتها بجوار حقيبة ريتا واتَّجَهَت إليها

كل أعين الشاربين. خُلوُّها من الاسم يعني أنه قد تمَّ تخميرها بشكلٍ غير قانوني؛ ممَّا يعني أنها قوية بما يكفي لتُفقِدَ رَجُلًا وعيه.

رأى الرجلان اللذان يحملان مصابيح فوق رأس الرجل الممرِّضةَ وهي تفحص الثقب الذي كان فمه. سحبت سِنًّا باستخدام إصبعين بلَّلهما الدَّمُ. اتَّجهَت أصابعها الباحثة بعد ذلك إلى شَعره الذي لا زال مُبتلًّا. فحصت كل بوصة في فروة رأسه.

"جروح رأسه في وجهه فقط. كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ. حسنًا، لنُخلِّصْه من هذه الأشياء المبتلَّة".

بدا أن الغرفة جفلت. لا يمكن لامرأة غير متزوجة أن تنزع عن رَجُلٍ ملابسه بدون أن تتسبَّب في اضطراب نظام الأمور.

اقترحت ريتا بنعومة "مارجو، هلَّا أرشَدتِ الرِّجال؟".

أدارت ظهرها وشغلت نفسها بترتيب أشياء من حقيبتها بينما تعطي مارجو إرشادات للرجال كي ينزعوا ملابسه، مُذكِّرةً إيَّاهم برقَّة -"لا نعلم حتى الآن في أي أماكن أخرى قد أصيب. دعونا لا نجعل الأمور أسوأ!"- وفتحت أزارره وأربطته بأصابعها الأموميَّة عندما منعهم سُكرُهم أو تخبُّطُهم من فعل ذلك. تكوَّمَت ملابسه على الأرض. سترة كحلية بجيوب كثيرة مثل سترات بحَّارة الصنادل، ولكنها صُنِعَت من قماش أكثر جودة. حذاء بنعل جديد من الجلد القوي، حزام حقيقي بينما قد يكتفي بحَّارة النهر بحبل، سروال داخلي من قماش الچرسيه، وسترة مغزولة تحت قميص من اللُّبَّاد.

"مَن هو؟ هل تعرفونه؟" سألت ريتا، بينما لا تزال تنظر بعيدًا.

"لا أظنُّ أننا رأيناه أبدًا من قبل. ولكن من الصعب أن نَحكُم في حالته هذه".

"هل خلعتم سُترَتَه؟".

"نعم".

"ربما يمكن لچوناثان أن يبحث في جيوبه".

عندما استدارت لتُواجِه الطاولة مرة أخرى كان مريضها عاريًا، ووُضِع منديلٌ أبيض ليحمي موقع حِشمَته وسُمعَة ريتا.

شعرت بعيونهم ترمش نحوها، ثم بعيدًا مرّةً أخرى.

"جو، احلق شفته العُليَا بحِرصٍ قدر إمكانك. لن تتمكّن من فعل ذلك بشكل ممتاز، ولكن حاوِلْ بكل جهدك. كُنْ حريصًا حول أنفه- إنه مكسور".

بدأت في الفحص. وضعت يدها أولًا على قدميه وحركتهما نحو كاحليه وساقه وسِمَّانته. برزت يداها البيضاوان مقابل جلده الأكثر سُمرة.

لاحظ حفَّار الحصى "إنه رجلٌ يقضي وقتًا في الخلاء".

فحصت العظم والأربطة والعضلات، وطوال الوقت كانت عيونها تتحاشى عُريَه كما لو كانت أطراف أصابعها ترى أفضل من عيونها. عملت بعُجالةٍ لأنها تعرف بسرعة أنه هنا على الأقل كل شيء على ما يرام.

تحرّكت أصابع ريتا عند خصر الرجل من الجهة اليمنى حول المنديل الأبيض ثم توقّفت

"ضوءٌ هنا من فضلكم".

كان المريض يعاني من خدوش شديدة على أحد جانبيه. أمالت ريتا زجاجة الخمر الخضراء على قماشة ووضعتها على الجرح. قلب الرِّجال الواقفون حول الطاولة شفاههم تعاطُفًا ولكن المريض نفسه لم يتحرّك.

استلقت يد الرجل بجوار خصره. كانت متورِّمةً حتى ضعف ما يجب أن يكون عليه حجمها، ودامية، وفاقِدةً للَّون. مسحت بالخمر هنا أيضًا، ولكن بعض العلامات لم تَزُل، مع أنها مسحت عدة مرَّات. بُقَع حِبريَّة اللون، ولكنها ليست داكِنةً كالكدمة، ولا كالدماء الجافَّة. رفعت اليد وقد أثارت فضولها ودَقَّقَت النظر فيها عن قرب.

قالت: "إنه مُصوِّر".

"يا إلهي! كيف عرفتِ؟".

"من أصابعه. هل ترى هذه العلامات؟ إنها بقع نيترات الفضَّة. إنها ما يستعملونه لتحميض الصور الفوتوغرافية".

استغلَّت الدهشة التي سبَّبها هذا الخبر كي تعمل حول المنديل الأبيض. ضغطت برفقٍ على جذعه، ولم تجد دليلًا على إصابة داخلية، فصعدت وصعدت يتبعها الضوء حتى تراجع المنديل الأبيض إلى الظُّلمة وأمكن للرجال أن يطمئنُّوا إلى أن ريتا عادت بسلام إلى نطاق اللياقة.

لم يَقِلَّ مظهر الرَّجُل شبحيَّةً بحلق نصف ذقنه الكثيف. أصبح الأنف المعوجُّ أكثر بروزًا، والقَطعُ في شفته الذي امتدَّ نحو خده أصبح أسوأ عشرة أضعاف لأنه أصبح مرئيًّا. كانت العيون متورِّمةً، حتى إنها أُغلِقَت تمامًا. ارتفع الجلد على جبهته في كتلة دامية، استخرجت منها شظايا ما بدا كأنه خشبٌ داكن اللون، ونظَّفَتها، ثم حوَّلَت انتباهها إلى الشفة المجروحة.

ناولتها مارجو إبَرًا وخيوطًا عُقِّموا في الخمر. وضعت ريتا طرف الإبرة في المكان وغرستها في الجلد. وبينما تفعل ذلك، اهتزَّ ضوء الشمعة.

أمرتهـم "فليجلـس الآن كل مَـن يحتـاج أن يجلـس. مريـضٌ واحـد يكفـي".

ولكن لم يكن أي شخص مستعدًّا للاعتراف بأنه يحتاج أن يجلس.

صنعـت ثـلاث غـرز مُرتَّبـة سـاحِبةً الخيـط، وأدار الرجـال عيونهـم أو نظـروا مندهشـين لرؤيـة وجـه إنسـان يُرمَّـم كـما لـو كان ياقـةَ قميـص مُمزَّقـة.

عندما انتهت كان هناك ارتياح مسموع.

نظرت ريتا إلى عمل يديها.

اعـترف أحـد بحّـارة الصنـادل "يبـدو أفضـل قليـلًا الآن، أو أننـا قـد اعتدنـا النظـر إليـه".

"هممم" قالت ريتا وكأنها توافق.

مـدَّت يدهـا إلى منتصـف وجههـا وأمسـكت بأنفه بـين إبهامها وسبابتها وأدارتـه. صـدر صـوتٌ واضـح لغضاريـف وعظـام تتحـرَّك -قرمشـة هـي دَهْـكٌ في نفـس الوقـت- واهتـزَّ ضـوء الشـموع بعنـف.

"أمسـكوا بـه، سريعًـا!" صاحـت ريتـا، وللمـرة الثانيـة في تلـك الليلـة حمـل المزارعـون ثِقَـل رَجُـلٍ يتهـاوى في أذرعهـم، بينـما عجـزت قدمـا حفَّار الحـصى عـن حملـه وسـقط عـلى الأرض. بذلـك سـقطت شـموع الرجـال الثلاثـة إلى الأرض لتنطفـئ وهـي ترتطـم بـالأرض، وانطفـأ المشـهد كلـه معهـا.

"حسـنًا" قالـت مارجـو عندمـا أضيئـت الشـموع مـرّة أخـرى، "يـا لهـا مـن ليلـة. مـن الأفضـل أن نضـع هـذا الرجـل المسـكين في غرفـة الحجيـج". في الزمـن الـذي كان فيـه جـسر رادكـوت هـو الجـسر الوحيـد الـذي يعـبر النهـر لمسـافة أميـال، كان العديـد مـن المسـافرين يتوقَّفـون في رحلتهـم عنـد النُّـزُل، ومـع أنهـا نـادرًا مـا تُسـتَخدَم هـذه الأيـام إلا أن هنـاك غرفـة

في نهايـة الرَّدهـة لا تـزال تُسـمَّى غرفـة الحجيـج. أشرفـت ريتـا عـلى نقـل مريضهـا ثـم وضعـه عـلى السريـر ووضـع بطانيـة فوقـه.

قالت: "أودُّ أن أرى الطفلة قبل أن أذهب".

"سـترغبين في إلقـاء صـلاة عـلى الضئيلـة المسـكينة. بالطبـع". بالنظـر إلى الوقـت الـذي قضتـه في الديـر، لم تكـن ريتـا تحـلُّ محـلَّ الطبيـب في ذهـن السُّـكَّان المحلِّيِّـين فقـط، ولكـن بضغطـة بسـيطة يمكنهـا أيضًـا أن تحـلَّ محـلَّ الكاهـن. "هـا هـو المفتـاح. خـذي مصبـاح".

ارتـدت ريتـا قُبَّعتهـا ومعطفهـا مـرَّةً أخـرى ولفَّـت شـالًا حـول وجههـا وخَطَـت نحـو الخـارج.

لم تكـن ريتـا سـنداي تخـشى الجُثَـث. كانـت مُعتـادةً عليهـم منـذ الطفولـة- لقـد وُلِـدَت مـن واحـدة. هـذا هـو مـا حـدث: منـذ ثلاثـة وثلاثـين عامـا، ألقـت امـرأة في أواخـر حَملِهـا، ويائسـة، بنفسـها في النهـر. عندمـا لاحظهـا بحَّـارٌ عـلى صنـدل وأخرجهـا، كانـت قـد أشرفـت عـلى الغـرق. أخذهـا إلى الراهبـات في جودسـتو الـلاتي مرَّضن الفقـراء والمحتاجين في مستشـفى الديـر. عاشـت وقتًـا كافيًـا كي يبـدأ الطَّلـق. أضعفتهـا صَدمـةُ الإشراف عـلى الغـرق؛ فلـم تبـقَ فيهـا قُـوَّةٌ للـولادة، وماتـت بينـما بطنهـا تتمـوَّج بالتقلُّصـات القويَّـة. شـمَّرَت الأخـت جريـس أكمامهـا وتناولـت مشرطًـا وقطَعَـت قوسًـا أحمـر ضحـلًا في جـذع المـرأة الميتـة وأخرجـت منـه رضيعًـا حيًّـا. لم يكـن أحـدٌ يعـرف اسـم أُمِّهـا، ولم يكونـوا سيعطونه للطفـل بـأي حـال: كانـت المتوَفَّـاة خاطِئـةً ثـلاثَ مـرَّات؛ بفعـل الزِّنـا، وبفعـل قتـل النفـس، وبمحاولـة قتـل جنينهـا. سيكون مـن الإثـم تشـجيع الطفلـة عـلى تذكُّرهـا. أسـموا الطفلـة مارجريتـا عـلى اسـم القديسـة مارجريتـا، واختصـارًا، ينادونهـا ريتـا. أمَّـا عـن اسـم العائلـة، ففـي غيـاب والـد مـن لحـم ودم أسـموها سَـنْداي (الأحـد)، عـلى اسـم يـوم الـرَّبِّ السـماوي، مثـل جميـع الأيتـام الآخريـن في الديـر.

أبلـت ريتـا الصغـيرة بـلاءً حسـنًا في دروسـها، وأظهـرت اهتمامًـا بالمستشـفى؛ فشـجَّعوها عـلى المسـاعدة. كانـت توجـد مهـام يمكـن حتـى لطفلـة القيـام بهـا. في الثامنـة، كانـت تُرتِّـب الأسِرَّة وتنظـف المـلاءات الداميـة والخِـرَق. في الثانيـة عـشرة، كانـت تحمـل جـرادِلَ المـاء السـاخن وتسـاعد في تجهيـز المـوتى. مـع وصـول ريتـا لسـن الخامسـة عـشرة، كانـت تنظِّـف الجـروح وتَجـبُر الكسـور وتخيـط الجلـد، وعنـد عمـر السـابعة عـشرة، لم تَعُـد توجـد الكثـير مـن أعـمال التمريـض التـي لا تقـدر عـلى فعلهـا، بمـا في ذلـك التوليـد بنفسـها. كان يمكـن بسـهولة أن تبقـى في الديـر وتصبـح راهِبـةً تَهَـبُ حياتهـا للـه والمـرضى، لـولا أنهـا في يـومٍ -وبينـما تجمـع الأعشـاب عـلى ضفَّـة النهـر- خطـر لهـا أن هنـاك حيـاة أبعـد مـن هـذه. كانـت تعتـبر شرِّيـرة وفقًـا لـكل مـا تعلَّمَتـه. ولكـن بـدلًا مـن الشـعور بالذنـب اجتاحهـا شـعور بالارتيـاح. إن لم تكـن الجنـة موجـودة، فـلا يوجـد جحيـم. وإن لم يكـن الجحيـم موجـودًا، فـلا تَكُـن أمُّهـا المجهولـة تعـاني ويـلات العـذاب الأبـدي، ولكنهـا فقـط رحَلَـت، غائبـة لا تمسُّـها المعانـاة. قالـت للراهبـات عـن تَغـيُّر رغبتهـا، وقبـل أن يفيقـوا مـن هَلَعِهـم لفَّـت قميـص نـومٍ وزوجًـا مـن السراويـل الداخليـة معًـا ورحلـت بـلا حتـى فُرشـاة شَـعر.

صاحت بها الأخت جريس: "وماذا عن واجبك؟ تجاه الله والمرضى".

"المـرضى في كل مـكان" ردَّت صائحـة. ولكنهـا قالـت بصـوت مُنخَفِـض: "وكذلـك اللـه"، ولم تسـمعها ريتـا.

عملـت الممرضـة الشـابَّة أوَّلًا في مستشـفى في أوكسـفورد، ثـم عندمـا لوحِظَـت موهبتهـا كممرِّضـة عامَّـة ومسـاعِدَة لرَجُـل طِـبٍّ مُتنـوِّر في لندن. قـال لهـا أكـثر مـن مـرة عندمـا بـدا واضحًـا أن أحـد المـرضى مُعجَـبٌ بهـا: "سـتكونين خسـارة كبـيرة لي أنـا والمهنـة عندمـا تتزوَّجـين".

وكانت تَردُّ في كلِّ مرَّة: "أتزوَّج؟ لست أنا".

"لِمَ لا؟" ألحَّ عندما سمع نفس الإجابة عشرات المرات.

"أنا معتادة على العالم أكثر كممرِّضة عني كزوجة وأم".

كانـت هـذه نصـف إجابـة، وأتى النصـف الثـاني بعـد بضعـة أيـام. فحصـوا أُمَّـا شـابَّةً مـن نفـس عمـر ريتـا. كان هـذا حَملهـا الثالـث، وجـرى كل شيء بسلاسَـةٍ سـابقًا، ولم يكـن يوجـد سـبب مُحـدَّد ليخشـوا الأسـوأ. لم يكـن وضـع الجنـين غريبًـا، ولم يسـتمر الطَّلـقُ لمـدَّة طويلـة بـلا داعٍ، ولم يكـن يوجـد احتيـاج للجِفْـت، ونزلـت المشـيمة نظيفـة. كل مـا في الأمـر أنهـم لم يسـتطيعوا إيقـاف النزيـف. نزَفَـت المـرأة ونزفـت ونزفـت حتـى ماتـت.

تحـدَّث الطبيـب مـع الـزوج بينـما ريتـا تجمـع المـلاءات الملطخـة بالدمـاء بخـبرة وكفـاءة. كانـت قـد كفَّـت عـن عَـدِّ الأمهـات الـلاتي يتوفـين منـذ زمـن.

عندمـا دخـل الطبيـب كانـت قـد أعـدَّت كل شيء لرحيلهـم، وتركـوا البيـت في صمـت. بعـد بضعـة خطـوات قالـت: "لا أريـد أن أمـوت هكـذا".

قال لها "لا ألومك".

كان للطبيـب صديـق. رجـل يـزوره كثـيراً في وقـت العشـاء، ولا يرحـل حتـى النهـار التـالي. لم تتحـدَّث ريتـا عـن ذلـك أبـدًا، ولكنـه أدرك أنهـا تعـي الحـب الـذي يشـعر بـه نحـو الرجـل. بـدا لـه أن ذلـك لا يُربِكهـا، وكانـت كتومـة. بعـد التفكـير في الأمـر لعـدَّة شـهور قـدَّم لهـا اقتراحًـا مفاجئًـا.

سـألها في أحـد الأيـام بـين مواعيـد المـرضى: "هـل تتزوَّجينـي؟ لـن يوجـد.. تعرفـين مـا أقصـد. ولكـن ذلـك سـيكون مناسـبًا، لي ويمكـن أن يكـون بـه مزايـا مـن أجلـك. أمـان مـاليٌّ. غُـرَفٌ خاصَّـة بـك هنـا في المنـزل. سـيحبُّ المـرضى ذلـك".

فكَّرَت في الأمـر ووافقَـت وأصبحـا مخطوبَـيْن، ولكـن قبـل أن يتزوَّجـا أصيـب بالالتهـاب الرئـوي، ومـات صغـيراً جـدًّا. في الأيـام الأخـيرة مـن حياته اسـتدعى محاميـه ليغـيِّر وصيَّتـه. في الوصيـة تـرك المنـزل وأثاثـه للرَّجُـل، ولريتـا، تـرك مبلغًـا كبـيراً مـن المـال يكفـي لمنحهـا اسـتقلالًا متواضعًـا، وخطـاب توصيـة مَدَحَهـا فيـه بأسـمى الكلـمات، كـما تـرك لهـا مكتبتـه. باعـت الكتـب غـير الطِّبِّيَّـة والعِلميَّـة، ووَضَعَـت البقيـة في صناديـق نقلتهـا عـبر النهـر. عندمـا وصـل المركـب إلى جودسـتو نظَـرَت إلى الديـر وهـي تمـرُّ بـه وشـعرت بوخـزٍ مُفاجـئ اسـتدعى إلى ذهنهـا إلههـا المفقـود.

"هنا؟" سألها قائد المركب مُخطِئًا تفسير طبيعة الحِدَّة في ملامحها.

"استَمِرَّ" قالت له.

واسـتمرُّوا ليـومٍ وليلـة آخريـن حتـى وصلـوا إلى رادكـوت. أعجبهـا منظـر المـكان.

"هنا" قالت لقائد الصَّندَل. "هذا كافٍ".

اشـترت كوخًـا ووَضَعَـت كتبهـا عـلى الأرفـف، وأخـبرت الأُسَر الأفضـل في المنطقـة أن معهـا خطـاب توصيـة مـن أحـد أفضـل رجـال الطِّـبِّ في لنـدن. بعـد أن عالَجَـت بعـض المـرضى ووَلَّـدَت نصـف دسـتة أطفـال أصبـح لهـا مكانـة مسـتقرَّة. العائـلات الأغنـى في المنطقـة لا تـرضى سـوى بريتـا لاسـتقبالهم في الدنيـا ورحيلهـم عنهـا، وكل الأزمـات الطبيـة التـي تتوسَّـط الحالتـين. كان لهـذا العمـل أجـر جيـد وفَّـر دخـلًا كافيًـا ليكمـل ميراثهـا. مـن ضمـن هـؤلاء المـرضى كان هنـاك عـدد لديـه الإمكانيـات التـي تسـمح لهـم أن يكونـوا مـرضى بالوهـم، فتحمَّلَـت انغماسـهم في ذواتهـم لأنـه يسـمح لهـا ماديًّـا أن تعمـل بأجـر قليـل جـدًّا -أو بـلا أجـر تمامًـا- مـع غـير القادريـن. عندمـا كانـت لا تعمـل كانـت تعيـش بتقشُّـفٍ، وتقـرأ قـراءة مُمَنهجَـة في مكتبـة الطبيـب (لم تفكِّـر فيـه أو تُـشِر إليـه كخطيبهـا) وتصنـع الأدويـة.

مـرَّ عـلى ريتـا عـشر سـنوات تقريبًـا في رادكـوت. لم يكـن المـوت يخيفهـا. خـلال هـذه العقـود وبعدهـا اعتنـت بالمحتَضَريـن وشـهدت رحيلهـم وأعـدَّت جثامينهـم. مـوت مـن المـرض، ومـوت خـلال الـولادة، ومـوت بالخطـأ. مـوت عـن طريـق جريمـة مـرَّةً أو مرَّتـين. المـوت كضيـف مُرحَّـب بـه لشـخص في عمـر مُتقـدِّم جـدًّا. كانـت مستشـفى جودسـتو عـلى النهـر؛ ولـذا كانـت جثـث الغرقـى مألوفـةً لهـا.

المـوت غرقًـا هـو مـا كان عـلى بـال ريتـا وهـي تمشي سريعًـا عـبر هـواء الليـل البـارد نحـو المبنـى الخارجـي. الغـرق سـهل. كل عـام يغـترف النهـرُ لنفسـه بعـض الحيـوات. كل مـا يتطلَّبـه الأمـر هـو كأس شراب واحـد زائـد عـن الحـدِّ، وخطـوة واحـدة مُتعجِّلـة، وثانيـة واحدة مـن عدم الانتبـاه. أول غـرق تشـهده ريتـا كان لوَلَـدٍ في الثانيـة عـشرة، أصغـر منهـا بعـامٍ واحـد فقـط في ذلـك الوقـت، وقـد تعـثَّر وهـو يغنِّـي ويتسـكَّع عنـد الهويـس. لاحقًـا كان المصطـاف الـذي تعـثَّر وهـو يخطـو خارجًـا مـن المركـب وتلقَّـى خبطـة عـلى صدغـه وهـو يقـع. أصدقـاؤه كانـوا سـكارى أكـثر مـن أن يسـاعدوه بفاعليـة. طالـب يسـتعرض مهارتـه قفـز مـن قِمَّـة جـسر ولفركـوت في نهـار خريفـي ذهبـي الضـوء، ليفاجـأ بالعمـق والتيـار. النهـر نهـرٌ، أيًّـا كان الفصـل. كانـت توجـد شـابَّات مثـل أمهـا. أرواح مسـكينة غـير قـادرة عـلى مواجهـة مسـتقبل مـن العـار والفقـر وقـد هجرهـنَّ عُشَّـاقهن وعائلاتهـن، فلجـأن إلى النهـر ليضعـن حـدًّا لـكل هـذا. ثـم كان الرُّضَّـع، قِطَـعٌ مـن اللحـم غـير مرغـوب فيهـا. بدايـات صغـيرة لحيـاة، غرقـوا قبـل أن ينالـوا فرصـة للعيـش. رأت هـي كل هـذا.

عنـد بـاب الغرفـة الطويلـة أدارت ريتـا المفتـاح في القفـل. بـدا الهـواء في الداخـل أكـثر بـرودة مـن الخـارج، ورسـم حـدود خريطـة واضحـة مـن الممـرَّات والفراغـات خلـف فتحتـي أنفهـا صاعِـدًا نحـو جبهتهـا. حمـل الصقيـع لَسـعَةَ الأرض والحجـر وطغـى النهـر عليهـا كلهـا. هـبَّ ذهنهـا فـورًا مُنتبِهًـا.

تذبـذب الضـوء الخافـت للمصبـاح طويـلًا قبـل أن يصـل إلى أركان الغرفـة الحجريـة، ولكـن... الجثـمان الصغـير كان مضـاءً، يتـلألأ بوميضٍ أخـضرَ شـاحِبٍ. كان تأثـيرًا يُسـبِّبه الشـحوب الشـديد للجسـد، ولكـن صاحـب الخيـال الواسـع قـد يظـنُّ أنـه يُشـعُّ مـن الأطـراف الصغـيرة نفسـها.

اقتربـت ريتـا مُدرِكـةً الانتبـاه غـير المعتـاد الـذي تحـرك بداخلهـا. قدَّرَت أن الطفلـة في حـدود الرابعـة. بشرتهـا بيضـاء وترتـدي أبسـط رداءٍ تَـرَكَ ذراعيهـا وكاحليهـا عاريَـيْن، والقـماش الـذي لا يـزال مبتـلًا يتمـوَّج حولهـا.

بـدأت ريتـا فـورًا روتـين مستشـفى الديـر. بحَثَـت عـن النَّفَـس. وضعـت إصبعـين عـلى رسـغ الطفلـة لتحـسَّ بالنبـض. رفعـت الجفـن لتفحـص بؤبـؤ العـين. وبينـما هـي تفعـل كل هـذا، سـمعت في رأسـها صـدى الصـلاة التـي كانـت سـترافق الفحـص في كـورس مـن الأصـوات النسـائية الهادئـة: أبانـا الـذي في السـماء... سـمعتها ولكـنَّ شَـفَتَيْها لم تتحـرَّكا مـع الكلـمات.

لا تَنفُّس. لا نَبض. تمَدُّدٌ كامِلٌ في بؤبؤ العين.

كان التَّيقُّـظ الغريـب لا يـزال حيًّـا داخلهـا. وقفـت أمـام الجسـد الصغـير وتسـاءلت مـا الـذي يحفِّـز ذهنهـا إلى هـذا الحـدِّ. ربمـا لا شيء سـوى الهـواء البـارد.

يمكنـك أن تقـرأ الجسـد الميـت إن كنـتَ قـد رأيـتَ مـا يكفـي منهـا. كان كل شيء موجـودًا إن كُنـتَ تعـرف كيـف تنظـر مثـل ريتـا، الــ "متـى" والــ "كيـف" والسـبب. بـدأت في فحـص الجُثَّـة بشـكل كامـل ودقيـق، حتـى إنهـا نسـيت أمـر الـبرد تمامًـا. في وميـض ضـوء المصبـاح، نظَـرَت وحدَّقَـت في كل بوصـة مـن جلـد الطفلـة. نظـرت داخـل الأذن والأنـف. استكشـفت فـراغ الفـم، ودرسـت كل إصبـع يـد وقـدم. في النهايـة وقفـت عـلى مسـافةٍ منهـا وعبَسَـت.

شيء ما غير سليم.

راجعت ريتا كلَّ ما تعرفه برأسها مائِلةً إلى جانب واحد وفمها مُلتَوٍ في حيرة. كانت تعرف كيف يتجعَّد الغرقى ويتورَّمون وينتفخون. كانت تعرف كيف يتخلخل جلدهم وشعرهم وأظافرهم. لم يوجد هنا أيٌّ من ذلك، ولكن ذلك لا يعني سوى أن الطفلة لم تَبقَ في الماء مدَّةً طويلة. ثم كان أمر المخاط. يترك الغرقُ رغاويَ على أطراف الفم وفتحتي الأنف، ولكن لم يوجد أيٌّ من ذلك على وجه هذه الجثة. كان لذلك أيضًا تفسيرُه. كانت الفتاة ميِّتةً بالفعل عندما دخلت إلى الماء. لا بأس حتى الآن. كانت البقية هي ما أزعجها. إن لم تغرق فما الذي حدث لها؟ كانت الجمجمة سليمة والأطراف غير مضروبة. لم توجد كدماتٌ على العنق ولا عظام مكسورة. لم يكن ثمَّة دليل على الإصابة في الأعضاء الداخلية. كانت ريتا تعرف المدى الذي يمكن أن تصل إليه قسوة الإنسان: فحصت أعضاء الفتاة التناسلية وعرفت أنها لم تكن ضحية تَدَخُّل غير طبيعي.

هل يمكن أن تكون الطفلة قد ماتت موتًا طبيعيًّا؟ ولكن لا يوجد مظهرٌ مَرئيٌّ للمرض. بل إن حَكَمنا على وزنها وبشرتها وشعرها فستكون بصحَّةٍ جيِّدة بشكل استثنائي.

كل هذا كان مُربِكًا بما يكفي، ولكن كان يوجد المزيد. حتى لو قدرنا أن الطفلة ماتت لأسباب طبيعية و -لأسباب لا يمكن تصوُّرها- تمَّ إلقاؤها في النهر، فيجب أن تظهر جروحٌ في الجلد حدَثَت بعد الوفاة. يتسبَّب الرمل والحصى الصغير في سحجات على الجلد، والأحجار تخدش، والمخلَّفات على أرض النهر تقطع الجلد. يمكن للماء أن يكسر عظام رَجُلٍ والجسر سيُهشِّم جمجمته. مهما فحصتَها كانت هذه الطفلة خالية من العلامات والكدمات والسحجات والجروح. كان الجسد الصغير نقيًّا. "مثل دُميَة" قال لها چوناثان عندما وصف الفتاة وهي تسقط بين ذراعيه، وفهمت لِمَ ظنَّ ذلك. مَرَّرَت ريتا أطراف أصابعها فوق كعوب أقدام الفتاة حول الطرف الخارجي

لإصبعها الكبير، وكانوا مُتقنين حتى إنَّكَ ستظنُّ أنها لم تطأ الأرض أبدًا. أظافرها كنت رقيقةً وصَدَفيَّةً كأظافر الرَّضيع. كان غريبًا أن الموت لم يترك عليها علامةً، ولكن الحياة أيضًا لم تترك علامةً، وكان ذلك أمرًا فريدًا بين كل ما اختبرته ريتا.

يحكي الجسدُ قصَّةً دائمًا- ولكن هذه الطفلة صفحة بيضاء.

مدَّت ريتا يدها إلى المصباح الموضوع على خُطَّافه. أدارت ضوءه على وجه الطفلة، ولكنها وجدته خالِيًا من التعبير كما بقيَّتها. كان من المستحيل أن تُحدِّد ما إن كانت تلك الملامح الصريحة وغير المكتملة قد حملت بصمةَ جَمالٍ أو خَفَرٍ أو تَرقُّب أو شقاوة خبيثة. إن كان ثمة فضول أو سكينة أو نفاد صبر هنا فلم يكن عند الحياة وقتٌ كي تَحفُرَه بشكل دائم.

قبل وقت قصير جدًّا كان جسد وروح هذه الفتاة الصغيرة مُتَّحِدَيْن في أمان. وجدت ريتا نفسها فجأة في قبضةٍ عاصفة من المشاعر بالرغم من كل التدريب الذي حصلت عليه وكل خبرتها، وتمنَّت وجود الله لمرَّةٍ ليست الأولى منذ افترقا. الله الذي كان في طفولتها قد رأى كل شيء، وفهم كل شيء. كم كان الزمن بسيطًا عندما كانت جاهِلةً ومرتبكة، ولكن تستطيع أن تضع ثقتها في أبٍ يفهم كل شيء بشكل كامل. كانت تستطيع تحمُّلَ أنها لا تعرف شيئًا عندما كانت متأكِّدةً أن الله يعرف. ولكن الآن...

أمسكت يد الطفلة -اليد المُتقَنَة بأصابعها الخمسة المُتقَنَة وأظافرها المتقنة- ووضعتها في كفِّها المفتوحة وأغلقتها بيدها الأخرى.

هذا خطأ! كله خطأ! لا يجب أن تكون الأمور هكذا!

وعندها حدث ما حدث.

المعجزة

فتَّش چوناثان جميع جيوب الرجل المصاب قبل أن تلقيها مارجو في سَطلٍ من الماء النظيف. يَئِسوا:

محفظة واحدة، انتفخت من الماء، تحتوي مبلغًا من المال يُغطِّي جميع أنواع المصاريف، ويبقى منه ما يسمح بجميع المصاريف، ويبقى ما يكفي ليدعوهم جميعًا إلى الشراب عندما تتحسَّن حالته.

منديلٌ واحدٌ، مُتَّسِخ.

غليون واحد، سليم، وعلبة من الصفيح تحوي تبغًا. عندما نزعوا غطاءها وجدوا المحتويات جافَّةً فعلَّقوا "على الأقل سيسرُّه ذلك".

واحتاروا في أمر حلقة يتَّصِل بها عَددٌ من الأدوات الدقيقة- تساءلوا: هل يُصلِح ساعات؟ صانع أقفال؟ لص؟ حتى أخرجوا الشيء التالي.

صـورة. ثـم تذكَّـروا البُقَـع الدَّاكنـة عـلى يـدي الرجـل، وفكَّـرَت ريتـا أنـه ربمـا كان مُصـوِّرًا؛ مـمَّا أعطـى ثِقَـلًا لتصوُّرهـم. قـد تكـون لـلأدوات علاقـة بمهنـة الرجـل.

أخـذ جـو الصـورة مـن ابنـه ومسـحها بحـرص بطـرف كُمِّـه الصـوفي لينشـفها.

أظهرت طرف حقل وشجرة مُرَّان، ولا شيء غير ذلك.

قال أحدهم: "رأيتُ صورًا أجمل منها".

وقال آخر: "تحتاج إلى برج كنيسة أو سقيفة كوخ".

قـال ثالـث وهـو يَحـكُّ رأسـه في حـيرة: "لا يبـدو أنهـا صـورة أي شيء مُحـدَّد".

قال جو وهو الوحيد الذي تعرَّف عليه: "تروسبري ميد".

لم يعرفـوا مـاذا يقولـون؛ فهـزُّوا أكتافهـم ووضعـوا الصـورة عـلى الـرَّفِّ كي تجـفَّ، وانتقلـوا إلى الـشيء التـالي، وآخـر مـا خـرج مـن جيـوب الرجـل، وهـو:

علبـة واحـدة مـن الصفيـح، بهـا لفافـة مـن الكـروت الصغـيرة. قـشَّروا التـي عـلى الوجـه وناولوهـا إلى أويـن -أمهرهـم في القـراءة- الـذي رفـع الشَّـمعة وقـرأ بصـوت عـالٍ:

هنري دونت من أوكسفورد

صور شخصية، مناظر طبيعية، مشاهد من المدينة والقرية.

أيضًا: كروت بريدية، كُتُب إرشادية، براويز للصور

تخصُّص في مناظر التامز.

صاحوا: "كانت على حقٍّ. قالت إنه مُصوِّر، وها هو الدليل".

ثم قرأ أوين عنوانًا في شارع هاي ستريت في أوكسفورد.

سألت مارجو "مَن سيذهب إلى أوكسفورد غدًا؟ هل يعرف أحد؟".

اقترح حفَّار الحصى "زوج أختي يدير ناقلة الجبن. لا مانع عندي أن أذهب إلى منزلها الليلة وأسأله".

"الناقلة ستأخذ يومين أليس كذلك؟".

"لا يمكن أن نترك عائلته قَلِقَةً عليه ليومين".

"بالتأكيد لن يذهب زوج أختك غدًا؟ إن ذهب فلن يعود في موعد الكريسماس".

"السِّكَّة الحديد إذن".

تَقرَّر أن يذهب مارتينز. لم يكن له احتياج في المزرعة في اليوم التالي، ولديه أخت تعيش على بُعد خمس دقائق من المحطَّة في ليكلايد. سيذهب إلى منزلها الآن كي يكون مُستعدًّا عند موعد القطار المُبكِّر. أعطته مارجو أُجرَةَ القطار، وكرَّر العنوان حتى عرفه جيِّدًا، ثم انطلق بشيلينج في جيبه وقصة جديدة جدًّا على لسانه. كان لديه ستة أميال من شاطئ النهر ليحفظ خلالها قصَّته، وعند وصوله إلى منزل أخته كان سيجيدها.

بقي الشاربان الآخران. النوع المعتاد من الحكي انتهى لهذه الليلة -من سيتوقَّف ليحكي حكاية بينما حكاية تحدث بالفعل؟- فأعادوا ملء أقداحهم وكؤوسهم وأعادوا إشعال غلايينهم واستقرُّوا على مقاعدهم. وضع جو أغراض الحلاقة جانبًا، وعاد إلى مقعده، حيث سعل سُعالًا مكتومًا كل فترة. راقب جوناثان الحطب في نار المدفأة وتَفحَّص مستوى الشموع من على مقعده بجوار النافذة. نكَزَت مارجو الملابس داخل سطلٍ بمجداف قديم ولَفَّتهم، ثم أعادت المقلاة المليئة بالبيرة المُبهرة على الموقد مرَّةً أخرى. اختلطت رائحة جوزة

الطيـب والفلفـل الحلـو برائحـة التبـغ والخشـب المحـترق، وتراجَعَـت رائحـة النهـر.

بـدأ الشـاربون في الـكلام وفي إيجـاد الكلـمات التـي تُحـوِّل أحـداث الليلـة إلى قصَّـة.

"عندمـا رأيتـه هنـاك عنـد البـاب دُهِشـت. لا ذُهِلـتُ. هـذا مـا شـعرت بـه. ذُهِلـتُ!".

"لقد ذُهِلتُ. حقًّا".

"وأنا أيضًا. لقد صُدِمتُ وذُهِلتُ. وماذا عنك؟".

كانـوا جامِعـي كلـمات، كـما كان الكثـير مـن حفَّـاري الحـصى جامِعـي حفريَّـات. يبقـون آذانهـم مُنتَبِهـة باسـتمرار مـن أجـل الكلـمات النـادرة والغريبـة والفريـدة.

"أظنُّ أني قد صُعِقتُ".

جَرَّبوهـا كي يتذوَّقوهـا ويَزِنوهـا بألسـنتهم. كانـت جيِّـدةً؛ فمنحـوا زميلهـم هـزَّاتِ رأسٍ مُعجَبـة.

أحدهـم كان جديـدًا عـلى الحـكي وعـلى ذا سـوان. لا يـزال يتحسَّـس خطواتـه "مـاذا عـن "مشـدوه"؟ هـل يمكننـي أن أقـول ذلـك؟".

"لِمَ لا؟" شجَّعوه. "قُلْ "مشدوهًا" إن أردتَ".

دخـل الـذي يصلـح المراكـب. يمكـن للمركـب أن يحـكي حكايـة أيضًـا، وقـد ذهـب لـيرى مـا لديهـا لتقولـه. نظـر إليـه جميـع مـن بالحانـة.

"إنــه هنــاك" أخبرهــم، "مُحطَّمــة مــن جهــةٍ واحــدة. جانبــه مُهشَّــم بفظاعـة، ويتسَّرب إليـه المـاء. لقـد كان نصفـه تحـت المـاء. تركتـه مقلوبًـا عـلى الـبَرِّ، ولكـن لا يوجـد شيء يمكـن فعلـه. لقـد انتهـى أمـره الآن".

"ما الذي تقترح أن نفعله؟ هل اصطدم بالرصيف؟".

هـزَّ الرجـل الـذي يُصلِح السُّفُن رأسـه بخبرة "لقـد وقـع شيء وتحطَّـم فـوق المركـب"، ونـزل بيـده إلى الأسـفل بقـوَّة عـبر الهـواء، وصـدَمَ يـدًا بالأخـرى ليُبـيِّن مـا يقصـده. "الرصيـف، لا. كان المركـب سـيتحطَّم مـن جانبـه نحـو الداخـل".

تجـوَّل الشـاربون بحَكيِهـم بطـول النهـر، فرسـخًا بفرسـخ، وجسرًا بجسر، مُقدِّريـن مقـدار الخـراب الـذي يحـلُّ عـلى الإنسـان والمركـب عنـد كل خطـر. جميعهـم كانـوا رِجـالَ النهـر بشـكل أو بآخـر، إن لم يكـن بالمهنـة، فبالارتبـاط الطويـل. وكان لـكل رَجُـلٍ كلمتـه وهـم يحاولـون استنباط مـا حـدث. حطَّمـوا المركـب في أذهانهـم عنـد كل سَـدٍّ وكل جسر وكل سـاقية بطـول النهـر، ولم يكـن أي منهـم صحيحًـا. ثـم أتـوا إلى ديڤيلـز ويـر (هويـس الشـيطان).

كان للهويـس قوائـم رأسـية مـن خشـب المُـرَّان الصُّلـب عـلى مسـافات متسـاوية عـبر النهـر، وبينهـم امتـدَّت مسـاحات عريضـة مـن الخشـب مثـل الحوائـط يمكـن رفعهـا أو خفضهـا حسـب التيـار. كان مـن المعتـاد أن تترجَّـل عـن مركبـك وتجـرَّه صاعِـدًا المنحنـى الـذي أُعِـدَّ لهـذا الغـرض كي تـدور حـول الهويـس وتدخـل إلى الميـاه عـلى الجانـب الآخـر. كان يوجـد فنـدق عـلى الشـاطئ، وبالتـالي كان مـن الممكـن دائمًـا أن تجـد شـخصًا يُعينُـكَ مقابـل ثمـن مـشروب. ولكـن أحيانًـا -عندمـا كانـت الألـواح مرفوعـةً، والمركـب دقيـقَ الحجـم، والنهـر هادئًـا، والبَحَّـار صاحـب خـبرة كبـيرة- يمكـن أن يوفِّـر الشـخصُ قليـلًا مـن الوقـت ويبحـر عبرهـا. سـيكون عليـه أن يحـاذي مركبـه بحـرصٍ ولا يجعلـه يميـل. ثـم سـيحتاج أن يشـدَّ راحـة المجاديـف كي لا تنكـسر عـلى القوائـم الضخمـة. إن كانـت ميـاه النهـر عاليـة فسـيحتاج أن ينحنـي أو يلقـي بنفسـه ويسـتلقي عـلى ظهـره في المركـب ليتفـادى أن يصطـدم رأسـه بأعمـدة الهويـس.

قارنوا حجمه بالرجل. قارنوه بالمركب.

سأل جو "هل هذا هو؟ هل أصيب عند ديڤيلز وير؟".

التقط الرجل الذي يُصلِح المراكب قطعة خشب بحجم عود ثقاب من كومة صغيرة. كانت سوداء وصلبة وأكبر الشظايا التي أخرجتها ريتا من جبهة الرجل المصاب. اختبرها بطرف إصبعه وتحسَّس الصلابة الباقية في الخشب برغم تعرُّضها للماء طويلًا. خشب مُران في الأغلب والهويس مبني بخشب المُران.

"أظنُّ".

"لقد مَرَرتُ عبر ديڤيلز وير أكثر من مرَّة"، قال عامل المزرعة، "وأنتَ أيضًا على ما أظن؟".

هزَّ الرجل الذي يُصلِح السُّفُن رأسه "نعم. إن كان مزاج النهر يسمح له".

"هل ستحاول الليلة؟".

"وأغامر بحياتي كي أوفِّر بضع ثوانٍ؟ أنا لستُ أحمقَ لهذه الدرجة".

كان يوجد شعور بالرضا للاستقرار على واحدة على الأقل من جوانب حدث الليلة.

تساءل جو بعد صمتٍ قصير "ومع ذلك إن كان قد حدث له ذلك عند ديڤيلز وير فكيف أتى من هناك إلى هنا؟".

وانطلقت نصف درزينة من النقاشات لتقدِّم نظرية تلو الأخرى وتُختبَر ويُكتَشَف أنها ناقصة. ماذا لو كان قد جدَّف كل المسافة بعد الحادث... بهذه الإصابات؟ لا! ثم تصوَّر أنه قد انجرف مُستلقيًا بين الحياة والموت في المركب حتى وصل إلى رادكوت وعاد إليه وعيه ثم... انجرف؟ مركب بهذه الحالة؟ يناور العَقَبات وحده في الظَّلام رغم أنه معوجٌّ ويدخله الماء طوال الوقت؟ لا!

ودار الكلام ليجدوا تفسيرات تُناسِب نصف المعلومات أو نصفها الآخر، توفِّر الـ "ماذا"، ولكن ليس الـ "كيف" أو الـ "أين"، وليس الـ "لماذا"؟ حتى نضبت جميع التخيُّلات ولم يقتربوا من الإجابة. كيف لم يغرق الرجل؟

لبُرهَةٍ لم يُسمَع صوتٌ سوى صوت النهر، ثم سعل جو بخفَّة والتقط أنفاسه ليتكلَّم.

"لا بُدَّ أن ذلك من فِعل كوايتلي".

نظر الجميع إلى النافذة، ومَن كانوا قريبين بما يكفي نظروا إلى الخارج نحو الليل الناعم حيث أضاء سوادٌ يتحرَّك سريعًا بلمعة سائلة. كوايتلي قائد المعدِّيَّة. يعرف الجميع بأمره. يظهر من وقت لآخر في الحكايات التي يحكونها، والبعض يقسم أنه قابله. كان يظهر عندما تتعرَّض إلى مخاطر في الماء، هيئة هزيلة فارعة، يحايل الماء بعصاه بمهارة حتى يبدو قاربه وكأنه ينزلق، تدفعه قوة تنتمي للعالم الآخر. لا ينطق بكلمة، ولكنه يرشدك بأمان إلى الشاطئ كي تعيش ليوم آخر. ولكن إن خانك حظُّكَ -كما يقولون- فالشاطئ الذي سيأخذك إليه شاطئٌ آخر تمامًا، وتلك الأرواح المسكينة لم تَعُد إلى ذا سوان كي ترفع كأسها وتحكي عن لقائهم.

كوايتلي. هذا سيُحوِّل القصة إلى شيء آخر كلِّيًا.

عبست مارجو التي تحدَّثَت أمُّها وجَدَّتها عن كوايتلي قبل وفاتهما وغيَّرَت الموضوع.

"سيكون استيقاظًا بائسًا للرَّجُل المسكين. أن يفقد طفلة- لا توجد كَسرَة قلب أكثر من ذلك".

كانت توجد همهمة موافَقَة ثم أكملت:

"على كلِّ حالٍ، لماذا يأخذ أبٌ طفلًا إلى النهر في هذا الوقت من الليل؟ إنها حماقة، حتى لو كان وحده، إنما مع طفل...".

هزَّ الآباء في الغرفة رؤوسهم وأضافوا الطيش إلى صفات الرجل الملقى غائِبًا عن الوعي في الغرفة المجاورة.

سعل جو وقال: "كانت فتاة صغيرة طريفة الشَّكل".

"غريبة".

"عجيبة".

"غير مألوفة" صاح ثلاثي من الأصوات.

قال صوت متسائِلٌ: "لم أكن أعرف حتى أنها طفلة".

"لستَ وَحدَكَ".

كانت مارجو تُقلِّب ذلك الأمر في ذهنها بينما الرجال يتكلَّمون عن المراكب والسدود. فكَّرَت في بناتها الاثنتي عشرة وحفيداتها، وعاتَبَت نفسها. الطفل طفلٌ، سواء كان على قَيْد الحياة أو مَيِّتًا.

"كيف لم نَرَه؟!" سألت بصوت أخجلهم جميعًا.

أداروا عيونهم إلى الأركان المظلمة واستجوبوا ذكرياتهم، واستحضروا الرجل المصاب كي يقف مرَّةً أخرى عند الباب. سكنوا صدمتهم مرة أخرى وتأمَّلوا ما لم يكن هناك وقتٌ لتأمُّله وهو يحدث. فكَّروا أن الأمر كان كالحلم أو الكابوس. ظهر الرَّجُل لهم قصَّةً شعبية. كوحش أو غول وتخيَّلوا أن الطفلة لعبة أو دمية.

انفتح الباب كما انفتح من قبل.

رمش الشاربون ليُبعِدوا ذاكرتهم عن الرجل ورأوا هذا: ريتا.

كانت تقف عند الباب حيث وقف الرجل وكانت الفتاة الميتة في ذراعيها.

مـرَّةً أخـرى؟ هـل هـو خطـأ في الزمـن؟ هـل هـم سـكارى؟ هـل فقـدوا عقولهـم؟ لقـد حـدث الكثـير وأذهانهـم ممتلئـة. انتظـروا أن يُصحِّـح العـالم نفسه .

فتحت الجُثَّة عيونها.

تطوَّحَت رأس الطفلة.

أرسَـلَت نظرتُهـا موجـةً قويَّـةً عـبر الغرفـة، حتـى إن كل عـينٍ شـعرَت بتردُّدهـا، كل روح شـعرت بهـا ترسـو.

مـضى وقـتٌ لا يُقـاس، وعندمـا انكـسر الصمـت أخـيراً، كانـت ريتـا هـي مَــن تحدَّثَت.

قالت: "لا أعرف".

كان ذلـك رَدًّا عـلى سـؤال لم يقـدروا أن يسـألوه مـن ذهولهـم- ردًّا عـلى أسـئلة كادت ألَّا تعـرف كيـف تصيغهـا.

عندمـا وجـدوا أن ألسـنتهم لا تـزال في أفواههـم، وأنهـا لا تـزال تعمـل، قالـت مارجـو: "سـألفُّها في شـالي".

رفعـت ريتـا يـدًا مُحـذِّرةً "لا تدعيهـا تتدفَّـأ بسرعـة. لقـد وصَلَـت إلى هـذا الحـال في الـبرد. ربمـا يجـب أن تتدفَّـأ ببـطء".

وضعت المرأة الطفلة على المقعد الملاصق للنافذة.

كانــت بشرتهـا بلـون المـوت. لم يكـن يتحـرَّك فيهـا إلَّا عيناهـا التـي ترمـش وتنظـر.

تَقـدَّم رجـالُ النهـر ومزارعـو الجرجـير وحفَّـارو الحـصى والشـباب والشـيوخ بأيديهـم الصلبـة وأصابعهـم المحمـرَّة ورقابهـم الملطَّخـة وذقونهـم الخَشِـنة في مقاعدهـم، وحملقـوا بحنـينٍ نحـو الطفلـة الصغـيرة.

"إنها تغلق عيونها!".

"هل تموت مرة أخرى؟".

"انظروا! صدرها يرتفع".

"آها! أراه. والآن يهبط".

"والآن يرتفع مرة أخرى".

"هس!".

تحدَّثوا همسًا.

"هل نُبقيها مستيقظة؟".

"هل يمكنكم أن تنزاحوا جانبًا؟ لأستطيع أن أراها تتنفَّس!".

"كيف ترونها؟".

"إنها تأخذ نَفَسًا".

"وتُخرِجه".

"شهيق".

"وزفير".

وقفوا على أطراف أصابعهم ليميلوا إلى الأمام ويسترقوا النظر من فوق الأكتاف ويُضيِّقوا عيونهم إلى داخل دائرة الضوء النابعة من الشَّمعة التي تحملها ريتا فوق الفتاة النائمة. تبعت عيونُهم كُلَّ نَفَس، وبدون أن يدركوا، اتَّبعَت أنفاسهم إيقاع أنفاسها، وكأنَّ رئاتهم قد صنعت منافخ لتنفخ رئتيها الصغيرتَيْن. تمدَّدَت الغرفة نفسها وتقلَّصَت مع تَنَفُّسها.

"لا بُدَّ أن وجود طفلة صغيرة لديك لتعتني بها هو أمرٌ جيِّد". كان مُزارِع الجرجير الأَعجَفُ ذو الأذن المحمرَّة هو مَن تَكلَّم بنبرة تكاد تكون مشتاقة.

"لا يوجد ما هو أحسن من ذلك" اعترف أصدقاؤه بأسى.

لم يرفع چوناثان عينيه عن الفتاة. اقترب شيئًا فشيئًا عبر الغرفة حتى وقف بجوارها. مدَّ يدًا مُتردِّدة، وعندما هزَّت ريتا رأسها، وضعها بحُنُوٍّ على خصلة من شعر الفتاة.

سأل: "كيف فعلتِ ذلك؟".

"لَم أفعله".

"إذًا ما الذي جعلها تعود إلى الحياة مرة أخرى؟".

هزَّت رأسها.

"هل كان أنا؟ لقد قَبَّلتُها كي أوقظها... مثل الأمير في القصَّة".

وقرَّب شَفَتَيْه من شَعرِها كي يوضِّح لريتا.

"لا تَحدُث الأمور بهذا الشكل في الحقيقة".

"هل هي معجزة؟".

عبَسَت ريتا عاجِزةً عن الرَّدّ.

قالت له أُمُّه: "لا تُفكِّر في الأمر الآن. من الصعب فَهمُ الكثير من الأمور في الظلام، ولكنها تستقيم من نفسها في نور النهار. تحتاج الضئيلة إلى أن تنام، لا أن تعبث حولها. هيَّا، لديَّ مَهمَّةٌ لك".

فتحت الخزانة مرَّةً أخرى وأخرَجَت زجاجة. ووضعت ستة أكواب صغيرة على صينية وصبَّت مقدار بوصة من الخمر في كل كوب.

أعطى چوناثان كوبًا لكلِّ واحد من الموجودين.

"أعطِ واحدًا لوالدك". لا يعتاد جو على الشُّرب في الشتاء، وعندما تكون رئتاه مُتعَبَتَيْن. "وماذا عنكِ يا ريتا؟".

"سآخذ واحدًا. شكرًا".

رفعوا أكوابهم إلى شفاههم في حركة مُوحَّدة، وابتلعوا الشراب في رشفة واحدة.

هل كانت معجزة بالفعل؟ كأنهم حلموا بجَرَّةٍ من الذهب ثم استيقظوا ليجدوها على وسائدهم. كما لو كانوا قد حكوا حكاية عن أميرة من الجِنِّيَّات، أنهوها ليجدوها تجلس في ركن من الغرفة وتستمع.

جلسوا صامتين لما يقرب من الساعة يراقبون الطفلة النائمة ويفكِّرون. هل يمكن أن يوجد مكان في البلاد أكثر إثارة هذه الليلة من ذا سوان في رادكوت؟ سيكون بإمكانهم أن يقولوا: لقد كنت هناك.

في النهاية، أرسلتهم مارجو إلى بيوتهم "كانت ليلةً طويلة، ولن يفيدنا شيءٌ أكثر من بعض النوم".

أفرغ الشاربون آخر نقطة شراب من كؤوسهم، ومدُّوا أياديهم ببطء إلى معاطفهم وقُبَّعاتهم. وقفوا على سيقان جعلها الشَّرابُ والسِّحر مُهتزَّةً، وجرُّوا أقدامهم فوق الأرض نحو الباب. دارت التَّمنِّيات بليلة طيبة، وانفتح الباب، واختفوا في الليل واحدًا تلو الآخر، مع الكثير من النَّظَرات إلى الخلف.

القصّة تسافر

رفَعَت مارجو وريتا الطفلةَ النائمة وخلعَتَا عنها قميصها الذي بلا أكمام من فوق رأسها. غطسوا قماشة في ماء دافئ ومسحوا عنها رائحة النهر التي بقيت مع ذلك عالِقةً في شَعرها. فور أن لمسها الماء صَدَرَ عن الطفلة صَوتٌ مُبهَمٌ ينمُّ عن رضا، ولكنها لم تستيقظ.

همهَمَت مارجو "طفلة صغيرة غريبة. بماذا تحلمين؟".

كانت قد جلبت قميص نوم تحتفظ به لحفيداتها عندما يأتون للزيارة، ومرَّرَت السيدتان يدين وذراعين صغيرتين عبر الأكمام. لم تستيقظ الفتاة.

في نفس الوقت كان چوناثان يغسل الكؤوس ويُجفِّفها، بينما يخبِّئ جو إيراد الليلة في المكان المعتاد ويكنس الأرض. عند الركن، حرك القِطَّة التي تسلَّلَت دون أن يلاحظها أحد في وقت سابق من نفس

الليلة. تقافَزَت خارِجةً من الظلال وهي تشعر بالإهانة، واتجهت إلى المدفأة حيث كان الجمر لا يزال يلمع.

قالت مارجو للقطَّة: "لا تُفكِّري أن بإمكانك الاستقرار هنا"، ولكن زوجها تدخَّل.

"البرد قاتل بالخارج. اتركي المخلوقة هذه المرة فقط".

وضعت ريتا الطفلة في السرير بجوار الرجل النائم وقالت: "سأنام هنا الليلة كي أراقبهم"، وعندما عرضت عليها مارجو أن تجلب سريرًا بعَجَل، قالت: "سيفي الكرسي بالغرض. أنا معتادة عليه".

همهمت مارجو "الأمر مُثيرٌ للتساؤل"، وهي تضع رأسها أخيرًا على وسادة، فتمتم جو "هو كذلك بالتأكيد".

تشاركوا آراءهم بأصوات هامسة. من أين أتى هؤلاء المجهولون؟ ولماذا إلى هنا، إلى حانتهم، ذا سوان؟ وما الذي حدث تحديدًا هذه الليلة؟ "معجزة" كانت الكلمة التي نطق بها چوناثان، واختبروها على ألسنتهم. كانوا معتادين عليها، ككلمة في الإنجيل، حيث تعني الأشياء المستحيلة التي حدثت في زمن سحيق، وفي أماكن بعيدة عن هنا، لدرجة أنها يمكن ألا تكون موجودة أصلًا. هنا في الحانة كانت تشير إلى الاحتمال البعيد حتى أنه مُضحِكٌ أن يدفع الرجل الذي يصلح المراكب حسابه المؤجَّل بالكامل. هذه ستكون معجزة حقًّا. ولكن الليلة في الانقلاب الشمسي الشتوي في ذا سوان برادكوت، كان للكلمة وزن مختلف.

قال جو "لن يغفل لي جفن وأنا أتساءل حول الأمر"، ولكن، وبغَضِّ النظر عن المعجزة، فقد كانوا متعبين؛ لذا، ومع مُضيٍّ نصف الليلة الطويلة بالفعل، فقد أطفؤوا الشمعة. سقط عليهم الليل، وفورًا انتهى تساؤلهم.

بالأسـفل جلسـت ريتـا مسـتيقظة في المقعـد في حجـرة الحجيـج حيـث ينـام مرضاهـا، الرجـل والطفلـة، جنبًـا إلى جنـب عـلى السريـر. كانـت أنفـاس الرجـل بطيئـة ومزعجـة، وعـلى الهـواء الـذي يدخـل إلى رئتيـه ويخـرج منهـما أن يشـقَّ طريقـه عـبر الأغشـية الملتهبـة ومـن خـلال قنـوات ممتلئـة بالـدم المتجلِّـط الـذي غـيَّر مسـارها وأعـاد تنظيمـه خـلال السـاعات الماضيـة. لم يكـن غريبًـا أنهـا تصنـع صوتًـا يشـبه مـرور أسـنان المنشـار عـلى الخشـب. في لحظـات الصمـت، بينـما يتنقَّـل نَفَسُـه بـين الخـروج والدخـول، كانـت تسـتطيع أن تسـمع رفيـف أنفـاس الطفلـة الواهيـة، ومـن ورائـه في الخلفيـة الزفـير لا النهـائي للنهـر.

مـن المفـترض أن تنـام، ولكنهـا كانـت تنتظـر أن تصبـح وحدهـا حتـى تفكـر. راجعـت الأمـر كلـه بمنهجيـة وبـلا عواطـف. راقَبَـت نفسـها وهـي تقـوم بالفحـص الروتينـي، ولاحظـت جميـع الإشـارات التـي تدرَّبَـت عـلى أن تبحـث عنهـا. أيـن أخطـأت؟ راجعـت كل شيء بالتفاصيـل الدقيقـة. مـرة. مرتـين. ثـلاث مـرات. لم تعـثر عـلى خطـأ.

ماذا إذًا؟

بحثـت في خبرتهـا عـن لحظـة تَجَـلٍّ، بمـا أن تعليمهـا لم يجـد. هـل كانـت توجـد لحظـة مهـما كانـت قصـيرة زمنيًّـا تشـكَّكَت فيهـا في مـا إن كان مريـضٌ مـا ميِّتًـا أم حيًّـا؟ مـن المألـوف أن تقـول إن شـخصًا مـا عـلى أعتـاب المـوت كـما لـو كان هنـاك خـطٌّ حقيقـي بـين الحيـاة والمـوت، ويمكـن للشـخص أن يقـف عنـده لفـترة. ولكنهـا لم تجـد أبـدًا أي صعوبـة في تحديـد الجهـة التـي يقـف عندهـا المريـض، مهـما كان تَقَـدُّم المـرض أو شـدَّة الوهـن فـإن المريـض كان حيًّـا حتـى لحظـة الوفـاة. لا تَـرَدُّد. لا منطقـة وسـطى.

أرسـلت مارجـو الجميـع إلى أَسِرَّتهـم، وشـجَّعَتهم بفكـرة أن لحظـة الاسـتنارة سـتأتي بشـكل طبيعـي مـع الفجـر، وهـو شـعور شـاركتها فيـه

ريتا فيما يخصُّ أشكالًا مختلفة من المشاكل، ولكن هذا أمر مختلف. الأسئلة في ذهنها مرتبطة بالجسد، والجسد تحكمه القوانين. كل ما تعرفه قال لها إن ما اختبرته لا يمكن أن يحدث. الأطفال الميِّتون لا يعودون إلى الحياة.

يوجد احتمالان: إمَّا أن الطفلة لم تكن حيَّةً -أصغت: ها هو التَّنفُّس الرقيق- أو أنها لم تكن ميِّتة. فكَّرَت مرَّةً أخرى في جميع دلائل الموت التي فحَصَتها. البشرة الشمعية البيضاء. غياب النَّفَس. غياب النبض. تَمَدُّد الحدقة. عادت إلى الغرفة الطويلة بذاكرتها وأدركت أنها فحصت كل تلك الأشياء. كل دليل على الموت كان موجودًا. لم يكن العيب فيها. أين كان إذًا؟

أغمضت ريتا عينيها كي تركِّز بشكل أفضل. كانت تملك عقودًا من خبرة التمريض العملي، ولكن معرفتها لم تقتصر على ذلك. لقد أمضت ليالي طويلةً تدرس كُتُبًا مُخصَّصة لاستخدام الجرَّاحين، وحفظت التشريح، وأجادت علم العقاقير، وطوَّرَت معرفتها العَمَليَّة من كل تلك المعرفة مُجتَمِعةً وصبَّتها في خزَّان من الخبرة. سمحت الآن لخبرة هذا المساء بأن تقف بجوار ما تعرفه. لم تطارد التفسير أو تقوم بمحاولات مُجهِدَة لتشبيك الأفكار. انتظرت ببساطة وبشعور بالإثارة بينا تكبر داخلها رعشة بهجة، حتى طفت على السطح النتيجة التي كانت تتحضَّر بحرص في مكان عميق.

قوانين الحياة والموت كما عرفتهم ناقصة. في الموت ويوجد في الحياة أكثر ممَّا يعرفه علم الطب.

انفتح باب يدعوها إلى معرفة جديدة.

افتقَدَت اللهَ مرَّة أخرى. كانت تُقاسِمه كُلَّ شيء. لقد لجأت له منذ الطفولة في كل سؤال أو شكٍّ أو متعة أو انتصار. صاحَبَها في كل

تطوُّر في تفكيرها وكان شريكها في كل فعل. ولكن الله رحل. هذا شيء ستضطرُّ إلى تَدبُّر أمره بمفردها.

ماذا تفعل حيال هذا؟

أنصتت. تنفُّس الفتاة. تنفُّس الرجل. نَفَس النهر.

النهر... ستبدأ من هناك.

أعادت ريتا ربط حذائها، وأغلقت أزار معطفها عليها. تحسَّسَت حقيبتها من الداخل باحِثةً عن شيء ما- علبة رفيعة من الصفيح. أسقطتها في جيبها قبل أن تتسلَّل بهدوء إلى الخارج. اتَّسَع الظلام البارد حول لهيب شمعتها بشدَّة، ولكنها استطاعت أن ترى أطراف الطريق. خَطَت خارجها إلى العشب وتحسَّسَت طريقها إلى شاطئ النهر، مُعتَمِدَةً على شعورها، وليس نظرها. تَسلَّل الهواء عبر فتحات الأزرار وغرز كوفيَّتها، ومشت عبر الهواء الدافئ لأنفاسها التي شعرت بها تستقرُّ كبَلَلٍ على وجهها.

كان المركب هنا، مقلوبًا على العشب. نزعت قُفَّازًا، وبحرص وجَدَت أصابِعُها الأطراف المُسنَّنة للخشب، ثم جزء صلب. هنا وضعت شمعتها.

أخرجت العلبة من جيبها وحملتها للحظة بين أسنانها -وهي تتجاهل البرد- بينما جمعت طيَّات تنُّورتها ووضعت بعضًا من طرفها في نفس الجيب كي تستطيع أن تربض على الأرض دون أن يبتلَّ فستانها، وأمامها اللمعة الداكنة للنهر. مدَّت يدها إلى الأمام والأسفل حتى شعرت بقرصته الشرسة على لحم أصابعها. حسنًا. فتحت العلبة وأخرجت منها قارورة من الزجاج والمعدن بتعقيداتٍ يستحيل رؤيتها في الظلام. غطَّسَت الأنبوب في الماء المتجمِّد مستخدمة حاسَّة اللَّمس فقط وعدت، ثم قامت، وبكل الحرص الذي تستطيعه أصابعها التي فقدت الإحساس، ووضعت الأنبوب في علبته لحمايته، ولم تكلِّف

نفسـها بـأن تعـدل فسـتانها، أو حتـى تسـتعيد الشـمعة، ثـم عـادت بأقـصى سرعـة إلى الحانـة.

بالداخـل، كان المصبـاح لا يـزال يـضيء غرفـة الحجيـج. أمسـكت بالأنبـوب وقرَّبَتـه إلى الضـوء بقـدر مـا احتاجـت، كي تقـرأ المقيـاس، ثـم أخرجـت دفـترًا وقلـمًا مـن حقيبتهـا. سـجَّلَت درجـة حـرارة المـاء في الدفـتر.

لم يكن أمرًا كبيرًا، ولكنها كانت بداية.

رفعـت ريتـا الطفلـة مـن عـلى سريرهـا برفـقٍ ووضعتهـا برقَّـةٍ عـلى حِجرهـا في الكـرسي. تطوَّحَـت الـرأس واسـتقرَّت عـلى صدرهـا. قالـت لنفسـها "لـن أنـام الآن"، وهـي ترتِّـب الملاءات كي تغطِّـي نفسـها والطفلـة. ليـس بعـد كل هـذا وليـس عـلى هـذا الكـرسي.

وبينـما تُحـضِّر نفسـها كي تبقـى متيقِّظـةً طـوال الليـل بعيـونٍ تَحكُّهـا وظهـرٍ يُؤلمهـا، قفـزت سَـمِيَّتُها إلى ذهنهـا. القِدِّيسـة مارجريـت التـي كرَّسَـت عُذريَّتهـا إلى اللـه، وصمَّمَـت ألَّا تتـزوَّج، حتـى إنهـا فَضَّلَـت تَحمُّـل التعذيـب عـلى أن تصبـح زوجـة. كانـت القديسـة الحارسـة للنسـاء الحوامـل والـولادة. في أيامهـا الأولى في الديـر وهـي تغسـل المـلاءات المتَّسِـخة الداميـة وتحـضر أجسـاد النسـاء الذيـن ماتـوا خـلال الـولادة، كانـت ريتـا تشـعر بالارتيـاح أن مسـتقبلها هـو أن تصبـح عـروس اللـه. لـن يشـقَّ جَسـدَها طفـلٌ يخـرج مـن بطنهـا. لقـد غادرهـا اللـه، ولكـن التزامهـا بعذريَّتِهـا لم يهتـزَّ أبـدًا.

أغمضـت ريتـا عينيهـا، وطـوت يديهـا حـول الطفلـة التـي اسـتقرَّ ثِقَلُهـا نائمـة بقـوة عليهـا. شـعرت بصعـود وهبـوط تنفُّـس الطفلـة، وقاسـت أنفاسـها هـي كي يهبـط صدرهـا بينـما يتمـدَّد صـدر الطفلـة وبينـما يسـقط صـدر الطفلـة يمـلأ صدرهـا هـي المـكان. تَمَلَّـكَ منهـا شـعورٌ غامـض بالمتعـة. سـعت في نعاسـها أن تحـدِّده أو تُسـمِّيه، ولكنهـا لم تسـتطع. طافـت برأسـها فكـرة في الظـلام.

لـو أنهـا لا تنتمـي إلى هـذا الرجـل. لـو لم يكـن يريدهـا أحـدٌ. يمكنهـا أن تكـون لي...

ولكـن وقبـل أن تتمكَّـن مـن اسـتيعاب فكرتهـا، مـلأ ذهنهـا صـوت النهـر لا النهـائي والمنخفـض. وكزهـا مـن صلابـة صحوهـا، وحملهـا إلى الليـل، حيـث سُـحِبَت دون أن تـدري مـا الـذي يحـدث. سـحبت إلى بحـر النـوع القاتـم.

ولكــن، لم يكــن الجميــع نائمــين. كان عــلى الشــاربين والحكَّائــين أن يمشـوا لمسـافة قبـل أن يجـدوا أَسِرَّتَهـم لهـذه الليلـة. ابتعـد أحدهـم عـن النهـر فـور أن غـادر ذا سـوان، واسـتدار حـول الحقـول ليجـد طريقـه إلى حظـيرة عــلى بُعــد ميلــين حيــث ينــام مــع الأحصنــة. نــدم عــلى أنــه لا يوجـد مَـن ينتظـره. لا أحـد يمكنـه أن يوقظـه ويقـول لـه "لـن تصـدِّق مـا حـدث للتَّـوِّ!" تخيَّـل نفسـه يحـكي للأحصنـة عـمَّا شـهده تلـك الليلـة، ويـرى أعينهـم الكبـيرة غـير المصدِّقـة. فكَّـر في أنهـم سـيقولون "لا، هـذه مَزحَـة جيـدة". ولكنـه لم يكـن يريـد أن يحـكي للأحصنـة. كانـت الحكايـة أفضـل مـن أن يضيِّعهـا عـلى آذان الحيوانـات. حـاد عـن الطريـق المسـتقيم وانحـرف نحـو الأكـواخ بجـوار حقـل جارتـين حيـث يعيـش ابـنُ عَمِّـه.

قرع الباب.

لم يَـردَّ أحـدٌ، ولكـن الحكايـة دفعتـه أن يطـرق البـاب مـرة أخـرى بكامـل قبضتـه.

أُضيئـت نافـذة في الكـوخ المجـاور، وأخرجـت امـرأة رأسـها في طاقيـة النـوم لتحتـجَّ.

قـال: "انتظـري. توقَّفـي عـن التوبيـخ حتـى تعـرفي مـا الـذي أتيـتُ لأقولـه لكـم!".

حملَقَت في الاتجاه الذي أتى منه الصوت "هل هذا أنت يا فريد هيفينز؟"، ثم غمغمت "حكايات السكارى، لم يكن ينبغي أن أتساءل! كم لو أنني لم أسمع ما يكفيني منها لعمرٍ بأكمله!".

قال وهو يشعر بالإهانة: "لستُ سكرانَ. انظري! أستطيع أن أمشي في خطٍّ مستقيم، هل ترين؟"، ووضع قدمًا أمام الأخرى بسهولة وإتقان.

أرسلت ضحكتها نحو الليل وقالت: "كما لو كان ذلك يُثبِت أي شيء. عندما لا توجد إضاءة لنرى عليها يمكن لأي سِكّير أن يمشي في خطٍّ مستقيم!".

فتح ابن عمه الباب مُقاطِعًا المجادلة "فردريك؟ ما الذي يحدث هنا؟".

ببساطةٍ، وبلا أي إضافات، حكى فردريك ما حدث في ذا سوان في الساعات الأخيرة.

استغرَقَت الجارة في الحكاية وهي تميل من نافذتها دون رغبة في البداية، ثم نادت شخصًا آخر كان خلفها. "تعالَ يا ويلفريد واسمع هذا!".

سريعًا استيقظ أولاد ابن عم فريد، وغادروا أسِرَّتَهم بلباس النوم، واستيقظ الجيران من جميع الاتجاهات أيضًا.

"ما شكل هذه الفتاة؟".

وصف بشرتها بالبيضاء كما الإبريق المصقول على إفريز نافذة مطبخ جدَّتِه. حكى عن شعرها الذي انسدل كستارة مستقيمة، وكان بنفس لونه وهو جاف كما وهو مبتلٌّ.

"ما لون عيونها؟".

"زرقاء... مائلة للزُّرقة على كل حال. أو رماديَّة".

"ما عمرها؟".

هـزَّ أكتافـه. كيـف لـه أن يعـرف؟ "إن كانـت بجـواري، فطولهـا يصـل إلى هنـا.. هنـا تقريبًـا"، وأشـار بيـده.

"وما اسم هذه الفتاة؟".

عجـز عـن الـرَّدِّ مـرَّةً أخـرى. مَـن كان يعـرف أن الحكايـة تحتـاج لـكل هـذه التفاصيـل. أشـياء لم يفكـر فيهـا بينـما كانـت تحـدث؟

"لا أعرف. لم يسألها أحد".

شعرت المرأة بالفضيحة "لم يسألها أحدٌ عن اسمها!".

"لقـد كانـت ناعِسـةً. مارجـو وريتـا قالتـا إن علينـا أن ندعهـا تنـام. ولكـن اسـم أبيهـا دونـت. هـنري دونـت. وجدنـا الاسـم في جيبـه. إنـه مصـوِّر".

"إذًا فهو والدها. أليس كذلك؟".

"ظَنَنتُ ذلك. ألن تَظنّه أنت؟ إنه مَن أتى بها. لقد وصلوا سويًّا".

"ربما كان يُصوِّرها فقط؟".

"وأوشـك كلاهـما عـلى الغـرق وهـما يلتقطـان صُـوَرًا؟ كيـف تفـسِّر ذلـك؟".

انطلقـت ثرثـرةٌ عامَّـة بـين النوافـذ، ونوقِشَـت الحكايـة، وحُـدِّدَت الأجـزاء الناقصـة منهـا، وقامـت محـاولاتٌ لملئهـا. بـدأ فريـد يشـعر أنـه قـد استُبعِدَ مـن حكايتـه، وشـعر بهـا تنزلـق مـن قبضتـه وتتغيَّر بطُـرُقٍ لم يتوقَّعهـا. كانـت مثـل كائـن حـيٍّ أخرجـه، ولكنـه لم يُدرِّبـه، والآن ينعتـق مـن طوقـه ولا يعـود ملـك أحـد.

انتبه إلى همسة مستمرَّة ومُلِحَّة "فريد!".

دعتـه امـرأة أن يقـترب مـن نافـذة في الـدور الأرضي مـن المنـزل المجاور. مالـت إلى الأمـام، بينـما هـو يقـترب، بالشـمعة في يدهـا وشـعرها الأشـقر يهـرب مـن طاقيَّـة النـوم.

"ما شكلها؟".

بـدأ مـرة أخـرى ببشرتهـا البيضـاء، وشـعرها الـذي لا لـون لـه، ولكنهـا هـزَّت رأسـها "أعنـي مَـن تشـبه؟ هـل تشـبه الرجـل؟".

"في الحالـة التـي هـو عليهـا، لا أظـنُّ أنـه يوجـد شـخصٌ عـلى وجـه الأرض يشــبهه".

"هل له نفس الشعر؟ المتهدِّل فئراني اللون؟".

"شَعره داكن اللون وخشن".

"آهـا!" هـزَّت رأسـها هـزَّةً ذات مغـزى، وتركـت لحظـة صمـت دراميـة بينـما تحـدِّق بـه "هـل تُذكِّـرُكَ بأحـد؟".

"مــن الغريــب أن تســألي. انتابنــي شـعور أنهـا تُذكِّـرني بشـخص مـا، ولكنــي لم أسـتطع أن أعـرف مَـن هـو".

"هل هو...؟" وأشارت له أن يقترب وهمست باسمٍ في أذنه.

عندما ابتعد عنها كان فمه مفتوحًا وعيونه مُتَّسِعَة.

قال: "أوه!".

نظرت إليه "ستكون هي في حوالي الرابعة الآن أليس كذلك؟".

"نعم ولكن...".

قالت: "اكتُم الأمر. أنا أعمل هناك. سأخبرهم في الصباح".

ثـم نـادى الآخـرون فريـد. كيـف تمكَّـن رَجـلٌ وفتـاة وكامـيرا مـن أن يجـدوا مكانًـا في مركـب صغـير بمـا يكفـي أن يدخـل تحـت ديڤيلـز ويـر؟

شرح أنـه لم توجـد كاميرا في المركـب. إذًا كيـف عرفـوا أن الرجـل مُصوِّر إن لم تكـن معـه كاميرا؟ بسـبب مـا كان في جيوبـه. قُـل مـرَّةً أخـرى مـا الـذي كان في جيوبـه؟

استسـلم لإلحاحهـم، وحـكى الحكايـة مـرة أخـرى، وفي المـرة الثانيـة أضـاف تفاصيـل أخـرى، وفي المـرة الثالثـة توَقَّـع الأسـئلة قبـل أن تظهـر، وبحلـول المـرة الرابعـة كان قـد اسـتقرَّ عـلى كل شيء. اسـتثنى الفكـرة التـي زرعتهـا الجـارة ذات الشَّـعر الأشـقر. أخـيراً بعـد سـاعة مـن وصولـه، رحـل فريـد وقـد تجمَّـد حتـى النخـاع.

حـكى الحكايـة مـرَّةً أخـرى مُغَمغِـمًا في الزريبـة للأحصنة. فتحـوا عيونهم وأنصتـوا غـير مندهشـين لبدايـة القصـة. عندمـا وصـل إلى منتصفهـا، كانـوا قـد عـادوا إلى النـوم، وقبـل أن يصـل إلى نهايتهـا كان قـد نـام هـو أيضًـا.

خلـف كـوخ ابـن عمـه، كان يوجـد بنـاء خارجـي يختفـي جزئيًـا وراء شـجيرات. خلفـه كانـت توجـد كومـة مـن الخِـرَق، تعلوهـا قُبَّعـة نَظَّمَـت نفسـها عـلى شـكل رجـل، وإن كان رثًـا، وقـام عـلى قدميـه. انتظـر حتـى تأكَّـد أن فريدريـك هيفيـنر قـد ابتعـد، ثـم انطلـق هـو نفسـه. نحـو النهـر.

لم يشـعر أويـن ألبرايـت بالـبرد وهـو يتبـع النهـر عكـس التيـار ليصـل إلى المنـزل المريـح الـذي اشـتراه في كلمسـكوت عندمـا عـاد مـن مغامراتـه المُربِحـة في البحـر. عـادة، كانـت التَّمشـية إلى المنـزل، عائِـدًا مـن ذا سـوان، وقتًـا للنَّـدم- النـدم عـلى ألم مفاصلـه الشـديد، وأنـه شرب أكـثر مـن الـلازم، وأن أفضـل مـا في الحيـاة قـد فاتـه ولا يوجـد أمامـه الآن سـوى الآلام والتَّدَهـور التدريجـي حتـى يغـوص داخـل قـبره في النهايـة. ولكنـه بعـد أن شـاهد معجـزة، أصبـح يـرى المعجـزات في كل مـكان: سـماء الليـل الداكنـة التـي تجاهَلَتهـا عيونـه الهَرِمـة آلاف المـرَّات قبـل الليلـة، تفتَّحَـت فـوق رأسـه رَحابـةً غموضهـا الأزلي. توقَّـف كي ينظـر إلى الأعـلى ويتعجَّـب. كان النهـر ينـثر رذاذًا، ويقـرع مثـل الفضَّـة عـلى الزجـاج. سـال الصـوت داخـل

أذنـه وتَـردَّد في حجـرات ذهنـه التـي لم يكـن يعـرف أنهـا موجـودة. خفـض رأسـه كي ينظـر إلى المـاء ولأول مـرة في حيـاة بجـوار النهـر لاحـظ -لاحـظ حَقًّـا- أن النهـر يصنـع ضـوءًا مُتغـيِّرًا خاصًّـا بـه. ضـوء هـو الظـلام، ظـلام هـو أيضًـا ضـوء.

بعـض أشـياء أتـت إلى ذهنـه عندهـا- أشـياء كان دائمًـا يعرفهـا، ولكنهـا دُفِنَـت تحـت سـنوات حياتـه. إنـه يفتقـد والـده الـذي مـات منـذ أكـثر من سـتين عامًـا، عندمـا كان أويـن لا يـزال ولـدًا. لقـد كان محظوظًـا في الحيـاة ولديـه الكثـير ليمـتَنَّ لـه. إن المـرأة التـي تنتظـره في السريـر بالمنـزل هـي روح طيِّبـة ومُحِبَّـة. وأكـثر، إن رُكَبـه لا تؤلمـه بالقـدر المعتـاد. وأن رحابـة في صـدره أصبحـت تُذكِّـره بالـذي كان عليـه وهـو شـاب.

في المنـزل، هـزَّ السـيدة كونـر مـن كتفهـا قبـل حتـى أن يُغـيِّر ملابسـه. همهمـت "لا تفكِّـر فيـما تُفكِّـر فيـه. ولا تجلـب الـبرد معـك أيضًـا".

قـال لهـا: "اسـمعي! فقـط اسـمعي هـذا!"، وانسـابت القصـة مـن الفتـاة والغريـب، أمـوات وأحيـاء.

"ماذا شَرِبتَ؟" كانت السيدة كونور تريد أن تعرف.

"تقريبًا لا شيء"، وحكى لها الحكاية مرة أخرى لأنها لم تستوعبها.

جلسـت نصـف مُنتَصِبَـة كي تـراه بوضـوح، وكان هنـاك. الرجـل الـذي عملـت لديـه لثلاثـين عامًـا وشـاركته فراشـه لتسـعة وعشريـن. كان لا يـزال يرتـدي ثيابـه، واقفًـا، وسـيل مـن الكلـمات ينسـكب منـه. لم تسـتطع أن تفهـم الكلـمات. حتـى عندمـا انتهـى مـن الحديـث، وقـف في مكانـه وكأنـه تحـت تأثـير السـحر.

قامـت مـن السريـر لتسـاعده عـلى نـزع ملابسـه. لم يكـن غريبًـا عليـه أن يكـون سـكرانَ حتـى إنـه لا يسـتطيع أن يتحكَّـم في أزراره وحـده. لم يتخبَّـط مـع ذلـك ولم يَمِـل عليهـا، وعندمـا فكَّـت أزرار سروالـه اكتشـفت

أنـه ممتلـئٌ بنـوعٍ مـن الهِمَّـة التي يصعـب عـلى الرجـل السـكران أن يحافـظ عليهـا.

قالـت لـه بجدِّيَّـة مُصطَنعَـة: "انظـر إلى نفسـك"، فعانَقَهـا مـع قبلـة لم يتبادلـوا مثلهـا منـذ السـنوات الأولى لهـما معًـا. تدحرجـوا وتقلَّبـوا في السريـر لبعـض الوقـت، وعندمـا انتهيـا، وبـدلًا مـن أن يسـتدير وينـام، أبقاهـا أويـن ألبرايـت بـين ذراعيـه وقبَّـل شَـعرها.

"تزوَّجيني أيتها السيدة كونور".

ضحكت وقالت: "ما الذي حدث لك يا سيد أولبرايت؟".

قبَّل خَدَّها وشعرت بابتسامته في القبلة.

كانـت عـلى وشـك أن تنـام عندمـا تحـدَّث مـرَّةً أخـرى "رأيتهـا بـأمِّ عينـي يـا برتـا. كنـتُ أنـا مَـن حمـل الشـمعة. كان ذلـك في لحظـة، ثـم في اللحظـة التاليـة- حيَّـة!".

كانـت تسـتطيع شَـمَّ الأنفـاس التـي تصـدر منـه. لم يكـن سـكرانَ. مجنـون ربَّمـا.

نامَا.

انتظـر چوناثـان وهـو لا يـزال يرتـدي ملابسـه حتـى سـمع الصمـت في ذا سـوان. خـرج مـن الغرفـة العلويَّـة ونـزل عـلى السُّـلَّم الخارجـي. كان لا يرتـدي ملابـس كافيـة بالنسـبة للجـوِّ، ولكنـه لم يأبـه. أدفأتـه القصَّـة التـي يحملهـا في قلبـه. اتَّجـه في الطريـق المعاكـس لأويـن ألبرايـت، ودار عكـس اتجـاه التيـار، ومـشى بمحـاذاة النهـر. كان رأسـه حيًّـا بالأفـكار، ومـشى سريعًـا كي يسـكبها عنـد الشـخص الـذي سـيريد بالتأكيـد أن يعـرف كل شيء. عنـد وصولـه لبيـت الأبرشـية في بوسـكوت، طـرق البـاب بصـوت عـالٍ. عندمـا لم يـأتِ ردٌّ، طرقـه مـرَّةً أخـرى، ومـرَّةً أخـرى، حتـى صـار يطـرق البـاب بـلا توقُّـف ولا مراعـاة للوقـت المتأخـر.

انفتح الباب.

انفجر چوناثان قائِلًا: "القس. لا بُدَّ أن أتحدَّث إلى القس!".

"ولكن يا چوناثان" قال مَن فتح الباب، وهو شخصٌ يلبس ثوبًا منزليًّا وطاقية نوم، ويدعك عينيه "هذا أنا".

نزع الرَّجُل طاقية النوم وأظهر كُتلةً مُشعثة من الشعر الرمادي.

"أوه! الآن عرفتك".

"هل يحتضر شخصٌ ما يا چوناثان؟ هل هو والدك؟ هل جِئتَ لتبحث عني؟".

"لا!" قال چوناثان، وأراد أن يشرح أن سبب مجيئه كان العكس تمامًا، ولكنه تعثَّر في كلامه لاستعجاله في الحكي، وكلُّ ما تمكَّن القسُّ من فهمه هو أن أحدًا لم يَمُت.

قاطَعه بنعاس "لا يمكنك أن توقظ الناس من نومهم بلا سبب يا چوناثان. لا يجب أن يخرج وَلَدٌ في الليل- البرد شديد جدًّا. يجب أن تكون أنت نفسك في السرير. ارجع إلى بيتك ونَمْ".

"ولكنها نفس القصة يا كاهن! تُعاد مرة أخرى! كالمسيح بالضبط!".

كان وجه الزائر أبيض من البرد. يسيل الماء من عيونه المائلة إلى الأعلى، وتتجمَّد الدموع على خدوده المسطَّحة. أضاء وجهه بالكامل بالسعادة لرؤية القسِّ ولسانه -الذي كان دائمًا أكبر من أن يحتويه فَمُه، حتى إنه أحيانًا يعيق طريقته في الكلام- كان يستقرُّ على شفته السفلى. عند رؤيته، تذكَّر القس أن چوناثان على كلِّ صلاحه، لا يستطيع أن يعتني بنفسه. فتح الباب على اتِّساعه وأدخل الصبي.

في المطبخ سخَّن القسُّ حليبًا في قدرٍ ووضع خُبزًا أمام زائره. أكل چوناثان وشرب -لن تعيق أيُّ معجزة ذلك- ثم حكى حكايته مرَّةً أخرى. الطفلة التي كانت ميِّتةً وعادت إلى الحياة مرَّةً أخرى.

أنصـت القـسُّ وسـأل بضعـة أسـئلة. "عندمـا فكَّـرتَ في المجـيء إلى هنـا، هـل كُنـتَ في سريـرك، ونائِمًـا فيـه؟ لا؟ حسـنًا. إذًا هـل حـكى لـك والِـدُكَ أو السـيد أولبرايـت عـن تلـك الطفلـة في الحانـة الليلـة؟"، هـزَّ القـسُّ رأسـه عندمـا تيقَّـن مـن أن الحـدث -غـير المعتـاد والمستحيل كـما وصفـه چوناثـان- لـه بعـض الأسـاس في شيء قـد حـدث بالفعـل، ولم يكـن حُلـمًا للصبـي أو مبالغـة حكاهـا سِـكِّيرٌ مـا. "إذًا في الحقيقـة لم تكـن الطفلة ميِّتـةً عـلى الإطـلاق. ولكـن الجميـع ظنَّهـا كذلـك".

هـزَّ چوناثـان رأسـه بقـوَّة "أنـا التقطتهـا. أمسـكت بهـا. لمسـت عينهـا"، ومثَّـل التقـاط صُرَّة ثقيلـة والإمسـاك بهـا، "ثـم لمسـت طـرف الإصبـع الرقيقـة".

"يمكـن أن يبـدو الشـخص ميِّتًـا بعـد حـدوث شيء فظيـع. هـذا ممكـن، أن يبـدو ميِّتًـا، ولكـن في الواقـع هـو... نـوع مـن النـوم".

"مثل سنو وايت؟ لقد قَبَّلتها. هل هذا ما أيقظها؟".

"هذه مجرَّد قصَّة يا چوناثان".

فكَّر چوناثان "مثل المسيح إذًا".

عبس القسَّ ولم يَجِد كلامًا ليقوله.

"كانت ميِّتةً" قال چوناثان، ثم أضاف " كان هذا ظَنُّ ريتا".

كانـت تلـك مفاجـأة. ريتـا هـي أكـثر شـخص يعرفـه القـسُّ يمكـن الاعتـماد عليـه.

التقط چوناثان فُتات الخبز ومَضغها.

نهض القسُّ. كان ذلك أكثر من قدرته على الاستيعاب.

"الجـوُّ بـارد والوقـت متأخِّـر. نَـمْ هنـا لبقيـة الليـل. هـذه بطانيـة. انظـر، عـلى هـذا الكـرسي. إنـك مُنهَـك".

أراد چوناثان شيئًا آخر "أنا بخير، أليس كذلك أيها القسُّ؟ إن الأمر هو كما حدث مع المسيح مرَّةً أخرى؟".

فكَّر القسُّ أنه سيكون محظوظًا إذا كان في سريره مساحة دافئة على شكل شخص. هزَّ رأسه "نعم إن كان الأمر كما عرضته عليَّ يا چوناثان. لا يمكن الهرب من التوازي. ولكن دعنا لا نعصر ذهننا الليلة".

ابتسم چوناثان "أنا مَن أتى بالقصة إليك".

"لن أنسى ذلك. لقد سَمِعتُها منك أوَّلًا".

استقرَّ چوناثان على كرسي المطبخ بسعادة وبدأت عيناه تغمضان.

تسلَّق القسُّ السُّلَّم إلى غرفته بإنهاك. في الصيف كان شخصًا آخر. خفيفَ الحركة، ومُنتبِهًا، ويظنُّه الناسُ أصغرَ من عمره بعَقدٍ من الزَّمن. ولكن في الشتاء، كان يغوص، بينما السَّموات تصبح أكثر قتامة. وبحلول ديسمبر، يصبح مُرهَقًا دائِمًا. عندما عاد إلى سريره، غرق في النوم. وعندما صحا، جرَّ نفسه من الأعماق الكئيبة، وكان دائمًا غير منتعش بشكلٍ ما.

لم يكن يعرف ما الأمر، ولكنَّ شيئًا غريبًا حدث الليلة في ذا سوان برادكوت. سيذهب إلى هناك في الغد. دخل إلى سريره مُنتَبِهًا أنه لو كان في يونيو، فسيكون الضوء قد بدأ في الظهور، ومع ذلك لا يزال أمامه ساعات من ظلام الشتاء.

صلَّى "دَعْ الطِّفلة -ن كانت هناك طفلة- تبقى بخير. واجعل الربيع يأتي سريعًا".

ثم نام.

اتَّبع المتشرِّد المسار حتى النهر مُتشبِّثًا بمعطفه الرَّثِّ، كما لو كان يعتقد أنه سيمنحه بعض الحماية من الطقس. اشتمَّ في الحكاية التي

سـمعها رائحـةَ المـال- وكان يعـرف مَـن قـد يريـد أن يشـتري. لم يكـن مسـارًا جيـّدًا. بـرزت الصخـور مـن التربـة لتخـدع حتـى أحذيـة الفائقـين، وحيـث كانـت مسـتوية، كانـت أيضًـا زَلِقَـةً. عندمـا يتعـثَّر مثلما يحـدث كلَّ بُرهـة، كان يُطـوِّح ذراعيـه ليحافـظ عـلى توازنـه، وبمعجـزة يجـد التـوازن. ربمـا كانـت توجـد أرواح في الظـلام تقبـض عـلى يديـه المتجمدتـين وتحملـه إلى الأمـان. كانـت فكـرة تدغدغـه وتجعلـه يضحـك. تخبَّـط ماشـيًا لفـترة، وكان المـضي في الطريـق عمـلًا شـاقًا. كان لسـانه قُطنيًـا ويفـوح برائحـة نَتِنَـة كفـأر مـات منـذ ثلاثـة أيـام، فتوقَّـف ليـشرب مـن زجاجـة في جيبـه، وتخبَّـط لمسـافة أخـرى.

عندمـا وصـل إلى النهـر، اسـتدار ليمـشي عكـس التيـار. لم تكـن هنـاك أي ملامـح في الظـلام ولكـن مـع حلـول الوقـت الـذي فكَّـر فيـه أنـه لا بُـدَّ قـد وصـل لمحـاذاة جزيـرة برانـدي، وصـل إلي بقعـة يعرفهـا.

اسـم جزيـرة برانـدي كان اسـمًا حديثًـا. في الأيـام القديمـة كان الاسـم "الجزيـرة" فقـط، ولم يَحتَـجْ أيُّ شـخصٍ إلى اسـم آخـر؛ لأن لا أحـد يذهـب إلى هنـاك، ولا يوجـد شيء لـتراه. ولكـن عندمـا جـاء الأشـخاص الجُـدُد إلى كـوخ رادكـوت، أوَّلًا السـيد فـون، ولاحِقًـا زوجتـه الشـابة، كانـت إحـدى التغيرات هـي بنـاء مصنـع تقطـير كبـير ومعمـل زاج (كبريتـات الخارصـين) عـلى هـذا الشريـط مـن الأرض في النهـر. تحوَّلَـت فداديـن مـن الحقـول المملوكـة للسَّـيِّد فـون إلى حقـول بنجـر، وأضيـف خـطُّ سـكة حديـد صغـير لينقـل البنجـر للجزيـرة، وجلـب البرانـدي بـدلًا منـه. توجـد وظائـف وفـيرة في صناعـة الخمـر عـلى جزيـرة برانـدي. أو كانـت توجـد وظائـف. شيء مـا حـدث. البرانـدي لم يكـن جيـّدًا، أو مصنـع التقطـير كان غـيرَ كُـفء، أو أن السـيد فـون قـد فقـد اهتمامـه. بقـي الاسـم. لا زالـت الأبنيـة هنـاك، مـع أن الماكينـات صمتـت، وخطـوط السـكة الحديـد لا تـزال تصـل إلى طـرف النهـر، ولكـن العبـارة تفكَّكَـت، وأي أشـباح لصناديـق البرانـدي تـأتي متخبِّطـة عـبر القضبـان سـينتهي بهـا الأمـر في أعـماق النهـر.

ماذا أفعل؟ فكَّر أنه يستطيع أن يقف على الضفة ويصيح، ولكن ما إن صار في المكان حتى أدرك عبثيَّةَ هذا الشيء. ثم -وكم هذا رائع- لاحظ قاربًا صغيرًا بمجاديف، يرسو على طرف النهر -صغيرًا- مثل الذي يمكن لامرأة أن تجدِّف به. تُرك هناك بالصُّدفة في لحظة ما احتاج إليه. هنَّأ نفسه على حظِّه: الآلهة في صفِّه الليلة.

أخفض نفسه داخل المركب، ومع أنه اهتزَّ بشكل مُقلِق من تحته، إلا أنه كان سكرانَ أكثر من أن يخاف، وابنًا للنهر أكثر من أن ينقلب داخله. استقرَّ وقامت عادته القديمة بالتجديف بدلًا منه، حتى شعر بشاطئ الجزيرة ينكزه. لم يكن هذا هو مكان الرُّسُوِّ، ولكن لا بأس. تخبَّط خارجًا ليصيبه البَلَل حتى ركبتيه. تسلَّق المنحدر وشقَّ طريقه. لاح مصنع التقطير على ارتفاع ثلاثة أدوار في منتصف الجزيرة. شرقًا كان مصنع الكبريت، ومن خلفه المخزن. كان هادئًا قدرَ الإمكان، ولكنه لم يكن هادئًا بما يكفي. عندما اشتبك حذاؤه في شيء ما وتعثَّر، أتت يدٌ من حيث لا يدري، وأحكمت قبضتها على ظهر رقبته مُبقِيَةً إيَّاه مُنبَطِحًا. ضغطت أربعة أصابع وإبهام ضغطًا مؤلما على الأوتار.

"إنه أنا" شهق بصوتٍ مختنق "أنا فقط!".

ارتخت الأصابع. لم تنطق كلمة، ولكنه اتبع الرَّجُل مستخدمًا سَمعَه حتى وصل إلى المخزن.

كان مكانًا بلا نوافذ، وللهواء رائحة كثيفة. رائحة خميرة وفاكهة وحلاوة مسكِرة تنتهي بمرارة، وكانت كثيفة حتى إنَّكَ تكاد لا تقدر على استنشاقها، ولكنك تكاد تحتاج إلى أن تبلع كي تستقبلها داخلك. أضاء الموقد زجاجات وأوعية نحاسية وبراميل وُضِعَت جميعًا معًا بشكل عشوائي. لم تكن تشبه الأدوات ذات الأبعاد الصناعية التي توجد

في المصنـع، مـع أنهـا صنعـت مـن قطعًـا سُرِقَـت منهـا ولنفـس الهـدف: إنتـاج الخمـور.

لم يُلـقِ الرجـل ولـو نظـرة عـلى الزائـر، ولكنـه اسـتقرَّ عـلى مقعـد حيث صار هيكلـه النحيـف الـذي تحـوَّل إلى خيـالٍ مُقابِـلًا للضـوء البرتقـالى الآتي مـن الموقـد. اسـتغرق في إشـعال غليونـه تحـت حافَّـة قبعتـه المنخفضـة دون أن يسـتدير. عندمـا انتهـى، شـفطها، ولم يتحـدَّث حتـى زفـر مُضيفًـا لمحـةً مـن تبـغٍ رخيـصٍ إلى الرائحـة.

"مَن رآك تأتي؟".

"لا أحد".

صمت.

أصرَّ "لا أحد في الجوار. البرد شديد".

هزَّ الرجل رأسه "قُلْ".

قال له السِّكِّير "فتاة. في ذا سوان برادكوت".

"ماذا عنها؟".

"سحبها أحدهم من النهر الليلة. يقولون ميِّتة".

مرَّت لحظة صمت.

"ماذا عن ذلك؟".

"إنها حيَّة".

استدار وجه الرجل، ولكنه لم يكن مَرئيًّا أكثر من قبل.

"حيَّة؟ أم ميِّتة؟ يجب أن تكون واحدة من هذين الأمرين".

"كانت ميتة. الآن هي حيَّة".

هـزَّ الرجـل رأسـه ببـطء وتحـدَّث بصـوت حاسـم "لقـد كنـتَ تحلـم. إمَّـا هـذا، أو أنَّـكَ تناوَلـتَ كـمًّا زائِـدًا عـن الحـد مـن الـشراب".

"هـذا هـو مـا يقولونـه. أتيـت فقـط لأقـول لـك مـا يقولونـه. أخذوهـا مـن النهـر ميتـة، والآن هـي حيـة مـرة أخـرى. في ذا سـوان".

حـدَّق الرجـل في الموقـد وانتظـر الرسـول كي يـرى إن كان يوجـد ردٌّ فِعـل آخـر، ولكـن بعـد دقيقـة أدرك أنـه لن يوجـد أي شيء.

"أي لفتة صغيرة. للمتاعب التي تكبَّدتُها. إنها ليلة باردة".

زمجـر الرجـل. قـام الرجـل مُلقِيًـا بظـلٍّ داكـن ومتراقـص عـلى الحائـط ومـدَّ يـده في الظـلام، ومـن الظـلام أخرجـت يـده زجاجـة صغـيرة مغلقـة بقطعـة فلِّـين. مَرَّرهـا للمُتـشرِّد الـذي وضعهـا في جيبـه ولمـس طـرف قبعتـه وتراجـع.

في ذا سـوان نامـت القطـة مُلتَفَّـةً حـول نفسـها بجـوار صـدر المدخنـة التـي لا تـزال تزفـر دفئًـا. ترتعـش جفونهـا بصـور مـن أحـلام القطـط التـي سـتكون أكـثر إثـارة للحـيرة بالنسـبة لنـا حتـى مـن القصـص التـي يختلقهـا العقـل البـشري ليـلًا. ارتجفـت أذنهـا وتـلاشى الحلـم فـورًا. صـوت -يـكاد يكـون لا شيء، صـوت تكـسُّر العشـب تحـت أقـدام- وأصبحـت القطـة فـورًا واقفـة عـلى أربـع. عـبرت الغرفـة بسرعـة وصمـتٍ وقفـزت عـلى حافـة النافـذة. اخـترق النظـر السِّـنَّوْرُ الليـلَ بسـهولة.

ظهـر عنـد الجـزء الخلفـي مـن الحانـة شـخصٌ نحيـف يتسـلَّل مُرتَدِيًـا معطفًـا طويـلًا ويخفـض قبعتـه. تَسَـحَّب بمحـاذاة الحائـط وتجـاوَزَ النافـذة ليقـف عنـد البـاب. صـدرت صلصلـة خفيضـة بينـما هـو يختـبر المقبـض خلسـة. كان القفـل مُحكَـمًا. مـن الممكـن أن تبقـى أماكـن أخـرى غـير مغلقـة، ولكـن الحانـة مليئـة ببراميـل مغريـة ويجـب أن تُغلَـق ليـلًا. عـاد الرجـل إلى النافـذة غـيرَ مُـدرِكٍ أنـه مُراقَـب، وتحسَّـسَـت أصابعـه إطـار النافـذة. خـاب مسـعاه. مارجـو ليسـت حمقـاء. لم يكـن ذهنهـا مـن النـوع

الـذي يتذكَّـر إيصـاد الأبـواب في وقـت الإغـلاق فقـط، ولكـن أيضًـا تجديـد عــزل النوافــذ كل صيــف وصيانــة الدهــان كي لا يتعفَّــن إطــار النوافــذ وتبديـل الزجـاج المكسـور. خرجـت زفـرة سـخط مـن تحـت حافـة القبعـة المنخفضـة. توقَّـف الرجـل ولمعـت فكـرة في عينيـه. ولكـن ليـس لوقـت طويـل. كان الوقـت أبـردَ مـن أن يتسـكَّع في الخـارج. اسـتدار وهـرول بهِمَّةٍ بعيـدًا. كان يعـرف أيـن يضـع قدمـه تحديـدًا في الظـلام. تفـادى الأخاديـد ونـاوَرَ الصخـور ووجـد الجـسر، وعـبره، وعـلى الجانـب الآخـر حـاد عـن الطريـق داخِـلًا بـين الأشـجار.

استـمرَّ القِـطُّ في تَتَبُّـع المتطفِّـل بالسَّـمع لفـترة طويلـة بعـد أن ابتعـد عـن النظـر. جرجـرت الأفـرع عـبر النسـيج الصـوفي لمعطـف، احتـكاك كعـب عـلى الأرض الحجريـة البـاردة، تململ مخلوقـات الغابـة التـي انزعجـت... حتـى لا شيء في النهايـة.

قفـزت القطـة إلى الأرض وعـادت إلى المدفـأة حيـث ضغطـت نفسـها عـلى الأحجـار الدافئـة مـرَّةً أخـرى وعـادت إلى النـوم.

وهكــذا بعــد الأحــداث المســتحيلة والســاعة الأولى للاســتغراب والتسـاؤل أتـت الارتحـالات المختلفـة عـن ذا سـوان وأول الحـكي. ولكـن أخـيرًا، وبينـما لا يـزال الليـل مُظلِـمًا، صـار الجميـع أخـيرًا في أَسِرَّتِهـم، واسـتقرَّت الحكايـة مثـل رواسـب في أذهـان الجميـع، الشـهود والحَكَّائـين والمسـتمعين. الشـخص الوحيـد الـذي جافـاه النـوم هـو الطفلـة نفسـها، كانـت في قلـب الحكايـة تستنشـق الثـواني في خِفَّـةٍ وتزفرهـا في خِفَّـة بينـما تُحـدِّق في الـلا شيء وتُنصِـت إلى صـوت النهـر وهـو يـسرع في مـروره.

روافِد

النهر على الخريطة شيء بسيط. نَهرُنا يبدأ في تروزبري ميد ويتبع مسارًا بطول مائتين وستة وثلاثين ميلًا كي يصل إلى البحر في شوبرينس. ولكن لا يسع أي شخص يتكلّف عناء تَتبُّع مساره سواء بالمركب أو سيرًا على الأقدام جزءًا بجُزءٍ إلَّا أن ينتبه أن أحادية اتِّجاهه ليست أكثر ملامحه بديهيَّةً. لا يبدو النهر خلال سيره عازمًا على الوصول إلى هدفه. عِوَضًا عن ذلك، هو يتلوَّى في التفافاتٍ تضيع الوقت وتُسبِّب التَّشتُّت. كثيرًا ما يكون تَغيُّر مساره مُثيرًا للغيظ: خلال رحلته يتَّجِه في أوقات مختلفة شمالًا وجنوبًا وغربًا كما لو كان قد نسي هدفه الشرقي- أو تركه جانبًا لبعض الوقت. عند أشتون كينز، ينقسم إلى جداول عديدة، حتى إن كل منزل في القرية يجب أن يكون لديه جِسرٌ كي يوصل إلى بابه. لاحقًا حول أوكسفورد، يتَّخِذ انعطافَةً مُتمهِّلةً حول المدينة. كما أن لديه حِيَلًا أخرى مزاجيَّة يُخبِّئها: يُبطِئ سيره في بعض

الأماكـن كي يسـبح بكسـل في بِـرَكٍ واسـعة قبـل أن يسـتعيد اسـتعجاله ويُسرع قُدُمًـا. في بوسـكوت ينقسـم إلى تـوأم مـن الجـداول، ليجـزر قطعـة طويلـة مـن الأرض ثـم يلملـم مـاءه في قنـاة واحـدة.

إن كان مـن الصعـب فهـم ذلـك عـلى خريطـة فالتـالي أكـثر صعوبـة. مبدئيًـا فـإن النهـر الـذي سرى قُدُمًـا يتـسرَّب أيضًـا إلى الجوانـب كي يـروي الحقـول والأراضي عـلى كلٍّ مـن الجانبـين. إنـه يشـقُّ طريقـه نحـو الآبـار حيـث يُسحب ليغسـل المعاطـف ويُغلى مـن أجل الشـاي. يُمتصُّ في غلاف الجـذور ويصعـد خليَّـةً خليَّـة حتـى السـطح، ويمسـك في أوراق الجرجـير التـي تجـد نفسـها في أطبـاق الحسـاء وعـلى صـواني الجبنـة الخاصـة بمـن يتناولـون العشـاء في البـلاد. يمـرُّ مـن بـرَّاد الشـاي أو صحـن الحسـاء إلى الأفـواه، يـروي شـبكات بيولوجيـة داخليـة مُعقَّـدة، هـي في حـدٍّ ذاتهـا عـوالم، قبـل أن يعـود في النهايـة إلى الأرض عـبر إنـاء التبـوُّل. في الأماكـن الأخـرى تَعلَـق ميـاه النهـر بـأوراق الصفصـاف التـي تتهـدَّل لتلمـس سـطحه، وعندمـا تسـطع الشـمس يبـدو أن قطـرةً تختفـي في الهـواء حيـث تسـافر خفيَـةً وقـد تنضـمُّ إلى غيمـة، بحـيرة واسـعة طافيـة، حتـى تسـقط مـرة أخـرى مطـرًا. هـذه هـي رحلـة التامـز التـي تعـصى عـلى الخرائـط.

ويوجـد المزيـد. مـا نـراه عـلى الخريطـة هـو نصـف الموضـوع. لا يبـدأ النهـر في منبعـه كـما لا تبـدأ الحكايـة عنـد الصفحـة الأولى. خُـذ تروسـبري ميـد عـلى سـبيل المثـال. تلـك الصـورة، هـل تتذكَّرهـا؟ التـي تسرَّعـوا بإقصائهـا لأنهـا ليسـت جميلـة؟ قالـوا شـجرة مُـران عاديـة في حقـل عـادي، وقـد بَـدَت كذلـك، ولكـن انظـروا جيِّـدًا. هـل تـرون هـذا الانبعـاج في الأرض عنـد قاعـدة الشـجرة؟ هـل تـرون كيـف أنـه بدايـة أخـدودٍ ضَحـلٍ وضيِّـق وغـير مُميَّـز يـسري بعيـدًا عـن الشـجرة وخـارج الصـورة كلهـا؟ تـرون هنـا النقـرة حيـث يلتقـط الضـوء شـيئًا ويُظهـر بعـض البُقَـع المسـنَّنة الفضيـة في التدريجـات الرماديـة للتُّربـة الطينيـة؟ هـذه العلامـات اللامعـة هـي مـاء يـرى نـور الشـمس لأول مـرَّة منـذ مـا يمكـن أن يكـون مـدة طويلـة.

إنـه يـأتي مـن بطـن الأرض حيـث توجـد ممـرَّات مائيـة ملتويـة ومراوغـة في جميـع الاتجاهـات تحـت أقدامنـا، في الكسـور والفراغـات في الصخـور وفي التجاويـف والـشروخ والقنـوات، تمامًـا كـما هـو الأمـر فـوق الأرض. بدايـة التامـز ليسـت البدايـة- أو بالأحـرى لا تبـدو كبدايـة إلا لنـا.

في الحقيقـة قـد لا تكـون تروزبـري ميـد هـي البدايـة عـلى أي حـال. يوجـد مَـن يقولـون إنهـا المـكان الخاطـئ. حتـى مـا لا يمثِّـل بدايـة قـد يكـون في مـكان آخـر. مـكان يُسـمَّى سيڤن سـبرينجز، وهـو منبـع تشـرن النهـر الـذي يتَّحِـد مـع التامـز في كريـكلاد. مَـن يـدري؟ فيـما يخـصُّ التامـز الـذي يرحـل شـمالًا وجنوبًـا وشرقًـا وغربًـا ليتَّجِـه في النهايـة إلى الـشرق والـذي يتـسرَّب إلى كلٍّ مـن الجانبـين، بينـما هـو يتحـرَّك للأمـام، الـذي يبطـئ بينـما يـسرع، الـذي يتبخَّـر نحـو السـماء بينـما ينعطـف إلى البحـر، فالموضـوع هـو الحركـة وليـس البدايـات. إن كان لـه بدايـة فهـي تقـع في مـكان مُظلِـم عـصيٍّ عـلى الوصـول إليـه. مـن الأفضـل دراسـة أيـن يذهـب وليـس مـن أيـن يـأتي.

آهـا... الروافـد! هـذا مـا كنـتُ أَنشُـدُه. تشـرن، ذا ﭼي، ذا راي، ذا كولـن، ذا ليتـش وذا كـول. في أعـالي التامـز تلـك هـي الجـداول والنهـيرات التـي تـأتي مـن أماكـن أخـرى لتضيـف سـعتها ودفعهـا إلى سـعة ودفـع التامـز. توشـك الروافـد أن تنضـمَّ لهـذه القصـة. يمكننـا في هـذه السـاعة الهادئـة قـرب الفجـر أن نـترك النهـر هـذه الليلـة الطويلـة ونتتبَّـع الروافـد عائديـن كي نـرى، ليـس بداياتهـم -تلـك الأشـياء الغامضـة المجهولـة- ولكـن ببسـاطة أكـثر، مـا الـذي فعلـوه بالأمـس.

ماذا تُخمِّن؟

في الثالثة والنصف من بعد الظهيرة وقبل مجيء الطفلة، في بيت بمزرعة في كلمسكوت خرجت امرأة مُسرِعة من باب المطبخ وعبرت الفناء إلى الحظيرة. كانت ضفائرها الشقراء مُخبَّأة بعناية تحت قُبَّعتها، وفستانها الأزرق بسيط كما يليق بزوجة فلَّاح مشغولة، مع أنها أضفت عليه جمالًا يوحي بأن قلبها لا يزال شابًّا. كانت خطواتها متمايِلَةً وبين كل خطوة والأخرى كانت تنحني يسارًا وفي الخطوة التالية تقوم مرَّةً أخرى . لم يُبطِئها ذلك كما لم تُعطِّلها العصابة التي غطَّت عينها اليمنى. كانت من نفس قماش فستانها الأزرق وثبتت في مكانها بشريط أبيض.

وصلت إلى الحظيرة التي لها رائحة الدم والحديد. بالداخل وقف رجلٌ يدير ظهره لها. كان ذا بنية قوية، وطويلًا بشكل فائق، بظهر عريض وشَعرٍ أسود خَشِن. فور أن وضعت يدها على إطار

البـاب ألقــي خرقــةً مُبقَّعــةً بلــون قرمــزيٍّ عــلى الأرض، والتقــط حجــر سَــنِّ الســكاكين. ســمعت صــوت رنــين يرتفــع في الهــواء بينــما بــدأ هــو في سَــنِّ شــفرة الســكين. رصَّ وراءه صَفًّــا مــن الجُثَــث مُرتَّبــة بعنايــة، كل خَطــم بجــوار ذيــل الــذي يليــه. ســال الــدَّم منهــم وشَــقَّ طريقــه إلى البُقَــع الضَّحلــة في الأرض.

"عزيزي...".

استــدار. لم يكــن سَــمار وجهــه هــو البُنّــيُّ الصِّحّــيُّ الــذي يكتســب مــن حيــاةٍ قُضِيــت في العمــل في الهــواء الطلــق تحــت الشــمس الإنجليزيــة، ولكــن مــن النــوع الــذي يــأتي مــن قــارة أخــرى كلِّيًّــا. كان أنفــه عريضًــا، وشــفاهه غليظــةً. أضــاءت عينيــه لرؤيــة زوجتــه وابتســم.

"انتبهي لطرف ثوبك يا بيث".

ســال نحوهــا جــدول مــن الــدم "أنــت ترتديــن حــذاءك الجيِّــد أيضًــا. كِــدتُ أنتهــي مــن عمــلي هنــا. ســأعود إلى الداخــل بعــد قليــل".

ثم رأى التعبير على وجهها، فانتهت ثنائية السكين والحجر.

"ما الأمر؟".

مع كل الاختلافات بين الوجهين، إلا أن شعورًا واحدًا حرَّك تعابيرهم.

سألها "أحد الأطفال؟".

هزَّت رأسها "روبين".

أول الأبناء. تهدَّل وجهه "ما الأمر هذه المرة؟".

"هذا الخطاب...".

ســقطت نظرتــه نحــو يدهــا. لم تكــن تمســك بورقــة مطويَّــة بــل كومــة مــن الأوراق الممزَّقــة.

"وجدتهـم سـوزي. روبـين أتى لهـا بجاكيـت كي تُصلِحـه في آخـر زيـارة لـه. أنـت تعلـم كـم هـي دقيقـة في اسـتخدام الإبـرة مـع أنهـا لا تـزال في الثانيـة عـشرة مـن عمرهـا. كان جاكيـت راقيًـا جـدًّا أيضًـا. أخـشى التفكـير في سـعره. قالـت إنـه كان يوجـد قَطـعٌ كبـيرٍ في الكُـمِّ، ولـو أنـك لـن تـدرك وجـوده الآن. ولكـن كان عليهـا أن تفـكَّ خياطـة الجيـب كي تأخـذ بخيـط مـن نفـس اللـون، وبينـما تفعـل ذلـك وجـدت هـذا الخطـاب، مُقطَّعًـا إلى قِطـعٍ صغـيرة. وجدتهـا في غرفـة الجلـوس تتأمَّـل فيـه كـما لـو كان لعبـة".

"أرينـي" اقـترح عليهـا وأمسـك بمـلء قبضـة مـن تَنُّورتهـا كي يبعدهـا عـن الـدم بينـما يَخطـون إلى رفٍّ مُمتـدٍّ بطـول أحـد الحوائـط الداخليـة. فـرَدَت قصاصـات الـورق.

"الإيجـار" قـرأَت بصـوت عـالٍ وهـي تلمـس إحـدى القصاصـات بخفَّـة. كانـت يدهـا يـدًا عامِلَـة. لم تكـن ترتـدي خواتـم سـوى محبـس زواجهـا، وأظافرهـا كانـت قصـيرة ومنمَّقـة.

"حُـبٌّ" قـرأ هـو ولم يلمـس الورقـة التـي يقـرأ منهـا؛ لأنـه كان يوجـد دم تحـت أظافـره وعـلى أصابعـه.

"في حدٍّ أقصى... ما هو "في حدٍّ أقصى" يا روبرت، هل تعرف؟".

"لا أعرف. كيف قطعت إلى قِطَعٍ صغيرة هكذا؟".

"هل مزَّقها هو؟ هل هو خطاب وصله ولم يعجبه؟".

اقـترح عليهـا "ضَعـي هـذه القطعـة مـع هـذه" ولكـن لا، لم تتَّسِـق الاثنتـان معًـا.

قال "هذا خطُّ امرأة".

"خَطٌّ جيِّد أيضًا. خطاباتي ليست مُرتَّبَة مثل هذا".

"ما تفعلينه جيِّدًا بما يكفي يا عزيزتي".

"ولكـن انظـر كـم خَطُّهـا مسـتقيم. لا توجـد بقعـة واحـدة. إنـه خـطٌّ يـكاد يـوازي جـودة خَطِّـك مـع كل مـا نلتَـه مـن التعليـم. مـا رأيـك في هـذا يـا روبـرت؟".

حـدَّق في صمـتٍ لبُرهَـة "لا جـدوى مـن محاولـة إعـادة تركيبـه بالكامل. ليـس لدينـا أكـثر مـن جـزء. دعينـا نجـرب شـيئًا مختلفًا.

حرَّكـوا القطـع، ويداهـا البارعتـان تعمـلان وفـق إرشـاداته. تَوصَّـلا إلى تنظيـم للقطـع في ثـلاث مجموعـات. الأولى كانـت للقطـع الصغـيرة التـي يَحُـول حجمهـا دون أن تُفهَـم، أنصـاف كلـمات، "الـ" و"مـن"، ووضعوهـا جانبًـا.

الثانية تضمَّنَت العبارات التي قرؤوها الآن بصوتٍ عالٍ.

"حبٌّ".

"بدون تمامًا".

"الطِّفل سريعًا بالكامل".

"لا مساعدة من جهة إلَّاك".

"الإيجار".

"لا تنتظر أكثر".

"والد".

المجموعـة الأخيرة كانـت مجموعـةً مـن القطـع التـي تضمَّنَـت جميعها نفـس الكلمة.

"أليس".

"أليس".

"أليس".

استدار روبرت أرمسترونج نحو زوجته وأدارت هي وجهها نحوه. عيونها الزرقاء المحدِّقة اهتزَّت خوفًا ونظرته هو كانت جادَّة.

قال: "قولي لي يا حبيبتي. ماذا تستنتجين؟".

"إنها أليس. ظَنَنتُ في البداية أنه اسمُ كاتِبَة الخطاب. ولكن الشخص الذي يكتب خطابًا لا يقول اسمه عدَّة مرَّات. يقولون "أنا". أليست المعنيَّة شخص آخر؟".

"نعم".

"لا أفهم. هل لروبين طفلة يا روبرت؟ الخطاب مُمزَّق أيضًا. أخاف...".

"لا تخافي يا بيث. لا يأتي شيء جيِّد من الخوف؟ على فرض أن هناك طفلة؟ على فرض أن هناك امرأة؟ يمكن لشاب أن يرتكب أخطاء أسوأ من الوقوع في الحب، وإن أتى من ذلك طفل فسنكون أوَّلَ مَن يرحِّب به. قلوبنا قوية بما يكفي، أليس كذلك؟".

"لماذا يكاد الخطاب أن يكون مُدمَّرًا".

"افرضي أن هناك بعض المتاعب. بعض الأشياء التي لا يمكن إصلاحها بالحب، ولا نفتقر إلى ذلك هنا. كلما فشل الحب تنجح الأموال".

نظر بثبات في عينها اليسرى. عين زرقاء جيدة، وانتظر حتى رأى القلق ينحسر عنها وتعود الثقة.

"أنت على حق. ماذا نفعل إذا؟ هل نتكلم معه؟".

"لا. ليس الآن على كل حال"، وعاد إلى قطع الورق. أشار إلى شيء في مجموعة القطع غير الصالحة للقراءة "ماذا تستنتجين؟".

هزَّت رأسها. مرَّ القطع في منتصف الكلمة أُفقيًا ليقسم الجزء الأعلى عن الجزء الأسفل "أظنُّ أنها بامبتون".

"بامبتون؟ لا تبعد عن هنا سوى أربعة أميال!".

نظـر إلى ساعته "تأخَّـر الوقـت عـلى الذهـاب الآن. يجـب أن ننظِّـف، كـما علينـا التعامـل مـع هـذه الجُثَـث. إن لم أسرع سـيحلّ الظـلام ولـن أرى مـا أفعلـه قبـل أن أطعـم الخنازيـر. سأسـتيقظ مبكِّـرًا وأذهـب إلى بامبتـون قبـل أي شيء آخـر".

"حسنًا يا روبرت".

استدارات لترحل.

"انتبهي لطرف فستانك!".

في المنـزل اتَّجهـت بيـث أرمسـترونج إلى الخزانـة. دار المفتـاح في القفـل بصعوبـة. مـرَّ وقـتٌ طويـل منـذ أن تـمَّ إصلاحـه. تذكَّـرت يومًـا عندمـا كان روبـين في الثامنـة. عـادت إلى المنـزل ووجـدت أن القفـل قـد كـسر والأوراق مبعـثرة والأمـوال والوثائـق قـد فقـدت. أمسـك روبـين بيدهـا وقـال: "قـد قاطعـت اللـص. رَجُـلٌ خَشِـن الشَّـكل. وانظـري يـا أمـي، هـا هـي النافـذة المفتوحـة التـي رأيتـه يهـرب منهـا". خـرج زوجهـا فـورًا ليبحـث عـن الرجـل ولكنهـا لم تتبعـه. وضعـت يدهـا عـلى العصابـة التي تخفـي عينهـا، وأزاحتها كي تغطـي عينهـا السـليمة، وكشـفت الأخـرى التـي تنظـر جانبًـا وترى أشـياء لا تسـتطيع العـين العاديـة أن تراهـا. أمسـكت بابنهـا مـن أكتافـه وصوَّبَـت عينهـا الشَّـوَّافة عليـه. عندمـا عـاد أرمسـترونج إلى المنـزل بعـد أن فشـل في العثـور عـلى أي أثـر لِلِّـصِّ ذي الملامـح الخَشِـنة، قالـت: "لا. لا أظـنُّ أنـك وجدتـه لأنـه لا يوجـد مثـل هـذا الرجـل. كان روبـين هـو اللـص".

احتجَّ أرمسترونج "لا!".

"إنه روبين. أسعدته جدًّا الحكاية التي حكاها. كان روبين".

"لا أصدق".

فشـلوا في الوصـول إلى حـلٍّ، وكانـت تلـك إحـدى الأشـياء التـي دُفِنـت تحـت ثقـل الأيـام منـذ ذلـك الوقـت.

ولكنها تتذكَّرها كل ما أدارت المفتاح في القفل الجديد.

طَوَت قصاصة من الورق على شكل جيب، ورمت بداخلها كل قطع الورق التي بها كلام لا يمكن قراءته، ثم جمعت مقاطع العبارات ووضعتها هناك أيضًا. تردَّدَت وهي تمسك بالقطع الثلاث الأخيرة بين أصابعها مُتردِّدة، وقاوَمَت التَّخلِّي عنهم. أخيرًا أسقطتهم داخل الظرف مُهَمهِمَةً مع كل واحدة كأنها تعويذة:

"أليس".

"أليس".

"أليس".

سحبت درج الخزانة، ولكن قبل أن تضع الورقة المطويَّة داخله أوقفها حدسها. ليس الخطاب، وليست القصة القديمة عن الدُّرج الذي كُسر قفله. شيء آخر. إحساس بتيَّار خفيٍّ يسري في الهواء.

حاوَلَت أن تلتقط طرف الشعور وتُسمِّيه. كادت أن تتأخَّر ولكنها أمسكت به لبرهة عابرة، فقد سمعت الكلمات التي نطقها لسانها في الغرفة الخالية.

"شيء يوشك أن يحدث".

في الخارج انتهى روبرت أرمسترونج من سَنِّ سكينته. نادى ابنيه الثاني والثالث ورفعوا معًا الجُثَث على خطاطيف كي يسكبوا دماءهم فوق المجاري. غسلوا أياديهم في سطل من ماء المطر، وأفرغوا الماء فوق الأرض كي يغسل ما بقي من الدماء في منطقة الذبح. خرج ليطعم الخنازير بعد أن كلَّف الأولاد بالمسح. عادةً ما يعملون معًا، ولكنه يطعم الخنازير وحده عندما يريد أن يفكِّر.

رفع أرمسترونج الأجولة بسهولة، وسكب الحبوب في الأحواض. داعب أحد الخنازير وراء أنفه ومسح على ظهر آخر، كل منها حسبما

يحب. الخنازير مخلوقات استثنائية، وذكاؤهم بادٍ في عيونهم، مع أن أغلب الناس لا يملكون البصيرة كي يروا ذلك. يقتنع أرمسترونج أن لكل خنزير شخصيَّته وموهبته، وعندما يبحث عن أنثى خنزير للتزاوج لا يبحث فقط عن الصِّفات الجسديَّة ولكن الذكاء والحصافة والمنطق الجيِّد: صفات الأم الجيدة. كان من عادته التحدُّث مع خنازيره وهو يُطعِمها، واليوم كالعادة لديه ما يقوله لكلٍّ منهم. "لماذا تتذمَّرين يا دورا؟"، و"تشعر بوقع عمرك يا بول، أليس كذلك؟". لكل الإناث من خنازيره، تلك الخاصة بالاستيلاد، أسماء. لم يمنح أسماء للخنازير التي يربِّيها للأكل، ولكنه يُسمِّيها جميعًا "خنوص"، وعندما يختار أنثى خنزير جديدة، كان من عادته أن يعطيها اسمًا يبدأ بالحرف الأول من اسم أمها. تسهل عليه هذه العادة تَتَبُّع النسل.

وصل إلى مارثا في الحظيرة الأخيرة. كانت حُبلى وستلد خلال أربعة أيام. ملأ حوضها بالحبوب، ومسقاها بالماء. رفعت نفسها من سريرها المصنوع من القش، وتبخترت بثقل نحو الحوض القريب من الباب حيث لم تأكل أو تشرب فورًا، ولكن أراحت ذقنها على الخشبة الأفقية وحكَّتها. مسح على رأسها وبين أذنيها فخنخنت في رِضا.

"أليس" قال وهو يفكر. كان الخطاب على باله طوال الوقت. "ما استنتاجك يا مارثا؟".

نظرت الخنزيرة إليه بعيون ممتلئة بالتفكير.

اعترف "لا أقدر على التفكير. حفيدة أولى؟ هل هذا هو الموضوع؟ وروبين، ماذا يحدث مع روبين؟"، وتنهَّد بعمق.

تأمَّلَت مارثا حذاءه الغارق في الوحل للحظة وعندما رفعت عينيها نحوه بنظرة مباشرة.

هزَّ رأسه "صحيح. مود ستعرف. ولكن مود ليست هنا، أليس كذلك؟".

كانت مود أم مارثا هي أفضل خنزيرة عرفها على الإطلاق. أنتجت العديد من البطون والكثير من الخنانيص، ولم تفقد واحدًا في حادث أو عن إهمال، بل إنها تستمع إليه كما لم تستمع أي خنزيرة من قبل. تتركه يحكي ما في ذهنه، وهي صبورة ورقيقة وعندما يشاركها سعادته فيما يخص الأولاد كانت عيونها تضيء بالسرور، وعندما يحكي لها عن همومه -روبين. يكاد الموضوع يدور حول روبين دائمًا- تحمل عيونها الحكمة والتعاطف، ولم يتركها أبدًا دون أن يتحسَّن شعوره بخصوص الأمور. إصغاؤها الهادئ والطيب مَكَّنه من أن يتحدث عن أفكاره بصوت عالٍ، وأحيانًا لم يدرك أن لديه أفكار مُعيَّنة سوى بعد أن ينطق بها. يبقى ذهن الرجل في الظلال حتى يظهر المؤتمن المناسب وقد كانت مود هي هذا المؤتَمَن. من دونها، لم يكن ليعرف أشياء مُعيَّنة عن نفسه أو عن ابنه. في هذه البقعة منذ بضع سنوات، أشركها في الخلاف الدائر بينه وبين زوجته حول روبين وسرقة الخزانة. بينما يعيد حكي الحكاية لمود، رآها من جديد، ولاحظ ما وقر في عقله ولكنه لم ينتبه له في وقتها. قال روبين لقد رأيت رَجُلًا! رأيت حذاءه يختفي خارج النافذة! ترى فِطرةُ أرمسترونج أفضل ما في الناس، وإيمانه بالصبي كان عفويًا. دفعته نظرة مود المتسائلة لتَذَكُّر الانتظار المترقِّب الذي تلى قصة الصبي وعرف وقتها في قلبه ما تفسيره: كان روبين يراقب ليرى ما إن كان قد نجا. تألَّم أرمسترونج لقبول ذلك ولكن في هذه الحالة كانت بيث على حق.

كان روبين في طريقه إلى الدنيا عندما تزوَّجا، وقد وضع في رحمها رجلٌ آخر. اختار روبين أن ينحِّي هذه المعلومة جانبًا، ولم يكن ذلك صعبًا؛ لأنه أحبَّ الصبي من كل قلبه. كان مُصمِّمًا على تكوين أسرة غير مُفكَّكَة أو مُفتَّتة، ولكن كاملة وتامَّة، ولم يسمح بأن يترك أيًّا من أفرادها خارجها. يوجد حُبٌّ يكفي الجميع. سيُبقيهم الحب معًا، ولكن عندما أدرك أن اللص الذي ترك الخزانة مُحطَّمة وعبث

بمحتوياتها هو روبين، بكى. نظرت إليه مود بحيرة. ما الذي سيحدث الآن؟ وجد الإجابة. غَمْرُ الصبيِّ بالحب أكثرَ من قبل سيُصلح الأمور. دافع عن روبين منذ ذلك اليوم بحماس أكثر من قبل.

نظر إليه روبين مرة أخرى. بدا كأنه يقول "حقًّا؟".

جلب التفكير في مود الدموع إلى عيونه فجأة، ووقعت واحدة من دموعه على رقبة مارثا الغليظة وعَلقَت للحظة في الشعر الأحمر الذي ينبت منها، ثم تدحرجت إلى الوحل.

رفع أرمسترونج طرف قميصه إلى وجهه ومسح البَلَل ثم نهر نفسه "هذه حماقة".

نظرت إليه مارثا بثباتٍ من بين رموشها الحمراء.

"ولكنك تفتقدينها، أليس كذلك؟".

ظَنَّ أنه شاهد عيونها تبتلُّ.

"كم مضى من الوقت؟" أحصى الشهور في رأسه "سنتان وثلاثة شهور. وقت طويل. من أخذها؟ كنتِ موجودة يا مارثا. لماذا لم تصرخي عندما أتى وسرق أُمَّكِ؟".

منحته مارثا نظرة طويلة وحادَّة. تفَحَّص تعبيرها وحاول فَكَّ شفرته وفشل لأول مرة.

كان يمنحها حكَّةً أخيرة عندما رفعت ذقنها من على السور واستدارت باتجاه النهر. نظر في نفس الاتجاه. لم يكن يوجد شيء ليشاهده، ولم يكن قد سمع شيئًا أيضًا، ومع ذلك، فلا بُدَّ من وجود شيء ما. تبادَلَ النظرات مع الخنزيرة. لم يرَ هذه النظرة في عيونها من قبل، ومع ذلك لم يكن عليه سوى أن يقارنها بإحساسه هو كي يعرف ما تعنيه.

"أظنُّ أنك على حقٍّ يا مارثا. سيحدث شيءٌ ما".

السيدة فون وعفاريت النهر

تكوَّنَت لؤلؤةٌ من الماء على طرف عينها. تخصُّ العين سيِّدة شابَّة تستلقي على أرض قارب. تستقرُّ الخرزة السائلة في المكان الزهري حيث ينتفخ الجفن مُتحوِّلًا إلى التعقيد الدقيق الذي هو القناة الدمعية. ارتجفت مع الحركة المتأرجحة للمركب، ولكنها لم تسقط أو تنكسر لأن الرموش التي تنبت تحتها وفوقها قد دعَّمَتها.

"السيدة فون؟".

جذَّفَت الشابَّة عبر النهر، ثم رفعت كفوف المجاديف لتسمح للقارب الصغير أن يسبح إلى داخل غور القصب الذي يثبِّتها الآن. بوصول الكلمات من الشاطئ إلى المرأة في القارب كانت شبورة النهر البيضاء قد غسلت عنها الإلحاح. طافت الكلمات نحو أذنها مغسولةً ومُشبعةً بالرطوبة، وبدا أن صوتها أعلى قليلًا من صوت الأفكار داخل رأسها.

قالـت هيلينـا لنفسـها السـيدة فـون، هـذه أنـا. بـدا لهـا كأنـه اسـم شـخص آخـر تمامًـا. تسـتطيع أن تتخيَّـل السـيدة فـون وهـي لا تشـبهها نهائيًّـا. عجـوز في حـوالي الثلاثـين بوجـه يشـبه اللوحـات المعلَّقـة في ردهـة منـزل زوجهـا. مـن الغريـب أن تفكـر أنهـا كانـت هيلينـا جرفيـل منـذ سـنوات قليلـة ماضيـة فقـط. بـدا أن الوقـت أطـول كثـيرًا. عندمـا تفكـر في هـذه الفتـاة الآن، يبـدو الأمـر وكأنهـا تفكـر في شـخص كانـت تعرفـه، وتعرفـه جيـدًا، ولكنهـا لـن تـراه أبـدًا مـرة أخـرى. هيلينـا جرفيـل رحلـت إلى الأبـد.

"الجو باردٌ جدًّا على البقاء في الخارج يا سيدة فون".

بـارد، نعـم. عـدَّدَت هيلينـا فـون الـبرد. يوجـد بـرد البقـاء بـلا معطـف ولا قُبَّعـة ولا قفَّـازات. بـرد الهـواء الـذي يلصـق فسـتانها بالرطوبـة عـلى جلدهـا ويدفـع بالقشـعريرة إلى صدرهـا وذراعيهـا وسـاقيها. يوجـد أيضًـا بـرد الهـواء وهـو يتسـرَّب داخلهـا ليَخِـزَ أنفهـا ويجعـل رئتيهـا ترتعشـان. بعـد كل هـؤلاء يـأتي بـرد النهـر. كان الأبطـأ. يتمهَّـل ليصـل إليهـا عـبر الألـواح السـميكة للقـارب، ولكنـه عندمـا يفعلهـا فإنـه يحـرق أطـراف عظـام كتفيهـا ومؤخِّـرة جمجمتهـا وقفصهـا الصـدري وقاعـدة عمودهـا الفقـري، وجميـع مناطـق جسـمها التـي تسـتلقي عـلى صلابَـةِ تَقـوُّس الخشـب. ينكـز النهـر القـارب ويسـحب منهـا الـدفء بحركتـه المهدهـدة والمهتـزَّة. أغلقـت عينيهـا.

"هل أنتِ هنا؟ أجيبيني بحق السماء!".

أجابـت... اسـتخرجت الكلمـة ذكـرى مـن بضعـة سـنوات مضـت. العمـة إليـزا تحدَّثَـت عـن إجابـة مـا. قالـت: "فكِّـري قبـل أن تجيبـي؛ لأن فرصـة مثـل هـذه لا تـأتي كل يـوم".

كانـت العمَّـة إليـزا هـي أخـت والـد هيلينـا. ترمَّلـت في أربعينياتهـا وبلا أبنـاء، فأتـت لتعيـش مـع أخيهـا وطفلتـه مـن زواجـه المتأخِّـر كي تقلقهـم

وتضايقهم كما رأت هيلينا الأمر. ماتت والدة هيلينا عندما كانت الطفلة صغيرة، وكان رأي إليزا أن الطفلة تحتاج إلى مَن تلعب دور الأم لتأخذ بيدها. كان أخوها الذي يمتلك حوض سفن يصنع قوارب رائعة. أموال قليلة. غريب الأطوار. أهمل في فرض الانضباط اللازم، وكادت الفتاة ألّا تكون متعلِّمة. حاولت إليزا وفشلت في أن يكون لها تأثير كبير. اشتكت هيلينا لوالدها من إليزا في الأيام الأولى، وقال لها -مع غمزة-: "ليس لديها مكان آخر لتذهب إليه يا قرصانة. هُزّي رأسك وقولي نعم لأي شيء تقوله، ثم افعلي ما يحلو لك. هذا ما أفعله دائمًا". نجحت الاستراتيجية. استمرَّ الأب والابنة في العيش معًا في صداقة عظيمة، ولم يسمح أيٌّ منهما لإليزا بالتدخُّل في أيامهما على النهر وفي حوض السفن.

قالت العَمَّة إليزا لهيلينا وسط تحذيرات لها أن تتمهَّل عددًا كبيرًا من الأمور التي تعرفها جيِّدًا لأنها جميعًا عنها. ذكرت هيلينا -وكأنها قد نسيت- أنها بلا أم. أشارت إلى عمر والدها الكبير وصحَّته الضعيفة. وبينما أنصتت هيلينا بلا انتباه كبير، قادت العمَّة إليزا في اتجاه مُعيَّن، وسمحت العمة إليزا أن تُقاد لانغماسها فيما تقوله. وصلوا إلى النهر ومشوا بمحاذاة شاطئه. تنفَّسَت هيلينا رعشة البرد والهواء الصحو وشاهدت البط وهو يغطس في الماء المنعش. ارتجف كتفاها عندما خطرت المجاديف على بالها. وشعرت في معدتها بالسَّحبة الأولى في الماء، لقاء القارب مع التيار... يسأل أبوها دائمًا "مع التيار أم عكسه؟ إن لم يكن هذا الاتجاه فسيكون الاتجاه الآخر، وستكون مغامرة في أي اتجاه!".

ذكَّرَت العمة إليزا هيلينا بحالة أبيها المالية المتداعية أكثر من حالته الصحية ثم -كانت أفكار هيلينا تسري مع النهر، قد يكون فاتها شيء- تحدَّثَت إليزا عن شخص يدعى السيد فون وعن عطفه وكياسته وحقيقة أن أعماله مزدهرة. وختمت العمة إليزا كلامها بقول

"ولكـن إن لم تكـوني راغبـة، فقـد أعطـاني أبـوكِ تعليـمات أن أقـول لـك إن كل مـا عليـك فعلـه هـو أن تقـولي ذلـك، وسـنُنحِّي الأمـر برُمَّتـه جانبًـا، ولـن نقـول كلمـة أخـرى عـن الموضـوع". كان الموضـوع غامضًـا عـلى هيلينـا في البدايـة، ثـم فجـأة أصبـح واضحًـا جـدًّا.

أرادت أن تعرف "مَن منهم هو السيد فون؟".

ارتبكـت العمـة إليـزا "قابَلتِـه عـدَّةَ مـرَّاتٍ، لمـاذا لا تنتبهـين أكـثر؟". كان أصدقـاء أبيهـا وشركاؤه بالنسبة لهيلينـا نُسَـخًا مختلفـة مـن نفـس الرجـل: ذكَـر، عجـوز، مُمِـلٌّ. لم يكـن أي منهـم يثـير الاهتـمام مثـل أبيهـا، أو حتـى يقـترب منـه. وكان يفاجئهـا أنـه يقـضي أي وقـت معهـم.

"هل السيد فون مع أبي الآن؟".

انطلقــت ركضًــا نحــو المنــزل مُتجاهِلــةً احتجــاج العمَّــة إليــزا. في الحديقـة قفـزت فـوق الشـجيرات وتسـلَّقَت نحـو نافـذة غرفـة المكتـب. اعتلَـت قاعـدة جَـرَّة كبـيرة، فاسـتطاعت بالـكاد رؤيـة الغرفـة مـن الداخـل حيـث كان أبوهـا يدخِّـن بصحبـة رجـل آخـر. لم يكـن السـيد فـون أحـد الرجـال أصحـاب الشَّـعر الأبيـض والأنـوف الحمـراء. تعرَّفَـت عليـه الآن. إنــه الشــاب المبتســم الــذي كان أبوهــا يســهر معــه يدخِّنــان الســيجار ويشربـان. سـمعت ضحكاتهـم وهـي تذهـب لتنام. سَرَّهـا أن يجـد أبوهـا شـخصًا يرفـع مـن معنوياتـه في المسـاءات. كان لـه شَـعرٌ بُنِّـيٌّ، وعيـون بُنِّيَّـة، ولحيـة بُنِّيَّـة. مـا مَيَّـزه بخـلاف ذلـك هـو صوتـه. كان يتحـدَّث مثـل أي رجـل إنجليـزي آخـر أغلـب الوقـت، إلَّا أن شـيئًا مـا يفلـت مـن بـين شـفتيه في أحيـان متفرِّقـة لـه جَـرْسٌ غـير مألـوف. أثـار الإنصـات لهـذه المنطوقـات الغريبـة اهتمامهـا وسـألته عنهـا.

قال لها: "نشأتُ في نيوزيلندا. تملك عائلتي مناجم هناك".

قيَّمَـت الرجـل العـادي عـبر النافـذة ولم تشـعر بـأي اعـتراض قـوي عليـه.

سحبت هيلينا كعبيها من على قاعدة الجَرَّة وتعلَّقت مُتأرجِحَةً بخِفَّة من إفريز النافذة مستمتعةً بالشَّدَّة في ذراعيها وكتفيها. عندما سمعت العمَّة إليزا تقترب تركت نفسها تسقط.

"أتصوَّر أنه سيكون عليَّ تَرْكُ المنزل إذا تزوَّجتُ السيد فون؟".

"سيكون عليك ترك المنزل في يوم قريب. أبوك في حال غير جيِّد تمامًا. مستقبلك غير واضح ومن الطبيعي أن يتلهَّف لرؤيتك مُستقرَّةً في الحياة. إن تزوَّجتِ السيد فون ستذهبي للعيش معه في بوسكوت لودج، إنما إن لم...".

"بوسكوت لودج؟" توقَّفَت هيلينا فجأة. كانت تعرف بوسكوت لودج. بيت كبير على الطرف الصاخب من النهر. يوجد عنده جزءٌ ناعم ومستوٍ، ومكان ينقسم فيه التَّيَّار ليسري حول جزيرة، ثم قبل ذلك بالظبط توجد نُقَط يبدو عندها أن الماء نسي أنه نهر على الإطلاق وتسكَّع مثل بحيرة صغيرة. يوجد هناك عجل طاحونة، وجسر سانت چون، ومرفأ قوارب...

جدَّفَت في يومٍ ما، واقتربت بقاربها الذي يتَّسِع لشخص واحد من المرفأ، ثم نظرت بداخله وهي تقف بلا ثبات. كان واسعًا جدًّا.

"هل سيسمح لي أن آخذ قاربي؟".

"هذا أمرٌ جادٌّ يا هيلينا. لا مكان في الزواج للقوارب والنهر. إنه عَقدٌ مُلزِمٌ قانونًا، وفي عيون الله".

ولكن هيلينا كانت قد انطلقت تركض بأقصى سرعة عبر العشب حتى باب المنزل.

أضاءت أعين والد هيلينا لرؤيتها عندما اقتحمت غرفة المكتب "ما رأيك في هذه الفكرة الحمقاء ها؟ إن كانت كومة من الهُراء بالنسبة لك، كل ما عليك هو أن تقولي ذلك. على الجانب الآخر، فإن

كومة الهراء ستكون هي كل المطلوب إن رغبتِ فيها... مع التيَّار أم ضدَّه يا قرصانة؟ ما قولك؟".

قام السيد فون من كرسيه.

سألته "هل يمكن أن أجلب قاربي معي؟ هل يمكن أن أذهب إلى النهر كل يوم؟".

لم يَرُدَّ السيد فون فورًا لدهشته.

قال أبوها: "هذا القارب يشهد آخر أيَّامه".

جادَلَته "ليس سيئًا إلى هذه الدرجة".

"آخر مرَّة ألقيت عليه نظرة كان به ثقوب".

هزَّت أكتافها "انزح عنه الماء".

"إنه مثل مصفاة. يُدهِشُني أن تقطعي هذه المسافات به".

اعترَفَت "عندما يغوص في الماء بشكل زائد، أعود إلى الشاطئ وأقلبه، ثم أبدأ مرَّةً أخرى".

ناقشوا أمر القارب مثل شخصين مُخَلَّدَيْن يستحيل عليهما الغرق.

أدار السيد فون رأسه بين الأب والابنة خلال حوارهما، وقد بدأ يفهم أهمية المراكب في الأمر.

اقترح "بإمكاني إصلاحه لكِ. أو آتي لك بآخر جديد إذا أردتِ".

فكَّرَت. هزَّت رأسها. "حسنًا".

نظَرَت العمَّة إليزا التي أتت إلى الجدال متأخِّرَةً بحدَّة إلى هيلينا. بدا أن شيئًا ما قد حُسِم، ولكن ما هو؟ عطف عليها السيد فون وأعلمها.

"لقد وافَقَت الآنسة جرفيل أن تسمح لي بشراء قارب جديد لها. ومع تَخلُّصنا من هذا الأمر يمكننا أن نناقش أمورًا أقلَّ أهمية. يا آنسة جرفيل، هل تمنحينني شرف أن تصبحي زوجتي؟".

مغامرة أيًّا كان القرار...

هزَّت رأسها بحسم "اتَّفقنا".

شعرت العَمَّة إليزا أن كل هذا الأمر قاصر عمَّا يجب أن يكون عليه عرض الزواج وقبوله، ففتحت فمها لتخاطب هيلينا، ولكن هيلينا تكلَّمَت أوَّلًا.

"أعرف أن الزواج عقدٌ مُهمٌّ في عين الله والقانون" ردَّدَت مثل الببغاء. شاهدت أشخاص يحسمون عقودًا مُهمَّةً قبل ذلك، ولأنها تعرف كيف يتم الأمر؛ مدَّت يدها كي تصافح السيد فون.

أخذ السيد فون كفَّها وأداره، ثم انحنى وزرع قُبلةً عليه. فجأة أصبح الدور على هيلينا كي ترتبك.

وفى خطيب هيلينا بوعده، وتمَّ طلب قارب جديد وإصلاح القديم "مؤقَّتًا". وخلال وقت قصير أصبح لديها قاربان ومرفأ تضعهما فيه، وقطعة من النهر تستطيع أن تدَّعي ملكيَّتها، واسمٌ جديدٌ. بعد فترة قصيرة، مات والدها. ذهبت العَمَّة إليزا لتعيش مع أخيها الأصغر في والينجفورد. ثم حدثت أشياء أخرى كثيرة، وجَرَف التيار هيلينا جرفيل ونسيها الجميع حتى السيدة فون.

لاحِقًا اختارت أن تُخرِج القارب القديم- قارب هيلينا جرفيل. لم تبتعد كثيرًا. مع التيار أم ضده؟ لا. لم تكن تبحث عن مغامرة. كل ما فعلته هو أنها جدَّفَت إلى الجانب البعيد وتركت القارب ينجرف نحو القصب.

أتى الصوت الضعيف مرَّةً أخرى "آه من هذا الضباب! ماذا سيقول السيد فون؟".

فتحت هيلينا عيونها. كان الهواء مُشبَعًا بالماء ومُغبَّشًا، وقد رأته عبر السائل الذي تجمَّع في طرف عينها. لم تكن تقدر على رؤية شيء من العالم... لا سماءَ ولا أشجار. حتى القصب الذي أحاط بالقارب كان خَفيًّا. تأرجَحت وتقافَزَت مع النهر واستنشقت رطوبة الهواء ونظرت إلى الضباب الذي مرَّ بتثاقُل، مثل تيار يكاد يكون راكدًا في جدول جانبي. مثل الأنهار التي تعرفها في أحلامها. غرق العالم كلُّه تارِكًا نفسها الباردة وحدها، وقارب هيلينا جرفيل، والنهر الذي يتحرَّك ويضغط تحتها مثل كائن حي.

أجفلت. تورَّمَت الدَّمعة، وتجمَّعَت، وتسطَّحَت، ولكنها تماسَكَت داخل غشائها غير المرئي.

كم كانت هيلينا جرفيل فتاةً شجاعة. أسماها أبوها "القرصانة"، وقد كانت قرصانة بالفعل، ويئست منها العَمَّة إليزا.

كانت إليزا تقول لها: "يوجد جانب آخر للنهر. في يوم من الأيام لعبت فتاة صغيرة شقيَّة قريبًا من الشاطئ. وفي أحد الأيام، وبينما هي غير منتبهة، ظهر من الماء عفريتٌ وأمسك بشَعر الفتاة الصغيرة، وأخذها معه إلى عالم العفاريت تحت النهر، وهي ترفس وترشُّ الماء. وإن لم تصدِّقيني"... هل صدَّقَتها؟ من الصعب أن تعرف الآن! "إن لم تُصدِّقيني فكلُّ ما عليك فِعلُه هو الإنصات. هل تسمعين الماء وهو يطرطش؟".

هزَّت هيلينا رأسها. من الرائع معرفة كل هذا. العفاريت تعيش تحت النهر في عالم العفاريت الخاص بهم. كم هذا رائع!

"أنصتي إلى الأصوات بين الطرطشات. هل تسمعين؟ توجد فقَّاعات صغيرة جدًّا جدًّا تطفو على السطح وتفرقع. كل هذه الفقَّاعات تحمل

رسائل من أطفال ضائعين. إن كانت آذانك حادَّة السَّمع ستسمعين صيحات تلك الفتاة الصغيرة وكل الأطفال المشتاقين إلى منازلهم الذين ينتحبون من أجل أمهاتهم وآبائهم".

أنصتت. هل سمعت؟ لم تكن متأكِّدةً الآن. ولكن إن أخذها العفاريت تحت الماء كان أبوها سيأتي ببساطة ويسترجعها. كان ذلك بديهيًا، حتى إن هيلينا جرفيل شعرت بالازدراء نحو عمَّتها لأنها لم تدرك ذلك بنفسها.

نسيت هيلينا جرفيل حكاية العفاريت على الجانب الآخر المميت من النهر لسنوات وسنوات، ولكن هيلينا فون تذكَّرته الآن. كاد صوت الماء أن يكون منتظمًا وهو يخبط بلا إلحاح، والنهر يلحس ويشفط القارب. أصغت إلى الصوت واستمعت إلى الفراغات بين الصوت. لم يكن من الصعب سماع أصوات الأطفال الضائعين. سمعتهم بوضوح تام.

"يا سيدة فون! ستموتين! عودي يا سيدة فون!".

خبط النهر وارتفع القارب وهبط، ونادى صوتٌ صغير من بعيد بلا توقُّف والِدَيْه من أعماق عالم العفاريت.

"كل شيء على ما يرام!" همَسَت بشفاه بيضاء. استجمَعَت عضلاتها الباردة، وجمعت أطرافها المترعِّشة ليستعدُّوا للقيام "ماما ستأتي!".

انحنت خارج القارب بينا هو يميل. انسكبت الدمعة من عينها وسقطت في البَلَل الأوسع للنهر، وقبل أن تُحرك ثِقَلَها بما يكفي أن تتبعها ثَبَّت شيءٌ ما القارب، ووجدت نفسها تقع داخله. عندما نظرت إلى الأعلى، كانت هيئة رمادية غير واضحة تنحني فوق مُقدِّمة قاربها وتقبض على المربط. استقام الظِّلُّ الذي يتوسَّط الضباب ورأته يستطيل مثل رجل داخل قارب. رفع ذراعًا في حركة تشبه إلقاء عصا لمعرفة كم تبعد أرض النهر، ثم شعرت بإحساس قوي كأنها تُسحَب.

بَـدَت سرعـة الحركـة عـبر المـاء منفصلـة بشـكل غريـب عـن حركـة الظـل السَّلِسَــة. أرخــى النهــر قبضتــه، وقُطِــرَت عائِــدةً نحــو الشــاطئ بسرعــة أدهشــتها.

دَفعَة أخيرة وضعت الشكل الرمادي للمرسى في مرمى البصر.

كانــت الســيدة كلــير تنتظــر والبســتاني بجوارهــا. مــدَّ يــده إلى الحبــل وأَمَّــن القــارب. وقفــت هيلينــا وخرجــت مــن القــارب ويــد الســيدة كلــير تمنحهــا ثباتًــا.

"إنك مُتجمِّدة حتى العظم! ماذا دهاكِ يا عزيزتي؟".

نظَرَت هيلينا خلفها نحو الماء. "لقد رحل...".

"مَن الذي رحل؟".

"البَحَّار. لقد أرجعني".

نظَرَت السيدة كلير إلى وجه هيلينا الذاهل بحيرة.

سألت البستاني همسًا "هل رأيتَ أحدًا؟".

هزَّ رأسه "إلَّا... هل تَظُنِّين أنه كوايتلي؟".

عبَسَــت الســيدة كلــير وهــزَّت رأســها "لا تــزرع أوهامًــا في رأســها. وكأن الأمــور ليســت ســيئة بمــا يكفــي بالفعــل".

ارتجفــت هيلينــا فجــأة رجفــةً عنيفــة. نزعــت الســيدة كلــير معطفهــا ولفَّــت بــه أكتافهــا "أنــتِ تكاديــن تقتليننــا مــن القلــق. تعــالي إلى الداخــل".

أمســكت الســيدة كلــير بذراعهــا بقــوة، بينــما أمســك البســتاني بالــذراع الآخــر، وشــقُّوا طريقهــم دون توقُّــف عــبر الحديقــة عائديــن إلى المنــزل.

توقَّفَــت هيلينــا عــلى عتبــة المنــزل بِحــيرة ونظَــرَت خلــف كتفهــا نحــو الحديقــة والنهــر مــن ورائهــا. كان ذلــك الوقــت مــن بعــد الظهــيرة، حــين يتــسرَّب الضــوء سريعًــا مــن الســماء، وكان الضبــاب يــزداد قتامــة.

همهَمَت لنفسها إلى حدٍّ ما "ما الأمر؟".

"ما أمر ماذا؟ هل سمعتِ شيئًا؟".

هزَّت السيدة فون رأسها "لا أسمعه. لا".

"ماذا إذًا؟".

أمالـت هيلينـا رأسـها جانبًـا، وصـار أمـام عيونهـا بـؤرة تركيـز جديـدة، كـما لـو كانـت توسَّـع مـدى إدراكهـا. بحثـت عنهـا مديـرة المنـزل أيضًـا، وأمـال البسـتاني رأسـه وتسـاءل. هبـط الشُّـعور -ترقُّـب أو شيء يُشـبِهه نوعًـا مـا- عـلى ثلاثتهـم. نطقـوا مُتَّحِديـن "سـيحدث شيءٌ مـا".

حكايةٌ مُتقَنَة

كان هنـا. تـردَّد السـيد فـون وهـو يتوقَّـف في شـارع ممتلـئ بالمنـازل الصغـيرة المتَّصِلـة في أوكسـفورد. نظـر يسـارًا ويمينًـا، ولكـن السـتائر في المنـازل محترمـة المظهـر كانـت سـميكةً أكـثر مـن أن تكشـف إن كان شـخصًا مـا يقـف وينظـر إلى الخـارج. ومـع ذلـك، لـن يتعـرَّف عليـه أحـد في الرطوبـة الخفيفـة في الهـواء وهـو يرتـدي قُبَّعَتـه. هـو لـن يدخـل عـلى كل الأحـوال. عبـث لبرهـة بمقبـض حقيبتـه ليعطـي نفسـه سـببًا للتَّوقُّـف، ونظـر مـن تحـت حافَّـة القُبَّعـة عـلى المنـزل رقـم 17.

تشـارك المنـزل مـع جيرانـه في الأجـواء المنظَّمـة والمحترمـة. كانـت تلـك هـي المفاجـأة الأولى. كان يظـنُّ أن شـيئًا مـا سـيُميِّزه عـن غـيره. بالطبـع كان كل بيـت في الشـارع يختلـف قليـلًا عـن جـاره لأن البَنَّـاء قـد بـذل جهـدًا مـن أجـل ذلـك. كان للـذي توقَّـف أمامـه إضـاءة جذَّابـة فـوق البـاب الأمامـي، ولكـن لم يكـن هـذا هـو الفـرق الـذي يقصـده. لقـد توقَّـع

لونًـا صارخًـا عـلى البـاب الأمامـي ربمـا، أو تفصيلـة مسرحيـة في وضـع الستـائر. ولكـن لم يكـن هنـاك أي شيء مـن هـذا النـوع. قـال لنفسـه هـؤلاء النـاس ليسـوا حمقـى. بالطبـع سيجعلون شـكله محترمًـا.

لم يكـن الشـخص الـذي ذكـره لفـون أكـثر مـن واحـد مـن معارفـه وقـد سـمع بـه هـو نفسـه مـن صديـق لأحـد أصدقـاءه. مـا يتذكّـره فـون مـن الحكايـة المُتناقَلَـة، أن زوجـة رَجُـلٍ مـا اضطربـت بشـدَّة بعـد وفـاة أمهـا، حتـى إنهـا أصبحـت طيفًـا مـن نفسـها السـابقة تـكاد لا تنـام ولا تقـدر عـلى الأكل، وصمَّـت آذانهـا عـن الأصوات المُحبَّـة لزوجهـا وأبنائهـا. عجـز الأطبـاء عـن إيقـاف تدهورهـا، وأخـيرًا -بتشـكٍّ، ولكـن لنفـاد جميـع الإمكانيـات الأخـرى- صَحِبَهـا زوجُهـا كي تـرى السـيدة كونسـتنتين. بعـد مقابلتـين مـع هـذه الشـخصية الغامضـة، اسـتعادت السـيدة المذكـورة صِحَّتهـا ورجعـت إلى مسـؤولياتها المنزليـة والزوجيـة بـكل هِمَّتهـا القديمـة. انتقلـت القصـة التـي سـمعها فـون عـدَّة مـرَّاتٍ، حتـى إنهـا في الأغلـب لا تحمـل سـوى علاقـة عرضيـة بالحقيقـة. بـدا الأمـر وكأنـه مُجـرَّد هذيـان ولم يكـن يؤمـن بالرُّوحانيِّـين ولكـن-أو كـما يتذكَّـر أنـه الرجـل الـذي يعرفـه قـال لـه- أيًّـا كان مـا تفعلـه هـذه المـرأة فقـد نجـح "سـواء آمَنَـت بـه أم لا".

كانـت اسـتقامة مظهـر البيـت لا تشـوبها شـائبة. البوَّابـة والممـر والبـاب الأمامـي كانـوا تجسـيدًا للنظـام. لم يوجـد دهـان مُتقـشِّر أو مقبـض بـاب مُبقَّـع أو آثـار أقـدام مُتَّسـخة عـلى الـدَّرَج. تصـوَّر أن مَـن يأتـون هنـا لا يجـدون شـيئًا يشـجِّع تَردُّدَهـم ولا شيء يتسـبَّب في أن يـتردَّدوا وينسـحبوا. كل شيء عـلى أكمـل وجـه، ولا مـكان للشـك أن ينمـو. لم يكـن المـكان مُفرِطًـا في الفخامـة بالنسـبة للشـخص العـادي، أو متواضِعًـا بالنسـبة للأثريـاء. انتهـى إلى أنـه لا مَفـرَّ مـن الإعجـاب بهـم؛ فقـد أتقنـوا كل شيء.

وضـع طـرف إصبعـه عـلى البوَّابـة، وانحنـى ليقـرأ الأسـماء المكتوبـة عـلى اللافتـة النحاسـية المجـاورة للبـاب: البروفيسـور كونسـتنتين.

لم يسـتطع منـع نفسـه مـن الابتسـام. يـا لغرابـة محاولتهـم إظهـار نفسـهم عـلى أنهـم مـن رُوَّاد الجامعـات!

أوشـك فـون عـلى رفـع إصبعـه عـن البوَّابـة ولكنـه لم يفعـل ذلـك فعـلًا -بـل إن نيَّتـه في الاسـتدارة والمغـادرة أخـذت في التحقُّـق ببـطء غامـض- حـين انفتـح البـاب رقـم 17. ظهـرت عنـد البـاب خادمـة تحمـل سـلَّة. كانـت خادِمـةً مُهَندَمـةً ونظيفـة وعاديـة مـن النـوع نفسـه الـذي يحـب هـو أن يوظِّفـه في بيتـه، وتحدَّثَـت معـه بصـوتٍ مُرتَّـب ونظيـف وعـادي.

"صباح الخير يا سيدي. هل تبحث عن السيدة كونستنتين؟".

قـال: "لا، لا"... إلَّا أن الكلـمات فشـلت في الـتردُّد في أذنـه، وأدرك أن ذلك لأنهـا لم تصـل إلى شـفتيه بعـدُ. محاولاتـه أن ينفـي مظهـره كزائـر للمنـزل أربكتهـا يـده التـي فتحـت مـزلاج البوَّابـة، وقدمـاه اللتـان خَطَتـا في الممـر نحـو البـاب الأمامـي. وضعـت الخادمـة سـلَّة التَّسـوُّق مـن يدهـا وشـاهد هـو نفسـه وهـو يعطيهـا حقيبتـه وقُبَّعتـه كي تضعهـما عـلى الطاولـة في البهـو. شـمَّ رائحـة شـمع العسـل، ولاحـظ لمعـة الأعمـدة مغزليَّـةَ الشـكل عـلى السُـلَّم، وشـعر بـدفء البيـت يحتويـه- وخـلال كل هـذا الوقـت لم يكـن حيـث يجـب أن يكـون، يخطـو بعيـدًا في الشـارع بعـد توقُّـفٍ عَـرَضيٍّ خـارج البوابـة ليتأكَّـد مـن أن حقيبتـه مغلقـة.

"هـل تريـد أن تنتظـر السـيدة كونسـتنتين هنـا يـا سـيدي؟" قالـت الخادمـة وهـي تشـير إلى مدخـل. رأى عـبر المدخـل نارًا مشـتعلة وحشـوات مـن قـماش النجـود فـوق مقعـد مـن الجلـد وسـجادة إيرانيـة. خطـا داخـل الغرفـة، وطغـى عليـه شـعورٌ أنـه يريـد البقـاء هنـا. جلـس عـلى طـرف الأريكـة الكبـيرة وشـعر بالحشـوات العميقـة تُشـكِّل نفسـها حولـه. احتـلَّ

قِطٌّ مُشمشيٌّ ضخمٌ الطرف الآخر من الأريكة ونهض من نومه وبدأ في المواء. مدَّ السيد فون يدًا كي يربِّت عليه.

"مساء الخير".

كان الصوت هادِئًا ومُنغَّمًا. مُهذَّبًا. استدار ليرى سيدة في منتصف عمرها بشَعرٍ رماديٍّ مشدود بعيدًا عن جبهة عريضة ومستوية. كان فستانها أزرق غامِقًا؛ ممَّا جعل عيونها الرمادية تكاد تبدو زرقاء، وياقته بيضاء بلا زخارف. نغزت السيد فون ذكرى مفاجئة لأمه؛ ممَّا فاجأه؛ لأن هذه السيدة لا تشبه أمَّه بالمرة. كانت أمه عند وفاته أطولَ وأكثر نحافةً وذات بشرة أكثر سمارًا، ولم تكن بهذه البساطة المرتَّبة أبدًا.

نهض السيد فون وبدأ في الاعتذار "لا بُدَّ أنك تظُنِّين أنني أخرق. الوضع مُحرِج بشدَّة، وأسوأ ما في الأمر أنني لا أعرف كيف أبدأ في الشرح. كنتُ في الخارج، ولم تكن لديَّ النِّيَّة في الدخول- ليس اليوم على أي حال. لا بُدَّ أن ألحق بقطار. حسنًا، ما لا أجيد شرحه هو أنني لا أطيق غرف الانتظار، وبما أنه لديَّ مُتَّسَع من الوقت بدا لي أنه يمكنني على كل حال أن آتي لأرى أين مكانك من أجل المرور لاحِقًا. كانت هذه نيَّتي، إلَّا أنه تَصادَف أن تفتح خادمتكِ الباب في تلك اللحظة، وبالطبع ظنَّت- أنا لا ألومها مُطلقًا. الأمر برُمَّته مُجرَّد توقيت سيئ، هذا كل ما في الأمر، مجرَّد توقيت سيئ...". واستمرَّ في الكلام. ينتزع الأسباب، ويقبض على المنطق، وتُراوغه جميعها جُملَةً تلو الأخرى، وشعر أن كل كلمة كانت تسحبه أبعدَ وأبعد عمَّا يقصد قوله.

وبينما يتحدَّث، استقرَّت عيناها الرماديتان بصبر على وجهه، ومع أنها لم تكن تبتسم إلا أنه شعر بتشجيع رقيق في الخطوط المعبِّرة التي تحيط بعيونها. وأخيرًا نفَدَت منه الكلمات.

قالـت وهـي تهـزُّ رأسـها: "فهمـت. لم تقصـد أن تزعجنـي اليـوم. كنـتَ تَمـرُّ وأرَدتَ أن تتأكَّـد مـن العنـوان...".

"هـذا صحيـح!". شـعر بالتخفُّـف لإعفائـه بـكل سـهولة، وانتظرهـا كي تبـدأ بالـوداع. بـدأ بالفعـل في تخيُّـل نفسـه وهـو يسـتعيد قُبَّعتـه وحقيبتـه مـن البهـو ويرحـل. رأى قدميـه عـلى الممـرِّ ذي المربَّعـات المـؤدِّي إلى المنـزل. رأى يـده وهـي تمتـدُّ إلى المـزلاج عـلى البوابـة الملوَّنـة. ثـم رأى ثبـات عيونهـا الهادئـة.

قالت: "إلا أنك هنا بعد كل هذا".

هـو هنـا. نعـم. فجـأة شـعر بتواجُدِهـا بحـدَّة. بـل إن الغرفـة كلهـا كانـت تنبـض بـه كـما كان هـو.

"لماذا لا تجلس يا سيد...؟".

قـال: "فـون"، ولم تفضـح عيناهـا مـا إن كانـت قـد تعرَّفَـت عـلى اسـمه أم لا، ولكنهـا اسـتمرَّت في ترقُّبهـا المرتـاح. جلـس.

صبَّـت السـيدة كونسـتنتين بعـض السـائل الشـفاف مـن دورق مُزيَّـن بالحَفـر إلى كـوب كان بجانبـه، ثـم جلسـت هـي أيضًـا في مقعـد وُضِـع عـلى زاويـة مـن الأريكـة. ابتسـمت بترقُّـب.

اعترف لها "أحتاج إلى مساعدتك. إنها زوجتي".

رقَّ وجهها بتعاطُفٍ حزين "أنا آسفة. أقدِّم لك تعازيَّ".

"لا! لم أقصد ذلك!".

بدا مُنزعجًا. كان بالفعل مُنزَعِجًا.

"سـامِحْني يـا سـيد فـون، ولكـن عندمـا يظهـر غريـبٌ عـلى عتبـة بـابي يكـون ذلـك عـادةً لأن شـخصًا مـا قـد مـات". لم يتغـير تعبـير وجههـا.

بقـي ثابتًـا، ولكنـه لم يكـن غـيرَ ودود، بـل إنـه كان طيِّبًـا بوضـوح، ولكنهـا انتظـرت بتصميـم صلـب كي يصـل إلى الموضـوع.

تنهَّد "لقد فقدنا طفلة".

"فقدتم؟".

"أُخِذَت".

"سـامِحني يـا سـيد فـون، ولكننـا نسـتخدم العديـد مـن التوريـات في الإنجليزيـة حـين نتحـدَّث عـن المـوت: فُقِـدَت، أُخِـذَت... هـذه كلـمات لهـا أكـثر مـن معنـى. لقـد أسـأتُ فَهمَـكَ مـرَّةً بالفعـل فيـما يخـصُّ زوجتـك ولا أحـب أن أكـرِّر هـذا مـرَّةً أخـرى".

ابتلـع السـيد فـون ريقـه ونظـر، إلى يـده المسـتقرَّة عـلى ذراع الأريكـة الخـضراء المخمليَّـة. مـرَّ بأظافـره عـلى القـماش رافِعًـا سـطرًا بشـكل متكـدِّس.

"سـتعرفين القصـة عـلى الأغلـب. أتوقَّـع أنـك قـرأتِ عنهـا في الصحـف، وحتـى إن لم تكـوني قـد قـرأتِ، فهـي كانـت حديـث البلـد. منـذ عامـين. في بسـكوت".

انشـغلت عيونهـا عنـه ونظـرت إلى مسـافة متوسِّـطة بينـما تسـتثير ذاكرتهـا. مـرَّر طـرف إصبعـه عـلى المنطقـة لينعـم بالتكـدُّس مـرة أخـرى فيختفـي الخـطُّ. انتظـر أن تُقِـرَّ بمعرفتهـا.

عادت نظرتها إليه "الأفضل أن تحكي لي بنفسك على ما أظن".

تخشَّـبَت أكتـاف فـون "لا أسـتطيع أن أقـول لـكِ أكـثر مـمَّا هـو معـروف".

"ممممـم" لم يكـن الصـوت مُحـدَّدَ المعنـى. لم يتَّفِـق معـه بالضبـط، ولم يختلـف معـه أيضًـا. أشـار إلى أن الـدور لا يـزال عليـه.

توقَّعَ فون ألَّا تحتاج الحكاية إلى أن تُحكَى مرة أخرى. ظنَّ أن الجميع يعرف بعد أن مَرَّ عامان. كانت من نوع الحكايات التي تقطع مسافات بعيدة في مدة قصيرة من الزمن. حدث في مناسبات مختلفة أن يدخل حجرةً -في اجتماع عمل، أو مقابلة مع كلَّاف جديد، أو مناسبة اجتماعية مع الجيران من المزارعين، أو مناسبة أكثر رُقيًّا في أوكسفورد أو لندن- ويرى في نظرات الناس الذين لم يقابلهم من قبل أنهم لا يعرفونه فقط، وإنما يعرفون الحكاية أيضًا. أصبح الآن يتوقَّع ذلك ولو أنه لم يَعتَده أبدًا. "شيء بَشِع" يُهَمهِم غريبٌ ما وهو يصافحه، وقد تعلَّم طريقةً لإقرارٍ بالأمر تشير أيضًا إلى "دعنا لا نَقُل المزيد عن الموضوع".

كان عليه في الأيام الأوائل أن يحكي الوقائع لمرَّاتٍ لا نهائية. المرة الأولى كانت للخَدَم من الرجال: قال لهم في دَفقاتٍ وحشية من الصوت، سريعًا، وغاضبًا، كما لو كانت الكلمات نفسها تركب الجِيادَ وتركض خلف مَن اقتحموا المنزل وابنته المفقودة. حكاها للجيران الذين انضمُّوا إلى البحث في عبارات لاهِثَة وصدره يتقلَّص ألمًا. حكاها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ لكلِّ رَجُل وامرأة وطفل قابله في الساعات التالية- بينما يسافر على الطُّرُق الريفيَّة "ابنتي اختُطِفَت! هل رأيتم أغرابًا، أيَّ شخصٍ، يشقُّون طريقهم في عجلة مع طفلة صغيرة في الثانية؟". في اليوم التالي قالها للمسؤول في البنك عندما ذهب بشكلٍ مُلحٍّ ليجمع مبلغ الفدية. ومرَّةً أخرى للشُّرطيِّ الذي أتى من كريكلاد. وضع ترتيب الأحداث بشكل سليم عند هذه اللحظة. كانوا لا يزالون في قبضة الأحداث، وكانت هيلينا تحكي أيضًا. تجوَّلوا ثم جلسوا ثم قاموا ليتجوَّلوا مرَّةً أخرى ويتحدَّثوا واحدًا ثم الآخر، وكثيرًا ما يتحدثون في نفس الوقت، وأحيانًا يلجأ كلاهما للصَّمت ويُحدِّقان في بعضهم البعض وقد فقدوا القدرة على الكلام. بذل جهدًا خاصًّا في نسيان لحظة مُعيَّنة. تصف هيلينا اللحظة التي تمَّ فيها الاكتشاف: "فتحت

الباب ودخلت، ولم تكن هناك. لم تكن هناك! لم تكن هناك!"، كرَّرَت وهي تتساءل "لم تكن هناك"، وبينما رأسها يستدير في كل اتجاه كانت عيونها تبحث عن الأركان العلويَّة للغرفة وكأنَّ ابنتهم قد تكون مختفية هناك في ثنية إطار السقف أو ما وراءها تجثُم في زاوية دعامة السقف، ولكن الغياب استمرَّ. بدا وقتها أن غياب ابنتها قد أغرق هيلينا. أغرقهما معًا، وأنهما يحاولان نزح الماء بالكلمات. ولكن الكلمات كانت بحجم كأس البيض، بينما ما يصفونه محيط من الغياب أكبر ممَّا يحتويه مثل هذا الوعاء المتواضع. نزحت ونزحت ولكن مهما كرَّرَت المجهود لم تكن تستطيع الوصول إلى النهاية. "لم تكن هناك"، كرَّرَت بلا توقُّف بصوتٍ لم يكن يعرف أنه يمكن للآدميين أن يصدروه بينما هي تغرق في فقدها، ويغرق هو في نوع من الشَّلَل، غير قادر على فعل أو قول أي شيء لينقذها. الحمد الله على الشرطي. إنه هو مَن قذف لها بحبلٍ يُمكِنها أن تمسك به: هو مَن سحبها من الغرق بسؤاله التالي.

"ولكنها كانت قد نامت في السرير؟".

وصلها صوت كلماته. بدا أنها عادت إلى نفسها مذهولةً، وهزَّت رأسها. قالت بصوتٍ هو لها مرَّةً أخرى، ولو أنه ضعيفٌ من الإنهاك "روبي وضعتها في سريرها. المربِّية".

ثم انسحبت إلى الصمت، وتولَّى هو الحكي "ببطء يا سيدي بعد إذنك" قال الرجل بينما ينحني فوق كرَّاسته وقلمه في يده، كاتبًا كلَّ شيء بحماسة تلميذ في المدرسة. "ابدئي هذا المقطع مرَّةً أخرى بعد إذنك؟"، وأوقفهم كل فترة ليقرأ ما كتبه، ويُصحِّحان له، ويتذكَّران تفاصيلَ أغفلاها، ويكتشفان تناقُضاتٍ بين ما يعرفه هو وما تعرفه هي، ويقارنان الملاحظات كي يصلا إلى ما هو صحيح. إن أي تفصيلة قد

تكـون التفصيلـةَ التـي تعيدهـا. أخـذ الأمـرُ سـاعاتٍ كي يسـجِّلوا أحـداث بضعـة دقائـق.

أرسل خطابًا لوالده في نيوزيلندا.

احتجَّـت هيلينـا "لا، لا تفعـل. مـا الهـدف مـن مضايقتـه بينـما سـتعود هـي إلى المنـزل غـدًا أو بعـد غـد؟".

ولكنـه كتـب الخطـاب. تذكَّـر مـا حكـوه لرجـل الشرطـة وبنـى شرحـه عـلى ذلـك. كتـب بعنايـة، وتضمَّـن الخطـاب جميـع وقائـع الاختفـاء. قـال الخطـاب إن أشرارًا مجهولـين أتـوا ليـلًا ونصبـوا سُـلَّمًا ودخلـوا إلى المنـزل عـبر شُـبَّاك غرفـة الطفلـة، وغـادروا آخِذيـن الطفلـة معهـم. فقـرة جديـدة: لم ترجـع لنـا ابنتنـا مـع أن طلـب فديـة وصـل في وقـت مُبكِّـر مـن النهـار التـالي، ودفعـت الفديـة. نحـن نبحـث. يبـذل الجميـع أقـصى مـا بوسـعهم، ولــن نسـتريح حتــى نجدهــا. تتبــع الشُّرطــة غجــر النهــر، وسيفتِّشــون قواربهـم. سأرسـل المزيـد مـن الأخبـار فـور توافُرِهـا.

لم يكــن يوجــد أي فقــدان للنفــس. لا شــهقات مؤلمــة طلبًــا للتَّنفُّــس. كان رُعــبُ الأمــر مُقتَطَعًــا. خــطَّ روايتــه عــلى مكتبــه قبــل مــرور ثمــانٍ وأربعــين ســاعة عــلى مــا حــدث: رتَّبَــت الخطابــات نفســها في كلــمات متراصَّـة بانتظـام كي تصنـع جُمَـلًا، ثـم فقـرات ضمَّـت فقـدان ابنتـه. انتهـى الأمـر في صفحتـين وافيَتَـيْن مـن المعلومـات.

عندمــا انتهــى أنتــوني فــون مــن الخطــاب قــرأه بأكملــه. هــل كان يتضمَّــن كل مــا يجــب أن يُقــال؟ تضمَّــن كل مــا يمكــن أن يُقــال. عندمــا قنـع بأنـه لا يمكـن أن يقـول أكـثر مـن ذلـك، أغلـق الخطـاب ودقَّ الجـرس مُسـتَدعيًا الخادمــة التــي أخذتــه إلى البريــد.

مـا أخرجـه الآن هـو هـذا السَّـرد المُختَصَـر الجاف الـذي أعاد اسـتخدامه مـرَّاتٍ عديـدة مـع شُرَكائـه في العمـل والآخريـن مـن شـبه الغربـاء. وقـد

وجد أنه لا يزال يحفظه كلمة كلمة، مع أنه لم يستخدمه منذ شهور. استغرق تقديم الأمر للسيدة ذات العيون الرمادية أقلَّ من دقيقة.

وصل إلى نهاية القصة وتناول جرعة من الماء من الكوب. كان له طعم الخيار غير المتوقَّع والمنعش جدًّا.

نظرت إليه السيدة كونستنتين بنظرتها الثابتة العطوفة، وفجأة بدا له شيء ما خاطئ جدًّا. ما يحدث عادةً هو صدمة مذهولة أو محاولة مرتبكة للتخفيف أو قول الشيء المناسب أو صمت محرج يملؤه هو بملاحظة تعيد توجيه الحديث. لم يحدث أيٌّ من ذلك.

قالت: "فهمتُ"، ثمَّ -هزَّت رأسها كأنها قد فهمت حقًّا، ولكن ما الذي يوجد كي يُفهَم؟ لا شيء بالتأكيد- "نعم. وماذا عن زوجَتِكَ؟".

"زوجتي؟".

"عندما وصَلتَ قُلتَ لي إنك قد أتيتَ لتطلب مساعدتي بخصوص زوجتك".

"نعم بالفعل".

شعر أنه يحتاج لإعادة تتبُّع مساره منذ وصل إلى المنزل وأول كلمات تبادَلَها مع السيدة كونستنتين، مع أن ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث منذ أكثر من ربع ساعة مضت. عاد ليناور عقباتِ وقتٍ وذاكرة عديدة ويدعك عينيه، ثم وجد ما جاء إلى هنا من أجله.

"الأمر كالتالي: يصعب بطبيعة الأمر التَّخفيف عن زوجتي. هذا مفهومٌ في ظِلِّ الظروف. إنها لا تفكِّر في شيءٍ سوى عودة الطفلة. حالتها الذهنية تعيسة بطبيعة الحال. لا توافق على مقابلة أحد، ولا تسمح بأي إلهاءٍ عن شقائها. شهيَّتها ضعيفة، وتلاحقها أسوأ الكوابيس؛ فتُفضِّل البقاء مستيقظةً، ويزداد سلوكها غرابةً، حتى إنها الآن تُمثِّل خطرًا على نفسها. سأعطيكِ مثالًا واحدًا: لقد اعتادت الخروج إلى

النهـر في قـارب ذي مجاديـف وحدهـا وبـلا أي تفكـير في راحتهـا وسـلامتها. تبقـى في الخـارج لسـاعاتٍ في جميـع أحـوال الطقـس وفي ملابـس لا توفِّـر لهـا أي حمايـة. لا تسـتطيع أن تقـول لـك لمـاذا تفعـل ذلـك، ولا يـأتي مـن ذلـك أي خـير عـلى الإطـلاق. لا يمكـن إلَّا أن يؤذيهـا هـذا. لقـد اقترحـتُ عليهـا أن نبتعـد لأني فكَّـرتُ أن السَّـفر قـد يشـفيها. بـل أنـا مسـتعدٌّ أن أبيـع كل مـا أملـك وأبـدأ مـن جديـد في مـكان جديـد تمامًـا لا يُلوِّثـه حُزنُنـا".

"وما ردُّها؟".

"تقـول إنهـا فكـرة جيِّـدة جـدًّا، وعندمـا تعـود الطفلـة إلى المنـزل سـيكون هـذا مـا نفعلـه بالضبـط. هـل تريـن؟ إن لم يتغـيَّر شيء لا أرى إلا أننـا سـننتقل مـن سيئ إلى أسـوأ. يجـب أن تـدركي أن مـا أصابهـا ليـس الحـزنَ، ولكـن شيء أسـوأ بكثـير. أنـا أخـاف عليهـا. أخـاف أن حياتهـا سـتنتهي في حـادثٍ رهيـب أو في مصحَّـة إن لم يحـدث تغيير، وسـأفعل أي شيء -أي شيء عـلى الإطـلاق- لأمنـع ذلـك".

استـمرَّت العيـون الرماديـة مُثبَّتـة عليـه، وكان واعيًـا بـكل المراقبـة التي تحـدث خلـف العطـف. عندمـا أصبـح واضحًـا أنـه لـن يقـول أي شيء آخر، وأن دورهـا في الـكلام قـد أتى -هـل قابـل امـرأة مـن قبـل تتحـدَّث قليـلًا هكـذا؟- فتَحَـت فمهـا أخـيرًا وقالـت: "لا بُـدَّ أنـكَ وحيـد جـدًّا".

كاد أنتـوني فـون ألَّا يقـدر عـلى مـداراة خيبـة أملـه "هـذه مسـألة جانبيـة. مـا أريـده هـو أن أتحـدَّث معهـا".

"بأي هدف؟".

"كي أقول لها إن الطفلة ماتت. أعتقد أن هذا هو ما تحتاجه".

رمَشَـت السـيدة كونسـتنتين مرَّتَـين. لا يعتـبر ذلـك شيء بالنسـبة لامـرأة أخـرى، ولكـن بالنسـبة لامـرأة بثباتهـا تعتـبر تلـك دهشـة.

"دعيني أشرح".

"أظنُّ أن ذلك أفضل".

"أريدُكِ أن تقولي لزوجتي إن ابنتنا قد ماتت. قولي لها إن الطفلة سعيدة. قولي لها إنها مع الملائكة. اصطنعي رسائِلَ أو أصواتًا. افعلي تلك الأشياء التي تُصنَع بالدُّخَان والمرايا... إنَّ لديك مثل هذه التجهيزات". نظر في أنحاء الغرفة مرَّةً أخرى وهو يقول ذلك. بدا غير مُتوقَّع أن تكون لغرفة الاستقبال المحتشمة دورٌ آخر في جلساتٍ تُستَخدَم فيها بِدَعٌ وستائر افترض هو أنها ضرورية مثل تلك العروض. ولكن ربما تستخدم غرفة أخرى لهذا الغرض "اسمعي. أنا لا أجرؤ أن أقول لك ما تفعلينه. أنت تعرفين كيف تسير الأمور. سأقول لك أشياء تجعل هيلينا تُصدِّقُكِ. أشياء لا يعرفها إلا أنا وهي. ثم...".

"ثم؟".

"ثم يمكننا أن نحزن ونتأسَّف وننتحب ونتلو صلواتِنا، ثم...".

"ثم عندما تحزن زوجَتُكَ ستجد طريقها نحو الحياة، نحوك، مرَّةً أخرى".

"بالضبط!". امتلأ أنتوني فون بالامتنان لأنه فُهِم تمامًا.

أمالت السيد كونستنتين رأسها مَيلًا طفيفًا إلى جانب واحد. ابتسمت له بطيبة. بتفهُّم وقالت: "أخشى أن ذلك غير مُمكِن".

"لماذا؟" قال أنتوني فون متفاجِئًا.

هزَّت رأسها "أوَّلًا: لقد أسأتَ الفهم -أو ربما ضَلَلتَ- فيما يخصُّ ما يحدث هنا. إنه خطأ مفهوم. ثم إنَّ ما تقترح لن يأتي منه خيرٌ".

"سأدفع لك القيمة المعتادة. سأدفع لك الضعف إن طلبتِ".

"ليست مسألةَ مال".

"لا أفهم! إنها صفقة بسيطة! قولي لي كم تريدين وسأدفعه لك!".

"أنا آسفة بعُمقٍ لمعاناتك يا سيد فون. إن فقدان طفل هو أصعب ما يمكن للإنسان أن يتحمَّله".عبَسَت قليلًا، "ولكن ماذا عنك يا سيد فون؟ هل تعتقد أنت أن طفلتَك ماتت؟".

قال "لا بُدَّ أن الأمر كذلك".

نظَرَت إليه العيون الرمادية. صفعه فجأةً انطباعُ أنها تستطيع أن ترى داخل روحه، أنها تستطيع رؤية جوانب من وجوده في الظَّلام حتى بالنسبة له. شعر بقلبه يبدأ في الدَّقِّ بشكل غير مريح.

"لم تَقُل لي اسمها".

"هيلينا".

"ليس اسمَ زوجتك. اسم ابنتك".

أميليا. ارتفع الاسم داخله؛ فاختنق به ودفعه إلى الداخل. تقلَّص شيء في صدر فون. سعل وشهق ومدَّ يده إلى الماء وشرب نصف كوب. جرَّب التَّنفُّس ليرى إن كان صدره يعمل.

سأل "لماذا؟ لماذا لا تريدين أن تساعديني؟".

"أودُّ أن أساعدك. أنت تحتاج إلى المساعدة. لا يمكن أن تستمرَّ طويلًا هكذا. ولكن ما طلبته مني اليوم لن يُجدي نفعًا، بالإضافة إلى أنه مستحيل".

وقف وأشار بيده إشارةَ سخطٍ. تساءل للحظة سخيفة إن كان سيرفع كفوفه ليغطِّي عيونه وينتحب. هزَّ رأسه.

"سأرحل إذا".

قامت هي أيضًا. "ارجع إلى هنا إن أردتَ من فضلك. أنت مُرحَّبٌ بك".

"لماذا أعود؟ أنت لا تستطيعين فِعلَ شيء لي. لقد وضَّحتِ الأمر تمامًا".

"ليس هذا ما قُلتُه. انعش نفسك إن أردتَ. يوجد ماء ومنشفة نظيفة هناك".

نثر الماء على وجهه عندما رحلَت، ودفن وجهه في المنشفة القطنية الناعمة، وشعر أنه أفضل قليلًا بفضل ذلك. أخرج ساعته. سيقوم قطارٌ بعد نصف ساعة، ولديه الوقت الذي يحتاجه بالضبط كي يركبه.

انتظر عددٌ من الرُّكَّاب الآخرين القطار على الرصيف. وقف أنتوني فون على بُعدٍ قليل منهم. لم يكن يحب أن يلاحظ وجودَه أحدٌ. كان يتفادى الحديث العابر مع الناس الذين يعرفهم معرفةً سطحيَّةً كلَّما تَمكَّن من ذلك، وفضول الغرباء الذين كانوا يتعرَّفون على وجهه أحيانًا، بينما هو لا يعرف وجوههم، كان أسوأ. أوشك القطار على الاقتراب بعد دقيقة أو اثنتين، حسب ساعة المحطَّة. وبينما ينتظر، أنَّب نفسه على حماقته. قال لنفسه إنه هرب بالكاد. ماذا لو استغلَّت المرأة فكرته؟ ماذا لو كان قد أخذ هيلينا إلى هناك وتَسرَّبَت المعلومة؟ قد تكون قد فعلت شيئًا للمرأة في الحكاية، ولكن هيلينا... هيلينا لم تكن مثل زوجات الرجال الآخرين.

استغرقته أفكاره حول المقابلة التي قام بها لتوِّه، حتى إن وقتًا مرَّ عليه قبل أن يدرك الشعور الذي يتسرَّب إلى ذهنه بهدوء. ثم لاحظه ولكنه كان لا يزال مرتبكًا بسبب غرابة المنزل رقم 17، حتى إنه استغرق لحظةً كي يفرق بين شعوره الجديد وبين الغرابة التي مرَّ عليها وقتٌ قصير. عندما نجح في ذلك تعرَّف على الشعور: الترقُّب. هزَّ رأسه ليتخلَّص من وهنه. كان يومًا طويلًا، وكان ينتظر قطارًا، والقطار على وشك الوصول. هذا كل ما في الأمر.

وصل القطار وصعد هو إليه ووجد مقصورةً فارغة في الدرجة الأولى، وجلس بجوار النافذة. أبى الشعورُ بالتَّرقُّب الذي كان قد بدأ على الرصيف أن يتلاشى. بل إن شعوره تصاعَدَ وهو ينظر نحو المكان

الذي يسري فيه النهر خَفيًّا عبر الضباب المظلِم بينما القطار يغادر أكسفورد. اقترح إيقاع القطار على القضبان كلماتٍ على عقله المنهَك وسمعها بوضوح، كأنَّ شخصًا غير مرئيٍّ قد نطق بهم: سيحدث شيءٌ ما.



كابوس لَيليٌّ

على شاطئ النهر المقابل لمنزل عائلة فون الفخم، وعلى بُعد نصف ميل في اتجاه التيار، تقع رُقعةٌ من الأرض رطبة حتى بالنسبة للجرجير. تنمو ثلاث شجرات بلوط بعيدًا قليلًا عن الشاطئ، وتشرب جذورهم بنَهمٍ من الطينة المبتلة، ولكن أي جوزة بلُّوط تقع على جانب شجرتها الأم المواجه للنهر تتعفَّن أسرع من أن تتمكَّن من تكوين براعم. كان مكانًا نائيًا لا يصلح إلا لإغراق الكلاب، ولكن لا بُدَّ أن النهر كان أكثر انصياعًا في الماضي لأن شخصًا ما بنى كوخًا في وقت ما هناك بين البلوط والماء.

المسكَنُ الصغير كان صندوقًا من الحجر الذي تتسلَّقه الأعشاب والفطريات، يتضمَّن غرفتين وشبَّاكين وبابًا. لم تكن توجد غرفة نوم، ولكن توجد سلالم في المطبخ تؤدي إلى مسطَّح يتَّسِع بالكاد لمرتبةٍ من القَشِّ. تجاور المدخنة هذا الرَّفَّ المخصَّص للنوم؛ لذا فإنْ أُوقِدَت

النـار قـد تتدفـأ رأس أو أقـدام النائـم لأول سـاعات الليـل. كان مكانًـا فقـيرًا وكان فارغًـا وقتًـا مسـاويًا للوقـت الـذي يؤجَّـر فيـه؛ لأنـه بـارد ورطـب ويُقبِـل عـلى الإقامـة فيـه إلى اليائسـون. كاد يكـون أصغـرَ مـن أن يُمنَـح اسـمًا؛ لـذا كان حصولـه عـلى اسـمين مفاجـأة. يُسـمَّى رسـميًا "كـوخ مـارش"، ولكنـه عُـرِف على مَـرِّ الزمـن بــ "كـوخ بسـكيتمان" (رجـل السِّلال). اسـتأجر رجـلُ السِّـلال الكـوخ في زمـن بعيـد لمـدة عـشر أعـوام أو ثلاثـين عامًـا حسـب الشـخص الـذي تتحـدَّث معـه. يجمـع القصـب طـوال الصيـف ويصنـع السِّـلال طـوال الشـتاء، وكل مَـن كان يريـد سِـلالًا في ذلـك الزمـن كان يشـتريها منـه لأن بضاعتـه مصنوعـة بإتقـان، ولم يكـن يطلـب لهـا ثمنًـا باهظًـا. لم يكـن لـه أبنـاء يُخيِّبـون أملـه، ولا زوجـة تنـقُّ، ولا امـرأة أخـرى تكـسر قلبـه. كان هادئًـا دون أن يكـون متجهِّـمًا، ويقـول صبـاح الخـير بلُطـفٍ للجميـع، ولا يتشـاجر مـع أحـدٍ. عـاش بـلا ديـون، ولم تكـن لـه خطايـا يعرفهـا أو يُخمِّنهـا أحـد. مـشى في أحـد الأيـام نحو النهـر وجيوبه ممتلئـة بالأحجـار. عندمـا اصطـدم جسـده بإحـدى الصنـادل المتوقِّفـة في انتظـار ملئهـا عنـد الرصيـف، ذهبـوا إلى كوخـه ووجـدوا بطاطـا في جَـرَّة حجريَّـة وجبنًـا موضوعًـا جانبًـا. كان لديـه خمـر التفَّـاح في إبريـق، وعلبـة التبـغ نصـف ممتلئـة عـلى الـرف. ارتاعـوا لموتـه. كان لديـه عمـل وطعـام ومتعـة: مـا الـذي يحتاجـه الرجـل أكـثر مـن ذلـك؟ كان لُغـزًا، وبـين ليلـة وضحاهـا أصبـح كـوخ مـارش كـوخَ باسـكتمان.

اقتطـع النهـر مـن شـاطئه منـذ زمـنِ رَجُـلِ السِّـلال بـأن جرفـت المياهُ طبقـاتٍ مـن الحـصى. خلـق ذلـك مطـلًا يبـدو صلبًـا ولكنـه لا يتحمَّـل ثِقَـل رَجُـل. لم يَبـقَ مـا يحتـوي النهـر إلَّا منحـدر ضحـلٌ، حيـث تحـاول الجـذور الهزيلـة لنباتـات السَّرمـج وإكليلـة المـروج والسـنفيَّة أن تنسـج التربـة سـويًّا ولكنهـا تنجـرف مـع كل ارتفـاع للميـاه. يفيـض النهـر عـلى هـذا المنحـدر الضَّحـل عنـد الانقـلاب الشـمسي، وبعـد المطـر الغزيـر، وبعـد المطـر المعتـدل الـذي يتبـع الشـمس الحارقـة، وفي أوقـات ذوبـان

الثلـج، وفي أوقـاتٍ أخـرى بـلا سـبب سـوى خُبـث الطبيعـة العشـوائي. زرع أحدهـم عمـودًا في الأرض في منتصـف ارتفـاع هـذا المنحـدر. بقيـت العلامـات المنحوتـة التـي تشـير إلى مسـتوى الميـاه واضحـةً وتسـتطيع أن تُميِّـز التواريـخ التـي تـدلُّ عـلى مواعيـد الفيضـان، مـع أن الزمـن طـلى العمـود وشَـقَّقه الغَـوصُ المتكـرِّر تحـت المـاء. تعـدَّدت علامـات الفيضـان عنـد قاعـدة العمـود، وكانـت كثـيرة أيضًـا في منتصفـه وفي أعـلاه. نبـت عمـود ثـانٍ أحـدث في منطقـة أعـلى مـن المنحـدر، عليـه علامتـان: واحـدة مـن ثمـاني سـنوات، والأخـرى مـن خمـس.

وقَفَـت اليـوم سـيدة بجـوار العمـود الأدنى تنظـر إلى النهـر. قبضـت عـلى معطفهـا بيديـن بـلا قفـازات وقـد احمرَّتـا وتَشـقَّقَتا. فلتـت خُصَـلٌ مـن شَـعرها المرفـوع بدبابيـس قليلـة، وتدلَّـت حـول وجههـا لتتحـرَّك مـع النسـيم. كان شـعرها فاتِحًـا، حتـى إن اللـون الفضي الـذي بـدأ يظهـر فيـه كاد أن يكـون خفيًّـا وإن كان شَـعرُها أصغـرَ مـن سـنواتها التـي تجـاوَزَت الأربعـين، إلا أننـا لا نسـتطيع قـول نفـس الـشيء عـن وجههـا. قـد تركـت المشـاكل علاماتهـا عليـه، وحفـر عـلى جبينهـا تجاعيـد القلـق الدائمـة.

يبعـد النهـر مسـافة يـاردة عـن العمـود، ولـن يكـون هنـاك فيضـان اليـوم ولا غـدًا، ولكـن عيونهـا كانـت ممتَلِئـةً بالخـوف. هسهَسَـت الميـاه وهـي تمـرُّ مـن أمامهـا لامِعـةً وبـاردة وسريعـة الجريـان، وتبصـق عـلى فـترات غـير منتظمـة. قفَـزَت عندمـا سـقطت بقعـةٌ مـن مـاء النهـر عـلى حذائهـا، وتراجَّعـت عـدَّة بوصـات إلى الخلـف.

تذكَّـرَت قصـة رَجُـل السِّـلال وهـي تقـف هنـاك، وأصابتهـا قشـعريرة لشـجاعته بـأن يخطـو داخـل النهـر كـما فعـل بجيـوب ممتلئـة بالحجـارة. فكَّـرَت في الأرواح الميتـة التـي تعيـش في النهـر، وتسـاءَلَت: أيٌّ منهـا تتسـابق الآن وتمـرُّ مـن أمامهـا باصِقـةً نحوهـا. فكَّـرَت -مـرَّةً أخـرى- أنهـا ستسـأل القـسَّ في يـوم مـا عـن الأرواح الميِّتـة في النهـر. لم يَـرِد ذلـك في الإنجيـل

-أو أنـه لم يَـرِد حسـب معلوماتهـا- ولكـن ذلـك لا يعنـي شيء. لا بُـدَّ أنـه يوجـد قَـدرٌ كبـير مـن الأشـياء الحقيقـة التـي لم تَـرِد في الإنجيـل. إنـه كتـابٌ كبـير، ومـع ذلـك لا يمكـن أن يتضمَّـن كل مـا هـو حقيقـي. أليـس كذلـك؟

اسـتدارت وصعـدت المنحـدر نحـو الكـوخ. كان يـوم العمـل أقـصر في الشـتاء عنـه في الصيـف، وبعودتهـا للمنـزل يحـلُّ الظـلام تقريبًـا. لا زال عليهـا رؤيـة الحيوانـات.

أتـت لِيـلي لتعيـش في الكـوخ منـذ أربـع سـنوات. قدَّمَـت نفسـها عـلى أنهـا السـيدة وايـت، أرملـة، وفكَّـرَت في البدايـة أن تصبـح مُتملِّصـةً لأنهـا أعطـت إجابـاتٍ مراوِغـةً عـن أي سـؤال يقـترب مـن حياتهـا السـابقة وتَصـدُّ أيَّ اهتـمام ودود. ولكنهـا تظهـر في الكنيسـة كل أحـد، بـلا انقطـاع، وتعـدُّ العمـلات الفضيـة مـن كيـس نقودهـا الهزيـل لـكلِّ عمليـة شراء متواضعـة تقـوم بهـا دون أن تطلـب تأجيـل الدفـع ولـو مـرة، ومـع الوقـت تلاشَـت شـكوكهم. وجـدت عمـلًا في مغسـلةِ بيـت الرَّعيَّـة أوَّلًا، ثـم وبسـبب بذلهـا لمجهـودات سـخيَّة وسُرعتهـا اكتسـبت أعـمالًا أكـثر فأكـثر، ومنـذ تقاعُـد مُدبِّـرة منـزل القـسِّ قبـل عامـين، تولَّـت ليـلي مسـؤولية الراحـة المنزليـة في بيـت الرعيَّـة بالكامـل. خُصِّصَـت غرفتـان جذَّابتـان في بيـت الرعيـة لاسـتخدام مُدبِّـرة المنـزل، ولكـن ليـلي اسـتمرَّت في العيـش في كـوخ باسـكيتمان- قالـت إن ذلـك بسـبب الحيوانـات. اعتادهـا النـاس مـع الوقـت، ولكـن بقـي اعتقـادٌ محـلِّيٌّ بوجـود شيء غـير سـليم تمامًـا بخصـوص ليـلي وايـت. هـل كانـت أرملـةً حقًّـا؟ لمـاذا تفـزع إذا تكلَّـم معهـا شـخصٌ مـا فجـأة؟ وأي سـيدة عاقلـة تختـار أن تعيـش في عُزلَـةٍ رطبـة في كـوخ باسـكتمان بينـما يمكنهـا الاسـتمتاع برفاهيـة ورق الحائـط في بيـت الرعيـة، وكل ذلـك مـن أجـل جَـدْيٍ وخنزيرَيْـن؟ ولكـن الاعتيـاد وصِلَتَهـا بالقـسِّ عَمَـلَا معًـا لتقليـل الشَّـكِّ، وأصبـح يُنظَـر لهـا الآن بـشيء مـن الشَّـفقة. يُهمَـس أنهـا حتـى وإن كانـت مدبِّـرةَ منـزلٍ ممتـازة إلَّا أن ليـلي وايـت ضعيفـة العقـل قليـلًا.

توجد بعض الحقيقة في ما يتصوَّره الناس عن ليلي وايت. لم تكن سيِّدةً إطلاقًا في عين القانون والله. كان يوجد سيِّد وايت بالفعل لسنواتٍ، وقد قامت له بالواجبات التي تقوم بها الزوجة لزوجها في العادة: طبخت طعامه، ودعكت أرض بيته، وغسلت قمصانه، وأفرغت إناء البول، وأدفأت سريره. قام هو في المقابل بالواجبات المعتادة للزوج: أبقاها في احتياج إلى المال، وشرب نصيبها من الخمر، وقضى الليل خارج المنزل حين أراد ذلك، وضربها. في عين ليلي كان ذلك يشبه الزواج في كل تفاصيله؛ ولذا، عندما اختفى منذ خمس سنوات في ظروف حاوَلَت ألّا تفكِّر فيها، لم تتردَّد. كان اسم وايت أفضل ممَّا يستحقُّه، بكل لصوصيَّته وسُكره وأساليبه السيئة الأخرى. كان اسمًا أفضل ممَّا تستحقُّ هي أيضًا، ولكن من بين جميع الأسماء التي كان من الممكن أن تطلقها على نفسها كان هذا هو أكثر ما تريد، فأخذته. ترَكَت ذلك المكان وتبعت النهر ووَصَلَت بالصُّدفَة إلى بوسكوت. هَمهَمَت "ليلي وايت" بين أنفاسها طيلة الطريق. أنا ليلي وايت.

حاوَلَت أن تستحقَّ الاسم.

أعطت ليلي بعض ثمرات البطاطا العَفِنَة إلى الجَديِ الأصفر، ثم ذهبت كي تطعم الخنازير. كانت الخنازير تعيش في مخزن الخشب القديم. مبنى من الحجر يقع في منتصف الطريق بين الكوخ والنهر بفتحة طويلة وضيِّقة على جانب الكوخ كي يدخل ويخرج منها الناس، وفتحة منخفضة على الجانب الآخر كي يتحرَّك عبرها الخنازير بين حظيرتهم وفناء الطين الخاص بهم. فصل جدار منخفض بين الجانبين من الداخل. تكوَّم الخشب المقطوع بجوار الحائط على جانب ليلي بجوار شوال من الحبوب، ومغطس من الصفيح ممتلئ لنصفه بالفضلات. يوجد أيضًا سطلان وتفاح يتعفَّن ببطء على رفٍّ.

رفَعَت ليلي السَّطلَيْن وحملتهما خارجًا ملتفَّةً جانبًا إلى فناء الطين الخاص بالخنازير. سكبت سطلًا ممتلئًا بثمرات الكرنب التي أوشَكَت على التَّعفُّن وخضروات أخرى بُنِّيَّة، فلا يمكن تحديد نوعها من فوق السور إلى المِذوَد، ثم ملأت الحوض القديم بالماء. خرج خنزير من مخزن الأخشاب المغلَّف بالقَشِّ وأخفض رأسه ليأكل دون أن يلقي نظرةً على ليلي. أتت أنثاه خلفه.

حَكَّت الأنثى مُؤخِّرتها في السُّور كما كانت عادتها وعندما حكَّتها ليلي خلف أذنها رمشت بعيونها. كانت عيون الخنزيرة لا تزال ممتلِئةً بالنوم من خلف رموشها الصَّهباء. تساءلت ليلي: هل تحلم الخنازير؟ إن كانوا يحلمون فلا بُدَّ كما يبدو أنهم يحلمون بشيء أفضل من الحياة الحقيقية. انتبهت الخنزيرة وثبَّتت على ليلي نظرة بها شَجنٌ خاصٌ. الخنازير حيوانات غريبة. تكاد تظنُّهم آدميِّين من طريقتهم في النظر إليكَ أحيانًا. بدا وكأن الخنزيرة تسترجع سعادةً قد فُقِدَت الآن، حتى إن الأسى يغطِّي الفرح المتذكَّر الآن.

كانت ليلي سعيدةً في وقتٍ ما، ولكن تَذكُّر ذلك مؤلم. مات أبوها في زمن لا تتذكَّره، وعاشت مع أمها وحدهما في هدوء حتى بلغت الحادية عشرة من عمرها. كان المال قليلًا، والطعام شحيحًا، ولكنهما تمكَّنَتَا من العيش، وبعد تناوُل الحساء مساءً كانتا تلتصقان ببعضهما مُحاطَتَيْن ببطَّانية كي توفِّرا تكلفة النار، تدير ليلي صفحات إنجيل الأطفال مع كل هزَّةِ رأس من أُمِّها بينما تقرأ أمُّها بصوتٍ عالٍ. لم تكن ليلي قارِئةً جيِّدة. لم تكن تفرِّق بين الحروف المتشابهة، وترتعش الحروف على الصفحة فور أن يشعروا بنظرتها تمرُّ فوقهم. ولكن عندما تقرأ أمُّها بصوتها الناعم، تستقرُّ الأسطر، وتجد أنها قادرة على تتبُّع الخيط أخيرًا وتُشكِّل الكلمات بفهمها في توقيتها الصحيح بصمت. تحكي لها أمُّها أحيانًا عن أبيها- كيف كان يُحبُّ وليدته وينظر لها بلا انقطاع، ويقول بينما تتلاشى صِحَّتُه: "هذا هو أفضل

جُزءٍ منِّي يا روز وسيستمرُ حيًّا داخل هذه الطفلة التي صنعناها سويًّا". مع الوقت، بدا أن المسيح وأباها وجهان لنفس الرجل. وجود يحيط بها ويحميها ولا يُقلِّل من حقيقته أنه خفيٌّ. تلك البطانية، وذلك الكتاب، وصوت أمها، والمسيح، وأبوها الذي أحبَّها إلى هذه الدرجة- تلك الذكريات السعيدة كانت من النَّوع الذي يزيد حِدَّةَ صعوبة وجدها منذ ذلك الوقت. تعجز عن تذكُّر تلك الأيام الذهبية بدون يأس، وتكاد تتمنَّى لو أنها لم تَعِشها. لا بُدَّ أن الحنين بلا أمل لسعادة مفقودة في عيون الخنزيرة هو صورة لها عندما تتذكَّر الماضي. الإله الوحيد الذي يراقب ليلي الآن هو إلهٌ قاسٍ وغاضب، وإنْ نظر أبوها من السماء على ابنته البالغة، لأدار وجهه بعيدًا من عذاب خيبة الأمل.

استمرَّت الخنزيرة في التحديق في ليلي. دفعت خطمها بخشونة وهي تُتَمتِم "خنزيرة غبيَّة" صاعِدَةً المنحدر نحو الكوخ.

أشعلت النار في الداخل وأكَلَت قطعة جبن وتفاحة. نظرت إلى الشمعة، عُقبٌ قصيرٌ مُلصَق بشمعة على قطعة من البلاط المكسور، وقرَّرَت أن تستغني عنها قليلًا. وضعت بجوار النار كرسيًّا متهدِّل رتَّقَت كسوته كثيراً بخِرَق من صوف غير متطابق وجلست فيه مُنهَكَة. كانت مُتعَبَة، ولكن أعصابها أبقتها مُنتَبِهةً. هل هذه واحدة من تلك الليالي التي يأتي هو فيها؟

لقد رأته بالأمس، فربما لا، ولكن لا يمكنك أن تجزم. جلست لساعة تترقَّب خطوات أقدام، ثم وبتدريجٍ أقفَلَت جفون ليلي وبدأت رأسها تسقط ونامت.

زفر النهر الآن رائحةً مُركَّبة، وأطلقها عبر الفتحة التي تقع تحت باب كوخ ليلي. ارتعشت أنف ليلي فجأة. كان أساس الرائحة ترابيًّا

مع لمحاتٍ حيَّة من روائح العشب والقصب والحلفا وتضمَّنَت السمة المعدنية للحجر وشيئًا غامقًا أكثر، وبُنِّيًا أكثر، ومُتحلِّلًا أكثر.

مع النَّفَس التالي زفر النَّهرُ طِفلةً. طفت إلى داخل الكوخ زرقاء وباردة.

عبست ليلي في نومها واضطرب تنفُّسها.

التصق شَعرُ الطفلة فاقد اللون على جلد رأسها وكتفيها. كان لملابسها لون الرِّيم القذر الذي يتجمَّع على شواطئ النهر ويسيل من فوقها الماء: يقطر من شَعرها على عباءتها ومن عباءتها على الأرض. لم تَنتَهِ مع كل السيلان.

وضع الخوفُ أنينًا مختَنِقًا في حلق ليلي.

تقطر وتقطر وتقطر... لا نهاية لهذا الماء: سيقطر إلى الأبد. سيقطر حتى يجفَّ النهر. وجَّهَت الطفلة الطافية نظرةً مُحدِّقَةً إلى النائمة في المقعد وببطء، ببطء رفعت يدًا كسولة وأشارت نحوها.

استيقظت ليلي مفزوعة.

تبخَّرَت طفلة النَّهر.

للحظاتٍ قليلة حدَّقَت ليلي مرتاعة نحو النقطة في الهواء التي كانت عندها الطفلة.

"أوه" شهقت "أوه! أوه!" رفعت يديها إلى وجهها كما لو كانت تُخفي الصورة، ولكنها أيضًا نظرت من بين أصابعها لتُطَمئِنَ نفسها أن الطفلة قد رحَلَت.

لم يصبح الأمر أسهل بعد كل هذا الوقت. كانت الطفلة لا تزال غاضبة. لو بقيت فقط لمدة أطول كي تتحدَّث ليلي معها. كي تعتذر لها. تقول لها إنها ستدفع أي ثمن يُطلَب منها، تتخلَّى عن أي شيء،

تفعـل أي شيء.. ولكـن عندمـا تسـتعيد ليـلي قدرتهـا على اسـتعمال لسـانها تكـون قـد رحلـت.

مالـت ليـلي إلى الأمـام وهـي لا تـزال خائفـة لتُحـدِّق في ألـواح الأرض التـي طفـت فوقهـا طفلـة النهـر. كانـت توجـد بُقَـعٌ غامقـة في هـذا المـكان. رأتهـم بالـكاد في الضـوء الـذي يخبـو. رفعـت نفسـها مـن مقعدهـا، وجـرَّت أقدامهـا عـبر الأرض. مـدَّت يدهـا ووضعـت أصابعهـا المبسـوطة عـلى البقـع الغامقـة.

كانت الأرض مبتلَّةً.

ضمَّـت ليـلي يديهـا في صـلاة "أَخرِجْنـي مـن الوحـل حتـى لا أغـرق. امنَحْنـي الخَـلاص مـن الميـاه العميقـة. لا تَجعـلْ الفيضـان يُغرقنـي ولا تَسـمَح للعُمـقِ أن يبتلعنـي". ردَّدَت الكلـمات سريعًـا حتـى انتظـم نفسـها، ثـم قامـت متألِّمـةً وقالـت "آمـين".

شـعرت باضطـراب، ولم يكـن ذلـك مـن أثـر الزيـارة. هـل يرتفـع النهـر؟ مَشَـت إلى النافـذة. لم يكـن لَمعانُـه القاتِـمُ أقـرب إلى الكـوخ مـن قبـل.

هـو إذًا. هـل سـيأتي؟ بحَثَـت عـن حركـة في الخـارج، وأصغـت السـمع. بحثـت عـن صـوت اقترابـه. لا شيء.

لم يكن أي من هذه الأشياء.

ثم ماذا؟

عندمـا أتى الـرَّدُّ كان منطوقًـا بصـوتٍ يُشـبِه صـوت أُمِّهـا؛ فباغتهـا، حتـى أدرَكَـت أنـه صوتهـا هـي: شيء يوشـك أن يحـدث.

السَّيِّد أرمسترونج في بامبتون

قالوا جميعًا لأنفسهم، شيء يوشك أن يحدث.

والآن ماذا؟

أعلن صوت جلجلة على بلاطات الأرض في النهار الأول بعد الليلة الأطول قدوم زائر إلى قرية بامبتون. عبس القليلون الذين كانوا في الخارج في تلك الساعة المبكِّرة ونظروا إلى الأعلى. من هو الأحمق الذي ينطلق بأقصى سُرعَة عبر شوارعهم الضَّيِّقة؟ أصابهم الفضول عندما أصبح الحصان وراكبه في مرمى البصر، فبدلًا من كون الراكب أحدَ أولادهم غير الناضجين، كان غريبًا، ويوجد ما هو أكثر من ذلك. لقد كان رَجُلًا أسود. كان وجهه متجهِّمًا وغيمات البخار التي يزفرها منحته هيئة غاضبة. نظروا إليه نظرة واحدة عندما أبطأ، وقفزوا فورًا إلى المداخل وأغلقوا الأبواب بإحكام خلفهم.

كان روبرت أرمسترونج معتادًا على تأثيره هذا على الغُرَباء. عادة ما يتشكَّك منه زملاؤه من بني الإنسان عند النظرة الأولى. سواد بشرته جعله غريبًا، وطوله وقوته اللذان كانا مَيزَتَيْن لأيِّ رَجُلٍ أبيض، لم يفعلا له أكثر من أن يزيدَا من تشكُّك الناس. في الحقيقة، وكما كانت الكائنات الحية الأخرى تعرف جيِّدًا، كان رقيقًا جدًّا. خُذوا فليت على سبيل المثال. قيل إنها شرسة أكثر من أن يمكن ترويضها؛ ولهذا حصل عليها بثمنٍ بَخسٍ، ولكن بمجرَّد أن تسلق سرجها أصبَحَا أفضل الأصدقاء خلال نصف ساعة. والقطَّة، تلك الكائن النحيف الذي فقد إحدى أذنيه، والتي ظهرت في الحظيرة في أحد صباحات الشتاء تبخُّ لعناتها وتطلق نظرات شريرة على الجميع من كل الأنواع. تركض نحوه الآن في الفناء رافِعةً ذيلها وتموء حتى يحكَّ ذقنها. حتى الدعسوقات التي حطَّت على شَعر رَجُلٍ في الصيف وزحفت فوق وجهه، تعرف أنه لن يفعل أكثر من كرمشة أنفه كي يحرِّكهم إن دغدغوه كثيرًا. لا يخافه أي حيوان في الحقل أو المزرعة، لا، أمَّا الناس- اها! تلك مسألة أخرى كُلِّيًا.

كتب رَجُلٌ كتابًا مُؤخَّرًا -سمع أرمسترونج حديثًا عنه- يقترح فيه أن الرجل نوعٌ من القرود الذكية. أثار الكتابُ الكثيرَ من الضحك والامتعاض، ولكن أرمسترونج يميل إلى تصديقه. لقد وجد أن الخطَّ الذي يفصل الإنسان عن مملكة الحيوانات خطٌّ مَساميٌّ، وقد رأى في خنازيره وحصانه، وحتى الغربان التي تتقافز وتتهادى بين أبقاره، ما يظنُّه الناس فريدًا لديهم- الذَّكاء والطيبة والتواصل. ثم كانت هذه المسألة، أن الأساليب التي يستخدمها مع الحيوانات تؤتي ثمارها عادة عندما يطبِّقها على الناس أيضًا. يستطيع عادة أن يكسبهم في نهاية الأمر.

مع ذلك فإن اختفاء الناس الذين لمحهم منذ لحظة أو اثنتين يجعل الأمور أكثر صعوبة. لم يكن يعرف بامبتون. مشى أرمسترونج

بضع ياردات، وعندما وصل إلى تقاطُع، رأى صبيًّا مُمدَّدًا بجوار عمود في مركز البلدة المزروع بالعشب وأنفه يكاد يقترب من الأرض. كان مستغرقًا في فحص عدد من كُراتِ البِلي المغروسة في الأرض، حتى بدا أنه لا يلاحظ البرد- ولا اقتراب أرمسترونج.

"يومك سعيد".

مرَّ تعبيران على وجه الصبي: الأول، وهو الانزعاج، كان عابِرًا. اختفى عندما رأى البلية التي ظهرت كالسِّحر من جيب أرمسترونج (يطلب أرمسترونج أن تُصنع ملابسه بجيوب كبيرة مُبطَّنة كي يُخزِّن بها الأشياء التي من عادته الاحتفاظ بها كي يروِّض ويُطَمئِن الكائنات. عادة ما يحتفظ بجوز البلوط للخنازير، وتفَّاح للأحصنة، وكرات بِلي للأولاد الصغار، وقنينة من الخمر للكبار. بالنسبة لأنثى الإنسان، فهو يعتمد على الأخلاق الحميدة والكلمات المناسبة والأحذية والأزرار المُلمَّعة بعناية). لم تكن البلية التي أراها للصبي عاديَّة، ولكن كان بها وهجٌ برتقاليٌّ وأصفر، حتى تظنَّ أنه بإمكانك تدفئة نفسك بها مثل النار. أصبح الولد مهتمًّا الآن.

تمَّت اللعبة التي تلت بحرفيَّة وتركيز من كلا الطرفين. تميَّز الولد بمعرفة الأرض -أي من كُتَل العشب ستنحني عندما تمرُّ البلية وأي منها لها جذور محتقنة ستحوِّل المسار- وانتهت اللعبة كما يقصد أرمسترونج دائمًا، بالبلية في جيب الصبي.

اعترف "بعدلٍ ونزاهة. ذهب النصر إلى الرَّجُل الأفضل".

بدا الصبيُّ مُحرَجًا "هل هي أفضل بلية لديك؟".

"لديَّ أخريات في المنزل. يجب عليَّ الآن أن أقدِّم لك نفسي. اسمي السيد أرمسترونج، وأملك مزرعةً في كلمسكوت. هل تستطيع أن تساعدني ببعض المعلومات؟ أريد أن أعرف الطريق إلى منزل تعيش فيه طفلة صغيرة اسمها أليس".

"هذا بيت السيدة إيفيس. أمها تستأجر هناك".

"واسم أمِّها...".

"السيدة أرمسترونج يا سيدي- أوه!- إنه مثل اسمك تمامًا يا سيدي!".

شعر أرمسترونج بقدر من الارتياح. إن كانت المرأة هي السيدة أرمسترونج فقد تزوَّجَها روبين. ربما لا تكون الأمور سيئةً بقدر مخاوفه.

"وأين هو منزل السيدة إيفيس؟ هل ترشدني إلى هناك؟".

"سأريك الطريق. ذلك سيكون أفضل؛ لأنني أعرف الطرق المختصرة، فأنا من يوصل اللحم".

انطلقا مُترجِّلَيْن، وأرمسترونج يقود فليت.

"قُلتُ لك اسمي، وسأقول لك إن اسم هذا الحصان هو فليت. أنت تعرف الآن مَن نكون. مَن أنت؟".

"أنا بن، وأنا ابن الجزار".

لاحظ أرمسترونج أن بن لديه عادة أخذ نَفَسٍ عميق في بداية كل إجابة، ويطلق كلماته في دفقة واحدة.

"بن. أتصوَّر أنك الابن الأصغر؛ لأن هذا هو معنى بنجامين".

"إنها تعني الأصغر والأخير، وأبي هو مَن سمَّاني، ولكن أمي تقول إنه جعل الأمر على شكلٍ ما يستدعي أكثر من مجرَّد تسميته. ويوجد ثلاثة بعدي، وآخر في الطريق. هذا بالإضافة إلى الخمسة الذين أتوا من قبلي، مع أن كل ما يحتاجه أبي هو واحد يساعده في المحل، وهذا هو أخي الأكبر، أمَّا بقيَّتُنا جميعًا زائدون عن الحاجة، بما أننا لا نفعل شيئًا سوى أن نأكل الأرباح".

"وماذا تقول أُمُّكَ عن ذلك؟".

"غالبًا لا شيء، ولكنها عندما تقول شيئًا فهو عادة يكون على غِرار أن أكل الأرباح أفضل من شربها، ثم يضربها، ولا تقول شيئًا لبضعة أيام".

نظر أرمسترونج للولد من طرف عينه. كانت توجد أشباح كدمات على جبهة الولد ومعصميه.

قال الولد: "منزل السيدة إيفيس ليس بيتًا جيِّدًا يا سيدي".

"ليس بيتًا جيِّدًا من أي ناحية؟".

فكَّر الولد مَليًّا "إنه منزل سيئ يا سيدي".

وصلوا إلى هناك بعد بضعة دقائق.

"يُفضَّل أن أقف جانبًا وأمسك لك حصانك يا سيدي".

مرَّر أرمسترونج لجام فليت إلى الولد مع تفَّاحة أيضًا، وقال: "إن أعطيتَ هذه إلى فليت ستصبح صديقَتَكَ مدى الحياة"، ثم استدار وطرق باب البيت الضخم الخالي من الزينة.

فُتح الباب فتحة صغيرة، ولمح منه وجه برفع الشَّقِّ الذي يُطلُّ منه. ألقت نظرة واحدة على وجهه الأسود وتغضَّنَت ملامحها الحادة.

"هش! ارحل من هنا أيُّها الشيطان القذر! نحن لسنا لأمثالك! اذهب!". تحدَّثَت بصوت أعلى من اللازم وببطء، كما لو كانت تتحدَّث إلى شخص قاصر العقل أو أجنبي. حاولت أن تغلق الباب، ولكن طرف حذاء أرمسترونج سدَّه. أعادت فتح الباب إمَّا لرؤية الحذاء الجلدي الثمين اللامع، أو لرغبتها في أن تقول له ما تفكِّر فيه بحدَّة أكبر. خاطبها أرمسترونج قبل أن تقدر على فتح فمها. تحدَّث برقَّةٍ وبقدر كبير من الكبرياء في تعابيره كما لو لم تكن قد نادته بالشيطان القذر، وكما لو لم يكن حذاؤه يسدُّ المدخل.

"سـامحيني عـلى التدخُـل يـا سـيدتي. أدرك أنـك في الأغلـب مشـغولة جـدًا، ولـن أُعطِّلَـكِ دقيقـةً أكـثر مـن الـلازم". رآهـا تـدرك التعليـم الغـالي الـذي يقبـع وراء صوتـه وتقييـم قُبَّعتـه ومعطفـه الأنيـق. رآهـا تصـل إلى نتيجـة وشـعر بالضغـط ينحـسر عـن موقـع الأصابـع في حذائـه.

قالت: "نعم؟".

"لقـد فَهمــتُ أن امــرأةً شــابَّةً اســمها الســيدة أرمســترونج تســكن لديــكِ؟".

شدَّت أطراف شفاهها ابتسامة انتصار وضيعة.

"إنها تعمل هنا. هي جديدة. سيكون عليك دفع مبلغ زائد".

إذًا فهذا ما قصده بن عندما قال بيت سيئ.

"كل ما أريده هو التحدُّث إليها".

"إنـه الخطـاب كـما أتصـوَّر؟ هــي تتوقَّعـه منـذ أسـابيع. لقـد فقَـدَت الأمـل".

مــدَّت الســيدة النحيفــة الحــادَّة يــدًا نحيفــة حــادَّة. نظــر إليهــا أرمســترونج وهـــزَّ رأســه.

"أودُّ أن أراها بشدَّة من فضلك".

"ليس الخطاب؟".

"ليس الخطاب. خُذيني إليها إذا سمحتِ".

قادتـه إلى دَورٍ أوَّل ثـم ثـانٍ وهــي تتمتـم طيلـة الوقـت "لم لا أتصوَّر أنـه الخطـاب إن كان كل مـا سـمعته عشريـن مـرَّة في اليـوم طيلـة الشـهر الماضي هــو "هــل جــاء خطــابي يــا ســيدة إيفيــس" و"هــل يوجــد خطــاب لي يــا ســيدة إيفيــس؟"".

لم يَقُل شيئًا، ولكنه منح نفسه هيئةً طَيِّعَة ومُذعِنَة كلَّما استدارت كي تنظر إليه. يتحوَّل السُّلَّم الذي كان أنيقًا وفخمًا عند المدخل ليصبح رَثًّا وباردًا كلَّما ارتفع. في الطريق إلى الأعلى كانت بعض الأبواب مفتوحة. لمح أرمسترونج مَشاهِدَ لأَسِرَّة غير مُرتَّبة، وملابس منثورة على الأرض. انحنت سيدة نصف عارية في إحدى الغرف ترفع جوربًا فوق رُكبَتِها. ابتسمت شفتاها عندما لمحته، ولكن عيونها لم تبتسم. وَجَلَ قَلبُه: هل هذا هو ما أصبحت عليه زوجة روبين؟.

توقَّفَت السيدة إيفيس عند العتبة العليا الخالية من الزينة حيث يتقشَّر الدهان، وطرَقَت بسرعة وحِدَّة على الباب.

لم يأتِ ردٌّ.

طرَقَت مرَّةً أخرى "سيدة أرمسترونج؟ لديكِ زائر".

لم يكن هناك سوى الصمت.

عبست السيدة إيفيس "لا أعرف إن كانت قد خرَجَت هذا الصباح. كنتُ سأسمع"، ثم بهلَعٍ حادٍّ "هرَبَت، هذا ما فعلته المومس!"، وأخرَجَت المفتاح من جيبها في لمح البصر وفتَحَت الباب واقتحمت الغرفة.

استوعب أرمسترونج كل شيء في لحظة من وراء السيدة إيفيس. ملاءة السرير الحديدي المبقَّعة والمجعَّدة وبجوارها ذلك البَياضُ الآخر. ذراعٌ مُمتدَّة، أصابعها مفرودة ومُتخشِّبة.

صاح "لا! يا إلهي!"، ورفع يده إلى عينيه كما لو كان الوقت لا زال يسمح له بعدم رؤيتها. وقف هناك لبضع ثوانٍ بعيونه مُغلَقَةً بإحكام، بينما استمرَّت شكاوى السيدة إيفيس. "الصغيرة الحقيرة! إنها مدينةٌ لي بأجرة أسبوعين! عندما يصلني خطابي يا سيدة إيفيس! ياه! الثعلبة الكاذبة! ماذا سأفعل الآن، ها؟ تأكل وجباتي وتنام على

فـرشي! كانـت تظـنُّ أنهـا أفضـل مـن أن تعمـل مـن أجـل المـال! قلـتُ لهـا: "سـأطردكِ مـن هنـا إن لم تدفعـي فـورًا! أنـا لا آوي البنـات هنـا بـلا مقابـل! إن لم تسـتطيعي الدفـع فيجـب عليـك العمـل". حرَصـتُ عـلى أن تعمـل. أنـا لـن أسـمح بإقامـة الفتيـات اللـواتي لا يَـرونَ غضاضـةً في مراكمـة الديـون، ويَظُنَّـنَّ أنَّهـنَّ أفضـل مـن أن يَدفَعـن. لقـد استسـلَمَت في النهايـة. جميعهـن يستسـلمن. مـاذا أفعـل الآن، هـا؟ اللِّصَّـة الغبيـة!".

بـدا أرمسـترونج عندمـا أبعـد يديـه عـن عيونه وفتحهـما شـخصًا مختلفًا تمامًـا. نظـر إلى أرجـاء الحجـرة الصغـيرة الدنيئـة بـأسى. ألـواح الشـيش كانـت عاريـةً وتدخـل تيّـارًا، وأحـد الألـواح مكسـور ويُدخـل سـكاكين مـن الهـواء البـارد. جـصُّ الحوائـط ممتلـئ بالحُفَـر والبثـور. لم يكـن يوجـد أي لـون أو دفء أو راحـة آدميـة. عـلى الحامـل بجـوار السريـر، كانـت توجـد زجاجـة دواء بُنِّيَّـة. فارغـة. حملهـا وشَـمَّها. هـذا هـو الأمـر إذًا. لقـد أنهـت الفتـاة حياتهـا. أسـقط الزجاجـة في جيبـه. لمـاذا يُعـرف الأمـر؟ يكفـي أن مـا يمكـن فعلـه مـن أجلهـا قليـل. يمكنـه عـلى الأقـل أن يخفـي طريقـة رحيلهـا.

اسـتمرَّ صـوت السـيدة إيفيـس وهـو الآن يحمـل نـبرة حـرصٍ "ومَـن تكـون أنـت؟ هـا؟"، ومـع أن الفكـرة كانـت مُسـتَبعَدَة، ولكـن كان لديهـا مـا يكفـي مـن الأمـل كي تقـترح "قريبهـا؟".

لم تتلـقَّ إجابـة. مـدَّ الرجـل يـده وأغلـق جفـون الفتـاة الميتـة ثـم أخفـض رأسـه لدقيقـة وصـلَّى.

انتظـرت السـيدة إيفيـس بنَفـاد صـبر. لم تشـاركه قـول "آمـين" ولكـن وفـور انتهـاء صلاتـه، اسـتمرَّت مـن حيـث كانـت قـد توقَّفَـت.

"كل مـا في الأمـر هـو أنـك إن كنـتَ قريبَهـا فأنـت مُلـزَم بالدفـع. دفـع الدَّيـن".

جفـل أرمسـترونج ومـدَّ يـده داخـل ثنايـا عباءتـه، وأخـرج محفظـةً جلديَّـةً. عـدَّ العمـلات في كـفِّ يـده، ثـم أضافـت هـي وهـو يعيـد المحفظة إلى مكانهـا "ثلاثـة أسـابيع!". أعطاهـا العمـلات الزائـدة مـع شـعور بالتَّقـزُّز، وأقفلـت أصابعهـا عليهـا.

اسـتدار الزائـرُ مَـرَّةً أخـرى كي يلقـي نظـرة عـلى وجـه الفتـاة الميتـة في السريـر.

بَـدَت أسـنانها كبـيرة عليهـا، وعظـام خدودهـا بـارزة بطريقـة تشـير إلى أن الشـابَّة -وبغَـضِّ النظـر عـمَّا قالتـه السـيدة إيفيـس- لم تَسـتَفِد كثـيراً مـن وجبـات صاحبـة المنـزل.

سأل صاحبة المنزل بحُزنٍ "أتصوَّر أنها كانت جميلة؟".

فاجـأ السـؤال السـيدة إيفيـس. كان عمـر الرجـل يمكنـه أن يكـون مـن عمـر والـد الشـابَّة، ولكـنْ أَخـذُ شُـقرتَها وسَـواد الرَّجُـل في الاعتبـار جعـل ذلـك غـير مُتوَقَّـعٍ. شيء مـا قـال لهـا إنـه ليـس حبيبهـا أيضًـا. ولكـن إن لم يكـن هـذا أو ذاك -إن لم يكـن قـد رآهـا مـن قبـل- فلـماذا يدفـع عنهـا الإيجـار؟ مـع أن ذلـك غـير مهـم.

هـزَّت أكتافهـا "الجَـمال جَـمال الـرُّوح. كانـت شـقراء. نحيفـة بشـكل زائـد".

خرجـت السـيدة إيفيـس إلى عتبـة السُـلَّم. تنهَّـد أرمسـترونج وألقـى نظـرةً حزينـة عـلى الجثـة الممـدَّدة عـلى السريـر وتبعهـا.

سأل "أين الطفلة؟".

"أتوقَّـع أنهـا قـد أغرقتهـا"، وهـزَّت كتفيهـا بغلظـة قلـب، ولم يُعطِّلهـا ذلـك عـن هبـوط السُـلَّم، ثـم أضافـت بخُبـثٍ "سـيكون عليـك دفـع تكاليـف جنـازة واحـدة. هـذه حسـنة واحـدة في الأمـر عـلى كل حـال".

أغرقتها؟ توقَّف أرمسترونج على قِمَّة السُّلَّم، واستدار وأعاد فتح الباب. نظر في كل اتجاه، كأنَّ في مكانٍ ما، في الفرق بين ألواح الأرضية أو خلف الستارة المُهَلهَلَة غير المفيدة -هي نفسها في مهبِّ الريح الباردة- تختفي قطعة من الحياة. أزاح الملاءة؛ لعلَّ جُثَّةً أخرى -ميِّتة؟ حيَّة؟- تختبئ في ثنياتها الهزيلة. لم يوجد هناك سوى عظام الأم، وكانت أكبر من اللحم الذي يحتويها.

في الخارج كان بن يمسح على عُرف صديقته الجديدة فليت. عندما خرج صاحب فليت من المنزل كان مختلفًا. رماديًّا أكثرَ. أكبرَ في العمر.

"شكرا" قالها وهو منشغل البال بينما يتناول اللِّجام.

خطر للصبي أنه قد لا يعرف ما الأمر الذي ساعد فيه: وصول الغريب المثير للاهتمام إلى الشارع، أم النصر الذي أكسبه البِليةَ ذات اللَّهب، أم الزيارة الغامضة للسيدة أرمسترونج في بيت السيدة إيفيس السيئ.

توقَّف الرجل وهو يضع قدمًا واحدة في الرِّكاب، وأخذت الأمور منحى أكثر تفاؤلًا "هل تعرف الطفلة التي في هذا المنزل؟".

"أليس؟ إنهم لا يخرجون كثيرًا، وأليس تتبع أُمَّها نصف مختبئة؛ لأنها من النوع الخجول، وتشدُّ تَنُّورة أمها فوق وجهها إن ظنَّت أن شخصًا ما ينظر إليها، ولكني رأيتها تَستَرِقُ النظر مرة أو مرتين".

"كم تُقدِّر عمرها؟".

"في حوالي الرابعة".

هزَّ أرمسترونج رأسه بحزن. شعر بن بوجود شيء ما مُعقَّد ومُهمٍّ في الجو. شيء يتجاوز فهمه.

"متى رأيتها آخر مرة؟".

"أمس بعد الظهيرة".

"أين كان ذلك؟".

"فـوق. بجـوار متجـر جريجـوري. خرجـت منـه مـع أُمِّهـا ثـم تقدَّمَتـا في الشـارع".

"أي نوع من المحلات هو متجر جريجوري؟".

"عِطارة".

"هل كانت تحمل شيئًا في يدها؟".

تأمَّل بن "شيء ملفوف".

"ما حجمه؟".

أشـار بيـده ليوضِّـح الحجـم، وفَهِـم أرمسـترونج أنـه لا بُـدَّ أن يكـون في حجـم الزجاجـة التـي التقطهـا في الغرفـة والتـي تقبـع الآن في جيبـه.

"والشارع. إلى أين يؤدِّي؟".

"إلى لا مكان في الحقيقة".

"لا بُدَّ أنه يؤدي إلى مكان ما".

"لا مكانَ سوى النهر".

لم يَقُـل أرمسـترونج شـيئًا. تخيَّـل الشـابَّة المسـكينة وهـي تدخـل إلى العطَّـار كي تشـتري زجاجـةً مـن السُـمِّ ثـم تشـقُّ طريقهـا إلى النهـر.

"هل رأيتهما ترجعان".

"لا".

"أو... ربما رأيت السيدة أرمسترونج تعود وحدها؟".

"وقتها كنتُ قد دخلت إلى المنزل كي آكل الأرباح".

تحـيَّر بـن. شـعر أن حَدَثًـا مُهـمًّا كان يحـدث، ولكنـه لم يعـرف مـا يمكـن أن يكـون. نظـر إلى أرمسـترونج لـيرى إن كان مفيـدًا لـه أم لا. شـعر

أنه يريد أن يكون طرفًا فيما يحدث، أي كان بجوار هذا الرجل الذي يطعم حصانه الوسيم تفَّاحًا، ويحتفظ ببِلي في جيبه ويكاد يبدو مُخيفًا، ولكن صوته مليء بالطيبة. ولكن الرَّجُل الأسمر صاحب الحصان البديع لم يَبدُ سعيدًا بالمرَّة، وشعر بن بالإحباط.

"هل تريني الطريق إلى العطار يا بن؟".

"سأفعل". مَشَيَا، وبدا على الرجل أنه مستغرق في أفكاره، ومع أن بن لم يدرك ذلك، ولكنه كان يفكِّر أيضًا؛ لأن شيئًا ما في وجه الرجل الجاد أنبأه بأن الدراما التي يشتبكان معها قاتمة.

وصلا إلى مبنى صغير وقصير، مبنيٍّ من الطوب، وبه نافذة صغيرة وقذرة، رَسَمَ عليها شخصٌ ما كلمة "عِطارة"، ولكن منذ زمن بعيد فصارت الآن باهتة. دخلا، وانتبه لهم الرجل الواقف عند طاولة البيع. كان ضئيل الحجم بذقنٍ أشعث. انتبه إلى الرجل الوافد بفزع، ثم رأى بن، فقرَّر أن يطمئن.

"كيف يمكنني مساعدتك؟".

"الموضوع بخصوص هذه".

بالكاد نظر الرجل إليها "تتطلَّب إعادة ملء؟".

"لا، أريد المزيد منها، بل سيكون أفضل للجميع إن كان يوجد أقل".

ألقى العطار نظرةً سريعة ومتردِّدة نحو أرمسترونج، ولكنه لم يتجاوب مع ما يشير إليه.

نزع أرمسترونج السَّدَّادة ووضعها تحت أنف الرجل. بقي بها ما يقلُّ عن ربع زجاجة؛ ممَّا يكفي لإطلاق الرائحة التي ارتفعت بعنف من أعلى فتحات أنفه إلى مُخِّه. لا تحتاج إلى أن تعرف ما هي كي تحزر. كانت الرائحة تقول لك احذر.

بدا على العطَّار عدم الارتياح.

"هل تتذكَّر بَيعَها؟".

"أبيع جميع أنواع الأشياء. يريد الناس هذا..." هزَّ رأسه باتجاه الزجاجة التي وضعها أرمسترونج على الطاولة "لمختلف الأغراض".

"مثل ماذا؟".

هزَّ الرجل كتفيه "قمل النباتات".

"قمل؟ في ديسمبر؟".

أدار عيونًا ممتلئة بالبراءة المزيَّفة نحو أرمسترونج "أنت لم تذكر ديسمبر".

"أعني ديسمبر بالطبع. لقد بِعتَ هذه لشابَّةٍ أمس".

تأرجَحَت تفاحة آدم صاعِدةً وهابطة في رقبة العطار "أنتَ صديق هذه الشابة، أليس كذلك؟ لا أعني أني أتذكَّر أي شابَّة. لا أذكر شيئًا مُحدَّدًا. الشابات يجئن ويذهبن ويُرِدن كل أنواع الأشياء لجميع الأسباب. أظنُّ أنَّك لستَ أباها". توقَّف، ولكن أرمسترونج لا يجيب، فاستمرَّ بتأكيدٍ خبيث "إذا أنت حاميها؟".

كان أرمسترونج أرقَّ الرِّجال، ولكنه كان يعرف كيف يبدو خلافَ ذلك عندما يخدم ذلك أغراضه. وجَّه للعَطَّار نظرة مُعيَّنة؛ فارتعد الرجل فجأة.

"ماذا تريد؟".

"معلومات".

"اسألني".

"هل كانت الطفلة معها؟".

بَدَت عليه المفاجأة "الطفلة الصغيرة؟ نعم".

"إلى أين ذهبتا بعد أن تركتاك؟".

أشار بيده

"نحو النهر؟".

هزَّ الرجل أكتافه "كيف لي أن أعرف إلى أين تذهبان".

كان صوت أرمسترونج دَمِثًا، ولكن لا يمكن أن تخطئ الوعيد الذي يحمله "أُمٌّ شابَّة بلا حول ولا قوة تأتي إليك ومعها طفلة صغيرة وتشتري سُمًّا ولا تفكر في سؤالها بنفسك عمَّا ستفعله بعد ذلك؟ ماذا تُخطِّط؟ ألا تفكر أبدًا في نتائج كسبك لبضعة قروش تعيسة من مثل هذه البيعة؟".

"يا سيدي إن كانت توجد شابَّة في ورطة، فإخراجها منها مَهمَّة مَن؟ مَهمَّتي؟ أم مَهمَّة مَن أوقعها في الورطة في البداية؟ إن كانت تعني لك شيئًا يا سيِّد... يا سيِّد أيًّا كان، فعليك توجيه سؤالك إلى تلك المسألة. اذهب إلى مَن دَمَّرها وهجرها، وهناك ستجد المسؤولية عمَّا حدث لاحِقًا! هذا لا يعني أني أعرف ما حدث. أنا لستُ إلَّا رَجُلًا يجب أن يكسب قوت يومه، وهذا هو ما أفعله".

"تبيع السُّمَّ للفتيات اللاتي لا يجدن مَن يساعدهن في الدنيا كي يَقتُلن حشرة القمل من على وردهم في ديسمبر؟".

كان لدى العطار الكياسة التي تجعله يبدو مُحرَجًا، ولكن كان من الصعب تمييز ما إن كان ذلك شعورًا بالذنب أو خوفًا من أن يتسبَّب له أرمسترونج بمتاعب.

"لا يوجد قانون يُجبِرني على معرفة مواسم الآفات الزراعية".

"إلى أين بعد هنا يا سيدي؟" سأل بن بأمل عندما عادا إلى الخارج.

"أظنُّ أني انتهيتُ من هنا. بالنسبة لليوم على كل حال. فلنذهب إلى النهر".

بينما هما في طريقهما، أصبحت خطوات بن أبطأ، وبدأ يترنَّح في مشيته. نظر أرمسترونج ليرى أين أصبح بن عندما اقتربا من النهر، فرآه يستند إلى جذع شجرة ووجهه ممتقع.

"ما الأمر يا بن؟".

بكى بن "أنا آسف يا سيدي. لقد أكَلتُ بعضًا من التفاحة الخضراء التي أعطيتني إيَّاها من أجل فليت يا سيدي، والآن تؤلمني معدتي وتتقلَّب".

"تلك التفاحات حامضة. هذا منطقي. ماذا أكَلتَ اليوم؟".

"لا شيء يا سيدي".

"لا إفطار؟".

هزَّ الصبي رأسه وشعر أرمسترونج بدَفقَةِ غَضبٍ نحو الجزار الذي لا يُطعِم أبناءه.

"إنه حمض على معدةٍ فارغة". فتح أرمسترونج القِنِّينة التي يتحفَّظ بها في جيبه "اشرب هذا".

شرب الصبي وظهر على وجهه الاشمئزاز "هذا مُريعٌ فعلًا يا سيدي، إنه يجعلني أسوأ".

"هذا هو الغرض. إنه ليس أكثر شرًّا من الشاي البارد. اشربه كله".

أمال بن القنينة، وابتلع آخر ما تبقَّى من الشاي. ثم تقيَّأ بقوة على العشب.

"هذا جيِّد. هل هناك المزيد؟ نعم؟ استمرَّ".

بينما يَشهقُ بن ويَئِنُّ على شاطئ النهر وتراقبه فليت، عاد أرمسترونج سريعًا إلى الشارع الرئيسي حيث اشترى ثلاث قطع خبز من مخبز. عاد وأعطى بن اثنتين- "هيا املأ معدتك"، وأكل هو الثالثة.

جلسا هما الاثنان على الشاطئ، يراقب أرمسترونج النهر وهو يسري بقوَّة أمامهم، بينما بن يأكل. كان النهر أهدأ هكذا عندما يتلكَّأ، ولم تكن توجد أي طرطشة بلا هدف في الطريق، بل فقط الدفقات القوية للأمام، وخلف الرَّنَّة الحادَّة للماء فوق الحصى على طرف النهر يُسمع طنين من النوع الذي تتوقَّع أن تسمعه داخل رأسك بعد أن تضرب مطرقةٌ جرسًا ويتلاشى صوت الرنين. كانت له هيئة الضجيج، ولكنه يفتقد الصوت. رسمة بلا لون. أنصت له أرمسترونج وسرى ذهنه مع النهر.

كان هناك جسر بسيط مبنيٌّ من الخشب، وتحته كان النهر عاليًا وسريعًا، يكسح أي شيء يسقط بداخله. رأى الشابة هناك مع طفلتها في المساء في الظلام والبرد. رحم نفسه من صورتها وهي تُسقِط الطفلة في الماء، ولكنه تخيَّل تعاستها وشعر بقلبه يقفز هلعًا وحُزنًا. رفع أرمسترونج بصره ونظر بطول النهر بلا انتباه. لم يكن يعرف ما الذي يتوقَّع رؤيته. ما يعرفه أنه لا يتوقَّع رؤية طفلة صغيرة- ليس الآن.

عندما عاد إلى نفسه، لاحظ قدر شعوره بقسوة الشتاء مقارنة ببضع ساعات مَضَت. قلَّت مقاومة جسمه للبرد، وشعر ببرودة جلده داخل معطفه الصوفي والطبقات العديدة تحته. عشب الأرض رطب، واختفت الألوان البنية والذهبية للخريف منذ زمن، بينما لا يزال الربيع على بُعد عدَّة شهور. كانت الأغصان في أكثر حالاتها سَوادًا، وبدا أن عودة الحياة لتكسي قِمَم الأشجار العارية بغبش الأوراق الجديدة لا يحتاج إلَّا إلى معجزة. لا يسع مَن يراها اليوم سوى أن يظنَّ أن الحياة قد انتهت إلى الأبد.

حـاول تشـتيت نفسـه عـن أفـكاره الحزينـة والتفـت إلى بـن ليجـد الولـد يشـبه نفسـه القديمـة.

"هل ستنضمُّ إلى والدك في متجر الجزارة عندما تكبر؟".

هزَّ بن رأسه "سأهرب".

"هل هذه خُطَّة جيدة؟".

"إنـه تقليـدٌ عائـليٌّ فَعَلَـه أوَّلًا أخـي الثاني، ثـم أخـي الثالـث، وسـيكون دوري بعـد ذلـك. لا يحتـاج أبي إلَّا لواحـد فقـط منَّـا؛ لـذا فـلا يحتـاج إلى بقيَّتنـا. سـأهرب بعـد وقـت قصير -أظـنُّ عندمـا يتحسَّـن الطقـس- وأصنع ثـروة لنفـسي".

"بفِعل ماذا؟".

"سأكتشف هذا الأمر عندما أفعله على ما أظنُّ".

"أتمنـى عندمـا يـأتي الوقـت المناسـب يـا بـن أن تـأتي إليَّ. لـديَّ مزرعة في كلمسـكوت، سـوف توجـد دائمًـا وظيفـة لـلأولاد الصادقين الذين لا يخشـون العمـل. فقـط شُـقَّ طريقـك إلى كلمسـكوت واسـأل عن أرمسـترونج".

أخـذ بـن نَفَسًـا عميقًـا وقـد أذهلتـه ضربـة الحـظ تلـك، وقـال: "شـكرًا يـا سـيدي! شـكرًا يـا سـيدي! شـكرًا" عـدَّةَ مـرَّات.

تصافح الصديقان الجديدان للتصديق على اتفاقهما، ثم افترقا.

أخـذ بـن أولى خطواتـه نحـو المنـزل وأفـكاره مضطربـة. لم تتجـاوز السـاعة العـاشرة، ولكنـه كان يومًـا فريـدًا مـن المغامـرة، وفجـأة اسـتقرَّت دلالـة حـزن أرمسـترونج في ذهنـه الصغـير.

"سـيدي؟" قـال وهـو يركـض عائِـدًا نحـو أرمسـترونج الـذي كان قـد امتطـى جـواده بالفعـل.

"نعم؟".

"أَلِيس- هل ماتت يا سيدي؟".

نظر أرمسترونج إلى النهر نحو حركته السطحية عديمة الاتجاه.

"هل ماتت؟".

أمسك اللجام مُرتَخِيًا في يده واستقرَّ بقدميه في الرِّكاب.

"لا أعرف يا بن. أتمنَّى لو كنتُ أعرف. ماتت أمُّها".

راقب بن أرمسترونج مُنتظرًا أن يقول شيئًا آخر، ولكنه لم يفعل، فاستدار وشقَّ طريقه إلى المنزل. السيد أرمسترونج المزارع في كلمسكوت. عندما يأتي الوقت المناسب سيهرب- ويصبح جزءًا من الحكاية.

نغز أرمسترونج فليت لتتحرَّك إلى الأمام. تَحرَّكا بخطوة متمهِّلة، وانتحب أرمسترونج بينما يمضي في طريقه حُزنًا على فقدان الحفيدة التي لم يعرفها.

دائمًا ما يتألَّم أرمسترونج عندما يعرف بوجود كائنٍ يتعذَّب. لم يكن يسمح أن تتعذَّب حيواناته؛ لهذا كان يذبحهم دائمًا بنفسه بدلًا من تَولِّي أحد رجاله هذه المَهمَّة. كان يتأكَّد أن السكين حاد، ويُهَدهِد الخنازير بالكلام ويُشتِّت انتباههم بجوز البلوط، وكانت لفَّة سريعة خبيرة للسكين كافية. لا خوف ولا ألم. غرق طفلة؟ لم يكن بإمكانه التفكير في الأمر بلا دموع. يتخلَّص بعض المزارعين من الحيوانات المريضة بهذه الطريقة، وكان من الشائع إغراق القطط الوليدة والجِراء غير المرغوب فيها داخل شوال، ولكنه لم يفعل ذلك أبدًا. قد يكون الموت ضروريًّا في الزراعة، ولكن العذاب؟ مُطلَقًا.

انتحب أرمسترونج وهو يمضي في طريقه واكتشف أن الفقد يستعيد فقدًا آخر. أصابه من جديد نفس الحزن الحاد الذي شعر به ذلك النهار منذ أكثر من عامَيْن عندما اكتشف أن خنزيرته المفضَّلة، أذكى وأطيب خنزيرة عرفها خلال ثلاثين عامًا من العمل في الزراعة

مفقـودة. "مـا الـذي حـدث لمـود يـا فليـت؟ لا أسـتطيع أن أتصالـح مـع عـدم المعرفـة. أخذهـا شـخصٌ مـا يـا فليـت. مَـن الـذي يمكـن أن يُبعِدَهـا بـكل هـذا الهـدوء؟ أنـتِ تعرفـين كيـف كانت. كانـت سـتصرخ إن حـاول غريـبٌ أن يأخذهـا. ولمـاذا يـسرق خنزيـرةً صغـيرة؟ يمكننـي أن أفهـم إن كانـت خنزيـرةً للمائـدة -النـاس يجوعـون- ولكـن خنزيـرة الاسـتيلاد لحمها قـاسٍ ومُـرٌّ: ألا يعرفـون ذلـك؟ الأمـر غـير منطقـي. لمـاذا يسرقـون خنزيـرة بحجـم مـود، بينـما توجـد خنازيـر مائـدة في الحظـيرة المجـاورة؟".

اعتـصر قلبـه في ألمٍ بسـبب أكـثر فكـرة لا تُحتَمَـل: الشـخص الجاهـل بحيـث يأخـذ أكـبر خنزيـرة بـدلًا مـن الخنازيـر الصغـيرة حلـوة المـذاق. لا بُـدَّ أنـه أخـرق في اسـتخدام سِـكِّينة الجـزارة.

يـدرك أرمسـترونج حظَّـه الجيِّـد تمامًـا، لديـه الصحـة والقـوة والـذكاء. مـيلاده غـير المألـوف -كان أبـوه إيـرل وأمـه خادمـة سـوداء- جلـب عليـه صعوبـات ومزايـا معًـا: نـال تعليـمًا رفيعًـا، مـع أن طفولتـه كانـت وحيـدة، وعندمـا اختـار مسـاره في الحيـاة مُنِـح مبلغًـا سـخيًّا ليبـدأ بـه. يملـك أرضًـا خصبـة، وقـد كسـب حُـبَّ بيـس، ومعًـا كَوَّنـا عائلـة كبـيرة وسـعيدة في الأغلـب. كان رَجُـلًا يُحـصي النِّعَـم التـي يملكهـا ويسـعد بهـا، ولكنـه أيضًـا رَجُـلٌ يشـعر بخسـائره بحـدَّة، وكان ذهنـه الآن يتعـذَّب.

طفلـة تقـاوم في النهـر. مـود تقـاوم ضـدَّ نصـلٍ بـارد يتحكَّـم بـه جـزَّار غـير ذي خـبرة.

تُمزِّقـه الصُّـورُ القاتمـة. نعـم، يطلـق كلُّ حـزنٍ حزنًـا آخـر، ثـم آخـر، وبمـا أن الجـرح الـذي تركـه فقـدان مـود قـد انفتـح، انتقـل ذهنـه إلى أكـثر فَقـدٍ مُـؤلم، وفاضـت الدمـوع عـلى وجهـه.

"آه يا روبين. كيف أخطأت يا فليت؟ آه يا ابني يا روبين".

تفصلـه الآن مسـافة شاسـعة عـن ابنـه البِكـر، وجثـم عـلى قلبـه حُـزنٌ ثقيـل وأجهـده. اثنـان وعـشرون عامًـا مـن الحـب، والآن؟ لم يقبـل ابنـه أن

يعيش في المزرعة منذ أربع سنوات، ويعيش في أوكسفورد منفصلًا عن أخوته وأخواته. يقضون شهورًا دون رؤيته، ولا يرونه إلّا إذا أراد شيئًا. "لقد حاوَلتُ يا فليت- هل حاوَلتُ بقدر ما ينبغي؟ ما الذي كان عليَّ فِعلُه؟ هل ضاع الوقت؟".

وأعاده التفكير في روبين إلى الطفلة -طفلة روبين- وبدأت الحلقة مرة أخرى من البداية.

ظهر أمامه بعد فترة رجلٌ عجوز يتَّكئ على عصا. مسح أرمسترونج وجهه بكُمِّه، وعندما اقتربا من بعضهما البعض، توقَّف ليتحدَّث معه.

قال: "فُقِدَت طفلة من بامبتون عمرها أربعة أعوام. هل يمكنك أن تنشر الخبر؟ أنا أرمسترونج ومزرعتي في كلمسكوت...".

رأى وجه الرَّجُل يتغيَّر منذ الكلمات الأولى.

"إذًا فلديَّ أخبار حزينة لك يا سيد أرمسترونج. لقد سمعت القول ليلة أمس في مباراة لمصارعة الديوك. اتْبَع هذا الطريق حتى ليشلاد؛ لأن قطار الصباح قد أخبرنا جميعًا. رُفِعَت طفلة صغيرة من النهر. غريقة".

إذًا فقد رحَلَت. هذا ما كان مُتوقَّعًا.

"أين كان ذلك؟".

"ذا سوان في رادكوت".

لم يَخلُ الرجل من الطيبة. أضاف وهو يرى حزن أرمسترونج "لا أقول إنها الطفلة التي تبحث عنها. قد تكون طفلةً مختلفة تمامًا". بينما يَحثُّ أرمسترونج فليت على أن تعدو، هزَّ الرجل العجوز رأسه وضمَّ شفتيه. خسر ليلة أمس أجر أسبوع في مصارعة الدِّيَكَة، ولكن يوجد مَن هم أسوأ حالًا منه.

ثلاثة ادّعاءات

لـكلٍّ مــن ليتــش والتشــيرن والكولــن رحلتــه المســتقلَّة حتــى يصــل إلى التامــز ويســاهم في ارتفــاع مياهــه، وعــلى نفــس النَّهــج، كان لــكلٍّ مــن عائلــة فــون وعائلــة أرمســترونج وليــلي وايــت قصصهــم الخاصَّــة في الســنوات والأيــام الســابقة عــلى كونهــم جُــزءًا مــن هــذه القصــة. ولكنهــم انضمُّــوا لهــا، ونــأتي الآن لالتقــاء المســارات المائيــة.

يتمــشَّى شــخصٌ جيئــةً وذهابًــا عــلى شــاطئ النهــر بينــما لا يــزال العــالم مُغطًّــى بالسَّــواد. هيئــة قصــيرة تقبــض عــلى معطــف تلتحــف بــه وتهــرول باتجــاه جــسر داكــوت وتزفــر أنفاسًــا مــن البخــار.

توقَّفَت عند الجسر.

عــادةً مــا يكــون مــكان التوقُّــف عنــد الجــسر هــو قِمَّتــه. التوقُّــف هنــاك طبيعــيٌّ حتــى إن أغلــب الجســور -حتــى الجديــدة التــي لم يَمــضِ عليهــا ســوى بضعــة مئــات مــن الســنين- مهَّــدَت قِمَّتهــا الأقــدام التــي

تلكأت وتسكَّعَت وتساءلت وانتظرت هناك. عجزت ليلي عن فهم هذا الشيء. كانت تتوقَّف عند الشاطئ أو حجر المرسى أو الصخرة الضَّخمة التي أسَّس عليها البَنَّاء. أدهشت الهندسةُ ليلي، فبالنسبة لها لا تثبت الأحجار بشكل طبيعي في الهواء ولم تكن تستطيع أن تفهم كيف يبقى الجسر قائمًا. قد يكتشف في أية لحظة أنه وهم بالتأكيد، وعندها إن تصادف أنها فوقه فستسقط عبر الهواء وتقع في الماء وتنضمُّ لأرواح الموتى. كانت تتفادى الجسور قدر استطاعتها، ولكن أحيانًا كان عبورها ضروريًّا. كوَّرَت قماش ردائها في كفَّيها وأخذت نَفَسًا عميقًا وانطلقت تركض بخطوات ثقيلة.

كانت مارجو أوَّلَ مَن استيقظ وقد أفاقها الخبط على الباب. أخرجها من سريرها إلحاحُ الطَّرْق وسحبت روبها المنزلي ونزلت إلى الطابق السفلي لترى مَن على الباب. نفضت ذكرياتها عن الليلة الماضية سيماء الحلم بينما تهبط هي السُّلَّم، وكشفوا لها عن حقيقتهم المدهشة. هزَّت رأسها في تساؤل، ثم فتحت الباب.

"أين هي؟" قالت المرأة الواقفة عند الباب. "هل هي هنا؟ سمعت أنها...".

"أنتِ السيدة وايت أليس كذلك؟ من الجهة الأخرى من النهر؟" ما الذي يحدث هنا؟ قالت مارجو لنفسها "ادخلي يا عزيزتي. ما الأمر؟".

"أين هي؟".

"نائمة على ما أظنُّ. لا يوجد داعٍ للاستعجال أليس كذلك؟ دعيني أُضِئ شمعة".

أتى صوت ريتا "توجد شمعة هنا". كانت واقِفةً عند مدخل غرفة الحجيج وقد أيقظها الطَّرقُ على الباب.

"مَن هذه؟" سألت ليلي بتوتر.

"أنا فقط. ريتا سنداي. صباح الخير. أنتِ السيدة وايت أليس كذلك؟ أظنُّ أنك تعملين لدى القس هابجود؟".

نظرت ليلي في أرجاء الغرفة بينما الشمعة تشتعل وقدماها تتحرَّكان بتوتُّر تحتها. "الطفلة..." بدأت الكلام مرَّةً أخرى، ولكن التَّردُّد بدأ في التسلُّل إلى تعبيرها بينما تنظر إلى مارجو وريتا "لقد ظننتُ.. هل حلمت؟ أنا لا... ربما عليَّ أن أرحل".

صدر من خلف ريتا صوت خطوات صغيرة. كانت الطفلة تدعك عيونها وتترنَّح على قدميها.

"أوه!" صاحت ليلي بصوتٍ تَغيَّر بالكامل "أوه!".

رأوا شحوبها حتى على ضوء الشمعة. طارت يدها إلى فمها وحدَّقَت بصدمة في وجه الطفلة.

صاحت بصوت تخنقه المشاعر "آن! سامحيني يا آن! قولي إنك تسامحينني يا أختي العزيزة!". ركعت ومدَّت يدًا مُرتعشة إلى الطفلة، ولكنها لم تجرؤ على لمسها. "لقد عدتِ! الحمد لله! قولي إنك تسامحينني...". حدَّقَت في الطفلة التي بَدَت لا مبالية باشتياقٍ مُلحٍّ.

"آن؟" سألَت بعيون متوسِّلة تنتظر رَدًّا.

لم يأتِ الرَّدُّ.

"آن؟" همَسَت مرَّةً أخرى وهي ترتجف في خوف.

لم تُجِب الطفلة.

تبادَلَت ريتا ومارجو نظرات الدهشة، ثم وعندما رَأَتَا المرأة تبكي، وضعت ريتا يديها على أكتافها المرتعشة وقالت بصوت مهدئ: "سيدة وايت".

صاحت ليلي "ما هذه الرائحة؟ النهر. أعرف أنه هو!".

"لقـد وُجِـدَت في النهـر ليلـة أمـس. لم نغسـل شـعرها بعـد- كانـت في حالـة سـيئة".

أدارت ليـلي عينيهـا إلى الطفلـة مـرة أخـرى وحدَّقـت بهـا في تعبـيرٍ يتبـدَّل بـين الحـب والرعـب.

"اتركوني" همست "دعوني أرحل!".

نهضـت مرتعشـةً، ولكـن بتصميـمٍ، وشـقَّت طريقهـا خارجـة وهـي تُهَمهِـم بالاعتـذار وهـي تمـشي.

"حسـنًا" صاحـت مارجـو باندهـاش هـادئ "لقـد يئسـتُ مـن إيجـاد منطـق في أي شيء. سـأصنع فنجانًـا مـن الشـاي. هـذا أفضـل مـا يمكننـي فعلـه".

"وهو شيء جيِّد أيضًا".

ولكـن مارجـو لم تذهـب كي تصنـع الشـاي. عـلى الأقـل ليـس فـورًا. نظـرت خـارج النافـذة إلى حيـث كانـت ليـلي تركـع في الـبرد ويداهـا مضمومتـان إلى صدرهـا. "إنهـا لا تـزال هنـا. يبـدو أنهـا تصـلِّي. تصـلِّي وتُحـدِّق. مـا رأيـك في ذلـك؟".

فكَّـرَت ريتـا "هـل يمكـن أن تكـون للسـيدة وايـت أخـت صغـيرة إلى هـذا الحـد؟ كـم تبلـغ مـن العمـر في رأيـك؟ أربعـين؟".

هزَّت مارجو رأسها "وفتاتنا الصغيرة- أربعة؟".

"تقريبًا".

اسـتخدمت مارجـو أصابعهـا لتعـدَّ كـما تفعـل فيـما يخـصُّ حسـابات الحانـة "بينهـما سـتة وثلاثـون عامًـا. إن تخيَّلنـا أن أم السـيدة وايـت أنجبتهـا في عمـر السادسـة عـشرة فسـتبلغ بعـد سـتة وثلاثـين عامًـا الثانيـة والخمسـين". هـزَّت رأسـها "لا يمكـن".

أمسكت ريتا رسغ الرَّجُل النائم في السرير في غرفة الحجيج وقاست نبضه.

"هل سيكون بخير؟".

"جميع المؤشِّرات جيدة".

"وهي؟".

"ماذا عنها".

"هل... ستتحسَّن؟ لأنها ليست بخير أليس كذلك؟ إنها لم تنطق بكلمة". استدارت مارجو إلى الطفلة "ما اسمك يا عروستي؟ مَن أنتِ؟ ها؟ قولي هالو للعَمَّة مارجو!".

لم تستجب الطفلة.

حملتها مارجو وهمهمت بتشجيعٍ أموميٍّ في أذنها "هيَّا يا صغيرتي. ابتسامة صغيرة؟ نظرة؟"، ولكن الطفلة بقيت غيرَ مُبالية. "هل تستطيع أن تسمعني؟".

"لقد تساءلتُ عن هذا أنا نفسي".

"ربما فقَدَت عقلها في الحادثة؟".

"لا أثر لخبطة على الرأس".

"بلهاء؟" تساءَلَت مارجو. "يعلم الله كم هو صعب أن يكون لك طفلٌ مختلف". مسحت على شعر الطفلة بحُنوٍّ "هل حكيت لك من قبل عن وقت ميلاد چوناثان؟". لا يمكن أن تعيش في ذا سوان لسنوات، دون أن يكون في دَمِكَ منذ أجيالٍ ولا تعرف كيف تحكي حكاية. ومع أنها كانت عادة مشغولة عن مثل هذه الأمور إلَّا أن طبيعة اليوم حفَّزَتها على الخروج عن عاداتها فتوقَّفَت كي تحكي الآن.

"هل تذكرين بيتي ريدال؟ القابِلَة التي كانت هنا قبل أن تأتي أنتِ؟".

"لقد ماتت قبل أن آتي".

"لقد وَلَّدَت جميع أطفالي. لم تتسبَّب أيٌّ من البنات في مشاكل، ولكن چوناثان -أظنُّ لأنني كنتُ أكبرَ- لم يكن أمره سهلًا. بعد اثنتي عشرة بنتًا كنَّا لا نزال أنا وچون نأمل في صبيٍّ؛ لذا عندما رفَعَته بيتي نحوي ورأيتُ شيئه! قلتُ لنفسي "سيفرح جو"، وفرحتُ أنا أيضًا. مَدَدتُ يدي لها وأنا أظنُّ أنها ستضعه في يدي، ولكن بدلًا من ذلك وضَعَته جانبًا وارتعَشَت نوعًا ما.

قالت: "أعرف ماذا سأفعل. لا تقلقي يا سيدة أكويل. إنه أمرٌ بسيطٌ ولن يفشل. سنغيِّره في لحظة... لا تخافي".

عندها رأيتُ هاتين العينين المائلتين، والوجه الغريب المستدير وأذنيه الغريبتين. كان شيئًا صغيرًا غريبًا -مخلوقًا مُنمَّقًا- وفكَّرتُ "هل هذا حقًّا لي؟ هل خرج حقًّا من بطني؟ كيف دخل إلى هناك؟" لم أرَ رضيعًا مثله من قبلُ، ولكن بيتي كانت تعرف ما هو".

وطوال الوقت الذي استغرَقَته في الحكي كانت مارجو تُهَدهِد الطفلة كما لو لم يَكُن لها وزن وكأنها أصغر بكثير.

قالت ريتا: "دعيني أُخمِّن. مبدول؟".

هزَّت مارجو رأسها "نزلت بيتي إلى المطبخ كي تشعل النار، وأظنُّ أنك تعرفين ما الذي كانت ستفعله. ستضعه فوق النار، وعندما يدفأ قليلًا سيبدأ في الصِّياح وسيأتي أهله من الجِنِّ ليأخذوه ويتركوا طفلي المخطوف مكانه. نادت من أسفل "أريد المزيد من الحطب، وقِدرًا كبيرًا"، وسمعتها تخرج إلى مخزن الخشب في الخلف.

لم أستطع أن أُبعِدَ عيني عنه، ذلك الكائن الجني الصغير. رمش لي بعيونه والطريقة التي أغلقت بها جفونه -أنتِ تعرفين كيف هي: ليست مستقيمةً مثل عيونك وعيوني، ولكنها مائلة- فوق العين وليس

مثل الرضيع الطبيعي تمامًا. قلتُ لنفسي : ما الذي يظنُّه عن هذا العالم الغريب الذي أتى إليه؟ ما الذي يظنُّه عني. أنا أُمُّه البديلة؟ حرَّكَ ذراعيه، ولكن ليس كما كانت بناتي يفعلن وهُنَّ رضيعات، بل بشكلٍ أكثر تخبُّطًا، كما لو كان يسبح. ظهَرَت على وجهه تقطيبة رضيعٍ، وقلتُ لنفسي: سيبكي بعد دقيقة. إنه يشعر بالبرد. لم تلُفَّه بيتي، لا يمكن أن يكون أطفال الجنيات مختلفين كثيراً عن الأطفال الذين أعرفهم. قلتُ لنفسي: لأني أعرف أنه بدأ يشعر بالبرد. وضَعتُ طرف إصبعي على خدِّه الصغير فامتلأ بالدهشة. كان مذهولًا فعلًا! عندما أبعَدتُ إصبعي فتح فمه الصغير وماء مثل القطَّة كي أرجع إصبعي. شعرت بحليبي يتدفَّق على صوت صيحته.

كانت بيتي غاضبةً جدًّا عندما عادت ووجدته يرضع. حليب آدمي!

قالت: "حسنًا. لقد مضى الوقت الآن".

وهذا كل ما كان".

قالت ريتا في نهاية القصة: "الحمد لله. لقد سمعتُ قِصصًا عن المُبَدَّلين، ولكنها مجرَّد قصص. چوناثان ليس ابنَ جِنِّيَّة. بعض الأطفال يولدون هكذا. يمكن ألَّا تكون بيتي قد رأتهم من قبل، ولكني رأيتهم. يوجد أطفال آخرون في العالم مثل چوناثان بنفس العيون المائلة واللسان الضخم والأطراف الرخوة. يُسمِّيهم بعض الأطباء الأطفال المنغوليين؛ لأنهم يشبهون الناس في ذلك الجزء من العالم".

هزَّت مارجو رأسها "هو طفلٌ آدمي أليس كذلك؟ أنا أعرف ذلك الآن. إنه طفلي أنا وجو. ولكني فكَّرتُ في هذا الأمر الآن بسبب هذه الصغيرة. إنها ليست مثل چوناثان، أليس كذلك؟ إنها ليست... ماذا قلتِ عنه؟ طفلٌ منغولي؟ إنها مختلفة بطريقة أخرى. تربية طفل مختلف ليست سهلة. ولكني فعَلتُها. أنا أعرف كيف أفعلها؛ لذا فحتى لو لم تكن تسمع ولم تكن تتحدَّث..."، ضمَّت مارجو الطفلة

إليها وقرَّبَتها منها، ثم أخذت نَفَسًا، وفجأة تذكَّرَت الرجل النائم في السرير "ولكني أظنُّ أنها ملكٌ له".

"سنعرف بعد قليل. لن يمضي وقت طويل قبل أن يستيقظ".

"ما الذي تفعله ليلي الآن على كل حال؟ عليَّ أن أذهب لأعيدها إلى الداخل إن كانت لا تزال هناك. الجو أبرد من أن يُصلِّي شخص في العراء... ستتجمَّد".

ذهبت إلى النافذة لتطلَّ خارجها والطفلة لا تزال بين يديها.

شعرَت مارجو بالأمر ورأته ريتا: أسرعت الطفلة. رفعت رأسها، وبدا الاهتمام على نظرتها الناعسة. حدَّقَت من جهة إلى الأخرى تفحص المنظر باهتمام حيوي.

"ما الأمر؟" قالت ريتا وهي تقف باستعجالٍ وتعبر الغرفة. "هل هي السيدة وايت؟".

قالت لها مارجو: "لقد رحلَت... لا شيء في الخارج سوى النهر".

أتت ريتا لتقف بجوارهم. نظرت إلى الطفلة التي استمرَّ تحديقها كما لو كانت ستشرب النهر بعينيها حتى يجفَّ "لا يوجد طائر؟ بجعة؟ شيء يجذب انتباهها؟".

هزَّت مارجو رأسها.

تنهَّدت ريتا وتساءلت "ربما كان الضوء هو ما لفت نظرها". وقفت للحظةٍ ربما تراه- أيًّا كان، إن كان يوجد شيء على الإطلاق. ولكن مارجو كانت على حق. لم يكن هناك سوى النهر.

ارتدت مارجو ملابسها وأيقظت زوجها. لاحظت أن چوناثان قد استيقظ وخرج وتنهَّدَت -لم يكن أبدًا شخصًا يحترم ساعات النوم والصحو- ثم استعدَّت لصنع الشاي والعصيدة. طُرِق الباب مرَّةً أخرى بينما تُقلِّب القدر. كان الوقت مبكِّرًا بالنسبة للشَّاربين، ولكن بعد

الليلـة الماضيـة لا بُـدَّ أن يـأتي بعـض الفضوليِّـين. فتحـت البـاب والتحيـة عـلى طـرف لسـانها، ولكنهـا أخـذت خطـوةً إلى الـوراء بعـد أن فتحـت البـاب. كان الرجـل الـذي يقـف في المدخـل ذا بـشرة سـوداء. كان أطـولَ مـن أغلـب الرجـال وذا بنيـة قويـة. هـل عليهـا أن تنزعـج؟ فتحـت فمهـا لتنـادي زوجهـا، ولكـن الرجـل خلـع قُبَّعَتـه وهـزَّ رأسـه بتهذيـبٍ جـادٍّ قبـل أن تخـرج مـن الكلـمات.

"آسف على إزعاجك في هذا الوقت المبكِّر يا سيدتي".

ارتعشـت الدمـوع فجـأة عـلى رموشـه، ولم يسـتطع أن يمنعهـا، ورفـع يـده إلى وجهـه كي يزيحهـا.

صاحـت وقـد انزاحـت جميـع الأفـكار عـن الخطـر "مـا الأمـر؟ تعـال واجلـس". بينـما تسـحبه إلى الداخـل. وضـع إبهامـه وسـبَّابته عـلى طـرف عيونـه، وضغـط، ثـم استنشـق وبلـع. قـال: "سـامحيني"، وصدمتهـا طريقـة كلامـه مثـل طريقـة رجُـلٍ مهـذَّب، ليـس فقـط في الكلـمات، ولكـن في الطريقـة التـي يتحـدَّث بهـا. "فهمـت أن طفلـة أتـت إلى هنـا ليلـة أمـس. طفلـة وُجِـدَت في النهـر".

"هذا حقيقي".

تنهَّد بحرارة "أعتقد أنها حفيدتي. أودُّ أن أراها إن لم يكن لديك مانع".

"إنها في الغرفة المجاورة مع أبيها".

"ابني؟ ابني هنا؟" قفز قلبه للفكرة وقفز هو أيضًا.

احتـارت مارجـو. بالتأكيـد أن هـذا الرجـل داكـن البـشرة ليـس والِـدَ الرَّجُـل النائـم عـلى السريـر. قالـت لـه: "المُمرِّضـة معـه"، مـع أنهـا تعـرف أن هـذا ليـس ردًّا "الاثنـان ليسـا بحالـة جيِّـدة".

تبعها إلى غرفة الحجيج.

قال: "هـذا ليـس ابنـي. ابنـي ليـس طويـلًا هكـذا وليـس عريضًـا أيضًـا. لحيتـه دائمًـا محلوقـة وشَـعرُه بُنِّـيٌّ فاتـح ولا يتجعَّـد هكـذا".

"إذًا فالسيد دونت ليس ابنَك".

"ابني هو السيد أرمسترونج".

تحدَّثـت مارجـو "هـذا السـيد أتى مـن أجـل الطفلـة. ظـنَّ أنهـا ربمـا تكـون حفيدتـه".

وقفت ريتا جانِبًا ووقعت عيون أرمسترونج على الطفلة لأوَّل مرَّة.

"حسنًا!" صاح أرمسترونج بتردُّد "يا لها...".

كاد ألَّا يعـرف مـا يقـول. كان في بالـه طفلـة ببـشرة بُنِّيَّـة مثلـه، وقـد أدرك فـورًا حماقـة الفكـرة. سـتكون الطفلـة مختلفـة بالتأكيـد. سـتكون ابنـة روبـين. في البدايـة أصابـه تشـوُّش بسـبب لـون الشَّـعر غـير المُحـدَّد وبيـاض بشرتهـا، ومـع ذلـك فقـد باغتتـه أُلفَـة مـا. لم يسـتطع أن يضـع يـده عليهـا بالتحديـد. لم يكـن لهـا أنـفُ روبـين في الحقيقـة- إلا ربمـا قليـلًا، واسـتدارة صدغهـا. حـاول تَخَيُّـل وجـه الشـابَّة التـي رآهـا ميِّتـةً قبـل سـاعات قليلـة، ولكـن كان مـن الصعـب مقارنـة ذلـك الوجـه بهـذا. ربمـا كان سـيقدر أن يفعـل ذلـك إن كان قـد رأى الوجـه وهـي حيَّـة كي يتذكَّـره بـأي طريقـة عاديـة. إلا أنـه شـعر أن شـيئًا يربـط الطفلـة بالسـيدة، مـع أنـه لم يسـتطع أن يُحـدِّد مـا هـو.

انتبه أرمسترونج إلى أن النساء كُنَّ ينتظرن ردًّا منه.

"تكمـن الصعوبـة في أني لم أقابـل حفيـدتي مـن قبـل. ابنـة ابنـي عاشـت مـع أمهـا في بامبتـون بعيـدة عـن عائلتـي. لم يكـن ذلـك مثاليًّـا. وهـو بعيـدٌ عـمَّا أردتـه أنـا، ولكـن هكـذا كانـت الأمـور".

همهمت مارجو مترفِّقةً به "الحياة العائلية، إنها ليست دائمًا سهلة". اكتشفت مارجو أنها قد مالت إلى هذا الرجل الضخم الأسمر بعد هلعها منه في البداية.

انحنى لها قليلًا في امتنانٍ "نُبِّهتُ بالأمس أن هناك أزمة في المنزل واكتشفت هذا الصباح أن أمَّها الشابَّة...".

توقَّف ونظر بقلق نحو الطفلة. كان مُعتادًا على تحديق الأطفال، ولكن عيونها كانت قد سَرَحَت نحوه ولم تتوقَّف، بل استمرَّت واستمرَّت كما لو كانت لم تره. ربما كان ذلك نوعًا من الخجل. لا تُحبُّ القطط أيضًا أن تقابل عيون شخص غير مألوف لها. ينظرون باتجاهك ثم بعيدًا مرَّةً أخرى. كان يبقي في جيبه خيطًا مربوطًا بريشة، وكان فعَّالًا جدًّا مع القطط الصغيرة، وكان يصنع للفتيات الصغيرات دُميَة من مشبك غسيل بوجه مرسوم ومعطف من فرو الأرنب. أخرجها ووضعها في حِجر الطفلة. شعرت بها توضع هناك فأخفضت رأسها نحوها. التفَّت يدها حول الدمية وراقبتها ريتا ومارجو بنفس انتباه الرَّجُل وتبادَلوا النظرات.

حثَّته مارجو بصوتٍ منخفض بينما كانت الطفلة مُنشَغِلة بالدُّمية "كنت تحكي عن أم الضئيلة المسكينة"، فأكمل أرمسترونج مُهَمهِمًا.

"ماتت الشابَّة مساء أمس. كان مكان الطفلة مجهولًا. سألت أوَّل رَجُل قابَلته على الممرِّ وقال لي أن أقدِّم لكم نفسي. ولكنه كان يعرف الحكاية بالعكس، فقد وصلت إلى هنا وأنا أظنُّ أنها قد غرقت".

"كانت غريقةً بالفعل" قالت مارجو "حتى أدخلتها ريتا إلى هنا مرَّةً أخرى ثم أصبحت حيَّة" ظلَّ الكلام غريبًا على أذنها بغَضِّ النظر عن عدد مرَّات تكراره.

عبس أرمسترونج ونظر إلى ريتا طَلَبًا لتوضيح. لم يكشف وجهها عن الكثير. "بَدَت ميِّتة ولكنها لم تكُن كذلك". أسقط الاختصار ما

يستحيل أفضل من أي طريقة أخرى، وللحظة كانت هذه هي نسختها من الأحداث. مختزلة لكن حقيقية. فور أن تضيف إليها كلمات تصل إلى انعدام المنطق.

"فهمت" قال أرمسترونج مع أنه لم يفهم.

نظر ثلاثتهم إلى الطفلة مرة أخرى. كانت الدُّمية مستلقيةً بجوارها وقد هُجِرَت وعادت هي إلى حالة السكون.

اعترفت مارجو بحزن "إنها صغيرة وطريفة. يجدها الجميع هكذا، ولكن بطريقة ما يصعب شرحها لا تستطيع ألَّا تعتاد عليه. لقد كسبت حتى الحفَّارين ليلة أمس- وهم لا يُعرَفون برقَّة القلب. أليس كذلك يا ريتا؟ إن لم يَدَّعِ أحدٌ أنها له كان هيجز سيأخذها إلى منزله مثل جروٍ تائه. ويمكن أن أحتفظ أنا بها مع كل الأبناء والأحفاد الذين يشغلون بالي إن لم يكن لها مكانٌ آخر تذهب إليه. وأنتِ أيضًا يا ريتا. أليس كذلك؟".

لم ترُدَّ ريتا.

قالت مارجو: "لقد ظننَّا أن الرجل الذي أتى بها هو الأب. ولكن ممَّا تقوله...".

"كيف حاله؟ السيد دونت هذا...".

"سيصبح بخير. إصابته تبدو أسوأ من حقيقتها. تنفُّسه لا يَخفُت، ولونه يتحسَّن مع كل ساعة تَمرُّ. أظنُّ أنه سيستيقظ بعد ساعات قليلة".

"إذًا سأذهب إلى أوكسفورد وأبحث عن ابني. سيكون هنا عند الغروب، وبحلول الليل يكون هذا الأمر قد حُسِم".

ارتدى قُبَّعته ورحل.



بـدأت مارجـو في تحضـير الغرفـة الشـتوية لليـوم الـذي يبـدأ. سـيكون الخـبر قـد انتـشر وتوقَّعـت أن يزدحـم المـكان. قـد تضطـر أيضًـا إلى فتـح الغرفـة الصيفيـة الكبـيرة. تحرَّكَـت ريتـا بـين الطفلـة والرَّجُـل النائـم في السريـر. جـاء جـو لبعـض الوقـت. أدارت الطفلـة عيونهـا نحـوه وراقَبَـت كل حركاتــه بينــما يصــبُّ الشــاي في فنجـان ريتـا ويرتِّــب الســتائر حتــى لا يزعـج الضـوءُ النائِـمَ في السريـر. عندمـا أتـمَّ تلـك الأشـياء، وأتى لـيرى الطفلـة نفسـها، مـدَّت إليـه ذراعيهـا.

صاح "حقًّا! إنك فتاة صغيرة غريبة. أتهتمِّين بجو العجوز؟".

قامـت ريتـا كي تسـمح لـه بالجلـوس، ووَضَعَـت الطفلـة عـلى حِجـره. حدَّقَـت في وجهـه.

تساءل "ما لون عينيها في رأيك؟ أزرق؟ رمادي؟".

"أخضر مزرقٌّ؟" اقترحت ريتا "حسب الضوء".

فجـأة وبينـما يتباحثـون في الأمـر أتى صـوتُ طَـرْق عـلى البـاب للمـرة الثالثـة في ذلـك اليـوم. بوغِتـا كلاهـما.

"مـا الأمـر الآن؟" سـمعا مارجـو تصيـح وصـوت قدميهـا تهـرولان عـلى الأرض بجـوار البـاب. "مـن يمكـن أن يكـون هـذه المـرة؟".

ثم أتى صوت الباب وهو يُفتح، ثُمَّ...

"أوه" صاحت مارجو "أوه".

دادي!

كان السيد فون على جزيرة براندي عند مصنع الكبريت حيث يُجرِّد كل شيء يخصُّ المصنع استعدادًا للمزاد. كان عملًا مُجهِدًا وكان بإمكانه تكليف شخص آخر به ولكنه كان يحب الطبيعة الرتيبة للمُهمَّة. في ظروف أخرى كان هَجرُه للعمل في البراندي سيكون أمرًا مؤلمًا. لقد استثمر فيه الكثير من شراء بيت بوسكوت بحقوله وجزيرته والتخطيط والبحث وبناء الخزّان وزراعة فدادين من البنجر وإنشاء السِّكَّة الحديديَّة لجلب البنجر إلى الجزيرة ومصنع الكبريت. تجربة طَموحة كان لديه طاقة لها عندما كان أعزبَ، ولاحقًا عندما كان متزوِّجًا حديثًا، وبعد ذلك أبًا جديدًا. في الحقيقة لم يكن الأمر أن المشروع لم ينجح، لكن ببساطة لم يَعُد قادرًا على الاهتمام به. اختفت إيميليا ومعها حماسه للعمل. تجلب أعماله الأخرى أرباحًا كافية: تسري الأمور جيِّدًا في المزارع ونصيبه من أعمال والده في التنقيب جعلته

ثريًّا. لماذا يجهد ذهنه في حلِّ مشكلة تلو الأخرى كي يُنجح هذا بينما سيكون من الأسهل التَّخلِّي عنه؟ شعر برضا غريب في تفكيك وبيع وإذابة وتشتيت عالَمٍ صرف الكثير من الوقت والمال لبنائه. تحضير قوائمه الدقيقة فرصة للنسيان. عد وقاس وصنع قوائم وشعر بالملل يُهَدهِده. لقد ساعده على نسيان أميليا.

استيقظ اليوم وهو يتشبَّث بطرف حلم ما، ومع أنه لا يستطيع تذكُّره إلَّا أنه شَكَّ أن الحلم -وهو أبشع من أن يتحدَّث عنه- الذي عانى منه كثيراً في الأيام الأولى لضياعها. لقد تركه بشعور أجوف. لاحِقًا، وبينما يعبر الفناء، حملت الرياح إلى أذنيه ندفةً من صوت حادٍّ لطفل التقطته من على بُعد. تتشابه أصوات جميع الأطفال عن بُعد بالطبع. هكذا هي الأمور. ولكنَّ الأمرين أقلقاه وجعلاه يحتاج إلى هذا العمل الرتيب.

الآن في المخزن حطَّت عيونه على شيء فتح شرخ يطلُّ على الماضي وجعله يضطرب. كان برطمان من حلوى سُكَّر الشعير في ركن مُترِب. فجأة أصبحت هناك- أصابعها تمتدُّ إلى فتحة البرطمان وتفرح عندما تظهر منه قطعتان ملتفَّتان حول بعضهما. دقَّ قلبه دقَّاتٍ مؤلمة، وانسلَّ البرطمان من بين أصابعه، وتحطَّم على الأرض الأسمنتية. قضى ذلك على كل شيء. لن يستعيد راحة باله اليوم. ليس بعد أن تجسَّدَت هنا في المخزن.

طلب مكنسة كي يكنس كل شيء، وعندما سمع صوت خطوات راكضة ظنَّها لمساعدته. ولكن لدهشة فون كان مَن ظهر هو أحد العاملين في منزله. البستاني نيومان. بدأ الرجل في الكلام حتى مع أنه يلتقط أنفاسه بالكاد. تهتزُّ كلماته بفعل دفقات الهواء التي عليه استنشاقها لدرجة أن تستعصي المعاني على الفهم. التقط فون كلمة "غارقة".

"رويدًا رويدًا يا نيومان. خُذْ وقتك".

بدأ البستاني مرَّةً أخرى، وهذه المرة ارتسم شيءٌ ما يقترب من قصة طفلة ماتت ثم عاشت مرَّةً أخرى. قال: "حدث ذلك في ذا سوان في رادكوت"، وزمَّ شفتيه كما لو كان يُفضِّل ألَّا يحكي المزيد. ولكن، وبعد فترة صمت متوتِّرة أضاف بتردُّدٍ مكتوم "يقولون إنها في الرابعة".

"يا إله السَّماء!" ارتفَعَت يدا فون نحو رأسه، ثم استجمع نفسه وسأل "هل يمكنك أن تحاول منع زوجتي من سماع الخبر؟"، ولكنه أدرك من قبل أن يستطيع الرجل أن يتحدث أن الوقت قد فات.

"لقد ذهبت السيدة فون بنفسها إلى هناك. جلَبَت السيدة جليكو التي تتولَّى الغسيل الخبر. سمعته ليلة أمس من أحد الزبائن الدائمين في ذا سوان. لم يكن لدينا طريقة لمعرفة ما الذي ستقوله، لم نكن سنسمح لها بالاقتراب منها إن كنَّا نعرف ما الذي ستقوله- ولكننا ظنَنَّا أنها تنوي تقديم استقالتها. وفورًا، ركضت السيدة فون نحو المرسى ولم يوجد أي شيء يمكننا فعله لمنعها. عندما وصلنا إلى هناك كانت قد أخذت القارب وكادت أن تختفي عن البصر".

ركض فون إلى المنزل حيث كان سايس الخيل قد استشرف حاجته وأعدَّ له الحصان وحذَّرَه "عليك أن تطير كي تلحق بها". اعتلى فون الحصان واتَّجه نحو رادكوت. عَدَا بالحصان بأقصى سرعة لبضعة دقائق، ثم أبطأ إلى خَبَب، وقال لنفسه أطير؟ لن ألحق بها أبدًا. شاركها التجديف في أيام زواجهم الأولى وقد كانت لا تقلُّ خبرةً في التجديف عن أي رجل يعرفه. كانت نحيفة ممَّا يجعلها خفيفة الوزن، وكانت قوية. اعتادت القوارب بفضل والدها منذ استطاعت المشي وتغطس صفحة مجدافها في الماء بلا رذاذ وتخرج منه بسلاسة سمكة تقفز. وبينما تَحمرُّ وجوه الآخرين ويعرقون من المجهود تكتسب خدودها تورُّدًا رائقًا وتلمع راضيةً بدفعة الماء. تلين بعض

النسـاء مـن الحـزن، ولكـن في هيلينـا، فقـد أحـرق الحـزن اللـين القليـل الـذي بـدأ يدخـل عليهـا منـذ وصـول ابنتهـا وصقلهـا. كانـت كُتلـةً مـن الأوتـار والعضـلات، وقودهـا الإصرار، وكانـت تسـبقه بنصـف سـاعة. هـل يطير ويلحـق بهـا؟ ليـس لديـه فرصـة. كانـت هيلينـا بعيـدةً المنـال. كانـت بعيـدة المنـال منـذ وقـت طويـل.

الأمـل هـو مـا جعلهـا دائمًـا متقدِّمـةً عنـه. لقـد فـارق الأمـل منـذ وقت طويـل. فكَّـر في أنهـم قـد يسـتعيدون السـعادة لـو أن هيلينـا حاوَلـت أن تفعـل مثلـه. ولكنهـا كانـت تُخـزِّن الأمـل وتطعمـه أي تفاهـات تسـتطيع الوصـول إليهـا، وعندمـا لم يكـن هنـاك شيء لإطعامـه كانـت تُغذِّيـه عـلى نفـس الإيمـان العنيـد الـذي تصنعـه بنفسـها. حـاول بـلا طائـل مواسـاتها وطمأنَتَهـا. عـرض عليهـا بـلا طائـل تصوُّرات لمسـتقبل مختلـف وحيـاة مختلفـة.

اقـترح "يمكننـا أن نذهـب لنعيـش بالخـارج". كانـوا قـد تكلَّمـوا في الموضـوع في بدايـة زواجهـم: كانـت نيَّـةً للسـنوات التاليـة، وقالـت في ذلـك الوقـت قبـل اختفـاء أميليـا، قبـل وجـود أميليـا "لِـم لا؟". قـد يذهبـون إلى نيوزيلنـدا لعـامٍ، أو ربمـا اثنـين. ولمـاذا يعـودون؟ إنهـم لا يحتاجـون للعـودة. نيوزيلنـدا مـكان جيـد للعمـل والحيـاة.

هـال هيلينـا الأمـرُ. "وكيـف تجدنـا أميليـا هنـا؟"، تَحـدَّث عـن الأطفـال المنتَظَريـن الذيـن دائمًـا مـا توقَّعوهـم. ولكـن الأطفـال المستَقبَلِيين غـير مُهِمِّين. مجرَّد أشـياء مُجـرَّدة بالنسـبة لزوجتـه. لم يبـدوا مُتجسِّـدين إلَّا لـه هـو في أحلامـه وسـاعات يقظتـه. لم تسـتأنف الحميميـة الجسـدية التـي توقَّفَـت فجـأة ليلـة اختفـاء ابنتـه خـلال السـنتين التاليتـين. عـاش أعـزب وعفيفًـا إلى حـدٍّ كبـير قبـل هيلينـا لعـدَّة سـنوات. بينمـا يدفـع الرجـال الآخـرون للنسـاء أو يقيمـون علاقـات مـع فتيـات يمكنهـم هجرانهـن فيـما بعـد، كان هـو يعـود إلى فراشـه وحـده ويعتمـد عـلى نفسـه. إن لم تسـتطع

زوجتـه أن تحبـه، فـلا شيء. خفتـت الـروح. لم يَعُـد يتوقَّـع المتعـة مـن جسـده أو جسـدها. وتخـلَّى عـن أمـل تلـو الآخـر.

لامتـه. ولام هـو نفسـه. مَهمَّـة الأب هـي إبقـاء أبنائـه بعيـدًا عـن الأذى، وقـد فشـل في ذلـك.

لاحـظ فـون أنـه ثابِـتٌ، وقـد أخفـض فرسـه أنفـه نحـو الأرض باحثًـا عـن شيء حلـو بـين السراخـس الشـتوية. قـال -وقـد غلبـه شـعور عظيـم بالإنهـاك-: "لا شيء هنـا لـك. ولا شيء لي أنـا أيضًـا". تسـاءل لوهلـة مـا إن كان مريضًـا وإن كان بإمكانـه الذهـاب حقًّـا. تذكَّـر شـيئًا قالـه شـخصٌ مـا مُؤخَّـرًا. لا يمكـن أن تسـتمر هكـذا. آه. لقـد كانـت تلـك المـرأة في أوكسـفورد. السـيدة كونسـتنتين. لقـد تبـيَّن أن تلـك المَهمَّـة كانـت حمقـاء. ولكنهـا كانـت مُحِقَّـة. إنـه غـير قـادر عـلى الاسـتمرار.

استمر.

فكَّـر في أن عـدد النـاس المحتشـدين داخـل ذا سـوان كان غـيرَ معتـاد في مثـل هـذا الوقـت مـن اليـوم والموسـم. نظـروا إليـه بفضـول مَـن يعملـون عـلى أمـر يحـدث بالفعـل ويتوقَّعـون بثقـة أن يكـون هنـاك المزيـد مـن الاهتـمام. لم يُعِرهـم أي انتبـاه، وتوجَّـه فـورًا إلى البـار حيـث نظـرت إليـه امـرأة نظـرةً واحـدة وقالـت لـه: "اتبعنـي".

قادتـه خـلال ممـرٍّ قصـير بحوائـط مُجلَّـدة نحـو بـاب مـن خشـب البلـوط. فتحتـه وتحرَّكـت جانبًـا كي يمـرَّ هـو أوَّلًا.

كان يوجـد عـدد كبـير مـن الصدمـات، وبينـما تحـدَّث لم يسـتطع أن يفـرِّق واحـدة عـن الأخـرى. اسـتطاع لاحقًـا فقـط أن يسـتخلص الانطباعات العديـدة التـي تدفَّقَـت نحـوه في خيـوط منفصلـة، وأن يضـع عـلى كل واحـد منهـا كلـمات ويمنحهـا ترتيـب. أتـت أوَّلًا الحيرة في البحـث عـن وجه زوجتـه الهزيـل، وعينيهـا المرهقتـين، وفشـله في العثـور عليهـا. ثانيًـا، أتى ارتبـاك رؤيـة وجـه مُختَلِـف جـدًّا لم يـره منـذ زمـن. شـابَّة خرجـت بالـكاد

مـن طَـور الطفولـة كان قـد طلبهـا للـزواج في وقـتٍ مـا وقالـت ضاحِكـةً: "نعـم. إن كان بإمـكاني أن أجلـب قـاربي معـي". أدارت لـه وجهًـا مُشرِقًـا وابتسـامة تسـع شـفتيها بسـعادة سَلِسَـة وينـير عيونَهـا ضيـاءُ الحـب.

تجمَّـد فـون في مكانـه. هيلينـا. زوجتـه الجسـورة المرحـة الرائعـة كـما كانـت. سـابقًا.

"أوه أنطوني! ما خطبُك؟".

نظـرت إلى الأسـفل وأمسـكت بـشيء وهـي تتحـدَّث بصـوت مُلاطِـف ومُنغِّـم يتذكَّـره مـن زمـن آخـر. قالـت، ولكـن لم تكـن توجِّـه كلامـه إليه:"انظـري! انظـري مَـن هنـا".

الصَّدمة الثالثة.

أدارت الشخص الصغير ليواجهه.

"أتى دادي!".

النَّائِم يستيقظ

خلال ذلك الوقت استلقى رَجُلٌ بأطراف أصابع سوداء ووجه مهشَّم نائمًا في غرفة الحجيج في ذا سوان برادكوت. استلقى على ظهره ورأسه على وسادة مارجو المصنوعة من الريش، ولا يتحرَّك، باستثناء ارتفاع وهبوط صدره.

يمكنك تصوُّر النوم بعِدَّة أشكال لا يُرجَّح أن أيًّا منها صحيح. لا يمكن أن تعرف ما هو شعور الدخول في النوم لأنه عند اكتماله تضيع إمكانية تسجيله في الذاكرة. ولكن الجميع يعرف شعور السقوط الناعم الذي يسبق الوقوع في النوم ويمنحه اسمه.

رأى هنري دونت وهو في سِنِّ العاشرة صورةً لشجرة من المرَّان التي تغوص جذورها تحت أرض النهر الذي تعيش فيه عرائس بحر غريبة أو جنِّيَّات تُسمَّى سيدات القدر. عندما يفكر في السقوط في النوم كان شيء يشبه المياه الجوفية التي يتصوَّرها. امتلك إحساسًا بنومه

كأنـه نوبـة سـباحة طويلـة يبحـر خلالهـا عـبر مـاء أكـثر كثافـة مـن المعتـاد بحـركات سـهلة مُمتِعـة تدفعـه في اتجـاه أو آخـر بنـوع مـن الحيويـة بـلا هـدف. أحيانًـا يكـون غشـاء المـاء لا يـزال هنـاك فـوق رأسـه بقليـل، وعـالم يومـه ومتاعبـه ومُتَعـه تلاحقـه مـن الجانـب الآخـر. في تلـك المناسـبات يسـتيقظ شـاعِرًا كـما لـو كان لم ينَـمْ إطلاقًـا، إلَّا أنـه ينـام أغلـب الوقـت بسـهولة ويسـتيقظ مُنتَعِشًـا أحيانًـا مـع شـعور سـعيد أنـه قابـل أصدقـاء خـلال نومـه، أو أن أمـه تواصَلَـت معـه برسـالة مَحَبَّـة خـلال الليـل مـع أنهـا ميتـة. لا يمانـع تلـك الأمـور مُطلَقًـا. لا يمانـع الاسـتيقاظ بينـما تضيـع مـع التيَّـار آخـر آثـار مغامـرة ليلـة مثـيرة.

لم تحـدث أيٌّ مـن تلـك الأشـياء في ذا سـوان برادكـوت. وبينـما تقـوم الحيـاة بعملهـا داخلـه، تتجلَّـط الدمـاء فـوق الجـروح وتفعـل كل الأعـمال الدقيقـة داخـل الجمجمـة التـي ضربـت بشـدَّة في ديڤيلـز ويـر، كان هـنري دونـت يغـرق ويغـرق ويغـرق في أكـثر أعـماق كهفـه الشاسـع والحالـك تحـت المـاء، حيـث لا شيء ينحـسر ولا شيء يـسري وكل شيء مُظلِـمٌ وسـاكن مثـل قـبر. بقـي هنـاك مـدَّةً لا يمكـن حسـابها، وفي نهايتهـا اسـتيقظت الذاكـرة وارتعـدت الأعـماق السـاكنة وعـادت إلى الحيـاة.

طفـا إلى ذهنـه عـددٌ مـن التجـارب ثـم خرجـت مـرة أخـرى بـلا ترتيـب مُعيَّن.

شعور مكتوم هو إحباطه في زيجته.

شكشـكة في أطـراف أصابعـه- كان ذلـك هـو الـبرد الـذي شـعر بـه أمـس في تروزبـري ميـد، عندمـا كتـم التقاطُـر الـذي هـو التامـز بسـبَّابته وانتظـر أن يتجمَّـع المـاء خلفـه حتـى يـزداد كـمًّا فيسـيل.

جسـدٌ بأكملـه ينجـرف ويطفـو- يتزلَّـج عـلى التامـز المتجمِّـد كشـابٍّ في العشريـن. لقـد التقـى زوجتـه في ذلـك اليـوم. اسـتمرَّ التزلُّـج لأسـابيع

عديـدة طـوال مـا تبقّـى مـن الشـتاء، وحتـى يـوم في بدايـة الربيـع كان يـوم زفافـه.

الدهشـة ذات الفـكّ المتهـدّل، الملاكمـة داخـل عقلـه لرؤيتـه مكانًـا فارغًـا في الأفـق حيـث كان يوجـد سـقف بيـت بـواب الأسـقفية. كان في السادسـة، وكانـت أوّلَ مـرّة يـدرك فيهـا أن العـالم المـادي عرضـة لمثـل تلـك المتغـيِّرات.

سريـر أحـد جوانبـه -جانبـه هـو- بملاءات مُجعّـدة، والآخـر -جانـب زوجتـه- مسـتوٍ وفـارغ بعـد مرضهـا السريـع وموتهـا الحصيـف.

تحطَّم كوب، والده، الزجاج، يسب في الفناء.

أرضت مكونات رأسه نفسها بأنها في مكانها ومكتملة وكاملة.

وأخـيرًا جـاء شيء مختلـف عـن كل مـا عـداه. شيء مكانـه في فئـة مختلفـة كليًّـا. لم يكـن غـير مألـوف- لقـد حلـم بـه مـن قبـل أكـثر مـمّا يـدرك، ودائمًـا مـا يكـون غائمًـا؛ لأن عيونـه لم تقـع عليـه في الحقيقـة ولكـن فقـط في خيالـه. كان طفـلًا. طفـل دونـت. الطفـل الـذي فشـل في صنعـه مـع ميريـام ولم يحـاول صنعـه مـع أحـد غيرهـا. كان الطفـل الـذي تمنّـاه. طفلـه المسـتقبلي. عـبرت الصـورة ثـم اختفـت مـرة أخـرى وحفّـزَت ردَّ فِعلٍ لـدى الرجـل النائـم الـذي حاولـت أطرافـه الثقيلـة التعلُّـق بهـا. طفـت بعيـدًا عـن مرمـى يـده، تاركـة شـعورًا بـأن الحلـم يحمـل في هـذه المـرة شيء أكـثر إلحاحًـا مـن مجـرَّد الصـورة. ألم يكـن أكـثر وضوحًـا؟ كانـت بنتًـا أليـس كذلـك؟ ولكـن اللحظـة مضـت.

تغـيرّت الصـورة في ذهـن هـنري دونـت مـرة أخـرى. منظـر غـير مألـوف ومُقلِـق وشـخصي بعُمـق. مسـاحة خَرِبـة. بـروزات صغـيرة مُدبَّـة، شـجٌّ خـضَّ أحشـاء الأرض. بـروزات منتفخـة. هـل قامـت حـرب؟ زلـزال؟

رمى الوعي بإضاءة خافتة وبدأ الفكر في التقلُّب. هذا المنظر ليس شيئًا تمَّت مُعايَنَتُه، وإنما هي مسألة أخرى.

لم توجد صور. لا. ولكنها أجزاء من معلومات انتقلت إلى عقله... عن طريق لسانه هو... الصخور ترجمت نفسها إلى حُطام أسنان مُهشَّمة. فوضى الأرض الممزَّقة هي لحم فمه.

مستيقظ.

تخشَّب هَلعًا. فاجأه الألم وانطلق عبر أطرافه.

ما الذي حدث؟

فتح عينيه- على إظلام. ظلام؟ أم... هل هو معصوب العينين؟

طارت يده في ذعر نحو وجهه -المزيد من الألم- وحيث كان يجب على يديه أن تقابل وجهه كان هناك شيء غريب. تبطين ما مشدودٌ فوق عظامه أكثر سُمكًا من الجلد ويفتقر إلى الإحساس. بحث عن طرفه متلهِّفًا على نزعه، ولكن أصابعه كانت سميكة ومتخبِّطة...

فورة من الأصوات. صوت- امرأة:

"سيد دونت!".

شعر بيده تمسك بها أيادٍ أخرى- أيادي فاجأته قُوَّتُها ومنعته من نزع العصابة.

"لا تخدش! أنتَ مُصاب. أتوقَّع أنك تشعر بالتنميل. أنت في أمان. هذا هو ذا سوان في رادكوت. لقد وقعت حادثة. هل تتذكَّر؟".

قفزت كلمة بخفَّةٍ من ذهنه إلى لسانه، وفور وصولها إلى هناك تعثَّرَت في الحطام الموجود في فمه، وعندما خرجت لم يتعرَّف عليها. حاوَلَ مرة أخرى بجهد: "عيون!".

"عينـاك متورِّمتـان. لقـد أصبـتَ رأسـك في الحـادث. سـتقدر عـلى الرؤيـة بوضـوح فـور أن يختفـي الـورم".

أخفضـت الأيـادي يديـه عـن وجهـه. سـمع صـوت سـائِلٍ يُسـكَب، ولكـن أذنيـه لم تَحـكِ لـه مـا لـون السـائل أو مـا المـادة التـي صُنِـع منهـا الإبريـق، ولا مـا هـو حجـم وعـاء الـشرب. شـعر بالميـل الـذي يحـدث عندمـا يجلـس شـخصٌ عـلى طـرف السريـر، ولكنـه لم يكـن قـادرًا عـلى تحديـد أي نـوع مـن الأشـخاص هـو. فجـأة أصبـح العالَـمُ عَصيًّـا عـلى المعرفـة، وكان هـو منغـرزًا فيـه.

"عيون!".

أمسـكت بيديـه مـرَّةً أخـرى "إنـه الـورم فقـط. سـترى مـرَّةً أخـرى فـور أن يَقِـلَّ. خُـذ مشروبًـا. ستشـعر بـه يتسـاقط -أتوقَّـع أنـك فاقـد للإحسـاس بشـفتيك- ولكنَّـني سـأصبُّه لـك".

كانـت عـلى حـقٍّ. لم يكـن هنـاك إنـذار. لا تحذيـر ولا لمسـة لطـرف عـلى شـفته. فقـط الشـعور المفاجـئ ببَلَـلٍ حلـوٍ في فمـه. أشـار بحشرجتـه أنـه يرغـب في المزيـد، ولكنهـا قالـت: "رشـفات صغـيرة كثـيرة".

سألته "هل تتذكَّر وصولك إلى هنا؟".

فكَّـر. بَـدَت ذاكرتـه غـير مألوفـة لـه. تنعكـس صـورًا لا يمكـن أن تكـون هنـا كشـظايا عـلى سـطحها. أصـدر صوتـًا. إشـارة إلى عـدم التيقُّـن.

"البنـت الصغـيرة التـي أتيـتَ بهـا إلى هنـا... هـل تسـتطيع أن تقـول لنـا مَـن هـي؟".

طرق على خشب. باب يفتح.

صوت جديد "ظَنَنتُ أني سمعتُ أصواتًا. ها هي".

عـادة المرتبـة مسـتويةً بينـما السـيدة تقـوم. رفـع يـده إلى وجهـه، وهـذه المـرة كان يعـرف أن الحشـو الـذي لا يشـعر بـه هـو جِلـدُه، وشـعر

بخـطٍّ مـن الـبروزات. أطـراف رموشـه وقـد اختفـى نصـف طولهـا في جفونـه الوارمـة. وضـع ضغطًـا متخبِّطًـا فـوق الخَـطِّ وتحتـه، ثـم شـدَّها بعيـدًا عـن بعضهـم البعـض.

"لا!" صرخـت المـرأة، ولكـن متأخِّـرًا. اخـترق الضـوء عينـه وشـهق. كان ألمًـا، ولكـن شـيئًا آخـر أيضًـا: حمـل الضـوء عـلى موجتـه صـورة، وكانـت الصـورة التـي حلـم بهـا. البنـت الطافيـة، ابنتـه المسـتقبلية، طفلـة خيالـه.

قال القادم الجديد: "هل هذه ابنتك؟".

طفلة لعيونها لون التامز ووسعه.

قال قلبه المتقافز نعم. نعم. نعم.

قال هو: "لا"...

قصّة مأسويّة

ناقش الشاربون طوال ساعات النهار الأحداث التي وقعت في ذا سوان. عرف الجميع أن السيد والسيدة فون في غرفة الجلوس الخاصة بمارجو وجو في مؤخّشرة المبنى، حيث اجتمعوا مرّةً أخرى مع أميليا. انتشر أيضًا كلام عن أن زنجيًّا ثريًّا اسمه روبرت أرمسترونج من كلمسكوت وصل هناك مع أول ضوء النهار، ومن المتوقّع وصول ابنه لاحقًا. أذيع اسم روبين أرمسترونج.

رُفِع ستار المسرح الداخلي لكل رَجُلٍ، وبدأت أذهانهم الحَكّاءة في العمل. على خشبة المسرح نفس الشخصيات الأربعة: السيد فون والسيدة فون وروبين أرمسترونج والطفلة. امتلأت المشاهد التي مُثِّلَت داخل الرؤوس العديدة بالميلودراما الصارخة. النظرات الحارقة واللفتات القاتمة والشَّزر الحَذِر. تُقال الكلمات فحيحًا بتهذيبٍ صارم وارتياعٍ حادٍّ. نزعت الطفلة من مجموعة إلى مجموعة مثل دُميَةٍ بين أطفالٍ

غَيوريـن. أحـد العُـمَّال الزراعيـين الميَّـال للحسـاب وجـد ذهنـه يُرتِّـب مـزادًا عـلى الطفلـة بينـما غـرق هـواة الشجار الذيـن هجـروا حانـة بلاو مؤقَّتًـا في خيـالاتٍ يسـحب فيهـا السـيد فـون سـلاحًا مـن جيبـه الداخـلي- مسدَّس؟ خنجـر؟ ويهاجـم السـيد أرمسـترونج بـإصرار أبٍ حقيقـي. أعـاد أحـد الأذهـان المبدعـة الـكلام إلى الطفلـة في قمَّـة لحظـات التوتُّـر: نـادت "بابـا!" رافِعـةً ذراعيهـا نحـو السـيد أرمسـترونج، ومُحطِّمـةً آمـال آل فـون إلى الأبـد؛ فخـرُّوا في أحضـان بعضهـم البعـض منتحبـين. اقتـصر دور السـيدة فـون في هـذه المسرحيـات إلى حـدٍّ كبـير عـلى النحيـب الـذي قامـت بـه أحيانًـا في مقعـدٍ، وكثـيرًا عـلى الأرض، وينتهـي عامَّـةً بإغـماءة. تخيَّـل مُـزارِعُ جرجـير شـاب في لفتـة كان شـديد الفخـر بهـا دورًا للرجـل فاقـد الوعـي في سريـره: يصحـو مـن نومـه الطويـل ويسـمع مشـاجرة في الغرفـة المجـاورة فيقـوم ويدخـل إلى غرفـة الجلـوس (يسـار الخشـبة)، وهنـاك يعلـن مثـل سـليمان أن الطفلـة يجـب أن تُقسَّـم إلى نصفـين، ويُعطَـى نصفهـا لآل فـون والنصـف الثـاني لآل أرمسـترونج. هـذا سيحسـم الأمـر.

عندمـا خَفَـتَ آخـر ضـوء النهـار مـن السـماء وتجـاوَزَت السـاعة الخامسـة وسرى النهـر برَّاقًـا في الظـلام وصـل رَجُـلٌ عـلى ظهـر حصـان إلى ذا سـوان وترجَّـل. كان الصـوت في الغرفـة الشـتوية يصـمُّ الآذان، وقبـل أن يلحـظ أيُّ شـخص أن البـاب يُفتَـح ليدخـل منـه الرجـل كان قـد أغلقـه خلفـه بالفعـل. وقـف قليـلًا يسـمع اسـمه في الضجيـج العـام قبـل أن يشـير أحـدٌ لوجـوده، وقـد فشـلوا في معرفـة أنـه مَـن ينظـرون حتـى بعـد أن رأوه. مَـن كان لديهـم فكـرة عـن شـكل السـيد أرمسـترونج الكبـير -وقـد شـاعت بالفعـل قصـة أنـه ابـنٌ غـير شرعـي لأمـيرٍ وأَمَـة- كانـوا ينتظـرون شـخصًا طويـلًا وقويًـا وأسـمر البـشرة. لا غرابـة إذن في أنهـم لم يتعرَّفـوا عـلى هـذا الشـاب؛ فهـو شـاحبٌ ونحيـفٌ بشَـعرٍ بُنِّـيٍّ فاتـح يلتـفُّ في نعومـة حـين يسـقط مُلامِسًـا ياقـة قميصـه. لم يـزل بـه القليـل مـن الصبـي الـذي كانـه. عيونـه زرقـاء باهتـة حتـى لا تبـدو أكـثر مـن انعـكاس، وبشرته

ناعمـة مثـل بـشرة فتـاة. كانـت مارجـو أوَّلَ مَـن رأتـه ولم تـدرك مـا إن كانـت غريزتهـا الأموميـة أم النسـائية هـي مـا تحرَّكـت لرؤيتـه، فسـواء كان صبيًّـا أو رَجُـلًا فهـو يَـسرُّ النظـر.

شـقَّ طريقـه نحـو مارجـو، وعندمـا قـال اسـمه بصـوت خافـت سـحبته مـن الغرفـة العامـة إلى الممـرِّ الصغـير في الخلـف، الـذي تضيئـه شـمعةٌ واحـدة.

"لا أدري مـا أقولـه يـا سـيد أرمسـترونج وقـد فقـدتَ امرأتَـكَ الشَّـابَّة أيضًـا. فمنـذ أن وصـل والـدك هنـا هـذا الصبـاح...".

أوقفهـا "لا عَليـكِ. لقـد صادَفـتُ كاهنكـم في طريقـي إلى هنـا. أشـار لي مُخمِّنًـا السـبب في وجهتـي واسـتعجالي، و...". توقَّـف، وفي الظـلال داخـل الممـرِّ تصـوَّرَت أنـه يمسـح دمعـةً ويتماسـك ليسـتمر في الـكلام. "لقـد شرح كلَّ شيء. إنهـا ليسـت أليـس إذًا. لقـد طالَبَـت بهـا عائلـةٌ أخـرى". خفـض رأسـه "اعتقـدت أنـه مـن الأفضـل أن آتي عـلى كل حـال، بمـا أني كنـت قريبًـا جـدًّا، وتتوقَّعـون حضـوري. ولكنـي سـأرحل الآن. أرجـوكِ أن تقـولي للسـيد والسـيدة فـون إني..."، ثـم تهـدَّج صوتـه مـرَّةً أخـرى، "سـعيد جـدًّا مـن أجلهـم".

"ولكـن لا يجـب أن ترحـل قبـل أن تأخـذ شـيئًا عـلى الأقـل، كوبًـا مـن البـيرة؟ نبيـذًا دافئًـا؟ لقـد أتيـتَ مـن مسـافة بعيـدة: اجلـس واسـترِحْ قليـلًا. يجلـس السـيد والسـيدة فـون في غرفـة الجلـوس ويرغبـون في تقديم العـزاء لـك...".

فتحت الباب وأدخلته.

دخـل روبـين أرمسـترونج الغرفـة بـادِيَ البلاهـة والأسـف. لان السـيد فـون لهـذا ومـدَّ لـه يـده وصافحـه قبـل أن يـدرك مـا الـذي سـيفعله.

قـال الرَّجُـلان في نفـس اللحظـة: "أنـا آسـف"، ثـم ردَّدَا معًـا "مُربِـكٌ جـدًّا"؛ فاسـتحالت معرفـة مَـن منهـم يتحـدَّث أوَّلًا.

اسـتجمعت السـيدة فـون نفسـها قبـل أن يقـدر عـلى ذلـك أيٌّ مـن الرَّجُلَـيْن "نحـن آسـفون جـدًّا لخسـارتك يـا سـيد أرمسـترونج".

التفت إليها.

"ماذا؟". قالت بعد لحظة: "ما الأمر؟".

حدَّق في الطفلة الجالسة في حضنها.

ترنَّـح السـيد أرمسـترونج الصغـير وغـاص مائِـلًا بثقلـه عـلى مارجـو، ثـم إلى المقعـد الـذي تمكَّـن فـون مـن وضعـه خلفـه في اللحظـة الأخـيرة قبـل أن ترتجـف عيونـه مُنغلقـةً ويتهـاوى.

صاحـت مارجـو "يـا إلهـي!"، وأسرعـت لتحـضر ريتـا مـن غرفـة المصـوِّر النائم.

قالـت هيلينـا: "لقـد كانـت رحلتـه طويلـة"، بينـما تميـل بعَطـفٍ فـوق الرجـل الغائـب عـن الوعـي. "بمثـل هـذا الأمـل... ثـم يجـد أنهـا ليسـت هـي. إنهـا صدمـة".

قال السيد فون: "هيلينا" بنبرة تحذير في صوته.

"ستعرف الممرِّضة ما الذي عليها فعله لتعيده إلى وعيه".

"هيلينا".

"لا بُدَّ أن معها بعض القرنفل أو النشادر".

"هيلينا!".

التفتت هيلينا إلى زوجها "ما الأمر؟".

كان جبينها رائِقًا وعيونها شفَّافة.

"عزيـزتي" قالهـا بصـوت يرتجـف "ألا يمكـن أن يكـون هنـاك سـبب آخـر لانهيار الشـاب؟".

"أي سبب؟". تراجع أمام نظرة الحيرة البريئة على وجهها.

"مـاذا لـو..." خانتـه الكلـمات، وأشـار باتجـاه الطفلـة التـي جلسـت ناعِسـةً ولا مباليـة في المقعـد. "مـاذا لـو بعـد كل شيء...".

انفتـح البـاب وأسرعـت مارجـو بالدخـول، تتبعهـا ريتـا التـي جثمَـت بهـدوء مطمـئنٍّ بجـوار الشـاب، وأمسـكت بمعصمـه في يـد وبسـاعتها في اليـد الأخـرى.

أعلنـت مارجـو "إنـه يفيـق"، وقـد رأت جفونـه تتحـرّك. أخـذت إحـدى يديـه المستسـلمتين ودعكتهـا.

ألقـت ريتـا نظـرة ثاقبـة عـلى وجـه المريـض، وقالـت بنـبرة محايـدة: "سـيكون عـلى مـا يُـرام"، بينـما تضـع السـاعة في جيبهـا.

فتـح الشـاب عينيـه وأخـذ نفسـين خفيفَـيْن مضطربـين، ورفـع كفَّيْـه ليغطِّـي عينيـه اللتـين يبـدو عليهـما الذهـول. عندمـا أخفـض كفَّيـه كان قـد عـاد إلى هيئتـه الأولى.

بحـث بعينيـه عـن الطفلـة وتحـدَّث بشـكل مُتقطِّـع "المنطـق يقـول إنهـا ليسـت أليـس. هـي طفلتكـم. هكـذا يقـول القـسُّ. هكـذا تقولـون. هـذا هـو الأمـر".

هـزَّت هيلينـا رأسـها وأغمضـت عينيهـا عـلى دمـوع تعاطُـفٍ مـع الأب الشـاب.

"لا بُـدَّ أنكـم تتسـاءلون كيـف يمكننـي بسـهولة أن أخطـئ الظَّـنَّ أن طفلـةَ رَجُـلٍ آخـر هـي طفلتـي. لقـد مـرَّت سـنة منـذ رأيـت ابنتـي لآخـر مـرة. أتصـوَّر أنكـم لا تعرفـون الظـروف التـي أجـد نفسي فيهـا. إننـي مديـنٌ لكـم بتفسـير. عُقِـد زواجـي في الـسِّرِّ. عندمـا عَلِمَـت عائلـة

زوجتي بالارتباط بيننا وخُطَطِنا للزواج وضعوا العقبات في طريقنا. كُنَّا صغيرَيْن و أحمقين، ولم يفهم كلانا قدر الأذى الذي سبَّبناه لنفسنا وعائلاتنا بالزواج سِرًّا، ولكن هذا ما فعلناه. هربت زوجتي كي تعيش معي، وولدت طفلتنا بعد أقل من عام. تمنَّينا -بل وثقنا- أن الحفيدة ستُضعِف من مقاومة والِدَيْها، ولكن تلك الأمنية ذهبت هباءً، و استمرُّوا بنفس القدر من الصلابة. تعكَّر مزاج زوجتي مع الوقت تَوقًا لسُبُل الراحة التي رافَقَتها في حياتها الأولى، ووجَدَت صعوبة في تربية طفلة بدون مُميِّزات منزلٍ يمتلئ بالخَدَم لتسهيل الحياة. فَعَلتُ كلَّ ما أقدر عليه للحفاظ على روحها المعنوية وتشجيعها كي تثق في الحُبِّ، ولكنها في النهاية أصبحت مُقتنعةً أن الطريق الوحيد أمامها هو أن أنتقل إلى أوكسفورد حيث لديَّ أصدقاء في مناصب مُؤثِّرة وأجرِّب حظي هناك حيث أستطيع أن أجني المزيد من المال إن جَرَت الأمور في صالحي، وربما بعد عام أو اثنين أستطيع أن أحيا الحياة المرفَّهة التي أسعى خلفها؛ لذا غادَرتُ بامبتون بقلبٍ مُثقَل، وأقَمتُ في سكن في أوكسفورد. كنتُ محظوظًا ووجدتُ عملًا، وسريعًا ما أصبحت أكسب أكثر من قبل، ومع أنني افتقدتُ زوجتي والطفلة كثيرًا إلَّا أنني حاولتُ أن أقنع نفسي أن ذلك للأفضل. في رسائلها -التي لم تأتِ كثيرًا- أصابني انطباعٌ أنها لم تكن أكثرَ سعادةً أيضًا. عُدتُ لرؤيتهما كلَّما كان ذلك مُمكِنًا، استمر الأمر هكذا لمدة ستة أشهر. منذ حوالي سنة، جاء بي عملي فجأة إلى الجزء الأعلى من النهر، وظَنَنتُ أنه سيكون من اللطيف أن أُفاجِئَهما بزيارة". بلع ريقه وتململ في مقعده. "اكتشفتُ أمرًا غيَّر علاقتي مع زوجتي إلى الأبد. لم تكن وحدها. الشخص الذي كان معها- من الأفضل ألَّا أحكي كثيرًا عنه. سلوك الطفلة معه أنبأني أن هذا الرجل ضيفٌ معتاد في المنزل. صاحب علاقة حميمة مع الأسرة. قيلت كلمات قاسية وابتعدت. بعد فترة، وبينما لا أزال في حيرة من أمري حول ما الذي سأفعله-

تلقَّيتُ رسالة من زوجتي عرفتُ فيها أنها تعيش مع هذا الرجل زوجًا وزوجة، وتقول لي إنها لا ترغب في أن تكون لها أي صِلَة بي. كان بإمكاني بالطبع أن أحتجَّ على ذلك. كان بإمكاني أن أُصرَّ أن تطيع عهود الزواج، وبالنظر إلى ما حدث لاحقًا أتمنَّى لو أني كنت قد عبَّرتُ عن احتجاجي بالفعل. كان ذلك سيكون أفضل من جميع النواحي. ولكني رددت وسط تشوُّشي أني أوافق على ما تقترحه؛ بما أنها رغبتها، وأني سأوفِّر لها منزلًا ملائمًا فور أن أقدر على ذلك، وأني سآتي من أجل أليس. كتبتُ أني أتوقَّع أن يحدث هذا قبل مرور سنة، وألقيت بنفسي في عملي منذ ذلك الوقت لأحقِّق ما قلته.

لم أرَ زوجتي منذ ذلك الوقت، ولكني أجَّرتُ منزلًا مُؤخَّرًا وكنتُ أقوم بترتيباتٍ كي أعيش هناك مع الطفلة. توقَّعتُ أن تأتي إحدى أخواتي وتقوم بدور الأم لها. وهذا الصباح وأنا على وشك تحقيق هذه الخطَّة تلقَّيتُ زيارةً من أبي الذي أتى لي بخبر وفاة زوجتي. قال لي في نفس الوقت إن أليس مفقودة. عرفت من آخرين أن عشيق زوجتي هجرها منذ بضعة أشهر، وأنها والطفلة مُعوِزَتان منذ ذلك الوقت، ولا يسعني إلا أن أتصوَّر أنها لم تتَّصِل بي خجلًا".

طوال سرده كانت نظرة روبين أرمسترونج منجذبةً إلى وجه الطفلة. فَقَدَ خيط حكايته أكثر من مرة -واحتاج أن يسحب عيونه بعيدًا عنها ويركِّز على الاستمرار من حيث توقَّف- ولكن عيونه كانت تسرح بعد بضعة جُمَل وتعود لتبحث عنها.

تنهَّد بعمق.

"ليست هذه قِصَّة أشعر أني كنت سأحكيها بأريحية ليس فقط لأنها تفضح الرعونة التعيسة لزوجتي المسكينة أمام باقي العالم، ولكنها أيضًا تضعني في صورة سيئة. لا تلوموها؛ فقد كانت صغيرةً. أنا مَن شجَّعتُها على الزواج سِرًا، وأنا مَن أدَّى ضعفه في الأزمة لسقوطها

وموتها وضياع طفلتنا. إنها قصة تعيسة لا تناسب أسماع أناس طيِّبين مثلكم. ربما كان يجدر بي أن أحكيها بقدر أكبر من اللياقة. لو كنتُ في كامل عقلي كانت قصتي ستكون أقلَّ فظاظةً، ولكن الرجل يستغرق وقتًا كي يستجمع نفسه بعد صدمة؛ لذا أرجو أن تسامحوني إن كنتُ صريحًا بشكل غير لائق وتذكروا أني دُفِعتُ إلى ذلك بالحاجة لإعطائكم تفسيرًا معقولًا لردِّ فِعلي اليوم.

شعرت حقًّا عند رؤيتي لابنتكم اليوم كما لو كنتُ أقابل حبيبتي أليس وجهًا لوجه، ولكن من الواضح أنها لا تعرفني. ومع أنها تشبه أليس -لدرجة مذهلة- يجب أن أُذكِّر نفسي أني لم أرها منذ اثني عشر شهرًا تقريبًا، والأطفال يميلون للتَّغيُّر أليس كذلك؟".

استدار نحو مارجو.

"لا شك أن لديك أطفالًا يا سيدتي، وبإمكانك تأكيد أنني على حق في هذا الأمر؟".

قفزت مارجو عندما وجَّه إليها الحديث ومسحت دمعةً وضعتها قصَّة روبين في عينها، ومنعتها بعض الحيرة من إعطاء إجابة فورية.

كرَّر "أنا على حقٍّ... أليس كذلك؟ يميل الأطفال إلى أن يتغيَّروا خلال اثني عشر شهرًا؟".

"حسنًا... نعم أتصوَّر أنهم يتغيَّرون". بدت مارجو غير متأكِّدة.

نهض روبين أرمسترونج من مقعده ووجَّه كلامه إلى آل فون. "لقد تقدَّم حزني على منطقي وتَعرَّف على طفلتكم على أنها تخصُّني. أنا أعتذر إن كنتُ قد أزعجتكم. لم أقصد أيَّ أذى".

رفع أصابعه إلى شفتيه ومدَّ يدًا واستأذن هيلينا بنظرة، ووضع قُبلةً رقيقة على خدِّ الطفلة. امتلأت عيناه بالدموع، ولكنه أحنى رأسه للسيدات قبل أن تسقط دموعه وودَّعَهم ثم رحل.

استدار فون ليحدِّق من النافذة في الصمت الذي تلى خروج روبين أرمسترونج. كانت فروع شجرة الدردار سوداء مقابل السماء الفحميَّة، وبدت أفكاره مُتشابِكةً في متاهة قمم الأشجار.

فتحت مارجو فمها لتتحدَّث، وأغلقته نصف دستة من المرات وهي ترمش في حيرة.

شدَّت هيلينا فون الطفلة إليها وهدهدتها.

قالت بصوت منخفض: "رجل مسكين، مسكين. يجب أن نصلِّي كي يجد أليس مرَّةً أخرى كما وجدنا نحن أميليا".

لم تحدِّق ريتا ولم ترمش أو تتحدَّث. طول الوقت الذي استغرقه روبين في سَرد الحكاية التي تحكي عنه جلست هي على كرسيها في ركن الغرفة تراقب وتسمع. والآن بعد أن رحل تستمرُّ في الجلوس على هيئة شخص يقوم بعملية قسمة طويلة في ذهنه. قالت لنفسها أي نوع من الرجال هو، يبدو كأنه قد فقد وعيه ثم يعود إلى وعيه مرة أخرى، وخلال كل هذا لا يتغيَّر نبضه؟

بعد فترة بدا أنها وصلت إلى نهاية تأمُّلِها لأنها أبعدت وجهها المفكِّر وقامت واقفة.

قالت: "يجب أن أذهب لأرى كيف حال السيد دانت"، وخرجت من الغرفة بهدوء.

قصَّة المراكبي

نام هنري دانت واستيقظ ونام مرة أخرى. خرج في كل مرة أقلَّ حيرةً وأكثر شبهًا لنفسه. لم تكن تشبه أسوأ سَكرَةٍ قام منها، ولكنها كانت أقرب إلى ذلك من أي شيء آخر قد اختبره. كانت عيونه لا تزال مُغطَّاة بجفونه التي ضغَطَت بقوة على بعضها البعض وفوق عينه.

حتى سِنِّ الخامسة كان هينري دانت يبكي بإلحاحٍ ليلًا. استغرق الأمر وقتًا طويلًا كي تُدرك أمُّه التي يوقظها نحيب ابنها الذي لا يمكن مواساته- حتى تدرك أن دموعه ليست نتيجةً لخوفه من الظلام، ولكنها تسيل لسببٍ آخر تمامًا. بكى أخيراً بقلب مكسور، وقال: "لا يوجد شيء لأراه"؛ ممًّا أنهى سوء التفاهم. قالت له: "بالطبع لا يوجد شيء لتراه، إنه الليل. الليل للنوم"، ولكنه لم يقتنع. تنهَّد أبوه قائلًا: "لقد وُلِدَ هذا الصبي بعيونٍ مفتوحة ولم يغلقها منذ ذلك الوقت". ولكنه هو مَن وجد الحلَّ "انظُرْ إلى الأشكال التي بداخل جفونك.

أشكال جميلة طافية. سترى جميع الألوان المختلفة". أغلق هينري عينيه بحذر، خائفًا من أن توجد خدعة في الأمر وسُحِرَ.

علَّم نفسه لاحقًا أن يستدعي المرئيَّات من الذاكرة وعيونه مغلقة، ويستمتع بها بحُرِّيَّة مثلما يفعل وهي أمام نظرته النهارية. ربما أكثر حرية. وصل إلى عمر أصبح عنده يستدعي جِنِّيَّات القدر كي تُسلِّي ساعات ليله. تخرج عرائس البحر -تلك التي تعيش تحت الأرض- من الماء المتقلِّب، وتكاد جذوعهم تختفي تحت خطوط دائرية قد تكون أمواجًا أو ضفائِرَ مُلتفَّةً، ولكن يمكن تصوُّر -إن كنتَ صبيًّا في الرابعة عشرة- أنها ليست غطاءً بالمرَّة، وإنما انحناءات ثدي. هذه هي الصورة التي تلكَّأ عندها في ساعات الظلام. مخلوقة بشعر منسدل، نصف امرأة، ونصف نهر، تمرح معه ولمساتها تُسكِره، حتى أن لها نفس تأثير امرأة حقيقية عليه. التفَّت يده حوله، وكان صلبًا كالمجداف. بضعة سحبات تكفي وينسحب نحو التيار. يصبح هو التَّيَّارَ، ويتلاشى في المتعة.

خطر له وهو يفكِّر في كل هذا في تَسلسُلٍ طبيعي مُستعيدًا ذكرى جنِّيَّات القدر أن يتساءل عن شكل الممرِّضة ريتا. كان يعرف أنها هنا في الغرفة. ترك كرسيًّا موضوعًا بمَيلٍ بعد قاعدة السرير بجوار نافذة. تمكَّن من إدراك هذا القدر من المعلومات. كانت الآن في ذلك المكان صامِتةً وجامدة، وبلا شك تتصوَّر أنه نائم. حاول تجميع ما يقدر عليه من الشَّذرات كي يُكوِّن صورة لها. عندما حاوَلَت أن تُبعِد يديه عن عينيه كانت قبضتها حازمة. إنها قويَّة إذًا. كان يعرف أنها ليست قصيرةً أو طويلة؛ لأنها وهي تقف كان صوتها يأتي من نُقطَةٍ في منتصف الغرفة. كانت توجد ثقة في خطوتها وحركاتها تُعرِّفها أنها ليست صغيرة جدًّا ولا كبيرة. هل هي شقراء أم سمراء؟ جميلة أم عادية؟ فكَّر أنها لا بُدَّ أن تكون عاديَّةً، وإلا كانت قد تزوَّجَت، وإن كانت متزوِّجةً فلن تُمرِّضَ رَجُلًا غريبًا وحدها في غرفة نوم. على

الأرجح إنها تقرأ في هذا المقعد. أو تفكّر. تساءل عمّا تفكّر، في أمر الطفلة في الأغلب. كان سيفكر فيه فقط لو يعرف من أين يبدأ.

سألته "ما رأيُكَ في كل هذا؟".

ردَّ عندما تجاوَزَ الفكرة العابرة أنها تستطيع قراءة أفكاره "كيف عرفتِ أنني مستيقظ؟".

"دَلَّني نمط تنفُسِكَ. احكِ لي ما الذي حدث ليلة أمس. ابدأ بالحادثة".

كيف حدَثَت؟

بقاء المرأة وحدها في النهر أمرٌ جيِّد. توجد حرية. لست في مكان محدَّد، ولكنك تتحرَّك دائمًا بين الجانبين. تهرب من كل شيء ولا تنتمي إلى أحد. تذكَّر دانت المشاعر: متعة في الطريقة التي ينظم جسمه بها نفسه مع الماء وضدَّه، مع الهواء وضدَّه. متعة في وضعه المرتعش القَلِق بينما النهر يتحدَّى والعضلات تستجيب. هكذا كان الوضع أمس. كان ضائِعًا في نفسه. لم تَرَ عيناه سوى النهر، وذهنه يشتبك كُلِّيًّا في تخمين نزواته، وأطرافه آلة تستجيب لكل حركة. أتت لحظةُ مَجدٍ عندما اتَّحد الجسد والقارب والنهر في رقصة امتناعٍ وعطاء، توتُّر واسترخاء، مقاومة وسريان. كان خلّابًا- ولا يمكن الوثوق في الخلّاب.

ليست مسألةَ أنه لم يأخذ ديڤيلز وير في الاعتبار: كيف يُروِّضه؟ وإن كان شخصٌ ما سيوجد كي يساعده على سحب القارب وجَرِّه؟ كان مُدرِكًا للاحتمال الآخر أيضًا؛ حيث إن الوقت شتاء، ولا يوجد أي انخفاضٍ يُذكَر. كان يعرف ماذا يفعل، تضمُّ المجاديف إلى الداخل وتبقيها جاهِزةً لتثبيت القارب إن مال، وفي نفس الوقت -سريعًا، وبحركة واحدة ناعمة- ترمي نفسك إلى الخلف وتستلقي منخفضًا. إن أخطأتَ ستتلقَّى ضربة على الرأس، أو تُشرَخ راحة المجداف، أو كلاهما. ولكنه كان يعرف. لقد فعلها من قبل.

ما الخطأ الذي حدث؟ سقط في حالةٍ من التعالي... هذا هو خطؤه. كان بإمكانه الإفلات بالأمر إلا أنه عندها -كما يتذكّر الأمر الآن- حدَثَت ثلاثة أشياء:

الأول هو أن الوقت مرَّ دون أن يشعر وتلاشى الضوء إلى رمادي مظلم.

الثاني هو أن شيئًا ما -مُبهَم ويصعب تحديده- لفت نظره وشتَّتَه في اللحظة التي احتاج فيها إلى التركيز.

الثالث هو ديڤيلز وير. هنا. الآن.

استولى التيَّار على القارب. ألقى بنفسه إلى الوراء. ماج النهر. ذراع سائل ضخم يرتفع من تحته يلقيه إلى الأعلى... الجزء السفلي من الهويس أسودُ ومُبلَّل وصلبٌ مثل جذع شجرة يقذف في اتجاه أنفه. لم يَبقَ وقتٌ حتى ليصيح "أوه!" قبل...

حاول أن يشرح كل ذلك للممرِّضة. عندما تكون كل كلمة طريقًا جديدًا وعسيرًا عبر الأبجديَّة، وفمه بلد غريب، ولكن ذلك كان كلامًا كثيرًا جدًّا. كان بطيئًا في البدء، وحديثه متخبِّطًا، ويشير بيديه كي يملأ الثغرات في حديثه. أحيانًا كانت تتدخَّل في الحديث متوقِّعةً بذكاء ما يقصد أن يقوله ويُزَمجِر هو ليشير أنْ "نعم هذا حقيقي". رويدًا رويدًا وجد طريقة لتقريب الأصوات التي يحتاجها، وأصبح أكثر طلاقَةً.

"وقد وجدتها هناك؟ في ديڤيلز وير؟".

"لا. هنا".



عاد إليه وعيه تحت سماء الليل. يشعر ببرد أكبر من أن يحسَّ معه بالألم، ولكنه يعرف بالغريزة الحيوانية أنه مصاب. فهم أنه بحاجة إلى الدفء والمأوى كي يعيش. زحف خارجًا من القارب بحرصٍ

خوفًا من السقوط في الماء البارد المثلج. حينها أتت طافيةً نحوه هيئةٌ بيضاء. عرف فورًا أنه جسدٌ، جسدُ طفلة. فَرَدَ ذراعيه وأوصلها النهرُ بعنايةٍ إليهم.

"وظَنَنتَ أنها ميّتة".

زمجر بنعم.

"همم" سمعها تأخذ نَفَسَها ووضع الفكرة جانبًا لفترة. "ولكن كيف وَصلتَ من ديڤيلز وير إلى هنا؟ رَجُلٌ بإصابتك وبقارب معطوب... لا يمكن أن تفعل ذلك وحدك".

هزَّ رأسه. لم يكن لديه فكرة.

"أتساءل عمَّا رأيته؟ الشيء الذي شتَّتَ انتباهك في ديڤيلز وير".

تتكوَّن ذاكرة دانت من الصُّوَر. وجد واحدةً: القمر الباهت مُعلَّق فوق النهر. وجد أخرى: الهويس الرابض بضخامته أمام السماء الداكنة. كان يوجد شيء آخر أيضًا. يؤلم العبوس وجهه بينما يحاول البحث عن منطق. عادة ما يسجِّل ذهنُه حدودًا واضحة وتفاصيل، مثل الصفائح الفوتوغرافية، ولكن هذه المرة لا يجد سوى الغشاوة. كانت مثل صورة فوتوغرافية تحرك موضوعها راقصًا خلال الثواني العشر اللازمة للتعرُّض الضوئي الضروري لصُنع وهم لحظةٍ واحدة. كان يَودُّ لو عاد وعاش اللحظة مرَّةً أخرى إن استطاع، يفتح الوقت ويفرده إلى أقصى طول كي يرى ما هو الشيء الذي ترك هذا الغبش على قرنيَّته.

هزَّ رأسه في شك. جفل من الألم.

"هل كان شخصًا؟ ربما رأى أحدٌ ما حدث وساعدكَ؟".

هل هذا ما حدث؟ هزَّ رأسه بتَردُّد.

"على الشاطئ؟".

"النهر" كان متأكِّدًا من ذلك.

"قوارب الغجر؟ لا يبتعدون في هذا الوقت من السنة".

"مركب واحد".

"قارب آخر بمجاديف؟".

"لا".

"صندل؟".

لم تَكُن الصورة المغبَّشة صندلًا. كانت أصغر. بضع خطوط لا غير... "شختورة ربما؟" أزال الغبش نفسه جزئيًّا بينما هو يسمع نفسه يُقدِّم هذا الاقتراح. مركب طويل ومنخفض تقوده هيئة طويلة ورشيقة. "نعم، أظن".

سمع نصف ضحكة تَصدُر عن الممرِّضة. "احذر لمن تقول هذا. سيقرِّرون أنَّكَ قابَلتَ كوايتلي في النهر".

"مَن؟".

"كوايتلي. المراكبي الذي يحرص على أن يعود الذين يلاقون مصاعب في النهر إلى بيوتهم سالمين مرَّةً أخرى. ولكن كان قد حان أجلهم. في تلك الحالة فهو يصحبهم إلى الجانب الآخر من النهر"، ونطَقَت الكلمات الأخيرة في رصانةٍ تكاد تكون ساخرة.

ضحك وشعر بنغزة ألم في شفته المجروحة وشهق بحدَّة.

صوت خطوات. ضغطة حازمة ورقيقة من قُماشةٍ على وجهه، وشعور بالبرودة. قالت: "لنَكُفَّ عن الحديث قليلًا".

"إنه ذنبك. لقد أضحكتني".

لم يرغب في وضع حدٍّ للحديث "احكِ لي عن كوايتلي".

عـادت خطوتهـا إلى المقعـد وتخيَّلها هنـاك، عاديـة الملامـح ومتوسِّـطة الطـول وقويَّـة ولا كبـيرة ولا صغـيرة.

"توجـد أكـثر مـن عـشر نسـخ. سـأبدأ وأرى مـا الـذي سـيأتي. منـذ سـنوات بعيـدة، في الأيـام التـي كانـت الجسـور فيهـا أقـلَّ مـن اليـوم، عاشـت عائلـة كوايتـلي عـلى ضفـاف النهـر، ليـس بعيـدًا جـدًّا عـن هنـا. تَمَيَّـزوا كعائلـة بـشيء واحـد غريـب: كان جميـع الرجـال بُكـمًا. لهـذا سُـمِّي كوايتـلي (هـادئ) ولا يتذكَّـر أحـدٌ اسـمه الحقيقـي. اكتسـبوا عيشـهم مـن بنـاء الشـخاتير، وسـينقلونك مقابـل سـعر معقـول عـبر النهـر مـن حـوض بنـاء السـفن الخـاص بهـم ويعـودون ليرجعـوك مـرَّةً أخـرى إن أشَرتَ لهـم. انتقـل الحـوض ومعـه عـدم القـدرة عـلى الـكلام مـن الجـدِّ لـلأب للحفيـد عـبر عـددٍ مـن الأجيـال.

قـد تعتقـد أن عـدم القـدرة عـلى الـكلام ستُشـكِّل صعوبـة في الأمـور الغراميـة، ولكـن آل كوايتـلي كانـوا رجـالًا يُعتَمَـد عليهـم وطيِّبـين، وبعـض النسـاء يُفضِّلـن الحيـاة الهادئـة. حـدث أن وُجِـدَت امـرأةٌ في كل جيـل تـرضى بـأن تحيـا بـلا حديـثٍ، وتحمـل بالجيـل التـالي مـن بُنـاة الشـخاتير، وتسـتطيع كلُّ الفتيـات الصغـيرات الـكلام، ولا أحـدَ مـن الصِّبيـان.

في وقـت هـذه القصـة كان لكوايتـلي ذلـك الزَّمَـن ابنـة، وكانـت قُـرَّةَ عينـه، وشُـغف أبواهـا وجدّاهـا أيضًـا. اختفـت الطفلـة في يـومٍ مـا وبحثـوا عنهـا في كل مـكان ونبَّهـوا الجـيران. رنَّ صـوت الأم والأشـخاص الآخريـن وهـم ينـادون اسـمها عـلى ضفـاف النهـر حتـى حلـول الظـلام. لم يجدوهـا ذلـك اليـوم ولا في اليـوم التـالي، ولكـن بعـد ثلاثـة أيـام استعادوا جسـدها المسـكين الغـارق مـن مـكانٍ يَبعُـد قليـلًا في اتجـاه التيـار ودفنوهـا.

مـضى الوقـت، واسـتمرَّ والـد الطفلـة في بنـاء شـخاتير، مـا تبقَّـى مـن الشـتاء والربيـع والصيـف والخريـف، كـما كان يفعـل مـن قبـل، وينقـل النـاس عـبر النهـر عندمـا يحتاجـون إلى ذلـك، ويجلـس في المسـاء يدخّـن

بجوار نار المدفأة، ولكن خَرَسه تَحوَّل. صار الصمت الذي كان في يومٍ ما دافئًا ومَرِحًا وممتلِئًا بالصُّحبة، قاتِمًا وممتلئًا بالظِّلال. دار العام دورةً كاملة، وأتت ذكرى اليوم الذي اختفت فيه الطفلة.

عادت زوجة كوايتلي من السوق في ذلك اليوم لتجد زبونًا ينتظر. قالت له: "إن كنتَ ترغب في عبور النهر فأنت تريد زوجي. ستجده في حوض السفن"، ولكن الزبون الذي رأت وجهه شاحِبًا قال لها: "لقد وجدته بالفعل وعبر بي حتى منتصف النهر، وعندما أصبحنا في أعمق نقطة سلَّمني الصاري وخطا خارِجًا من الشَّختورة"".

توقَّفَت ريتا لتأخذ رشفةً من الشاي.

سألها دانت "وهو يسكن النهر منذ ذلك اليوم؟".

"لم تَنتَهِ الحكاية بَعدُ. بعد ثلاثة أيام كانت زوجة كوايتلي تبكي بجوار المدفأة عند منتصف الليل عندما سمِعتَ طَرْقًا على الباب. لم تكن تستطيع التفكير في شخصٍ واحد يمكن أن يزورها في مثل تلك الساعة المتأخِّرة. هل يمكن أن يكون شخصًا يرغب في عبور النهر؟ ذهبت إلى الباب، ولكنها خافت فلم تفتحه، ولكنها نادت "الوقت متأخِّر. انتظر حتى الصباح وسيأتي حَمِيَّ ليعبر بك".

أتى الرَّدُّ: "ماما! افتحي! الجوُّ باردٌ في الخارج".

فتحت قُفلَ الباب بيدين مرتعشتين ووجدت فتاةً صغيرةً عند المدخل. الفتاة التي دفَنَتها منذ عام في نفس اليوم. حيَّة، وبخير. كان زوجها خلف الفتاة. كوايتلي. أمسَكَت بالفتاة بين ذراعيها وبكت لاستعادتها وقد فاضت بها السعادة، حتى إنها لم تتساءل كيف حدث ذلك. ثم فكَّرَت، لا يمكن أن يحدث ذلك، وأبعَدَت الفتاة عنها بطول ذراعها كي تحدِّق فيها، ولكن -وبلا شكٍّ- كانت نفس الطفلة التي فقَدَتها منذ اثني عشر شهرًا.

سـألتها في حـيرة "مـن أيـن أتيـتِ؟"، وردَّت الطفلـةُ "مـن ذلـك المـكان الـذي يقـع عـلى الجانـب الآخـر مـن النهـر. دادي أتى ليأخـذني".

أدارت المـرأة عيونهـا نحـو زوجهـا. وقـف كوايتـلي بعيـدًا قليـلًا عـن الطفلـة وليـس عنـد المدخـل بـل عنـد الممـرِّ المـؤدي إليـه.

قالـت: "ادخـلي يـا حبيبتـي"، وفتحـت البـاب عـلى مصراعيـه، وأشـارت نحـو المدفـأة حيـث كانـت النـار مشـتعلة وغليونـه لا يـزال عـلى الـرَّفِّ. لم يَخـطُ كوايتـلي إلى الأمـام، ولم يسـعها سـوى أن تلاحـظ أنـه قـد تَغـيَّر، مـع أن مـن الصعـب تحديـد مـا هـو التغـيُّر. ربمـا كان أكـثر شـحوبًا أو نحافـةً مـن ذي قبـل، أو ربمـا كانـت عينـاه نُسـخةً داكنـة مـن حالهـم السـابق.

كرَّرَت "ادخُلْ!"، وهزَّ كوايتلي رأسه.

فهمَت عندها أنه لن يقدر أن يدخل مرَّةً أخرى.

سـحبت السـيدة الفاضلـة ابنتهـا إلى الداخـل وأغلَقَـت البـاب، ومنـذ ذلـك اليـوم قابـل أشـخاصٌ عديـدون كوايتـلي في النهـر. يجـب دفـع ثمـن مقابـل عـودة ابنتـه وقـد دفعـه. سـيراقب النهـر للأبـد وينتظـر أن يصـادف شـخصٌ مـا مصاعـب، ثـم وإن لم يكـن ذلـك ميعادهـم فسـيصحبهم بأمـان إلى الشـاطئ، أمَّـا إن كان وقتَهـم بالفعـل فسـيصحبهم بأمـان إلى ذلـك المـكان الآخـر الـذي ذهـب إليـه بحثًـا عـن ابنتـه، ويجـب عليهـم أن يبقـوا هنـاك".

منحـوا القصَّـة الوقفـة الصامتـة التـي تسـتحقُّها، وعندمـا مـرَّت تَحـدَّث هـو مـرَّةً أخرى.

"إذًا فلم يكن ذلك موعدي وسحبني كوايتلي نحو رادكوت".

"إن صَدَّقتَ القصة".

"هل تصدقينها؟".

"بالطَّبع لا".

"إنها قصَّة جيِّدة على كل حال. الأب المتفاني ينقذ ابنته ويدفع حياته ثمن لذلك".

قالت: "لقد كلَّفَته أكثر من حياته. لقد كلَّفَته موته أيضًا. لا توجد راحة أبدية لكوايتلي: يجب عليه أن يتواجد للأبد بين الحالتين يحرس الحدود".

قال: "ولا تصدِّقين ذلك أيضًا. هل يصدِّقونه هنا؟".

"يصدِّقه بسزانت الذي يُصلح القوارب. يظنُّ أنه شاهده عندما كان صبيًا وتزحلق على المرساة. يعتقد مزارعو الجرجير أنه يحفظهم بأمان عندما يفيض النهر على الحقول ويجعلهم يشبهون المستنقعات. كان أحدُ حَفَّاري الحصى مُتشكِّكًا حتى اليوم الذي انحبَسَت فيه قدمه تحت الماء. يحلف على نظره أن كوايتلي مدَّ يدَه إلى الأسفل وحَرَّره".

ذكَّره الحديث بالطفلة، وقال: "ظنَنتُها ميِّتةً. لقد طَفَت نحو ذراعي، بيضاءَ وباردةً، بعيون مُقفَلة... كان بإمكاني أن أقسم أنها ميِّتة".

"ظنَّ جميعهم ذلك أيضًا".

"ما عداكِ".

"أنا أيضًا. كنت واثقةً من ذلك". سادت في الغرفة حالَةُ صَمتٍ مُتأمِّلة. فكَّر في الأسئلة التي يمكنه أن يسألها، ولكنه أسكت لسانه. أنبأه شيءٌ ما أنه قد يكون هناك المزيد، وكان على حقٍّ.

"أنت مُصوِّر يا سيد دانت؛ وهذا يجعلك عالِمًا. أنا ممرِّضة؛ وهذا يجعلني عالِمةً أيضًا، ولكنني لا أستطيع تفسير ما رأيته ليلةَ أمس". تكلَّمَت ببُطءٍ، وبقدر عظيم من الهدوء، واختارت كلماتها بحرص. "لم تكن الطفلة تتنفَّس. لم يكن لها نبضٌ، وحدقات عينيها كانت متمدِّدةً. كان الجسد باردًا والبشرة بيضاء. كانت ميِّتةً وفقًا لكلِّ

قاعدة في الكتب الدراسية. لم يكن لديَّ شَكٌّ في الأمر. بعد أن فَحَصتُها بحثًا عن مظاهر الحياة ولم أجد أيًّا منها كان من الممكن بسهولة أن أبتعد. لا أدري لماذا بقيتُ، ما عدا أنني شعرت بالراحة لأسباب لا أقدر على شرحها لنفسي. لفترة قصيرة من الزمن -بين دقيقتين أو ثلاثٍ في تقديري- ظَلَلتُ واقفةً بجوار الجثمان. يدها بين يدي وأطراف أصابعي تلمس خصرها. شعرتُ في ذلك الوضع بشيء يومض بين جلدها وجِلدي. شعرت وكأنها نبضة، ولكني كنتُ أعرف أن ذلك غير ممكن- لقد كانت ميِّتة.

حقًّا يمكنك أن تخطئ وتظنَّ أن نبضك هو نبض المريض؛ لأن هناك نبض في أطراف الأصابع. دعني أُرِكَ"... سمع خشخشةَ تَنُّورتها خلف خطواتها بينما هي تقترب من الفراش. أمسكت بيده ووضعت كفَّه على كفها المفتوحة، ووضعت كفَّها الأخرى فوقها؛ فأصبحت يده مُغلَّفة بيدها، وأطراف أصابعها تسرح بخفَّةٍ داخل معصمها. "ها هو. أستطيع أن أشعر بنبضكَ" -تَسارَعَ دَمُه بسبب لمستها- "وأستطيع أن أشعر بنبضي أنا. إنه خافِتٌ، ولكنه نبضي".

همهم بنغمة في حلقه تعني أنه فهم، وقفزت حواسُّه منتبهة كي تلمس ومضةً من دمها. كانت خافتة جدًّا.

"لذا، وكي أتجنَّب أي شكٍّ فعلت هذا..." انزلَقَت يدها بسرعة بعيدًا عن يده التي تُرِكَت مهجورةً على الغطاء. انحسرت موجة إحباطه عندما اشتعلت أطراف أصابعها على البقعة الطرية خلف أذنه.

"هذه بقعة جيِّدة للنبض. ضغطتها بثبات وانتظرت دقيقة أخرى. لم يأتِ شيء. لا شيء. ولا شيء. ولا شيء مرَّةً أخرى. قلتُ لنفسي إنني مجنونة كي أقف في الظلام والبرد القارس أنتظر دقَّات نضب من طفلة ميتة. ثم أتى مرَّةً أخرى".

"ما هي أقل سرعة يمكن أن يستمرَّ القلب في النبض عندها؟".

"قلوب الأطفال أسرع من قلوب الكبار. مائة دَقَّة في الدقيقة أمرٌ مُعتادٌ تمامًا. ستُّون خطير. أربعون حَرِج. عند الأربعين نتوقَّع الأسوأ".

شاهد أفكاره وهي تتصاعد داخل جفونه في أشكال زرقاء تشبه الغيمة. فوقهم شاهَدَ أفكارها في خطوطٍ كستنائية وخضراء تتحرَّك أفقيًّا من اليسار إلى اليمين عبر مجال رؤيته مثل أضواء تومض ببطء وتعمُّد.

"نبضة في الدقيقة. لم أعلم أبدًا أن نبض طفل قد ينخفض لأقل من أربعين في الدقيقة. إلَّا عندما ينخفض إلى صفر".

حافَظَت أصابعها على الصِّلَة بجِلده. ستفيق من شرودها بعد لحظة أو أكثر وترفعها. حاول أن يحافظ على خيط أفكارها.

"يموتون إن قَلَّ عن أربعين؟".

"نعم، حسب خبرتي".

"ولكنها لم تكن ميِّتةً".

"كانت حيَّة".

"مع نبضة واحدة في الدقيقة؟ هذا غير مُمكِن".

"ولكن إن كان من المستحيل أن تكون حيَّةً، ومن المستحيل أن تكون ميِّتةً، فعلى أي حال هي إذًا؟".

تبخَّرَت غيومُه الزرقاء. انتفخت الخطوط الخضراء الزَّرعِيَّة والكستنائية بكثافةٍ، وتحرَّكَت بعيدًا إلى اليمين حتى أصبحت خارج المدى. زفَرَت كامل سعة رئتيها إحباطًا، وسحَبَت أصابعها من على عنقه، وانفجرت في بصره شظايا نحاسيَّة كأنها من سقوط فحم في النار.

هو مَن كسر الصمت "كانت مثل كوايتلي. بين الحالتين".

سمع زفرةَ حَنَقٍ انتهت بنصف ضحكة.

ضحك هو أيضًا. أجبره شدُّ جِلده على الصِّياح ألمًا.

صرخ "آه! آه!".

جـذب انتباههـا إليـه مـرة أخـرى، أعـاد أصابعهـا إلى جِلـده. أدرك بينـما تُمسِـك بالقماشـة المرطِّبـة عـلى جِلـده أن صـورة ريتـا سـنداي قـد تحوَّلَـت في سـياق حوارهـم. كانــت الآن لا تبتعــد كثــيرًا في الشــكل عــن جِنِّيَّــات القـدر.

هل انتهت؟

انتعشت الغرفة الشتوية بالأصوات وامتلأت بالشاربين الذين اضطرَّ الكثير منهم للوقوف لعدم وجود كراسي كافية. خرجت مارجو من الممرِّ القاتم ونغزت الظهور الأقرب قائلةً: "تنحَّوا جانبًا من فضلكم. أوسعوا الطريق"؛ فجرُّوا أقدامهم بعيدًا عن طريقها، وخَطَت هي إلى داخل الاشتباك. خلفها بمسافةٍ قريبةٍ ظهرَ السَّيِّد فون مع الطفلة بين ذراعَيْه تلتفُّ ببطانية. خلفهم أتت السيدة فون تُوزِّع هزَّات رأسٍ شاكِرة يسارًا ويمينًا.

صمت الشاربون الأوائل لرؤية الطفلة. التقط الذين كانوا في عمق الغرفة انخفاض الصوت المفاجئ خلفهم ووجدوا مارجو تنغزهم ليبتعدوا عن الطريق فصمتوا بدورهم. استقرَّت رأس الطفلة على كتف فون ووجهها نصف محجوبٍ وملتصق برقبته. كانت عيونها مُغلَقةً، وأنبأهم ارتماء جسدها أنها نائمة. تَسارَعَ انتقال الصمت فسبق آل

فون وقبل أن يصلوا إلى منتصف المسافة إلى الباب كان للصمت طنينٌ يوازي ضجيج اللحظات السابقة. مال الجماهير وارتفعوا على أطراف أصابعهم يحدِّقون كي يضمنوا رؤية أفضل لوجه الطفلة النائمة، وفي الخلف تسلَّق بعضهم المقاعد والطاولات كي يروها. لم تَعُد مارجو تحتاج أن تنغزهم وتدفعهم لأن تَجمُّع الأجساد انقسم بنفسه، وعندما وصلوا إلى الباب وقف بحَّارٌ مُستعدًّا لفتحه لهم.

مرَّ آل فون من الباب.

هزَّت مارجو رأسها للبَحَّار كي يغلقه خلفهم. لم يتحرك أحدٌ، وكان الخَطُّ المائل الذي تَكوَّن حين انقسم الجمع لا يزال مرئيًّا. مرَّت لحظة ثَباتٍ لم يتحدث خلالها أحدٌ، ثم أتى صوت الأقدام وهي تزحف وصوت حلوقهم وهم يتنحنحون، وفي لحظةٍ انضمَّ الجَمعُ مرَّةً أخرى، ودوَّت الأصوات أعلى من ذي قبل.

تحدَّثوا لساعة أخرى، وراجعوا كل تفاصيل أحداث اليوم، ووزنوا الحقائق، وجمعوها، وقلبوا كميات من التخمين والتنصُّت والتصوُّرات، وأضيفت رَشَّة كريمة من الشائعات كي تختمر.

عندها ظهر شعور أن القصَّة تتقدَّم الآن إلى الأمام. لم تَعُد هنا في ذا سوان برادكوت، ولكن هناك في العالم. تذكَّر الشاربون باقي العالم: زوجاتهم وأطفالهم وجيرانهم وأصدقاءهم. يوجد أشخاص في الخارج لم يعرفوا بَعدُ قصة آل فون وأرمسترونج الشاب. غادر الشاربون أزواجًا وفُرادى في تسريبٍ تَحوَّل إلى سريانٍ مُستمرٍّ. نظَّمَت مارجو الشاربين الأكثر وعيًا كي يصحبوا الأكثر سُكرًا بمحاذاة ضفَّة النهر كي يضمنوا عدم سقوطهم.

عندما أُغلِق الباب وأصبحت الغرفة الشتويَّة فارغةً بدأ جو في كنس الأرض. توقَّف كثيرًا كي يستريح على عصا المكنسة ليلتقط أنفاسه.

حمـل چوناثـان الحطـب وجلبـه إلى الداخـل. سرى جَـوٌّ غـير مألـوف مـن الشَّـجن في عيونـه المائلـة بينـما يلقـي بهـم في السَّـلَّة المجـاورة لنـار المدفأة.

"ما الأمر يا بُنيَّ؟".

تنهَّد الصَّبيُّ "أَرَدتُ أن تبقى معنا".

ابتسـم والـده وعبـث بشَـعره "أعـرف أنـك كنـتَ تريـد ذلـك، ولكنهـا لا تنتمـي إلى هنـا".

اتَّجـه چوناثـان ليجلـب حمـلًا آخـر مـن الحطـب، ولكنـه اسـتدار عندمـا وصـل إلى البـاب، شـاعِرًا بأنـه لم يحصـل عـلى المواسـاة.

"هل انتهى الأمر يا أبي؟".

"انتهى؟".

راقـب چوناثـان أبـاه وهـو يُميـل رأسـه إلى جانـبٍ واحـد ويُحـدِّق في الرُّكـن المظلـم الـذي تـأتي منـه الحكايـات، ثـم عـادت عيونـه إلى چوناثـان، وهـزَّ رأسـه.

"هذه مُجرَّد البداية يا بين. لا يزال الطريق طويلًا".

الجُزء الثّاني

شيءٌ ما غير مَنطقيٌّ

دفعت ليلي قدمها اليمنى داخل حذاء وهي تجلس على الدرجة الأخيرة من السُّلَّم. أمسكت بلسان الحذاء كي لا ينحشر تحت الأربطة، ولكن جوربها تجعَّد، مُشكِّلًا نصف دستة ثنيات خلف كاحلها، ودفع قدمها إلى الأمام. تنهَّدَت. تتآمر أحذيتها دائمًا على تعطيلها. لا يستقيم شيء بها أبدًا. يضغطون على التهابات قدمها ويخدشونها، وبغضِّ النظر عن كمية القَشِّ التي تملؤهم بها طوال الليل إلا أنهم يحتفظون دومًا بالقليل من الرطوبة ليبردوها في الصباح. سحبت قدمها من الحذاء وفردت الجورب وحاولت مرَّةً أخرى.

عندما استقرَّت فردتا الحذاء على قدمها أغلقت أزرار معطفها ولفَّت كوفيَّةً حول رقبتها. لم ترتَدِ القفَّازات لأنها لا تملكها. في الخارج شَقَّ البرد الطريق عبر معطفها بلا مقاومة، وسَنَّ نصاله على جلدها، ولكنها لم تلاحظ. كانت معتادةً عليه.

لا يتغيَّر روتينها الصباحي أبدًا. في البداية تذهب إلى النهر. اليوم كان بالارتفاع الذي توقَّعَته، لا مرتفع ولا منخفض. لم يكن هناك زحام غاضب ولا تلكُّؤ متوعِّد. لا تفحُّ المياه ولا تُصوِّب رشَّاتٍ حاقدةً نحوها. سرى بانتظام مُستَغرِقًا كُلِّيًا في شأنٍ هادئ ما يخصُّه ولم يكن لديه أدنى اهتمام بليلي أو شؤونها. أدارت له ظهرها وذهبت لتطعم الخنازير.

ملأت ليلي سطلًا واحدة بالحبوب والآخر بالطعام المُعَدِّ لهم. أطلقت في الهواء رائحةً دافِئةً وعَطِنَة. أتت الخنزيرة إلى الحائط الذي يقسم الفناء كما هي عادتها. كانت تحبُّ أن ترفع رأسها وتحكَّ تحت ذقنها على قمَّة الحائط المنخفض. في نفس الوقت حكت ليلي خلف أذن الخنزيرة. خنخنت الخنزيرة مستمتعةً ونظَرَت إلى ليلي من تحت رموشها الحمراء. رفعت ليلي السَّطلَيْن نحو مكان الطعام وهي تترنَّح تحت ثقلهما، وقلبتهما، واحدًا تلو الآخر، في حوض العَلَف، ثم سحَبَت الألواح التي تغطِّي الفتحة. بعد أن فعلت ذلك تناوَلَت إفطارها من جيبها -إحدى التفاحات الأقل عَطبًا من على الرَّفِّ- وقضمتها. لم تكن تمانع في بعض الصُّحبَة وقت الإفطار. أتى الخنزير أوَّلًا -دائمًا ما كان يفعل: يضع الذكور أنفسهم أوَّلًا في كل شيء- وأخفض خطمه فورًا نحو حوض العلف. أتت الأنثى خلفه، كانت عيونها لا تزال مُثبَّتة على ليلي، حتى تساءَلَت ليلي مرة أخرى عن السبب المحتمل لهذا التحديق. كانت نظرةً غريبة تكاد تكون آدميَّةً كما لو كانت تريد شيئًا.

انتهت ليلي من لحم التُّفَّاحة، وألقت بقلبها في الحظيرة وهي تحرص على أن تقع حيث لا يراها الذَّكَر. منحتها أنثى الخنزير نظرةً أخيرةً عصيَّةً على التفسير -ندم؟ خيبة أمل؟ أسى؟- ثم خفضت خطمها نحو الأرض، واختفى قلب التفاحة.

أفرغت ليلي السَّطلَيْن وأعادتهما إلى كوخ الخشب. أخبرتها نظرة إلى السماء بأن موعد الذهاب إلى العمل قد جاء، ولكن يوجد شيء أخير أوَّلًا. حرَّكت بعض قطع الحطب من الكومة، وأخذت واحدة من الصَّفِّ الثالث. بدت مثل الأخريات من الأمام ولكن حُفِر بها تجويف من الخلف. أمالتها وسقط في يدها سَيلٌ من العملات المعدنية. أعادت قطع الخشب بحرص كما وجدتهم. في الداخل حرَّكت طوبة مفكوكةً من المدفأة، ومع أنها لا تبدو مختلفة عن الأخريات إلا أنها خُلِعَت بسهولةٍ، كاشفةً فتحةً صغيرة خلفها. وضعت المال في الفتحة وأعادت الطوبة إلى مكانها مرة أخرى، حريصةً على أن تستوي مع جاراتها بالضَّبط. أغلقت الباب خلفها ولم تقفله؛ لسببٍ بسيط، وهو أنه لا يوجد قفل ومفتاح. لم يكن في بيت ليلي وايت ما يستحقُّ السرقة، والجميع يعرف ذلك. ثم رحلت.

كان الهواء بارِدًا مثل السكاكين، ومن بين الصدأ وسواد عُشب العام الماضي كان الأخضر يعود إلى ضفة النهر. مشت ليلي بنشاطٍ مُمتنَّة أن الأرض صلبة ولا تدخل بلَلًا من ثقوب حذائها. بينما تقترب من بوسكوت ألقت نظرة من فوق النهر على الأرض المملوكة لبوسكوت لودچ وعائلة فون. لا يوجد أحد هناك.

قالت لنفسها: ستكون في الداخل إذًا، بجوار النار. تخيَّلَت مدفأةً وسلَّة حَطبٍ ضخمة، والنار نفسها ترقص لامعة. "لا تلمسي يا آن" همست لنفسها "إنها ساخنة". ولكن بما أنهم أثرياء فسيكون لديهم حاجز يحمي من النار. هزَّت رأسها، نعم، هذا صحيح. تصوَّرَت آن في فستان من القطيفة الزرقاء- لا، الصوف سيكون أكثر دفئًا، فليكن صوفًا. تحلِّق روح ليلي حول المنزل الذي لم تدخله أبدًا. في الأعلى وفي غرفة النوم الصغيرة ستكون نارٌ أخرى تحترق وتنزع عنها البرد. هناك سرير ومرتبة ليست مصنوعةً من القش، ولكن من صوف النِّعاج الحقيقي. البطانية سميكة و-حمراء؟ نعم حمراء- وعلى الوسادة

دُميَـة بضفائـر. توجـد سـجادة تركيـة كي لا تـبرد أقـدام آن في الصبـاح. في مـكان آخـر مـن البيـت تمتلـئ حجـرة المـؤن بلحـم الخنزيـر والتفـاح والجـبن. يوجـد طـاهٍ يصنـع المـربَّى والكعـك، وخزانـة تحـوي مرطبانـات عديـدة مـن العسـل، وفي الـدرج نصـف دسـتة مـن الحلـوى المخطَّطـة بالأصفـر والأبيـض.

استكشَـفَت ليـلي منـزل آن الجديـد بـرضى تـام ولم تتـلاشَ نسـختها مـن داخـل بوسـكوت لـودج إلى عـلى بـاب الأبرشـيَّة.

قالـت لنفسـها بينـما تفتـح بـاب المطبـخ: نعـم، يجـب أن تعيـش آن مـع آل فـون في بوسـكوت لـودج. سـتكون في أمـان أكـثر هنـاك. قـد تكـون سـعيدةً أيضًـا. يجـب أن تظـلَّ هنـاك.

كان القـسُّ في مكتبـه. تعـرف ليـلي أنهـا تأخَّـرَت، ولكنهـا أدركـت بلمـس الغلَّايـة بطـرف أصبعهـا أن القـسَّ لم يُعِـدَّ الشـاي لنفسـه بعـدُ. نزَعَـت حذاءهـا وأدخلـت قدميهـا في حـذاءٍ رمـاديٍّ مـن قـماش اللبَّـاد تبقيـه تحـت الخزانـة في مطبـخ الأبرشـية. كانـت قدماهـا دائمًـا مرتاحـة داخلـه. عملـت لـدى الكاهـن لشـهرين قبـل أن تجـرؤ عـلى الاسـتئذان في أن تُبقـي حـذاء منـزل تحـت خزانـة المطبـخ. شرَحَـت لـه أنـه "سـيكون بعيـدًا عـن الأنظـار، وسـيحافظ عـلى سـجَّادتِكَ"، وعندمـا قـال نعـم طلبـت منـه بعضًـا مـن المدخَّـرات التـي يحتفـظ لهـا بهـا، وذهبـت فـورًا لشرائـه ثـم عـادت بـه عـلى الفـور. أحيانًـا في الكـوخ عندمـا تشـعر بالـبرد والخـوف مـن الأشـباح تكفيهـا فكـرة حـذاء اللبَّـاد الرمـادي الخـاص بهـا يسـتقرُّ تحـت خزانـة مطبـخ الأبرشـية كـما لـو كان ذلـك مكانهـم الطبيعـي كي يتحسَّـن شـعورها.

غَلَـت المـاء وأعدّضـت صينيَّـة الشـاي، وعندمـا أصبـح كل شيء جاهـزًا، شـقَّت طريقهـا إلى المكتـب ودقَّـت عـلى البـاب.

"تعالي!".

كان القسُّ منحنيًا فوق أوراقه مـمًا أظهر البقعة الصلعاء على قمة رأسه، كان يشخبط بسرعةٍ أدهشتها، وعندما وصل إلى نهاية الجملة رفع رأسه "أها! سيدة وايت!".

كانت تحيته إحدى مُتَع حياتها. لم تكن أبدًا "صباح الخير!" أو "يوم سعيد!" -تحيات قد تكون لأي أحد- ولكن دائمًا "أها! سيدة وايت!". كان صوت كلمة سيدة وايت على شفتيه نعمة.

وضعت الصينية. "هل أحمِّص بعض الخبز أيها القسُّ؟".

"نعم. أو لاحقًا". تنحنح، ثم بدأ في الحديث "سيدة وايت..." بنبرة صوت مختلفة.

جفلت ليلي، وصنعت تعبيرًا من الحيرة الطيبة التي زادت من مخاوفها ممًا هو آتٍ.

"ما هذا الذي أسمعه عنك أنت والطفلة في ذا سوان؟".

انكمش قلبها في صدرها. ماذا تقول. لماذا يكون شيء معرفته عاديَّة عصيًّا على الشرح مثل أحجية. فتحت فمها وأغلقته أكثر من مرة، ولم تخرج أي كلمة.

تحدَّث القسُّ مرَّةً أخرى.

"ما فهمته حتى الآن أنَّك قلتِ لهم في ذا سوان إن الطفلة شقيقتك؟".

كان صوته مترفِّقًا، ولكن رئتي ليلي غرقتا بالخوف. كانت بالكاد قادرة على الشهيق أو الزفير. ثم تمكَّنَت من ابتلاع دفقة من الهواء، وعندما زفرتها فاضت منها الكلمات. "لم أقصد أي أذى من ذلك، وأرجوك ألَّا تفصِلَني يا كاهن هابجود وأنا لن أسبِّب أي متاعب أخرى. أَعِدُكَ".

نظر إليها القسُّ نظرة تأمُّل لا تَقِلُّ حيرةً عن ذي قبل. "أتصوَّر أن بإمكاننا فهم أن الطفلة ليست أختك؟ يمكننا أن نرجع ذلك إلى خطأ... أليس كذلك؟". رسم فمه ابتسامة متردِّدة تجريبية، أصبحت ابتسامةً ثابتة وكاملة عندما هزَّت رأسها.

لم تكن ليلي تحبُّ الكذب. لقد دفعت إليه مرَّاتٍ عديدة، ولكنها لم تعتده أبدًا. بل إنها لم تجده، وبدرجة أكبر لم تحبه. أن تكذب داخل بيتها كانت مسألةً، ولكن أن تكذب هنا في بيت الأبرشية -لم يكن بيت الله تحديدًا، ولكنه بيت القس، وهو التالي على الله- يكون الكذب مسألةً أثقلَ وطأة. لم تكن تريد أن تخسر وظيفتها، ارتبكت بين الكذب والحقيقة، وفي النهاية بعد أن عجزت عن قياس المخاطر في كلٍّ من الجانبين انتصرت طبيعتها.

"إنها أختي بالفعل".

أخفضت بصرها. كانت أصابع حذاء اللِّبَّاد ظاهرة من تحت تنُّورتها. امتلأت عيناها بالدموع ودعكتهما بظهر كفَّيها. "إنها أختي الوحيدة، واسمها آن. أنا أعرف أنها هي يا قس هابجود". بدَّلَت الدموع التي مسحتها بدموعٍ أخرى أكثر من قدرتها على الإمساك بها. سالت دموعها وصنعت بُقَعًا داكنة على حذاء اللباد.

قال القسيس وقد ارتبك قليلا: "لماذا لا تجلسين؟".

هزَّت ليلي رأسها. لم تجلس في بيت القسِّيس في حياتها. كانت تعمل هناك على قدَمَيْها وعلى رُكبَتَيْها، وتجلب وتحمل وتدعك وتغسل؛ وهذا ما يمنحها شعورًا بالانتماء. جلوسها يجعلها مجرَّد واحدة من رعايا الأبرشية تحتاج إلى المساعدة. همهمت "لا. شكرًا لا".

"إذًا سأقف معك".

وقف القسُّ وخرج من خلف مكتبه ونظر إليها مفكِّرًا.

"دعينا نفكِّر في ذلك معًا. هل نفعل ذلك؟ ذهنان أفضل من ذهن واحد. في البداية كم عمرك يا سيدة وايت؟".

حدَّقت فيه ليلي حائرة "حسنًا أنا.. لا أستطيع أن أقول إنني أعرف. أظنُّ أنني في الأربعينيات من عمري".

"مممم. وبكم تُقدّرين عمر الطفلة التي كانت في ذا سوان؟".

"أربعة".

"تبدين متأكِّدةً من ذلك".

"لأن ذلك هو عمرها".

جفل القسُّ "دعينا نَقُل إنك في الرابعة والأربعين يا سيدة وايت. لا نستطيع التأكُّد، ولكننا نعرف أنك في الأربعينيات؛ لذلك فالرابعة والأربعون مُحتَمَلَة. هل توافقين؟ كي نتناقش في الأمر فقط".

هزَّت رأسها وهي لا ترى أهمية للأمر.

"الفجوة بين الأربعين والرابعة والأربعين هي أربعة أعوام يا سيدة وايت".

عبَسَت.

"كم كان عمر أُمِّك حين أنجَبَتكِ؟".

جفلت ليلي.

"هل أُمُّك على قيد الحياة؟".

ارتعشت ليلي.

"دعينا نُجرِّب طريقة أخرى: متى كانت آخر مرَّة رأيت فيها أُمَّك؟ مؤخَّرًا؟ أم منذ زمن طويل؟".

همست "منذ زمن طويل".

تكهَّن القس بطريق مسدود آخر؛ فاتَّخذ طريقًا آخر.

"إن تصوَّرنا أن والدتك أنجبتك وهي في السادسة عشرة، وأنجبت تلك الطفلة بعد أربعين عامًا، فستكون في عمر السادسة والخمسين. أكبر منك الآن باثني عشر عامًا".

رمَشَت ليلي وهي تحاول وتفشل في أن ترى ما هو الهدف من كل تلك الأرقام.

"هل ترين ما الذي أريد تفسيره بكل هذه الحسابات يا سيدة وايت؟ الطفلة لا يمكن أن تكون شقيقتك. إمكانية أن تنجب أُمُّكِ فتاتَيْن بكل هذا الفَرْق في العمر- حسنًا غير مألوفة، حتى إنها مستحيلة".

حدَّقت ليلي في حذائها.

"ماذا عن والدك؟ ما عمره؟".

ارتعشت ليلي "مات. منذ زمن بعيد".

"دعينا نَرَ كيف هو الوضع. لا يمكن أن تكون والدتك قد أتت بهذه الفتاة الصغيرة إلى الحياة. ستكون أكبر من اللازم. ووالدك تُوفِّيَ منذ زمن بعيد؛ فهو لا يمكنه منح الحياة لها أيضًا؛ لذا فلا يمكن أن تكون أختك".

نظَرَت ليلي إلى البُقَع على حذاء اللباد.

"إنها أختي".

تنهَّد القسُّ ونظر في أرجاء الغرفة باحثًا عن شيء يمنحه إلهامًا. لم يَرَ إلَّا عمله غير المكتمل على مكتبه.

"هل تعرفين أن الطفلة ذهبت إلى بوسكوت لودچ لتعيش مع السيد والسيدة فون؟".

"أعرف".

"قولـك إن الطفلـة شـقيقتك لـن يسـاعد أي شـخص يـا سـيدة وايـت. فكِّـري في هـذا".

تذكَّـرَت ليـلي الملاءات الحمـراء وعصـا الحلـوى المخطَّطـة بالأبيـض والأصفـر. رفعـت رأسـها أخـيراً وقالـت: "أعـرف ذلـك. أنـا سـعيدة أنهـا هنـاك. يمكـن لآل فـون أن يعتنـوا بـآن أفضـل منـي".

صحَّح لها برفقٍ "أميليا. إنها الابنة التي فقدوا منذ عامين".

رمشـت ليـلي "لا أمانـع أن ينادوهـا بـأي اسـم. ولـن أُسـبِّب أي مشـاكل. لا لهـم، ولا لهـا".

قال القسُّ وهو يعبس: "حسنًا. حسنًا".

بدا أن الحديث قد انتهى.

"هل ستصرفني يا قسُّ؟".

"أصرفك؟ يا إلهي لا!".

ضمَّـت يديهـا إلى قلبهـا وهـزَّت رأسـها بقـوَّة لأن رُكبَتَيهـا كانتـا مُتخشِّـبَتَيْن أكـثر مـمَّا يسـمح لهـا بالانحنـاء. "شـكرًا يـا قـس. سـأبدأ بالغسـيل إذًا؟".

جلس على مكتبه ورفع الورقة التي كان يكتبها.

"الغسيل... نعم يا سيدة وايت".

عندمـا انتهـت مـن الغسـيل -وقامـت بـكل الملاءات، ورتَّبَـت السريـر، ومسـحت الأرض، ونفضـت السـجاجيد، ودعكـت البـلاط، ومـلأت سـلَّة الحطـب، وأزالـت السـناج عـن المدفـأة، ولمَّعَـت الأثـاث، وهـزَّت السـتائر، ونفَخَـت الوسـائد، ولفَّـت عـلى جميـع الصـور وأُطُـر المرايـا بمنفضـة الريـش، ولمَّعَـت جميـع الصنابـير بالخَـلِّ، وطبَخَـت طعـام القـسِّ وجهَّزَتـه

ووضعته على الطاولة تحت قماشة، وغسلت الأواني، ونظَّفَت الموقد، وتركت كل شيء في المطبخ مُرتَّبًا- ذهبت ليلي ودقَّت مرة أخرى على باب المكتب.

حسب القسُّ أجرها ووضعه في يدها فأخذت بعض العملات وأعادت ما تبقَّى إليه كالعادة. فتح درج مكتبه وأخرج منه علبةً من الصفيح يضع فيها مُدخَّراتها وفتحها وفتح ورقة مطويَّة بداخلها كتب عليها أرقامًا كان قد شرحها لها في البداية: تاريخ اليوم، والمبلغ الذي تعطيه له كي يحافظ لها عليه، ثم المبلغ الجديد لإجمالي مدخَّراتها.

"إنه مبلغٌ لا بأس به الآن يا سيدة وايت".

هزَّت رأسها وابتسمت ابتسامةً مُقتَضَبة متوتِّرة.

"ألا تفكِّرين في صرف بعض منه؟ زوج من القفازات؟ إن الجوَّ قارس في الخارج".

هزَّت رأسها.

"حسنًا دعيني أجد شيئًا لكِ". ترك الغرفة لفترة وجيزة، وعندما عاد مدَّ يده لها بشيء. "لا يزال هذا صالحًا للاستخدام. لا سبب أن يبقى بلا استخدامٍ بينما يداكِ بارِدتان. خذيه".

أخذت القُفَّاز وقلبته في يدها. كان منسوجًا من الصوف الأخضر السَّميك بثقوب قليلة. لن يكون من الصعب إصلاحه. عرفت من ملمسه الناعم كم سيكون دافئًا في برد الصباح عند النهر.

"شكرًا يا قسُّ. هذا عطف كبير منك، ولكني سأفقدهم".

وضَعَت القُفَّاز على طرف المكتب وودعت القس ورحلت.

شعرت أن المشي عائِدةً بمحاذاة النهر يأخذ وقتًا أطول من المعتاد. كان عليها أن تتوقَّف في عدد من الأماكن لتجمع فضلاتٍ من أجل الخنازير، وتشتكي التهاب أصابع قدميها في كل خطوة. تجمَّدَت يداها. كان عندها قُفَّازات عندما كانت صغيرةً، حاكتهم لها أُمُّها من خيطٍ أحمر، وضفرت خيطًا طويلًا ليمرَّ عبر أكمامها كي لا تفقدهم، ومع ذلك اختفت. لم تفقدهم- لقد أُخِذا منها. حلَّ الظلام بوصولها إلى الكوخ. كانت تشعر بالبرد حتى نخاع عظامها، وكل جزء منها يمكنه أن يؤلمها كان يؤلمها. ألقت نظرة على العمود وهي تمرُّ به. ارتفع النهر مُقارنةً بمنسوبه هذا الصباح. زحفت حدوده بعد بوصات سخيَّة عند قدميها، واقتربت من البيت في غيابها.

أُطعِمَت الخنازير وشعرت أن عين الخنزير الحمراء مُصوَّبة عليها، ولكنها لم تُبادِله النظر. كانت مُتعَبةً أكثر من أن تقدر على التفكير في مزاج الخنازير هذا المساء. كما أنها لم تَحكَّ الخنزير وراء أذنه، مع أن المخلوق شخر وخنخن جاذبًا انتباهها.

امتلأت الصناديق التي كانت فارغة هذا الصباح باثنتي عشرة زجاجة.

اقتربت بتوتُّر من الكوخ، وفتحت الباب، وألقت نظرة إلى الدخل قبل أن تخطو داخله. كان فارغًا. لقد كان هنا إذًا. ورحل.

فكَّرت في أن تشعل شمعةً من أجل الونس، ولكن عندما ذهبت نحو الشمعدان كانت الشمعة قد اختفت. كذلك قطعة الجبن التي كانت تُخطِّط أن تأكلها، ولم يَبقَ منها إلى الكعب القاسي.

جلست على الدَّرَج وخلعت حذاءها. كان صراعًا. جلست هناك في معطفها، وقدماها في الجوارب تنظر إلى الشكل الرطب على الأرض حيث سال الماء من قميص أخت الكوابيس وفكَّرت.

كانت ليلي بطيئة التفكير. هكذا كان الحال دائمًا منذ أن كانت صغيرة جدًّا. كانت امرأةً تترك الحياة تَحدُث لها دون أن تُتعِب ذهنها بأشياء أكثر من اللازم. لم تكن أحداث حياتها ومتغيّراتها ومنعطفاتها نتيجة لأي فِعلٍ حاسم من جانبها بأي شكل، ولكنها فقط حوادث الحظ. أوراق لعب وزَّعَتها عليها يَدُ إلهٍ مُلغِز، ومسائِلُ فَرَضَها آخرون. كانت تفزع من التغيير وتستسلم له بلا أسئلة. أملها الوحيد لسنواتٍ طويلة كان ألَّا تسوء الأمور... ولكنها ساءت بشكل عام. لم يكن التفكُّر في الخبرات جُزءًا من طبيعتها. ولكن الآن بعد أن أزالت بداية الصدمة من وصول آن جلست على الدَّرَج وشعرت بسؤالٍ يقاوم كي يظهر على السطح.

كانت آن الكوابيس شخصًا مخيفًا وحاقِدًا، بأصبعها المرفوع وعيونها السوداء. آن في ذا سوان، آن كما رأتها الآن عند آل فون كانت مختلفة تمامًا. كانت هادئة. لم تُحدِّق، ولم تُشِر، ولم تُلقِ نظرات انتقاميَّةً. لم تبدُ مُصمِّمةً على إيذاء أي شخص، وليس فقط ليلي. آن التي عادت كانت أشبهَ بآن التي كانت.

جلست ليلي على الدَّرج لساعتين، وظلام السَّماء يضغط على النافذة، والنهر يتسارع في أذنها. فكَّرَت في آن التي أتت من النهر تَقطُر رُعبًا على خشب الأرض. فكَّرَت في آن بجوار المدفأة في بوسكوت لودج في فستانها الصوفي الأزرق. مرَّ الوقت حتى اندمجت البقعة المبلَّلة على الأرض مع القتامة السائدة، ولم تكن قد وضعت حيرتها في سؤالٍ بَعدُ. وكانت بعيدة جدًّا عن العثور على أي أجوبة. كل ما تبقَّى لها عندما قامت مُتخشِّبةً وخلعت معطفها لتذهب إلى فراشها، هو لغز عميق وعصيٌّ.

عيون أمّ

يحدث شيء، ثم يحدث شيء آخر، ثم تَحدُث كل أنواع الأشياء المتوقّعة وغير المتوَقّعة، الغريبة والعادية. أحد الأشياء العادية التي حدَثَت نتيجة للأحداث في ذا سوان تلك الليلة هي أن ريتا أصبحت صديقةَ السيدة فون. بدأ الأمر حين سمعت طَرْقًا على بابها، ووجَدَت السيد فون على عتبة الباب.

"أردتُ أن أشكرك على كل شيء فعلتِه تلك الليلة. لولاك ولولا رعايتك الممتازة... الأمر أصعب من أن أقدر على التفكير فيه". ووَضَعَ ظرفًا على الطاولة، "تعبير رمزي عن شُكرنا!". وطلب منها أن تأتي إلى بوسكوت لودج لتفحص صحّة الطفلة مرّةً أخرى. "أخذناها إلى طبيب في أوكسفورد. قال لنا لم تتأذّ كثيراً برغم معاناتها، ولكنّ فَحصًا أسبوعيًا لن يَضرّ... ها؟ هذا ما تريده زوجتي أيضًا... سيكون جيدًا من أجل راحة بالنا على الأقل".

حـدَّدَت ريتـا يومًـا ووقتًـا معهـم، وعندمـا رحـل فتحـت الظـرف. كان يتضمَّــن مبلغًـا سـخيًا، كبـيرًا بمـا يكفـي ليعكـس ثـراء آل فـون وأهميـة حيـاة ابنتهـم، وقليـلًا بمـا يكفـي كي لا يكـون مُحرِجًـا. كان مناسـبًا تمامًـا.

كان اليـوم المحـدَّد لزيـارة ريتـا إلى بوسـكوت لـودج مُمطِـرًا بغـزارة؛ مـمَّا أثـار سـطح النهـر، مُحـوِّلًا إيَّـاه إلى شرائـط مُتغيِّرة الأنمـاط والملمـس. وصلـت إلى المنــزل ودخلـت إلى غرفـة جلـوس لطيفـة. ورق الحائــط الأصفـر كان مُشرِقًـا، والمقاعـد مُريحـةً ومُرتَّبَـة بشـكل جميـل حـول نـار مدفـأة مُرحِّبـة، ونافـذة بـارزة تطـلُّ عـلى الحديقـة. اسـتلقت السـيدة فـون عـلى بطنهـا فـوق السـجادة المقابلـة للمدفـأة تُقلِّـب صفحـات كتـاب أطفـال. تدَحرَجَـت وقفـزت في حركـة واحـدة رشـيقة وأخـذت يَـدَيْ ريتـا بـين يديهـا.

"كيـف يمكننـا أن نشـكرك؟ سـألنَا الطبيـب في أوكسـفورد جميع الأسـئلة التـي سـألتِها أنـتِ، وأجـرى نفـس الاختبـارات. قلـتُ لزوجـي: "أنـت تعرف مـا يقولـه لنـا أليـس كذلـك؟ ريتـا بمهـارة أي طبيـب! يجب أن نطلـب منهـا أن تـأتي مـرَّةً واحـدة في الأسـبوع وتتأكَّـد أن كل شيء كـما يجـب أن يكـون". وهـا أنـتِ!".

"من الطبيعي بعد كل ما حدث ألَّا نخاطر".

لم يكـن لهيلينـا فـون أي صديقـات مـن النسـاء طـوال حياتهـا كبالغـة. فشــل تعرُّضهــا المحــدود للنســاء البالغــات في غــرف الجلــوس تمامًــا في إقناعهـا أنـه أمـر مسـتساغ. لم تكـن الحشـمة والأسـلوب الخاضع للسـيدات مألوفَيْن للفتـاة التـي ترَبَّـت في حـوض السـفن؛ ولهـذا انجـذب لهـا السـيد فـون، ذكَّـرَه مرحهـا واسـتمتاعها العَفـويُّ بالحيـاة في الهـواء الطلـق بالفتيات التـي تَرَبَّـت معهـم في مناطـق التنقيـب في نيوزيلنـدا. أمَّـا بالنسـبة لريتـا فقـد تعرَّفَـت هيلينـا فيهـا عـلى امـرأةٍ لهـا هـدف يتجـاوز غـرف الجلـوس.

فَرَّقَتهم اثنا عشر عامًا وأشياء أخرى كثيرة تجعلهم مختلفين، ولكن هيلينا شعرت أنها تميل إلى ريتا، وكان ذلك المَيْلُ مُشتَرَكًا.

كانت الطفلة الصغيرة التي بدت مختلفةً الآن، مختلفة إلى حدٍّ كبير بفستانها الأزرق وياقته البيضاء، وحذائها المطرَّز بالأبيض والأزرق، قد نظرت إلى أعلى عندما سمعت الباب يفتح. اشتعل وميض اهتمام في عيونها الفضولية، ولكنه خبا عندما رأت ريتا وعادت بانتباهٍ إلى الصفحات. قالت ريتا: "استمرِّي في الاطِّلاع على الكتاب معها وأنا سأفحص نبضها بينما هي مُشتَّتة الانتباه. مع أنني لا أحتاج إلى ذلك في الحقيقة... من الواضح أنها بصحَّة جيِّدة".

كان ذلك حقيقيًّا. أصبح شَعرُ الطفلة يلمع الآن، وعلى خدودها لمعة ورديَّة باهتة، ولكنها ملحوظة، وأطرافها صلبة، وحركاتها ثابتة ورشيقة. كانت مستلقية على بطنها مثل السيدة فون، وتستند على كوعَيْها وقدمَيْها في الحذاء المنزلي المطرَّز، تتأرجح في حركة متقاطِعةٍ في الهواء فوق ركبتيها المثنيَّتين، كانت تنظر إلى الصفحات دون أن تنطق بكلمة، ولكن بكل سيماء الفهم بينما تلفت السيدة فون انتباهها إلى هذا وذاك في الصور.

مالت ريتا من فوق أقرب مقعد كي تمسك بمعصم الفتاة. نظرت الفتاة إلى الأعلى متفاجِئةً، ثم رجعت بانتباهها إلى الكتاب. كان ملمس جلد الفتاة دافِئًا، ونبضها قويًّا. انشغل ذهن ريتا بِعَدِّ النبضات ومراقبة عقارب ساعتها بينما تُتَكتِك العقارب حول الميناء، وتموج في خلفيَّته ذكرى وقوعها في النوم على المقعد في ذا سوان والطفلة على حِجرها.

قالت: "كل شيء كما يجب أن يكون تمامًا"، وتركت المعصم الدافئ.

قالت هيلينا: "لا ترحلي"، وسألتها "ستجلب لنا الطاهية بيضًا وخبزًا بعد قليل. هل يمكنك أن تبقي؟".

استمرُّوا في الحديث حول الطفلة وصِحَّتها وهم يأكلون "قال لي زوجك إنها لم تتكلم؟".

"ليس بَعدُ". لم يبدُ القلق على السيدة فون، "قال الطبيب في أوكسفورد إن صوتها سيعود. قد يستغرق الأمر ستة أشهر، ولكنها ستتحدَّث مرَّةً أخرى".

تعرف ريتا جيِّدًا أن أغلب الأطباء يعزفون عن الاعتراف بأنهم لا يملكون إجابة عن سؤال ما. إن لم يطرح ردٌّ جيِّدٌ نفسَه يُفضِّل البعض إعطاء إجابةً سيِّئة بدلًا من ألَّا يجيبوا. لم تَقُل ذلك للسيدة فون.

"هل تعتبرين أن كلام أميليا كان طبيعيًّا سابقًا؟".

"أوه نعم. كانت تغمغم مثلما يفعل مَن يبلغون من العمر سنتين. لم يفهمها الآخرون دائمًا ولكننا كنَّا نفهمها. أليس كذلك يا أميليا؟".

كانت عيون هيلينا منجذبةً إلى الطفلة دائمًا -وكل كلمة تنطقها، أيًّا كان موضوعها- كانت تخرج من فمٍ مبتسم؛ لأنه بدا أن مجرَّد رؤية الطفلة كان كافيًا لإسعادها. قطعت خبز الطفلة إلى أصابع وشجَّعَتها أن تُغطِّسها في صفار البيض. همَّت الطفلة في الأكل بانتباهٍ جاد. عندما انتهى الصَّفار، وضعت هيلينا الملعقة في يدها كي تأكل البياض، فنقرت بها الطفلة قشر البيضة بِيَدٍ خرقاء. راقبت هيلينا الطفلة باستغراق راضٍ، وكلما استدارت نحو ريتا كانت نفس الابتسامة تلعب على شفتيها. أسرَفَت في مشاركة السعادة التي أتت مع الطفلة، ولكن عندما كانت ريتا تشعر بالابتسامة المُشِعَّة مُضاءَة عليها كانت لمستها تملؤها بالتوجُّس. في العادة كانت رؤية شابَّة سعيدة لهذه الدرجة -خاصَّةً بعد حزن طويل- مُفرِحَة، ولكن ريتا لم تتمالك شعورها بالخوف. لم يكن لديها رغبة في إفساد فرحة هيلينا، ولكن الواجب ألزمها بتذكيرها أن هناك درجة من الهشاشة في الموقف.

"مـاذا عـن السـيد أرمسـترونج وطفلتـه المفقـودة؟ هـل توجـد أي أخبـار؟".

عبـس وجـه هيلينـا الجميـل "السـيد أرمسـترونج المسـكين. أفهـم مشـاعره. لا توجـد أخبـار. لا شيء مُطلَقًـا"، وتنهَّـدَت بطريقـة أوضَحَـت تَعاطُفَهـا الصـادق، ولكـن بـدا لريتـا في نفـس الوقـت أنهـا لا تـرى صِلـةً بـين ألم السـيد أرمسـترونج وسـعادتها. "هـل تظنـين أن الأب يشـعر مثـل الأم؟ أعنـي بالفقـد؟ وأن لا يعـرف؟".

"أظنُّ أن ذلك يعتمد على الأب والأم".

"أتصـوَّر أنَّـكِ عـلى حـق. فُقـداني كان سـيُدمِّر أبي. والسـيد أرمسـترونج بـدا...". توقَّفَـت وفكَّـرت. "مـن نـوع الرجـال العاطفيـين. ألا تظنـين ذلك؟".

تذكَّـرَت ريتـا قـراءة النبـض "مـن الصعـب الحُكـم مـن المقابلـة الأولى. ربمـا لم يكـن أيٌّ مِنَّـا عـلى طبيعتـه. هـل رأيتـه بعدهـا؟".

"زارنا مرَّةً أخرى كي يراها بذهنٍ أكثر استقرارًا".

أوحت نبرة صوتها بشيء غير محسوم.

"وهل نفعت الزيارة؟ هل حسم أمره؟".

ردَّت هيلينـا وهـي تفكِّـر "لا أسـتطيع أن أقـول إنـه فعـل"، ثـم ألقـت نظـرة عـلى ريتـا ومالـت كي تتحـدَّث بنـبرة منخفضـة "يقولـون إن زوجتـه قـد أغرقـت الطفلـة ثـم تناوَلَـت سُـمًّا. هـذا مـا يقولونـه". تنهَّـدَت بعمـق "سـيجدون الجُثَّـة. هـذا مـا أقولـه أنـا لأنتـوني... إنهـم سـيجدونها حَتـمًا، وسـيتأكَّد السـيد أرمسـترونج حينهـا".

"لقد مَرَّ وقت طويل. هل تظنين أن بإمكانهم أن يجدوها الآن؟".

"لا بُـدَّ. حتـى وقتهـا سـيبقى الرجـل المسـكين مُعلَّقًـا. فمـن غـير المتوقَّع أن يعـثر عليهـا حَيَّـة الآن. كـم أسـبوع مَـرَّ؟ أربعـة؟". حسـبت الأيـام عـلى

أصابعها مثل الأطفال. "خمسة تقريبًا. كنَّا سنتوقع أن يجدوا شيئًا. فِكرَتي... هل أقولها لكِ؟".

هزَّت ريتا رأسها.

"فِكرتي هي أنه لا يطيق معرفة أن أليس غرقت؛ فيتمسَّك بفكرة أن أميليا قد تكون أليس كي يوفِّر على نفسه المعاناة. آه! الرجل المسكين".

"وهل رأيتِه منذ الزيارة؟".

"رأيناه مرتين أخريين. عاد بعد عشرة أيام، ثم بعد عشرة أيام أخرى".

انتظرت ريتا في تَرَقُّب، وكما تَمنَّت استمرَّت هيلينا في الكلام.

"كانت الزيارة غير مُتوَقَّعة، ولم يكن من الممكن أن نطلب منه المغادرة. أعني كيف يمكننا هذا؟ لقد أتى مرَّةً أخرى وتناول كأسًا من البورت مع أنتوني، وتحدَّثنا عن أشياء عديدة، لا شيء بعينه، ولم يَذكُر أميليا. ولكن عندما دخلت لم يستطع أن يُحوِّل نظره عني، ولكنه لم يَقُل إن هذا هو سبب زيارته. وصل وكأنه يمرُّ بالصُّدفة، وبما أننا نعرفه، ما الذي كان بإمكاننا فعله سوى دعوته للدخول؟".

"فهمتُ".

"والآن أتصوَّر أننا أصبحنا معارِفَ بالفعل و... حسنًا، هذا هو الحال".

"وهو لا يتكلم عن أميليا؟ أو أليس؟".

"يتكلَّم عن الزراعة والخيل والطقس. يتشتَّت أنتوني -إنه لا يطيق الثرثرة- ولكن ما الذي نستطيع فعله؟ لا يمكننا رفض مقابلته بينما معنوياته منخفضة إلى هذا الحدِّ".

تساءَلَت ريتا "يبدو الأمر غريبًا نوعًا ما بالنسبة لي".

وافَقَتها هيلينا "نعم، غريبٌ بعض الشيء"، وعادت لها ابتسامتها، واستدارت مرَّةً أخرى نحو الفتاة، ومسحت المربى من على فمها، وسألت "ماذا بعد؟ هل نذهب في نزهة؟".

"يجب أن أعود إلى المنزل. إن مَرِضَ شخصٌ ما وأتى إليَّ...".

"إذًا سنتمشَّى معكِ جُزءًا من الطريق. إنه بمحاذاة النهر، ونحن نحب النهر. أليس كذلك يا أميليا؟".

عند ذُكِر النهر امتلأت عينا الطفلة بالعزم، وقد كانت حتى تلك اللحظة تجلس مُرتَخيةً في كرسيها منذ أنهت طعامها، وعيناها حالمتان وسارحتان بعيدًا. استجمعت تركيزها من المكان الذي كان قد سرح نحوه ونزلت من كرسيها.

ركضت الطفلة أمامهما بينما ينزلان من منحدر الحديقة نحو ضفة النهر.

شرحت هيلينا "إنها تحب النهر. كنتُ مثلها تمامًا. وأبي كذلك. أرى الكثير منه فيها. نأتي إلى هنا كل يوم وهي هكذا دائمًا. تسبقنا ركضًا".

"إنها ليست خائفة إذًا؟ بعد الحادثة؟".

"إطلاقًا. إنها تحيا من أجله. سترين".

وفعلًا، عند وصولهم إلى النهر كانت الطفلة عند حافَّة الشاطئ متوازِنةً ومستقرَّة، وأقرب ما يمكن إلى الماء المتسارع. لم تستطع ريتا أن تقمع رغبتها الغريزية في أن تمدَّ يدها وتضعها على ياقة الطفلة كي تمسك بها خوفًا من أن تنقلب في الماء. ضحكت هيلينا "لقد وُلِدَت من أجل ذلك. إنه في طبيعتها".

بالفعل كانت الفتاة مُنهَمِكَة في النهر. تنظر عكس التيار وهي ترفع حواجبها قليلًا وفمها مفتوح، بينما تحاول ريتا تفسير هيئتها.

هــل تتوقَّــع شــيئًا؟ أدارت الفتــاة رأســها إلى الجهــة الأخــرى وفحصــت الأفـق مـع اتجـاه تيـار النهـر. لم يكـن مـا تبحـث عنـه هنـاك. انطبـع عـلى وجـه الطفلـة تعبيرُ خيبـة أمـل ضَجِـر، وانطلقـت إلى الأمـام عـلى سـاقيها الصغيرتـين نحـو انحنـاءة النهـر.

لم تـترك عينـا السـيدة فـون الطفلـة. سـواء تكلَّمَـت عـن زوجهـا أو والدهـا أو أي شيء آخـر، بقيـت عيناهـا عـلى الطفلـة، ولم تتغـير نظرتهـا. كان فيضًـا مـن الحـب والحنـان والفـرح، وعندمـا ترفـع عيونهـا كي تنظـر إلى ريتـا كانـت النظـرات العابـرة لا تـزال تفيـض بحـبٍّ يَنكـبُّ عـلى ريتـا وعـلى كل شيء تـراه. شيء مـا في تلـك النظـرة كان يُذكِّـر ريتـا بالنظـر إلى عيـون شـخص أعطتـه جرعـة قويَّـة مضـادَّة لـلألم، أو رجـل اعتـاد شرب الخمـر القـوي غـير معـروف المصـدر الـذي أصبـح مُتاحًـا بسـهولة مؤخَّـرًا.

بـدؤوا في المـشي باتجـاه الكـوخ، وركضـت الطفلـة أمامهـم، وعندمـا أصبحـت بعيـدةً عـن مرمـى السـمع تكلَّمـت هيلينـا.

"تلـك القصـة التـي يحكونهـا في ذا سـوان... أنهـا كانـت ميتـة ثـم حَيَـت مرَّةً أخـرى...".

"ماذا عنها؟".

"يقـول أنتـوني إن المجموعـة التـي تجلـس في ذا سـوان خيالهـا واسـع... إنهـم سـيأخذون أي شيء غـير مألـوف قليـلًا ويُزَخرِفونـه. يقـول إن الأمـر برُمَّتـه سـيموت ويُنسَى. ولكنـه لا يعجبنـي. مـا رأيـك؟".

فكَّـرَت ريتـا قليـلًا. مـا الفائـدة مـن إزعـاج امـرأة قَلِقَـة بالفعـل عـلى طفلتهـا؟ عـلى الجانـب الآخـر لم تكـن أبـدًا من نـوع النـاس الذين يمارسـون الكـذب العفـوي كي تُطَمـئِنَ مرضاهـا. كانـت تفضِّـل أن تجـد طريقـة كي تقـول الحقيقـة بأسـلوبٍ يسـمح للمريـض أن يسـتوعب بقـدر مـا يريـد. يمكـن للشـخص أن يسـأل المزيـد مـن الأسـئلة أو لا يسـأل. اتَّخَـذت نفـس الاسـتراتيجية الآن. رتَّبَـت الحقائـق بحـرصٍ، وأخفـت الوقـت الـذي

استغرقته في التفكير في الادِّعاء بأنها منتبهة إلى طرف تنُّورتها بينما يتمشَّون عبر بقعة طينية. عندما استعدَّت، ألقت بإجابتها بصدق حريص وبأسلوب موضوعي.

"ارتبط إنقاذها من النهر ببعض الظروف غير المألوفة. تصوَّروا أنها ميِّتة. كان لها لونٌ أبيض شمعيٌّ، وبؤبؤ عينها كان مُتمدِّدًا- هذا يعني أن القلب الأسود للحَدَقة كان واسعًا. لم يكن لها نبضٌ يمكن تمييزه، ولم تكن توجد أي إشارة أنها تتنفَّس. هذا ما رأيته أيضًا عندما وصلت إلى هناك. في البداية لم أجد نبضًا، ولكني وجدته لاحقًا. كانت حيَّة".

راقَبَت ريتا هيلينا وهي تخمِّن ما الذي فهمَته من هذا السَّرد المختَصَر عَمدًا. كان به ثغرات قد يلاحظها الشخص -أو لا يلاحظها- ويملؤها بأي عدد من الطُّرُق. ثغرات قد تخلق أيَّ عَددٍ من الأسئلة الإضافية. ما نوع التنفُّس الذي لا يمكن أن يلاحظه أحد. ما شكل النبض الذي لا يمكن الشعور به؟ وكلمة "لاحِقًا" التي استخدمتها، ابنة العم الباهتة الصغيرة لـ "وأخيرًا" الأقوى في التعبير: " في البداية لم أجد نبضًا، ولكني وجدته لاحِقًا". إن كانت تشير إلى عدَّة ثوانٍ فالكلمة بريئة، ولكن إن كانت دقيقة؟ ما الذي تتصوَّره المرأة حينها؟

لم تكن هيلينا هي ريتا، وكانت تختلف عنها في ملء الثغرات. راقَبَتها ريتا وهي تصل إلى نتائجها الخاصَّة بينما كانت تمشي بجوارها وعيناها مثبَّتة على الطفلة التي تمشي على بُعد عِدَّة ياردات أمامهم. مشت الطفلة بثباتٍ غير عابئة بالهواء ودفقات المطر التي تتوقَّف وتبدأ عشوائيًا. كانت حيويَّتها وحدها حقيقية، واستطاعت ريتا أن ترى كيف تغطي على كل شيء آخر.

"إذًا فقد تصوَّرتِ أن أميليا ميِّتة، ولكنها لم تكن كذلك. كانت غلطة وجعلوا منها قصَّة".

لم يَبدُ أن هيلينا تحتاج إلى تأكيد. ولم تمنحه لها ريتا.

"تصوَّري أن تكون قريبة من الموت إلى هذه الدرجة. أن يُعثَر عليها ثم تكاد تُفقَد مرَّةً أخرى". جرَّت عينيها بعيدًا عن الطفلة لبرهة وجيزة كي تمنح ريتا نظرة "الحمد الله أنكِ كنتِ موجودة!".

كانوا يقتربون من كوخ ريتا. قالت هيلينا: "يجب ألَّا نتأخَّر. سيأتي الرجل اليوم كي يضع أقفالًا على الشبابيك".

"على الشبابيك؟".

"ينتابني شعور أن شخصًا ما يراقبها. ذلك أفضل. الحرص أفضل من الندم".

"يوجد الكثير من الفضول حولها. لا حيلة في الأمر. سيتلاشى مع الوقت".

"لا أعني في الأماكن العامَّة. أعني في الحديقة وعند النهر. جاسوس".

"هل رأيتِ أحدًا؟".

"لا، ولكني أعرف أن شخصًا ما هناك".

"أتصوَّر ألَّا جديدَ بخصوص واقعة الخطف؟ لم تُحرِّر عودتُها أيَّ ألسُن؟".

هزَّت هيلينا رأسها.

هل يوجد شيء يعطيك فكرة عن أين كانت في السنتين السابقتين؟ كان هناك حديث عن تورُّط غجر النهر... أليس كذلك؟ فتَّشت الشرطة قواربهم في إحدى المرات على ما أظن؟".

"حدث فعلًا، وعندما لحقوا بهم لم يجدوا شيئًا".

"وقد ظهرت في الليلة التي كان فيها الغجر في النهر مرَّةً أخرى".

"لـو شـاهدتيها تسـتخدم شـوكة وسـكينة سـتتصوَّرين أنهـا كانـت تعيـش مـع الغجـر طـوال هذيـن العامـين. ولكنـي لا أطيـق تصوُّر الأمـر بصراحــة".

ألقـت الأمـواج التـي تُطيِّرهـا الريـاح مزيجًـا مـن الزَّبَـد والقطـرات في الهـواء مـن المـكان التـي كانـت تسـقط فيـه مـرَّةً أخـرى، واضعـةً أشـكالًا مُعقَّـدة فـوق الملمـس المتمـوِّج للـماء. فكَّـرَت ريتـا بحـيرة بينـما تراقـب التغـيُّرات العشـوائية في المـاء في الأسـباب التـي تدفـع غجـر النهـر لأن أن يسرقـوا طفلـة ثـم يعيدونهـا في نفـس المـكان ميِّتـةً بعـد عامـين. لم تجـد إجابـة.

كانـت هيلينـا تتبـع أفكارهـا أيضًـا "إن اسـتطعت، كنـتُ سـأجعل هـذه الأعـوام تختفـي تمامًـا. أحيانًـا أتسـاءل مـا إن كنـت قـد تخيَّلتهـا، أو إن كان اشـتياقي هـو مـا أعادهـا مـن المـكان المظلـم الـذي كانـت فيـه. في كل هذا الأمـل كنـت سـأدفع روحـي، سـأمنح حيـاتي مقابـل اسـتعادتها. والآن أحيانًا أتسـاءل: مـاذا لـو كنـت قـد فعلـت؟ مـاذا لـو لم تكـن حقيقيـة تمامًـا؟".

عـادت إلى ريتـا، وللحظـة عابـرة كان بهـا لمحـة مُرعِبـة مـمَّا كان عليـه العامـان السـابقان. كان اليـأس صادِمًـا، حتـى إن ريتـا جفلـت.

"ولكـن كل مـا عـليَّ فعلـه هـو أن أنظـر". رمَشَـت الأم الشـابة وبحثـت عيناهـا عـن الطفلـة. مـرة أخـرى أعمـى الحـب بصرهـا "إنهـا أميليـا. إنهـا هي".

وصلـوا إلى بقعـة ليسـت بعيـدة عـن كـوخ ريتـا. "يجـب أن نودِّعَـكِ يـا ريتـا، ولكنَّـكِ سـتأتين مـرَّةً أخـرى؟ الأسـبوع القـادم؟".

"إن أردتِ أن آتي. إنها بصحَّة جيدة. لا يوجد سبب للقلق".

"تعالي على كل حال. نحن نحبك، أليس كذلك يا أميليا؟".

ابتسـمت لريتـا التـي شـعرت مـرة أخـرى بثقـل اجتيـاح الحـب الأمومـي، سـاحرًا، ومُشـعًا، ومُقلِقًـا إلى حـدٍّ كبـير.

في طريقهـا إلى المنـزل أتـت ريتـا إلى المـكان الـذي تمنعهـا عنـده مجموعـة مـن أشـجار الزَّعـرور التـي تنمـو عنـد منحنـى في الطريـق مـن أن تـرى أمامهـا. أيقظتهـا مـن أفكارهـا رائحـة غـير مُتوَقَّعـة -فاكهـة؟ خمـيرة؟- وحـين فـسَّر ذهنهـا أن الظـل الداكـن في الأرض شـخصٌ مُختبـئٌ كان الوقـت المناسـب قـد مـرَّ. مـرَّت، وقفـز هـو، وقبـل أن تسـتطيع أن تـصرخ أمسـكتها مـن الخلـف ذراعـان نحيلتـان، ووَضَعتـا سـكينة عنـد رقبتهـا.

"لـديَّ بـروش يمكنـك أن تأخـذه. كيـسي بـه مـال" قالـت لـه بهـدوء، ودون أن تتحـرَّك. صنـع الـبروش مـن الصفيـح والزُّجـاج، ولكـن ربمـا لـن يعـرف ذلـك. وإن عـرف فالمـال سـيعوِّضه.

ولكن لم يكن ذلك هو ما يريده.

"هل تتكلَّم؟". كانت الرائحة أقوى الآن بما أنه اقترب.

"ما الذي تقصده؟".

"الفتاة. هل تتكلَّم؟".

هزَّهـا، وشـعرت ريتـا بـشيء يُدفَـع في ظهرهـا تحـت مؤخِّـرة رقبتهـا. حافَّـة قُبَّعـة؟ نعـم، أتى صوتـه مـن منطقـة أسـفل أذنهـا: مـع كل قوَّتـه إلَّا أنـه كان أقـصر منهـا بكثـير.

"طفلة آل فون؟ لا إنها لا تتكلم".

"هل يوجد دواء يمكنه أن يجعلها تتكلم مرة أخرى؟".

"لا".

"إذًا فلن تتكلم مرة أخرى؟ هل هذا ما يقوله الطبيب؟".

"قـد تسـتعيد قدرتها عـلى الحديـث بشـكل طبيعـي. يقـول الطبيـب إن ذلـك سـيحدث في أوّل سـتة أشـهر، أو لـن يحـدث أبـدًا".

انتظرت أسئلةً أخرى، ولكنها لم تأتِ.

"أسقِطي كيس نقودك على الأرض".

أخرجـت الكيـس القـماشي مـن جيبهـا بيديـن مرتعشـتين. كان بـه المـال الـذي أعطـاه لهـا آل فـون، وأسـقطته، وفي اللحظـة التاليـة أتـت ضربـة هائلـة مـن خلفهـا أطارتهـا وأنزلتهـا بثِقَـل عـلى الأرض الخشـنة، فانغـرز الحـصى في يديهـا. طَمأَنَـت نفسـها "أنـا لسـتُ مصابـة مـع ذلـك"، ولكـن عندمـا اسـتجمعت قواهـا ونهضـت، كان الرجـل وكيـس نقودهـا قـد اختفيـا.

أسرعت إلى المنزل وهي تفكّر بعمق.



أيُّ أبٍ؟

مـال أنتـوني فـون نحـو مرآتـه ومـرَّ بالمـوس عـلى فُقَّاعـات الصابـون عـلى خـدِّه وكَحَـت. قـام بجهـد أخير وهـو يقابـل عينيـه في المـرآة كي يفـكَّ تعقيـد أفـكاره. بـدأ حيـث يبـدأ دائمًـا: الطفلـة ليسـت أميليـا. كان يجـب أن تكـون هـذه هـي بدايـة السـؤال ونهايتـه، ولكنهـا لم تكـن. لم يُـؤدِّ هـذا اليقـين الواحـد الفـردي إلى الخطـوة التاليـة، ولكـن إلى مسـتنقع، بغَـضِّ النظـر عـن اتجـاه خطوتـه. ارتعشـت المعرفـة وتذبذبـت. أصبحـت أضعفَ، وازداد الحفـاظ عليهـا صعوبـة مـع كل يـوم يمـرُّ. كانـت هيلينـا تُقـوِّض مـا يعرفـه. كل ابتسـامة عـلى وجـه زوجتـه، كل دفقـة مـن الضحـكات، وكل كلمـة مَرِحَـة تنطقهـا كانـت سـببًا كي يضـع مـا يعرفـه جانبًـا. يـزداد جمالهـا كل يـوم في الشـهرين اللَّذَيْـن مـرَّا عـلى وجـود الطفلـة معهـم، واسـتردَّت الـوزن الـذي فقدتـه، واسـتعادت اللمعـة في شَـعرها، واللـونَ

على خدودها. استردَّ وجهها حيويَّته بالحب، ليس فقط للطفلة، ولكن له أيضًا.

ولكن الأمر ليس في هيلينا فقط. أليس كذلك؟ إنه في الطفلة أيضًا.

تنجذب عيون فون نحو وجه الفتاة بإصرار. بينما يضع ملعقة المربَّى في فمها وقت الإفطار كان يتتبَّع بروز فكِّها. عند الظهر يصيبه الهَوَسُ بانحسار مَنبَتِ شَعرها من الأمام. عندما يعود إلى المنزل من العمل في جزيرة براندي لا يقوى على إبعاد عيونه عن البناء الملتفِّ لأذنها. كان يعرف تلك الملامح أكثر من معرفته بملامح زوجته أو ملامحه هو. يعذِّبه شيءٌ ما مبهم -بها- يبدو أنه يعنيه لو كان فقط قادرًا على تحديد ما هو. كان يراها حتى في غيابها. ينطبع وجهها على الحقول والسماء... في القطار وهو يراقب المنظر الذي يمرُّ سريعًا. في المكتب تبدو ملامحها مثل علامة مائيَّة على الورق الذي يكتب فوقه قوائم أرقامه. إنها تسكن حتى أحلامه. حملت كل الشخصيات والملامح المتخيَّلَة وجهَ الطفلة. حَلم ذات مرة بأميليا -أميليا الخاصَّة به، الحقيقية- وحملت هي أيضًا وجه الطفلة. استيقظ وهو يبكي.

انتقل التَّتبُّع المستديم لملامحها من المحاولة لمعرفة مَن هي في البداية، إلى محاولة لتفسير انبهاره. بدا وكأن وجهها هو النموذج الذي استُوحِيَت منه جميعُ الوجوه البشرية، حتى وجهه هو. نعَّم تحديقه المتستمر ملامحها حتى بدا له كأنه يرى فيه انعكاس وجهه هو، وأعاده النظر إليها إلى نفسه دائمًا. لم يكن ذلك شيئًا يمكنه أن يحكيه لهيلينا. ستسمع فقط ما لا يقصد قوله. إنه يرى نفسه في ابنته.

هل كان هناك شيء مألوفٌ بالفعل في الطفلة؟ حاول أن يقول لنفسه إن الشعور بالمعرفة الذي يُسبِّبه وجهها ليس أكثر من الصدى الطبيعي للمرة الأولى التي رآها فيها. ألم تكن حِدَّة نظره إليها كافية لتفسير شعوره بالأُلفَة؟ كان شكلها ببساطة يشبه نفسها؛ ولهذا كان

يعرفها. ولكن الصراحة أخبرته أن الأمر ليس بهذه البساطة. فشل مفهوم الذاكرة في الإمساك بالشعور بشكل وافٍ. كان الأمر وكأن الطفلة تستدعي عنده شيئًا له حجم وشكل الذاكرة، ولكنها معكوسة أو مقلوبة. شيء يشبه الذاكرة: توأمها، أو ربما عكسها.

تعرف هيلينا أنه لا يُصدِّق أن الطفلة ابنته. تعرف لأنه قال لها في اليوم الأول فور أن أصبحا وحدهما بعد أن وضعا الطفلة في سريرها. استقبلت الخبر بدهشة، ولكن لم يبدُ أنه يشغلها كثيرًا.

قالت له برفق: "عامان فترة طويلة بالنسبة لأي طفلة صغيرة. يجب أن تصبر. سيعلم الزمن قلبك أن يعرفها مرَّةً أخرى". وضعت يدًا على ذراعه، وكانت تلك المرة الأولى منذ سنتين التي تلمسه فيها زوجته في غرفة جلوسهم وتنظر إليه بحبٍّ "حتى ذلك الوقت ضَعْ ثِقَتكَ بي. أنا أعرفها".

عندما يفتح الموضوع الآن تُعامِل عدمَ إيمانه بتقبُّلٍ مندهش. كان تافِهًا، عديم الأثر. مجرَّد أن زوجها العزيز السخيف بطيء في اللحاق بالأحداث. لم تفعل الكثير لإقناعه. لاحَظَت في أحد الأيام على طاولة الإفطار: لا تزال تحبُّ العسل! ثم إذًا لم يتغيَّر ذلك! عندما دفعت الطفلة فرشاة الشعر بعيدًا عنها. ولكنها وضعت ثقةً طائشة أغلب الوقت في إمكانية أن يكون الوقت كافيًا كي يعيده إلى رُشده. ألمح أسلوبها إلى أن شكوكه غير ذات شأن، وسيجرفها بلا شك التَّيَّار القوي القادم. لم يطرح الأمرَ بنفسه. لم يكن يخشى أن يُقلِقَها، بل العكس تمامًا. إن قال لها كانت تردُّ: "ولكنك تعرفها حقًّا. إنك تستعيد ذكرياتك الآن".

كان نوع التَّشابُك الذي يسهل أن يزيده تعقيدًا في محاولتِكَ لِفَكِّه أكثر من مرة. وجد فون نفسه يفكِّر في حلٍّ بسيط جدًّا. لِمَ لا يحاول تصديقه؟ لقد كسرت الفتاة لعنةً بقدومها، وأعادت لهم أيام السعادة

المسحورة. رحلت سنوات الألم حين غلَّفَتهم التَّعاسة، ولم يعودوا يمنحون الراحة لبعضهم البعض. جلبت الطفلة سعادةً مباشرة لهيلينا، وجلبت له أمرًا أكثر تعقيدًا كان يُقدِّره/ وإن لم يعرف ما يُسمِّيه. خلال وقت قصير جدًّا أصبح ينزعج إن أكلت أقلَّ من المعتاد، ويقلق عندما تبكي في الليل، ويفرح وهي تمدُّ يدها نحوه.

رحلت أميليا وأتت هذه الفتاة. صدَّقَت زوجته أنها أميليا. كانت تشبه أميليا. أصبحت الحياة التي كانت لا تُطاق قبل مجيئها مُمتِعةً مرَّةً أخرى. لقد أعادت له هيلينا، والأهم أنها هي نفسها وجدت لنفسها مكانًا في قلبه. لم يكن من قبيل المبالغة أن يقول إنه يحبها. هل يريدها أن تكون أميليا؟ نعم. على جانب حُبٌّ وراحة وسعادة، وعلى الجانب الآخر كل فرصة لاستعادة الأمور كما كانت. حسنًا إذًا، ما سبب التَّعلُّق بكل هذا الإصرار بيقينه بينما التيار يشدُّ بقوة في الاتجاه المعاكس؟

كان يوجد سببٌ واحدٌ فقط. روبين أرمسترونج.

أصرَّت هيلينا "سيعثرون على الجثة. لقد أغرقت زوجتُه الطِّفلةَ -الجميع يعرف ذلك- وسيعرف عندما يجدون الجُثَّة".

ولكن مَرَّ شهران ولم يُعثَر على الجثة.

أجَّل فون فِعلَ أي شيء. لقد كان رجلًا صالحًا، وعادلًا، ونزيهًا. وكان يتعمَّد أن يكون عادلًا ونزيهًا الآن. يوجد هو، ويوجد روبين أرمسترونج، ولكن توجد أيضًا هيلينا والطفلة. كان مُهِمًّا أن توجد أفضل نتيجة مُمكِنة لكلِّ المعنيِّين. لا يمكن أن يستمرَّ الوضع كما هو للأبد. لا يستفيد أحدٌ من ذلك. يجب العثور على حَلٍّ وهو يأخذ أول خطوة اليوم.

اغتسل سريعًا ونشَّف وجهه واستعدَّ. كان عليه اللحاق بالقطار.

عرفوا عمومًا بمونتي وميتش، وزال أيُّ شكٍّ في أن ذلك اسم سيرك ريفيٍّ مُتنقِّل عند رؤية اللافتة النحاسية المعلَّقة بجوار باب المنزل الرصين ذي الطراز الچورچي في أوكسفورد: موتنجومري وميتشيل، قانوني وتجاري. لا يرى التامز من نوافذه، ولكن وجوده ملموس في كل غرفة. ليس فقط في كل غرفة، بل في كل درج وكل خزانة داخل كل غرفة فهذا هو مكتب المحاماة الذي يستخدمه أي شخصٍ له اهتمامٌ بالأعمال المتعلِّقة بالنهر، بداية من أكسفورد وحتى مسافة أميال كثيرة على طول النهر. لم يكن السيد مونتجومري نفسه رَجُلَ قوارب، أو صيَّادًا، أو رسَّامَ مناظر مائية. بل إنه كان يمضي عامًا بأكمله دون أن تقع عيناه على النهر، ومع ذلك يمكن القول -دون أن يكون في ذلك أي كذب- إنه يعيشه ويتنفَّسه. لا يتصوَّر السيد مونتجوري التامز على أنه تيَّار مائيٌّ على الإطلاق، ولكنه جدول من الدَّخل يسري جافًّا وورقيًّا وهو يُحوِّل جزءًا من حصيلته سنويًّا إلى دفاتره وحساباته، وكان مُمتنًّا لذلك جدًّا. كان يقضي أيَّامه راضيًا بصياغة بواليص الشحن والمفاوضة حول صياغة خطابات الاعتماد، وعندما يصادفه خلافٌ نادرٌ وثمين يتضمَّن قوَّةً قاهِرةً -وهو ما يحدث أحيانًا- ينتفخ قلبه من الاستمتاع.

وضع فون يده على الجرس وهو يقف على السُّلَّم، مع أنه لم يَدُقَّه بعدُ. كان يهمهم لنفسه.

قال ببعض التردُّد: "أميليا"، ثم بقوة قد تكون زائدة عن الحَدِّ: "أميليا!".

كان اسمًا عليه التَّدرُّب على قوله دومًا لأنه لا يأتي أبدًا دون الحاجة إلى القفز فوق حاجز، والمجهود المطلوب يجعله دومًا يبدو -حتى لأذنيه هو- وكأنه مُتكلِّف.

أرسـل فـون خطابًـا، وكانـوا يتوقَّعـون قدومـه. كان الولـد الـذي فتـح البـاب وتـولَّى شـأن معطفـه هـو نفسـه كل مـرة. كان موجـودًا في اليـوم الـذي أتى فيـه فـون قبـل عامـين كي يتـولّى أمـرًا مُتعلِّقًـا باختطـاف ابنتـه. وقتهـا كان الولـد أصغـرَ، وعاجِـزًا عـن معرفـة كيـف يتـصرَّف في مواجهـة الحـزن واللوعـة اللذيـن أظهرهـما زائِـرُه. أراد فـون طمأنَتَـه أنـه ليـس مُذنِبًـا إن لم يعـرف كيـف ينظـر في عيـون مجنـون فقـد طفلتـه بهـدوء مُحايِـد. كان الولـد اليـوم -فهـو لا يـزال ولـدًا، ولكـن أكـبر قليـلًا- يحافـظ عـلى تهذيبـه الهـادئ بينـما يأخـذ المعطـف ويُعلِّقـه عـلى مشـجب، ولكنـه لم يسـتطع التحكُّـم في نفسـه عندمـا اسـتدار عائـدًا إلى فـون.

"أوه! أخبـار جيِّـدة يـا سـيدي. يـا لـه مـن تَغيُّر في القـدر! لا بُـدَّ أنـك أنـت والسـيدة فـون تفيضـان بالسـعادة".

لم تكـن المصافحـة بـين أحـد زبائـن مونتـي وميتـش وبـين الصبـي الـذي يسـتلم المعاطـف مناسِـبةً تمامًـا، ولكـن جسـامة اليـوم -بالنسـبة للصبـي عـلى كل حـال- دفعـت فـون أن يسـمح أن تأخـذ يـده وتهزَّهـا بقـوة.

همهـم "شـكرًا"، وإن كان هنـاك أي نقـص في قبولـه للتهـاني القلبيـة، فقـد كان الصبـي أصغـرَ مـن أن يعيهـا، ولم يفعـل سـوى أن يبتسـم بـإشراقٍ بينـما يدخـل السـيد فـون إلى مكتـب السـيد مونتجومـري نفسـه.

في المكتب مدَّ السيد مونتجومري يدًا رسمية ودودة.

"يُسـعِدني أن أراك مـرَّةً أخـرى يـا سـيد فـون. يجـب أن أقـول إنـك تبـدو بخـير".

"شكرًا. لقد وصلك خطابي".

"بالفعل. اختَرْ كرسيًّا واحكِ لي. ولكن أوَّلًا، كأس من البورت؟".

رأى فـون الخطـاب عـلى مكتـب مونتجومـري. لم يتضمَّـن الكثـير في الحقيقـة. عـلى الأقـل يمكنـه الإفـلات بقـول ذلـك، ولكـن عنـد رؤيتـه

للخطـاب مفتوحًـا وعليـه آثـار مـرّات عديـدة مـن القـراءة تسـاءل مـا إن كان القليـل الـذي كتبـه كشـف أكـثر مـمّا كان يقصـد. كان خـطُّ فـون مـن النـوع المفتـوح السَّـلِس الـذي يمكـن لأي شـخص قراءتـه بالمقلـوب، وبينـما انشـغل مونتجومـري بنظارتـه، وقـع نظـر فـون عـلى بعـض العبـارات التـي كتبهـا بالأمـس "عـثر عـلى الطفلـة. الفتـاة الآن في عُهدَتِنـا. قـد يكـون مـن الـضروري التعاقُـد عـلى خدماتكـم في أمـور متعلِّقـة". شـعر الآن أن هـذه ليسـت تعابـير رجـل مبتهـج لعـودة طفلتـه الوحيـدة.

وضـع أمامـه كأسًـا، فرشـف رشـفة. تحـدَّث الرجـلان عـن البـورت كـما يجـب عـلى رجـال الأعـمال. لـن يفتـح مونتجومـري الموضـوع أوَّلًا وهـو يعـرف ذلـك، ولكنـه خلـق وقفـة توقَّـعَ بوضـوح أن يملأهـا فـون.

بـدأ كلامـه "أدرك أننـي وضعـت التطـوُّرات الأخـيرة للأحـداث دون أن أوضِّـح الأمـور التـي قـد أحتـاج إلى مسـاعدتك فيهـا. يُفضَّـل أن تناقـش بعـض الأمـور وجهًـا لوجـه".

"حقيقي جدًّا".

"حقيقـة الأمـر أنـه يوجـد احتـمال -يجـب أن أقـول إنـه مسـتبعدُ، ولكـن يسـتحق أن ننتبـه إليـه- أن جهـة أخـرى قـد تَدَّعـي أحقِّيَّتهـا في الطفلـة".

هـزَّ مونتجومـري رأسـه غـير مُندَهـشٍ، وكأنـه كان يتوقَّـع تلـك العاقبـة تحديـدًا. كان للسـيد مونتجمـري وجـه طفـل خـالٍ مـن الخطـوط، مـع أنـه في السـتين بالتأكيـد. بعـد أربعـين سـنة مـن ممارسـة خُلـوِّ وجهـه مـن التعبـير، ضمـرت العضـلات التـي تختلـج وتتوتَّـر ردًّا عـلى الريبـة أو القلـق أو الشـك، ضمـرت حتـى إنـه أصبـح مـن المسـتحيل قـراءة أي نـوع مـن التعبـيرات عـلى وجهـه مـا عـدا وداعـة عامَّـة ودائمـة.

"يدَّعـي شـابٌّ يعيـش في أكسـفورد -عـلى الأقـل أعتقـد أنـه يدَّعـي- أنـه والـد الطفلـة. زوجتـه التـي انفصـل عنهـا ماتـت في بامبتـون ومـكان

طفلتهـم غـير معـروف. ابنتـه أليـس كانـت في نفـس العمـر، واختفـت في نفـس الوقـت تقريبًـا (رأى فـون الحاجـز يقـترب واسـتعدَّ لـه) الـذي وُجِـدَت فيـه أميليـا. صدفـة تعيسـة سَـمَحَت للشَّـكِّ أن يصعـد إلى...".

"شك...".

"في عيونه".

"في عيونه. نعم. هذا جيد".

أنصـت مونتجومـري ووجهـه عليـه حُسـن ظَـنٍّ محايـد. "لم يـرَ الشـاب -واسـمه أرمسـترونج- زوجتـه أو ابنتـه؛ لـذا كانـت عـدم قدرتـه عـلى التأكُّـد فـورًا مـن هويـة الطفلـة".

"ولكنـك، عـلى الجانـب الآخـر، واثِـقٌ كُلِّيًـا". لم تتغـير نظرتـه الثابتـة "مـن هويـة الطفلـة؟".

ابتلع فون ريقه "فعلًا".

ابتسـم مونتجومـري بـبراءة. يمنعـه تهذيبـه مـن الضغـط عـلى زبـون في أمـر عبـارة مشـكوك فيهـا "إذًا فالطفلـة ابنتـك". كانـت تبـدو بالنسـبة للعـالم كلِّـه عـلى أنـه تقريـر واقـع، ولكـن تَـردُّد فـون جعلـه يسـمع السـؤال في العبـارة.

"إنها هي" (الحاجز مرة أخرى) "أميليا".

استمرَّ مونتجومري في الابتسام.

أضاف فون "لا يوجد أدنى شكٍّ في الأمر".

استمرَّت الابتسامة.

شـعر فـون بالحاجـة إلى أن يلقـي بـشيء يضيـف ثِقـلًا. فقـال حاسِـمًا: "إن غريـزة الأم قويـة جـدًّا".

"ما الـذي يمكـن أن يكـون أوضـح مـن ذلـك؟ بالطبـع" -لم يتبـدَّل وجهـه- "الوصايـة عـلى الطفـل ملـكٌ لـلأب، ولكـن مـع ذلـك، غريـزة الأم! لا شيء أفضـل منهـا!".

ابتلـع فـون ريقـه مـرَّةً أخـرى ثـم ألقـى بنفسـه في المخاطـرة وقـال: "إنهـا أميليـا. أنـا أعـرف".

رفـع مونتجومـري نظـره بخـدود دائريـة وجبهـة ناعمـة "ممتـاز"، وهـزَّ رأسـه في رضـا. "ممتـاز. لـديَّ خـبرة كبـيرة في تقييـم الادِّعـاءات المتنافسـة عـلى مِلكيَّـة البضائـع التـي تضيـع لسـبب أو لآخـر. لا تشـعر بالإهانـة لاسـتخدامي خـبرتي -فالتـوازي هنـا مفيـد- كي أختـبر قـوَّة ادِّعاء أرمسـترونج ضـدَّك".

"لم يصبـح ادِّعـاءً ضدَّنـا بعـد. ليـس ادِّعـاءً إطلاقًـا. هـي معنـا منـذ شـهرين الآن، ويـأتي الرَّجُـل كثـيرًا ليزورنـا. يـأتي ويراقبهـا، ولكنـه لا يدَّعـي أنهـا لـه، ولا يُسـقِط ادِّعـاء انتمائهـا لـه. استعدَّ في كل مـرة يظهـر فيهـا أن يحـكي عـمَّا يفكِّـر فيـه، ولكنـه يبقـى صامتًـا فيـما يخـصُّ هـذا الأمـر. لا أتشـجَّع عـلى ضغطـه فيـما يخـصُّ الأمـر... آخِـرُ شيء يمكـن أن أرغـب فيـه هـو أن أُثبِـتَ الادِّعـاء، ولكنـه طـوال الوقـت لا يقـول "إنهـا ابنتـي". الاحتـمال مفتـوحٌ في ذهنـه بـكل وضـوح أنهـا ليسـت ابنتـه. أُفضِّـل ألَّا أسـتفزَّه، ولكـن الأمـر مُقلِـق في الوقـت الحـالي. زوجتـي...".

"زوجتك؟".

"ظنَّـت زوجتـي في البدايـة أن الموقـف سيسـتمرُّ حتـى يعثر عـلى ابنته. توقَّعنـا كل يـوم أن يـأتي تقريـرٌ عـن العثـور عـلى طفلـة -ربمـا جثـة يُعثَر عليهـا في النهـر- ولكننـا انتظرنـا بـلا طائـل، ولم تـأتِ مثـل تلـك الأخبـار. بدأنـا نشـعر بالقلـق لأن الأمـر لا يـزال غـير محسـوم كل هـذا الوقـت، ولكـن هيلينـا تشـعر بالأسـف مـن أجلـه؛ كونهـا تعـرف جيِّـدًا كيـف يمكـن لفقـدان طفـل أن يكسـر القلـب. إنهـا تحتمـل زياراتـه المتكـرِّرة

لمنزلنـا، حتـى مـع أنهـا قـد تجـاوَزَت الحَـدَّ الـذي تتوقَّـع أن يصـل عنـده إلى أي شـعور باليقـين. لقـد تبخَّـرَت ابنتـه، وأخـشى أن في حالـة اليـأس التـي يُسـبِّبها حُزنُـه لا يسـتبعد أن تقنعـه مَكائِـدُ ذهنـه أن أميليـا (قفـز فـوق الحاجـز بنجـاح: كان أداؤه يتحسَّـن!)... أن أميليـا هـي بالفعـل ابنتـه. الحـزن قـوة عاتيـة، ومَـن يعـرف إلى مـاذا يدفـع الرجـل عندمـا يفقـد طفلـه؟ يميـل الرجـل إلى مختلـف أنـواع الظنـون مـا عـدا ظنـه أن طفلـه -طفلـه الوحيـد- قـد فُقِـدَ إلى الأبـد".

"لديـك فهـمٌ شـديد الدِّقَّـة لذهنـه وموقفـه يـا سـيد فـون. علينـا إذاً أن نختـبر حقائـق الأمـر؛ لأن الحقائـق هـي مـا يهـمُّ في القانـون، ونـرى مـا هـي قـوة قضيتـه مـن حيـث المبـدأ في حالـة تفكـيره في إعـلان ادِّعائـه؛ كي نسـتعدَّ لمـا قـد يـأتي. عـلى فكـرة، مـا قَـولُ الطفلـة نفسـها في الأمـر؟".

"لا شيء. إنها لم تتحدَّث".

هزَّ السيد مونتجمري رأسه بجدِّيَّةٍ كما لو أن الأمر طبيعيٌّ جدًّا.

"وقبل أن تؤخَذ من حضانتك هل كان لديها القُدرَة على الكلام؟".

هزَّ فون رأسه.

"وابنة السيد أرمسترونج... هل كان لديها القدرة على الكلام؟".

"نعم".

"فَهمـتُ. لا تشـعر بالإهانـة: تذكَّـرْ إن بَـدَا أني أعامـل أميليـا الصغـيرة عـلى أنهـا قطعـة مـن البضاعـة شَرَدَت عـن الأنظـار ثـم عـادت فهـذه هـي الطريقـة التـي تفرضهـا خـبرتي. هـذا مـا أعرفـه: تَحمِـل آخـر مـرَّة شُـوهِدَت فيهـا البضاعـة قبـل اختفائهـا، وأول مـرة شـوهِدَت فيهـا ثِقَـلًا كبـيراً. هـذا مـا سـيقول لنـا كل مـا يمكـن معرفتـه عَـن البضاعـة خـلال غيابهـا عـن الأنظـار. أخـذ هـذا مـع وصـف كامـل قـدر الإمـكان للبضاعـة

كـما كانـت مـن قبـل وكـما أصبحـت سـيكون كافيًـا بشـكل عـام لإلقـاء ضـوء لا بـأس بـه عـلى التخبُّـط كي نُحـدِّد الملكيَّـة حسـب القانـون".

استـمرَّ في إلقـاء عـدد مـن الأسـئلة. سـأل عـن أميليـا قبـل الخطـف، وسـأل عـن الظـروف التـي ضاعـت فيهـا طفلـة أرمسـترونج. سـأل عـن الظـرف الي وُجِـدَت فيهـا البضاعـة- قـال "أميليـا" أكـثر مـن مـرة بتأكيـد. سـجَّل كل شيء، وهـزَّ رأسـه.

"يبـدو عـلى وجـه التأكيـد أن طفلـة أرمسـترونج قـد تبخَّـرَت. هـذه الأشـياء تحـدث. طفلتـك ظهـرت مـن العـدم، وهـذا أكـثر غرابـة. أيـن كانـت؟ لمـاذا عـادت -أو أُعيـدَت- الآن؟ تلـك أسـئلة بـلا أجوبـة؛ لـذا يجـب علينـا الاعتـماد عـلى الأدِلَّـة. هـل لديـك صـور لأميليـا مـن قبـل؟".

"لدينا".

"وهل تشبه هذا الصور الآن؟".

هـزَّ فـون كتفيـه "أتصوَّر ذلـك... كـما تشـبه الفتيـات في عمـر الرابعـة أنفسـهن في عمـر الثانيـة".

"وهذا يعني...؟".

"ترى عين الأم أنها نفس الطفلة".

"ولكن عين أخرى؟ عين قانونية أكثر؟".

سـكت فـون، واسـتمرَّ مونتجومـري في بهجـةٍ كأنـه لم يلتقـط التوقُّـفَ "أفهـم تمامًـا مـا قلتـه بخصـوص الأطفـال. إنهـم يتغـيَّرون. صنـدوق مـن الجبنـة ضـاع يـوم الأربعـاء لا يتحـوَّل إلى نفـس الـوزن مـن التَّبـغ عندمـا يظهـر مـرَّةً أخـرى يـوم السـبت، ولكـن طفـل، أهـا! أمـرٌ آخـر كُلِّيًّـا. أفهـم مـا تقـول. ولكـن لـكي نكـون عـلى اسـتعدادٍ أَبـقِ الصُّـورَ آمِنـةً، واحتَفِـظْ بـكل شيء -كل تفصيلـة صغـيرة- تقـول لـك إنهـا أميليـا. هـي نفسـها أميليـا مـن عامـين. مـن الجيِّـد أن نبقـى مُسـتعدِّين".

استوعب وجه فون المتجهِّم وابتسم له بمرح. "ما عدا ذلك يا سيد فون فإن نصيحتي لك هي: لا تقلق من السيد أرمسترونج، وقُلْ للسيدة فون ألَّا تقلق هي أيضًا. مونتجومري وميتشيل سيتولَّيان أمر القلق نيابة عنكم. سنعتني بكل شيء لكم، ولأميليا؛ فهناك شيء واحد، شيء واحد عظيم يقف في صَفِّكم".

"وما هو؟".

"إن وصل الأمر إلى القضاء فستكون هذه القضية طويلة جدًّا وبطيئة جدًّا. هل سمعت عن قضية التامز بين التاج وشركة لندن؟".

"لا أظنُّ أني سمعتُ بها".

"إنه نزاع حول مَن منهم يملك التامز. يقول التاج إن الملكة تسافر فيه. إنه أساسي للدفاع عن الأمَّة؛ ولذا فالنهر من ممتلكاتها. وتُجادل شركة لندن أنها تمارس الولاية على حركة كلِّ أشكال البضائع المسافرة مع وضدَّ التيار؛ ولذا فلا بُدَّ أن تمتلك التامز".

"وماذا كانت النتيجة؟ مَن يمتلك التامز؟".

"إنهم يتجادلون منذ عشرات السنين، ولا يزال أمامهم على الأقل دستة من سنين! ما هو النهر؟ هل هو ماء. وما هو الماء؟ إنه مطر في الأساس. وما هو المطر؟إنه طقسٌ! ومَن يملك الطقس؟ السحابة التي تمرُّ فوق رؤوسنا الآن في هذه اللحظة أين ستسقط؟ على ضفَّة، أو أخرى، أو في النهر نفسه؟ السحاب تدفعه الريح التي لا يملكها أحدٌ، ويمرُّون فوق الحدود دون وثيقة مرور. قد يسقط المطر الذي تحمله الغيمة في أوكسفوردشاير أو بركشاير. لا نعلم، قد يعبر البحر ويسقط على الآنسات في باريس. وقد يكون المطر الذي يسقط في التامز قد سافر إليه من أي مكان! من أسبانيا أو روسيا أو... أو زِنزبار! إن كان لديهم غَيمٌ في زِنزبار. لا. لا يمكن أن نقول إن المطر مملوك لأي أحد،

سواء كانت ملكة إنجلترا، أو شركة لندن، كما لا يمكن أن نمسك بالبرق ونضعه في خزانة بنك، ولكن ذلك لن يمنعهم من المحاولة!".

كان على وجه مونتجومري لمحة طفيفة من المتعة. كان ذلك أقربَ شيء للتعبير رآه فون على وجهه.

"أقول لك هذا لأوضِّح كم يمكن أن تكون الإجراءات القانونية بطيئة. عندما يقرِّر هذا الأرمسترونج أن يدَّعي أُبوَّة الطفلة -إنْ فَعَلَ- تفاديًا للّجوء إلى المحكمة. ادفَعْ له ما يريده لحلِّ الأمر. سيكون ذلك أرخص بكثير. وإن لم يقبل بالمال فستجد راحتك في التاج ضدَّ شركة لندن. إن لم تستمرَّ القضية للأبد فعلى الأقل ستستمرُّ حتى تكبر الطفلة. البضاعة التي تحدَّثنا عنها، أي أميليا الصغيرة، ستصبح ملكًا لزوجها قبل أن يُقرِّر القانون أيًّا من الأبوين هو مالِكُها الحقيقي بكثير. أَرِحْ بالك!".

وقف فون على الرصيف في محطة أوكسفورد ينتظر قطاره، وبينما تتلاشى من ذهنه ذكرى مونتجومري انتقل بعقله إلى المناسبة الأخيرة التي كان فيها ينتظر القطار في نفس تلك البقعة. زار البلدة كي يقابل مشتريًا محتمَلًا لشريط السكة الحديدية الضيق الذي كان يستخدمه في نقل بنجر السكر من الحقل إلى المصفاة، ولاحقًا ذهب كي يبحث عن موقع بيت السيدة كونستانتين. وجده ودخله. تأمَّل في أمر نفسه. كان ذلك من فترة قصيرة -شهران؟- وحدث الكثير منذ ذلك الوقت. ماذا قالت له؟ لن تستطيع أن تستمرَّ هكذا. هذا هو. وقد شعر بذلك أيضًا... شعر في أعماقه أنها على حق. هل كان سيعود كما اقترحت عليه؟ بالطبع لا. ولكن... كما تكشَّفَت الأحداث فلم يحتَجْ أن يعود. رتَّبَت الأمورُ نفسها دون توقُّع -أو بمعجزة- وبسعادة عندما تُرِكَت لشأنها. كان بائسًا وتعيسًا لعامين، والآن -طالما يمكن التَّحكُّم في

أرمسترونج- لم يَعُد مُضطرًّا لذلك. قال له مونتجومري: "أَرِح بالك!"، وسيفعل.

وفي اللحظة التي قرَّر فيها أن ينسى السيدة كونستنتين تذكَّر وجهها فجأة. بدا أن عيونها تسبح عكس تيَّار كلماته وتدخل إلى ذهنه. إلى أفكاره نفسها... قالت له فهمت وكانت كأنها لم تفهم ما قاله فقط، ولكن ما لم يَقُله.

شعر وهو يتذكَّر الآن بلمسة محسوسة على عنقه من الخلف، واستدار مُتوقِّعًا أن يراها خلفه على الرصيف.

لم يكن هناك أحد.

قالوا له عندما وصل إلى المنزل: "السيدة فون تضع أميليا في سريرها".

دخل إلى غرفة الجلوس الصفراء حيث الستائر مُسدَلة والنار مشتعلة ولامعة في المدفأة. ظهرت مؤخَّرًا صورتان لأميليا مرة أخرى على المكتب الصغير الموضوع في تجويف في الحائط. في الأيام الأولى بعد اختفائها استمرَّت في التحديق فيهما من محبسها خلف الزجاج. روَّعَته نظرتها الشبحية بلمعة الزجاج، وأخيرًا، بعد أن عجز عن تَحمُّلها، وضع الصور منكَفِئةً في دُرجٍ، وحاول أن ينساهم. لاحقًا انتبه أن الصور لم تَعُد هناك، وتصوَّر أن هيلينا أخذتهم إلى غرفتها. كان قد توقَّف وقتها عن زيارة غرفة هيلينا. كان الحزن الليلي شيئًا يفعلونه على حِدة، كُلٌّ على طريقته، وكان واضحًا ألَّا شيءَ جيِّدًا سيأتي من دخول غرفتها لأي سبب آخر. الآن وقد عادت الفتاة عادت الصور أيضًا إلى مكانها الأصلي.

سمح لعيونه أن تنزلق عليهم، ونجح في فِعل ذلك دون أن يرى شيئًا. من على الجانب الآخر من الغرفة كانوا مجرَّد أشكال: صورة اعتيادية لأميليا جالِسةً، وصورة عائلية يقف فيها وتجلس هيلينا

وأميليا على حِجرها. اقترب وأخذ الصورة بين يديه وعيونه مغمضة استعدادًا للنظر إليها.

انفتح الباب "أنت في المنزل! حبيبي؟ ما الأمر؟".

أصلح من تعبير وجهه "ماذا؟ آه، لا، لا شيء. رأيت مونتجومري اليوم، وبينما كنت هناك ذكَرتُ بشكل عابر الموقف مع السيد أرمسترونج".

نظَرَت إليه بلا تعبير.

"تحدَّثنا عن إمكانية -إمكانية بعيدة- أن يَدَّعي قانونًا".

"بالطبع لا! عندما يجدون...".

"الجُثَّة؟ هيلينا... متى ستتخلين عن هذه الفكرة؟ لقد مضى شهران! إن لم يجدها أحد حتى الآن فما هو سبب الظن أنهم سيجدونها؟".

"ولكن هناك فتاة صغيرة غرقت! لا يمكن أن يختفي جثمان طفلة!".

ارتفع صدر فون مع أخذه لنَفَس حاد. تمسَّكَت به رئتاه. لم تكن تلك هي الطريقة التي أراد بها للحوار أن يجري. يجب أن يبقى هادئًا. زفر ببُطءٍ.

"ومع ذلك لم يعثر على جثمان. يجب أن نواجه هذه الحقيقة. ومن المتوقَّع -حتى أنت عليك أن تعترفي بأن ذلك مُمكِن- ألَّا يُعثَر على جثَّة". كان يسمع الحِدَة في صوته، وبذل مجهودًا أكبر كي يوقفها. "اسمعي يا عزيزتي، كل ما أعني قوله هو أن من الأفضل أن نكون مستعدِّين؛ إذ ربَّما...".

نظرت إليه وهي تفكِّر. لم تكن من عادته أن يكون حادًّا معها. "أنت لا تطيق فكرة فقدانها أليس كذلك؟". عبَرَت الغرفة ووضعت يدها فوق قلبه وابتسمت بحنان. "أنت لا تطيق فكرة فقدانها مرَّةً

أخرى. أوه يا أنتوني!". ملأت الدموع عينيها، وانسكَبَت "أنت تعرف. أخيراً تعرَّفتَ عليها".

همَّ بوضع الصورة من يده كي يعانقها. لفَتَت الحركةُ نظرها إلى ما كان يحمله وأوقفته.

أخذت الصورة من يده ونظرت إليها بحب.

"أنتوني. من فضلك لا تقلق. كل الأدلَّة التي نحتاج إليها هنا"، ورفعت نظرها إليه باسِمةً. كانت تديرها في يديها كي تعيدها إلى الطاولة عندما انفلتت صيحة من شفاهها.

"ما الأمر؟".

"هذا!".

نظر إلى حيث تشير، خلف الإطار "يا إلهي!".... "هنري دونت من أوكسفورد، صور، مناظر طبيعية، مشاهد من المدن والريف...". قرأ بصوتٍ عالٍ من على الملصق. "إنه هو! الرجل الذي وجدها!".

"لم نكن سنتعرَّف عليه وهو مغطًّى بالكدمات والتَّورُّم. يا للغرابة! لنعود إليه. لقد التقط صورًا أخرى. هل تتذكَّرين؟ لن نأخذ سوى أفضل اثنتين ولكن كانت توجد اثنتان أخريان. قد يكونوا لا يزالون معه".

"كنَّا سنأخذهم إن كانوا جيِّدين بالتأكيد".

"ليس بالضرورة"، وأعادت الصورة إلى الطاولة. "قد لا تكون الصورة الأفضل من جميع النواحي هي الأفضل لوجهها. ربما أكون أنا مَن تحرَّكتُ" -رقصت في استعراض فوري مُبالَغ فيه- "أو أنك كنت تصنع تعبيراً مُضحِكًا". شكَّلَت أصابعها شفاهه في ابتسامة معوَجَّة. بذل جهدًا كي يبادلها نوع الضحك الذي يستحقُّه مرحها. ختمت برضا "ها أنت

تبتسم مرة أخرى. سيكون من الأفضل إذًا أن نحصل عليهم جميعًا، أليس كذلك؟ احتياطيًا. أنا واثقة أن السيد مونتجومري سيوافقني".

هزَّ رأسها.

وضعت ذراعًا متدلِّيةً حوله وفرَدَت أصابعها تحت عظمة كتفه. شعر بكل إصبع على حدَة، وبالجزء اللحيم تحت إبهامها. لم يكن قد اعتاد على لمستها مرة أخرى: أرسلت قشعريرة عبر جسمه، حتى عبر طبقات من الصوف والبوبلين.

"وبما أنه هنا، لِنَطلُبْ منه أن يلتقط صورًا جديدة".

رفعت يدها الأخرى إلى مؤخِّرة عنقه. شعر بإبهامٍ يتجوَّل حتى البوصة من الجلد التي تقع بين قِمَّة ياقته وخَطِّ شَعره.

قبَّلها، وكان فمها طريًّا ونصفَ مفتوح.

"أنا سعيدة جدًّا" همهمت وهي تميل نحو جسده. "إنه الشيء الذي انتظرته. الآن نحن معًا مرَّةً أخرى حقًّا".

أطلق صوتًا، أنينًا ضعيفًا على شَعرها.

همَسَت "طفلتنا الصغيرة نائِمة نومًا عميقًا. فكَّرتُ في أني قد أنام مبكِّرةً أنا أيضًا".

دفن أنفه في عنقها واستنشق وقال: "نعم"، ومرَّةً أخرى "نعم".

الحكاية تزدهر

في الأسـابيع التاليـة لانتشـال الفتـاة المجهولـة مـن التامـز -ميِّتـةً أوَّلًا ثـم حيَّـة- شـهد ذا سـوان ازديـادًا ممتـازًا في أعمالـه. انتـشرت القصـة عـبر الأسـواق ونـواصي الشـوارع. رُدِّدَت في الخطابـات العائليـة مـن الأم إلى ابنتهـا، ومـن ابـن العـم لابـن عمِّـه. نُقِلَـت بأريحيَّـةٍ للغُرَبـاء، عـلى أرصفـة المحطـات صادَفَهـا المتجوِّلـون عَرَضًـا عنـد النـواصي. حـرص كلُّ شـخصٍ سَـمِعَها عـلى أن يحكيهـا في أي مـكان يرغـب فيـه، حتـى لم يبـقَ أحـدٌ لم يسـمع بنسـخة أو أخـرى منهـا عـلى مسـافة ثـلاث مقاطعـات. لم يقتنـع الكثـير منهـم، حتـى زاروا الحانـة التـي حدثـت فيهـا تلـك الأحـداث الاسـتثنائية، ورأوا بأنفسـهم ضفَّـة النهـر، حيـث وُجِـدَت الطفلـة والغرفـة الطويلـة التـي وُضِعَـت بهـا.

قـرَّرَت مارجـو أن تفتـح الغرفـة الصيفيـة. نظَّمَـت أن تـأتي بناتهـا في أزواج للمسـاعدة في العمـل الزائـد، واعتـاد الزبائـن الدائمـون عـلى وجـود

"المارجوات" الصغيرات. بالرغم من إلحاح چوناثان على أمِّه وأخواته أن يسمعوه وهو يتمرَّن على الحكي، إلَّا أنه نادرًا ما كان لديهم الوقت كي يتوقَّفوا ويسمعوه؛ لأن النداءات المطالِبَة بوقتهم وانتباههم كانت لا نهائيَّة. تنهَّد "لن أتحسَّن أبدًا"، وتحرَّكت شفاهه بينما يتدرَّب وحده بصوتٍ عالٍ، ولكنه ارتبك أكثر وأكثر، واضِعًا النهاية عند البداية، والبداية في الوسط... حسنًا، كاد الوسط ألَّا يوجد إطلاقًا.

أشعل جو النار في الحادية عشرة صباحًا، وبقيت مُوقَدةً حتى منتصف الليل عندما بدأ تدفُّق الشَّارِبين إلى الغرفة يَقلُّ. كاد الزبائن الدائمون لا يشترون لنفسهم مشروبًا لأسابيع طويلة؛ لأن الزائرين يدفعون للجميع مقابل الحكايات. تمرَّنوا مع الوقت على توفير أصواتهم؛ لأنه إذا جَرَت الأمور وفق رغبة الزائرين فسيدخل كلُّ رجُلٍ شَهِدَ الوقائع إلى الغرفة الصيفية يدور على الطاولات ويتحدَّث بلا انقطاع. ولكن كما قال مزارع الجرجير العجوز عن حَقٍّ: لن يترك ذلك وقتًا للشراب؛ فنظَّموا جدولًا يدخل على أساسه الزبائن الدائمون إلى الغرفة الصيفية أزواجًا لمدة ساعة من الحكي ثم يعودون إلى مقاعدهم في الغرفة الشتوية ليطفئوا ظَمأهم، ويُستبدلون باثنين آخرَيْن.

صاغ فريد هيفنز قصَّةً هزليَّة من جانبه من الأحداث، والتي انتهت بجملة "قال الحصان لا!". تُستَقبَل نسخة ملتوية من الأحداث مثل نسخته استقبالًا جيِّدًا بعد العاشرة عندما تكون حقائق القصة قد حُكِيَت عشرات المرَّات، والسامعون سكارى. منحته أيامًا عدَّة يستيقظ فيها بآثار السُّكر، وكثيرًا ما يتأخَّر على عمله، حتى إنه هُدِّد بالفصل.

بدَّل نيومان -بستانيُّ آل فون، الذي كان سابقًا زبونَ حانة ريد ليون حيث يغنِّي كلَّ يوم جمعة حتى يبحَّ صوته- ولاءه إلى ذا سوان،

حيث بدأ يُجرِّب لسانه في الحكي. تمرَّن على الزبائن الدائمين قبل أن يُجرِّب حظَّه مع الزائرين في الغرفة الصيفية، واستفاد بشدَّة من جانب القصَّة الذي شَهِدَه وحده: مغادرة السيدة فون من بوسكوت لودج عند سماعها خبر إنقاذ الطفلة.

"رأيتها بنفسي حقًّا. ركضت حتى مرسى القوارب بأقصى سرعة، وعندما خرَجَت في قاربها ذي المجاديف -القارب الصغير الذي تملكه- وانطلقت مُسرِعَةً كالأرنب عكس التيار. لم أرَ في حياتي قاربًا يتحرك مثله".

سأل أحد عمَّال المزارع "تُسرِع عكس التيار؟".

"نعم، وهي فتاة هزيلة! لا يمكن أن تتصوَّر أن امرأةً تستطيع التجديف بهذه السرعة".

"ولكن... لقد قُلتَ "مسرعة كالأرنب"".

"هذا حقيقي. أعني أنها سريعة مثل أرنب".

"أعلم ما تعنيه جيِّدًا. ولكنك لا تستطيع أن تقول "تُسرِع مثل أرنبٍ عكس التيَّار"".

"لِمَ لا؟".

"هل رأيتَ أرنبًا يقود قاربًا؟".

انطلَقَت ضحكات أدهشت البستاني وأربكته. "أرنب في قارب؟ لا تكُن أحمقَ!".

"لهذا لا تستطيع أن تقول "أسرَعَت كالأرنب عكس التيار". إن كان الأرنب لا يستطيع أن يسرع عكس تيار النهر، فكيف يُمكِن للسيدة فون أن تفعل ذلك؟ فكِّرْ في الأمر".

"ما الذي يجب عليَّ قَولُه إذًا؟".

"يجب أن تُفكِّر في كائنٍ يتحرَّك بالفعل سريعًا عكس تيار النهر وتقول ذلك. ألا يجب عليه التَّصرُّف هكذا؟".

هزَّ الجميع رؤوسهم.

"ما رأيكم في القندس؟" اقترح بحَّارٌ شابٌ يعمل على صندل "إنهم لا يتلكَّؤون".

اكتسى وجه نيومان بتعبير مُتشكِّك "السيدة فون أسرعت كالقندس عكس تيار النهر...".

هزَّ عاملُ المزرعة رأسه "ليست أفضل".

"بل تبدو أسوأ قليلًا...".

"حسنًا، ما الذي عليَّ قَولُه إذًا؟ إن كنت لا أستطيع قول "كالأرنب" ولا "كالقندس"...؟ يجب أن أقول شيئًا".

"حقًّا..." قال البحَّار، وهزَّ ثلاثي الحفارين رأسهم "يجب أن يقول الرَّجلُ شيئًا".

استداروا نحو أوين ألبرايت الذي شاركهم في حكمته "من وجهة نظري عليك أن تبحث عن طريقة مخلتفة كلِّيًّا. يمكن أن تقول "جدَّفَت عكس التيار بأقصى سرعة"...".

احتجَّ عامل المزرعة "ولكنه قال ذلك بالفعل. ركَضَت حتى مرسى القوارب بأقصى سرعة. لا يمكن أن تركض بأقصى سرعة نحو مرسى القوارب ثم تجدِّف بأقصى سرعة عكس تيار النهر".

صحَّح له نيومان "ولكنها فعَلَت ذلك فعلًا".

"لا!".

"فعَلَت! أنا كنتُ هناك! رأيتها بعيوني!".

"نعم، قد يكون ذلك حدث فعلًا، ولكن لا يمكنك أن تحكيه هكذا!".

"لا أستطيع أن أحكيه كما حدث؟ كيف وصلت إلى هذه النتيجة؟ بدأت أتمنَّى لو لم أَقُل شيئًا على الإطلاق. حَكيُ الشيء أصعب ممَّا كنتُ أدرك".

قال ألبرايت مُهدِّئًا: "إنه فَنٌّ. ستتمكَّن منه".

"لقد وصلت إلى عمر السابعة والثلاثين وأنا أفتح فمي وأخرج منه الكلمات ولم أواجه أي مشاكل في الأمر حتى الآن. إلى أن جئت وجلست هنا. لا أعرف إن كنت أرغب في إجادتها. لا سأستمرُّ بالطريقة القديمة: كلماتي ستخرج كما أريد، وإن كنتُ أقول إنها أسرَعَت كالأرنب عكس التيار فحسنًا ستكون أرنبًا. وإلا لن أقول أي شيء".

تبادلوا نظراتٍ قَلِقَة عبر الطاولة، وتحدَّث أحد حفَّاري الحصى نيابة عن الجميع: "دعوا الرجل يتكلم. لقد كان هناك".

وسمح لنيومان باستكمال حكايته عن مغادرة السيدة فون للمنزل بكلمات من ابتكاره. لم يتدرَّب نيومان وهيڤينز وحدهما على قصصهما ويحسِّنا منها. حكى الجميع نسخهم من القصة مرَّةً تلو الأخرى لبعضهم البعض وللزُّوَّار، وظهرت تفاصيل جديدة. قورِنَت الذكريات وصدرت أحكام. كان هناك مجموعات منشقَّة. البعض تذكَّر "حقيقة" أن الريشة وُضِعَت على شفاه الطفلة قبل أن تؤخذ إلى الغرفة الطويلة. آخرون صمَّموا أن أنفاس الرَّجُل فقط هي التي اختُبِرَت. قُدِّمَت افتراضاتٌ مختلفة وممتدَّة لشرح كيف تمكَّن هنري دونت من الوصول من ديڤيلز وير إلى رادكوت بينما هو غائب عن الوعي في قارب مُحطَّم. هُذِّبَت القصة وصُقِلَت وحُدِّدَت اللحظات التي ستجلب الدموع إلى العيون إذا وُضِعَت عندها إيماءاتٌ مناسبة وأُدخِلَت وقفاتٌ تضع الجمهور على أطراف أصابعهم. ولكنهم لم يجدوا أبدًا نهايةً للقصة. وصلوا إلى نقطة -مغادرة الطفلة لذا سوان

مـع السـيد والسـيدة فـون- تَخفُـت عندهـا القصـة. يسـأل أحدهـم "هـل هـي أميليا فـون أم هـي الأخـرى؟"، و"كيـف كانـت ميِّتـةً أوَّلًا ثـم حيَّـة؟".

لم توجد إجابات.

بخصـوص السـؤال الأول -مَـن هـي الفتـاة؟- كانـت الآراء في مُعظَمهـا تميـل إلى أنهـا تخـصُّ آل فـون. عـودة طفلـة فُقِـدَت لسـنتين، طفلـة رأوهـا جميعًـا، كانـت قصّـةً أكـثر إرضـاء مـن قصـة عـودة طفلـة لا يعرفهـا أحـدٌ فُقِـدَت في اليـوم السـابق. اللغـز الأحـدث أحيـا اللغـز الأوَّل، وحُكِيَـت قصـة الخطـف كـما لـو أنهـا حدثـت بالأمـس.

"أين كانت إذًا طوال -كما كان الوقت؟- عامَين؟".

"لا بُدَّ أن تستعيد صوتها وتبدأ في الحكي. أليس كذلك؟".

"ثم تبدأ المشاكل لمن أخذها".

"كانت المربِّية. أراهن بأجر أسبوع على ذلك. هل تتذكَّرونها؟".

"الفتاة روبي التي خرَجَت في الليل؟".

"هـذا هـو مـا تقولـه. تتمـشَّى بجـوار النهـر في الليـل. أسـألك! أي نـوع مـن الفتيـات يتجوَّلـن بجـوار النهـر في منتصـف الليـل؟ وعنـد الانقـلاب الشـتوي أيضًـا".

"والانقـلاب هـو وقـت تواجُـد غَجَـر النهـر. لقـد دبَّـروا الأمـر معهـا. هكـذا جَـرَت الأمـور. روبي والغجـر. اذكـروا كلـماتي. عندمـا تبـدأ تلـك البنـت الصغـيرة في الـكلام سـيقع شـخصٌ مـا في مشـاكل...".

كان لقصَّـة الفتـاة المخطوفـة وقصـة الفتـاة التـي عُـثِر عليهـا نهايـات متلاشـية، ولكـن إن كان بالإمـكان غـزل تلـك النهايـات المتلاشـية معًـا فسـيمكن تقريـب القصَّتَـيْن مـن الكـمال، وهـو شيء جيـد.

أمَّا عن السؤال الثاني فقد تسبَّب في سجالاتٍ أطول وأكثر سُكرًا.

بالنسبة للبعض فإن العالم أمرٌ مُلغِز، حتى إنهم يتعجَّبون لأمره دون الحاجة إلى تفسيره. بالنسبة لهم فإن الدهشة أساسيَّة من أجل الوجود. هيجز حفَّار الحصى كان أحد هؤلاء الناس. راتبه الذي كان في ليلة الجمعة يكفي لأسبوعٍ عادةً ما ينفد بنهاية يوم الثلاثاء. دائمًا ما يكون مدينًا بثمن أكوابٍ من البيرة أكثر ممَّا يتذكَّر استهلاكها. زوجته التي لا يضربها سوى ليلة السبت -وليس دائمًا- هربت بلا سبب على الإطلاق كي تعيش مع ابن عم بائع الجبنة. الوجه الذي يراه منعكسًا في النهر عندما يجلس بكآبةٍ يُحدِّق فيه بلا خبز في بطنه ولا بيرة تُخفِّف الجوع ولا زوجة لتدفئه- كان وجهَ والده لا وجهه. الحياة لغز إن نَقَّبتَ تحت السطح ولو قليلًا، والمسببات والنتائج كثيراً ما تتبعثر بعيدًا عن بعضها البعض. استمدَّ العزاء من تأمُّل قصة الفتاة التي ماتت ثم عاشت مرَّةً أخرى لأنه تَبيَّن أن لا طائل من محاولة فهم أي شي.

اخترع بعض الحَكَّائين تفاصيلَ، إمَّا خيالًا، أو ليقدِّموا ردًّا أكثر إقناعًا على هذا السؤال. لأحد بحَّارة الصنادل أخٌ، كان مع امرأةٍ ليلةَ الحدث الكبير. أحبط في البداية بسبب ما فاته، ولكنه لاحِقًا حوَّل الأمور لصالحه، وطوَّر نسخته التي استفادت من غيابه عن الحانة وتضمَّنَت ارتياح التفسير المنطقي "لم تكن ميِّتةً على الإطلاق! إن كنتُ رأيتُها كنتُ سأقول لهم ذلك. المسألة كلها في العينين. كل ما عليك فعله هو النظر داخل عيون الرَّجُل لتعرف إن كان ميِّتًا أم لا. إن النظر هو ما ينطفئ فيهم".

انتبهوا، وأصغت آذانهم عند سماع ذلك، وارتفعت رؤوسهم بحدَّة. كانت الطريقة المثلى لتهدئة التَّوتُّر إن كنت واحدًا من الناس الذين لا يطيقون ثغرةً فاغرة في حكايةٍ أو نقطة غير منطقية أو واقع طاله خطأ ما. انجذب حكَّاء أو أكثر للأمان الذي تُوفِّره هذه النسخة، وبدأت نُسَخُهم تتحوَّل في نفس اتجاهها، فقال أحدهم على سبيل

التجربـة: "جـيء بهـا إلى الحانـة وهـي تـكاد لا تتنفَّـس"، ولكـن ذلـك تسـبَّب في نظـرات اسـتنكار والتـواءات في الفـم، إلى درجـة أن الحَـكَّاء كان يؤخـذ جانِبًـا كي يؤنِّبـوه. كان هنـاك مقاييـس في ذا سـوان: حَـكْيُ الحكايـات مسـألةٌ، والكـذب مسـألة أخـرى وقـد كانـوا جميعًـا هنـاك. كانـوا يعرفـون.

بعـد مُـضيِّ شـهور مـن الحـكي وإعـادة الحـكي لا زال لا يوجـد أي إحسـاس بـأن القصـة تسـتقرُّ. عـلى العكـس، فـإن قصـة الفتـاة الغارقـة التـي عاشـت مـرة أخـرى كانـت مُلغِـزَةً وغـير مكتملـة، تنحـرف عـمَّا يجـب أن تكـون عليـه القصـة. في ذا سـوان تحدَّثـوا عـن آل فـون، وتحدَّثـوا عـن آل أرمسـترونج، وتحدَّثـوا عـن المـوت، وتحدَّثـوا عـن الحيـاة. فحصـوا مَواطِـنَ القـوة والضعـف في كل ادِّعـاء وكلِّ مُـدَّعٍ. قلَّبـوا القصـة مـن جميـع الجوانـب. قلبوهـا عـلى رأسـها ثـم عدلوهـا مـرة أخـرى، وفي النهايـة، لم يقتربـوا عـمَّا كانـوا عليـه في البدايـة.

قـال بسـزانت في إحـدى الليـالي: "إنهـا مثـل حسـاء العظـام. رائحتـه تملأ فمـك باللعـاب، وكل النكهـة المُركَّـزة في النخـاع، ولكـن لـن يكـون هنـاك شيء لتمضغـه، وحتـى لـو أخـذت سـبعة أطبـاق منهـا فسـتبقى جائِعًـا في النهايـة، كـما كُنـتَ عندمـا جلسـت إلى المائـدة".

كان مـن الممكـن أن يتركـوا المسـألة. كان مـن الممكـن أن يتخلَّـوا عنهـا كواحـدة مـن تلـك القصـص التـي تـأتي مـن الـلَّا مـكان وليـس لديهـا مـكان تذهـب إليـه. ولكـن عنـد نهايـة الجُمَـل وبـين الكلـمات، عندمـا تخبـو الأصـوات وتتوقَّـف الأحاديـث، في الهـدوء العميـق الـذي يقبـع خلـف كل الحـكي، هنـاك، تطفـو الفتـاة نفسـها. رأوهـا ميِّتـةً هنـا في هـذه الغرفـة وفي هـذه الحانـة، ورأوهـا حيَّـةً. برغـم أنهـا عَصِيَّـة عـلى المعرفـة، وعَصيَّـة عـلى الاسـتيعاب، وعصيَّـة عـلى التفسـير- إلَّا أن شـيئًا واحـدًا كان واضحًـا: كانـت هـي قصَّتَهـم.

الغَدُ

على بُعد خمسة وعشرين ميلًا في اتجاه سريان النهر، وفي أشهر ساحات بناء القوارب في أوكسفورد، خربش صانع القوارب بنفسه شخبطة محبرة على فاتورة الاستلام النهائية، وهزَّ رأسه وهو يدفع مفاتيح نحاسية لامعة عبر رفٍّ الخزينة. انغلقت يد هنري دونت فوقهم.

حرَّك دونت الأمور فور رجوعه إلى المدينة بعد تجربته الحافلة يوم الانقلاب الشمسي. أجَّر المنزل الذي عاش فيه قبل وفاة زوجته وانتقل إلى غرفة في عليِّة فوق محلِّه في شارع بوند، وهناك استمتع بحياة عازب متقشِّف ممتلكاتُه سريرٌ وإناء تَبوُّل وطاولة عليها إبريق ووعاء. كان يأكل وجباته في محلٍّ الشواء المجاور، وقد استثمر مبلغ الإيجار وكل بنس من ماله في هذا القارب؛ فقد كان عند دونت خطَّة.

جدَّد ذهنه خلال فترة غياب الوعي بين اليوم الأطول واليوم التالي له، وفي السرير في ذا سوان خطَرَت له فكرة جديدة رائعة، فكرة تمزج في مشروع واحد بين اثنين من أكثر الأشياء التي يحبُّها: التصوير والنهر. سيُعدُّ كتاب صور فوتوغرافية سيصحب القارئ في رحلة من منبع التامز حتى المصبِّ -أو ربما حتى لندن فقط- ولو أنه في الحقيقة قد يضطرُّ أن يضعه في عدَّة مُجلَّدات، وقد يصل الأول من توانزبري ميد حتى أوكسفورد فقط. الأساس هو أن يبدأ. كي يفعل ذلك يحتاج إلى أمرين: وسيلة انتقال وغرفة تحميض متنقِّلة. يمكن للشيئين أن يصبحا شيئًا واحدًا. قام بزيارته الأولى إلى صانع القوارب كي يشرح له ما يحتاجه بينما وجهه لا يزال درجات من الأخضر والأسود والبنفسجي، مع خيطٍ أحمر ممتدٍّ من خدِّه حتى شفته. وبينما يفعل ذلك، هناك في ساحة بناء السُّفن قارب يكاد ينتهي بناؤه، لم يستطع الزبون دفع قسطه الأخير. طابق القارب رغبات دُوِّنت ولم يحتج سوى إنهائه وتجهيزه ليلبِّي احتياجاته. واليوم بعد ما يقارب من ثلاثة شهور كان لبشرته لون الصحة المعتاد، وللندبة خَطٌّ ورديٌّ بزَوجٍ من النقاط التي تكاد تكون خفيَّةً، حيث كانت الخياطة. وفي يده مفاتيح استثماره.

قوبِل دونت وقاربه بالفضول بطول سريان النهر. كان دهانها الكحلي والأبيض الأنيق ومعدَّاتها المصنوعة من النحاس وخشب الكرز سببًا كافيًا، ولكن كان لقاربه أيضًا ابتكارات لم تُشاهَد من قبل.

قال مَن يستطيعون القراءة: "كولوديون؟ ما هذا الاسم؟". أشار إلى اللون البرتقالي المصفَرِّ للإطار المزركش حول اسمه ومهنته المدهون على جانب القارب. هذا هو لون الكولوديون. إنه قاتل. شهدته يشتعل -وينفجر أيضًا- بلا إنذار على الإطلاق. وإن استنشقت الكثير منه فالويل لك! ولكن إن وضعته على الزجاج وعرَّضتَه للضوء -آها!

عندهـا- سـيكون لديـك سـحر! الكولوديـون هـو المُكـوِّن الـذي يفتـح أبـواب كل فنـي وكل علمـي. لا يوجـد مـا يسـمَّى الفوتوغرافيـا بدونـه!".

"ومـا كل هـذا إذًا؟". ينـادي النـاس عـبر المـاء ويشـيرون إلى الكوابيـل والصناديـق المثبَّتـة بنظـامٍ عـلى الجـزء الخارجـي مـن المقصـورة فيـشرح أن هـذه هـي أدوات التصويـر.

"وهـذه الآلـة؟". يريـدون أن يعرفـوا. كانـت العربـة المثبَّتـة على سـقف المقصـورة مُلوَّنـةً لتُناسِـب القارب.

"هـذه للتنقُّـل عـلى الـبر. وهـذا الصنـدوق هنـا يعمـل أيضًـا كقاطـرة لأتمكَّـن مـن نقـل عـدَّتي إلى أي مـكان أرغـب أن أذهـب إليـه عـبر الطريق".

لاحظ دقيقو الملاحظة أنه هناك شيش داخلي بالإضافة إلى الستائر.

شرح لهـم "هـذه غرفـة التحميـض؛ لأن شـعاع ضـوءٍ واحـدًا كافٍ لتدمير صـورة فوتوغرافيـا خـلال صناعتها".

توقَّـف كثـيراً مـن أجـل أحاديـث مـن هـذا النـوع، ووزَّع بطاقـات عمـل كثـيرة، وأخـذ مواعيـد كثـيرة في دفـتر يوميَّاتـه، حتـى إنـه تصوَّر عند وصولـه إلى بوسـكوت ورادكـوت أن كولوديـون عـلى وشـك جَنـيِ تكلفتهـا بالفعـل. ولكـن كان عليـه دفـع ديونـه قبـل أن يبـدأ المرحلـة الجديـدة مـن عملـه: لقـد أتى ليشـكر النـاس الذيـن يديـن لهـم بحياتـه. لقـد أتى إلى ذا سـوان ومـن قبلهـا إلى هـذا المـكان.

كانـت بُقعـةً هادئـة عـلى النهـر حيـث يوجـد كـوخ أنيـق. كان الحديقة مُرتَّبـة، والبـاب الأمامـي مدهونًـا بالأخـضر، ويرتفـع الدخـان مـن المدفـأة. عـلى بُعـد حـوالي عشريـن يـاردة يوجـد مـكان جيِّـد لربـط القـارب. ربطـه وعـاد يخبـط يديـه في قفازاتهـا معًـا كي يبقيهـما دافئتـين، ودقَّ البـاب.

انفتـح البـاب ليظهـر حاجبـان متناسـقان فـوق أنـف مسـتقيمة تحيـط بهـما زوايـا مميَّـزة تُكـوِّنُ فـكًّا وخدَّيـن وصدغـين.

"الآنسـة سـنداي؟" لم يكـن قـد تخيَّـل هـذا... تحـرَّك حركـة طفيفـة جانبًـا يملـؤه الفضـول أن يـرى هـل يتغيَّر سـقوط الضـوء مـع تَغَـيُّر الزاوية، ورأى الظـل يفيـض عـلى مُسـطَّح خَدَّيهـا. شـعر بالإثـارة تُحرِّكـه.

"السيد دونت!".

خَطَـت ريتـا إلى الأمـام ورفعـت وجههـا نحـو وجهـه بتعبـيرٍ حـادٍّ كـما لـو كانـت عـلى وشـك تقبيلـه، ولكنهـا لم تُلـقِ سـوى نظـرة مُدرَّبـة تقيِّـم ندبَتَـه، ثـم وضعـت طـرف إصبعهـا عـلى جِلـدِه، وتتبَّعَـت الندبـة كي تفحـص ارتفاعهـا. هـزَّت رأسـها وقالـت: "جيـد" بحسـمٍ، وخَطَـت إلى الخلـف.

انشغل ذهنه بأمور بصرية، ولكنه أخيرًا تمكَّن من النُّطق.

"أتيتُ كي أشكرك".

"لقد شكرتَني بالفعل".

كان ذلـك حقيقيًّـا. لقـد أرسـل مـالًا وشـكرها في خطـاب عـلى عنايتهـا بـه، وطلـب معلومـات عـن الطفلـة التـي ماتـت وعاشـت مـرة أخـرى. ردَّت بخطـاب نموذجـي في وضوحـه تشـكره عـلى المـال، وتقـول لـه مـا تعرفـه عـن تَقـدُّم حالـة الطفلـة. كان مـن الممكـن أن تكـون تلـك هـي نهايـة الأمـور، ولكـن تلـك المـرأة التـي كانـت لا تـزال لغـزًا بصريًّـا بالنسـبة لـه كانـت لا تـزال تشـغل ذهنـه لأن مسـاعده أتى ليأخـذه ويعيـده إلى المنـزل بينـما عيونـه لا تـزال منتفخـة ومغلقـة. خطـر لـه أن النـاس في ذا سـوان قـد يقـدِّرون صـورة مجَّانيَّـة كتعبـير عـن شـكره لضيافتهـم، وأنـه مـن الطبيعـي تمامًـا أن يـزور الممرِّضـة في نفـس الوقـت.

قال: "تصوَّرتُ أنك قد تُحبِّين صورة. كهدية للشُّكر".

قالـت لـه بصـوتٍ هـادئ يتذكَّـره: "لقـد اخـترتَ يومًـا سـيئًا لتـأتي. أنـا مشـغولة".

لاحَظَ بُقعَةً من الظِّلّ على جانب أنفها، وكتم رغبة في أن يجعلها أكثر إظلامًا، بأن يمسك برأسها بين يديه ويميلها قليلًا. "الضوء أجمل من أن نضيِّعَه".

قالت: "ولكني كنتُ أنتظر درجة الحرارة المناسبة. اليوم هو اليوم. لا أملك أن أضيِّعه".

"ما الذي تحتاجين فِعلَه؟".

"تجربة".

"كم ستستغرق؟".

"ستِّين ثانية".

"أحتاج إلى خمس عشرة. إذا بحثنا جيِّدًا سنستطيع بالتأكيد أن نجد خمسًا وسبعين ثانية في اليوم".

"أتصوَّر أن الخمس عشرة ثانية التي تخصُّك هي زمن التَّعريض الضوئي؟ ماذا عن التحضير؟ والتحميض؟".

"أنتِ تساعدينني وأنا أساعدك. سنعمل بشكل أسرع معًا".

أمالت رأسها جانبًا ونظرت إليه لتُقيِّمَه.

"أنت تعرض عليَّ مساعدتي في تجربتي؟".

"نعم. في مقابل صورة". تحوَّلَت الصورة التي خلقت فِكرَتَها كهدية لها إلى شيء يريده لنفسه.

"هذا ممكن. بل إنه مُفضَّل. ولكن ما إن كنتَ تريد أن...".

"أريد".

نظَـرَت إليـه، وقـال لـه تَغـيُّرٌ طفيـف في سـهول وجهها إنهـا تكتـم ابتسـامةً. "إذًا سـتكون موضـوع تجربتـي إن وافقـت أن أكـون موضـوعَ صورَتِـكَ- هـل هـذا صحيـح؟".

"نعم، صحيح".

"أنـت رجـلٌ شـجاعٌ وأحمـق يـا سـيد دونـت. أنـه اتفـاق. هـل نبـدأ بالصـورة؟ سـيتذبذب الضـوء بينـما إن تذبذبـت الحـرارة فلـن تختلـفَ كثـيراً".

كانـت غرفـة جلـوس ريتـا صندوقًـا مدهونًـا بالأبيـض، بـه أَرفُـف كُتُـبٍ كثـيرة ومقعـدٌ أزرق. حملـت طاولـة خشـبية بسـيطة بجـوار النافـذة المزيـد مـن أكـوام الكتـب وحزمًـا مـن الأوراق المغطَّـاة بكثافـة بخـطٍّ رشـيق وطليـق. سـاعدت في نقـل صناديـق إلى كولوديـون وراقَبَتـه باهتـمام وهـو يقـوم بالتجهيـزات. عندمـا أصبـح كل شيء جاهـزاً أجلـس ريتـا عـلى طاولـة وخلفهـا حائـط بـلا ملامـح.

"ميلي نحوي... جرِّبي وضع ذقنك فوق قبضتك. نعم هذا هو".

لم يكـن هنـاك أي رتـوش مـن أي نـوع. لم تكـن هنـاك حاجـة إلى أيٍّ منهـا. لم يوجـد سـوى اتِّسـاق المسـار حيـث يقابـل صدغهـا خَـطَّ شَـعرِها والقـوس الواضـح لحاجبهـا، والظِّـل الـذي يتجمَّـع في مدارهـا وعمـق عيونهـا المفكِّـرة.

"لا تتحرّكي بينما أعدُّ".

جلسـت بـلا حـراكٍ لخمـس عـشرة ثانيـة، وتأمَّلهـا هـو مـن خـلال العدسـة.

أفضـل صـوره الشـخصية -أقربهـا إلى الحقيقـة الحيَّـة- كانـت لأشـخاصٍ شـخصيَّاتُهم في الحقيقـة هادئـة، ويتحرَّكـون ببطـء مـن حـال إلى حـال.

عـادةً تَختَـزِل الكامـيرا الأرواح الحيويّـة: يهـرب جوهرهـم مـن العدسـة، وكل مـا تلتقطـه هـو دُميَـة شـمعية بـلا بريـق.

لم تُبدِ ريتـا أيًّـا مـن التحديـق الأبلـه أو الرَّمـش المتوتّـر الـذي عـادةً مـا يبـدو عـلى المبتدئـين. بـدلًا عـن ذلـك فتحـت عيونهـا أمـام الكامـيرا باتّـزان كامـل. رأى مـن تحـت غطائـه فكـرةً حَيَّـةً تمـوج وتـلي غيرهـا في حركـة لا نهائيـة مُتبدِّلـة، بينـما تبقـى عضـلات وجههـا ثابتـة طـوال الوقـت. بنهايـة الثـواني الخمـس عـشرة عـرف أن تلـك ليسـت صـورةً واحـدة. هـذه هـي آلاف الصـور.

بنهايـة الخمـس عـشرة ثانيـة قـال: "تعـالي"، وهـو ينـزع اللَّـوح المحمـي مـن الشَّـمس داخـل حافظتـه. "أريـد أن أُريَـكِ كيـف تعمـل".

شـقُّوا طريقهـم سريعًـا إلى كولوديـون. كان يحمـل اللـوح بحـرصٍ، ولم تحتـج هـي إلى مسـاعدة كي تصعـد. حجـب الشـيشُ النَّهـارَ تمامًـا في المقصـورة. أضـاء شـمعةً، ووضـع فوقهـا غطـاءً زجاجيًّـا أحمـر، ثـم أغلـق البـاب. أنـارت لمعـةٌ حمـراء المسـاحة الصغـيرة. وقفـوا متجاوريـن مُسـيَّجَيْن مـن الأمـام بطاولـة التحميـض التـي مَدَّهـا، ومـن الخلـف بالمصطبـة التـي يمكنـه أن ينـام عليهـا عندمـا يقـضي الليـل عـلى سـطح القـارب. تعلـو ألـواح السـقف فـوق رؤوسـهم ببوصـاتٍ قليلـة، وتحـت أقدامهـم التأرجُـح المهـدِّئ للنهـر. حـاول دونـت ألَّا ينتبـه لحجـم وشـكل الفـراغ بـين جسـميهما والمـكان الـذي يضيـق فيـه بسـبب بـروز ردفهـا ويتَّسِـع بسـبب انحنـاءة خصرهـا وكوعهـا يـكاد يغلقـه.

مـزج دونـت سـوائل مـن ثـلاث زجاجـات في آنيـة ضئيلـة لا يزيـد طولها عـن بوصـة واحـدة، وامتـلأ الهـواء برائحـة خـلِّ التُّفَّـاح والمسـامير القديمة.

تساءَلَت وهي تشمُّ الهواء "كبريتات الحديد الثنائي؟".

"مـع حمـض الخلِّـيك والمـاء. إنـه أحمـر في الحقيقـة. ليـس الضـوء وحـده مـا يجعلـه يبـدو هكـذا".

سحب اللوح من حافظته وأمسك به بحرصٍ في يده اليسرى، وأنزل عليها كمِّيَّةً ضئيلة من السائل الأحمر الذي يشبه الضوء ليسري مزيج الحمض على السطح بالكامل. كانت حركة رشيقة وسلسة ومقتصدة.

"انظري. تبدأ الصورة في التكوُّن فورًا تقريبًا... الأشياء الأفتح أوَّلًا، ولكنها تظهر كخطوط داكنة... هذا الخطُّ هنا هو عظمة خدِّك، وقد أنارتها النافذة. الآن تبدأ البقية في الظهور بتشويش أوَّلًا ولكن لاحقًا".

تلاشى صوته بينما يظهر وجهها على الزجاج. وقَفَا قريبين من بعضهما في الضوء الأحمر يشاهدان الظلال والخطوط تلتحم على الزجاج، وشعر دونت بأن شيئًا يسقط في بطنه. غطسة مهولة تشبه شعوره عندما ترك نفسه يسقط من على قمَّة جسر إلى النهر. كان قد قابل زوجته وهو يتزلَّج على التامز المتجمِّد في يومٍ شتويٍّ. انزلق معها في الحب -إن كان حُبًّا وليس شبيهًا أقلَّ قيمة- دون أن يدري. قد هوى هذه المرة... وكان ذلك أكيدًا.

ثم حضرت في الزجاج كاملة. يُحدِّد الضوء والظلام وجهها والمدارات مُظلَّلة وجنين العين ممتلئٌ بالغموض. شعر أنه قد يبكي بأقل تحفيز. قد تكون أفضل صورة التقطها على الإطلاق.

"لا بُدَّ أن أصوِّرَكِ مرَّةً أخرى". قال بينما يرفع اللوح.

"ماذا ينقص هذه؟".

لا شيء. كان يريدها من كل الزوايا، وفي كل إضاءة مُمكِنة، وفي كل الأمزجة والأوضاع. كان يريدها بشَعرها مُسدَلًا حول وجهها، ومشدودًا إلى الخلف، ومُخبَّأ تحت قُبَّعة: كان يريدها في قميص أبيض مفتوح عند العنق، وملتفَّة في طيَّاتٍ من القماش الداكن، كان يريدها في الماء وأمام جذوع الشجر وعلى العشب. كانت آلاف الصور تنتظر أن تلتقط. وكان عليه أن يلتقطها كلَّها.

"لا شيء ينقصها؛ لهذا أحتاج إلى المزيد".

أسـدل اللـوح داخـل صينيـة ممتلئـة بسـيانيد البوتاسـيوم "سـيُزيل هـذا الصِّبغـةَ الزرقـاء. هـل تريـن؟ تتحـوَّل إلى الأبيـض والأسـود، وقـد صـارت الآن دائِمـةً".

بجـواره تنظـر ريتـا باهتـمامٍ في الضـوء الأحمـر إلى التغيـيرات، بينـما تسـتمرُّ عينهـا التـي تظهـر عـلى الزجـاج في التحديـق عـبر اللزوجة الشَّـفَّافة للسـائل، كـما سـتفعل طـوال حيـاة اللـوح.

"مـا الـذي كنـتِ تُفكِّريـن فيـه؟". ألقـت نظـرةً سريعـة نحـوه لتُقيِّمـه. وزنـت وقـدَّرَت شـيئًا مـا بسرعـة.

همَّـت بالـكلام "لقـد كنـتَ هنـاك مـن البدايـة. أتصـوَّر أنهـا لـولاك لما كانـت هنـا أبـدًا؛ لـذا...". وسرَدَت بتفاصيـل هادِئَـةٍ المقابَلـةَ التـي جـرت بينهـا وبـين الرجـل عنـد طريـق النهـر منـذ بضعـة أسـابيع.

انتبـه دونـت وأدرك أنـه لا يُحِـبُّ فكـرة أن يُعنِّـف همجـيٌّ مـا ريتـا مُطلَقًـا، وفـرض عليـه حَدسُـه أن يطمئنهـا. ولكـن روايـة ريتـا كانـت جازِمةً، وأسـلوبها متماسِـكًا تمامًـا، حتـى إن مثـل تلـك الفروسـية كانـت سـتبدو في غـير محلِّهـا. إلا أنـه مـن غـير الممكـن أن يسـتطيع معرفـة الواقعـة دون إشـارة وافيـة.

"هل آذاكِ؟".

"كانـت توجـد كدمـات أعـلى ذراعـي، وسـحجات عـلى يـدي. بسـيطة جـدًّا".

"هل أعلمت السُّكَّان بوجود همجيٍّ في الجوار".

"قُلـتُ لهـم في ذا سـوان، وأخـبرت آل فـون عـن اهتمامـه بهـا. كانـوا قـد فكَّـروا بالفعـل في وضـع أقفـال عـلى النوافـذ، وهـذا حسـم رأيهـم".

سـمح لريتـا أن تقـوده نحـو التحليـل كبديـلٍ، بمـا أنـه لم ينـل فرصـة كبـيرة لإظهـار شـهامته.

"خميرة وفاكهة...".

"خَبَّاز ولص؟ هذا مُستَبعَد. ربَّما يعمل في التقطير؟".

"نعم. تساءَلتُ عن هذا".

"مَن يعمل في التقطير هنا؟".

ابتسَـمَت. "هـذا سـؤال لـن تنـال إجابـةً سـهلة عنـه. الجميـع عـلى مـا أظـنُّ. ولا أحـد".

"هل يوجد الكثير من الخمر غير القانوني هنا".

"أكـثر مـمَّا كان موجـودًا مـن قبـل، حسـب كلام مارجـو. ولكـن لا أحـد يعـرِف مـن أيـن يـأتي. أو لا أحـد عـلى اسـتعداد للقـول".

"ولَـم تَلمحيـه؟". عبـس دونـت الـذي كان البـصر هـو كل شيء بالنسـبة له .

"كانت له يدان صغيرتان بشكلٍ غير مألوف، ورأسه أقصر منِّي".

نظر إليها بحيرة.

"الكدمـات في المـكان الـذي انغـرزت عنـده أطـراف أصابعـه في ذراعـي أصغـر مـن المتوَقَّـع، وصوتـه أتى مـن مـكانٍ أدنى مـن أذني، وشـعرت بطـرف قُبَّعتـه تنغـرز فيَّ هنـا"، وأشـارت إلى المـكان.

"هذا صغيرٌ بالنسبة لرَجُل".

"وهو قوي".

"وما رأيك في أسئلته؟".

حدَّقَت ريتا في صورتها كمُفكِّرة "هذا ما كنتُ أتأمَّله هنا. إن كان يريد أن يعرف إن كانت الطفلة ستتحدَّث فهذا يشير إلى أنه قَلِقَ ممَّا قد تقوله. قد يكون خائفًا ممَّا ستقوله؛ ممَّا يوحي أن لديه ما يخفيه بخصوص الطفلة. ربما كان مسؤولًا عن وجودها في النهر".

أوحى صوتها بشيء غير مكتمل. انتظر دونت. أكملت كلامها ببطء وحرصٍ كما لو كانت لا تزال تَزِن الأمر في ذهنها، "ولكنه كان مُهتمًّا بالتحديد بمعرفة متى ستتكلَّم مرَّةً أخرى؛ وهذا قد يشير إلى أن اهتمامه ليس بشيء قد حدث بالفعل، ولكن بشيء سيأتي لاحقًا. ربما لديه خطة... فكرة تعتمد على استمرار صمتها".

انتظر حتى رتَّبَت أفكارها.

"أيُّهما؟ الماضي أو المستقبل؟ قد يكون الأول، ولكني أميل إلى الأخير. علينا الانتظار حتى الانقلاب الصيفي، وربما سنعرف أكثر وقتها".

"لماذا الانقلاب الصيفي؟".

"لأن هذا هو الوقت الذي يظنُّ أنه سيتَّضِح عنده ما إن كانت الطفلة ستتحدَّث أم لا. حسبما قال طبيب أوكسفورد فهذا هو الوقت الذي سيزول عنها الخَرَس، أو يصبح دائمًا. هذا هراء بالطبع، ولكن الذي اعتدى عليَّ لما يسألني عن رأيي وأنا لم أتكرم عليه به. قلت له فقط ما قاله الطبيب. ستة أشهر منذ الغرق -إن كُنَّا نستطيع تسميته غرقًا- وهذا يأخذنا للاعتدال الصيفي. قد يكون العامل الذي سيحدِّد تَصرُّفه هو ما إن كانت ستتحدَّث وقتها أم لا".

التقت عيناه بعينيها في الضوء الأحمر المرتعش.

قال: "لا أريد أن يحدث لها أي شيء سيئ. عندما رأيتها لأول مرَّة فَكَّرتُ... أردتُ...".

"أردتَ أن تحتفظ بها".

"كيف عرفتِ ذلك؟".

"هكـذا هـو الأمـر بالنسـبة للجميـع. آل فـون يريدونهـا، وآل أرمسـترونج يريدونهـا، وليـلي وايـت تريدهـا. بـكى چوناثـان عندمـا غـادرت ذا سـوان، ومارجـو كانـت عـلى أتـمِّ الاسـتعداد لأخذهـا. بـل إن حتـى مُزارعـي الجرجـير كانـوا مُسـتعدِّين أن يأخذوهـا معهـم ويُربُّوهـا إن لم يوجـد غيرهـم. حتـى أنـا...". لمـع شيء في عينهـا، وانطفـأ مـرة أخـرى. قـال لنفسـه أرَدتُ ذلـك بشـكل خـاصٍّ "لـذا فبالطبـع رغبـت فيهـا أنـت أيضًـا"، وأكمَلَـت بنعومـة "الـكل رغـب في ذلـك".

"دعيني أُصوِّركِ مرَّةً أخرى. سيكون هناك ضوء كافٍ لصورة أخرى".

رفـع الغطـاء الأحمـر وأطفـأ الشـمعة، ومالـت ريتـا لتفتـح الشـيش. كان النهـار في الخـارج رطبًـا وبـارِدًا ورماديًـا، والنهـر بـارِدًا كالرصـاص.

"لقد وافَقتَ على أن تساعدني في تجربتي".

"ما الذي تريدين مني أن أفعله؟".

"قد تُغيِّر رأيك إذا عرفت".

قالت له نيَّتَها فحدَّق بعيون مفتوحة.

"لماذا تريدين مني أن أفعل ذلك بحقِّ السماء؟".

"ألا تستطيع أن تُخمِّن؟".

بالطَّبـع يسـتطيع. "إنهـا هـي. أليـس كذلـك؟ لقـد أُبطِـئَ نبـضُ قلبهـا. تريديـن أن تعـرفي كيـف حـدث هـذا".

"هل ستساعدني؟".

الجـزء الأول كان سـهلًا. أخَـذَت معصمهـا في إحـدى يديهـا عـلى طاولـة المطبـخ بينـما تغـلي الميـاه فـوق النَّـار، وأمسَـكَت سـاعة جيبهـا في اليـد

الأخرى. جلسا صامِتَيْن لستِّين ثانية بينما تعدُّ نبضه. في نهاية الدقيقة كتبت ملحوظةً بقلبٍ مُعلَّق على سلسلة حول رقبتها.

"سبعون نبضة في الدقيقة. عالٍ قليلًا. قد يكون بسبب الترقُّب".

سكبت الماء في حوض استحمام من الصفيح بجوار النار.

قال وهو يختبر الماء بأصبعه: "ليس ساخِنًا جدًّا".

"الفاتر أفضل. والآن... هل أنت مستعدٌّ؟ سأدير ظهري".

نزع ملابسه، وبقي بالقميص والسروال الدَّاخلي بينما كانت تنظر من الشباك، ثم لبس معطفًا. "مستعدٌّ".

في الخارج كانت الأرض صلبةً والبرد يخترق قدَمَيْ هنري الحافيتين. بدا النهر أمامهم أملسَ، ولكن ارتعاشات مُتباعدة أنبأت عن وجود تقلُّب في العمق. دخلت ريتا إلى قاربها ذي المجاديف ودفعته لعدَّة ياردات في الماء. عندما دفعت بمقدِّمته بين البوص كي تُثبِّته أمسكت بميزان الحرارة في الماء لبضع لحظات كي تختبر درجة الحرارة وسجَّلَتها.

نادت: "ممتاز! أنا مستعدة عندما تستعدُّ أنتَ".

"كم من الوقت سيستغرق؟".

"دقيقة فقط على ما أظنُّ".

على الضفة نزع دونت معطفه ثمَّ قميصه. وقف في سرواله الداخلي الطويل، وتأمَّل في أنه عندما فكَّر خلال أيامه الأولى كأرمل في إمكانية أن يجد نفسه شبه عارٍ في صُحبة امرأة لم يكمن هذا ما تخيَّله.

"مُستعدٌّ". قالت بصوتها الهادئ الذي لا يتغيَّر، بينما نظرتها ثابتة بعيدًا عنه نحو ساعة جيبها.

دخل إلى النهر.

جعلت اللمسة الأولى للنهر عظامه تنكمش. جزَّ على أسنانه وأخذ ثلاثة خطوات في العمق. ارتفع خطُّ التجمُّد مُتسلِّقًا أطرافه. لم يطِق أن يتسلَّق التجمُّد حتى سَوأته. ثنى ركبتيه وتلقَّى صدمة الغمر في حركة واحدة. أخفض نفسه حتى رقبته وشهق في دهشة أن بإمكان صدره أن يتمدَّد في قبضة الماء. أخذته بضعة ضربات إلى جانب القارب.

أمَرَت "معصم".

رفع معصمه وأخذته في يدها اليمنى وأمسكت بالساعة في اليسرى ولم تَقُلِ شيئًا. تحمَّل الأمر لمدة لا بُدَّ أنها كانت دقيقة. كانت لا تزال تراقب الساعة وعيناها ترمشان بهدوء كل فترة. تحمَّل الأمر لما بدا أنه دقيقة أخرى.

"يا الله! كم سنستغرق من الوقت؟".

"إن أخطأتُ العَدَّ سنبدأ من جديد". همهمت ولم يتغيَّر تعبير وجهها.

تحمَّل للأبد.

تحمَّل لأبديَّةٍ أخرى.

تحمَّل لألف أبديَّة... ثم تركت معصمه وأمسَكَت بقلم وكتبت شيئًا بنظامٍ في دفترٍ، بينا هو يشهق ويقف ناثِرًا ماءً من النهر. انطلق إلى الضِّفَّة وركض نحو الكوخ، إلى حوض الصفيح المملوء بالماء الفاتر الذي أعدَّاه مُسبَقًا، وعندما أصبح بداخله كانت على حقٍّ: انتشرت الحرارة فوقه.

عندما دخلت إلى المطبخ كان غاطِسًا بالكامل.

سألَته: "هل أنت بخير؟".

هزَّ رأسه، بينما أسنانه تصطكُّ، وقد استولى جسده على عقله لفترة بينما يضع كلَّ قوته في التعافي من صدمة البرد. عندما عاد إلى

طبيعته مرة أخرى نظر نحو الطاولة. كانت ريتا تنظر عابِسةً خارج النافذة بينما يتلاشى الضوء. لم يَعُد القلم حول رقبتها، ولكنه مُثبَّتٌ فوق أذنها، والحبل يتدلَّى على كفِّها. قال لنفسه أريد هذا.

"ها؟".

"أربع وسبعون". رفعت الورقة التي دوَّنَت عليها الأرقام. "لقد ارتفع نبضك كرَدٍّ فِعلٍ للغَمر في ماء بارد".

"ارتفع؟".

"نعم".

"ولكن نبض الفتاة انخفض... لقد وجدنا عكس ما كان من المفترض أن يحدث".

"نعم".

"كان ذلك بلا داعٍ إذًا".

هزَّت رأسها ببُطء. "ليس بلا داعٍ. لقد استبَعدتُ فرضيَّةً. هذا تَقدُّم".

"ما هي الفرضيَّة الثانية؟".

أمالت رأسها إلى الخلف كي تنظر إلى السقف، ذراعها مرفوعة، وكوعه ينثني حول رأسها، وزفرت تَنهِدَةَ إحباطٍ... "لا أعرف".

زائِرُ لِيلي

لم تكن ليلي وايت نائمةً ولم تكن مستيقظة. كانت في تلك المنطقة الحدودية حيث تتحرك الظلال مثل الأمواج، والإضاءة -التي تأتي وتذهب مثل أشِعَّة شمس ضعيفة من خلال الماء العميق- خافتة ومُربِكة. خرجت إلى اليقظة فجأة في سريرها في كوخ باسكتمان.

ما الأمر؟

كان يتسلَّل كالقطط، يفتح الباب دون أن يُصدر صوتًا، وخطوته على البلاط خافتة. ولكنها كانت تعرفه من رائعة دخان الخشب والسُّكَّر والخميرة التي يجلبها معه دائمًا وينبِّه ذلك حواسَّها بشدَّة التي تَبرُز مقابل رائحة رطوبة النهر في الكوخ. ثم سمعته أيضًا: الصوت جرش الحجر على الحجر. كانت يخرج المال من مخبئه.

الطرقعة المفاجئة لإشعال عود ثقاب. رأت من فوق سريرها على الرَّفِّ العالي الشُّعلةَ المضيئة ويداه بكدماتها وندوبها التي تميل ذبالة الشمعة نحو الضوء. اشتعلت الذبالة وثبتت دائرة الضوء.

قال: "ماذا عندك من أجلي؟".

"يوجد جبنة وقطعة من لحم الخنزير الذي تحبُّه، ويوجد خبز في السَّلَّة".

"طازج؟".

"من الأمس".

تحرَّك الضوء جانبًا، وارتفع صوت بحث.

"بدأ يتعفَّن. أليس كذلك؟ كان يجب أن تأتي لي ببعضه اليوم".

"لم أكن أعرف أنك ستأتي".

طفت دائرة الضوء نحو الطاولة حيث أستقرت، ولوهلة كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت أكل نهم، قضمات تكاد لا تُمضَغ، وبَلع شَرِه. تستلقي ليلي في الظلام صامتة وثابتة وقلبها يرتجف.

"ماذا لديك أيضًا؟".

"تفَّاح إن أردت".

"تفاح! ماذا أفعل بالتفَّاح؟".

ارتفعت لمعة الضوء مرَّةً أخرى، وحلَّقَت فوق رفٍّ فارغ، ثم آخر. عبرت نحو الخزانة وتفحَّصَت الفراغ بداخلها، ثم امتدَّت إلى الأركان الخلفية من الأدراج ولم تَجِد شيئًا كذلك.

"ما الذي يدفعه لكِ قِسِّيسُك هذا؟".

"ما لا يكفي. لقد قُلتَ لي ذلك من قبل".

حاوَلَت ألَّا تفكِّر في مُدخَّراتها الآمنة في مكتب القِسِّ خوفًا من أن يكشفها الضوء السارح.

خرجت من الظلام طقطقة سخط.

"لماذا لم تأتي لي بشيء حلو؟ ما الذي تصنعينه له هناك في بيت الأبرشية؟ فطيرة تفاح؟ حلوى الخبز مع مربَّى البرقوق؟ أراهن أنك تصنعين كل الحلوى".

"سأفعل، المرة القادمة".

"لا تنسي".

"لن أنسى".

استطاعت بعد أن اعتادت عيونها على الظلام أن تُحدِّد هيئته. كان يجلس إلى الطاولة مُديرًا ظهره إليها وأكتاف معطفه البارزة أعرض من الهيكل الذي يقبع تحتهم. كان لا يزال يرتدي قُبَّعته ذات الحافَّة العريضة، ومن الصوت بدا أنه يعدُّ نقودًا. كتمت أنفاسها.

عندما لا يكون المال مكتمِلًا تُلام هي. ما الذي أخذته؟ أين تخبئه؟ أي خطة أنانية تعمل عليها؟ وهل هذا هو ما تسمِّيه ولاء؟ لم يكن لهذه الأسئلة إجابات تُرضيه. تقابل إجاباتها اللَّكمات دائمًا مهما كان ما تقوله، وفي الحقيقة لم تأخذ ماله أبدًا- قد تكون غبيَّةً، ولكنها ليست غبيَّةً إلى هذا الحدِّ، ومع ذلك فالمال يُحيِّرها. كان لديها أسئلة هي أيضًا تودُّ أن تسألها، ولكنها لا تجرؤ. تظهر في حظيرتها في الليل بالتزامُن مع زياراته زجاجاتٌ وبراميل مملوءة بالخمر القويِّ وغير القانوني، وعند حلول الظلام التالي تختفي. يأخذها مَن يتولَّون التوزيع له، تُستبدَل بالمال من أجل الطلبية التالية. ولكن ما الذي يحدث بعد أن يحصل عليها؟ لقد أخذ في ليلة واحدة مالًا من المخبأ أكثر ممَّا تجنيه في شهر في بيت الأبرشية، وكانت متأكِّدةً أن لديه

أماكـن أخـرى تعمـل بنفـس الطريقـة أيضًـا. كان يختبـئ في مـكانٍ مـا، لا يدفـع إيجـارًا في مقابلـه، ولا يقامـر، ولم يدفـع مـالًا لامـرأة أبـدًا. لم يكـن يلمـس الـشراب، لم يمسَّـه أبـدًا، ولكنـه فقـط يشـجِّع الآخريـن عـلى تدمـير أنفسـهم وإفـراغ محافظهـم في المقابـل. حاوَلـت أن تحسـب. المـال الـذي جنـاه مـن هنـا في عـامٍ تَضاعَـفَ مـرَّةً ومرَّتـين، أو سـبع مـرَّات، ولكـن الأرقـام دوَّختهـا. عرفـت حتـى قبـل أن تنهـي مسـائلها الحسـابية أن لديـه مـا يكفـي كي يصبـح ثريًـا، ولكنـه يظهـر هنـا مـرَّةً أو مرَّتـين في الأسـبوع، بمعطـف عتيـق تفـوح منـه رائحـة معمـل التقطـير، جلـد عـلى عظـم، ويتضـوَّر جوعًـا. يـأكل طعامهـا ويمـدُّ يـده عـلى شـموعها. لم تجـرؤ عـلى أن تُبقـي أيَّ شيء جيـد في الكـوخ لأنـه سـيأخذه ويبيعـه، بغـضِّ النظـر عـن كينونـة هـذا الـشيء، وسـيختفي المـال. سـيختفي داخـل جيبـه، حتـى زوج مـن القفـازات الصوفيـة بثقـوب عنـد الأصابـع. يوجـد في حيـاة ڤيكتـور لغـز يبتلـع كل مالـه ومالهـا هـي أيضًـا، إلَّا مـا تطلـب مـن القـسِّ أن يحتفـظ لهـا بـه. الأمـر غـير منطقـي.

أطلـق زمجـرةً راضيـةً فتنفَّسَـت مـرة أخـرى. كان المبلـغ صحيحًـا. بعـد أن فـرغ مـن ذلـك مـال إلى الخلـف بكرسـيِّه وأخـذ نَفَسًـا. كان دائمًـا يسـترخي بعـد أن يعـدَّ المـال. لم تكـن هـي تسـترخي.

"لقد عاملتُكِ جيِّدًا دائمًا، أليس كذلك يا ليل؟".

"دائمًـا"، ردَّت، واعتـذرت بصمـتٍ للـه عـلى كذبهـا. يفهـم اللـه أنـه هنـاك أوقـات لا يقـدر الشـخص فيهـا أن يقـول الحقيقـة.

"اعتنيت بك أفضلَ من أمِّكِ العجوز، أليس كذلك؟".

"نعم، لقد فعلتَ".

أصدر صوتًا راضيًا من مؤخِّرة حلقه.

"لماذا تريدين أن تُطلِقي على نفسك ليلي وايت إذًا؟".

شعرت ليلي بانقباضةٍ في حَلقها. "قُلتَ لي ألّا أستخدم اسمَكَ عندما أجيء إلى هنا. لقد قُلتَ ذلك، لا شيء يساعد على ربطي بك...".

"لم يكن يلزم أن يكون وايت مع ذلك. كان من الممكن أن تختاري أيَّ اسمٍ تحت الشمس. هذا الوايتي لم يكن زوجًا لكِ على كل حال. ليس في عين الرب. هل يعرف بهذا قسِّيسُكِ؟".

"لا". ردَّد برضا، "لا أظنُّ". ترك التهديد الضِّمنيَّ مُعلَّقًا في الهواء قبل أن يُكمل "لستُ أحمقَ يا ليل. أعرف لِمَ اختَرتِ هذا الاسم. هل أقول لك؟".

"قُل لي".

"تتعلَّقين بهذا الاسم كما تعلَّقت بالرجل نفسه. ليلي وايت. بريئة ولا تُلام مثل زهر الليلي. هذا ما تحبينه أليس كذلك؟".

بلَعَت ريقها.

"تكلَّمي يا ليل! لا أستطيع أن أسمعك. ولكن إطلاق اسم على شيء لا يجعله هو. تتعلَّقين بهذا الاسم كما لو كان سيغسلك. كما تُلمِّعين هذه الطاولة، كما تنظِّفين عند القسِّ. كما لو كان سيُخلِّصُكِ... ألستُ مُحِقًّا يا ليل؟".

تعامل مع موافقتها على أنه أمر بديهي.

"فأنا أعرف يا ليلي. ولكن ما حدث قد حدث. لا يمكن الالتفاف حول الأمر. هناك أشياء لا يمكن أن تدعكيها فتختفي".

كادت تفشل في إبقاء دموعها صامِتةً، ولكن حتى ذلك كان كثيراً: ارتعشت حنجرتها، ودوَّت الدفقة التالية من الدموع عاليًا في الغرفة.

قال بهدوء: "لا تُزعِجي نفسك. كان؟".

هزَّت رأسها.

"ها؟".

"نعم يا فيك".

"أتساءل أحيانًا إن كنتِ تستحقِّينني. لقد خاب رجائي فيكِ أكثر من مرَّة. تهربين مع وايتي. استغرق الأمر سنواتٍ حتى عثرت عليك. كان أي رجلٍ آخر سييأس منك، ولكني لم أفعل".

"شكرًا يا فيك".

"ولكن هل أنتِ مُمتنَّة يا ليل؟".

"بالطَّبع مُمتنَّة".

"حقًّا؟".

"حقًّا".

"إذًا لماذا تخذلينني مرَّةً أخرى؟ الطفلة في ذا سوان...".

"لم يدعوني آخذها يا فيك. لقد حاوَلتُ. حاوَلتُ بكل طاقتي، ولكن كان هناك اثنان، و...".

لم يكن يسمع. "كُنَّا سنجني ثروةً بها. الفتاة الميِّتة التي عاشت مرَّةً أخرى. تخيَّلي الطوابير. كان بإمكانك التوقُّف عن التنظيف لذلك القسِّم ومع وجهك البريء كانت الطوابير ستطول حتى تصل إلى ميل. بدلًا من ذلك أسمع أنها ذهبت إلى منزل فون".

هزَّت رأسها. جلس ساكِنًا، وظنَّت أن هذا هو كل شيء في الغالب. ربما ذهب إلى ذلك المكان الذي يذهب إليه في الحلم حين يتناول بعض الطعام ويضع بعض المال في جيبه. المكان الذي يضع فيه خُطَطه السِّرِّيَّة. ولكنه تكلَّم مرَّةً أخرى.

"نحن نقف بجوار بعضنا أنتِ وأنا، أليس كذلك؟".

"نعم يا فيك".

"وكأن خيطًا يربطنا معًا. يبقى الخيط موجودًا مهما ابتعدتِ، أو كم مضى من الوقت وأنتِ بعيدة؛ فالخيط باقٍ دائمًا. تعرفين ذلك لأنه أحيانًا يُشدُّ... أحيانًا... تعرفين الشعور... أليس كذلك يا ليلي؟ إلا أنه أكثر من مجرَّد شَدَّة. إنها مثل لكمة ملاكم في صدرك تصفع قلبك بشدَّة".

كانت تعرف الشعور، وقد شعرت به مرَّاتٍ عديدة. "نعم يا فيك".

"ونحن نعرف ما هذا، أليس كذلك؟".

"نعم يا فيك".

"العائلة!" أطلق زفرة رضا مهولة.

أصبح الآن واقِفًا وقد جلب دائرة الضوء عبر الأرض وفوق السلالم إلى سريرها. اقتربت الشمعة من وجهها. أغمضت عينيها. كان ڤيكتور خلف اللمعة، ولكنها لم تستطع أن تُحدِّد تعبير وجهه بسبب زغللة عينيها. شعرت بالبطانية تُسحَب، والضوء يلعب قليلًا على طيَّات قميص نومها وفوق نهديها.

"في بالي أنتِ لا تزالين نفس الطفلة كما في السابق. لقد تركتِ نفسك تتدهورين. أصبحتِ جِلدًا على عَظم. كنتِ جميلةً بالفعل. سابقًا. قبل أن تهربي". تمدَّد على المرتبة فتحرَّكت بعيدًا. تحرَّك داخل الفراغ ووضع ذراعه حولها. كانت الذراع نحيفةً في كُمِّ المعطف، ولكنها كانت تعرف القوة الكامنة فيها.

أصبح تَنفُّسه أعمقَ، وبدأ في الشخير. استراحت -وقتيًّا على الأقل- ولكنها كانت لا تزال غير قادرة على إيقاف قلبها المتسارع داخل صدرها.

لم تتحـرّك ليـلي. اسـتلقت مُسـتيقِظةً في الظـلام تتنفَّـس بهـدوء قـدر الإمـكان خوفًـا مـن إيقاظـه.

بعـد مـرور مجـرَّد سـاعة كانـت الشـمعة قـد احترَقَـت، وتَسـلَّل إلى الغرفـة ضـوء خافـت. لم يتحـرّك ويتمطّـى مثـل أغلـب النـاس عندمـا يصحـون مـن النـوم. لم يتحـرّك ولـو لبوصـة. فقـط فتـح عينيـه وسـأل "أي مـال تأخذيـن مـن هـذا القـسّ؟".

"ليس كثيرًا". جعَلَت صوتها خنوعًا قدر استطاعتها.

مـدَّ يـده إلى كيـس نقودهـا الـذي تُبقيـه تحـت الوسـادة، ووقـف وأفـرغ محتوياتـه في كفِّـه.

شرَحَـت "كان يجـب أن أجلـب لـك جبنـة. ولحـم الخنزيـر. اتـرك لي شـيئًا مـن فضلـك؟ القليـل فقـط؟".

زمجر "لا أدري ما الذي تفعلينه بمالِكِ. ما هو. ألا تثقين بي؟".

"بالطبع أثق بك".

"جيد. أنت تعرفين أن هذا لمصلحتك".

هزَّت رأسها في خنوع.

"كل هـذا..." وأشـار إشـارة واسـعةً، ولم تعـرف مـا إن كان يعنـي الكـوخ أو الخمـر في مخـزن الأخشـاب، أو شـيئًا آخـر أكـبر وأقـلَّ وضوحًـا خلـف كل شيء، ويضمـن كلَّ شيء- "كل هـذا ليـس لي يـا ليـل".

راقَبَته. كان عليهـا أن تفعـل ذلـك. إغفـال شيء مـا أمـرٌ لا يُحتَمـل مـع فيك .

"إنـه لنـا. للعائلـة. انتظـري. في يـومٍ مـا لـن تضطـرِّي إلى خدمـة القـسّ العجـوز. ستعيشـين في بيـتٍ أبيـض أكـبر مـن هـذا بعـشر مـرات. أنـتِ وأنـا، و...".

توقَّـف بحـدَّة، ولكـن أفـكاره لم تتوقَّـف. اسـتمرَّت ورأت هـي كيـف لانـت نظرتـه بينـما يحـدِّق بمحبَّـةٍ في المسـتقبل الـذي يُبقيـه قريبًـا سرِّيًّـا إلى هـذا الحـد.

"والآن هـذا"، وهـزَّ قبضتـه المغلقـة كي تسـمع رنـين البِنسـات "اسـتثمار. لقـد سـمعتِني أتحـدَّث عـن خُطَّتـي، أليـس كذلـك؟".

"طـوال هـذه السـنوات الخمـس". كان موضوعًـا متكـرِّرًا. تهدهـده الخُطَّـة دائمًـا، سـواء كان في مـزاج جيِّـد أم سيئ، وسـواء كان المبلـغ صحيحًا أم خاطئًـا، تجعلـه هادئًـا وتُخفِّـف مـن حِـدَّة نظرتـه. أحيانًـا يرتجـف فمـه الرفيـع عندمـا يذكرهـا، ولـو كان فـمًا آخـر لـكان قـد أدَّى إلى ابتسـامة. ولكنـه يحفـظ بخُطَّتـه سِرًّا، كـما كان كتومًـا بخصـوص كل شيء آخـر، وكانـت جاهِلـةً بمـا هـو كـما كانـت في المـرة الأولى التـي سـمعت بهـا.

"الأمـر أطـول مـن خمـس سـنوات". كاد الحنـين في صوتـه أن يكـون موسـيقيًا. "كان ذلـك فقـط الوقـت الـذي قُلـتُ لـك عليـه. أتصوَّر أني بدأت في التخطيـط لـه. أو أطـول مـن ذلـك أيضًـا إذا نظـرتِ إلى الأمـر مـن زاويـة مُعيَّنـة!". تَلـوَّى وهـو يُهنِّـئ نفسـه. "وسريعًـا سـيحين الوقـت، فـلا تقلقـي عـلى بِنساتِـكِ يـا ليـلي. إنهـما في أمـانٍ معـي. الموضـوع كلـه داخـل" -التوى فمـه- "داخـل العائلـة!".

أعـاد عُملَتَـيْن إلى محفظتهـا، وألقـى بهـا عـلى السريـر، ووقـف ونـزل السُّـلَّم إلى المطبـخ.

قـال لهـا بنـبرة صـوتٍ جديـدة: "وضعـتُ صندوقًـا في كـوخ الخشـب. سـيأتي شـخصٌ ليأخـذه كـما هـي العـادة. يوجـد برميـلان في المـكان المعتـاد. لم تَريهـم يأتـون ولم تريهـم يذهبـون".

"نعم يا فيك".

ثم فتح الباب وهو يلتقط ثلاثة شموعٍ جديدة في طريقه ورحل.

استلقت في السرير تفكِّر في خُطَّته. لن تعمل في بيت الأبرشية بعد الآن؟ تعيش في الأبيض الكبير مع فيك؟ عبست. كان الكوخ باردًا ورطبًا، ولكن على الأقل كان لها النهارات في بيت الأبرشية، وكثيراً ما كانت وحدها في الليل. و... مَن أيضًا سيكون هناك؟ رنَّت الكلمات في رأسها مرَّةً أخرى. "أنت وأنا و...".

ومَن؟

هل يعني آن؟ قال للعائلة. لا بُدَّ أنه يعني آن ففي النهاية هو مَن أتى لها في الليل بإرشاداتٍ لعبور النهر إلى ذا سوان وإعادة الطفلة التي ماتت وعاشت مرة أخرى.

فكَّرَت في أختها مع السيدة والسيدة فون في غرفة نومها بالبطاطين الحمراء وسَلَّة الخشب الممتلئة وصور على الحائط.

لا. قرَّرَت. لا يجب أن يحصل عليها.

رحلت! أو السيد أرمسترونج يذهب إلى بامبتون

سأل أرمسترونج للمرة المائة وهو يتمشَّى أمام المدفأة في غرفة جلوسها. جلست بيس تحيك بجوار النار. هزَّت رأسها للمرة المائة، واعترَفَت أنها لا تدري ماذا تفعل.

"سأذهب إلى أوكسفورد. سأسوِّي الأمر معه".

تنهَّدَت "لن يشكرك على ذلك. فقط ستسوء الأمور".

"ولكن عليَّ فِعلُ شيء ما. يوجد آل فون الذين يعيشون مع الطفلة ويتعلَّقون بها أكثر مع مرور كل يوم، وروبين لا يفعل أي شيء! لِمَ لا يحسم رأيه؟ ما سبب التأخير؟".

رفعت بيس نظرها عن عملها بتشكُّكٍ "لن يقول لك شيئًا حتى يستعد. وحتى وقتها ربما لا يقول".

"هذا الأمر مختلف! هذه طفلة".

تنهَّدَت "أليس. حفيدتنا الأولى". بدا عليها حُزنٌ ناعمٌ، ولكنَّها هزَّت رأسها "سينتهي الأمر بشكل سيئ إن واجهته. أنت تعرف طبعه".

"سأذهب إذًا إلى بامبتون".

رفعت بصرها. كان وجه زوجها ثابِتًا يبدو عليه التصميم.

"ما الذي ستفعله هناك؟"

"أجد شخصًا يعرف أليس. آخذه إلى بوسكوت. أضعه أمام الطفلة وأعرف بشكلٍ حاسِمٍ مَن هي".

عبست بيس "وتظنُّ أن آل فون سيسمحون بذلك؟".

فتح أرمسترونج فمه وأغلقه مرَّةً أخرى. اعترف بإشارةٍ تَدلُّ على قِلَّة الحيلة "أنتِ على حق". ولكنه لم يستطِع أن يترك الأمر. "ولكن على الأقل إن ذهبت سأجد شخصًا يعرف، وعندما أفعل ذلك يمكنني أن أتكلَّم مع روبين وأرى ما إن كان يرغب في الحديث مع آل فون و... أوه! لا أعرف. الموضوع يا بيس هو ما الذي يمكنني أن أفعله؟ لا أستطيع أن أفعل شيئًا".

نظرت إليه بحُبٍّ "لا. لم تكن ماهِرًا أبدًا في هذا".

لم يَزدَد شكل النُّزل في بامبتون احترامًا عن ذي قبل، ولكن كان له هيئة أكثر مرحًا عن المرة التي رآه فيها سابقًا. سمع نغمات كمان تَصدُر من نافذة علوية مفتوحة، والنقر خشبيٌّ غير منتظم من النوع الذي تسمعه عندما يرقص السكارى على أرض خشبية عارية وقد لفُّوا السجاجيد ودفعوها إلى الخلف. قاطَعَت التصفيق دفقاتٌ من الضحكات النسائية، وقاطَعته الضحكات بالتبادُل، وقد كان الصوت صاخِبًا، حتى إنه رَنَّ الجرس مرتين قبل أن يسمعه أحد.

هتفت المرأة التي فتحت الباب حافيةً ومحمرَّة الوجه من المجهود أو الخمر "ادخل يا بَطِّي!". وبدون انتظار انسحَبَت إلى الطابق الأعلى وهي تشير له أن يتبعها. تسلَّق السُّلَّم وتذكَّر تَسلُّقه في المرة السابقة عندما كانت المرأة المسكينة الميِّتة في غرفتها في الطابق العلوي، ومجرَّدَ كاتِبةِ خطابٍ بالنسبة له، وأليس مجرَّدَ اسمٍ. قادته المرأة للطابق الأول حيث كانت مجموعة من الرجال والنساء يتقافزون بأسلوبٍ ريفيٍّ بينما يحاول عازف الكمان اللحاق بهم بالعزف أسرع وأسرع. وضعت في يده كوبًا من الخمر الشفَّاف تمامًا، وعندما أبدى اعتراضًا دعته للرقص.

"لا، وشكرًا على كل حال! في الواقع أريد رؤية السيدة إيڤيس".

"ليست هنا والحمد الله. ستمرح أكثر بكثير بدونها يا جميل!"، وأخذت يده، وحاوَلَت مرَّةً أخرى أن ترقص، مع أن الصعوبة التي وجدتها في البقاء واقِفةً مستقيمة كانت تُقوِّض محاولاتها.

"لن أُبعِدَك عن أصدقائك أكثر من ذلك إذًا يا آنسة، ولكن ربما تَقدرين أن تقولي لي أين أجدها؟".

"لقد رحَلَت".

"ولكن إلى أين؟".

رسَمَت على وجهها تعبيراً يوحي بالغموض العظيم "لا أحد يعرف"، ثم صفَّقَت بيديها طلبًا للانتباه، وصاحت بصوتٍ أعلى من الموسيقى "هذا السيد المهذَّب يريد السيدة إيڤيس!".

"رحلت!" صاحت اثنتان أو ثلاث من الراقصات بصوتٍ واحدٍ، وضحك كثير، وقد بدا أن رقصهن ازداد مرحًا لرحيلها.

"أين حدث ذلك؟". أخرج محفظته وألصقها به كي تراها بوضوحٍ وهو يسأل السؤال. أفاقتها رؤية المحفظة من سُكرها، وجاوَبَت إجابة

كاملة بقدر استطاعتها "من ستة أو سبعة أسابيع على ما أظن. أتى شخص لرؤيتها -هكذا سَمِعتُ- وأدخلته إلى غرفة الجلوس الخاصَّة بها، وقَضَيَا بها مساءً طويلًا، وعندما رحل كانت منتفخةً بِسِرٍّ لبضعة أيَّام، وسرعان ما أتت مَركبَة وأخذت أمتعتها ورحلت هي معها".

"هل كنتِ هنا قبل عيد الميلاد؟ أتساءل. كانت توجد سيِّدة اسمها السيدة أرمسترونج تعيش هنا مع فتاة صغيرة، أليس".

"التي ماتت؟" هزَّت رأسها "جميعنا جُدُد. جئنا بعد هذا الوقت. لم يستمرَّ أحدٌ طويلًا هنا عندما كانت السيدة إيڤيس هنا؛ لأن لا أحد يُحبُّها، وعندما رحَلَت هرب من كُنَّ مدينات لها بالمال".

"ما الذي تعرفينه عن السيدة أرمسترونج؟".

"لم تكن من النوع المناسب لهذا المكان. هذا ما سمعته. كانت تطبخ وتنظِّف هنا، وكانت جميلة، ولكن نحيفةً جدًّا -والبعض يحبُّون ذلك، كل الأصناف مطلوبة- وعندما رآها الزبائن رغب بعضهم في القليل منها. ولكنها رفضت، وهذا استعدى إيڤيس العجوز ضدَّها. قالت إنها لن تسمح لأي فتاة سخيفة أن تتكبَّر، وأعطت أحد الرجال مفتاح غرفتها كي يلقِّنها درسًا. في اليوم التالي فَعَلَت ما فعلته.

"أظنُّ أن كان لها عشيق هجرها؟".

"ما سمعته أنه كان زوجها. ولكن انتَبِهْ: العُشَّاق والأزواج سيَّان، أليس كذلك؟ من الأفضل للفتاة أن تبقى وحدها. تعطيهم ما يريدون، وتأخذ المال، وبالسلامة. ولكن ليس هي. كانت من النوع الخطأ".

عبس أرمسترونج "متى ستعود السيدة إيڤيس؟".

"لا أحد يعرف، وأتمنى أن يكون ذلك بعد وقت طويل جدًّا. سأرحل فور أن تعود بالتأكيد".

"إذًا أين ذهبت؟".

هـزَّت المـرأة رأسـها "لقـد حصَلَـت عـلى بعـض النقـود ورحلـت. هـذا كل مـا سـمعتُه".

أعطـى أرمسـترونج المـرأة بعـض النقـود، وعرضـت عليـه الـشراب أو الرقـص مـرَّةً أخـرى "أي شيء تحبُّـه يـا بطَّتـي". رفـض بتهذيـبٍ ورحـل.

حصلـت عـلى بعـض النقـود؟ قـال لنفسـه في طريقـه إلى الطابـق الأسـفل. إنـه ليـس مسـتحيلًا، ولكـن بعـد الإحسـاس بالمـرارة الـذي تركتـه زيارتـه السـابقة كان يميـل للشَّـكِّ في كل شيء بخصـوص السـيدة إيڤيـس.

نـدم عـلى الرحلـة عندمـا عـاد إلى الشـارع؛ لأنهـا اسـتهلكت وقتـه وحصانـه، ولكـن بمـا أنـه أصبـح هنـاك طفـت عـلى السـطح فِكـرةٌ أخـرى كان قـد فَكَّـر فيهـا بالفعـل وتراجـع عنهـا، والآن بعـد أن فكَّـر فيهـا مـرَّةً أخـرى بـدت لـه فِكـرةً أفضـل مـن السـيدة إيڤيـس عـلى كل حـال. سـيبحث عـن بِـن، صبـيِّ الجـزار. كان يتذكَّـر أليـس، وسـيعرف مـن نظـرة واحـدة مـا إن كانـت هـي الطفلـة التـي تقيـم عنـد آل فـون أم لا. لا وزنَ كبـيرًا لكلمـة طفـل أمـام القانـون، ولكـن ذلـك لا يهـمُّ كثـيرًا. لم يكـن يفكـر في القانـون. بَـدَا لـه وكأن يقينـه وحـده في أي اتجـاه سـيكون شـيئًا ثمينًـا. إن تعـرَّف بِـين عـلى الطفلـة عـلى أنهـا أليـس سـيكون لديـه سـببٌ قـويٌّ للخَـوض في الأمـر مـرَّةً أخـرى مـع ابنـه. وإن لم يتعـرَّف عليهـا سيشـارك آل فـون في المعلومـة، وبالتـالي يمنحهـم اليقـين الـذي فشـل روبـين في منحـه لهـم.

تمـشَّى أرمسـترونج عـبر الشـارع الرئيـسي متوقِّعًـا إلى حَـدٍّ مـا أن يجـد بـين، بـأن يصادفـه كـما حـدث مـن قبـل، ولكـن بـين لم يكـن فـوق التَّلَّـة العُشـبيَّة حيـث كان يلعـب بالبِـلي، ولم يكـن ظاهِـرًا في محـلِّ والـده، ولم يكـن يتسـكَّع في الشـارع. عندمـا كان قـد نظـر داخـل كل حـارة جانبيـة وكل واجهـة محـلٍّ بـلا نتيجـة أوقـف صبيًّـا عابـرًا مـن عمـر بـين تقريبًـا وسـأله عـن مكانـه.

قال له الصبي: "لقد هرب".

ارتبك أرمسترونج "متى حدث هذا؟".

"منـذ بضعـة أسـابيع. ضربـه أبـوه ضربًـا مُبرحًـا حتـى صـار أسـودَ وأبيـض. بعدهـا مبـاشرة كان قـد اختفـى".

"هل تعرف أين ذهب؟".

هزَّ الولد رأسه.

"هل تحدَّث عن مكان سيذهب إليه؟".

"مزرعـة مـا في اتجـاه كلمسـكوت. سـيعطيه رجـلٌ فَخـمٌ هنـاك وظيفـةً. سـيجد خُبـزًا وعسـلًا ومرتبـةً لينـام عليهـا، وسـيدفع لـه كل يـوم جمعـة بـلا تأخـير". بـدا عـلى الولـد أنـه يحلـم بمـكانٍ شـبيه. "ولكنـي لم أصدِّقـه".

أعطـاه أرمسـترونج عُملـةً معدنيـة وذهـب إلى محـل الجـزار. وقـف شـابٌّ أمـام طاولـة التقطيـع يحمـل سـكِّينًا ثقيـلًا داكِنًـا مـن أثـر الـدم، وكان يقطـع خـاصِرةً إلى شرائـح. رفـع بـصره عندمـا سـمع صـوت الجـرس. كانـت ملامحـه تشـبه بـين بشـكل صـارخ، إلَّا أن تعبـير التجهُّـم عـلى وجهـه كان خاصًّـا بـه وحـده.

"ماذا تريد؟".

كان أرمســترونج مُعتــادًا عــلى العَدائيــة، ويقــدر أن يقيــس بدقَّــةٍ عُمقَهـا في الشـخص. كثـيرًا مـا يحتفـظ النـاس بالجفـاء لمـن هـم مثلـه غـير مألوفـين. الاختـلاف مُزعِـجٌ، ويتسـلَّح النـاس ضـدَّه بالعدوانيَّـة عندمـا يواجهونـه. بينـما تقـول لهـم عيونهـم أن يخافـوه كانـت آذانهـم تطمـئنُّ، ولكـن بعـض النـاس يقضـون يومهـم داخـل دِرعٍ واقٍ، ويظهـرون نصـال سـيوفهم للجميـع. العـالم بأكملـه عَـدوٌّ. لم يكـن يسـتطيع فِعـلَ شيء في مواجهـة هـذا النـوع مـن النفـور، وهـذا هـو مـا قابلـه هنـا. لم يحـاول الإرضـاء، ولكـن فقـط قـال: "أبحـث عـن أخيـك بـين. أيـن هـو؟".

"لماذا؟ ماذا فعل؟".

"لا شيء على حدِّ عِلمي. لديَّ وظيفة له".

خرج من قنطرة في الخلف صوتٌ أكبر سِنًّا "ذلك الصبي لا يَصلُح لشيء سوى أكل الأرباح". بَدَت الكلمات وكأنها تخرج من فمٍ مَحشوٍّ بالطعام.

مال أرمسترونج لينظر عبر القنطرة إلى الغرفة من خلفها. جلس رجلٌ من نفس عمره في مقعد مُبقَّع، وعلى طاولة بجواره كان هناك رغيف من الخبز وقطعة كبيرة من لحم الخنزير وقد قُطِعت منها عدَّة شرائح. كانت خدود الجزار زهريَّةً وسمينة ولامعة كاللحم. استقرَّ غليون في منفضة، وامتلأ كأسٌ حتى منتصفه بشيء ما أتى من زجاجة تستلقي في حِجر الرَّجُل مستندة دون سدادة على بطنه المكورة.

سأل أرمسترونج "لديك أي فكرة إلى أين ذهب؟".

هزَّ الرجل رأسه "لا يهمُّني. ابن الحرام الكسول". غرس شوكته في شريحة أخرى من لحم الخنزير ودفعها بأكملها داخل فمه.

استدار أرمسترونج، ولكن قبل أن يستطيع أن يرحل دلفت إلى الغرفة الخلفية سيِّدةٌ ضامرة تجرُّ قدميها وتحمل مكنسة. وقف جانبًا ليدعها تدخل إلى المحل حيث بدأت في كنس نشارة الخشب. أخفضت رأسها فلم يستطِع أن يرى وجهها.

"بعد إذنك يا سيدتي...".

استدارت. كانت أصغر ممَّا دفعه بطءُ حرَكَتِها أن يتوقَّعه، وكانت عيونها قَلِقَة.

"أبحث عن بين. ابنك؟".

لم تكن هناك لمعة في عيونها.

"هل لديك أي فكرة أين يمكن أن يكون؟".

هـزَّت رأسـها بفتـورٍ غـير قـادرة عـلى مـا يبـدو عـلى أن تسـتدعي الطاقـة اللازمـة للـكلام.

تنهَّد أرمسترونج "حسنًا... شكرًا".

كان سعيدًا أنه في الخارج مرة أخرى.

وجـد أرمسـترونج مـاء لفليـت، ثـم توجَّـه هـو والحصـان إلى النهـر. كان هـذا الجـزء مـن النهـر عريضًـا ومسـتقيمًا، وفي أحيـانٍ يبـدو المـاء راكِـدًا، حتـى إنَّـكَ قـد تظنُّـه كتلـةً صلبـة حتـى ترمـي شـيئًا مـا بداخلـه -فرعًـا صغـيرًا، أو قلـب تفاحـة- تـرى السرعـة والقـوة التـي تبتعـد بهـا. فتـح غـداءه وتنـاول قضمـة عـلى جـذع شـجرة سـقط قريبًـا مـن النهـر. كان اللحـم جيـِّدًا، وكذلـك الخبـز، ولكـن منظـر شراهـة الجـزار أفقدتـه شـهيَّته. قطـع الخبـز إلى فُتـاتٍ ونـثره حولـه للطيـور الصغـيرة كي تـأتي وتلتقطـه، ثـم جلـس سـاكنًا ينظـر إلى المـاء ويتأمَّـل في خيبـات اليـوم مُحاطًـا بطيـور الوقـواق وأبي الحنَّـاء.

كان فشـل زيارتـه للسـيدة إيڤيـس سَّـيئًا بمـا يكفـي، ولكـن اكتشـافه أن بـين مُختَـفٍ زاد مـن إحباطـه. تذكَّـر عنايـة الصبـي بفليـت، واسـتعاد منظـره وهـو يـأكل بشراهَـةٍ عندمـا أعطـاه أرمسـترونج الخبـز، وتأمَّـل في روح الصبـي المرحـة. فكَّـر في الجـو الموحـش في دُكَّان الجـزار: الأب الشـنيع والأم المُعنِّفـة والابـن الأول ذي القلـب الميِّـت، واندهـش لتفـاؤل بـين. أيـن هـو الصبـي الآن؟ إن كان مُتَّجِهًـا إلى كلمسـكوت كـما قـال صبـيُّ البقَّـال نحـو أرمسـترونج والمزرعـة فلـماذا لم يصـل حتـى الآن؟ لا تزيـد المسـافة عـن سـتة أميـال... يمكـن بالتأكيـد لأيِّ صبـيٍّ أن يقطـع تلـك المسـافة في سـاعتين. مـا الـذي حـدث لـه؟

والفتـاة أيضًـا. مـا الـذي يمكـن أن يفعلـه كي يحـرك الأمـور؟ غـاص قلبـه لفكـرة طفلـة عالقـة بـين عائلتـين، واسـتحالة التأكُّـد مـن أنهـا في

المكان الصحيح. وتحوَّلَت أفكاره من الطفلة إلى روبين، وكاد قلبه أن ينكسر. تذكَّر المرة الأولى التي حمله فيها. كان طفلًا صغيرًا وخفيفًا جدا ولكن الحياة كلها موجودة في الحركات الأولية لذراعيه وساقيه. تطلع أرمسترونج طوال حمل بيس إلى محبة هذا الطفل والعناية به - إنتظر اليوم بحماس ونفاذ صبر - ومع ذلك غلبته قوة المشاعر التي إجتاحته. محى الوليد الذي بين ذراعيه كل شيء أخر وأقسم ألا يشعر هذا الطفل بالجوع ولا الوحدة ولا يعرض للخطر أبدا. سيحب ويحمي هذا الطفل الذي كبر غريبا عن الحزن والوحدة. إرتفع في صدره نفس الشعور الأن.

مسح أرمسترونج عيونه. جعلت الحركة المفاجئة طيور الوقواق وأبي الحنَّاء تطير عاليًا وبعيدًا. وقف وردَّ تحية فليت بتدليكةٍ وتربيتة.

"تعالي. أنتِ أكبر من أن نركب سويًّا إلى أوكسفورد، وعلى كلِّ حالٍ لا وقت عندي. ولكن فلنذهب إلى ليكليد. سأتركك بجوار المحطَّة وأركب القطار. سيطعم الأولاد الخنازير عندما يرون أني لم أَعُد".

تنحنحت بنعومةٍ.

أجابها "أحمق؟" تردَّد بينما إحدى قدمَيْه في الرِّكاب "مُمكِنٌ جِدًّا. ولكن ما الذي يمكن فِعلُه سوى ذلك؟ لا أستطيع فعل أي شيء". تأرجح مُعتَليًا السَّرج، واستدار نحو مسار النهر.

سأل أرمسترونج عن مسكن ابنه، وشقَّ طريقه إلى جزء من البلدة به شوارع أكثر اتِّساعًا، وبيوت أكبر ومعتنى بها. أَبطأت خطواته عندما وصل إلى الشارع الذي كان يرسل إليه الخطابات في العامَيْن الماضيَيْن، شاعِرًا بعض الراحة، وعندما وصل إلى المنزل رقم 8 -كبير وفخم ومدهون باللون الأبيض- توقَّف عند البوَّابة وعبس. كان غاليًا جدًّا، بل باهظًا -لم يكن بيته هو نفسه في المزرعة رخيصًا- لم يتردَّد في الإنفاق على راحة ورفاهية أُسرَته... ولكن هذه الفخامة كانت من

مستوى مختلف كلِّيًّا. لم يكن أرمسترونج غريبًا على القِلَل الراقية - كانت حادثة ميلاده تعني أن عددًا من البيوت الفخمة قد فتحت له أبوابها في سنواته الأولى - ولا يخيفه إظهار الثروة بهذا الشكل، ولكن فكرة سكن ابنه في مثل هذا المكان كانت تقلقه. من أين يأتي بالمال لهذا؟ ولكن ربما يستأجر غرفة واحدة في العلية أو - هل ذلك ممكنا؟ - ربما هناك شارع أخر في منطقة أخرى من البلدة يحمل نفس الأسم.

دخل أرمسترونج من باب آخر أصغر يؤدِّي عبر ممرٍّ صغير إلى الجزء الخلفي من المنزل، ودَقَّ على باب المطبخ. فتحت البابَ طفلةٌ في الحادية عشرة أو الثانية عشرة بضفيرةٍ مُسترسلة يبدو عليها الخنوع. هزَّت رأسها نَفيًا ردًّا على سؤاله إن كان هناك شارعان بنفس الاسم.

"في هذه الحالة، فهل يسكن هنا شخصٌ باسم روبين أرمسترونج؟".

ترَدَّدَت الفتاة. بدت وكأنها تنكمش داخل نفسها وتنظر إليه بحدَّة متزايدة لتفحصه في نفس الوقت. كان واضحًا أن الاسم معروفٌ لها، وهَمَّ أرمسترونج بتشجيعها على الكلام عندما ظهرت خلفها امرأة في حدود الثلاثين من عمرها.

"ماذا تريد؟" كان لصوتها جَرْسٌ شَرِس. وقفت مُتخشِّبةً ومنتصبة بذراعين مطويَّتَيْن أمام صدرها، ووجه من النوع الذي لا يعرف الابتسام. ثم تَغيَّر فيها شيء ما. تَبدُّل طفيف في وضع أكتافها وشيء ماجِن في عيونها. بقيت شفتاها ثابتتَيْن، ولكنهما تعطيان الانطباع أنه إن لعب أوراقه بشكل صحيح فهما مستعدَّتَين لِلِّين. يندهش أغلب الناس عند رؤية السيد أرمسترونج من لون بشرته حتى إنهم لا يرون شيئًا آخر، ولكن البعض -النساء في الأغلب- يلاحظون أن لوجهه تقاطيع شديدة الوَسامة.

لم يبتسـم أرمسـترونج، ولم يضيـف عـلى صوتـه نـبرة تَمـلُّـق مـن أجـل الإقنـاع. كان يحمـل التفـاح للخيـل والبِـليَ للأطفـال، ولكنـه حريـصٌ على ألَّا يعـرض أي شيء عـلى الإطـلاق عـلى النسـاء مـن هـذه النوعيـة.

"هل أنت سيدة المنزل؟".

"إطلاقًا".

"مديرة المنزل؟"

هزَّة رأس مقتضبة.

قال بحياد: "أبحث عن السيد أرمسترونج".

منحتـه نظـرةَ تَحـدٍّ، منتظـرة كي تـرى إن كان الغريـب الوسـيم سـيبذل أيَّ جهـد لإسـعادها، وعندمـا بادلهـا نظـرةً لا مبـالاة ثابتـة هـزَّت أكتافهـا.

"لا يوجد سيد أرمسترونج هنا".

وأغلَقَت الباب.

لم يكـن التَّلكُّؤ في شـارعٍ أنيـق في أوكسـفورد لأي فـترة مـن الوقـت أمـرًا سـهلًا؛ لـذا تَمـشَّى أرمسـترونج عـبر الشـوارع الموازيـة غـيرَ راغـب في لَفـتِ الأنظـار إليـه. عنـد كل تقاطُـع نظـر يسـارًا ويمينًـا مُـدرِكًا أنـه يخاطـر بـأن يفوتـه هدفـه تمامًـا. ولكـن عندمـا دارت سـاعته دورةً كاملـة حول السـاعة، ثـم نصـف الـدورة التاليـة رأى هيئـةً نحيلـة بضفـيرة طويلـة مُنسَـدِلة عـلى ظهرهـا تخـرج مـن جانـب المنـزل رقـم 8. أسرع الخُطـى كي يلحـق بهـا.

"يا آنسة! بعد إذنك يا آنسة!".

توقَّفَت الفتاة والتفتت "أوه! هذا أنتَ".

بـدت أصغـرَ وأكـثر بُؤسًـا في الهـواء الطلـق عـمَّا كانـت عليـه عنـد المدخــل.

قال وهو يراها ترتعش: "لا تدعيني أُعطِّلكِ. تعالي، سأمشي معك".

بـادرت الفتـاة قبـل أن يسـأل "لا أعـرف لمـاذا لم تَقُـل لـك. هـل أنـت الـذي تكتـب الخطابـات؟".

"نعم، أكتبها له هنا".

"ولكنه لا يعيش هنا".

"لا يعيش هنا؟".

أصبـح أرمسـترونج مُحتـارًا بحـقٍّ. لقـد تلقَّـى ردودًا عـلى رسـائله، مُختَـصرَة وقصـيرة -في الأغلـب طلبًـا للـمال- ولكنهـا تضمَّنَـت إشـارات لخطاباتـه. لا بُـدَّ أنهـا تَصِلُـه. عبـس أرمسـترونج.

استنشـقت الفتـاة الهـواء البـارد واسـتدارت عنـد ناصيـة. كانـت تمـشي سريعًـا بالنسـبة لشـخص صغـير الحجـم.

أضافت "يقول السيد فيشر ألَّا نبالي بالخطابات، ويضعها في جيبه".

"آهـا"... يوجـد شيء مـا عـلى كل حـال. هـل يجـرؤ أن يعـود ويَـدُقَّ الجـرس اللامـع عـلى البـاب الأمامـي ويسـأل عـن السـيد فيشر؟

قالـت لـه الفتـاة وكأنهـا تسـتطيع قـراءة أفـكاره "لـن يكـون السـيد فيـشر موجـودًا قبـل سـاعات مـن الآن. لا يغـادر السريـر قبـل منتصـف النهـار عـادةً، ويبقـى في جريـن دراجـون حتـى وقـتٍ متأخـرٍ جـدًّا".

هزَّ رأسه "ومَن هو هذا السيد فيشر؟".

"رَجُـلٌ عَفِـن. لم يدفـع لي منـذ سـبعة أسـابيع. مـا الـذي تريـده منـه عـلى كل حـال؟ هـل يديـن لـك بمـال؟ لا تأخـذه".

"لم أقابـل السـيد فيـشر أبـدًا. أنـا والـد السـيد أرمسـترونج. أتصـوَّر أن الاثنـين شُركاء".

قالـت لـه نظرتهـا كلَّ شيء يريـد أن يعرفـه عـن السـيد فيـشر وشركائـه. ثـم رأى شيئًا آخـر يبـدأ في الظهـور في عيـون الطفلـة. إن كانـت لا تحـب

السـيد فيـشر وشركاءه فـما الـذي ستسـتنتجه عـن والـد أحـد هـؤلاء الـشُّرَكاء؟

طَمأنهـا "الفكـرة أننـي أخـشى أن ولـدي قـد يكـون قـد اختلـف مـع السـيد فيـشر. أريـد أن أُبعِـدَه عـن الأذى إن اسـتطعتُ. هـل رأيـت صديقًـا للسـيد فيـشر، شـابًا في حـوالي الرابعـة والعشريـن، بشَـعرٍ بُنِّـيٍّ فاتـح يتلـوَّى عنـد الإلقـاء بياقـة قميصـه، ويرتـدي سُـترةً زرقـاء أحيانًـا؟".

توقَّفَـت الفتـاة، وتوقَّـف السـيد أرمسـترونج بعدهـا بخطـوة أو اثنتـين، واسـتدار ورأى وجههـا. كانـت أكـثر بياضًـا مـن ذي قبـل، إن كان ذلـك مُمكِنًـا.

بصوتٍ كالفحيح قالت: "لقد قُلتَ إنَّكَ والد السيد أرمسترونج!".

"وأنا كذلك. في الحقيقة هو لا يشبهني".

"ولكن هذا الرجل... الذي وصفتَه للتَّوِّ...".

"نعم؟".

"إنـه السـيد فيـشر!". بصَقَـت الكلـمات نحـوه بغضـبٍ طُفـوليٍّ لأنهـا خُدِعَـت. ثـم تغـيَّر وجههـا فجـأة مـن السـخط إلى الخـوف.

"لا تَقُـل لـه إننـي قُلـتُ لـك! أنـا لم أنطـق بكلمـة! أنـا لم أقُـل شـيئًا مُطلَقًـا!".

كان هناك رجاء في صوتها ودموع في عينيها.

عندمـا رأى أنهـا عـلى وشـك الفـرار وضـع أرمسـترونج يـده في جيبـه وأخـرج عمـلات. كبحـت رغبتهـا الغريـزة في الفـرار ونظـرت إلى المال. سـألها بلُطـفٍ "بكـم مـن المـال يديـن لـكِ؟ هـل هـذا يغطِّـي الدَّيـن؟".

تحرَّكَـت نظرتهـا عـدَّة مـرات بـين النقـود وبينـه. كانـت حَـذِرةً وكأنـه وحـشٌ والمـال في الأغلـب خدعـة. عندمـا أتـت نتشـة أصابعهـا كانـت غـير

مُتوَقَّعـة. في طرفـة عـين اختفـى المـال وهـي معـه بينـما تطـير أشرطـة مريلتهـا والضفـيرة خلفهـا حتـى أول شـارع جانبـيٍّ، حيـث اسـتدارات واختفـت.

أبعـد أرمسـترونج نفسـه مـن الجـزء الـثري مـن البلـدة، وعندمـا وصـل إلى شـارع مزدحـم بالمحـلات وأماكـن العمـل دخـل إلى أول حانـة صادَفَهـا، واشـترى مشروبًـا لنفسـه وآخـر للرَّجُـل الأعمـى الـذي يجلـس بجـوار المدفـأة. كان مـن السـهل أن يقـود الحديـث مـن هـذه الحانـة إلى أماكـن الـشُّرب عامَّـة، ثـم إلى جريـن دراجـون تحديـدًا.

قـال لـه الرجـل إنـه لا بـأس بهـا بـين مايـو وسـبتمبر. "يضعـون طـاولات خشـبية في الخـارج، ويجلبـون بعـض الفتيـات ليقدِّمـن المشروبـات. يطلبـون ثمنًـا مبالَغًـا فيـه للـماء والبـيرة، ولكنَّـكَ عـلى الأقـل لا تسـتطيع أن تـرى كـم هـي رديئـة لأنهـم يجعلـون الـورود تتسـلَّق جيمـع الأنحـاء".

"وفي الشتاء؟".

"إنـه مـكان سـيئ. رطوبـة في الخشـب... عندمـا كنـتُ أرى كان قـش التسـقيفة يحتـاج إلى تجديـد، وقـد كان ذلـك منـذ عشريـن عامًـا. يقولـون إن النوافـذ مُتشـقِّقة ولا يحافـظ يلصقهـا ببعضهـا البعـض إلا القـاذورات".

"والناس".

"أشرار. تسـتطيع أن تشـتري وتبيـع أي شيء تريـده في جريـن دراجـون: ياقـوت أو نسـاء أو أرواح. إن كان لديـك صعوبـة في حياتـك اذهـب إلى جريـن دراجـون بـين بدايـة سـبتمبر ومنتصـف إبريـل وسـتجد شـخصًا مـا هنـاك ينزعهـا لـك بمقابـل مناسـب. هـذا مـا يقولونـه وهـي الحقيقـة".

"ما الذي تفعله إن كان لديك مصاعب في الربيع أو الصيف".

"عليك أن تنتظر أو تفعلها بنفسك".

"وأين هو هذا المكان؟" سأله وقد وصل إلى نهاية كأسه.

"أنـت لا تريـد الذهـاب إلى هنـاك. لسـت مـن ذلـك النـوع. قـد لا أكـون مُبـصِرًا، ولكنـي أسـتطيع أن أسـمع صوتـك. إنـه ليـس مكانًـا لرجُـلٍ مهـذَّب مثلـك".

"أنا مضطرٌ. يوجد شخص هناك ولا بُدَّ أن أجده".

"هل يريد أن تجده؟".

"ليس عن طريقي".

"هل هو يدين لك بالمال؟ الأمر لا يستحق".

"ليس مالًا. إنه... عائلي".

"عائلة؟" بدا الرجل كئيبًا.

"ابني. أخشى أنه قد تورَّط مع النوع الخاطئ من الناس".

مـدَّ الأعمـى يـده، وعندمـا أمسـك بهـا أرمسـترونج شـعر بِيَـدِ الرجـل الأخـرى تقبـض عـلى ذراعـه لتقيـس حجمـه وقوتـه.

"أظنُّ أنك رجل يمكنه العناية بنفسه".

"إن اضطررتُ".

"إذًا سأقول لك أين يوجد دراجون. من أجل خاطر ابنك".

الإرشـادت التـي تلقَّاهـا أرمسـترونج أخذتـه عـبر البلـدة مـرَّةً أخـرى، ثم إلى خارجهـا مـن الجهـة الأخـرى. بـدأت تمطـر بينـما هـو يمـشي، وعندمـا بـدأت السـماء تنقلـب إلى درجـاتٍ مـن الزَّهـري والمشـمشي كان قـد وصل إلى مـرجٍ، وكان النهـر عـلى الجانـب الآخـر منـه. عَـبَرَ الجـسر واسـتدار ليمـشي في اتجـاه التيـار. كان المسـار مُحاطًـا بتـوت العُلَّـيق والصفصـاف الـذي يقطـر مـاء المطـر عـلى قُبَّعتـه ونتـوءات جـذور الأشـجار العتيقـة تحـت قدميـه. خفـت الضـوء وكذلـك أفـكاره، ثـم استشـفَّ مـن بـين أشـجار الطَّقسـوس والبهشِّـيَّة والخَـمَان شـكلَ بنـاء ومربَّعـات مـن الضـوء

المعتم هي نوافذه. عرف أنه في المكان الصحيح؛ لأن له أجواء لا يمكن أن يخطئها لمكانٍ قد تبنّاه أشخاصٌ يحب أن تبقى تعامُلاتهم بعيدًا عن الأنظار، وفي الظلام. توقّف أرمسترونج عند النافذة واسترق النظر عبر الزجاج السميك.

في الداخل كانت هناك غرفة ذات سقف منخفض، زاد من انخفاضه أنه مُحدَّب من المنتصف. وُضِع عمود من خشب البلوط سميك، كما لو كان ثلاثة رجال يقفون متجاورين كي يسندوه ويبقوه مرتَفِعًا. كافَحَت مصابيح الغاز كي تصنع تأثيراً على الظِّلال، وبالكاد ساعدتها الشموع على الطاولات. كان الوقت نهاية بعد الظهيرة، ولكن كان للمكان إحساس الليل. جلس بعض الشاربين الوحيدين في الظلال بمحاذاة الحوائط، ولكن الإضاءة الأفضل أتت من النار التي تشتعل في المدفأة، وبجوارها طاولة يجلس حولها خمسة رجال. أخفض أربعة من الرجال الخمسة رؤوسهم حول لعبة ورق، ولكنَّ واحدًا منهم وقف ومال كرسيه على قوائمه الخلفية مستندًا على الحائط. كانت عيونه شبه مُغلَقة، وخمَّن أرمسترونج من ميل رأسه أن نظرته مخادعة. كان ابنه -فقد كان ذلك هو روبين- يصوِّب نظره من بين الشقِّ الضيق في عينيه نحو كروت الرجال الآخرين.

عبر أرمسترونج من أمام النافذة وفتح الباب. استدار الرجال الخمسة جميعهم باتجاهه وهو يخطو إلى الداخل، ولكن الجو كان مُعبقًا بالدخان، وكان يكاد يختفي خلف العمود- لم تعرف هُويَّته بعدُ. أنزل روبين كرسيَّه على الأرض وأشار إلى شخص في زاوية مُظلِمَة بينما يضيق عينيه غير مبصر عبر الضباب نحو المكان الذي يقف فيه أرمسترونج. شعر أرمسترونج بعد ثانية بأن شخصًا غير مرئي قد قبض على ذراعيه من الخلف. كان مهاجِمُه أقصرَ منه بمقدار رأس ونصف، وذراعاه نحيلة، ولكنه يقبض مثل حبل من السِّلك. كان الشعور بأنه ممسوكٌ رغم إرادته غير مألوف لأرمسترونج. لم يكن متأكِّدًا من أنه

يستطيع أن يُحرِّر نفسه، مع أن الرجل كان صغير الحجم، حتى إن حافة قبعته دخلَت بين عظمَتَيْ أكتاف أرمسترونج. اقترب رجلٌ ثانٍ بحاجب واحد يستقرُّ منخفضًا فوق عينيه وتفحَّصَه.

أعلن "رَجلٌ غريب الشَّكل. لا أعرفه".

قال روبين: "إذًا تخلَّص منه".

حاول الرجل أن يديره نحو الباب، ولكنه قاوم.

قال: "مساء الخير يا سادة"، وهو يعرف أن صوته كافٍ وحده كي يُربِك الأمور. شعر بالدهشة في مسكة رجُل السِّلك، ولكن قبضته لم ترتخِ. نظر إليه ذو الحاجب الواحد مرَّةً أخرى مُتردِّدًا، واستدار نحو الطاولة متأخِّرًا عن أن يرى ما رآه أرمسترونج: لمعة المفاجأة على وجه روبين التي كبتها فورًا.

قال أرمسترونج: "أتصوَّر أنك ستجد أن السيد أرمسترونج يراني".

وقف روبين. أشار برأسه إلى حُرَّاسه، وشعر أرمسترونج أن يديه تُطلقان.

عاد الرجلان إلى الظلال، واقترب روبين بالوجه الذي رآه أرمسترونج آلاف المرَّات من قبل، من الطفولة المبكِّرة وحتى فجر شبابه. كان السخط الوَقِح لطفلٍ يقف والداه في طريقه. تفاجأ لرؤية كم هو مخيف على وجه رَجُلٍ بالغ. إن لم يكن والد روبين، إن كان رجُلًا ذا بنية أضعف كان سيخاف.

همهم روبين "اخرُجْ"، وخطا خارج الحانة، ووقف على بُعد ياردة في بقعة نصف مُظلِمَة على شاطئ من الحصى بين النهر والحانة.

"هل هذا هو المكان الذي يذهب إليه مالُكَ؟ القمار؟ أم أنك دائمًا ما تحتاج إلى مال من أجل المنزل؟ إنك تعيش بشكل يتجاوز إمكانياتِك".

خرجت من فتحتي أنف ابنه نفخة احتقار، وسأل بصوتٍ خافت "كيف وجدتني؟".

لم يتمالك أرمسترونج دهشته. كان دائمًا ما يتوقَّع شيئًا أفضل. "أليس لديك تحية أفضل لوالِدِكَ؟".

"ماذا تريد؟".

"وأُمُّك... ألا تسأل عنها؟".

"أتوقَّع أنك تحكي لي إن كان بها مكروه".

"هناك مكروه. ولكنه لم يُصِب أُمُّكَ".

"يهطل المطر. قُل لي لِمَ أتيتَ لتراني كي أعود إلى الداخل".

"ما هي نواياك بخصوص الطِّفلة؟".

"ها! هل هذا كل شيء؟".

"كل شيء؟ روبين، إننا نتحدَّث عن طفلة. إن سعادة عائلَتَيْن على مَحكٍّ هنا. هذه ليست أشياء نأخذها بخفَّة. لماذا التأجيل؟".

ظنَّ أنه رأى فمَ ابنه يلتوي بسخرية في الضوء الذي يتلاشى سريعًا.

"هل هي ابنتك؟ إن كانت كذلك فماذا تنوي أن تفعل حيال هذا الأمر؟ وإن لم تكن...".

"ليس لك شأن".

تنهَّد أرمسترونج. هزَّ رأسه ونظر إلى اتجاه آخر. "لقد ذهبت إلى بامبتون".

نظر روبين إلى أرمسترونج نظرةً أكثر حدَّة، ولم يَقُل شيئًا.

"ذهبت إلى المنزل الذي كانت تسكن فيه زوجتك. مكان موتها".

لم يَقُل روبين شيئًا أيضًا، ولم تتحوَّل حِدَّة عدوانيته.

"هـذا العشـيق الـذي اتَّخَذتـه زوجتُـكَ... لا يعرفـون شـيئًا عـن وجـود مثـل هـذا الرجـل".

لا شيء أيضًا.

"أرَدتُ أن آخذ صاحبة المنزل إلى بوسكوت لترى الطِّفلة، ولكنها...".

"كيـف تجـرؤ؟ هـذا شـأني أنـا... أنـا وحـدي. أنـا أُحـذِّرك: ابتَعِـدْ عـن شـؤوني".

اسـتغرق أرمسـترونج لحظـةً كي يتعـافى. "شـأنُكَ؟ روبـين، إن مسـتقبل طفلـةٍ عـلى المحـكّ هنـا. إن كانـت ابنتَـكَ فهـي حفيـدتي. إن لم تكـن ابنتـك فهـي ابنـة عائلـة فـون. لا يمكـن القـول إنـه شـأنك وحـدك في كلتـا الحالتـين. أيًّـا كان، فهـو شـأن عائـلي".

"عائلي!" بصق روبين الكلمة مثل مَسبَّة.

"مَن هو أبوها يا روبين؟ الطفلة تحتاج إلى أب".

"لقد أبليت بلاءً حسنًا بدونه".

دار روبـين مُبَعـثِرًا الحـصى تحـت كعبيـه، وكان عائـدًا نحـو جريـن دراجـون عندمـا أمسـك أرمسـترونج بكتفـه. لم يتفاجـأ أرمسـترونج كثـيرًا عندمـا اسـتدار ابنـه بسرعـة وعنـف واندفَعَـت قبضتـه نحـوه. رفعـت غريزتـه ذراعًـا لحمايتـه، ولكـن قبـل أن تصطـدم القبضـة التـي رُمِيَـت بشراسـة قابَلَـت قبضتـه أوَّلًا لحـمًا وأسـنانًا، ولعـن روبـين.

قال أرمسترونج "سامِحني. روبين... أنا آسف. هل أُصِبتَ؟".

ولكـن روبـين اسـتمرَّ في توجيـه الـركلات واللكـمات نحـو أبيـه، في مشـاجرة غريبـة، بينـما يمسـك أرمسـترونج بكتفيـه ليبقيـه عـلى مسـافة كي تقـع ضربـات القبضـات والأقـدام عنـد نهايـة مداهـا، حيـث تكـون أغلـب القـوة قـد غادرتهـم. أمسـك بروبـين هكـذا مـرَّاتٍ كثـيرة عندمـا كان طفـلًا وفتـى. وقتهـا كان كلُّ هَمِّـه هـو مَنـعُ روبـين مـن إيـذاء نفسـه في غضبـه.

أصبحت لكلمات ابنه الآن أكثر خِبرةً، وخلفها قوة أكبر، ولكنها لا تزال لا تكافئ طوله هو وقوته الأكبر. طار الحصى واللعنات، وانتبه أرمسترونج إلى أن الصوت سيجلب مراقبين إلى النافذة بكل تأكيد.

ما أنهى الشجار هو صوت باب الحانة وهو يُفتَح.

أتى صوتٌ عبر المطر: "كل شيء على ما يرام؟".

فجأة هجر روبين الشجار وأجاب: "كل شيء جيد".

بقي باب الحانة مفتوحًا: يبدو أن شخصًا ما استمرَّ في المراقبة من المدخل.

استدار ابنه بلا مصافحة.

"روبين!" صاح أرمسترونج بصوتٍ منخفض من خلفه. وبصوتٍ أكثر خفوتًا "يا ابني!".

استدار روبين على بُعدِ عدَّة ياردات. تكلَّم بصوتٍ منخفضٍ جِدًّا، يكاد لا يُسمَع في صوت المطر، ولكن كلماته وصلت إلى هدفها، وآلَمَت كما لا يُمكِن لقبضته أن تُؤلِم "أنتَ لستَ أبي. وأنا لست ابنَكَ!".

وصل إلى الباب وتبادل كلمة مع مُرافِقه، ودخل مُغلِقًا الباب دون أن ينظر خلفه.

مشى أرمسترونج عائِدًا إلى النهر. تعثَّر في صفصافة، وكاد يقعد على أحد الجذور المتغضِّنة الكامنة في الظلام، وجرى ماء المطر على رقبته. كانت مفاصل أصابعه تؤلمه، وكان الأذى الذي كاد ألَّا يشعر به في وقتها قد أصبح الآن ألمًا حادًّا. لقد أصاب فم روبين وأسنانه. رفع يده إلى فمه وذاق دماء. دماءه أم دماء ابنه؟

سرى النهر مُستثارًا من المطر ومن سرعته نفسها، ووقف أرمسترونج صامِتًا وثابِتًا في المطر، ضائِعًا في تأمُّلاته.

"أنـتَ لسـتَ أبي، وأنـا لسـتُ ابنَـكَ". يمكنـه دفـع أي شيء مقابـل إرجـاع هـذه اللحظـة. مـا الـذي كان يمكـن أن يفعلـه بشـكل مختلـف؟ مـا الـذي كان يمكنــه أن يقولــه كي يجعــل الأمــر أفضــل؟ لقــد أخطــأ، وربمّــا يكــون خطـؤه هـذا قـد قطـع الصِّلَـةَ التـي كان مـن الممكـن -في بضعـة أسـابيع، أو شـهور، أو سـنين- أن تنشـط فتصبـح دافِئـةً وودودًا مـرَّةً أخـرى. مـا حـدث للتَّـوِّ يبـدو وكأنـه نهايـة كل شيء. لقـد فقـد ابنـه، ومعـه العـالم.

سرى مــاء المطــر مــع دموعــه، ورنَّــت الكلــمات مــرَّةً تلــو المــرة في أفــكاره. "أنــتَ لســتَ أبي، وأنــا لســتُ ابنــك".

هــزَّ رأســه أخـيرًا وهــو مُبلَّــل وبــارد، وأجـاب في كلـمات لا يسـمعها إلَّا النهـر "روبـين. ربمـا لا تكـون ابنـي، ولكنـي لا أملـك إلا أن أكـون والِـدَكَ".

استدار مع النهر، وبدأ رحلة العودة إلى المنزل.

بعض الحكايات لا تُحكَى

توجد قصص يمكن أن تُحكَى بصوتٍ عالٍ، وقصص يجب أن تُحكى همسًا، وهناك قصص يجب ألَّا تُحكَى أبدًا. قصة زواج السيد والسيدة أرمسترونج كانت من النوع الأخير: مجهولة، إلَّا للطَّرفَين اللذين يملكانها، وللنهر. ولكن كزائرين سِرِّيَّين لهذا العالم، كعابرين للحدود بين عامل وآخر، لا يوجد ما يمنعنا من الجلوس بجوار النهر وفتح آذاننا، عندها سنعرفها نحن أيضًا.

عندما وصل السيد أرمسترونج إلى عمر الحادية والعشرين أعطاه أبوه مزرعة. اقترح وكيلُ أراضٍ عددًا من الملكيَّات، وذهب روبرت ليزورها جميعًا. كانت التي تطابق آماله وتوَقُّعاته بأفضل شكلٍ ملكًا لرجل يُدعى فردريك ماي. كان السيد ماي مزارعًا جيدًا، ولكن لم يكن لديه سوى بناتٍ، وقد تزوَّجَت تلك البنات من رجال يملكون هم أنفسهم ما يكفي من الأراضي. جميعهن، ما عدا واحدة كانت

مشلولةً وغير متزوِّجة وتبقى في المنزل. وصل السيد ماي إلى عمر كبير، وقرَّر هو وزوجته بيع جميع أراضيهم، ما عدا قطعة من الأرض تحيط بكوخ صغير يملكونه أيضًا غيرَ بعيدٍ عن بيت المزرعة. سيعيشون في الكوخ ويزرعون الخضروات والزهور، يتركون متاعب الأرض والبيت الكبير لشخصٍ آخر. سيبقون ميسورين بعائد المزرعة، وإن لم تكن إمكانية المهر الجيِّد كافيةً لتزويج ابنتهم الصغرى، فعلى الأقل سيحميها المال عندما يرحلون.

فحص روبرت أرمسترونج الأرض، ورأى أنها تُروَى من النهر. رأى أن الضفاف ثابِتة، والممرَّات المائية خالية من الأعشاب الطُّفَيليَّة والنفايات، ولاحظ أن السياج مُعتَنًى به، والماشية مُشرِقة، والحقول محروثة في صفوف مستقيمة. قال: "نعم. سآخذها".

قال الناس: "لا يمكن أن تبيعوها له. ليس إلى هذا الرجل الأجنبي!"، ولكن كل المشترين الآخرين حاولوا أن يفاوضوا السيد ماي على السِّعر، وقاموا بخدعة تلو الأخرى ليحصلوا على أيِّ ميزة، بينما عرض الرجل الأسود السِّعرَ المطلوب، وتمسَّك به، بالإضافة إلى أن السيد ماي الذي كان معه وهو يتجوَّل في المزرعة رأى أنه يُقدِّر استقامة خطوط المحراث، وشاهد تعامُلَه مع الخراف والأبقار، وفي وقتٍ قصير كان قد نسي لون بشرة السيد أرمسترونج، وفَهِمَ أنه إن كان سيفعل أفضل شيء بالنسبة للأرض والماشية فالسيد أرمسترونج هو رَجُله.

سأل السيد ماي "ماذا عن الرجال الذي عملوا لديَّ لزمَنٍ طويل؟".

قال أرمسترونج: "مَن يريد أن يبقى سيبقى، وإن عملوا جيِّدًا فستزدد أجورهم، وإن لم يعملوا جيِّدًا فسيرحلوا بعد أول حصاد"، ومن ثمَّ عُقِدَ الاتفاق.

رفض عَددٌ من العُمَّال العمل لدى زنجي، ولكنَّ الآخرين بقوا، وإن تذمَّروا في البداية. مع الوقت وازدياد معرفتهم بصاحب العمل الجديد

اكتشفوا أنه رَجُلٌ مثل أي رجُلٍ آخر، وأفضل قليلًا. تمسَّك عددٌ صغير من الرِّجال -شباب مثله- بالاحتقار، يضحكون ضحكًا مكتومًا في وجهه، ويشيرون من ورائه. استخدموا ازدراءهم له كسببٍ ليتكاسلوا في عملهم -لِمَ يَكدُّون من أجل رَجُلٍ مثله؟- ولكنهم يقبضون أجرهم يوم الجمعة، ثم يسيئون إليه حين يصرفونه في الحانات المحيطة بكلمسكوت. بدا أنه لا يلاحظ، ولكن في الحقيقة كان يراقبهم عن كثب بينما ينتظر ليرى إن كانوا سيستقرُّون أم لا.

خلال ذلك الوقت كان على روبرت أرمسترونج أن يكسب أصدقاء. أكثر رجل يعرفه كان الرجل الذي اشترى منه المزرعة، واعتاد على زيارة السيد ماي مرَّةً في الأسبوع في كوخه غير البعيد عن بيت المزرعة. يجلس هناك لساعة يتحدَّث عن الزراعة مع الرجل الذي كان سعيدًا بتذكُّر العمل الذي شَكَّل حياته، والذي أصبح أضعف من أن يقوم به. تجلس السيدة ماي في الرُّكن تحيك، وكلَّما سمعت صوت الزائر، الذي كان أفضلَ تعليمًا من الأغلبية، وكلَّما سمعت ضحكته التي كانت سَخِيَّةً وطَلَقَةً، والتي تجعل زوجها يضحك في المقابل- كُلَّما أحَبَّته أكثر. تَدخُل ابنتهم كلَّ فترة لتأتي بالشاي أو الكعك.

مرضت بيسي ماي وهي طفلة صغيرة، والأثر الباقي كان أنها تتأرجح في مشيتها من جانب إلى آخر. تغوص بشكلٍ واضح وهي تمشي عندما تخطو على الأرض بقدمها اليسرى. كانت تجتذب تحديق الأغراب، وحتى الأشخاص الذين يعرفونها كانوا يقولون إنه يجدر أن تبقى في الداخل بدلًا من أن تتجوَّل "هكذا". إن كانت المشية فقط فربما كانوا سيعبسون أقلَّ، ولكن هناك أمر العين أيضًا. كانت تلبس عصابةً فوق عينها اليُمنَى... ليست نفس العصابة طوال الوقت، ولكن عصابة مختلفة حسب لون فستانها. يبدو أن لديها عددًا من العصابات يساوي عدد فساتينها، وأحيانًا كانت تُصنَع من قطعة من نفس القماش بأشرطةٍ تربطها، تلتفُّ حول الرأس، وتختفي داخل

شَعرها الجميل الأشقر. كان لها هيئة مُرتَّبَة وعناية بمظهرها يجدها الناس مُزعِجة. كانت وكأنها تظنُّ نفسها مثل أي فتاة أخرى، كما لو كانت تتوقَّع نفس الفُرَص. حسب الرأي العام كان يجب أن تلزم منزلَ العائلة، وأن تجعل من الواضح أنها تعرف ما يعرفه كل شخص آخر: أنها غير صالحة للزواج، وأن العنوسة مُحتَّمة عليها. عِوَضًا عن ذلك كانت تتقافز إلى قلب الكنيسة لتأخذ مكانها في الصفوف الوسطى، بينما كان من الممكن أن تنساب إلى الصفوف الخلفية وتجلس غير ملحوظة.

كانت تعرج حتى المقعد في الحديقة في الجو الصَّحو، وتجلس مع كتاب أو قطعة تحيكها، وفي الشتاء تلبس القفازات وتمشي إلى أي مكان تكون الأرض فيه مستويةً بشكلٍ كافٍ. عندما كانت الأرض مُغطَّاة بالثلج كانت توجِّه نظراتٍ حاسدةً إلى مَن تسمح لهم سيقانهم بالمخاطرة فوق الثلج. من وراء ظهرها كان الصِّبيان المشاكسون -في الحقيقة نفس الصبيان الذين يشيرون بإشارات ساخرة من خلف ظهر روبرت أرمسترونج- يقلِّدون مشيتها المتأرجحة والمتدلية. مَن يعرفونها منذ الطفولة قبل أن ترتدي العصابة يتذكَّرون كيف كانت عينها تُظهِر قدرًا زائدًا من البَياض، بينما ينحرف جَنينُ العين إلى الأعلى مبتعدًا. قالوا إنك لم تكن قادرًا على تحديد اتجاه نظرتها، أو ما الذي تراه. في وقتٍ ما كان لدى بيسي ماي أصدقاء. شِلَّة صغيرة من الفتيات يمشين من وإلى المدرسة سويًّا، ويَزُرن بعضهن البعض، ويشبكن أذرعهنَّ وهُنَّ يَتمشَّيْن. تساقطت تلك الصداقات عندما أصبحت الفتيات نساء. ربما كانت الفتيات الأخريات خائفات أن يكون تَشوُّه بيسي مُعدِيًا، أو أن الرجال سيبتعدون عن أي فتاة تمشي بجوار بيسي. وعندما اشترى روبرت أرمسترونج المزرعة كانت بيسي قد أصبحت وحيدةً. كانت تمشي برأس مرفوعة، وتبتسم، ولم يتغيَّر أي شيء في سلوكها الخارجي نحو العالم. ولكنها كانت تعرف أن العالم قد غيَّر سلوكه تجاهها.

إحـدى المتغـيِّرات كانـت في الطريقـة التـي يتـصرَّف بهـا الشـباب في القريـة. في عمـر السادسـة عـشرة بضفائرهـا الشـقراء وابتسـامتها الجميلـة وخصرهـا الأنيـق لم تكـن خاليـة مـن الجاذبيـة. إن رأيتهـا جالسـة عندمـا تكـون العصابـة بعيـدةً عندهـا سـتتصوَّر أنهـا إحـدى أجمـل فتيـات القريـة، ولم يكـن ذلـك غائبًـا عـن الشـباب الـذي بـدأوا ينظـرون إليهـا بطريقـة فجَّـة. عندمـا تقيـم الشَّـهوة بجوار الازدراء في نفـس القلـب فإنهـا تُنتِـج الشَّـيطَنَة. يحدّشـق الشـباب فيهـا إن صادفوهـا في طريـقٍ فـارغ، ويسرعـون نحوهـا وهـم يعرفـون أنهـا لا تسـتطيع أن تقفـز جانبًـا بسـهولة لتتفـادى أيديهـم الممتـدَّة. وصلـت بيـسي إلى المنـزل أكـثر مـن مـرَّة بعـد مَهمَّـةٍ مـا بتنُّـورة مُتَّسِـخة، وأيـادي مخدوشـة لأنهـا "تَعـثَّرَت".

كان روبـرت أرمسـترونج يعـرف رأي شـباب القريـة فيـه. فهـم أيضًـا مـن خـلال مراقبتهـم خلسـةً رأيَهـم في بيـسي مـاي. في إحـدى الأمسـيات، عندمـا قـام بزيـارة مـن زيارتـه الدوريَّـة إلى منـزل عائلـة مـاي هـزَّ السـيد مـاي رأسـه "ليـس الليلـة يـا أرمسـترونج". أنبأتـه يـدُ صديقـه المرتعشـة وعيونـه الدامعـة بـأن هنـاك أزمـة مـا. وخـشي أنـه يعـرف مـا الأزمـة؛ لأنـه شـاهد الشـباب في المزرعـة، وسـمع مَقاطِـعَ مـن حـوار ضاحـك ذُكـرَ فيـه أحـد الأولاد اسـم بيـسي بتفاخـر مصحـوبٍ بإشـارات بذيئـة.

في الأيـام التاليـة لم يَـرَ بيـسي. لم تكـن في الكنيسـة، ولا عـلى المقعـد في الحديقـة. لم تَقُـم بمهـامَّ في القريـة، ولم تعـتنِ بالحديقـة. عندمـا ظهَـرَت مـرَّةً أخـرى كان هنـاك شيء قـد تَغـيَّر فيهـا. كانـت مُهندَمَـةً ونشـيطة كـما مـن قبـل، ولكـن بسـاطة وطبيعيـة اهتمامهـا بالعـالم تَبَدَّلَـت بـشي أكـثر قتامـة. تصميـم عـلى ألَّا تُهـزَم.

فكَّـر أرمسـترونج في الأمـر، واتَّخـذ قـراره، ثـم نـام، وعندمـا اسـتيقظ كان القـرار لا يـزال يبـدو جيِّـدًا. اعـترض طريـق بيـسي عنـد شـاطئ النهـر في طريقهـا لإيصـال غـداء أبيهـا لـه، حيـث يفسـح الزعـرور المجـالَ لأشـجار

البنـدق. رآهـا تجفـل وتفـزع عندمـا أدرَكَـت أنـه لا يوجـد شـخصٌ آخـر في مجـال بصرهـا. وضـع يديـه خلـف ظهـره ونظـر إلى أقدامـه وهـو ينطـق اسـمها... "آنسـة مـاي، لَـم نتحـدَّث إلا قليـلًا مـن قبـل، ولكنـك تعرفـين مَن أنـا. أنـتِ تعرفـين أننـي صديـقٌ لوالـدكِ، ومالِـك هـذه المزرعـة. وتعرفـين أني أدفـع ديـوني في موعدهـا، لـديَّ القليـل مـن الأصدقـاء، ولكنـي لسـت عـدوَّ أحـد. إن أَرَدتِ شـخصًا يقـف بجـوارك أرجـو أن تـأتي إليَّ. لا يوجد شيءٌ أحبُّـه أكـثر مـن أن أُسَـهِّلَ لـكِ حياتَـكِ، سـواء كان ذلـك كصديـقٍ أو كـزوجٍ؛ فذلـك قـرارُكِ أنـتِ. أرجـو أن تعـرفي أني في خدمتـك".

رفع رأسه، والتقى بعينها المندهشة، ومنحها انحناءةً مُقتَضَبة ورحل.

في اليـوم التـالي أتى إلى نفـس المـكان في نفـس الوقـت، وكانـت هنـاك بالفعـل. بـدأت في الـكلام... "سـيد أرمسـترونج. أنـا لا أعـرف كيـف أتحـدَّث كـما تتحـدَّث أنـتَ. لديـكَ كلـماتٌ أرقـى منـي. قبـل أن أقـول لـك أي شيء بخصـوص مـا قُلتَـه لي بالأمـس، يجـب أن أفعـل شـيئًا. يجـب أن أفعلـه الآن، وعندمـا أفعلـه قـد يختلـف شـعورك بخصـوص كل شيء".

هزَّ رأسه.

أخفضـت رأسـها ورفعـت أصابعهـا نحـو العصابـة وشـدَّتها فـوق قصبـة أنفهـا حتـى غطَّـت عينهـا الجيِّـدة وكشـفت عينهـا الأخـرى. ثـم أدارت عينهـا إليـه.

تفحَّـص أرمسـترونج عـين بيـسي. بـدا وكأنهـا ترتعـش بحيـاةٍ خاصَّـة بهـا. كانـت سـطح قزحيَّـة العـين المائلـة عـن مركزهـا بنفـس اللـون الأزرق لتوأمـه، ولكـن بـه موجـة أعمـق مـن لـونٍ داكـن، وجنـين العـين المألـوف الـذي يـراه المرء يوميًـا في كل وجـه مألـوف غريبًـا في وجـه بيـسي بسـبب انحرافـه. فجـأة شرد عـن تحديقـه لإدراكـه أنـه هـو مَـن يتـمُّ التدقيـق فيـه. شـعر أنـه يُـشرَّح، عاريًـا تحـت نظرتهـا. فجـأة تذكَّـر وقـد انكشـف لنظرتهـا وقائـعُ خِـزيٍ في صبـاه. اسـتعاد لحظـاتٍ تَـصرَّف فيهـا بطريقـةٍ أقـلَّ شَرَفًـا

مـمَّا يتمنَّـى. تذكَّـر وقائـع إهـمال وجحـود. شـعر بوخـزة نـدم، وقـرَّر ألَّا يفعـل نفـس الـشيء مـرَّةً أخـرى. شـعر أيضًـا بالارتيـاح أن تلـك التصرُّفـات الصغـيرة الدَّالَّـة عـلى الإهـمال كانـت كل مـا ينـدم عليـه في حياتـه.

لم تَـدُم تلـك اللحظـة طويـلًا. عندمـا انتهـت أخفضـت بيـسي رأسـها وعدلـت العصابـة. أدارت لـه وجههـا المعتـاد، ولكنـه كان مُتغـيِّرًا. كانـت بـه دهشـة، وشيء آخـر أدفـأه، وجعـل قلبـه يرتجـف. لانـت عينهـا الجيـدة وامتـلأت بـودٍّ وليـد، وحتـى بإعجـاب. كان نـوع المشـاعر الـذي قـد يـؤدِّي يومًـا مـا -هـل يقـدر أن يـترك نفسـه تُصـدِّق؟- إلى الحـب.

"هنـاك شيء يجـب أن تعرفـه عنـي يـا سـيد أرمسـترونج". تحدَّثَـت بصـوتٍ منخفـض وثابـت.

"أعرفه".

"لا أعني هذا"، مشيرة إلى العصابة.

"لا أعنيه أنا أيضًا، ولا عَرَجك".

حدَّقَت فيه "كيف تعرف؟".

"خمَّنتُ".

"ولا تزال ترغب في الزواج مني؟".

"نعم".

"ولكن إن كان...؟".

"إن كان هناك طفل؟".

هزَّت رأسها، واحمرَّت وهي تنظر إلى الأرض خجلًا.

"لا تسـتحي يـا بيـس. لا يلتصـق بِـكِ عـار في هـذا الأمـر. العـار يحملـه شـخص آخـر. وإن كان هنـاك طفـل فسـنربِّيه أنـا وأنـتِ ونُحبُّـه، كما سـنُربِّي ونُحـبُّ أبناءنا".

رفعت رأسها، والتقت بنظرته الثابتة "إذًا، نعم يا سيدي أرمسترونج. نعم، سأصبح زَوجتَكَ".

لم يتبادلا القُبَل أو حتى يتلامَسَا. طلب منها ببساطة أن تُعلِمَ أباها أنه سيزوره في وقتٍ لاحقٍ من اليوم.

"سأقول له".

زار أرمسترونج السيد ماي، وتم الاتِّفاق على زواج.

عندما وصل الشاب الذي كان مُزعِجًا في المزرعة -وأسوأ من مُزعِجٍ فيما يخصُّ بيسي- إلى العمل في الصباح التالي باختياله المعتاد، كان أرمسترونج يتنظره. أعطاه الأجر الذي يدين له به وصَرَفَه. قال له: "إن سَمِعتُ أنَّكَ في محيط اثني عشر ميلًا من هذا المكان فستُؤذى" بنبرة صوتٍ هادئة، حتى إن الشاب رفع بصره بدهشة ليرى إن كان ما سمعه صحيحًا، ولكن النظرة في عين أرمسترونج أخبرته أن الأخير يعني كلَّ كلمة قالها، وبدلًا من الرَّدِّ الوَقِح الذي كان يريد قولَه غادَرَ صامِتًا وهو يسبُّ ويلعن بصوت خافت.

أُعلِنَت الخِطبَة، وأعقبها بوقتٍ قصير الزِّفاف. تكلَّم الناس. الناس دائمًا يتكلَّمون. امتلأت الكنيسةُ في يوم زواج المُزارِع الأسمر على العروس الباهتة المشوَّهة بالفضوليِّين. تَضمَّن الأمر ثروة -أوه، لقد أبلت بلاء حسنًا على هذا الصعيد- وقد نال أفضل من المتوقَّع، على الأقل بعيونها الزرقاء وشَعرها الأشقر وقوامها الرشيق. ولكن التهاني كانت مصبوغةً بلون الشفقة، ولم يحسدهم أحد. ساد شعورٌ عام بأن من المنطقي أن يجد الثنائي غير المرغوب للزواج بعضهما البعض، وشعر كلُّ مَدعوٍّ أعزب بالارتياح: شكرًا لله أنهم لن يضطرُّوا للقيام بمثل هذه التنازُلات الجسيمة في اختياراتهم. العامل الفقير أفضل من مالِكِ أرضٍ أُمُّه زنجيَّة. عاملة الغسيل الفظَّة أفضل من ابنة المُزارع الحَولاء التي تعرج.

عندما بدأت بطن بيسي تنتفخ بعد بضعة شهور من الزواج كانت فضيحة. أي نوع من الأطفال سيكون؟ بالتأكيد وحش. توقَّفَت بيسي عن الخروج من المزرعة بعد أن بدأ الأطفال ينادونها بأسماء قاسية في الشارع. انتظرت بقَلَقٍ، ولكن أرمسترونج كان يُطَمئِنها بحديثه. يُريحها صوته، وعندما يضع يديه على بطنها التي تكبر ويقول: "كل شيء سيكون بخير"، لم تكُن تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير أنه سيكون بخير فعلًا.

ذهبت القابِلَةُ التي وَلَّدَت الطفل إلى أصدقائها فور مغادرتها، ونقَلَت الخبر سريعًا للآخرين. أي وحش خرج من بين ساقَيْ بيسي الحَولاء، والذي وضعه في داخلها زَوجُها ذو البشرة القاتمة؟ أُحبِطَ الذين توقَّعوا ثلاثَ عيونٍ وشَعرًا صوفيًّا وأطرافًا مُنكَمِشَة. كان الطفل طبيعيًّا. ليس ذلك فقط. غرَّدَت بنشوة "جميل! مَن كان يتوقَّع ذلك؟ أجمل طفل رأيته على الإطلاق"، وسريعًا رآه الآخرون أيضًا. ذهب أرمسترونج إلى جميع الأنحاء على ظهر حصانه، ورأى الجميع الطفل على رُكبَتِه: شَعرٌ فاتِحٌ مُجعَّد، بَشرَة ممتلئة بالصِّحَّة، وابتسامة ساحرة، حتى إنَّكَ لا تملك سوى أن تُبادِلَه الابتسام.

قال أرمسترونج: "فلنُسمِّه روبرت على اسمي"، وهكذا عُمِّد، ولكن لأنه كان طفلًا صغيرًا أطلقوا عليه روبين، واستمرَّ معه روبين وهو يكبر؛ لأنها طريقة التفرقة بين الأب والابن. مع الوقت صار هناك أطفال آخرون أيضًا، بنات وصبيان، وجميعهم أطفالٌ مُعافون وسعداء. البعض أسمر، والبعض أقلُّ سَمارًا، وبالبعض يكادون يكونون شُقرًا، إلَّا أن ليس منهم مَن هو في شُقرة روبين.

كان أرمسترونج وبيسي سُعداء، وصنعوا عائلةً سعيدة.

تصوير أميليا

أتى يوم الانقلاب الربيعي قريبًا من آخر أسبوع في شهر مارس. تَساوى الضوء مع الظلام، وتَوازَن النهار والليل تمامًا. حتى شؤون البشر شَهِدَت لحظة تَوازُن. كانت مياه النهر عالية. من عادة النهر أن تَعلو مياهه في الانقلابات.

استيقظ فون أوّلًا. كان الوقت متأخِّرًا؛ فقد ناموا خلال زقزقة العصافير الأولى، وتلاشى الظلام، وكان الضوء ينتظر خلف الستائر.

بجواره لا تزال هيلينا نائمة وإحدى ذراعيها مُلقاة فوق رأسها على الوسادة. قَبَّل البشرة الناعمة في الجزء الداخلي من ذراعها. ابتسَمَت دون أن تفتح عينيها، وتَزحزَحَت مُقتَرِبةً من دفئه. كانت لا تزال عاريةً منذ ليلة أمس. في هذه الأيام كانوا ينزلقون من المتعة إلى النوم، ومن النَّوم إلى المتعة مرَّةً أخرى. عثرت يده على ضلوعها تحت

الغطـاء، وتجوَّلـت إلى الأحنـاء الناعمـة لخصرهـا وردفهـا. لكزتـه بأصبـع قدمهـا.

لاحقًـا قـال: "نامـي لسـاعةٍ أخـرى إذا أردتِ. سـأعطيها فطورهـا". هـزَّت رأسـها وابتسَـمَت وأغمَضَـت عينهـا. كان كلاهـما الآن قـادِرًا عـلى النـوم طويـلًا لتسـع أو عـشر سـاعاتٍ في المـرَّة ليعوِّضـوا سـنوات الأرق. كان ذلـك مـن فِعـل الطفلـة. لقـد أصلحـت لياليهـم، وأصلحـت زواجهـم أيضًـا.

جلـس مـع الطفلـة في صُحبَـةٍ صامتـة في غرفـة الإفطـار. عندمـا كانـت هيلينـا موجـودةً كانـت تثرثـر مـع الطفلـة بـلا انقطـاع، ولكنـه لم يحـاول أن يتحـدَّث معهـا أو يلفـت انتباههـا بـأيٍّ شـكلٍ مُتعمَّـد. عِوَضًـا عـن ذلـك كان يدهـن الزُّبـدَ عـلى خبزهـا ويفـرد فوقـه المـربَّى ويقطعـه إلى شرائـح بينـما هـي تتفـرَّج مسـتغرقة. كانـت تـأكل بتركيـز مسـتغرقة داخـل نفسـها، حتـى تقـع بقعـة ضخمـة مـن المربى مـن طـرف الخبـز إلى الطاولـة، فتنظـر إلى الأعـلى لـترى مـا إن كان قـد رآهـا. عيناهـا -التـي تصفهـما هيلينـا بأنهـما خـضراوان، ويصفهـما هـو بأنهـا زرقـاوان، كانتـا عَصيَّتـين عـلى الفهـم- التقتـا بعينيـه؛ فابتسـم لهـا ابتسـامة صغـيرة طيِّبـة وغـير مُتطلِّبـة. في المقابـل أتـت رجفـةٌ ضئيلـة عابـرة عـلى طـرف فمهـا، ومـع أنهـا حدثـت عـشرات المـرات مـن قبـل إلَّا أنـه شـعر في كل مـرَّةٍ بقلبـه يتمايـل بتأثيرهـا.

كان يشـعر بنفـس القفـزة في صـدره عندمـا تسـتدير نحـوه طلبًـا للطَّمأنـة. مـع أنهـا كانـت شُـجاعةً في النهـر، إلَّا أنهـا كانـت قَلِقَـةً مـن كل الأشـياء الأخـرى: اقـتراب الأحصنـة فـوق الأرض الحجريـة، الأبـواب التـي تُغلَـق بصـوتٍ عـالٍ، الغربـاء المتـودِّدون الذيـن ينحنـون ليقرصـوا أنفهـا، الخبـط عـلى السـجاجيد بالمكنسـة... وتسـتدير إليـه هـو عندمـا تفـزع. تَمُدُّ يدهـا إلى يـده هـو في المواقـف غـير المألوفـة، وترفـع ذراعيهـا إليـه هـو كي يحملهـا بعيـدًا عـن خطـرٍ مُتخيَّـل. كان يتأثـر باختيارهـا لـه كحـامٍ. فشـل

منـذ عامـين في حمايـة أميليـا، وشـعر أن هـذه فرصـة ثانيـة. شـعر بثقتـه في نفسـه تُسـتَعاد مـع كل خطـر يتفـاداه.

لم تتكلَّـم الطفلـة بَعـدُ، وكثـيراً مـا كانـت سـارِحةً، وأحيانًـا لا مباليـة، إلَّا أن وجودهـا أسـعده. قطـع عقلـه الرحلـة بـين أميليـا وهـذه الطفلـة، ومنهـا إلى أميليـا، مائـة مـرة في اليـوم. كان الطريـق بينهـما قـد قُطِـع كثـيراً، حتـى إنـه أصبـح مـن المسـتحيل التَّفكـير في واحـدة دون الأخـرى. لقـد أصبحـا جوانِـبَ لنفـس الفكـرة.

أتت الخادمة لتأخذ أغراض الفطور.

ذكَّرَها "المصوِّر سيأتي في العاشرة والنصف. أتوقَّع أن نشرب القهوة أوَّلًا".

"إنه اليوم الذي تأتي فيه الممرِّضة. هل ستشرب القهوة أيضًا؟".

"نعم، قهوة للجميع".

نظـرت الخادمـة بتوتُّـر نحـو شَـعر الطفلـة الـذي كان لا يـزال مُتشـابِكًا مـن النـوم.

عرَضَـت عليـه وهـي تنظـر إلى الشَّـعر المتشـابك بنظـرةٍ مُتشـكِّكة "هـل أحـاول أن أُسرِّح شَـعر الآنسـة أميليـا مـن أجـل الصُّـوَر؟".

"اترُكي السيدة فون تفعل ذلك حين تستيقظ".

بدا الارتياح على الخادمة.

يوجد شيء على فون أن يُرتِّبه بنفسه قبل مجيء دونت.

قال: "تعالي يا صغيرة".

رفـع الطفلـة وحملهـا إلى غرفـة الجلـوس. جلـس إلى المكتـب، ووضـع الطفلـة عـلى حِجـره في وضـعٍ جانبـيٍّ كي تسـتطيع أن تنظـر إلى الحديقـة.

مدَّ يده إلى صور أميليا.

مع مجيء الطفلة قل خوفه من الذاكرة، والذي كان قويًا، حتى إنه سعى لدفن وجه ابنته تمامًا. كان لديه الإحساس -يعرف أنه غير منطقي- أن أميليا نفسها تبحث عنه، وأنه مدين لها بأن ينظر في عينها عبر ذلك الحاجز الرهيب. الآن وقد أتت اللحظة والطفلة على حِجره وجد أن المَهمَّة لا تبدو صعبةً مثلما كان يخشى.

أدار الصورة كي تواجهه، ونظر إليها عبر غَبَشِ شَعر الطفلة غير الممشَّط.

كانت لقطة عائلية تقليدية. تجلس هيلينا وأميليا على رُكبَتَيْها. خلفهم فون نفسه يحدِّق بعنفٍ زائد؛ لمعرفته أن أصغر رعشة شعور قد ينتهي بها الأمر بإهدارٍ كارثيٍّ للوقت والمال والمجهود؛ ونتيجةً لذلك بدا مُخيفًا لمن لم يعرفوه، ومُضحِكًا لمن عرفوه. عجزت هيلينا تمامًا عن كبح ابتسامتها، ولكنَّها قَدَّمتها بثباتٍ للكاميرا، حتى إن جمالها كان واضِحًا بكل تفاصيله. على ركبتيها: أميليا.

في صورةٍ حَجمُها ثلاثُ بوصات في خمس بوصات كان وجه ابنته صغيرًا. أصغر حتى من أظفر الطفلة التي على حجره. في عُمر الثانية كانت لا تزال تحتفظ بالصِّفة غير المُحدَّدة التي علقت بوجهها منذ كانت رضيعة. كما أنها لم تكن قادرةً على أن تبقى ثابتة تمامًا. الملامح غير المميَّزة كان بها شيء شائعٌ، ينطبق بسهولة على وجه الفتاة الصغيرة الجالسة على حِجره كما على الابنة التي حاول بشدَّة أن يحبسها بعيدًا عن البصر والبال. لا بُدَّ أنَّ قدميها قد تحرَّكتا أيضًا لأنهما كانتا غَبشًا، طيف ليِّنٌ من النوع الذي يطوف فوقه شبح. حول جسدها الصغير كانت رغوة من المعطف والتَّنُّورة، التي ذابت فصارت شفَّافةً عند الأطراف. غابت الأيادي في زُبدها.

تململت الفتاة على حِجره، فنظر نحوها. ظهرت نقطة ماء على يدها. رفعتها إلى فمها ولعقتها ثم نظرت إليه بفضول عابر.

كان يبكي.

"بابا سخيف" قال، ومال ليُقبِّل رأسها، ولكنها تملَّصت منه. عبرت الغرفة إلى الباب حيث توقَّفَت واستدارت ومدَّت يدًا نحوه, تبعها ووضع يده في يدها، وسمح لنفسه أن يُقاد خارجًا من البيت إلى الحديقة وينزل مُنحدَرًا ضَحلًا من الحصى إلى النهر.

تساءل بصوتٍ عالٍ "وبماذا سيساعدنا هذا؟ هل من المفترض أن يجعلني أفضلَ؟".

نظَرَت بطول النهر من الجهتَيْن، ولم يكن هناك أي شيء ليرياه. بحثت عن عصا جيِّدة كي تقلِّب وتنكز طرف الماء. عندما انتهت من ذلك مَرَّرَت العصا إلى فون كي يكمل، بينما هي تختار بعض الأحجار الكبيرة من المنحدر كي تأخذها وتغسلها في الماء. بدا الغسيل بلا هدف، وفجأة هجمت على فون فكرة أنه وقف هنا من قبل وشاهد أميليا تغسل الحصى. ألم يتذكَّر مرَّةً منذ زمن طويل عندما كان كلاهما على طرف الماء هكذا تمامًا يغسلان الأحجار بلا سببٍ، وينكزان الطين الطريَّ في الجزء الضحل؟ رفع يده ليُحدِّد ما إن كانت الذكرى حقيقيَّةً أم أنها نوع من الصَّدى العكسي، حيث يبدو أن الحاضر ينسخ نفسه في الماضي؟

أوقَفَت الفتاةُ عملها في الأحجار، وانحنت على أربع قريبًا من سطح الماء كما لو كان مرآة. بادَلَتها النظر فتاةٌ أخرى يعرفها.

"أميليا!".

تلقَّفها، ولكنها اختفت عندما لمسها، وأصبحت أصابعه مُبتلَّةً.

جلست الفتاة وأدارت عينيها دائِمَتَيْ التَّغيُّر نحوه، بأداءٍ يوحي بالقلق الخفيف.

"مَـن أنـتِ؟ أنـا أعـرف أنَّـكِ لسـتِ هـي... ولكـن إن كُنـتِ... إن كُنـتِ... هل أُجـنُّ؟".

ناوَلَتـه العصـا، وأشـارت بحـركات عنيفـة أنـه يجـب أن يحفـر بهـا قنـاة. أحاطتهـا بحصاهـا، وكانـت مُحـدَّدة في توقُّعاتهـا، واسـتغرقت بعـض الوقـت قبـل أن تـرضى. ثـم فهـم: كان عليهـم مراقبتهـا. رأوا كيـف تتسرَّب المياه إلى الداخـل، وكيـف تمتلـئ بالطـين، وكيـف يزيـل النَّهـرُ سريعًـا عَمـلَ الرَّجُـل والطفلـة.

في النهايـة حملـوا القهـوة إلى الخـارج وجلسـوا في مـرسى القـوارب. كان هنـاك اتفـاق عـامٌ عـلى أن الوضـع بجـوار النهـر سـيكون أفضـل مـن صـورة داخليـة؛ كي يُفيـدوا أقـصى إفـادة مـن الجـوّ الجـاف قبـل أن يتغـيَّر.

فـور أن أقامـوا الكامـيرا في الوضـع المطلـوب ذهـب دونـت كي يحـضر اللـوح الأول، "حتـى أعـود، هـا هـي بعـض التجـارب مـن المـرة السـابقة".

فتَحَـت هيلينـا الغطـاء المغلـق للصنـدوق الخشـبي. كان مُبطَّنًـا مـن الداخـل باللِّبَّـاد، ويتضمَّـن لوحـين زجاجيَّـيْن، كلٌّ منهـما في خانتـه.

"أوه!"، قالـت هيلينـا وهـي ترفـع أوَّلَ واحـدة مقابـل الضـوء، "كـم هـي غريبة!".

قالـت ريتـا: "تفاجئـك، أليـس كذلـك؟ الضـوء والظِّـلُّ معكوسـان". حدَّقَـت في اللـوح "أخـشى أن السـيد دونـت مُحِـقٌّ، وأن التـي بحوزتكـم بالفعـل أفضلهـم. هـذه مُشوَّشـة".

مرَّرَت هيلينا اللوح إلى فون وسألته "ما رأيك يا عزيزي؟".

نظر إلى اللوح، ورأى بُقعةً من الطفلة، وأبعد عينيه مرَّةً أخرى.

"هل أنت بخير؟" سألت ريتا.

هزَّ رأسه "شَربتُ الكثير من القهوة".



أخرجـت هيلينـا اللـوح الثـاني مـن العلبـة وفحصتـه، "إنهـم مُشوَّشـون حقًّـا، ولكـن ليـس إلى درجـة ألَّا تسـتطيع رؤيـة مـا يهـمُّ. إنهـا أميليـا. هـذا واضـحٌ تمامًـا". لم يتضمَّـن صوتهـا أي حِـدَّة مُقلِقَـة، ولا نـبرة تعلـو بهسـتيريا. كانـت محسـوبة، أو حتـى لطيفـة. "هـذا السـؤال في بال السـيد أرمسـترونج لـن يقودنـا إلى شيء، ولكـن المحامـي يعتقـد أن علينـا أن نسـتعدَّ عـلى أي حال".

"هل لا يزل السيد أرمسترونج يأتي للزيارة؟".

هزَّت هيلينا رأسها بلا اهتمام "نعم".

رأت ريتا وجه فون وهو يجفل لسماع اسم الرجل الآخر.

ولكـن دونـت حـضر. أسـقطت هيلينـا الألـواح في العلبـة مـرَّةً أخـرى، وأرجحـت الطفلـة بـين يديهـا بابتسـامة كبـيرة. "أيـن تريدنـا أن نقـف مـن أجـل الصـور الجديـدة؟".

نظـر دونـت إلى السـماء كي يقيـس ضـوء الشـمس، ثـم أشـار "هنـاك بالضبـط".

تململـت الفتـاة وقاوَمَـت وأدارت رأسـها وحرَّكَـت قدميهـا، وكان يجـب التخلُّـص مـن لـوحٍ ثمـينٍ تلـوَ الآخـر لأنهـم لا يسـتحقُّون التحميـض.

وفي اللحظة التي أشرفوا عندها على الإحباط قدَّمَت ريتا اقتراحًا.

"ضعوها في مركب. ستستقرُّ على الماء والنهر ثابت".

نظـر دونـت إلى النهـر لـيرى مقـدار الحركـة فيـه. كان التيَّـار سـاكنًا. هـزَّ كتفيـه ورأسـه. الأمـر يسـتحقُّ المحاولـة.

حملـوا الكامـيرا إلى الضِّفَّـة، وجلبـت هيلينـا القـاربَ الصغـير الـذي ينتمـي لأيـام طفولتهـا إلى المرفـأ وثبَّتَتـه.

سحب النَّهرُ القارب بقوَّةٍ ثابتة، وشدَّ الحبل الذي يربطه. خَطَت الفتاة داخله. لم يتأرجح، ولم يكن هناك احتياج لمساعدتها على التوازُن. وقفت مُتَّزِنة على الماء السائر.

فتح دونت فمه ليطلب منها أن تجلس، ولكن أتت إحدى تلك اللحظات التي تعني كلَّ شيء للمُصوِّر، وعَدَلَ عن قراره. طردت الرِّيحُ الغَيمَ الثقيل من أمام الشمس، ووضعت مكانه غلالةً رقيقةً بيضاء نَعَّمَت الضوء وشَوَّشَت الظِّلال. ردَّت المياه بأن افْتَحَّ لونها مُتحوِّلًا إلى لمعةٍ لؤلؤيَّة، في اللحظة التي التفتت الفتاة فيها لتُحدِّق عكس التيار في الاتجاه الذي تحتاجه الكاميرا تحديدًا. الكمال.

رمى دونت غطاء العدسة، وصَمَتَ الجميع مُتمنِّين على الريح والنهر أن يثبتوا. واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. خمسة. ستة. سبعة. ثمانية. تسعة. عشرة. أحد عشر. اثنا عشر. ثلاثة عشر. أربعة عشر. خمسة عشر.

نجحت!

سأل دونت فون بينما يخفي ضوء الشمس عن اللوح الذي استخرجه من الكاميرا، "أتريد رؤية عملية التحميض؟ لا؟ تعال وشاهِدْها، وسترى غرفة التحميض التي ركَّبتُها".

قالت هيلينا وهي تمدُّ رقبتها لتنظر نحو السماء بينما يختفي الرجال داخل غرفة التحميض: "الغيمة تعود. ما رأيك في ذلك؟".

"سنكون على ما يرام لبعض الوقت".

أعادوا القارب الصغير إلى المرفأ، وأخرجوا واحدًا أكبر مُناسِبًا لسيدتين وطفلة. تسبَّبَت ريتا في أن يتأرجح، وكان عليها أن تتوازن. خَطَت هيلينا داخله برشاقة بدون أن تُغيِّر تَوازُنَ القارب في الماء إلَّا قليلًا، وقبل أن تستدير لترفع الطفلة كانت هناك

بجوارها، وقد خَطَت من الأرض إلى الماء كما لو كان ذلك أكثر الأشياء طبيعية في العالم.

جلسوا والطفلة في مقعد الرُّكَّاب، ثم هيلينا، ووراءها ريتا. شعرت ريتا بقوَّةِ ضَربة مجداف المرأة الأخرى منذ أول لحظة سُحِب فيها القارب مع التيار.

"أميليا! اجلسي!" صاحت هيلين ضاحِكةً. "إنها تُصرُّ على الوقوف. يجب أن نعطيها طوفًا أو جندولًا إن استمرَّت على هذا المنوال!".

تخشَّب ظهر الفتاة وهي ترفع رأسها لتنظر بتركيزٍ أمامها، ولكن النهر كان خاليًا... كان مركبهم هو الوحيد الذي خرج في الطقس السِّيئ، وعندما تراخت شعرت ريتا بحِدَّة خيبة أملها. تساءَلَت بصوتٍ عالٍ "عمَّ تبحث؟".

هزَّت هيلينا رأسها "إنها مُهتمَّة بالنهر دائمًا. ستقضي طوال اليوم هنا إن استطاعت. كنت مثلها تمامًا في نفس العمر. إنه أمر يجري في الدماء".

لم يكن ذلك ردًّا على سؤالها، ولكنها لم تكن أيضًا مُحاولةً مُتعمَّدةً للتَّهرُّب. فمع كل حِدَّة واستمرارية تحديق هيلينا في الطفلة إلا أن انطباع ريتا كان أنها تفشل في رؤيتها فعليًّا. كانت ترى أميليا -أميليا التي تخصُّها- لأنه هذا هو ما تحتاج أن تراه. ولكن هناك أكثر من ذلك فيما يخصُّ هذه الطفلة. لم تكن هي، ريتا، قادرة على أن ترى الطفلة بدون الرغبة في حملها بين ذراعيها وطَمأنَتها. كانت غريزة تُحيِّرها، وحاولَت أن تدفنها في الأسئلة.

"لا توجد أخبار عن أين كانت حتى الآن؟".

"لقد عادت. هذا كل ما يهم الآن".

حاولت ريتا حيلةً أخرى "لا أخبار عن المختطفين؟".

"لا شيء مطلقًا".

"وأقفال النوافذ... هل تشعرين بالأمان الآن؟".

"لا يزال لديَّ إحساس أن شخصًا ما يراقب".

"هـل تذكريـن الرجـل الـذي قُلـتُ لـكِ إننـي قابَلتُـه؟ الـذي سـألني مـا إن كانـت تتكلَّـم، ومـا الـذي قالـه الطبيـب؟".

"هل رأيتِه مرَّةً أخرى؟".

"لا. ولكـن اهتمامـه بالشـهور السـتة التـي قـد يسـتغرقه صوتهـا ليعـود تجعلنـي أتسـاءل مـا إن كان الوقـت قـد حـان للانتبـاه لـه".

"الانقلاب الصيفي".

"نعـم. احـكي لي عـن المربِّيـة التـي كانـت مـع أميليـا في الأيـام القديمة... مـا الذي حـدث لهـا؟".

"عـودة أميليـا أخبـار جيـدة بالنسـبة لـروبي. لقـد عانـت في العثـور عـلى عمـل بعـد ذلـك. كان هنـاك الكثـير مـن النميمـة الخبيثـة".

"ظـنَّ النـاس أن لـروبي يَـدًا فيـما حـدث وقتهـا، أليـس كذلـك؟ لأنهـا كانـت غائبـة عـن المنـزل؟".

"نعـم، ولكـن...". توقَّفَـت هيلينـا عـن التجديـف. كانـت أنفـاس ريتـا تنقطـع مـن المجهـود؛ فتركـوا النهـر يعيدهـم، ولم تفعـل هيلينـا أكثر مـمَّا يُبقيهـم في خـطٍّ مسـتقيم. "كانـت روبي أفضـل الفتيـات. أتـت إلينـا وهـي في السادسـة عـشرة. كان لديهـا الكثـير مـن الأخـوة والأخـوات الصغيريـن؛ لـذا كان لديهـا خـبرة مـع الصغـار. وكانـت تحـب أميليـا. كان عليـكِ فقـط أن تريهـم سـويًّا".

"لماذا إذًا لم تكن في المنزل ليلة الحادث؟".

"لم تستطِع أن تُقدِّم تفسيرًا لذلك. ظَنَّ الناس أن لها يدًا في الأمر، ولكنهم حمقى. أنا أعرف أنها لم تكن لتؤذي أميليا".

"هل كان لها مُعجب؟".

"ليس بعد. كان لها نفس أحلام الفتيات من عمرها. أن تقابل شابًّا ظريفًا، ويتواعدان، ويتزوَّجان، وعائلة تخصُّها هي. ولكن كل ذلك كان في المستقبل. كانت تريده وتضع المال جانبًا للمستقبل مثل الفتيات العاقلات، ولكنه لم يكن قد حدث بعد".

"ربما كان مُعجبًا سِرِّيًا؟ وغدٌ جَذَّاب لم تكن تريدُكِ أن تعرفي شيئًا عنه؟".

"لم تكن من تلك النوعية".

"احكي لي ما حدث".

استمعت ريتا لهيلينا تحكي وقائع ليلة الخطف. أصبح صوتها مشدودًا وهي تتذكَّر الأحداث وتتوقَّف كل فترة -خمَّنَت ريتا أن ذلك كي تنظر إلى الطفلة- وعندما ينطلق صوتها مرَّةً أخرى يكون أكثر لينًا، وقد اطمأنَّت لوجود الطفلة التي عادت من العدم بشكل غير مُتوقَّع.

عندما وصلت إلى عودة روبي قاطعتها ريتا "إذًا عادت عبر الحديقة؟ وما الذي قالته لتوضِّح ما فَعَلَته؟".

"إنها ذهبت في تمشية. أخذتها الشُّرطة إلى غرفة مكتب أنتوني وأبقتها هناك لساعات. لماذا تتمشَّى في البرد؟ لماذا خرَجَت ليلًا؟ لماذا تخرج وغَجَرُ النَّهر في الجوار؟ ضايقوها وعنَّفوها، وبكت وصرخت، ولكنها لم تُعطِ إجابةً. لقد ذهبت للتمشِّي. هذا كل ما قالته. ذهبت لتتمشَّى بلا سبب".

"وصدَّقتِها؟".

"ألا نفعل جميعًا أشياء غير مُتوَقَّعة كل فترة؟ ألا نخالف عاداتنا وتخطر لنا أفكار عن أشياء جديدة؟ كنَّا أصغر من أن نعرف مَن نحن في السادسة عشرة... وإن رغبت فتاة أن تخرج لتتمشَّى فجأة في الظلام فَلِمَ لا؟ أنا كنتُ أخرج إلى النهر في كل الأوقات في ذلك العمر، في الشتاء والصيف سواء. لم يكن هناك شيء سيئ في الأمر. كان الأمر سيختلف لو كانت روبي فتاةً خبيثةً أو شرِّيرة، ولكنها خالية من الخُبث. إن كنتُ أنا أُمَّ أميليا، -وهذا ما أقوله- فلِمَ لا يُصدِّقه الآخرون؟".

قالت ريتا لنفسها: لأنه يفتقد إلى تفسير.

"عندما اقتنَعَت الشرطة أن الأمر من فِعل غَجَر النَّهر نسوا أمر روبي ولياليها. كنتُ أتمنَّى أن ينسى الآخرون جميعًا أيضًا. فتاة مسكينة".

اخترقت بعضُ قطرات المطر المتناثرة سطحَ النهر، ونظرت المرأتان إلى الأعلى. كانت غيوم المطر تتجمَّع مرة أخرى.

"ألا يجب علينا أن نعود؟".

تردَّدَتَا، ولكن دفقة أخرى أكثر كثافة من المطر طعنت الماء من حولهم فأرجَعَتَا القارب. كان السير عكس التيار صعبًا، وفي وقت قصير كان المطر يتساقط، ليس في دفقات تجريبيَّة، ولكن بإصرار مستمرٍّ، وشعرت ريتا بأكتافها تتشرَّب الماء. سال المطر من شَعرها إلى عينيها. آلمتها يدها المبتلَّة، وركَّزَت بشدَّة كي تحافظ على الإيقاع.

أخيرًا أنبأتها صَيحَةٌ من هيلينا أنهم قد وصلوا. عندما استطاعت أخيرًا أن تُحرِّر إحدى يديها كي تمسح الماء من على عينيها لمحت شيئًا على الضِّفَّة البعيدة.

قالت ريتا لهيلينا: "نحن مُراقَبون. لا تنظري، ولكن هناك شخصٌ يختبئ في الشجيرات. اسمعي، هذا ما سنفعله".

في المرفأ رفعت هيلينا الطفلة من القارب ووضعتها على الشاطئ، وشَقَّت كلتاهما الطريق لتحتميا في كولوديون. خَطَت ريتا إلى قارب مرَّةً أخرى، ومعها حبلٌ، وأمسكت بالمجاديف وعادت مرَّةً أخرى تقود الطريق عبر التيار مباشرة. كانت مُتعَبةً، وليست سريعةً، ولكن إن حاوَلَ شخصٌ الرَّكضَ فسيكون عليه أن يتخلَّى عن مخبئه ويصير مرئيًا.

لم تكن توجد نقطة لربط القوارب على الجانب الآخر. لم يوجد سوى البوص لإيقاف القوارب. خرجت ريتا من القارب مُتسلِّقةً الضِّفَّة. لم تُبالِ باتِّساخ طرف فستانها أو أنها مبتلَّة حتى رُكبَتَيْها، وكتفاها غارقتان في المطر، ولكنها اتَّجَهت مباشرة لتجمع الشجيرات. ارتعشت الغصون وهي تقترب: كان الشخص القابع هناك يحاول أن يدفن نفسه في مخبأ أكثر عُمقًا. نظرت عبر متاهة الغصون إلى حيث يُقَرفِص شخصٌ غارِقًا في البَلَل يدير لها ظهره.

قالت: "اخرُج".

لم يتحركّ الشخص، ولكن الظَّهر انثنى وكأن الشخص يبكي.

"اخرجي يا ليلي. هذه أنا ريتا فقط".

بدأت ليلي تتراجع وتمسك الغصون والأشواك بملابسها وشعرها. بعد أن زحفت للخارج قليلًا تاركة بعضًا من شعرها في الشجيرات استطاعت ريتا أن تساعدها بأن تمدَّ يدها وتَفكَّ الأشواك العالقة واحدةً بعد الأخرى من القماش المبتلِّ لفستان ليلي.

همهمت ريتا "عزيزتي، آه يا عزيزتي..."، وهي تُملِّس على شعر ليلي. كانت يد المرأة مُخطَّطةً بالخدوش. كانت شجرة التوت قد

أمسكت بوجهها، ورقدت قطراتُ دَمٍ بجوار الخطوط مثل حبَّات توت حتى سالت في دموع قرمزية على خدودها.

أخرجت ريتا منديلًا نظيفًا وضغطته بحرصٍ على خَدِّ ليلي. رمشت عيون ليلي بتوتُّر بين ريتا والنهر والضفة البعيدة حيث وقف دونت وفون وهيلينا على سطح القارب غير مبالين بالمطر، يبادلونهم النظرات. بجوارهم مالت الطفلة فوق الماء بتحديقها العميق، بينما يمسك بها فون من مؤخرة فستانها.

هدَّأتها ريتا "تعالي عبر النهر. سأغسل خدوشك".

انتبهت ليلي في خوف "لا أستطيع!".

قالت لها بصوتٍ بالغ الطيبة: "لن يَغضبوا. كان يظنُّون أنَّكِ شخص يريد إيذاء الصغيرة".

"لن أؤذيها! لم أكن أريد أن أؤذيها أبدًا! أبدًا!".

فجأة استجمعت نفسها واستدارت لتُسرِعَ بعيدًا.

لحقت بها ريتا... "ليلي!"، ولكن ليلي لم تتوقَّف. وصلت إلى الممرِّ، وقبل أن تسرع بعيدًا عن مدى السمع صاحت لريتا الواقفة وراءها على الضفة "قولي لهم إنني لم أقصد أيَّ أذى! أي أذى!" ثم رحلت.

كان الظلام قد حلَّ خلال الوقت الذي استغرقته ريتا في تنظيف فستانها وإعطاء حذائها وقتًا كي يجفَّ. عرض هنري دونت أن يأخذها إلى المنزل بكولوديون كي يُنقِذَها من البلل مرَّةً أخرى. شقُّوا طريقهم عبر الحديقة إلى المرسى، وقدَّم دونت لها يده كي يساعدها في الموضع الذي يكون فيه الممرُّ غير مستوٍ، ولكنها لم تمسك بها، فاكتفى بإزاحة الغصون المنخفضة عن الطريق. عندما أصبح كلاهما على سطح المركب قاده على ضوء القمر إلى كوخها. كانت تمطر بشكلٍ مُتقطِّع

طـول بعـد الظهـيرة، وعندمـا وصلـوا إلى منزلهـا بـدأ المطـر فجـأة يخبـط بقـوة عـلى سـطح المركـب.

قـال لهـا رافِعًـا صوتـه فـوق صـوت المطـر: "سـيهدأ مـع الوقـت. لا جـدوى مـن أن تدخـلي فـورًا: سـيخترق البَلَـلُ ملابسـك قبـل أن تَصِـلي إلى البـاب".

أشـعل دونـت غليـون. كانـت المقصـورة ضيِّقـةً عندمـا يجلـس بهـا شـخصان بسـبب وجـود عـدَّة التصويـر كامِلـةً، وجعلـه قُربُهـا وتأخُّـر الوقـت أكـثر وعيًـا بمعصميهـا ويديهـا وتجويفـة حلقهـا التي تلمـع بخفوتٍ عـلى ضـوء الشـمعة. شَـدَّت ريتـا أكمامهـا كـما لـو كانـت واعيـةً ليديهـا العاريتـين، وعـثر دونـت عـلى سـؤالٍ لهـا خوفًـا مـن أنهـا عـلى وشـك أن تُقـرِّر الرحيـل عـلى كل حـال.

"هل لا تزال ليلي تعتقد أن الطفلة شقيقتها؟".

"أتصوَّر ذلك. تكلَّم معها القسُّ عن الأمر ولم تهتزَّ".

"لا يُمكِن".

"هـو غـير واردٍ فعـلًا. كنـتُ أتمنَّـى أن أقـدر عـلى إقناعهـا بالعبـور معي. كنـت أحـب أن أتكلَّـم معها".

"عن الفتاة؟".

"وعن نفسها".

بدا أن المطر يخفُّ، وقبل أن تلاحظ سألها سؤال آخر.

"ماذا عن الرجل الذي أزعَجَكِ من قبل؟ هل رأيتِه مرَّةً أخرى؟".

"لا".

أدخلت ريتا كوفيَّتها داخل ياقة فستانها لتخبِّئ حَلقَها. كانت تستعدُّ للرحيل، ولكن الطَّرق على السقف تضاعَفَ مرَّةً أخرى. كانت تَنهِدَتُها أيضًا ابتسامةً خجلى، ووقع ذراعاها على جانبها مرَّةً أخرى.

"هل يزعجك الدخان؟ سأطفئها إن أردتِ".

"لا. لا بأس به".

وضع الغليون جانبًا على كل حال.

في الصمت التالي أصبح واعيًا بحدَّةٍ بأن الرَّفَّ خلفهم -والذي لم يقترح أيٌّ منهما الجلوسَ عليه- كان أيضًا سريره. بدا فجأة أنه يأخذ حيِّزًا ضخمًا. أضاء شمعة وسعل.

قال كي يقطع الصمت: "الضوء الذي أتيح لنا من أجل التعريض كان مُعجِزةً".

كانت عيونها تشاكسه "معجزة؟".

"حسنًا، ليست معجزة بالضبط. ليس بمعاييرك المتطلبة".

غيَّرَت الحديث "أنها صورة جيدة".

فتح حزام الصندوق الذي يحتوي اللوح، وأمسك به على مسافة من الشعلة. لمع ضوء الشمعة. أخذت ريتا نصف خطوة إلى الأمام كي تقف على أقرب مسافة منه دون أن تلمسه، ومالت كي تحدِّق في الزجاج.

سألت "أين هي الصورة التي التُقِطَت منذ عامين؟".

أخرجها من الصندوق، وأمسك بها كي تراها. كان يرى قطرات مطر على شَعرها بينما هي تميل كي تنظر.

منع الظلام مقارنة الصورتين بالتفصيل، ولكن فكرة المقارنة وضعت السؤال في ذهنه، وكان واثقًا من أنه في ذهنها أيضًا.

"منـذ عامـين صـوَّرتُ طفلـةً في الثانيـة، واليـوم صـوَّرتُ طفلـةً في الرابعـة، وأنـا لا أعـرف إن كانـت نفـس الطفلـة أو واحـدة مختلفـة. هـل هـذه هـي يـا ريتـا؟ هـل هـذه أميليـا؟".

"هيلينا تصدِّق ذلك".

"وفون؟".

"ليـس متأكِّـدًا. في وقـتٍ مـا كنـتُ أظنُّـه متأكِّـدًا أنهـا طفلـة مختلفـة كليًّـا. هـو الآن يتخبَّـط".

"ما رأيك أنت؟".

"الطفلـة التـي كانـت منـذ عامـين وطفلـة اليـوم متشـابهتان، حتـى إن ذلـك مُمكِـنٌ، ولكـن ليـس مُمكِنًـا لدرجـة أن يكـون أكيـدًا".

وضعـت يدهـا عـلى طـرف طاولـة التحميـض، ومالـت إلى الخلـف مسـتندةً إليهـا. "انظُـرْ إليهـا مـن منظـور آخـر. صـورة اليـوم".

"نعم؟".

"كيـف تظـنُّ كان شـكلها؟ لا أعنـي الوضـوح والتكويـن، حُكمُـك المعتـاد عـلى عملـك، ولكـن الفتـاة نفسـها. كيـف كانـت؟".

دقَّـق في الصـورة، ولكـن الشـمعة جعلـت مـن الصعـب قـراءة التعبـير عـلى وجـه الطفلـة. "توقُّعـات؟ ليـس كذلـك حقًّـا. ولا أمـل".

استدار إلى ريتا للاستيضاح.

"إنها حزينة يا دونت".

"حزينة...؟". نظر إلى الصورة مرَّةً أخرى بينما تستمرُّ هي في الكلام.

"إنهـا تُحـدِّق في النهـر مـن الناحيتـين بحثًـا عـن شيء مـا. شيء تشـتاق إليـه. شيء تتوقَّعـه كل يـوم ولا يـأتي كل يـوم، ومـع ذلـك تظـلُّ تنظـر

وتظلُّ تبحث وتظلُّ تشتاق، ولكن الأمل يتلاشى مع مرور كل يوم. والآن تنتظر بلا أمل".

نظر. ما تقوله كان حقيقيًا "ما الذي تنتظره؟".

فجأة عرف الإجابة على سؤاله: "أباها"- قالها في نفس اللحظة التي قالت فيها ريتا "أمَّها".

"هل هي طفلة روبين أرمسترونج إذًا؟".

عبست ريتا. "وفق ما قالته هيلينا هي لم تعبأ به. ولكن إن لم تكن قد رأته منذ زمن -وقد اعترف بذلك في ذا سوان- فلن تتذكَّر".

"إذًا قد تكون له".

توقَّفَت ريتا وعبست.

"روبين أرمسترونج رجُلٌ يخالف ما يبدو عليه يا دونت". رآها تَزِن ما يمكنها أن تقوله له. وصلت إلى قرار. "إغماؤه في ذا سوان كان كاذِبًا. كان نبضه ثابِتًا جدًّا. الأمر كله كان تمثيلًا".

"لماذا؟".

كان على وجهها التعبير العابس والنَّهِم الذي يكون عليه دائمًا عندما تُعارض معرفتها لشيء ما بنجاح.

أبطأ المطر. التقطت قفازها وارتدته، وعندما مدَّت يدها إلى الآخر كان دونت قد أمسك به.

"متى يمكن أن أُصوِّرَكِ مرَّةً أخرى؟".

"أليس لديك شيء تفعله أفضل من أن تُصوِّر مُمرِّضةً ريفيَّة؟ أصبح بحوزتك ما يكفي بالتأكيد".

كان حائط غرفته فوق محلِّه في أوكسفورد مُغطًّى بصور ريتا. ريتا تبتسم، ريتا تعبس، ريتا في النهر، ريتا على الجسر، ريتا جالسة،

ريتا تقرأ، ريتا بعينين مغمضتين، ريتا بدون قُبَّعتها، ريتا تبدو نافِدَة الصبر، ريتا تُفكِّر -أو على الأقل يخشى أنها كانت تفكِّر- متى سيرحل هذا المصوِّر ويتركني في سلام؟

"ليس يقترب ما لديَّ من حَدِّ الكفاية".

"قُفَّازي؟". لن تُدفع إلى الدَّلال، ولا حتى من أجل قُفَّاز. الملاطفة لا تُوصل إلى شيء. ترفض هي التلاعُب بما هو ضمنيٌّ، وتزدري الشهامة. كانت المباشرة هي التوجُّه الوحيد الذي تعترف به.

تخلَّت عن القفَّاز واستدارت جاهزة للرحيل.

"عندما أراك مع هذه الطفلة...".

توقَّفَت، ورأى ظهرها يتيبَّس.

"ما أتساءل عنه هو: ألم ترغبي أبدًا في...".

"طفلة؟". شيء ما في صوتها فتح باب الأمل.

استدارت ونظرت إليه في وجهه مباشرة.

"أنا في الخامسة والثلاثين. كبرت جدًّا على ذلك".

كان صَدًّا صريحًا.

في الصمت الذي أعقبه أصبح واضحًا أن المطر قد توقَّف في لحظةٍ ما؛ لأنهم سمعوه يبدأ مرَّةً أخرى كرذاذ خفيف.

صاحت ريتا وأعادت طيَّ كوفيَّتها. زحف حولها بإسهابٍ ليفتح لها الباب. كانت رقصةً مال خلالها كلاهما بمبالغة بعيدًا عن بعضهما البعض.

"هل أصحَبُكِ إلى الباب؟".

"إنه على بُعدِ بضع ياردات فقط. ابْقَ حيث الجفاف".

ورحَلَت.

قال لنفسه: خمسة وثلاثون. إنه عمر شابٌ بما يكفي. هل كان هناك شيء غير محسوم في صوتها؟ استعادت ذاكرته الحوار المتبادَل مرة أخرى مُحاوِلًا التقاط كلّ تَحوُّل، ولكن لم تكن ذاكرته السمعية مساويةً لذاكرته البصرية، ولم يكن يريد أن تتعرَّض نفسه لآمال كاذبة أو أضغاث أحلام.

أغلق الباب خلفها ومال عليه. تريد النساء أطفالًا، أليس كذلك؟ أخوته لديهم أطفال، وماريون زوجته كانت مُحبَطةً لأنها لم تصبح أمًّا.

التقط علب الصفائح الزجاجية، وقبل أن يضعهم فيها ألقى نظرةً أخرى على صور اليوم. كانت الطفلة تحدِّق خارج الزجاج عكس التيار باشتياق. وجد نفسه يبادلها النظر باشتياق.

أغلق العلبة على الزُّجاج، ثم ضغط مفاصل أصابعه على عيونه المغلقة، ودعك التمنِّي حتى أزاله.

الجِنّيُّ في إبريق الشاي

كما تَوَقَّعَت ليلي؛ بعد كل ذلك المطر بلغ مستوى المياه قُربَ قِمَّة العمود الأول. كان الأمر يتكرَّر كل عام ليوم أو بضعة أيام أو أسبوع. يجعلها ذلك حَذِرَة. إلا أنه لم يكن هناك تدفُّقٌ غاضب، ولا تَلكُّؤ شرِّير أيضًا. لم تَفحَّ المياهُ عليها، ولا تزأر، ولا تُصوِّب طرطشات منتقمة نحو طرف فستانها. كانت تسري بثباتٍ مُستغرقةً بالكامل في شأنٍ هادئ يخصُّها، وليس لديها أدنى اهتمام بليلي وشؤونها.

ماذا سيقول القسُّ؟ أفرغت ليلي طعام الحيوانات داخل المذود، وعندما وضعت السَّطل على الأرض فكَّرَت في أنها تُفضِّل أن تسقط هابِطَةً معه. لم يَمضِ وقت طويل منذ اليوم الذي خشيت فيه أن يصرفها عن العمل لأنها غابت يومًا واحدًا عندما عادت آن. ثم أتى اليوم البشع عندما أراد أن يعرف كم عمرها، ومتى كانت آخر مرة رأت فيها أُمَّها. بعد ذلك دارت مع الإزار الخشبي خلف الأثاث،

ونفضت الغبار عن الستائر في غرفة النوم الاحتياطية التي لا تُستَخدَم أبدًا، وغسلت حوائط المرحاض، ونظَّفَت طاولة المطبخ من الأسفل حيث يحب العنكبوت أن ينسج شباكه في الأركان، ولكن لا شيء هدَّأ من أعصابها، ولعَددٍ من أيام الخميس المتتالية كانت تشعر بالانفراجة عندما لا يعطيها إنذارًا بالفصل مع راتبها. الأمر الآن أسوأ. هل يصل خبرٌ عن اختبائها في الشجيرات مقابل مرفأ آل فون إلى القسِّ؟

تنهَّدَت، وقالت بصوتٍ عالٍ: "ماذا أفعل؟". بينما تُنزِل السَّطل بدأ الخنزير الذَّكَر في التجوُّل والتنقيب بحثًا عن أفضل القِطَع. "لا أعرف".

حرَّكَت أنثى الخنزير آذانها. ضحكت ليلي نصف ضحكة حتى وهي في حالة توتُّر.

"مخلوقة هزليَّة- تبدين كأنك تستمعين إليَّ!".

سَرَت رعشة عبر الخنزيرة. بدأت الرعشة في فتحتَيْ أنفها، ثم اهتزَّت كل شَعرةٍ برتقالية في جسدها كما لو كان ذلك رَدًّا على نسمة هواء تسري في عمودها الفقري وتهزُّ انحناءة ذيلها. عندما أكملت الموجة رحلتها وقَفَت الخنزيرةُ مُنتَبِهةً، ثابتة جاهزة لشي ما.

حدَّقت ليلي. لاحظت أن الإظلام الذي كان يغيم عيون الخنزيرة لوقتٍ طويل قد انسحب، وامتلأت العيون الصغيرة بحدقاتها الكبيرة الآن بضياء.

ثم حدث شيءٌ لليلي أيضًا. شعرت بنظرتها تتحرَّك من النظر إلى عين الخنزيرة إلى النظر داخلها. وهناك رأت...

صاحت "أوه!"، وانفجر قلبها في عاصفة من الدَّقَّات؛ فشعور أن تنظر إلى شيءٍ وتجد أن بداخله كائِنًا حيًّا آخر ينظر إليك مُدهِشٌ. لم تكن دهشة ليلي ستزداد إن خاطَبَها جِنٌّ من داخل إبريق الشاي، أو إن أحنى غطاء المصباح رأسه لها.

صاحت "حقًّا لم أتصوَّر!"، واستنشقت عدَّة أنفاس. حرَّكت الخنزيرة أقدامها بتَمَلمُلٍ وتنفَّسَت بصوتٍ يُنبِئ أيضًا بالضيق.

"ما الأمر؟ ماذا تريدين؟".

توقَّفَت الخنزيرة عن الحركة، ولم تبعد عيونها عن عيون ليلي، ولكنها كانت تنظر مُحدِّقةً في جَوٍّ من المتعة الخالصة.

"هل تريدين أن تتكلَّمي؟ هل هذا هو الأمر؟".

حَكَّت الخنزيرة خلف أذنها فزمجرت بطريقةٍ فَهِمَت ليلي أنها تعبِّر عن الرضا.

"لقد كنتِ وحيدةً، أليس كذلك؟ الحزن هو ما جعل عيونك منطفئة؟ لا أتصوَّر أنه يُمثِّل صحبة لك. المتوحِّش الكريه. لا يأتي شيءٌ جَيِّدٌ من الرجال؛ لا من السيد وايت، ولا من ڤيكتور الذي أتى بك إلى هُنا، ولا من أبيه من قبله. لا أي واحد منهم. حسنًا، القسُّ لا بأس به...".

ثرثرت مع الخنزير عن القسِّ وعن طيبته وصلاحه، واستدعت متاعبها إلى ذهنها مرَّةً أخرى وهي تفعل ذلك.

اعترفت بنعومة "أنا لا أعلم ماذا أفعل. لا بُدَّ أن أحدًا منهم قال له. ليس ذلك المصوِّر -لم أره في الكنيسة من قبل- ولكن آل فون أو الممرِّضة. أنا لم أكن أفعل شيئًا سيِّئًا، ومع ذلك يبدو سيِّئًا. وإن لم يقولوا شيئًا حتى الآن فسيأتي بعد وقتٍ قصير. ما الذي يمكنني أن أفعله؟ إن اضطررت إلى ترك بيت الأبرشيَّة...".

سقطت دمعة من عينها وتوقَّفَت عن حَكِّ الخنزيرة كي تمسحها.

رمشت الخنزيرة تعاطُفًا.

"أقول له بنفسي؟ حسنًا، ربمًا... أتصوَّر أنه من الأفضل أن يسمع بالأمر مني أوَّلًا. أستطيع أن أشرح. أقول له إنني لم أعنِ أي أذى. نعم سأفعل ذلك".

هل الحديث مع الخنزيرة حماقة؟ بالطبع... ولكن لم يكن هناك شخص موجود كي يسمع، كما أن فكرة الخنزيرة بأن تقول للقسِّ بنفسها جيِّدة. نشَّفَت ليلي وجهها على كُمِّها.

وقفت تحكُّ أذن الخنزيرة وقتًا أطول، ثم قالت لها: "اذهبي وكُلي وإلَّا لن يترك لك شيئًا".

انتظرت حتى ترى خطم الخنزيرة في المِذوَد، ثم وضعت السَّطل جانِبًا ونقلت أموال ڤيكتور من الحطبة إلى مخبئها في الكوخ، وذهبت إلى العمل.

استدارت كي تمشي عكس التيار، وفي ثقتها التي وُلِدَت من الفكرة التي خطَرَت لها بفضل الخنزيرة نزعت عيونها عن الماء، ولاحظت إشراق اليوم. لم تتلكأ عندما عبرت حديقة فون... فقط نظرت سريعًا عبر النهر، ولم تَرَ أحدًا هناك. عندما رأت تجمُّعَ شجيرات الخَمَان والتوت حيث كانت تختبئ انخفَضَت معنويَّاتُها، ولكنها نهضت بها مرَّةً أخرى بزيارة آن في ذهنها. هناك في أمان بيت آل فون تعيش أختها حياةً لم تعرفها ليلي أبدًا. كانت حياة راحة وثراء وأشياء لا تقدر ليلي أن تُخمِّنها. رأت نارًا تحترق في مدفأة كبيرة، وسلَّة ممتلئة بالحطب، وطاولة عليها عدد من أطباق الطعام الساخن تكفي الجميع ويفيض بعضها. في غرفة أخرى كان يوجد سرير، سرير حقيقي بمرتبة طرية وبطانيتين دافئتين. لم تكن تستطيع التفكير في أي تَرفٍ آخر: هذا كان ترفًا كافيًا في ذهنها. كانت تتمتَّع بهم منذ أسابيع. ولكن الآن، ومع بداية ظهور طزاجة الربيع، خطَرَت لها فكرة جديدة: هل فكَّر آل فون في أن يجلبوا لآن جَروًا؟

سيكون البيجل صبورًا ولطيفًا معها، ولكن السبانيال له آذان حريرية جميلة. كانت متأكِّدةً من أن آن ستحبُّ أن تمسح آذان السبانيال. أو تريار؟ جرو صغير من فصيلة تريار سيكون ممتلئًا بالمرح. صَفَّت الجراء، وفي النهاية أقنعها الذيل. بالتأكيد للتريار أفضل الذيول للهَزِّ. هو إذًا تريار. أضافت الجرو إلى بطاطين آن وسلَّة الحطب والحذاء المبطَّن بالفرو، وفرحت بالتفصيلة الجديدة. رفيق مَرِحٌ جديد يتقافز في سعادة بينما يطارد الكرة الحمراء التي ترميها آن ويعيدها، ولاحقًا ينام على حِجرها. كانت ليلي نفسها تسكن تلك الخيالات، هيئة خفيَّة تُحوِّل الدبابيرَ بعيدًا عن الزهور التي تنحني آن لتشمَّها وتزيل الأشواك من شجر التوت وتبلُّ الشرارات التي تقفز من النار على سجادة المدفأة. لا يمكن أن يؤذي آن شيءٌ وهي تعيش في منزل آل فون وتحرسها ليلي عن بُعد: كانت حياة الطفلة تقتصر على الراحة والأمان والمتعة.

"ادخل! آه! السيدة وايت!".

كان اسمها مثل البِركة في صوته، وكان يعطيها شجاعةً. وضعت صينية الشاي على مكتبه. "هل أصبُّ لك فنجانًا من الشاي؟".

همهم وهو سارح "لا" دون أن يرفع رأسه، "أنا سأفعل ذلك".

"أيُّها القسُّ...".

لمس الورقة بقلمه وأضاف عددًا من الكلمات الأخرى في الهامش. اندهَشَت مرَّةً أخرى لسرعته في استخدام الحبر.

"نعم، ما الأمر؟".

رفع عينيها، فشعرت بحلقها يختنق بالكلام.

"بالأمس عندما كنتُ أمشي نحو البيت بجوار النهر... تَصادَفَ أنني توقَّفتُ. كان ذلك مقابل المكان الذي تَصِلُ عنده حديقة آل فون إلى ضفة النهر. كانت السيدة فون في النهر مع آن".

عبس القس "سيدة وايت...".

"لم أقصد أبدًا أن أُسبِّب أيَّ أذى"، أكملت مُسرِعَة، "ولكنهم رأوني وأنا أنظر. جدَّفَت الممرِّضة حتى المكان الذي كنتُ فيه بعد أن خرجت آن والسيدة فون...".

"هل أُصِبتِ يا سيدة وايت؟".

"لا شيء! أعني أنه مُجرَّد خدش، كانت شجيرات التوت على ضفة النهر، هذا كل ما في الأمر".

عبثت بشعرها كأنها ستغطي الدليل.

بدأت كلامها مرَّةً أخرى "لم أتعمَّد أن أذهب. لقد تَصادَف أني مَرَرتُ لأنه هذا هو طريقي إلى المنزل. لم أذهب خصِّيصًا... ولم يَبدُ أن من الخطأ أن أنظر. لم ألمسها قَطُّ، لم أقترب. لقد كنتُ على الجانب الآخر كلِّيًّا. إنها حتى لم تَرَني".

"يبدو يا سيدة وايت أنه إن كان شخصٌ ما قد تأذَّى فهو أنت. سأقول لآل فون إنَّكِ لم تتعمَّدي أيَّ أذى عندما نظرتِ إلى أميليا بالأمس. اسمها أميليا يا سيدة وايت. ألا تعرفين ذلك؟ لقد قُلتِ "آن" منذ لحظات".

لم تُجِب ليلي.

أكمل القسُّ بطيبة عظيمة في صوته وفي تعبيره "أنا متأكِّد أن لا أحد يخاف من أن تتعمَّدي أن تُسبِّبي لها الأذى. ولكن فَكِّري في آل فون. فكِّري في ما مرُّوا به. لقد فقدوها مرَّةً بالفعل. قد يكون مُقلِقًا

بالنسبة لهم أن تُراقَب الطفلة عن كثب من قِبَل شخصٍ من خارج العائلة. حتى لو كانت -ربما- تشبه أختًا لكِ اسمها آن".

مرَّةً أخرى لم تَرُدَّ.

"حسنًا يا سيدة وايت. ربنا نكون قد انتهينا من هذا الموضوع لليوم".

انتهى الحديث مؤقَّتًا. زحفت نحو الباب، وعلى العتبة استدارت بخجل.

كان القسُّ قد عاد إلى أوراقه وكان فنجان الشاي في منتصف الطريق إلى شفتيه.

"أيُّها القسُّ؟"، كان صوتها أعلى قليلًا من الهمس، مثل طفلة تظنُّ أن الحديث بهدوءٍ قد لا يُقاطع الكبار المشتبكين في مهام مُهمَّة.

"نعم؟".

"هل لديها جرو؟".

بدا محتارًا.

"الطفلة التي في منزل آل فون... التي يدعونها أميليا. هل لها جرو صغير تلعب معه؟".

"لا أعرفه. ليس لديَّ فكرة".

"إنني أظنُّ فقط أنها ستحبُّ الحصول على واحد. تريار صغير. عندما ترى السيد فون، عندما تقول له إنني لن أحدِّق عبر النهر مرَّةً أخرى، ربنا يمكنك أن تسأله".

لم يَدرِ القسُّ ماذا يقول.

الجزء الثّالث

أطول نهار

في الصيف كانت ذا سوان في رادكوت بُقعةً من ألطف ما يمكن لخيالك أن يتصوَّر. تنحدر الضفاف العشبية من الحانة، ويَهَبُ النهر نفسه لتسلية ومتعة الإنسان. كانت توجد زوارق شراعية صغيرة للإيجار وقوارب للصيد والمتعة أيضًا. تحمل مارجو الطاولات إلى الخارج في شمس النهار، وإن زادت الحرارة في منتصف اليوم يمكن فَرْدُ ملاءات للنزهة في الظل الوافر للشجر. استدعت بناتها كلَّ ثلاثة معًا، وامتلأ ذا سوان بصغيرات المارجو، يعملن في المطبخ، ويَصببن المشاريب، ويركُضنَ داخلات وخارجات بصواني الطعام والليموناضة وخمر التفاح. لا يتعبن، ويبتسمن للجميع. يمكنك أن تقول حقًّا إنه لا يوجد سوى القليل من البقاع أكثر شاعريَّةً من ذا سوان في الصيف.

كان هذا العام مختلفًا. الجوُّ هو السبب. كان مطر الربيع منتظمًا ومعتدلًا في كمِّيَّته؛ ممَّا يسعد المزارعين الذين يتطلَّعون إلى حصادٍ

جَيِّد. وبينما مرّت الأسابيع مقتربةً نحو الصيف، وزاد الأمل في شمس مُشرِقة استمرَّ المطر وزاد في تكراره ومُدَّة هطوله. انطلق هُواةُ القوارب متفائلين تحت رذاذ خفيف، آمِلين أن ينحصر لاحِقًا في اليوم، ولكن عندما يشتدُّ المطر -كما كان يحدث دائمًا- كانوا يلملمون أشياءهم مُبكِّرًا، ويعودون إلى المنزل. نظرت مارجو إلى السماء ووَضَعَت الطاولات في الخارج أربع أو خمس مرَّات، ولكن نادِرًا ما جاء يومٌ لم تضطرَّ فيه أن تخرج وتعيدها كلَّها إلى الداخل مرَّةً أخرى، وبقيت الغرفة الصيفية فارغة. "من الجيد أننا حصلنا على شتاء جيِّد"، حسَمَت أمرها، متذكِّرةً الجماهير التي ازدحمت بها الغرفة كي يسمعوا حكاية الفتاة الغارقة التي عادت إلى الحياة مرَّةً أخرى. "كُنَّا سنعاني لولا ذلك". أعيدت اثنتان من صغار المارجو إلى زوجيهما وأطفالهما، وتولَّت هي عبء العمل مع ابنةٍ عزباء بمساعدة من چوناثان.

كانت صحَّة جو سيئة، لم يتحسَّن صدره مع غبش الصيف الذي علق بدفءٍ دَبِقٍ فوق ضفة النهر. كان ذلك هو الوقت من السنة الذي يعتمد فيه على أن رئته ستجفُّ، ولكن لم يساعده تَغيُّر الفصول كثيراً هذه المرَّة، واستمرَّ الغرق في نوباته بنفس وتيرة الشتاء، وجلس هادئًا وشاحبًا بجوار المدفأة بينما يشرب الزبائن المستديمون ويتحدَّثون من حوله.

يقول ردًّا على أي استفسار: "لا تقلقوا عليَّ، أنا أعمل على قصة".

تقول مارجو دون أن تُصدِّق تفاؤلَها حقًّا: "أتوقع أن يتحسَّن الوضع عند الانقلاب الشمسي"، ولكن في الأسبوع الثالث من يونيو تحسَّنَت الأمور بالفعل. تساءل الناس أوَّلًا إن كان هطول المطر قد أصبح أكثر نُدرةً ثم صار كذلك بالفعل. ظهرت بُقَعٌ زرقاء في الرمادي، وبقيت وأتت بعد ظهيرتين متتاليتين جافَّتَيْن. بدأ إحساسٌ بالترقُّب يتزايد بينما يقترب النهار الأطول.

كان الانقلاب الصيفي تقليديًّا يوم المهرجان الصيفي، وهذه السنة كان يوم زفاف أوين ألبرايت ومُدبِّرة منزله بيرتا. يمكنهم الوثوق في كونه يومًا مزدحمًا بإفطار العُرس صباحًا، ومرتادي المهرجان الذين سيرغبون بلا شكٍّ في شيء يروي عطشهم.

أتى يوم الانقلاب الصيفي... وسطعت الشمس.

فكَّر هنري دونت وهو يُعدُّ كاميرته خارج الكنيسة من أجل صور الزفاف: بلى، إنها ساطعة بشكل مبالَغٍ فيه. يجب أن ألتقط الصور هنا بعيدًا عن البريق.

خرج المحتفلون من الكنيسة، وكان القسُّ على طبيعته الصيفية: فتح نافذته هذا الصباح، ووقف فيها عاريًا حتى خصره يشعر بالشمس على صدره الأبيض، ووجهه الشاحب، ويقول المجد، المجد، المجد! لا يعرف ذلك أحدٌ سواه، ولكن الجميع رأوا ابتسامته المنتعشة، واستمتعوا بمصافحته القوية بينما يهبطون السلالم.

وضع دونت أوين وبرتا في النقطة الصحيحة تمامًا، ورتَّب ذراعَيْ السيدة أولبرايت عبر ذراعَيْ السيد أولبرايت. كان أوين يعرف أن ذلك من أجل التقاط صورته، لقد فعل ذلك مرَّةً من قبلُ قَبلَ بضع سنوات، وقد رأت بيرتا عددًا كبيرًا من الصُّور؛ فكان الاثنان يعرفان ما عليهما فعله. وقفا في وضع مستقيم بثباتٍ، وأدارا وجهين جادَّين وفخورَين نحو الكاميرا. حتى المشاكسة من نُدَماء أوين في ذا سوان لم تنجح في تحريك وجهيهما الرَّصينين، ونَقَلَ ضوء الشمس وقارهم -حديث الزَّواج- إلى الزُّجاج، حيث سيحيا لزمنٍ طويل من بعدهم.

عندما انتهى اجتمَعَ المدعوُّون في نزهة على ضفة النهر. قالوا وهم يتحرَّكون وينظرون إلى السماء الزرقاء الصافية فوقهم: "يا له من يوم! إنه يوم رائع!"، ووصلوا في موكب مُبهِج إلى ذا سوان، حيث

وضعت مارجو الزهور على الطاولات عند ضفَّة النهر، وكانت صغيرات المارجو ينتظرن بأباريق المشروبات الباردة المغطَّاة بالقماش المطرز بالخرز.

بدت أحداث الأشهر الستة الماضية بعيدة جدًّا، ففي اليوم الصيفي دائمًا ما يبدو الشتاء كشيء حلمت به أو سمعت عنه، وليس شيئًا عِشتَه. جعلت الشمس غير المتوقَّعة جلدهم يَخِزُهم، وشعروا بالعرق على مؤخِّرات أعناقهم، وبدت القشعريرة فجأة شيئًا يستحيل تَصوُّره. إلَّا أن أطول يوم في الصيف هو التوأم المعاكس لأطول ليلة في الشتاء؛ وعلى ذلك فيُحتِّم كلُّ اعتدالٍ تَذكُّرَ الآخر- وإن كان هناك البعض مِمَّن لم يربطوا اليومين ببعضهما البعض، فقد ذكَّرهم أوين نفسه.

قال للمجتمعين في عرسه: "منذ ستة أشهر قرَّرتُ أن أجعل برتا زوجتي. شعرت أني رجل جديد بإلهام من المعجزة التي حدثت هنا في ذا سوان، والتي تعرفونها -إنقاذ أميليا فون، الصغيرة، التي وُجِدَت ميِّتةً وعادت إلى الحياة مرَّةً أخرى- وطلبتُ يَدَ مدبِّرة منزلي للزواج، وشرَّفَتني بيرتا بالموافقة...".

عاد الكلام عن الفتاة بعد أن أُلقِيَت الخُطَب. أعيد حَكيُ الأحداث التي وقعت على هذه الضفة نفسها في الظلام والبرد تحت السماء اللازوردية: وربما تَمَّ تَجنُّب العناصر الأكثر قتامة من القصَّة بتأثير ضوء الشمس، وبرزت قصة أبسط وأكثر سعادة. طفلة مخطوفة أعيدت إلى والديها؛ ممَّا جعلها هي وآل فون والسُّكَّان جميعًا سعداءَ جدًّا. خطأ صُحِّح، وعائلة رُمِّمَت. حاوَلَت أختُ جَدَّة أحد حفَّاري الحصى أن تقول إنها رأت الطفلة عند ضفَّة النهر وأنه ليس للفتاة انعكاس، ولكنها أُسكِتَت. لا يريد أحدٌ قِصَّة أشباح اليوم. أُعيد ملء أكواب خمر التفاح، وأتت صغار المارجو واحدةً تلو الأخرى -لا يمكن التفريق بينهنَّ- بصحون لحم الخنزير والجبنة والفجل، وقد غَمَرَت

السَّعادة المحتَفِلين، حتى إنها سحَبَت منهم كلَّ شَكٍّ وكلَّ قتامة. منذ ستة أشهر انفجرت في ذا سوان بوحشيَّةٍ وفوضى قصَّةُ مُعجزة، واليوم تمَّ تنظيمها وكيُّها وحفظها بلا تجعيدة واحدة.

قبَّل السيد ألبرايت السيدةَ ألبرايت، التي احمرَّت كالفجل من الخجل، وعند الظهيرة بالضبط وقفا مُتَّحِدَيْن ليكمِلا الاحتفال بالانضمام إلى المهرجان.

بين حقول رادكوت المنظَّمَة المُسَيَّجة توجد قطعة أرض تُستَخدَم على المشاع. تضمَّنَت اليوم أكشاك من كل الأنواع والأحجام. بعضها تبدو احترافيَّةً بمظلَّاتٍ لحماية البضائع من الشمس، وأخرى ليست أكثر من غطاء مفرود على الأرض وفوقه البضائع. هناك أشياء قد يحتاجها الشخص فعلًا -أباريق وأوعية وأقداح، وأقمشة، وسكاكين، ومُعِدَّات، وجلود- ولكن كان هناك قَدرٌ مساوٍ من التفاهات المبهرجة التي صُمِّمَت كي تثير الرغبات. أشرطة وحلوى وقطط صغيرة وحُليٌّ من جميع الأنواع. حمل بعض التجار بضائع في سلال، وقد جال هؤلاء هنا وهناك، وكل شخص منهم يتفاصح في وصف أغراضه، ويحذِّر من الآخرين النَّصَّابين وبضاعتهم المغشوشة والغالية، يتفرَّقون فور أن يجمع النَّصَّابُ بضاعته ويرحل. كان هناك عازفو القِرَب والطَّبَّالون ورَجُلٌ واحدٌ يعزف عدَّة آلات. وبينما يتمشَّى جمهور المهرجان، كانوا يمشون نحو مجموعة من أغاني الحب والسُّكر والأغاني العاطفية عن الفَقْد والصعوبات، ثم بعيدًا عنها. أحيانًا يمكنهم سماع أغنيتين معًا، وتتخبَّط النغمات وتسقط فوق بعضها البعض في آذانهم.

مشى السيد والسيدة فون من كوخ باسكوت إلى الحقل حيث تقوم احتفالات اليوم. كان كلٌّ منهم يمسك يدًا من يَدَيْ الطفلة التي تتأرجح بينهما. كانت هيلينا منزعجةً قليلًا، ظنَّ فون أنها مُحبَطة لأن

توقُّعَ الطبيب بعودة الكلام إلى الطفلة لم يتحقَّق كما كانت تتمنَّى، ولكن مزاجه هو، وليس هي، هو الذي كان يُلقي ظلًّا على اليوم.

"هل أنتِ متأكِّدة من ذلك؟" سأل فون زوجته.

"ولِمَ لا؟".

"هل ستكون في أمان".

"نحن نعرف الآن أن ليلي وايت هي مَن كانت تراقُبنا... مخلوقة مسكينة غير مؤذية. ما الذي يجب أن نقلق منه؟".

عبس فون "ولكن ذلك الشخص الذي هاجم ريتا...".

"كان ذلك منذ شهور. أيًّا كان الشخص، فلا يمكن أن يحاول فِعلَ شيء ونحن محاطون بكل هذا العدد من الناس الذين يعرفوننا. إن مُزارِعينا وخَدَمَنا نفسهم هنا. وكل شخص من ذا سوان. لن يدعوا أحدًا يؤذي ولو شعرة من رأسها".

"هل تريدين أن تُعرّضيها حقًّا لكلِّ الإشارات والنميمة؟".

"لن نستطيع أن نُبعِدَها عن العالم للأبد يا عزيزي؟ يوجد هنا الكثير ممَّا يُسلِّي طفلة. ستحبُّ سباقات القوارب. من القسوة إبقاؤها بعيدة".

أصبحت الحياة أفضل كثيرًا منذ جاءت الطفلة. منحته سعادة هيلينا راحةً، حتى إنها ملأت قلبه بالسعادة. كان حبهم الذي تجدَّد مُشابِهًا لسنوات زواجهم الأولى، حتى إنه كان من الممكن نسيان أن رعشة اليأس الممتدَّة قد وُجِدَت من الأساس. لقد دفنوا الماضي حتى يعيشوا في متعة وبهجة. إلَّا أن الآن بعد أن زالت حداثة سعادته الزوجية المستعادة أصبح غيرَ قادر على الادِّعاء أمام نفسه أنها تستقرُّ على قاعدة آمنة. كانت الطفلة التي تتأرجح بينهما بغموضها الأخرس

وشـعرها الشَّـفَّاف وعينيهـا المتغيِّرتَـين عـلى الـدوام سـببَ سـعادتهما، والخطـر عـلى هـذه السـعادة في آنٍ واحـد.

انشـغل فـون خـلال النهـار؛ مـمَّا سـمح لـه بـأن يـصرف انتباهـه عـن انشـغاله لا النهـائي الـدَّوران، ولكـن في الليـل عـاد الأرق. عـانى بتكـرار مـن تنويعـاتٍ عـلى نفـس الحلـم الـذي يمـشي فيـه في منظـر طبيعـي -غابـة أو شـاطئ أو حقـل أو كهـف، تتغـيَّر الأرض في كل مـرَّة- يبحـث عـن شيء، ثـم يـأتي إلى منطقـة فارغـة أو يلتـفُّ حـول شـجرة أو يصـل إلى قنطـرة، وإذ بهـا هنـاك، ابنـة تنتظـره كـما لـو كانـت هنـاك طـوال الوقـت تنتظـر بابـا كي يـأتي ويجدهـا. ترفـع ذراعيهـا نحـوه وتصيـح "دادي!"، ويرفعهـا بـين ذراعيـه ويفيـض قلبـه... ثـم يسـتيقظ عـلى الإدراك الثقيـل أنهـا ليسـت أميليـا. كانـت الفتـاة. وصلـت البديلـةُ إلى أحلامـه، وثبَّتَـت وجههـا فـوق ذكـرى طفلتـه المفقـودة.

كانـت هيلينـا نفسـها جاهِلـةً بهشاشـة نعيمهـم، ووقـع ضغـط القلـق عليـه وحـده. خلـق ذلـك مسـافة بينـه وبـين هيلينـا، مسـافة لم تكـن هـي واعيـة لهـا بعـدُ. بَنَـت باعتقادهـا أن الطفلـة هـي أميليـا وأنـه أيضًـا مقتنـعٌ بذلـك شـعورًا بالأمـان يثـير الإعجـاب، مثـل قلعـة مُحاطَـةٍ بخنـدق. كان وحـده يعـرف مـدى هشاشـتها في الحقيقـة.

عندمـا أرتـه أحلامـه كـم كان سـهلًا وضـع وجـه هـذه الطفلـة عـلى أكتـاف أميليـا، شـعر بإغـراء الانضـمام إلى هيلينـا في يقينهـا. أحيانًـا بـدا أنـه أمـرٌ واضـح وفِعلُـه بسـيط، حتـى إنـه شـعر بالذنـب لمقاومتـه العنيـدة. كان ينــادي الطفلـة أميليـا بالفعـل أمـام زوجتـه. لقـد قطـع نصـف المسـافة. ولكـن هنـاك دائمًـا الـشيء الآخـر. المعرفـة. تحـت كل شيء هنـاك طفلـة صغـيرة لا يسـتطيع حتـى أن يتذكَّـر وجههـا، ولكنـه لا يسـتطيع -لا يريـد- أن ينسـاه.

كان هنـاك شيءٌ آخـر. عندمـا يسـتلقي في سريـره ليـلًا إن كان صاحيًـا أم نائمًـا فهـو يبحـث بـلا نهايـة عـن ابنتـه في مناطـق مُتخيَّلـة ويجـد مـرَّةً تلـو المـرة المتطفِّلَـة الصغـيرة، وأحيانًـا يسـبح إلى مجـال بـصره وجـهٌ آخـر تمامًـا، ويَثقُـل قلبـه. روبـين أرمسـتورنج. فمـن المفهـوم أن يلعـب بفكـرة الاستسـلام للسـعادة والسـماح للفتـاة أن تحـلَّ مَحـلَّ ابنتـه في قلبـه وعقلـه كـما حلَّـت محلَّهـا في منزلـه، ولكـن ذلـك الفعـل يعنـي حرمـان رَجُـلٍ آخـر مـن طفلتـه. أراد فـون سـعادة هيلينـا، ولكـن مـاذا لـو جـاءت السـعادة عـلى حسـاب الحُكـمِ عـلى رَجُـلٍ آخـر بعـذاب الفَقْـد الـذي قـد تركـه خلفـه لتَـوِّه؟ بقـدر الفتـاة، بقـدر أميليـا، كان روبـين أرمسـتروتج يسـكن ليـالي فـون ويحوِّلـه إلى حجـر في سريـره.

عنـد وصولهـم إلى طـرف المهرجـان التقـوا بالجماهـير. لاحـظ عـددًا مـن الأشـخاص يلمحونهـم ثـم ينظـرون نحوهـم مـرَّةً أخـرى ثـم يهمسـون ويشـيرون. وضعـت زوجـات الفلاحـين الزُّهـورَ في يـد الطفلـة وربَّتـوا عـلى رأسـها، ركـض الأطفـال الصغـار نحوهـا وقبَّلوهـا.

قـال فـون بهـدوء عندمـا ركـع حفَّـارٌ ضخـم أمامهـا ولعـب مقطوعـة قصـيرة عـلى كمانـه قبـل أن يضـع سـبابته بجدِّيَّـة عـلى خدِّهـا: "لسـت مُقتَنِعًـا أن هـذا الأمـر جيـد".

زفـرت هيلينـا زفـرةً قصـيرة سـاخطة لا تشـبه نفسـها الرزينـة المعتـادة. "إنهـا تلـك القصـة السـخيفة. يعتقـدون أنهـا قـادرة عـلى فِعل المعجـزات... تمنحهـم حمايـة أو شيء مـا. هـذا ليـس إلا تطيُّرًا، وسـيمضي. أعطِـه وقتًـا. عـلى كل حـال تبـدأ سـباقات القـوارب في الثانيـة. لا حاجـة لأن تبقـى إن لم ترغـب في ذلـك. نحـن سنشـاهدها" قالـت لـه بحسـمٍ، ثـم وجَّهَـت كلامهـا إلى الطفلـة "تعـاليَ".

شـعر باليـد الصغـيرة تنفصـل عـن يـده. عندمـا اسـتدارت هيلينـا لم تتبعهـا سـاقاه فـورًا، وفي تلـك اللحظـة مـن الـتَّردُّد أوقفـه أحـدُ الفلَّاحـين

ليتحدث معه. عندما أصبح حرًّا مرَّةً أخرى كانت زوجته والفتاة قد غابتا عن النظر.

انحرف فون عن المحور المركزي العريض، حيث لم تكن تجري الكثير من الأمور. شقَّ طريقه يبحث بين البسطات والأكشاك المغطَّاة. تجاهل نداءات البائعين في كل مكان يذهب إليه. لم يكن يريد أن يشتري خاتمًا من الياقوت لحبيبته، وهزَّ يده رافِضًا الحلوى وعلاج النقرس وأمراض الهضم ومطاوي الجيب (مسروقة في الأغلب) والتمائم لمنح الرَّجُل جاذبية لا تُقاوَم والأقلام. بدت الأقلام جيِّدةً، وكان قد يشتريها في وقت آخر، ولكن رأسه بدأت تؤلمه وشعر بالعطش. كان بإمكانه التوقُّف عند أيٍّ من الأماكن التي تبيع مشروباتٍ ولكن كان أمامها طوابير وهو يفضِّل أن يجد زوجته والطفلة أوَّلًا. شَّق طريقه وسط الحشود مُتقدِّمًا ببطء. لماذا تشرق الشمس حارَّةً في هذا اليوم بين جميع الأيام عندما يجتمع كل هؤلاء الناس معًا؟ تكثَّفَت الحشود حتى التَّجمُّد، واضطرَّ للتوقُّف تمامًا، ثم وجد تيَّارًا مُتكاسلًا، وخطا للأمام مرة أخرى. شعر بالعرق على حاجبه وبدأت عيناه تحرقانه من الملح. أين هما بحق الجحيم؟

شعر بالدُّوار من تَسلُّط الشمس على عينيه. استمرَّ ذلك للحظة، ولكن وقبل أن يستجمع حواسَّه سقطت يَدٌ على ذراعه.

"الطالع يا سيدي؟ من هنا".

حاول أن ينفض اليد من عليه، ولكن حركته كانت مُجهَدةً وبها الشعور المبهم للسباحة تحت الماء. قال: "لا"، أو ربما فقط نوى أن يقولها؛ لأنه لم يسمعها تُنطَق. عِوَضًا عن ذلك رُفِعَت ستارة جانِبًا بشكلٍ خفيٍّ ودفَعَته إلى الداخل اليَدُ التي كاد ألَّا يراها ولكنه شعر بها. تعثَّر بخطوات ثقيلة نحو الظلام.

"اجلِسْ". كان قماش فستان العَرّافة المبَهرَج مُشابِهًا للخيمة من الداخل حتى إنه تلاشى فيها، وكان وجهها مغطًّى.

وُضِع كرسيٌّ خلفه فخبط ركبتيه من الخلف بحيث لا يبقى له خيارٌ سوى الجلوس. استدار ليرى مَن الذي وضعه هناك. لم يجد أحدًا سوى بروزٍ بحجم وشكل كتف تُشوِّش جانبًا من الستارة الحريرية الرخيصة. شخص يختبئ هناك مُستعدًّا لمنع الزبائن من الخروج سريعًا دون دفع مقابل للغُرَباء الوسيمين وسِكّك السفر.

كل ما يريده كان كوبًا من مشروب بارد.

قال وهو يقوم: "اسمعي"، ولكنه خبط رأسه في قائم الخيمة، وبينما يرى النجوم شعر بالمرأة تمسك معصمه بقوَّةٍ أكثر ممَّا ظنَّها مُمكِنَة من يدٍ صغيرة إلى هذه الدرجة، ومن خلفه أجبره ضغطٌ حازم على كتفيه على العودة إلى كرسيه.

قالت المرأة: "دعني أقرأ يدك". كان صوتها حادًّا ويَنُمُّ عن تعليمٍ مُتدنٍّ وله جَرسٌ غريب لاحظه، ولكنه لم ينتبه له فورًا.

استسلم. في الأغلب، الأسرع أن يكمل الأمر عن أن يتفاوض على الخروج من الموقف.

بدأت "لقد كنتَ محظوظًا في بداية حياتك. آباؤك الروحيُّون كانوا الحَظَّ الجيِّدَ والموهبة. وقد أحسَنتَ صُنعًا من وقتها. أرى امرأة"، حدَّقَت في كفِّه "امرأة...".

أتت إلى ذهنه السيدة كونستنتين. لقد كانت ستحسن هذا الأمر أكثر بكثير! تذكَّر غرفتها التي تفوح برائحة الياسمين ووجهها الهادئ الثابت وفستانها المحتشم وياقتها النظيفة وقِططَها التي تخرخر. يشتاق لتلك الغرفة. ولكنه هنا.

سألها بمرحٍ مُزيَّف "شقراء أم سمراء؟".

تجاهَلَت العرَّافة ملاحظته. "امرأة سعيدة. كانت حزينةً من وقت قريب. وطفل أيضًا".

صاح في نفاد صبر "أتصوَّر أنه لا يجب أن يُفاجِئَني أنك تعرفين مَن أنا"، ثم قال لها بحدَّة: "هذا أمر خالٍ من الذوق. اسمعي، سأعطيك شيئًا مقابل وقتك ودعينا نُنهِ الأمر". حاول أن يُحرِّر يده من يدها، وأمسك بمحفظته.

أحكمت العرَّافةُ قبضتها، واندهش أن يُمكِن لامرأة أن تكون قويَّةً بهذا القدر. قالت: "أرى طفلة. هي ليست طفلتَكَ".

تجمَّد فون.

أفلتت يده، وتخلَّت عن ادِّعاء أنها تقرأ الكفَّ. "والآن، لن تذهب إلى أيِّ مكانٍ، أليس كذلك؟". كانت بصوتها نبرةُ انتصارٍ، وفجأة خطر له أهمِّيَّة الغرابة في صوتها والقوة في قبضتها. لم تكن امرأةً مُطلَقًا.

"استولَيتُ على انتباهِكَ؟ الطفلة في بيتك -تلك التي جعَلَت امرأتَكَ سعيدة- ليست طفلَتَكَ".

"كيف تعرف ذلك؟".

"هذا شأني. الفكرة أني أستطيع أن أسألك نفس السؤال: كيف تعرف؟ ولكن لاحِظْ أني لم أسألك. ولماذا لا أسألك؟ للسبب البسيط الذي هو أني لا أحتاج إلى ذلك؛ لأني أعرف الإجابة بالفعل".

شعر فون أنه يطفو وعرف أنه لا يمكنه التَّمسُّك بشيء، واستسلم لجذبَةٍ من تيَّارٍ بارد.

"ماذا تريد؟". كان صوته ضعيفًا، وسمعه من على بُعدٍ كبير.

"مقابل قراءة الطالع؟ لا شيء؟ أنا أَشرَفُ من أن أطالب رَجُلًا بدفع مقابل لمعلومات يعرفها بالفعل. ولكن ماذا عن زوجتك؟ هل ستحبُّ أن يُقرَأ طالعها؟".

"لا!". انفجر فيه فون.

"تصوَّرتُ ذلك".

"ماذا تريد؟ كم؟".

"أنت مستعجل. هل تقوم بكل أعمالك بهذه السرعة؟ لا، دعنا نأخذ وقتنا في التفكير وفهم ما هي الأشياء المهمَّة. أحداث بعد ظُهر اليوم مَثَلًا...".

"أي أحداث؟".

"تخيَّلْ أن هناك حدثًا... نصيحتي لكَ -أقدِّمها مجَّانًا يا سيد فون- أن تبقى خارج المواضيع. لا تورط نفسك".

"ما الذي ستفعله؟".

"أنا؟" -بصوت البراءة المجروحة- "أنا لن أفعل شيئًا يا سيد فون. ولا أنت أيضًا، إن كنتَ تريد أن تُبقي زوجتك بعيدةً عن سِرِّنا الصغير".

فجأة خَلَت الخيمةُ من الهواء.

"سيكون هناك وقتٌ لاحِقًا لتنظيم بنود اتِّفاقنا"، ثم قال له الرجل من خلف الحجاب: "سأبقى على اتصال".

قام فون وقد احتاج إلى الهواء بشكلٍ مُلحٍّ، وهذه المرة لم يقابَل بأيٍّ مقاومة وهو يشقُّ طريقه إلى الخارج.

مشى فون في الهواء الطلق منزعجًا بدون أن يعرف إلى أين يتَّجه. منعه حجم الضجيج في ذهنه من أن يرتِّب فكرتين متعاقبتَين، فكيف يكون الوصول إلى نتيجة. كاد ألّا يرى الحشود من حوله، ولكن عندها صمت الموسيقيُّون والمنادون على البضائع. تساقَطَت الأحاديث وحتى فون في حالته الذهنية المشوَّشة صار واعيًا أن شيئًا ما يحدث. أعاد

فتح عينيه للعالم الخارجي، وأدرك أن الجميع قد توقَّفوا عن الضجيج العشوائي وثبتوا في أماكنهم. كان الجميع ينظرون في نفس الاتجاه.

صرخ صوت امرأة في هلع "ابتَعِدْ! ارحَلْ عنِّي!".

كانت هيلينا.

ركض فون.

في نفس الوقت كانت عائلة أرمسترونج قد قرَّرَت أن تأتي لتشاهد المهرجان. بدا على روبرت أرمسترونج حماسٌ غير معهود وهو يمشي مع بيسي وستَّة من أبنائه السبعة حوله، وفي جيبه خطابٌ من روبين ابنهم البكري. كان الخطابُ صادِرًا عن ندم، ويستجدي فيه روبين السَّماحَ، وقد اعتذر عشرات المرات عن محاولته ضرب والده، ووعد بالإصلاح. عبَّر عن كل رغبة في أن يحيا حياةً أفضل ويتخلَّى عن المقامرة والشرب وأصدقائه السيِّئين في دراجون. سيأتي ليقابلهم في المهرجان، ويبين لوالده كم هو صادق في ندمه.

قالت بيسي وهي تقرأ من فوق كتفه وتعبس "هو لا يذكر أليس".

ردَّ زوجها "لا بُدَّ أن مسألة الطفلة ستُحلُّ أيضًا مع كل شيء آخر ينوي أن يصلحه".

دقَّق أرمسترونج من طوله الفارع في الحشود بحثًا عن ابنه. لم يكونوا قد وجدوه بعدُ، ولكنه في الأغلب هناك يبحث عنهم بين الجماهير. لا بُدَّ أن يصادفوه عاجِلًا أم آجِلًا.

اشترى أرمسترونج سكاكين لأبنائه المتوسِّطين، وشرائِطَ شَعرٍ وبروشات للفتيات الأكبر، وللصغار أشكال حيوانات محفورة في خشب البلوط: بقرة وخروف وخنزير. أكلوا كفتة لحم الخنزير، ولكن اللحم لم يكن يقترب في جودته من لحم أرمسترونج، ومع ذلك كان له نكهة جيدة لأنه طُبِخَ في الهواء الطلق.

ترك أرمسترونج زوجته وأبناءه يصفِّقون مع الموسيقى التي يلعبها الرَّجُل مُتعدِّد الآلات وتمشَّى نحو كشك المصوِّر، حيث وجد ريتا التي تحضر مهرجان الانقلاب دائمًا. ستحدث قرصات حشرات وإرهاق حراري وإغماءات من انخفاض السُّكَّر، عليها الاعتناء بها، وهي تساعد بشكلٍ عام في أكثر الأكشاك شعبيَّةً لتسمح لأكبر عدد ممكن من الناس أن يروها ويعرفوا أين يجدونها عند الحاجة. كانت اليوم تساعد في تنظيم طوابير زبائن كشك الصُّوَر الشخصية، وتكتب مواعيد في مُفكِّرة دُوِّنَت لجلسات في المستقبل.

سألها "هذا هو السيد هنري دونت على ما أتصوَّر؟ يبدو أفضل من المرة الماضية التي رأيتُه فيها".

"لقد شُفِيَ، ولكن لا تزال هناك ندبة تحت لحيته. أنت السيد أرمسترونج أليس كذلك؟".

"هذا صحيح".

تفحَّص أرمسترونج الصور المعروضة للبيع: مناظر من النهر، فرق القوارب، كنائس محلِّيَّة وأماكن جميلة المنظر. أبدى رغبة في أن تُلتَقَط له صورة عائلية.

"يمكن أن تؤخذ الصورة اليوم إن أردتَ. سأضيفك على القائمة، وأقول لك متى تعود من أجلها".

هزَّ رأسه أسفًا "الكبير لم يأتِ بَعدُ، وأنا أَوَدُّ أن تُلتَقَط لنا جميعًا صورة في المنزل، في المزرعة".

"إذًا يمكن للسيد دونت أن يزورك، وسيكون لديه الوقت لالتقاط عددٍ من الصور في الداخل والخارج. دعني أنظر في مُفكِّرته وأَرَ أيَّ يوم سيناسبك".



بينـما تتكلَّـم مـرَّت عـين أرمسـترونج عـلى لوحـة الصـور التـي تُظهِـر مشـاهد مـن المهرجانـات السـابقة. رقـص شـعبي وفِـرَق التجديـف والمنـادون عـلى البضائـع وعمالقـة لعبـة شَـدِّ الحبـل...

بـدؤوا في الـكلام عـن المواعيـد، ولكـن أرمسـترونج أوقـف نفسـه فجـأةً -أوه!- حتـى إن ريتـا رفعـت بصرهـا إليـه بحـدَّة.

كان أرمسترونج يُحدِّق في صورةٍ مُعيَّنة، وتبدو عليه صدمة عظيمة.

"هل أنت بخير يا سيد أرمسترونج؟".

صُمَّت أذناه عن كلماتها.

"سيد أرمسترونج؟".

أجلسته في مقعدٍ، ووضَعَت كوبًا من الماء في يده.

"أنا بخير! أنا بخير! أين التُقِطَت هذه الصورة؟ ومتى؟".

راجَعَت ريتا الرقم المسلسل وبحثت عنه في سِجِلٍّ دونت.

"في المهرجان، في لوكلايد، منذ ثلاث سنوات".

"مَن التقط الصور؟ هل كان السيد دونت بنفسه؟".

"نعم",

"يجب أن أتشاور معه".

إنـه في غرفـة التحميـض الآن. لا يمكـن مقاطعتـه: سـيُدمِّر الضَّـوءُ الصـورة التـي يُحمِّضهـا".

"إذًا دعيني أشترِ هذه الصورة، وسأعود مرَّةً أخرى لأتحدَّث معه لاحقًا".

وضـع عمـلات في يـد ريتـا، ولم ينتظـر كي تلـفَّ لـه مشـترياته وأسرع بعيـدًا مُمسِـكًا بهـا في يديـه الاثنتـين.

لم يقـدر أرمسـترونج عـلى رفـع عينيـه عـن الصـورة، ولكـن بعـد أن كاد يتعـثَّر في حبـل إحـدى الخيـام أدرك أنـه لا بُـدَّ أن يضعهـا في جيبـه ويركِّـز جهـوده عـلى العثـور عـلى زوجتـه وأبنائـه. أبعـد الـبرواز وأخـذ نَفَسًـا عميقًـا وبـدأ في النظـر حولـه. ثـم أتـت ثانيـة مفاجـآت اليـوم.

لم تكـن مَـن ظهـرت أمـام أنظـاره خارِجـةً مـن الخيمـة التـي كان يأمـل أن يـرى بيسـي عندهـا زوجتـه، وإنمـا السـيدة إيڤيـس مالِكـة "المنـزل السـيِّئ"، حيـث أنهـت زوجـة روبـن أيامهـا. رآهـا أوَّلًا مـن الجانـب. لا يمكـن أن يخطـئ أنفهـا التـي تشـبه النَّصـل. لقـد عـادت مـن عطلتهـا! كاد يقسـم أنهـا رأتـه أيضًـا؛ لأن وجههـا اسـتدار نحـوه وظـنَّ أنـه لمـح لمعـة في عينهـا، ولكـن يبـدو أن ذلـك غـير حقيقـي؛ لأنهـا اسـتدارت ومشـت بعيـدًا بثبـاتٍ، مـع أنـه نـادى اسـمها.

راوغ أرمسـترونج المتجوِّلـين مـن مرتـادي المهرجـان الذيـن كانـوا في طريقـه، وخطـا سريعًـا خلفهـا. تقـدَّم بانتظـامٍ عـبر الحشـود لفـترة قصـيرة. في لحظـة مـا كان قريبًـا منهـا، حتـى إنـه يـكاد يقـدر عـلى وضـع يـده عـلى كتفهـا، ولكـن آلـة كونسرتينـا تمـدَّدَت وهـي تصفِّـر، وعندمـا التـفَّ حولهـا بنجـاح كانـت قـد غابـت عـن نظـره. نظـر إلى اليسـار واليمـين في كل فرصـة، وبـين الأكشـاك والطـاولات، وتفاجـأ أنـه وجدهـا مـرَّةً أخـرى بسرعـة. عندمـا وصـل إلى مفـترق طُـرُق في المهرجـان رآهـا تقـف ثابتـةً تنظـر حولهـا كأنهـا تنتظـر شـخصًا. رفـع ذراعـه ليشـير لهـا، وفي اللحظـة التـي تحوَّلـت عيناهـا نحـوه انطلقـت مـرَّةً أخـرى.

كان عـلى وشـك اليـأس عندمـا سـاد سـكونٌ عظيـم أمامـه. لم يتحـرَّك أحـدٌ. ثـم مَزَّقَتـه صرخـة الهـواء -صـوت امـرأة في هلـع- "ابتَعِـدْ! ارحَـلْ عنـي!".

ركض أرمسترونج.

وصل فون إلى حيث تكاثَفَت الحشود، واضطرَّ أن يدفعهم ليشقَّ طريقه. عندما وصل إلى قلب التجمُّع وجد هيلينا على رُكبَتَيْها على الأرض وتَنُّورتها مُبقَّعة بطين الأقدام الكثيرة التي داستها. كانت تنتحب، وفوقها وقفت امرأةٌ طويلة بشَعرٍ داكن طويل وأنف نحيفة حادَّة وشفاه عريضة باهتة، راوغت كي تقف بين هيلينا والطِّفلة، بينما تمدُّ هيلينا يديها بجنون في الطِّين اللَّزج حول تنُّورتها الواسعة، مُحاوِلةً أن تضع يدها على الطفلة الصغيرة.

كانت المرأة تشرح -لكن ليس لشخص بعينه- "لا أعرف. كلُّ ما فَعَلتُه هو أني قُلتُ "هالو". ما الخطأ في ذلك. كل ما قُلتُه هو "هالو أليس"". كان صوتُها عاليًا... ربما أعلى بقليل ممَّا ينبغي. لاحَظَت مجيء فون، ثم استدارت وخاطبتهم كشخصٍ واحد "لقد سمعتموني، أليس كذلك؟". هزَّ البعض رؤوسهم. "أُلقي التحيَّة على ابنة مُستأجِري السابق التي لمَّا أَرَها من مُدَّة طويلة... ما الذي يمكن أن يكون أكثرَ طبيعيَّةً من ذلك؟".

وضعت المرأة الطويلة يديها على كتفي الطفلة.

ارتفعت الهمهمات من الجماهير. كانوا مُتبرِّمين، يختلط عليهم الأمر، وحائرين، ولكنهم أكَّدوا أَنْ نَعَم، هذا هو ما قالته. هزَّت المرأة رأسها راضية.

جثم فون على ركبتيه ليضع ذراعًا حاميةً حول زوجته، بينا تُحدِّق هي مصدومة بعيون مفتوحة على اتِّساعها تشير إليه أن يمسك بالفتاة.

انقسم الجَمعُ بهَمهَمةٍ، وخرج من بينه شخصٌ آخر يعرفونه.

روبين أرمسترونج.

أضيء وجه المرأة الطويلة لرؤيته برضا خفيفٍ، كأنَّ خُطَّةً ما آتت ثمارها بنجاح، ثم وبسرعة عنيفة فاجأت الجميع أمسكت بالطفلة ورفعتها عاليًا وأعلَنَت "انظري يا أليس! إنه دادي".

صَحِبَت صرخة الألم الصادرة من هيلينا شهقةٌ أتَت كصوتٍ واحد من الحشد، ثم ساد الصمت. مَصدومين ومحتارين، بينما تنقل المرأةُ الطفلة إلى ذراعَيْ روبين أرمسترونج.

قبل أن يستطيع أي شخص أن يتماسك كي يُصدِرَ ردَّ فِعلٍ استدارت وألقت بنفسها وسط الجمع. انشقَّت الجماهير في وجه سُرعتها وأنفها الحاد، ثم انغلَقَت خلفها وضاعت عن الأنظار.

وقف فون ونظر إلى روبين أرمسترونج.

أخذ روبين الطِّفلةَ ونطق بالكلمات بصوت مُختَنِقٍ داخل شَعرها.

سألَت الجماهير "ماذا قال؟"، ومرَّت الكلمة بسُرعَةٍ من فمٍ إلى أذن، "قال: "آه يا حبيبتي! آه يا ابنتي! أليس يا حبيبتي!".

انتظر المتفرِّجون كما في المسرح كي ينتهي المشهد. يبدو أن السيدة فون قد فقَدَت وعيها وتحجَّر السيد فون بينما لم تفارق عينا روبين أرمسترونج الطِّفلةَ، وحدَّق أبوه السيد أرمسترونج كما لو كان لا يصدِّق عينيه. كان لا بُدَّ أن يتلو ذلك شيءٌ، ولكنَّ الجوَّ كان مليئًا بالتردُّد. نسي الممثِّلون سطورهم، وانتظر كلٌّ منهم كي يكمل الآخر الحكاية. بدا وكأنه قد قُدِّر للَّحظة ألَّا تنتهي، وبدأت الهمهمات ترتفع من بين المتفرِّجين عندما علا صوت بحيرة.

"هل يمكن أن أساعد؟".

كانت ريتا. خَطَت إلى داخل الدائرة وانحَنَت بجوار هيلينا. قالت: "يجب أن نعيدها إلى المنزل"، ولكنها نظرت بتساؤلٍ نحو فون وهي

تقولها. بدا فون غيرَ قادر على الحركة وقد ثبتت عيونه على الطفلة بين ذراعَيْ روبين أرمسترونج.

همَسَت بإلحاحٍ "ماذا سنفعل؟".

ظهر الآن نيومان -بستانيُّ آل فون- مع خادِمٍ آخر من المنزل. رفعا هيلينا من على الأرض.

"حسنًا؟" قالت ريتا وأمسكت بذراع فون لترفعه من ثباته، ولكن كل ما استطاعه كان هِزَّةً ضئيلة من رأسه قبل يُدير ظهره ويشير للخدم برأسه أن يبدؤوا في مَهمَّة حمل جسد هيلينا فاقِدِ الوعي ويعودوا به إلى بوسكوت لودج.

كانت جميع العيون مُسلَّطة على رحيل عائلة فون، ثم نظرت الجماهير كشخصٍ واحد على الأطراف الأخرى. فتحت الصغيرةُ فمها وانتظر الجميعُ العويل الذي كانوا واثقين في قدومه، ولكنها فقط تثاءَبَت وأغلقت عينيها وأراحت رأسها بثِقَلٍ على كتف روبين أرمسترونج. أنبأهم ارتخاء جسدها أنها نامت فورًا. نظر الشاب إلى وجه الطفلة النائمة بتعبير حنانٍ لا مُتناهٍ.

بدأت الحركة بين الجماهير وسمعت أصوات.

"ما الذي حدث يا أمي؟".

و"لماذا صمت الجميع؟".

ظهرت بيسي بمشيتها المترنِّحة وعصابة عينها ذات الأشرطة تقود موكب الأطفال الذين جاؤوا جميعًا متأخِّرين ليشهدوا الأحداث.

صاح أحدهم وقد لمح أرمسترونج "انظر. هذا بابا!".

جاء صوتٌ آخر "وربين!".

سأل صغير العائلة "مَن هذه الطفلة الصغيرة؟".

"نعـم". رنَّ صـوت أرمسـترونج العميـق، وكان جـادًّا، مـع أنـه يتكلـم بهـدوء كي لا يسـمعه المتفرِّجـون "مَـن هـذه الطفلـة الصغـيرة يـا روبـين؟".

وضـع روبـين أصبعًـا عـلى شـفتَيْه "هشـش!"، وقـال لأخوتـه وأخواتـه "ابنـة أخيكـم نائمـة".

تجمَّـع الأطفـال حـول أخيهـم، وقـد التفَّـت وجوههـم الصغـيرة المشرقـة نحـو الطفلـة التـي كانـت الآن مَخفيَّـةً عـن أنظـار الجماهـير.

قال شخصٌ: "إنها تمطر!".

وفجـأة تحوَّلـت القَطـراتُ القليلـة مـن المـاء إلى سَـيْل. ابتلَّـت الوجـوه، والتفَّـت التنانـير عـلى السـيقان، والتصـق الشَّـعرُ عـلى الـرؤوس. مـع المطـر أتى إدراكُ أنهـم لا يحدِّقـون في عـرضٍ مسرحـيٍّ، ولكـن في بـؤس أشـخاص آخريـن. تذكَّـروا أنفسـهم خَجِلـين، وركضـوا بحثًـا عـن سـاترٍ مـن المطـر. بعضهـم اتَّجـه إلى الأشـجار، والبعـض إلى أكشـاك المرطِّبـات... وركـض عـددٌ كبـيرٌ إلى ذا سـوان.

فلسفة في ذا سوان

أعيد النظر الآن في القصة التي حكيت خلال إفطار العرس بنوع من الحسم، ووافق الجميع على أنها أخذت منحنى جديد بوضوح. استعادوا أحداث بعد الظهيرة مرَّةً تلو الأخرى، يتذكَّرون كل تفصيلة: المرأة ذات الأنف الحادَّة، وإغماءة هيلينا الدراميَّة، ونظرة السيد فون المتجمِّدة، وحنان روبين أرمسترونج. عندما تذكَّروا كل شيء يمكن تَذكُّره شَجَّعَهم الكحول على استعادة أمور لم يتذكَّروها كُلِّيًّا، وحتى أن يخترعوا أشياء لا يتذكَّرونها إطلاقًا. استعانوا بالأسئلة: ما الذي ستفعله عائلة فون الآن؟ كيف ستتحمَّل السيدة فون الأمر؟ هل سيقنع فون روبين أرمسترونج أن يتخلَّى عن الطفلة؟ لماذا لم يصل الأمر إلى العراك؟ هل سيحدث ذلك غدًا وفي اليوم التالي؟

انقسم الشاربون إلى أحزابٍ، بعضهم يصرُّ على أن الطفلة هي أميليا فون، مُشيرين إلى يقين السيدة فون. وآخرون يهزُّون رؤوسهم

ويشـيرون إلى أن شـعر الطفلـة الأملـس يشـبه الموجـات الناعمـة التـي يتذكَّرونهـا عـلى رأس روبـين أرمسـترونج. عـادوا لتقييـم كل عنـاصر القصَّـة في ضـوء تلـك الاكتشـافات الجديـدة، ووزنـوا الأدِلَّـة في جميـع الاتجاهـات. فجـأة طفـت ليلـة الخطـف إلى السـطح، فـإن كانـت هـذه الطفلـة هـي بالفعـل أليـس أرمسـترونج، فـما الـذي حـدث لأميليـا فـون؟ كانـوا قـد تركـوا قصَّـة الاختفـاء بعـد ظهورهـا مـرَّةً أخـرى، ولكنهـم عـادوا إليهـا مجـدَّدًا، وغاصـوا في أعماقهـا.

جلـس هـنري دونـت الـذي كان يسـتريح مـن العمليـة الممتـدَّة التـي تـأتي في نهايـة يـوم طويـل مـن التصويـر في رُكـنٍ مـن الغرفـة الشـتوية، يـأكل صحنًـا مـن لحـم الخنزيـر والبطاطـس مـع الجرجـير.

أصرَّ مُـزارِع الجرجـير وهـو مسـتندٌ عـلى النافـذة "إنهـا تلـك المربيـة. كنـتُ دائمًـا أقـول إن لهـا صِلَـة بالأمـر. مـا الـذي يُبقـي فتـاة في الخـارج حتـى ذلـك الوقـت مـن الليـل إن لم يكـن لسـبب فيـه فسـاد؟".

ألمـح نديمـه "آهـا، هنـاك فسـادٌ وهنـاك فسـاد... قـد لا يكـون فسـاد مـن نـوع الخطـف، ولكـن مـن النـوع الآخـر".

هـزَّ مُـزارِع الجرجـير رأسـه "كنـتُ سأفسـد معهـا إن قبَّلَتنـي، ولكنهـا لم تفعـل. هـي ليسـت مـن ذلـك النـوع. هـل سـمعت أنهـا تورَّطَـت مـع أي شـخص؟". كانـوا يحتفظـون بسِـجلٍّ دقيـق لأي فتـاة يمكـن أو لا يمكـن التَّـورُّط معهـا؛ كي تبقـى المعلومـات مُتاحـة. لا، لم تكـن مـن ذلـك النـوع.

سألهم دونت "ما الذي حدث لها لاحقًا؟".

استشـاروا بعضهـم البعـض، "لم تتمكَّـن مـن العثـور عـلى عمـل آخـر. لم يرغـب أحـدٌ في أن تعتنـي بأطفالـه. ذهبـت إلى كريـكلاد حيـث تعيـش جدَّتُهـا".

"كريكلاد؟ مقاطعة التنانين؟". كانت كريكلاد بلدةً طريفةً على بُعد أميال قليلة، معروفة بغزو التنانين على فترات متقطِّعة، وقد فكَّر في التقاط بعض الصور هناك لكتابه.

انهمك دونت في طعامه وهو يسمع الأحداث التي جرت قبل عامَيْن تُنبَش، وتُعاد مناقشتها وتُلتَقَط الخيوط الشاردة من القصة القديمة وأحداث اليوم، وتُبذَل مجهودات لغزلها معًا وصُنع قصة واحدة من الأمرين. ولكن الخيوط تركت ثقوبًا أعرض من أن تُرتَّق.

أحضرت إحدى صغار المارجو صَحنًا من فطيرة التفاح لدونت، وسكبت قشدةً كثيفة فوقها. أشعل چوناثان شمعة جديدة على طاولته وتلكَّأ.

"أيُمكِنني أن أحكي لك قصة؟".

"كُلِّي آذان مصغية. احكِ لي حكاية".

نظر چوناثان إلى الرُّكن المظلم الذي تأتي منه الحكايات، وفضحت عيناه ادِّعاءً عظيمًا بالتركيز. عندما استعدَّ لفتح فمه خرجت الكلمات في فيض عظيم:

"في يومٍ من الأيام كان هناك رَجلٌ يقود حصانه وعربته إلى النهر... ولم يُرَ ثانيةً أبدًا! أوه لا!". تلوَّى وجهه، وخفق بذراعيه في غيظ. صاح "هذا ليس صحيحاً!"، وبضيقٍ لَيَّن من نفسه "فاتني الجزء الأوسط!".

ذهب چوناثان ليتمرَّن على شخص آخر، وأكل دونت فطيرة مارجو، واستمع إلى محادثةٍ تلو الأخرى. حكاية روبين أرمسترونج المأساوية، الشَّبَه بين شَعرِه وشَعر الطفلة وغجر النهر وغريزة الأم...

بينما يقسِّم الآخرون القصة إلى فُتاتٍ جلس بيسزانت الذي يُصلِح السُّفُن ليعيد تركيبها بمائة طريقة مختلفة. ما إن كانت الفتاة تشبه آل فون أم آل أرمسترونج، كيف كانت ميِّتةً أوَّلًا ثم حيَّةً- هذه هي

الألغاز التي هزَّ رأسه أمامها مرتاحًا في جهله. ولكنه استخدم معرفته في مكانها. قال بحسم: "إنها ليست أليس أرمسترونج".

طالبوه بتفسير.

"شوهِدَت الأمُّ لآخر مرَّة في بامبتون مُتَّجِهةً إلى النهر والضئيلة الصغيرة معها على ما أظنُّ؟".

هزُّوا رؤوسهم.

"حسنًا، أنا لم أرَ طوال حياتي جسمًا -أو برميلًا، أو حتى قُبَّعةً ضائعة- تسبح عكس التيار. هل رأيتهم أنتم ذلك؟ أيٌّ منكم؟".

هزُّوا كل واحد منهم رأسه.

"آها!"، قال كلمته بأداءٍ نهائيٍّ، وللحظة واحدة عابرة وهَشَّةٍ بدا وكأن شيئًا واحدًا على الأقل ترابط في هذه القصة التي تسيل من بين أصابعهم مثل الماء. ولكن مزارع الجرجير فتح فمه.

"وهل توقَّعتَ قبل الانقلاب الأخير أن ترى فتاةً غرقت تعود إلى الحياة مرة أخرى؟".

"لا"، قال بسزانت. "لا أستطيع أن أقول ذلك".

"حسنًا إذًا"، قال مُزارِعُ الجرجير بحكمةٍ. "كون الشيء مستحيلًا لا يعني أنه لا يحدث".

صمت فلاسفة ذا سوان وعادوا إلى التفكير، وسريعًا إلى الخلاف. هل حدوث شيء واحد مستحيل يزيد من احتمالية حدوث مستحيل ثاني؟ كانت أحجيةً أكبر من أي أحجية عرفوها من قبل، وهمُّوا بها بحرص شديد، ولم يتركوا أي نقطة لم يفحصوها. استُهلِكَت زجاجات كثيرة من البيرة، وأتت نوبات صداع كثيرة من المجهود المبذول لتوضيح الأمر. شربوا وتجادلوا. طافت أفكارهم واكتشفوا تيَّاراتٍ داخل تيَّارات، وقابلوا تيَّارات معاكسة، وشعروا أحيانًا أنهم يقتربون بشكل مثير من

انفراجَـةٍ، ولكـن، وبالرغـم مـن حـدَّة مناقشـاتهم، فلـم يصبحـوا أكـثر عِلـمًا عنـد نهايتهـا.

قـام دونـت الـذي بقـي غـيرَ ثَمِـلٍ عنـد منتصـف الوقـت وانسـلَّ إلى خـارج الحانـة دون أن يلاحظـه أحـدٌ عائِـدًا إلى كولوديـون التـي رسـت عـلى بُعـد بضـع ياردات عكـس التيـار بجـوار الصفصافـة القديمـة. كان لا يـزال لديـه عمـل يقـوم بـه.

أقصَرُ لَيلَة

حمـل الخَـدَمُ في بوسـكوت لـودج سيِّدتَهم إلى غرفـة نومهـا في الطابـق الأعـلى، وتركوهـا في رعايـة ريتـا ومُدبِّـرة المنـزل. بـدت هيلينـا غـيرَ واعيـة بالأيـادي التـي تنـزع ملابسـها وتشـدُّ قميـص نـوم فـوق جسـدها الـذي يرتعـش بـلا انقطـاع. كانـت بشرتهـا خاليـةً مـن الـدم وعيونهـا تحـدِّق في الفـراغ، ومـع أن شـفاهها ترتعـش إلَّا أنهـا لم تتكلَّـم ولم تسـتجِب إلى الـكلام. وضعوهـا في سريرهـا، ولكنهـا لم تَنَـم، كانـت ترفـع نفسـها عـلى فـترات متقاربَـة وتمـدُّ يدهـا كـما فعَلَـت مـع الطفلـة، كـما لـو كان المشـهد الـذي حـدث في المهرجـان يعيـد نفسـه في غرفتهـا مـرَّةً تلـو المـرة. ثـم أتـت نوبـة دمـوع ضخمـة رجَّـت جسـدها، وبكـت مُخرِجَـةً عويـلَ رعـب وألم بـلا كلـمات، تَـردَّد عـبر أرجـاء البيـت.

أخـيراً اسـتطاعت ريتـا أن تناولهـا دواءً مُنوِّمًـا، ولكنـه كان خفيفًـا وبطيئًـا في تأثـيره.

"ألا تستطيعين إعطاءها شيئًا أقوى؟ بما أنها مكروبة هكذا...".

"لا"، قالت ريتا عابِسةً. "لا أقدر".

وأخيرًا انتصر الدواء على ذهن هيلينا المفرط في انتباهه وبدأت تهدأ. وحتى في ذلك الوقت في اللحظات الأخيرة قبل أن يغلبها النوم قامت بحركةٍ كأنها تقوم من سريرها. "أين...؟"، همهَمَت بكلمة أخرى وهي ترمش "أميليا..."، ولكن أخيرًا صار رأسها فوق الوسادة، وعيونها مغمضة، وانمحى دمار اليوم عن ملامحها.

قالت مُدبِّرة المنزل: "سأذهب وأقول للسيد فون إنها نامت". ولكن ريتا أبقتها لبضع دقائق أخرى بأسئلة عن صِحَّة هيلينا مؤخَّرًا.

عندما استيقظت هيلينا كان ذلك على الذِّكرى المؤلمة لما حدث من قبلُ، وبلا أي تقليل من الحزن ولا الضيق.

بكت بلَوعَةٍ "أين هي؟ أين هي؟ هل ذهب أنتوني ليأتي بها إلى المنزل؟ يجب أن أذهب بنفسي. مَن أخذها؟ أين هي؟". ولكن الجسد كان مُرهَقًا أكثر من أن يُحوِّل رغباتها اليائسة لفِعلٍ، ولم تملك القوة لدفع البطاطين بعيدًا والوقوف بلا مساعدة. كان ركوب القارب والتجديف إلى كلمسكوت أو ركوب القطار حتى أوكسفورد فوق طاقتها.

كانت ضخامة حُزنها عظيمةً، حتى إنه أنهكها، وعندما استولى عليها الإعياءُ رَقدَت بلا كلام على الوسادة وأطرافها لا تتحرك وعيناها لا تريان.

خلال إحدى تلك الفواصل أمسكت ريتا بيدها وقالت: "هيلينا، هل أنتِ واعيةٌ أنك تنتظرين وليدًا؟".

تحوَّلَت عينا هيلينا ببطء نحو عينيها بلا استيعاب.

"عندما أتينا بك إلى المنزل وألبسناكِ قميص نومِكِ لاحَظتُ أنَّكِ ازددتِ في الوزن مرَّةً أخرى، وقالت مُدبِّرة المنزل إنك تأكلين الكثيرَ من الفجل، حتى إنَّكِ تتقيَّئينه، وتُعدُّ هي لك شاي الزنجبيل. ولكن الفِجل ليس هو ما يجعلك تشعرين بالتَّوعُّك. إنه حَملُكِ".

قالت هيلينا وهي تهزُّ رأسها: "مستحيل. لقد توقَّفَت دورتي الشهرية عندما ضاعت أميليا مِنَّا. لم تَعُد أبدًا؛ لذا لا يمكن أن يكون الأمر كما تقولين".

"لا يعود استعدادُكِ للإنجاب مع أوَّل نزيف، ولكن في الأسابيع القليلة قبله. إن بدأ طفلٌ يتكوَّن في ذلك الوقت فلن تكون للإشارات فرصة كي ترجع. هذا هو ما حدث في حالتك. بعد حوالي نصف عام ستُصبحين أُمًّا مرَّةً أخرى".

رمشت هيلينا. استغرَقَت المعلومات بعض الوقت كي تغوص داخل ذهنٍ عَصَفَ به الحُزن، وأخيرًا حدث ذلك، ثم صاحت "أوه!" بنعومةٍ، وحرَّكَت يدها نحو بطنها ووضعتها هناك. شدَّت شفتاها ابتسامةً واهنة، والدَّمعة التي سالت لم تكن من نفس نوع الدموع التي بَلَّلَت وسادتها من قبل.

عبرت تقطيبةٌ على وجهها وقالت: "أوه!" للمرَّة الثانية بحيرةٍ، كما لو كانت ضوءًا كاشفًا قد أُلقي على بقعة مُظلِمة وبعيدة في ذهنها بعد دهشتها المبدئية.

ثم أغمضت عينيها ووقعت في نوم عميق وطبيعي.

في الأسفل، كان فون يقف في عتمة مكتبه ينظر خارج النافذة. لم يُضِئ المصابيح. لم يكن قد نزع سترته. لم يكن قد تحرَّك لما بدا أنه ساعات.

عندما طرقت ريتا الباب ودخلت وجدت فون ذاهلًا، أكثر من نصف غائب، رجل مُشتَبِك مع أفكاره السابقة أكثر من أن ينتبه للحاضر. "نعم"، قال لها بصوتٍ أجوف عندما قالت له إن هيلينا نائمة، و"لا" عندما سألته ما إن كان يرغب هو نفسه في دواء ليساعده على النوم، و"نعم" عندما شَدَّدَت أنه يجب حماية هيلينا من أي صدمات أخرى.

أكَّدَت عليه "إنه أمر ذو أهمية خاصة، حيث إنه يوجد طفل على الطريق الآن".

"حقيقي"، قال بخفوتٍ، تاركًا إيَّاها غير واثقة ما إن كان قد استوعب الخبر فعلًا. بدا واضِحًا أنه ظنَّ أن الحوار وصل إلى نهايته؛ لأنه استدار مرَّةً أخرى نحو النافذة وعاد إلى الشيء الذي يحتجز ذهنه.

خرجت ريتا وحدها إلى الحديقة عبر الأبواب التي كانت أقفالها الجديدة غيرَ ذات فائدة بشكل يبعث على الألم. انفجر مطرُ الصَّيف على أكتافها ببُطءٍ في قطراتٍ مُكتَنِزَة ودافئة، بدا أنها تحمل ضعف وزنها من الماء، ومع أن الوقت كان مساءً إلَّا أنه لم يكن مُظلِمًا بعد وقوع النور على أوراق النباتات المبتلَّة والممرَّات الممتلئة بالبِرَك يصبغ كل شيء بلمعة فضِّيَّة. ومنحت قطرات المطر المتتابعة سطحَ النهر لمعة مطروقة.

شعرت ريتا بتورُّم في حلقها. كانت مُنشغِلةً لساعات بأمور طبيعية، واختبأت في مطالب وتحدِّيات عملها. الآن وقد أصبحت وحدها تَمَدَّد الأسى داخلها، وسمحت للدموع أن تصحب قطرات المطر على وجهها.

لم تَزُر كوخ بوسكوت مرَّةً دون أن ترى الطفلة. في كل زيارة كانت تأخذ الطفلة فوق رُكبتَيْها وتقذف الحصى معها داخل النهر، أو تشاهد البط والبجع وهي تسبح في الجوار، أو تتأمَّل الماء. تضع

الطفلـة يدهـا في يـد ريتـا أحيانًـا، وقـد ادَّعـت بينهـا وبـين نفسـها أن سـعادتها بهـذه الحركـة شيء صغـير وغـير ذي أهميـة. ولكنهـا عندمـا رأت المـرأة الطويلـة ذات الأنـف المُدبَّـب تؤرجـح الطفلـة بعيـدًا عـن آل فـون إلى ذراعَـيْ روبـين أرمسـترونج وجـدت الغريـزة التـي تَسـبَّبَت في أن تمـدَّ هيلينـا يديهـا تَضرُّعًـا نحـو الطفلـة صـدى في صدرهـا هـي.

حاوَلَـت ريتـا أن تسـتجمع نفسـها وهـي تنتحـب بطريقـةٍ تـكاد تكـون غريبـةً عنهـا. خاطَبَـت نفسـها "أنـت تتصرَّفـين بحماقـة شـديدة. هـذا يخالـف عادَتـكِ"، لم يكـن للكلـمات الحازمـة تأثـير، "وهـي ليسـت ابنتَـكِ"، أكمَلَـت، ولكـن هـذه الكلـمات دفعـت دموعهـا إلى أن تتضاعـف.

اسـتندت ريتـا إلى شـجرة، وأفسـحت المجـال لمشـاعرها. ولكـن بعـد عـشر دقائـق مـن النحيـب المريـر لم يبـدُ أن هنـاك نهايـة لحزنهـا. تذكَّـرَت عـزاء اللـه لهـا حـين كان عندهـا إيمـان. خاطَبَتـه: "هـل تـرى لمـاذا لا أؤمـن بـك؟ لأني وحـدي في أوقـات مثـل هـذه. أنـا واثقـة مـن ذلـك".

لم يسـتمرَّ رثاؤهـا لذاتهـا طويـلًا. حثَّـت نفسـها "هـذا ليـس جيِّـدًا. مـا خَطبُـكِ؟"، دعَكَـت عينيهـا بقـوَّةٍ عنيفـة وهـي تسـبُّ المطـر بكلـماتٍ كان سـماعها سـيروع الراهبـات، وأسرعـت الخُطـى لتلقـي بنفسـها عَـدوًا عـلى الطريـق، حتـى حـلَّ إنهـاك انقطـاع أنفاسـها مـكانَ تَنهُّـدات المشـاعر في صدرهـا.

مـلأ طنـين الأصـوات الهـواءَ وهـي تقـترب مـن ذا سـوان. انتعـش عُـمَّال الزراعـة ومُزارعـو الجرجـير وحفَّـارو الحـصى بيـوم الاحتفـالات وسـط موسـم طويـل مـن العمـل الشـاقِّ، وكانـوا سـكارى أيضًـا. فتحـت الفـترة الطويلـة مـن النـور البـاب لـكلِّ أنـواع الإفـراط، وقـد اسـتفاد مـن ذلـك الزبائـن المعتـادون والزائـرون عـلى السـواء. كان البعـض في الخـارج عـلى ضفَّـة النهـر رغـم المطـر يشربـون، وقـد غرقـوا حتـى العظـام في المـاء،

ويُخفِّف المطر مشاريبهم -دون حتى أن يلاحظوا- بينما يحكون لبعضهم البعض نُسَخًا مُشتَّتة من أحداث بعد الظهيرة.

لم ترغب ريتا في أن تتسحَّب إلى وسط التجمُّع. رآها الناس تغادر المهرجان مع عائلة فون، وإن رأوها الآن فسيوقفونها حتمًا؛ رغبةً في أن تحكي. لم يكن لديها النِّيَّة أن تحكي لأي شخص شؤون آل فون الخاصَّة، ولكن لم يكن من السهل أن يفهم حشدٌ من السكارى الفضوليين هذا الأمرَ. رفعت ياقة معطفها محاوِلةً ألَّا تنزعج من قنوات الماء التي سالت على رقبتها، وأخفضت رأسها كي تخفي وجهها. لم يبقَ لها دون ذلك إلا أن تعتمد على السرعة وعلى سُكر الحشود كي تمرَّ دون أن يعترضوها.

ولأنها كانت تخفض رأسها فلم ترَ المُزارِعَ وهو يتبوَّل في النهر. استدار وهو يُزرِّر ملابسه كيفما اتفق، وكادت تصطدم به. كان سكران، ولكن ليس لدرجة ألَّا يعتذر -"اعذريني يا آنسة سنداي"-، وتخبَّط عائدًا إلى نُدَمائه. كان مُحتَّمًا أنه سيتكلَّم، وكانت فرصتها في تجاوُز الحانة دون أن يعترض طريقها قليلة.

سمعت "ريتا!"، وتنهَّدَت مُستَسلِمةً للحَتميّ. "ريتا!". أتى الصوت مرَّةً أخرى مُنخفضًا ولَحوحًا، وفهمت الآن أنه لم يأتِ من الطاولات الموضوعة عند الضِّفَّة. أتى من النهر. كانت كولوديون هناك راسية وتكاد تختفي تحت الصفصافة. وهناك كان دونت يشير لها أن تصعد إلى المركب. وصَلَت إلى السُّلَّم، وتسلَّقَت أولى درجاته. مدَّ يده إليها فوضعت يدها في يده وشعرت بنفسها تُرفَع، ثم صارت على سطح المركب.

خُزِّنَت جميع الصناديق الأخيرة والزجاجات وألواح التصوير في قلب المركب. كان الدليل الوحيد على عمل اليوم هو أوراق العمل على الطاولة، حيث سجَّل دونت ألواح اليوم وما صَوَّره. كان هناك

كوب من النبيذ الأبيض على الطاولة، وأخرج كوبًا آخر ملأه ووضعه أمام ريتا.

رأيا بعضهما البعض آخر مرَّة وسط الجماهير التي تجمَّعَت كي ترى المشهد بين آل فون وروبين أرمسترونج، وافترقا هناك عندما انطلق دونت يتعقَّب السيدة الطويلة عندما رآها تشقُّ حشود المتفرِّجين كي ترحل.

"هل لحقت بها؟".

"مع السرعة التي تتحرَّك بها لم أستَطِع أن أقترب منها. كنتُ مُثقلًا"، وأشار إلى الصندوق الثقيل الذي حمل الألواح الإضافية. "لم تتحدَّث مع أي شخص، ولم تتوقَّف لترى أيَّ شيء. اتَّجَهَت مباشرة إلى الحقل البعيد، وعندما وصَلَت إلى البوابة كان شخصٌ ينتظرها بمُهر وعربة. تسلَّقَت إلى داخل العربة وانطلقوا".

"عائِدَة إلى بيت الدَّعارة في بامبتون؟".

"أفترض هذا. أغلب المهذَّبين يُسمُّونه بيتًا للسَّكن. لديكِ صراحة ملحوظة بخصوص مكانٍ مثل هذا بالنسبة لامرأةٍ عزباء تربَّت في دير".

"دونت، لقد قضيتُ جزءًا كبيرًا من حياتي العملية أتعامل مع تبعات تلك الأنشطة التي تحدث بين الرجال والنساء والتي يتحاشاها الكلام المهذَّب. إن عرفتَ نصف ما تتضمَّنه المهنة ستفهم لماذا لا تملك مجرَّد كلمة القوة كي تصدمني. إن جلب طفل إلى هذا العالم أمرٌ دمويٌّ أكثر من أن يُصوَّر، ولن تراه أبدًا، ولكن أنا... أنا أراه طوال الوقت".

لم تلمس ريتا النبيذ، ولكنها تناوَلَت الكوب الآن وشربت محتوياته في جرعة واحدة. بينما تفعل ذلك وجفونها مُغلَقة لاحظ دونت التَّورُّم والاحمرار حول عينيها.

"يمكنك أن تكون أبًا جيِّدًا يا هنري دونت. ستكون أبًا جيدًا في يوم من الأيام. لن يحكوا لك عن الدماء. سيُبعِدونك بعيدًا عن النظر، بعيدًا عن السمع. عندما يسمحون لك بالعودة سيكونون قد تخلَّصوا من كل شيء. ستبدو زوجتك شاحِبةً، وستظنُّ أن ذلك لأنها متعبة. لن تعرف أن دَمَها يُعصَر من المُلاءات إلى مواسير المجاري. ستدعك مُدبِّرة المنزل الملاءات المبقَّعة حتى تصبح أتفهَ من أن تُذكَر بعد خمس سنوات، كأن شخصًا سكب عليها شاي الصباح. سيوضع القرنفل وقشر البرتقال في الغرفة كي لا تلاحظ رائحة الحديد. إن حضر طبيبٌ قد ينصحك نصيحة رَجُلٍ لرَجُل ألَّا تحاول ممارسة الحميمية لبعض الوقت، ولكنه لن يخوض في التفاصيل؛ لذا لن تعرف بأمر التمزُّقات والغُرَز. لن تعرف عن الدم. ستعرف زوجتك إن عاشت. ولكنها لن تحكي لك".

أعاد ملء كأسها.

لم يَقُل دونت شيئًا.

أفرَغَ كأسه.

قال بحرص: "أعرف الآن. لأنَّكِ قُلتِ لي".

طلَبَت منه "أعطِني المزيد من فضلك".

وبدلًا من إعادة ملء الكوب الذي أعطته إيَّاه وضعه على الطاولة وأمسك بيدها. "لهذا لا تنجبين أطفالًا؟ لا تريدين أطفالًا؟ عزيزتي...".

"لا تكمل!".

أخَذَت منديلًا من جيبها ونظَّفَت أنفها.

"عندما تَلِدُ زوجتُك طفلها أرسِلْ في طلبي. تذكَّرْ أني مُنِحتُ اسم القديسة مارجريت راعية الولادة. سأبذل قصارى جهدي من أجلها. من أجل الطفل. ومن أجلك".

أعاد ملء كأسها بنفسها، وهذه المرة لم تشربه على مرَّةٍ واحدة، ولكن أخذت رشفةً صغيرة، وعندما نظرت إليه مرَّةً أخرى كان السخط قد غادرها، واستَجمَعَت نفسها مَرَّةً أخرى.

قالت له: "هيلينا فون حامل".

قال باضطراب: "آها"، ومرة أخرى "آها".

"هذا هو تقريبًا ما قالته هي: "أوه" و"أوه"".

"هل هم... مسرورون؟".

"مسرورون؟ لا أعرف". نظَرَت إلى الطاولة عابِسةً. "ما الذي يحدث يا دونت؟ هل حدث هذا بالفعل بعد الظهيرة؟".

نظَرَت إليه تنتظر إجابةً.

قال "لم يَبدُ حقيقيًّا".

هزَّت رأسها "الطريقة التي ألقت بها السيدة إيفيس كلامها. بدت... محفوظة".

"وحرصت أن يسمع الجميع".

"ظهور روبين أرمسترونج في اللحظة التي ظهر فيها بالتحديد... لا قبل ذلك بثانية ولا بعده. في اللحظة المناسبة للإمساك بالطفلة وتمريرها له".

"هل رأيت النظرة التي ألقتها عليه عندما وصل؟".

"نعم... كأنها كانت تتوقَّع رؤيته...".

"ولكنها اطمأنَّت أنه حضر...".

"نظرة "في اللحظة المناسبة تمامًا"..."

"... ولكنها غابت ثانية قبل أن يلاحظها أي شخص...".

"كان شيئًا يشبه المسرح".

"مُنسَّقًا".

"مُخططًا. حتى لحظة مغادرة السيدة إيفيس ووسيلة انتقالها التي تنتظرها في الشارع".

"بعد أن غادرت لتتبع السيدة إيفيس قدَّم روبين أرمسترونج عرضًا كبيراً للمشاعر مغموراً بالأحاسيس الحنونة. "أليس، آه يا أليس" بصوتٍ خافتٍ أكثر من أن يسمعه أحدٌ سوى أقرب المتفرِّجين".

تأمَّل دونت "تعتقدين أنه لم يكن حقيقيًا؟ ومع ذلك فلو قيلت بهدوء وليس بخطابية على طريقة السيدة إيفيس...؟".

"جعله ذلك أكثر إقناعًا، ويمكنه أن يعتمد على أن كلامه سيُسمَع ويذاع. إنه مُمثِّل دو موهبة أكبر من السيدة إيفيس".

"سمعت ما قاله الجيمع عنه. كانوا كلهم مقتنعين".

"لم يكونوا هناك عندما ادَّعى الإغماء عندما رأى الطفلة لأول مرة. كان نبضه مُنتَظِمًا وأكثر استقرارًا من أي نبض قِستُه من قبل".

احتار دونت في الأمر ولكنه لم يصل إلى نتيجة "ماذا عن فون؟ لماذا لم يفعل شيئًا؟".

عبست ريتا وهزَّت رأسها. إنه في حالة غريبة. كما لو كان تائهًا عن نفسه. قلتُ له إن هيلينا حامل، ورَدَّ بالكاد. بدا غيرَ قادر على استيعاب الأمر. بدا مهزومًا".

جلسوا في صمت والنهر يتأرجح من تحتهم. حمل الهواء الصوت من ذا سوان مُعَربِدًا وجامِحًا.

قال دونت وهو يرفع الزجاجة مرة أخرى: "يُستَحسَن أن ننهي هذه، ها؟".

هزَّت ريتا رأسها وهي تتثاءب. كان الظلام قد حلَّ، وأنهكها اليومُ إلى درجة أنها شعرت بحدود نفسها تتبخَّر في الهواء. قد تفقد نفسها تمامًا مع كأس آخر. كم كانت تشتاق للطفلة. شعرت بالثُّكل. كانت أريكة دونت موجودةً، وفجأة تخيَّلَت نفسها مُمِدَّةً عليها. أين سيكون دونت في هذا الخيال؟ وقبل أن يجيبها خيالها عن السؤال وبينما يفتح دونت الزجاجة كي يملأ الكؤوس مرَّةً أخيرة، وهو على وشك السَّكب انخفضت كولوديون ومالت.

حدَّقَت ريتا ودونت في بعضهما البعض بدهشة. لقد صعد شخصٌ إلى المركب.

طُرِق باب المقصورة، وقال صوت امرأة: "هالو؟".

كانت إحدى صغار المارجو.

قالت: "أتيت من أجل الآنسة سنداي. لقد لمحتُكِ تأتين إلى هنا، وعندما تعب والدي فكَّرتُ... آسفة يا سيد دونت".

استدار دونت عائدًا إلى داخل المقصورة ومن خلفه نظرت مارجو الصغيرة بتصميمٍ في الاتجاه الآخر. قامت ريتا.

"هل هناك شيء أقدر...؟".

هزَّت رأسها ومنحته ابتسامةً مُجهَدة "أنا آسفة على ما قلته. الذنب ليس ذنبكَ".

أمسك بيدها، وكان من الممكن أن يرفعها إلى شفتيه، ولكن بدلًا من ذلك شَدَّ عليها ورحلت هي.

عرف الجميع أن جو ليس بخير، ولم يحاول أحدٌ أن يُعطِّل ريتا وهي تتبع مارجو الصغيرة صاعِدتين من الضِّفَّة إلى الغرف العامَّة ثم إلى السكن الخاص بجو ومارجو. استلقى صاحب الحانة على سريرٍ مُرتَجَل في الغرفة الأبعد عن النهر. ارتفع صدره وانخفض في معاناةٍ غير موسيقية، ولكن نظرته كانت هادئة... هادئة حتى بدا المجهود عالي الصوت لرِئَتَيْه وكأنهما ملك شخص آخر تمامًا. رقدت أطرافه في سكون صبور. وأوصل لابنته بارتعاشة من حاجبه أن بإمكانها الانضمام إلى أمها في العمل: عندما أصبحا وحدهما ابتسم ابتسامةً هادئة نحو ريتا.

سأل بين شهقات محاولته للتَّنفُّس "كم من المرَّات... الأخرى... أستطيع أن... أفعل ذلك؟".

لم تجبه مباشرة. لم يكن سؤالًا حقيقيًّا على أي حال. وضعت أذنها على صدره واستمعت. قاست نبضه وقيَّمَت شحوبه.

ثم جلست. لم تَقُل: "لا يوجد شيء أستطيع فعله"؛ لأنه هذا هو جو. لقد قضى نصف قرنٍ يسبق الموت بخطوة. لم يكن هناك شيء عن الموت لا يعرفه.

بصوتٍ كصفير قال: "أتوقَّع... عدَّة... أشهر أخرى...". توقَّف ليُركِّز على مَهمَّة امتصاص الأوكسچين من الهواء اللَّزِج. "نصف عام... ربَّما".

"شيء من هذا القبيل".

لم تُدِر ريتا وجهها. جزءٌ من مهنتها كان أن تساعد الناس على رؤية ما سيأتي. يمكن أن يكون الموت وحيدًا. كثيرًا ما يكون الحديث مع مُمرِّضة أسهل من الحديث مع العائلة. بادلها النظرات.

"كنتُ أحب". نَفَسٌ آخر غير كافٍ. "صيفًا أفضل".

"أعرف".

"سأفتقد... مارجو. العائلة. هذا العالم به... أشياء رائعة... سأفتقدها...".

"النهر؟".

هزَّ رأسه "سيكون... هناك دائمًا... النهر".

أغمض عينيه، وراقَبَت هي الجَيَشان الشَّاقَّ لصدره الهزيل وهي تُخطِّط للعقاقير التي يمكنها أن تصنعها وتأتي بها إلى مارجو غدًا لتساعده في معاناته بدون أن تُضعِفَه أكثر. سقط في نُعاسٍ وعاش مع وجودٍ لا يراه أحد سواه. مرة أو مرَّتين همهم بكلمات أغلبها لا تُفهَم، ولكنها تَصوَّرَت أنها سمعت "نهر" "كوايتلي" "حكاية".

بعد فترة فتح عينيه. رمش وهو يطفو.

سألته "هل تحدَّثتَ مع مارجو؟".

قالت لها حواجبه "لا".

"ألن يكون ذلك أفضل؟ تُنذِرُها قليلًا؟".

أشارت حواجبه بنعم.

أغمض عينيه وانسحب إلى النوم مرة أخرى. فكَّرَت أنه قد ينام لوقت أطول هذه المرة. ولكنها وهي تهمُّ بالنهوض وتنسحب خارجةً من الغرفة فتح عينيه مرَّةً أخرى. كان له نَفسُ نظرته وهو يغوص.

"توجد قِصصٌ لم تَسمَعيها أبدًا على الجانب الآخر من النهر. لا أستطيع أن أتذكَّرها بالكامل وأنا على هذا الجانب، مثل هذه القصص...".

قالت لمارجو: "هو في حالة سيئة جدا. سأجلب شيئًا في الغد. سيريحه أكثر".

"إنه المطر. لن يتحسَّن حتى يتحسَّن الجو".

نادى زبون يطلب خمر التفاح ولم تَحتَج ريتا أن تجيبها. عندما عادت مارجو قالت: "أنت نفسك تبدين مُنهكَةً. كاد الليل أن ينتهي

وأراهـن أنـك لم تتنـاولي لقمـة واحـدة منـذ الغـداء. اجلـسي هنـا حيـث لا يمكـن أن يـراكِ أحـدٌ. لـديَّ طبـق مـن شيء مـا مـن أجلـك. لـن يزعجـك أحـدٌ، وتسـتطيعين أن تتسـحَّبي إلى الخـارج لاحقًـا".

جلَسَـت ريتـا مُمتَنَّـةً تـأكل خبـزًا وجبنـة. كان البـاب مفتوحًـا، وفي طنين الحـوارات سـمعت ذِكْـرَ فـون وأرمسـترونج مـرَّاتٍ عديـدة. لم تسـتطع الاسـتمرار في التفكـير في الأمـر. شـكرًا للـه عـلى وجـود حَفَّـاري الحـصى.

سـمعت أحدهـم يقـول: "يوجـد شـخصٌ وهـو يعتقـد -أقـول لكـم إنـه يعتقـد- أن الإنسـان مثلـك ومثـلي هـو نـوعٌ مـن القـرود!"، وشرح داروين قـدرَ اسـتطاعته أمـام مـرح أصدقائـه.

صـاح آخـر "سـمعت عـن شيء آخـر شـبيه: أنَّ الرجـال كان لهـم ذيـول وخياشـيم في يـومٍ مـا، وعاشـوا تحـت المـاء!".

"ماذا تقول؟ تحت النهر؟ لم أسمع بشيء مثل هذا من قبل!".

تجادلـوا في الأمـر بـين أخـذٍ وردٍّ، والشـخص الـذي حـكى الأمـر أصرَّ أنـه سـمعه في حانَـةٍ عـلى بُعـد عـشرة أميـال عكـس تيـار النهـر، وصمَّـم الآخـرون أنـه قـد ألَّـف الموضـوع.

قـال آخـر: "لا يمكـن. سـتطلب مـن مارجـو أن تملأ كأسـك وكل ما سـيصدر سـيكون..."، أكمـل جملتـه بتقليـدٍ لصـوت الحديـث تحـت المـاء أضحـك الآخريـن كثـيراً، حتـى إنهـم جميعًـا جرَّبـوه، ثـم أبدعـوا في ابتـكار حيلـةٍ لنفـخ الفقاقيـع في مـا تبقَّـى مـن الخمـر في كؤوسـهم. كان هنـاك ضحـك كثيرٌ ورذاذ سـوائل، وأخـيراً صـوت شـخص مسـتمتع لدرجـة أنـه وقـع عـن كرسـيِّه وتخبَّـط فـوق البلاطـات الحجريـة كسـمكة وقعـت عـلى اليابسـة.

مـرَّرَت ريتـا صحنهـا لمارجـو الصغـيرة في المطبـخ وخرجـت وحدهـا مـن البـاب الخلفـي وزحفـت مبتعـدة. كان النهـار عـلى وشـك الطلـوع. مـن الممكـن أن تنـام سـاعة أخـرى.

بحيراتٌ ضَخمةٌ تحتَ الأرض

رأت ليلي أحداث بعد الظهيرة من خلف الحشود، وفصلت الأكتاف العريضة للعُمَّال والقبعات الصيفية لرفيقاتهم المنظرَ عن بصرها، حتى إنها لم تستطع معرفة ما حدث سوى بمساعدة جيرانها في الجمهور. أذاع المتفرِّجون الأطول ما رأوه، وردَّد أصحاب السَّمع المرهَف ما سمعوه. ولكن ليلي المسكينة بعد أن كافحت لتشقَّ طريقها بين الجماهير المنصرفة لتصل إلى النقطة التي حدثت فيها المقابلة وجدت المطر يهطل على ساحة فارغة.

ذهبت إلى بيت الأبرشية، واقتحَمَت مكتب القسِّ في عاصفة من الكلمات والدموع.

"خُذي وقتك يا سيدة وايت" خفَّف عنها، ولكنها لم تستجب. وفي النهاية فهم جوهر القصة، وأخيراً صمتت وبدأت في التنفُّس مرة أخرى.

"إذًا تعرَّفت على مالكة منزل السيدة أرمسترونج المتوفية، هل هذا صحيح؟ والطفلة الآن مع السيد أرمسترونج الشاب؟". هزَّ رأسه عابِسًا. "إذا كان ما تقولينه حقيقيًّا فلا أعرف كيف ستستقبل السيدة فون المسكينة الأمرَ. هل أنت واثقة من ذلك يا سيدة وايت؟".

"واثقة بقدر ثقتي في أن النهار نهار! أنا رأيته. أنا سمعته. أو كأني فعلت. ولكن قُل لي يا قسُّ كيف يمكن لشابٍّ مثل هذا أن يعتني بطفلة؟ لن يعرف. أتصوَّر أنه لا يعرف كيف يغني لها تهليلةً عندما تستيقظ في الليل؟ وهل هناك واقٍ أمام المدفأة؟ الكثير من الشباب لا يملكون واحدًا كما تعرف. ماذا عن دميتها؟ هل أخذتها معها؟".

بذل القسُّ قصارى جهده، ولكنه كان قَلِقًا، لا يمكن لكائن أن يُخفِّف عنه كلِّيًّا، وكانت ليلي لا تزال تعيسةً عندما غادرت بيت الأبرشية. طاردتها وهي تمشي نحو ضفَّة النهر أكثر الأفكار والذكريات سوءًا. كانت آن في أمان مع عائلة فون طول الوقت، تمكَّنَت ليلي من اللجوء إلى التفكير في مصلحة الطفلة عندما تشعر بالخوف لأن الطفلة مع السيدة فون، ولكن هذه الراحة قد ضاعت منها الآن. وضعت آن في أحضان شاب -أرمل، بلا زوجة- فهل سيعتني بها الآن؟ يمكن الوثوق في الأُمَّهات ولكن... عاد إليها الماضي بقوَّةٍ أكبر لأنه أبقي بعيدا لستة أشهر. تذكَّرَت بداية كل شيء.

سألتها أمُّها في أحد الأيام "هل تشعرين بالوحدة للحياة دون أب؟ هل تظنِّين أن وجود أب مرة أخرى سيكون لطيفًا؟". أحيانًا عندما يسأل الكبار أسئلة فهم يعرفون الإجابة التي يريدونك أن تعطيها، وليلي تحب أن تعطي الإجابة التي تجعل أمَّها تبتسم. كانت أمها تبتسم بسطح وجهها وهي تسأل، ولكن ليلي رأت القلق خلفه. شعرت ليلي بتفحُّص أُمِّها وهي تفكر في الإجابة.

قالت: "لا أعرف. هذا لطيف أليس كذلك، نحن فقط؟".

بَـدَت أُمُّهـا مرتاحـةً، ولكـن عـاد السـؤال في وقـت لاحـقٍ؛ ففكَّـرَت ليـلي أنهـا قـد أخطـأت أول مـرة. راقَبَـت وجـه أمهـا، راغِبـةً فقـط في أن تُسـعِدَها، وحاولَـت مـرَّةً أخـرى "نعـم سـأحب أن أحصـل عـلى دادي".

كانـت النظـرة عـلى وجـه أمهـا وقتهـا مـن النـوع الـذي يبقـى داخليًّا في الغالـب، ولم تقـترب ليـلي مـن معرفـة مـا إن كانـت إجابتهـا صحيحـة.

بعـد ذلـك بوقـت قصير أتى رَجُـلٌ إلى بيتهـم. "إذًا أنـتِ ليـلي الصغيرة؟"، قـال وهـو يرتفـع فوقهـا. بـدا أن أسـنانه تنزلـق إلى الخلـف داخـل فمـه، وبعـد النظـرة الأولى عرفـت أنهـا لا تحـب النظـر إلى عينيـه.

شرحـت لهـا أُمُّهـا بتوتُّـر "هـذا هـو السـيد نـاش"، وأسرعـت كـردِّ فِعـلٍ عـلى نظـرة مـن الرجـل "سـيكون أبـاكِ الجديـد"، ونظـرت نحـوه باحِثـةً عـن قبـول، فهـزَّ رأسـه دون أن يبتسـم.

وقف الأب الجديد جانبًا.

قال: "هذا ڤيكتور".

ظهـر خلفـه وَلـدٌ أقـصر مـن ليـلي ولكنـه أكـبر. أنفـه أفطـس وشـفتاه ضئيلتـان حتـى تـكادا تختفيـان. حاجبـاه باهتـان كـما بشرتـه، وعينـاه شـقَّان.

انفتحت حفرة في وجه الولد. أوَّل فكرة خَطَرَت لليلي كانت سيأكلني.

حثَّها صوتُ أُمِّها "ابتسمي لأخيكِ الجديد".

نظـرت إلى الأعـلى شـاعِرةً بنـبرة خـوف، والتقطـت نظـرات مُتبادَلَـة مُعقَّـدة بـين أُمِّهـا والوالـد الجديـد. بـدت وكأنهـا تشـبك أُمَّهـا في شَرَكٍ تعجـز عـن الهـروب منـه. هـل هـذا ذنبـي أنـا؟ تسـاءَلَت ليـلي . مـا الخطـأ الـذي فعلتُـه؟ لم تكـن تريـد أن تخطـئ. كانـت ترغـب في إسـعاد أمِّهـا.

التفتت ليلي نحو ڤيكتور وأجبرت شَفَتَيْها على ابتسامة قَلِقَة ومُطيعة.

عندما عادت ليلي إلى كوخ باسكيتمان عرفت قبل حتى أن تفتح الباب. لم تكن رائحة النهر قويَّةً حتى تغطِّي على الرائحة الفاكهة والخميرة، ولا يمكن أن يغسلها المطر.

بدأت كلامها "كان عليَّ أن أذهب إلى بيت الأبرشية"، ولكن قبل أن تستطيع أن تخرج عُذرَها سقَطَت الضربة الأولى على أعلى ذراعها. وجدت الثانية طريقها إلى بطنها الطَّريّ، وبينما تلتفت بعيدًا عنه تلقَّى ظهرها وأكتافها اللكمات. كان السيد وايت يضربها أيضًا، ولكنه كان سِكِّيرًا، ومع أنه كان ضخمًا إلَّا أن ليس له خبرة ڤيكتور أو نصف قوته. كانت لكماته ثقيلةً، ولكنها رخوة وضعيفة. كانت قادِرةً على تفادي اللكمات التي يسيء وايت إطلاقها وتُحوِّل مسار قبضته، وعندما تقع إحدى ضرباته فإن الكدمة تختفي بعد أسبوع. أمَّا ڤيكتور فهو يضربها منذ ثلاثين عامًا تقريبًا. كان يعرف كل واحدة من مناوراتها وحِيَلها، ويلاعبها كي تتحرَّك في اتجاه مُعيَّن ويتمكَّن من لكمها في الاتجاه الآخر. كان يقوم بالأمر بتركيزٍ بارد، ولا تُحرِّكه تَوسُّلاتها ولا دموعها. كل ما تستطيع فعله هو أن تسمح له.

لم يمسَّ وجهها أبدًا.

عندما انتهى كل شيء تتمدَّدَت على الأرض حتى سمعته يسحب كرسيًّا ويجلس.

وقَفَت وساوَت فستانها.

"هل أنتَ جائعٌ؟"، حاوَلَت أن تجعل صوتها عاديًّا قدر الإمكان. لم يكن يحب أن يلي ذلك أي قلق.

"أكلتُ".

يعني هذا أنه لم يترك لها شيئًا.

زفر زفرة ارتياحٍ تَعرَّفَت عليها وهو جالس إلى طاولة المطبخ.

سألت على استحياء "هل كان يومُك جيِّدًا يا ڤيكتور؟".

"يـومٌ جيِّـد؟ يـومٌ جيِّـد؟ يمكـن أن أقـول ذلـك". هـزَّ رأسـه بـأداء مَـن يحمـل سرًّا "الأمـور تجـري بشـكل جيِّـد"، حامـت في المـكان واقفـة. لـن تجلـس إلَّا لـو قـال لهـا أن تجلـس، ولكـن لأنـه لا يوجـد طعـام فلـم تسـتطيع أن تشـغل نفسـها بتحضـير وجبـة.

نظر نحو النافذة.

هل سيرحل الآن؟ تمنَّت.

ولكنهـا ليلـة الانقـلاب الصيفـي. سـيتجوَّل النـاس حتـى وقـت متأخِّـر حتـى في هـذا المطـر. هـل سـيرغب في البقـاء هنـا طـوال الليـل؟

"النهر عالٍ. أتوقَّع أنه يُرعِبُكِ. يُسبِّب لك كوابيس".

في الحقيقـة توقَّفَـت الكوابيـس منـذ وصلـت آن إلى ذا سـوان. تتصوَّر أن شـقيقتها لا يمكنهـا التواجـد في مكانَـيْن في نفـس الوقـت. لم تحتَـج أن تقـول ذلـك لڤيكتـور. سـيرضيه أن يفكِّـر أنهـا لا تـزال تعـاني مـن الزيـارت التـي عذَّبَتهـا طويـلًا. هـزَّت رأسـها.

"الخـوف مـن المـاء غريـب. أنـه في كل مـكان. أماكـن يمكـن أن تراهـا وأماكـن لا يمكنـك رؤيتهـا. المـاء شيء غريـب".

كان ڤيكتـور رجـلًا يُحـبُّ أن يعـرف. إحـدى أفضـل طُـرُق تَفـادي تعذيبـه هـي أن تجهـل شـيئًا وتدعـه يُصحِّـح لهـا. كان الآن يسـتمتع بخبرتـه، ويريـد أن يـشرح باسـتفاضة.

قـال لهـا: "يوجـد مـاء مختبـئ تحـت الأرض بقـدر المـاء فـوق الأرض. مغـارات ضخمـة ممتلئـة بـه عميقـة تحـت الأرض وواسـعة كـما الكتدرائيـات. فكِّـري في ذلـك يـا ليـلي. فَكِّـري في تلـك الكنيسـة التـي تُحبِّينهـا كثـيرًا مُمتَلِئـة بالمـاء العميـق والمظلـم والسَّـاكن. تَخيَّـلي مقـدار المـاء -ولكـن تحـت الأرض- مثـل بحـيرة. توجـد كلُّ أنـواع المـاء".

حدَّقَـت. لا يمكـن أن يكـون ذلـك حقيقيًـا! مـاء تحـت الأرض؟ مَـن سـمع بمثـل هـذا؟

"نوافـير وينابيـع وآبـار". استرسـل ناظِـرًا إليهـا بحِـدَّة عـبر عيونـه الضيقـة. شـعرت بقلبهـا يـدقُّ بعنـف. كان حَلْقُهـا جافًّـا. "بِـرَكٌ أيضًـا. وجـداول وأنهـار ومسـتنقعات". شـعرت بضعـفٍ في ركبتيهـا. "وأهـوار. ولكنَّـكِ لم تسـمعي عـن الأهـوار مـن قبـل، أليـس كذلـك يـا ليـلي؟"، هَـزَّت رأسـها، وتَخيَّلَـت مُخلوقـات بَشِـعَة مثـل التنانـين التـي تقـذف مـاء بـدلًا مـن النـار.

"إنهـا حقيقـة رائعـة عـن الطبيعـة يـا ليـلي. هـا نحـن نقـوم بشـؤوننا عـلى سـطح الأرض، ولكـن تحـت أقدامنـا هنـاك" -بإشـارة نحـو قدميـه- " هنـاك بحـيرات ضخمـة تحـت الأرض".

"أين تحديدًا؟". كان صوتها مُمتَلِئًا بالخوف وكانت ترتعد.

"في كل مكان. هنا ربما تحت كوخكِ".

ارتعدت خوفًا.

تجوَّلَت عيناه بطول جسدها.

فكَّرَت أن ربما لم يَنتهِ الأمر. قد يريد أشياء أخرى.

أراد بالفعل.

شيئان غريبان

وكيف انتهت الليلة في كلمسكوت في مزرعة أرمسترونج؟ لقد سهروا أكثر ممّا سهر الأطفال من قبل على الإطلاق. وُضِعَت شموع على الطاولة، وارتدى الجميع ثياب النوم ما عدا أرمسترونج، ولكن لم يفكّر أيٌّ منهم في النوم. جلست الطفلة على حِجر أكبر البنات، وتجمّع الأطفال الآخرون حولها يُربِّتون عليها ويُقدِّمون لها لُعَبَهم المفضَّلة بينما يراقب أرمسترونج وبيسي المشهد. سُحِر الأولاد والبنات، وصاحوا مع كل حركة وكل رمشة من عيونها المتعبة. قدَّم لها الأصغر -وهو أكبر من الفتاة بعامين فقط- لعبة خشبيّة اشتروها ذلك اليوم في المهرجان، وعندما أمسكت بها بين أصابعها الصغيرة صاح بسعادة "إنها تُحبُّها!". مشَّطَت لها الفتيات الكبار شعرها وضفَّرْنَه وغَسَلن وجهها وأياديها وألبَسنها أحد قمصان نومهن التي صغرت عليهنّ.

سألوا عشرات المرات "هل ستبقى؟ هل ستعيش معنا؟".

برز صوتٌ حادٌّ صغير آخر سائِلًا ولكن بنبرة قَلَقٍ من مثل ذلك الأمر "هل سيعود روبين إلى المنزل كي يصبح أباها؟".

قال أرمسترونج: "سنرى"، وألقت زوجته نظرةً جانبية طويلة نحوه.

وضعت عودتهم السريعة من المهرجان مسافةً بينهم وبين الجماهير، وقد مَرَّر روبين الطفلة إلى ذراعي أمِّه وذهب في طريقه إلى أوكسفورد دون أن يعطي فكرةً واضحة عن نواياه، أو متى يمكنهم تَوَقُّع رؤيته مرَّةً أخرى في المزرعة. لم تُتَح لأرمسترونج وبيسي لحظة ليتشاوروا فيها حول أحداث اليوم بعيدًا عن سمع الأطفال.

بدأت عيون الطفلة تغمض، وهدأ الأطفال من حولها. عندما أصبحت على شَفَا النوم أرخت أصابعها قبضتها على اللعبة الصغيرة، ووَقَعَت على الأرض بفرقَعةٍ أفاقتها مرَّةً أخرى. نظرت دائِخةً حولها، وتحوَّل وجهها إلى تقطيبةٍ مُتعَبَة، وقبل أن تفتح فمها لتبكي رفعتها بيسي بعيدًا وقالت: "تعالوا. إلى السرير جميعًا!".

كان هناك بعض الشِّجار حول الطفلة لأنهم جميعًا يريدونها أن تنام في غرفتهم، ولكن بيسي كانت حاسِمةً "ستنام معي الليلة. إن أخذتموها معكم فلن يغمض أحدٌ عينيه".

كلَّفَت الفتيات الأكبر بالتأكُّد من أن الصغار قد ذهبوا إلى أَسِرَّتهم، وأخذت الطفلة إلى غرفتها الخاصة. غنَّت لها بيسي بنعومةٍ بينما تضعها في السرير وتُغطِّيها، وفي لحظة اهتزَّت جفون الفتاة وتحرَّكَت نحو خَدَر النوم.

تلكَّأت بيسي عند السرير تبحث عن لمحة من ملامحها في الطفلة. سَعَت خلف روبين في الوجه النائم. بحَثَت عن صدى لأبنائها الآخرين

هناك. رفضت التفكير فيه، ذلك الذي حَبَّلَها بروبين قبل أن يتزوَّجها أرمسترونج. كانت قد دفنت وجهه منذ سنوات ولن تنبشه الآن.

تذكَّرَت الخطاب الذي بدأ الموضوع كله. الفتات المقطَّع داخل جيب روبين الذي لم تنجح في أن تجمع قِطَعه مع أرمسترونج. كرَّرَت في ذلك الوقت "أليس، أليس، أليس". كان الاسم حاضِرًا على لسانها الليلة، ولكنها تردَّدَت في لفظه.

عندما أنبأها تَنَفُّس الطفلة الخفيف أنها غارقة في النوم تسلَّلَت بيسي بعيدًا.

كان أرمسترونج في الكرسي بجوار المدفأة المُطفَأة. كان للمشهد هيئة غير حقيقية، هي بثياب النوم وهو بسُترة مناسبة للخروج، وشموع في الظلام، ولكن لا نار، والرطوبة الرخوة لليوم لا تزال عالقة. بَدَا زوجها جادًّا وهو يدير المجَسَّم الصغير بين يديه بذهن غائب.

انتظرت. لكنه لم يتكلم من فرط توهانه الكبير في أفكاره.

"هل هذه هي؟" سألَتْه بعد بعض الوقت "هل هي أليس؟".

"اعتقدتُ أنك قد تعرفين. بغريزة النساء أو بعينك المُبصِرة".

هزَّت أكتافها ولمست العصابة فوق عينها "أحبُّ أن تكون هي. إنها صغيرة عزيزة. لقد أَلَفوها".

"بالفعل. ولكن ماذا عن روبين؟ هل ينوي شيئًا؟".

"إن كنت أعرف روبين حقًّا، فنعم، ذلك مُرجَّح جدًّا. ولكنَّكَ عادةً نَصيرُه... ما الذي يدفعك للتفكير في ذلك؟".

"تلك المرأة. السيدة إيفيس. لقد قادتني إلى هناك، إلى تلك البقعة يا بيسي. أنا متأكِّد إلى أقصى حدٍّ. لقد تعمَّدَت أن تجعلني أراها، ثم قادتني في مطاردة مجنونة في أرجاء المهرجان حتى صادَفَت آل

فـون ودَبَّـرَت التوقيـت حتـى أصـل في اللحظـة المناسـبة كي يُعـرَض المشـهد بأكملـه أمامـي".

تَراجَـع إلى تأمُّلـه، وانتظـرت بيـسي وهـي تعـرف أنـه سيشـاركها في أفـكاره عندمـا ينظِّمهـا.

"مـا الـذي ستكسـبه مـن التـصرُّف بهـذه الطريقـة. لا يهمهـا لمـن الطفلـة. المال هـو مـا يحكـم هـذه المـرأة؛ لـذا فشـخصٌ مـا في مـكان مـا يدفـع لهـا. شـخص مـا دفـع لهـا كي تذهـب في سـفرها الغامـض كي لا تكـون موجـودةً وتشـهد عـلى هويَّـة الطفلـة، وشـخص مـا أظهرهـا الآن".

"وتظـنُّ أن هـذا الشـخص هـو روبـين؟ ولكـن... ظَنَنتُـكَ قلـتَ إنـه لا يريـد الطفلـة".

هزَّ رأسه في حيرة "قلتُ ذلك بالفعل. هذا ما ظننته".

"والآن؟".

"الآن لا أعرف ماذا أظنُّ".

فكَّـر لدقيقـةٍ طويلـة، وكانـت بيـسي عـلى وشـك القـول إن الوقـت قـد تأخَّـر وعليهـم أن يحصلـوا عـلى الأقـل عـلى بعـض سـاعات مـن النـوم عندمـا تكلَّـم مـرة أخـرى. "حـدث شيء آخـر غريـب اليـوم".

كان يحـدِّق في لعبـة فريـدي الخشـبية. منحوتـة صغـيرة عـلى شـكل خنزيـر.

"ذهَبـتُ لأرى كشـك التصويـر في المهرجـان. ظَنَنـتُ أنـه يمكـن أن تؤخذ لنـا صـورة، جميعًـا هنـا في المزرعـة. كنـت أتفـرَّج عـلى الصـور المعروضـة للبيـع -بعضهـا كانـت لمهرجانـات حديثـة- وانظـري مـاذا وَجَـدتُ".

مـدَّ يـده إلى جيـب المـزارع الرَّحـبِ وأخـرج الصـورة الصغـيرة داخـل إطارهـا وأعطاهـا لبيـسي.

"خنزير! ما هذا! ويمكنها أن تُحدِّد الوقت!". ضيَّقَت عينيها لتُحدِّد الكتابة على اللوح بجوار الحيوان. "وتعرف ما عمرك! كم هو غريب".

"انظري بتركيز أكثر. انظري إلى الخنزير".

"من فصيل تامورث. مثل الذين نملكهم".

"ألم تتعرَّفي عليها؟".

نظَرَت مرَّةً أخرى. كانت بيث على دراية بالخنازير، ولكن بالنسبة لها لا يزال أي خنزير مثل الآخر. ولكنها كانت تعرف زوجها.

"هي ليست...؟ هل يمكن أن تكون...؟".

قال: "هي فعلًا. إنها مود...".

الجُزءُ الرَّابع

الأحداث التّالية

بعد يومين من المهرجان الصيفي عاد دونت إلى أكسفورد حيث وجد نفسه مُنشَغِلًا عن عمله المعتاد بغرابة التَّغيُّر الدرامي في الظروف المحيطة بالطفلة. لم يكن مرتاحًا لعدَّة أسباب، وأدرك أن أحدها هو أنه يفتقدها. كان الأمر سخيفًا... لم يرها طوال وجودها عند عائلة فون سوى مرَّةٍ واحدة من أجل الصور، إلَّا أن صِلةً ما وُجِدَت بينهم: صاغ دور دونت في إنقاذ الفتاة صِلةً بينه وبين عائلة فون، خلق بابًا يمكن أن يُدَقَّ ويضمن فتحه في لحظة ما في المستقبل. لقد صوَّر الفتاة مع والديها، ووجد نفسه يقطع أكثر من نصف الطريق نحو صداقته مع العائلة. استمتع لفترة قصيرة بتوقُّع أن يرى الفتاة التي أنقذها تكبر، وتَخيُّل أنه سيراها تتغيَّر من طفلة صغيرة إلى طفلة أكبر إلى فتاة بالغة. ذهب كل هذا الآن، وشعر هو بالثُّكل. ذكَّره حزنه باللحظة في ذا سوان التي شدَّ فيها بحماقَةٍ وألم جفنيه وفتحهما ليراها،

وتعرَّض لنوع عنيف من الإدراك. تذكَّر قوة الرغبة المُلِحَّة في أن يَدَّعي أنها له. انتصر عليه عقله الرزين، ولكن المنطق لم يكن ترياقًا لفَقدِه.

عندما لا يفكر في الفتاة يفكِّر في ريتا، ولم يكن ذلك أفضل. إن كانت الطفلة قد فعَلَت شيئًا واحدًا فهو أنها جعلته يدرك كم يرغب في طفل. كانت زوجته هي المحبَطَة عندما لم ينتج زواجهم أي أطفال، أتى اشتياقه هو متأخِّرًا، ولكنه شعر به الآن.

احتفظ على حائط غرفته بصوره المفضَّلة. لم يضعها في إطارات، ولكن كانت مُلصَقةً ببساطة. ظهرت ريتا في كثيرٍ منها. حدَّق فيها بحيرةٍ مُؤلِمة. هل توجد طُرُق لتفادي الحمل؟ كانت لديه فكرة مُبهَمَة أن هناك طُرُقًا، ولكنها قد لا تكون مضمونةً كُلِّيًا. وفي كل حال، بما أنه يرغب في أطفال... لم يكن مُمكِنًا أن تجعل مشاعرها تجاه الأمر أكثر وضوحًا، ومع أنه تفاجأ -لقد شاهد حنانها مع الطفلة، وبنى الكثير من التَّصوُّرات- كان يعرف أنه سيظلمها إن حاول أن يجعلها تُغيِّر رأيها. ما يعجبه فيها هو معرفتها بآرائها. أن يتوقَّع منها أن تتحوَّل لرغباته هو، أن يتوقَّع منها أن تصبح مختلفة عن نفسها. لا، لن تتغير، يجب أن يتغيَّر هو.

أنزل صور ريتا واحدةً تلو الأخرى وفَهْرَسَهم وفقًا لنظامه، وحفظهم في الأدراج في دكَّانه. لن ينساها بسهولة: لقد عَرض نظرته لوجهها لمدَّة طويلة جدًّا وقد ثبتها الزمن. لن يكن حتى مُمكِنًا أن يتفاداها شخصيًّا. لا يمكنه أن يفك اشتباكه مع قصة الطفلة التي تتورَّط فيها ريتا أيضًا. ولكن يمكنه على الأقل أن يتفادى السعي لقضاء وقت معها وحدها. قرَّر أنه لن يكون هناك صور أخرى. سيكون عليه تعليم نفسه أن لا يُحبَّها.

تَبِعات هـذا القـرار الحكيـم كانـت أنـه في الصبـاح التـالي مبـاشرة أوكل مسـؤوليَّة العمـل لمسـاعِدِه وأبحـر بكولوديـون عكـس تيـار النهـر مـع كاميرتـه، ودَقَّ عـلى بابهـا.

قابلته بابتسامة واهنة "هل لديكَ أخبارٌ عنها؟".

"لا. هل سَمِعتِ أي شيء؟".

"لا".

كانـت ريتـا شـاحبةً، بظـلالٍ تحـت عينيهـا. حـضر لصـورة شـخصية عاديـة جانبيـة مائلـة ثلاثـة أربـاع الميـل وهـي جالسـة، وذهـب ليُحـضر اللـوح. عندمـا عـاد أنبـأه تقديـره السريـع للضـوء أنهـا ستسـتغرق اثنتـي عـشرة ثانيـة. اسـتقرَّت ريتـا في الوضـع المطلـوب، وقدَّمَـت وجههـا للكاميرا. لم تُخـفِ شـيئًا بطريقتهـا المبـاشرة المعتـادة. فاضـت نظرتهـا بالحـزن. سـتكون صـورةً رائعـة، صـورة لمشـاعرها، والتـي سـتكون في نفـس الوقـت صـورةً لمشـاعره، ولكنـه لم يشـعر بـأي شيء مـن الترقُّـب الممتـع المعتـاد.

قال لها وهو يُركِّب اللوح: "لا أطيق أن أراكِ تعيسةً هكذا".

قالت: "مشاعرك لا تختلف عن مشاعري ".

سـاوى السـتارة فوقـه، وعـرض الزجـاج، ونـزع غطـاء العدسـة وهـو بأكـبر قـدر مـن التعاسـة اختـبره خلـف كامـيرا في حياتـه.

واحد... بسرعة، وبعد أن أدخل الضوء إلى الكاميرا انحنى سريعًا.

اثنان... وخرج من تحت القماش الأسود.

ثلاثة... وركض حول الكاميرا.

أربعة... حيث أخذ ريتا بين ذراعيه.

خمسة... وقال: "لا تَبكِ يا عزيزتي...".

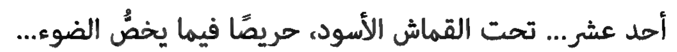
ستة... مع أن خدوده هو أيضًا كانت مبتلَّةً...

سبعة... ورفعت وجهها نحو...

ثمانية... التقت شفاههم حتى...

تسعة... تذكَّر الصورة وركض...

عشرة... عائِدًا إلى الكاميرا...



أحد عشر... تحت القماش الأسود، حريصًا فيما يخصُّ الضوء...

اثنا عشر... أعاد الغطاء فوق اللوح...

أخذوا اللوح إلى كولوديون وحَمَّضوه في غرفة التحميض، وأظهروا مشهدًا هيولي. حدَّق كلاهما بجدِّيَّة في الهيئة المتلاشية لريتا وقد انطبع فوقها غَبَشٌ من النور والظِّل وإحساس بالحركة الشَّفَّافة والفورة الحريريَّة، حركة بلا جسد.

سألت "هل هذه أسوأ صورة التقطتَها على الإطلاق؟".

"بالفعل".

وجدا نفسيهما بشكل ما تحت الضوء الأحمر في أذرع بعضهما يتعلَّقان ببعض كما لو كانا سيجدان العزاء في اللمس. لم يتبادَلا القُبَل، وإنما ضغطا شفاههما بقوَّةٍ على الجِلد والأفواه والشَّعر. لم يلمسا، ولكن قَبَضا. ثم ابتعَدَا كما لو كان الفعل يجيء من عَقلٍ واحد.

قالت: "لا أطيق هذا".

"ولا أنا".

"هل سيسهل من الأمر ألَّا نرى بعضنا البعض؟".

حاول أن يكافئها في الصراحة "أظنُّ أن ذلك سيساعد. في النهاية".

"حسنًا إذًا. أتصوَّر...".

"هذا ما يجب أن نفعله".

ثم لم يَبقَ شيء ليُقال.

استدارت لترحل، وفتح هو الباب. توقَّفَت عند المدخل.

"ولكن ماذا عن زيارة أرمسترونج؟".

"أي زيارة لأرمسترونج؟".

"جلسة التصوير في بيتهم بالمزرعة".

"جلسة تصوير؟".

"إنها في مُفكِّرتَك. وضَعتُها فيها يوم المهرجان".

"ولديهم الطفلة".

هزَّت رأسها "خُذني معك يا دونت. لا بُدَّ أن أراها".

"ماذا عن عملك؟".

"سأعلِّق ورقة على الباب. إن احتاجني أيُّ أحدٍ فعليهم أن يأتوا ويجدوني هناك".

الطفلة. ظنَّ أنه لن يراها مرَّةً أخرى، ومع ذلك كان في مُفكِّرته موعد. بدا العالم فجأة أكثر احتمالًا.

"حسنًا. تعالي معي".

ثلاثة بنسات

قالــت العرَّافــة: "ســيكون هنــاك وقــتٌ لاحــق لتَدبُــر شروط اتفاقنــا. ســأتَّصِل بــك". ولســتَّة أســابيع لم تــأتِ أي أشــارة، ولكــن فــون كان يعلــم أنــه لــن ينــال عفــوًا. يجــب أن تقــع الضربــة، وعندمــا وصــل أخــيرًا خطــابٌ بخَــطٍّ غــير مألــوف عــلى صينيَّــةٍ في مكانــه مــن طاولــة الإفطــار كاد يشــعر بالارتيــاح. اســتدعاه الخطــاب إلى بقعــة معزولــة عنــد النهــر في وقــت مبكِّــر مــن أحــد الأيــام. عندمــا وصــل ظَــنَّ أنــه أول واحــد يصــل إلى المــكان، ولكنه فــور أن ترجَّــل كي يقــف في الممــرِّ الطينــيِّ خرجــت هيئــةٌ مــا مــن تحــت الشــجيرات، رجُــلٌ ضئيــل الحجــم في معطــف طويــل أعــرض منــه. كان يرتــدي قُبَّعــة منخفضــة فــوق وجهــه.

"صباح الخير يا سيد فون" كان صوت العرَّافة.

سأله فون "ماذا تريد؟".

"الموضوع هو ماذا تريد أنتَ. أنتَ تريدها، أليس كذلك؟ أنتَ والسيدة فون؟".

كانت هيلينا هادئة جدًّا هذه الأيام. بَدَت مسرورة بسبب الوليد المنتَظَر، وتتحدَّث بين وقت وآخر عن خُطَط حياتهم المستقبلية، ولكن حيويَّتها اختفت. تعايَشَت بداخلها الحياة المقبلة مع خسائر الماضي، نصفان لتجربة واحدة. حملت حزنها وأملها بخفوتٍ.

لم تكن هيلينا حزينة وحدها. هو يفتقد الطفلة أيضًا.

"هل تشير إلى أنني أستطيع أن أستعيدها؟ روبين أرمسترونج لديه شاهِدٌ". أشار فون. "حقًّا هي ليست أفضل الشهود بسبب مهنتها، إلَّا أنني إن وقفتُ ضِدَّه في محكمة فأخشى أنَّ بإمكانك حتى أنت أن تطرحني أرضًا بسرعة مرة أخرى".

"يمكن أن نغيِّر رأيه".

"ما الذي تُلمِّح إليه؟ أن بالإمكان إقناع الرجل أن يبيع طفلته؟".

"طفلته هو... حسنًا، قد تكون. أو قد لا تكون. هو لا يَعبأ في كلتا الحالتين".

لم يُجِب فون. كانت تلك المقابلة تُربِكه بشكل متزايد.

همَّ الرجل بالكلام "دعني أوضِّح الأمر لك. عندما يكون لدى رَجُلٍ شيء لن يدفع فيه بنسَيْن، ورَجُل آخر يرغب فيه فعادةً ما تفي ثلاثة بنسات بالغرض".

"إذًا هذا هو. أَعطِ السيد أرمسترونج ثلاثة بنسات حسب اقتراحك وسيتخلَّى عن ادِّعائه. هل هذا ما أتيت لتقوله لي؟".

"الثلاثة بنسات هي من قبيل التوضيح".

"فهمت. شيء ما أكثر من ثلاثة بنسات إذًا. ما هو سعر سيدك؟".

تحـوَّل صـوت الرجـل في لحظـة "سـيد؟ هـا! ليـس سـيِّدي"، ومـن تحـت حافَّـة قُبَّعتـه ارتعـش الفـم الشـحيح كـما لـو كان قـد وجـد شـيئًا خاصًّـا هزليًّـا في المسـار الـذي اتَّخَـذه الحـدث.

"ولكنك تُقدِّم له خدمة بإيصال الرسالة".

هـزَّ الرجـل أكتافـه أقـلَّ هِـزَّةٍ يمكـن ملاحظتهـا "يمكـن أن تـرى فيهـا خدمـة لـك أنـت".

"همممم ستأخذ نسبةً حسبما أتوقَّع؟".

"سأستفيد من الترتيبات... هذا طبيعي".

"قُـل لـه إننـي سـأعطيه خمسـين جنيهًـا إن تخـلَّى عـن ادِّعائـه". مـلَّ فـون الأمـر واسـتدار كي يمـشي مبتعـدًا.

اليـد التـي هبطـت عـلى كتفـه كانـت مثـل المِلـزم. أمسـكت بـه وأدارتـه. تعـثَّر مـرَّةً أخـرى، وهـذه المـرة لمح وجـه الرجـل: أنـف وفـم يبـدوان غـير مكتملَـيْن، وعينـين هـما شِـقَّان، تـزدادان ضيقًـا فـور أن تُـدرِكا أنهـما شُـوهِدَتا.

قـال الرَّجُـل: "لا أظـن أبـدًا أن ذلـك سـيكفي. إن أردت نصيحتـي فسـأقول شـيئًا في حـدود ألـف جنيـه سـيكون مناسـبًا. فَكِّـر في الأمـر. فَكِّـر في الطفلـة الصغـيرة التـي تفتقدهـا السـيدة فـون كثـيرًا! فكِّـر في الحيـاة الجديـدة القادمـة -ليـس لديـك أسرار يـا سـيد فـون. لا أسرار تغيـب عنـي. المعلومـات تسـبح إلى أذني مثـل السـمك إلى الشَّـبَك- ودعنـا نُصـلِّي أن تَظـلَّ السـيدة فـون بحالـة جيـدة، وألَّا تعـاني مـن أي صدمـات حزينـة. فَكِّـر في عائلتـك! بعـض الأشـياء لا يمكـن وضـع سِـعرٍ عليهـا يـا سـيد فـون وأهـم شيء هـو العائلـة. فَكِّـر في ذلـك".

استدار الرَّجُل بحدَّة وابتعد. عندما نظر فون ليرى إلى أين ذهب بعد الانحناءة في الممرِّ كان الطريق أمامه فارغًا. لقد استدار عند مكانٍ ما عبر الحقل.

ألف جنيه. المبلغ الذي دفعه كفديةٍ بالضَّبط. فكَّر في قيمة المنزل والأرض والممتلكات الأخرى، وفكَّر في كيفية الحصول على المبلغ. أن تشتري كذبة. لا تزال كذبةً، ويمكن كشفها في أي وقت. كذبة يمكن شراؤها بالقسط، وليس هذا سوى مُقدَّم.

لفت الأفكار أسرع من أن يستطيع الإمساك بها، وبقِيَت النتائج دائمًا بعيدة المنال.

اتَّخَذ فون الطريق المعاكس كي يصل إلى المنزل، وعندما وصل إلى المرسى الخاص به مشى نحوه، ووَقَف على طرفه الأقصى.

في وقت ما كان قادرًا على استشراف طريقه عبر كل ذلك، ويفعل ما يلزم كي يصل إلى حلٍّ واضح، عندما كان رَجُلًا أفضل، عندما كان أبًا أفضل. ولكنه الآن لم يَعُد يتحكَّم في اتجاه حياته أفضل من تَحكُّم قطعة رُكام في التَّيار الذي يحملها.

حدَّق فون في الماء وخطرت في باله الحكايات التي تُحكَى عن كوايتلي. البَحَّار الذي يعبر بكَ إلى البَرِّ الآخر من النهر عندما يحين أجَلُكَ، وعندما لا يكون وقتك قد حان يعيدك بسلام إلى الضفة. تسأل كم من الوقت يلزم للغرق؟

تفور المياه بعيدًا في الأسفل سوداء ولا نهائيَّة بلا تفكير ولا شعور. تذكَّر الوجه غير مُحدَّد المعالم الذي اكتسب وضوحه في غرفة التحميض الخاصَّة بدونت والسَّائل يجري فوقها وفي مرآة الماء السوداء رأى أميليا.

جثـم دونـت عـلى طـرف المـرسى يهتـزُّ للأمـام والخلـف عـلى قدميـه ويبـكي.

أميليا...

أميليا...

أميليا...

تـزداد حركتـه عُنفًـا كُلَّـما كـرَّر الاسـم. تسـاءل، أهكـذا كانـت النهايـة؟ بتَحكُّمـه في حركـة جسـده كان يعـرف أنـه قـادر عـلى السـيطرة. كان واثقًـا مـع كل حركـة للأمـام أن الارتـداد أتٍ. ولكـن يوجـد تَـدرُّج، وكان يتصاعـد. إن لم يفعـل شـيئًا فسـيفقد سـيطرته عـلى التذبـذب. قـال لنفسـه، لِـمَ لا؟ ليـس عـليَّ فِعـلُ شيء سـوى السَّـماح بذلـك. للأمـام وللخلـف. للأمـام وللخلـف. للأمـام -يقـترب الآن ويصبـح عـلى بُعـد جُـزءٍ مـن البوصـة- وللخلـف. للأمـام...

تلقَّفـه الفـراغ، وبينـما يتقلَّـب داخلـه قـال صـوتٌ في رأسـه: لا يمكـن أن تسـتمر هكـذا.

طـارت ذراعـه، وانفـردت عند سـماع الصـوت. تملَّكَـت الجاذبيَّةُ جسـده، ولكـن ذراعـه طـارت بحثًـا عـن شيء -أي شيء!- والتـفَّ حـول الحبـل المربـوط في عمـود المـرسى. هـوى برجفـةٍ في القلـب وشَـدَّة في الكتـف. تأرجـح مـن يـد واحـدة شـاعِرًا بالحبـل يسـلخ كفَّـه وهـو ينزلـق ويـده الحـرة تتأرجـح لتُمسِـكَ بـه، بينـما سـاقاه تـركلان الهـواء بعُنـفٍ بحثًـا عـن موطـئ قَـدَم. رفـع ثقـل جسـمه بمعانـاة وبيـدٍ فـوق يَـدٍ -جسـده الحـي اليائـس- عـلى المرسى، وعندمـا وصـل انهـار عليـه، واسـتلقى هنـاك يشـهق ليتنفَّـس بينـما يُشـعُّ الألم مـن كتفيـه.

قالـت السـيدة كونسـتنتين: لا يمكـن أن تسـتمرَّ هكـذا، وكانـت عـلى حـقٍّ.

إعادة حَكْي القصّة

استدار نحو الشارع بنوع من الراحة. تضاءل الاضطراب في رأسه الذي عانى منه طويلًا، واقتصر على هدف واحد عذَّبه طويلًا. لم يكن ما أتى به إلى هنا خُطَّة أو فكرة، وكاد مجيئه أن يكون لا إراديًّا؛ فقد تخلّى عن اتِّخاذ القرار، وهجر الإرادة مُتعَبًا أكثر من أن يفعل أي شيء سوى الاستسلام لِما هو حتميٌّ. كان هناك من أجل شيء أكثر جذريَّةً من ذلك. لم يكن فون من نوع الرجال الذين يلعبون بكلمات مثل "قدر" و"مصير"، ولكنه لن يُنكِر أن شيئًا من ذلك القبيل هو ما يجذبه إلى البوَّابة والممرِّ الأمامي وباب السيدة كونتستنتن ذي الدهان النظيف.

"قُلتِ لي إن بإمكاني العودة. قُلتِ إنَّكِ تستطيعين أن تساعديني".

قالت "نعم"، وهي تنظر إلى يده المضمَّدة.

فاحت رائحة الورد الآن من القارة التي كانت قد حوت الياسمين، أمَّا القط فكان لا يزال في مكانه. عندما جلسا بدأ فون في الكلام.

قال: "وجدوا طفلة غارقة في النهر وقت الانقلاب الشمسي. عاشت معنا نصف عام. قد تكونين قد سمعتِ بها".

لم يَشِ وجه السيدة كونستنتين بأي شيء. قالت له: "احكِ لي".

حكى. ذهابه إلى ذا سوان ليلحق بزوجته، العثور عليها هناك مع الطفلة، يقين هيلينا ويقينه المساوي لها في الاتجاه المعاكس. الآخرون الذين طالبوا بها. أخذ الطفلة إلى المنزل. مرور الوقت ومعه زوال يقينه.

"إذًا فقد بدأت تعتقد أنها طفلتك في النهاية؟".

عبس "تقريبًا... نعم... لم أكن متأكِّدًا. عندما أتيت لأراكِ ذكرت أني لم أستطِع تذكُّرَ وجه أميليا".

"نعم قلت ذلك".

"عندما حاولت تذكُّرها كانت هذه الطفلة هي مَن أراه. إنها لم تَعُد تعيش معنا. تعيش مع عائلة أخرى. ظهرت امرأة في المهرجان الصيفي، وقالت إنها ليست أميليا. قالت إنها أليس أرمسترونج، وهذا ما يبدو أن الناس يصدِّقونه الآن".

تعلَّقَت عيناه بها "إنهم على حق. أنا أعرف ذلك".

لقد وصل الآن. أتى أخيرًا إلى المكان الذي تفاداه طويلًا. ولكن السيدة كونستنتين كانت معه. ابتلع رشفةً من الماء وتَكلَّم.

تدفَّقَت الكلمات بسلاسَةٍ وانزلقت القصَّة خارجةً من فمه. بدأت كما بدأت في المرة السابقة بصيحة زوجته ليلًا وهي تُحطِّم نعاسه، ولكن كلماته لم تَعُد الأوعية المتربة السابقة التي تضمَّنَت معاني جافَّة. كانت أشياء صيغت حديثًا، حيَّةً بالمعنى، وتعيده إلى

ليلـة البدايـة، ليلـة الاختطـاف. اسـتعجاله الوصـول لغرفـة ابنتـه، صدمـة النافـذة المفتوحـة والغرفـة الفارغـة. إفاقـة أفـراد المنـزل ليبحثـوا طـوال الليـل. حـكى عـن الرسـالة التـي أتـت فجـرًا. حـكى عـن السـاعات البطيئـة حتـى الموعـد المحـدَّد.

ابتلع رشفةً أخرى من الماء، ولم توقف تدفُّق الكلمات كثيرًا.

"ذهبـت إلى المـكان وحـدي. لم تكـن رحلـةً سـهلة: كانـت السـماء خالية تمامًـا مـن النجـوم التـي يمكنهـا أن تُنـير طريقـي، والطريـق خشـنًا وممتلئًـا بالحفـر. في بعـض الأوقـات ترجَّلـتُ عـن حصـاني ومشـيت بجـواره. لم أكـن دائمًـا متأكِّـدًا مـن موقعـي؛ لأن العلامـات المألوفـة لي في ضـوء النهـار تاهـت في الليـل. كان عـليَّ أن أحكـم وفقًـا للوقـت الـذي مـرَّ، ولشـعوري بـالأرض تحـت أقدامـي... وبالنهـر بالطبـع. كان للنَّهـر ضـوؤه الخـاص حتـى في الليـل. كانـت انحناءتـه مألوفـةً لي، وكنـتُ أتعـرَّف كل فـترة عـلى ميـل مُعـيَّن أو زاويـة تُنبِئُنـي بمـكاني. عندمـا رأيـت شريطًـا داكنًـا فـوق لمعـة النهـر الليليَّـة عرفـت أني عنـد الجـسر.

ترجَّلـتُ ولم أسـتطِع رؤيـة أي شيء أو أي شـخص... مـع أنـه يمكـن أن يكـون عـشرة رجـال واقفـين بـلا حـراك عـلى بُعـد بضـع ياردات، ولم أكـن سـأعرف ذلـك. ناديـت "يـا أنتـم!"...

لم تأتِ إجابة.

ثـم ناديـتُ "أميليـا". فكَّـرتُ في أنهـا سـتطمئنُّ لمعرفـة أني قريـب. تمنَّيتُ أن يكونـوا قـد قالـوا لهـا إننـي آتٍ وأنهـا سـتعود إلى المنـزل.

أنصـتُّ جيِّـدًا للـردِّ، أو إن لم يكـن رَدًّا فصـوت: خطـوة أو حركـة أو تنفُّـس. لم يوجـد سـوى صـوت مـوج النهـر وتحـت الصـوت الآخـر للنهـر، ذلـك الصـوت الخافـت العميـق الـذي لا يلاحَـظ عـادة.

خَطوتُ على الجسر وعبرته. في الجانب الآخر وضعت مبلغ الفدية في كيسٍ بجوار الحجر الذي تُربَط فيه القوارب حسب إرشادات الرسالة. سَمِعتُ شيئًا وأنا أنهض. ليس صوتًا وليس خطوات... شيء أقل وضوحًا من ذلك. حصاني سمعه أيضًا وأطلق صوتًا. وقفتُ للحظة أتساءل ما الذي سيحدث الآن، وأدركتُ أنني يجب أن أتحرّك بعيدًا عن حجر المرسى لأعطيهم فرصة كي يأخذوا المال. تصوَّرتُ أنهم سيرغبون في حمله في أياديهم والشعور بثِقَلِه قبل إطلاق أميليا. تراجَعتُ نحو النهر. أسرعتُ الخُطى وركضتُ عبره... وفورًا أصبحتُ مُلقًّى على وجهي في الظلام".

خرج السَّردُ من فم فون وحده. لم يستدعِ عبارات مألوفةً أو كلمات محفوظة. كان لحكيه طاقة وسرعة خاصَّتان، وجلب معهم الماضي إلى الغرفة، ظلامه وبرودته. ارتعش واكتَسَت عيناه بالنظرة الزجاجية لمن يرون رؤى من الذّاكرة.

"تركَتني صدمة الوقوع دائخًا. مرَّت دقيقة قبل أن ألتقط أنفاسي. تحرَّكتُ لأرى إن كنتُ قد أُصِبتُ، وتساءلتُ ما إن كان شخصٌ ما يربض منتظرًا أن يضربني على رأسي بعصا، ولكن لم يأتِ شيء، وعرفت أني قد وقعت لا أكثر. حاولتُ استجماع قواي، وانتظرتُ أن يستقرَّ العالم. لم يَمضِ وقتٌ طويل قبل أن أستطيع أن أستجمع قواي وأقف، وبينما أنا أهمُّ بالوقوف حُكَّت ساقي بشيء ما. أدركتُ فورًا أن تلك الصرَّة الطرية والمتماسكة في آن واحد كان ما تَعثَّرتُ فيه. تحسَّسته لآخذ فكرة عمَّا هو، ولكن لم أستطِع تَبيُّن ذلك بينما أرتدي قفازًا. خلعت قفازاتي وتحسَّسته مرَّةً أخرى. شيء مُبتلٌّ. باردٌ. كثيف.

كنتُ خائفًا. وحتى في تلك اللحظة قبل أن أُشعِل ثقابًا خشيتُ ممَّا يمكن أن يكون. عندما أصبح معي بعض الضوء وجدتُ أنها لا تنظر إليَّ. كان ذلك مُريحًا. مال وجهها بعيدًا، وكانت تُحدِّق بثَباتٍ

نحـو النهـر. كان أغـرب شيء؛ فقـد كانـت عيناهـا بنفـس شـكل عينَـيْ أميليـا. كانـت تلبـس ملابـس أميليـا، وكانـت قدماهـا في حـذاء أميليـا. ملامحهـا كانـت تشـبه أميليـا أيضًـا. تشـبهها بشـكل مدهـش. ومـع ذلـك كان واضحًـا بالنسـبة لي وقتهـا -ولفـترة تاليـة- أنها ليسـت أميليـا. ليسـت طفلتـي. كيـف يمكـن أن تكـون. أعـرف كيـف تُضـاء عيونهـا لرؤيتـي، كيـف ترقـص أقدامهـا وتزحـف، كيـف تمـدُّ يديهـا وتقلبهـما وتمسـك. أخـذت يـد الطفلـة بـين يـدي ولم تشـدَّ عـلى أصابعـي كـما كانـت أميليـا سـتفعل. لمع شيءٌ مـا. سلسـلة أميليـا بالهلـب الفـضي حـول عنقهـا.

رفَعتُهـا، هـذه الطفلـة التـي لا يمكـن أن تكـون -لا يجـب أن تكـون- أميليـا. وجـدت مكانًـا لا تنحـدر فيـه الضفَّـة كثـيرًا ونزلتـه بصعوبـة حتـى طـرف المـاء. حملتهـا إلى المـاء، وعندمـا أصبحـتُ بداخلـه حتـى خـصري وضعتهـا مـن يـدي. شـعرت بالنهـر يأخذهـا منِّـي".

توقَّف فون.

"كان كابوسًـا، وهـذه هـي الطريقـة الوحيـدة التـي يمكننـي أن أفكِّـر بهـا كي أنهـي الأمـر. ابنتـي، أميليـا، كانـت حيَّـةً. أنـتِ تفهمـين، أليـس كذلـك؟".

"أفهم". التَقَت عينا السيدة كونستنتين الحزينتان والثابتتان بعينيه.

والآن انفجـرت ضفـاف النهـر، وشـعر فـون بالمـاء يسـيل مـن عينيـه. ارتعشـت كتفـاه، وتأرجـح للأمـام وللخلـف، وبـدا نحيبـه بـلا نهايـة. سـالت الدمـوع مـن عينيـه عـلى خدَّيـه، وسَرَت عـلى وجهـه، وقطـرت مـن فَكَّيـه إلى عنقـه لتتسـلَّل إلى ياقـة قميصـه وتتسـاقط مـن ذقنـه وتبـلَّ ركبتيـه. رفـع يديـه إلى وجهـه وبلَّلَـت الدمـوع أصابعـه ثـم معصميـه ثـم ثنيـة كُمِّـه. بـكى وبـكى حتـى تصفَّـى.

كانـت السـيدة كونسـتنتين حـاضِرةً معـه طـوال الوقـت بنظرتهـا الرحبة الطيبة.

"عندما أتت فتاة النهر معنا إلى البيت خطرت لي أفكار غريبة. أحيانًا كنتُ أتساءل"... هزَّ رأسه خجلًا، ولكن يمكن أن يحكي الرجل للسيدة كونستنتين أي شيء دون أن يخاف من أن يبدو سخيفًا. "أحيانا أتساءل: ماذا لو لم تكن ميِّتة؟ ماذا لو وضعتها في النهر وطَفَت بعيدًا وعادت إلى وعيها؟ ماذا لو طَفَت إلى مكان ما... شخص ما... واحتفظوا بها لعامَيْن ثم... لا أعرف كيف -أو لماذا- وُجِدَت طافية في النهر مرة أخرى، وبالتالي عادت إلينا؟ إنه مستحيل بالطبع، ولكن أفكارًا مثل هذه... عندما يرغب المرء في تفسير...".

قالت له بعد توقُّف: "احكِ لي عن أميليا. كيف كانت في حياتها؟".

"ما الذي تريدين أن تعرفيه؟".

"أي شيء".

فكَّر "لم تكن تهدأ أبدًا. حتى قبل ولادتها، كانت تفرُكُ كثيراً -هكذا قالت القابِلَة- وعندما وصلت وُضِعَت في مهدها، قامت ذراعاها وساقاها بحركات مُلوِّحة كما لو كنت تسبح في الهواء، وتفاجأت أنها لا تتمكَّن من السباحة. كانت تقبض وتمدُّ يدها الصغيرة وعندما ترى قبضتها تتحوَّل إلى كَفٍّ بأصابع كانت تنظر إليها وعلى وجهها اندهاش خالص. كانت تحب أن تتعلَّق بأصابعي وأرفعها وقدماها على الأرض حتى تشعر بالأرض تسندها. لم نتمكن دائمًا من مساندتها وهي تتدحرج. في أحد الأيام كان عليَّ مراجعة بعض الأوراق في غرفة الجلوس، وأتت وربَّتَت على ركبتيَّ طلبًا للاهتمام، وراغِبةً في أن تُحمَل، ولكني كنتُ مشغولًا. ثم فجأة شدَّت يدٌ صغيرة كُمِّي، وفوجئت بها واقفةً بجواري. رفَعَت نفسها وحدها مستخدمةً ساق الكرسي وقد امتلأ وجهها بالسعادة والمفاجأة! أوه كان يجب أن تريها! تنقلب ألف مَرَّة ولا تبكي أبدًا، فقط تقف وتحاول مرَّةً أخرى. وعندما تمكَّنَت من المشي لم تكن ترضى بالجلوس أبدًا".

شعر بنفسه يبتسم للذكرى.

"هــل تســتطيع أن تراهــا الآن؟". كان صــوت الســيدة كونســتنتين مُنخَفِضًــا وناعــمًا، حتــى إنــه كان لا يُحــرِّك الهــواء.

رأى فــون أميليــا. رأى خُصلــةَ الشَّــعر التــي تنقلــب عــلى الجانــب الخطــأ، اللــون المميَّــز لرموشــها وانحناءاتهــا البديعــة وذرَّة غبــار النــوم في طــرف عينهــا والانحنــاءة المحــدِّدة لخدِّهــا واشــتعال الجلــد فوقــه والانتفاخ المبطِّــن لشــفتها السُّــفلى وأصابعهــا القصــيرة وأظافرهــا الدقيقــة. لم يَرَهــا هنــا في هــذه الغرفــة، وليــس الآن في هــذه الســاعة، ولكــن في الذاكــرة الأبديــة. كانــت قــد فُقِــدَت مــن الحيــاة، ولكنهــا موجــودة في ذاكرتــه، حــاضرة، ونظــر إليهــا والتقــت عيناهــا بعينيــه وابتســمت. وجــدت عينــاه عينَيْهــا مــرَّةً أخــرى، وشــعر بالتقائهــما، أب وابنتــه. عــرف أنهــا ميِّتــة، عــرف أنهــا رحلــت، ومــع ذلــك رآهــا وعــرف أنــه هنــا -وهنــا فقــط- قــد أُعيــدَت إليــه.

"أراها"، قال وهز رأسه مبتسمًا عبر الدموع.

عــادت إليــه رئتــاه مــرَّةً أخــرى. لم يَعُــد وزن رأســه يــؤلم كتفيــه. انتظمت دقَّــاتُ قَلبــه داخــل صــدره. لم يعــرف مــا يحملــه المســتقبل، ولكنــه يعــرف أنــه موجــود. شــعر باهتــمام يصحــو داخلــه.

قال للسيدة كونستنتين: "هناك طفل في الطريق. في نهاية العام".

"مبروك! هذه أخبار جيِّدة". شعر كل السعادة مرة أخرى في رَدِّها.

مــلأ رئتيــه بنفــس كبــير مُتعمَّــد مــن الهــواء، وعندمــا أخرجــه وضــع يديــه عــلى رُكبَتَيْــه واســتعدَّ للقيــام.

"أوه". اندهَشَت السَّيِّدة كونستنتين بهدوء "هل انتهينا؟".

توقَّــف أرمســترونج مُحتــارًا. هــل يوجــد شيء آخــر؟ عــاد إليــه كل شيء. كيــف نــسي؟

حكى لها عن العَرَّافة في المهرجان وعن فرصة شراء اهتمام روبين أرمسترونج بالطِّفلة والتهديد الضِّمنيِّ بأن معلوماتهم عن موت أميليا ستصل إلى زوجته.

أنصتت بحرص. عندما انتهى هزَّت رأسها "ليس هذا ما قصدته عندما سألت إن كُنَّا قد انتهينا. كنتُ أتذكَّر أنك عندما أتيت لأول مرَّة كانت توجد صعوبة ما تريد حلها...".

استرجع أحداث لقائهم الأول. كان منذ وقت طويل جدًّا. ما الذي دفعه للمجيء وقتها؟

حفَّزَت تفكيره "بخصوص زوجتك...".

"طلبتُ منكِ أن تقولي لهيلينا إن أميليا ماتت".

"هذا صحيح. دعوتني لتحديد أجري على ما أتذكَّر، وأنت الآن تُفكِّر في دفع مبلغ كبير بالفعل لتمنعه من إخبار هيلينا بنفس الشيء".

أوه. عاد وجلس في كرسيه. لم يُفكِّر في الموضوع من هذه الزاوية.

"أتساءل يا سيد فون... ماذا يُكلِّفكَ أن تخبر أنت زوجتك بما حدث تلك الليلة؟".

لاحقًا بعد أن شرب السائل الشفَّاف بطعم الخيار، وغسل وجهه بماءٍ فاتر ونشَّفَه مرَّةً أخرى، ودَّع السيدة كونستنتين. "هذا ما تفعلينه، أليس كذلك؟ لقد فهمت، كنتُ أتصوَّر الأمر كُلَّه لعبة مرايا ودخان. خداع. أنت تسترجعين الموتى، ولكن ليس بهذه الطريقة".

هزَّت كتفيها "من المفترض أن يعمل الموت والذاكرة معًا. أحيانًا تبقى بعض الأشياء مُعلَّقة ويحتاج الناس إلى مُرشِد أو رفيق في الحزن. أنا وزوجي درسنا معًا في أمريكا. يوجد عِلمٌ جديدٌ هناك يمكن شرحه بطُرُقٍ مُعقَّدة ولكن لن تخطئ كثيرًا إن فكَّرت فيه على أنه عِلمُ

الشعور الإنساني. حصل على وظيفةٍ هنا في أوكسفورد في الجامعة وأنا طبَّقت ما تعلَّمتُه في الحياة اليومية. أساعد حيث يمكنني المساعدة".

ترك لها أجرها على الطاولة في البهو.

شعر فون ببرودة غير مُتوَقَّعة في رُكبتيه ونَحرِه عند مغادرة المنزل. كانت واضحةً عند رسغَيْه أيضًا. كانت ملابسه لا تزال مُبتلَّةً حيث سالت دموعه إلى داخل ثنيات كُمِّه وعلى ياقة قميصه وقَطَرَت فوق ركبتيه. قال لنفسه: هذا مدهش، مَن كان يتوقَّع أن بجسد الإنسان كل هذا الماء؟

تصوير أليس

حملت كولوديون ريتا ودونت مع التيَّار إلى بيت المزرعة في كلمسكوت، وفي الطريق كان حديثهم -حول عائلة فون وعائلة أرمسترونج، ولكن أغلبه عن الطفلة نفسها- فعَّالًا في إخفاء التَّوتُّر في معاملاتهم. ولكن عندما كان أيٌّ منهما يعرف أن الثاني ينظر في اتجاه آخر، عندما كان متأكِّدًا من أنه غير مرئي كانا يلقيان نظرات حُبٍّ وأسًى سريعة، يُخرِجان بها المشاعر الفائضة التي تهدد بإغراقهما.

في كليمسكوت انتظرهما الأطفال الأصغر على الضِّفَّة. لوَّحوا بأيديهم فور أن رأوا مقصورة المركب الأنيقة الملوَّنة بالكحلي والأبيض بزخرفتها الواضحة البرتقالية المصفرَّة. ريتا التي كانت تنظر من النافذة باشتياقٍ لمحت الفتاة سريعًا. كانت معهم تلوِّح بيدها. طفل آخر -الأصغر، ويقربها في العمر- أمسك يدها ورَكَضَا بعيدًا معًا عائِدَيْن إلى بيت المزرعة.

سأل دونت "إلى أين تذهب؟"، وقد شتَّته غيابها عن محاولة التركيز في إرساء القارب.

قالت بقلق: "تعود إلى المنزل"، ثم "ها هي! لقد ذهبوا فقط ليجلبوا الأطفال الأكبر".

عمل جميع أبناء أرمسترونج أعمالًا مفيدة بتعقُّل من الأولاد الكبار الذين استمعوا إلى دونت بحرص قبل أن يرفعوا الآلات الثقيلة بعنايةٍ للصغار الذين أعطتهم ريتا أشياء خفيفةً ولا تُكسَر، حملوها بإحساس كبير بالأهمية عبر الحقل إلى المنزل. استغرق إنزال الأغراض وقتًا قياسيًّا.

ظلَّت ريتا واعيةً بالطفلة، تُبقي عينًا عليها، أيًّا كان ما تفعله، ولاحَظَت كيف يعاملها الأطفال الآخرون بمَحبَّة، وكيف يصبر عليها الأكبر عُمرًا ويُبطئ الصغار سيرهم كي لا تبقى وحيدة. خطَرَ لها تساؤلٌ عمَّا إذا كانت قد افتقدت صُحبة أطفال آخرين عند عائلة أرمسترونج ولم تستطِع تجاهُلَ الشعور بأن طيبة هؤلاء الأطفال لا بُدَّ أن تكون جيدة للطفلة الصغيرة.

أدخلتهم بيس إلى غرفة الطعام، وهناك وجدوا المزيد من الانشغال، وأرمسترونج وأبناؤه الأكبر يحرِّكون الطاولة ويرتِّبون الكراسي حسب إرشادات دونت.

قالت بيسي: "لا نريد صورةً لي. فأنا هنا طوال الوقت إن رغب أحدٌ في معرفة شكلي!".

ولكن أرمسترونج أصرَّ، ودعَّمه الأولاد، وسريعًا انتهى الترتيب لجميع الصور. أوَّلًا ستُلتَقَط صورة لأرمسترونج وبيسي، ولاحِقًا صورة لجميع أفراد الأسرة.

أصاب القلق أرمسترونج "أين روبين؟ كان يجب أن يكون هنا منذ نصف ساعة".

"أنتَ تعرف كيف يتصرَّف الشباب. قلتُ لك ألّا تعتمد عليه". همهمت زوجَتُه.

نَدَمُ روبين الذي أثَّر كثيرًا في زوجها لم يُزِل شكوكها في ابنها. ذكَّرته كثيرًا "أنه أفضل في الكلمات عنه في الأفعال"، ولكن أرمسترونج اختار أن يسامح -كما يفعل دائمًا- لم تصرَّ على الأمر. ثم إنها اكتشفت لدهشتها هي نفسها عندما رأت الطفلة بين ذراعيه في المهرجان أن الأمل قد أنبت جذورًا ضعيفة بهدوء في قلبها وهي تراقبه بالفضول المؤلم لبستانيٍّ يراقب التَّطوُّر الهزيل لنباتٍ خارج بيئته الطبيعية، والتي لا يمكن أن تزدهر. لم تمر نُدرة زيارات ابنها للطفلة دون ملاحظة. أرسل أرمسترونج خطابًا كي يبلغه بيوم وموعد جلسة التصوير كما لو كان وجوده الآن أمرًا مُسلَّمًا به، ولكن لم يأتِ رَدٌّ، ولأوَّل مرَّة لم يُفاجِئها غيابه.

قال دونت: "سنلتقط صورةً لك مع السيدة أرمسترونج أوَّلًا لنعطيه وقتًا كافيًا إن كان شيءٌ ما قد أخَّره".

أجلس بيسي على كرسيٍّ، ووضع أرمسترونج خلفها، ثم أسقط اللوح في موضعه بينما يشرح مرَّةً أخرى ضرورة البقاء ساكنين. عندما أصبح كل شيء جاهزًا انحنى تحت القماشة الدَّاكِنة وخلع الغطاء، بينما وقفت ريتا خلف الكاميرا وشجَّعَت الجالِسين على النظر في اتجاه واحد بثبات. كان لدى آل أرمسترونج عشر ثوانٍ ليشعروا بكلِّ ما يشعر به مَن تُلتَقط صورهم لأول مرة: ارتباك، تَيَبُّس، أهمية، وسخف نوعًا ما. ولكن بعد ساعة، وبينما ينظرون إلى المنتج النهائي وقد حُمِّض وغُسِلَ ونُشِّف ووُضِعَ داخل إطار، رأوا أنفسهم كما لم يروا أنفسهم من قبل: أبديِّين.

"إذًا..."، قالـت بيـسي مُتسـائِلةً، ولكـن بـدا أنهـا لـن تكمـل الجملـة. صمتـت، ولكـن عينهـا ومضمـت فـوق صـورة سـيدة أنيقـة في منتصـف العمـر ترتـدي عِصابـةً عـلى عينهـا والرجـل الأسـمر الجـاد مـن خلفهـا يضـع يـدًا واحـدة عـلى كتفهـا.

في نفـس الوقـت نظـر أرمسـترونج مـن فـوق كتفهـا عـلى الصـورة، وقال لهـا كـم تبـدو جميلـة فيهـا، ولكـن عينـه كانـت تعـود مـرَّةً تلـو المـرة إلى وجهـه الجـاد. بـدا أن مزاجـه يتحـوَّل للكآبـة بينـما ينظـر إلى نفسـه.

شـتَّت اهتمامهـم جميعًـا بالصُّـور انتباههـم، ولكـن أخـيراً أتى وقـت التحضـير للمجموعـة التاليـة ولم يـأتِ روبـين بعـدُ. لم يـسمع صـوت حصـان عـلى بـلاط الشَّـارع ولم يفتـح بابًـا في البهـو. مـع ذلـك ذهـب أرمسـترونج ليبحـث عـن الخادمـة لـيرى إن كان قـد جـاء مـن الخلـف بهـدوءٍ، ولكـن لم يحـدث. لم يكـن هنـاك.

قالـت بيـسي بحسـم: "تعالـوا، إن لم يكـن هنـا فهـو ليـس هنـا، ولا يمكـن أن نفعـل أي شيء حيـال ذلـك. بمـا أنـه يحيـا في أوكسـفورد فبإمكانـه الذهـاب إلى سـتوديو السـيد دونـت والتصويـر هنـاك في أي وقـت. سـيكون ذلـك أسـهل بمائـة مـرَّة بالنسـبة لـه".

"ولكن كان سيكون رائعًا أن جميع الأولاد معًا! وهناك أليس!".

كانت أليس هناك بالفعل.

تنهَّـدَت بيـسي وأمسـكت بـذراع زوجهـا لتشـجِّعه "روبـين رجُـل الآن وليـس طفـلًا ليفعـل مـا يُمليـه عليـه والـداه. تعـال ودعنـا نأخـذ أفضـل مـا في الظـرف. هـا هـم الآخـرون السِّـتَّة جميعهـم مُتحمِّسـون وسُـعَداء باتِّخـاذ أماكنهـم بجوارنـا نحـن وأليـس. تعـالَ".

أقنَعَـت أرمسـترونج بأخـذ مكانـه في المجموعـة، وتحـرَّك الأطفـال كلهـم قليـلًا لليسـار أو اليمـين ليَملـؤوا الفـراغ الـذي تركـه شـقيقهم.

"الجميـع مُسـتعدٌّ؟" سـأل دونـت، وألقـى السـيد أرمسـترونج نظـرةً أخـيرة في اتجـاه النافـذة، لعـلَّ وعـسى.

أجاب وهو يتنهَّد "الجميع مستعدٌّ".

لعـشر ثـوانٍ حـدَّق أرمسـترونج وزوجتـه وأبناؤهـم السِّـتَّة الأصغـر في عـين الكامـيرا، في الوقـت، في المسـتقبل، وحفـروا أنفسـهم في الأبديَّـة. لاحَظَـت ريتـا مـن مكانهـا في طـرف الغُرفـة أن التـي يطلقـون عليهـا اسـم أليـس ثبَّتـت نظرهـا عـلى نقطـةٍ أبعـدَ مـن ذلـك خلـف الكامـيرا وخلـف الجـدران وخلـف كلمسـكوت، مـكان قَـصيٌّ حتـى إنـه يمكـن أن يكـون مُتجـاوزًا للأبديَّـة.

بينـما كان دونـت يُحمِّـض الصـور حـضَّرَت السـيدة أرمسـترونج وبناتهـا المائـدة للشـاي، وبـدَّل الأولاد ملابسـهم كي يطعمـوا الحيوانـات. وجـدت ريتـا نفسـها وحدهـا مـع أرمسـترونج في اللحظـة التـي أشرقـت فيهـا الشـمس وتوقَّـف المطـر.

دعاها "هل تُحبِّين أن تَرَي المزرعة".

"سأحبُّ ذلك".

التقـط الطفلـة الصغـيرة ولم يشـعر بثقلهـا كثـيراً عـلى ذراعـه وهـو يتَّجـه إلى الخـارج.

سألت ريتا "كيف هي؟ هل تجد أنها بخير؟".

"لسـتُ مُتأكِّدًا مـن أننـي أسـتطيع أن أقـول لـك ذلـك. في العـادة أنـا ماهـرٌ جـدًّا في معرفـة الكائنـات الحيَّـة، سـواء كانـت آدميـن أم حيوانـات. إنهـا مسـألة ملاحظـة. فيـما يخـصُّ الدَّجـاج؛ تسـتطيعين أن تـري الاضطراب في ريشـهم، ويمكـن أن يحـكي لـك تَنفُّـس القِـطِّ الكثـير عنـه. بخصـوص الجِيـاد... حسـنًا إن بهـا القليـل مـن كل شيء. الخنازيـر تنقـل لـك المعنـى

بالنظـر. هـذه الصغـيرة لا تُعـرف بسـهولة. أنـتِ لغـزٌ، أليـس كذلـك يـا خِنَّـوْص؟"، ومسـح عـلى شـعرها بمَحبَّـة وهـو ينظـر إليهـا نظـرة حانيـة.

نظَـرَت إليـه الطفلـة، ثـم إلى ريتـا، بـلا أي إشـارة أنهـا تعرفهـا، ولكـن كـما لـو كانـت لم ترهـا مـن قبـل. ذكَـرَت ريتـا نفسـها أن الحـال كان دائمًـا كذلـك، حتـى عنـد عائلـة فـون حيـث كانـت زائـرةً مُسـتديمة.

بينـما يتجوَّلـون كان أرمسـترونج يشـير إلى أشـياء قـد تهـمُّ ريتـا أو الطفلـة، وكانـت الفتـاة تسـتدير نحـو مـا يشـار إليـه، وبـين تلـك المـرات كانـت تريـح رأسـها عـلى كتـف الرجـل العريضـة، وتسـحب نظرتهـا إلى الداخـل فتغلـق عـلى نفسـها عالمهـا الداخـليِّ مُجـدَّدًا. شـعرت ريتـا أن وراء كلام الرجـل عـن المزرعـة يـدور ذهنـه حـول تعاسـة خاصَّـة، وأرجعـت ذلـك لغيـاب ابنـه. لم تثرثـر، ولكـن مشـت بجـواره حتـى شـجَّعه وجودهـا الهـادئ عـلى التَّخفُّـف مـن أسراره.

"رجـلٌ مثـلي يعتـاد عـلى التعـرُّف عـلى نفسـه مـن الداخـل. الداخـل هـو مـا آلَفُـه. كـما أني لا أميـل لتفحُّـص مظهـري الخارجـي في المـرآة. رؤيـة الشـخص لنفسـه في الصُّـوَر أمـر غريـب. إنـه لقـاء مـع الرجـل الخارجـي".

"هذا حقيقي".

عندمـا تحـدَّث أرمسـترونج مـرَّةً أخـرى كان ليسـأل سـؤالًا. "ليـس لديك أطفـال، أليـس كذلك؟".

"أنا لست مُتزوِّجة".

"أتمنـى أن تنـالي ذلـك. لم أعـرف سـعادةً تُقـارَن بمـا عرفتـه مـع زوجتـي وأبنـائي. لا شيء يعنـي لي قـدر مـا تعنيـه عائلتـي. قـد تكونـين قـد خَمَّنـتِ شـيئًا مـا مـن قصَّتـي عـلى مـا أتصـوَّر".

"لا أحـبُّ التخمـين. ولكنـي أعـرف مـا يقولـون في ذا سـوان. إن والديـكَ أمـيرٌ وأَمَـة".

"هـذا خيـالٌ، ولكـن بـه بعـض الحقيقـة. أبي كان رجـُلًا ثريًّـا، وأمـي خادمـة سـوداء. كانـا يعيشـان في نفـس المنـزل وهـما صغـيران، لم يكونـا قـد تجـاوزا الطُّفولـة بكثـيرٍ، وقـد حُمِـلَ بي بسـبب الحـب والجهـل. أعتقـد أن بإمكانـك أن تقـولي إننـي كنـت محظوظًـا... وأمـي كذلـك. أغلـب العائـلات كانـت سـتطردها، ولكـن أبي تَحمَّـل جانبـه مـن المسـؤولية. أعتقـد أنـه أراد أن يتزوَّجهـا. كان الأمـر مسـتحيلًا بالطبـع. ولكـن العائلـة كانـت رحيمـةً، وفعلـوا أفضـل مـا بوسـعهم. نالـت أمـي العنايـة حتـى وَلَـدَت، وفُطِمـتُ، ثـم نُقِلَـت لبلـدة أخـرى، وعُـثِرَ لهـا عـلى عمـل مناسـب حتـى تسـتطيع أن تُدبِّـر احتياجاتهـا باحـترامٍ حتـى تتـزوَّج... وقـد تزوَّجَـت فعـلًا بعـد بضـع سـنواتٍ مـن رَجُـلٍ مـن قومهـا. وُضِعـتُ أنـا في بيـت للأطفـال الذيـن لا يمكـن لسـبب أو آخـر أن يعيشـوا مـع عائلاتهـم ولكنهـم مدعومـون ببعـض المـال، ولاحقًـا ذهبـتُ إلى المدرسـة. مدرسـة جيِّـدة. وهكـذا تربَّيـتُ عـلى طـرف عائلتَـيْن: واحـدة ثَريَّـة وأخـرى فقـيرة، واحـدة سـوداء والأخـرى بيضـاء، ولم أكُـن أبـدًا في القلـب مـن أيٍّ منهـما. كـبرت خـارج الحيـاة العائليـة إلى حـدٍّ كبـير. أغلـب ذكريـاتي الأولى عـن المدرسـة، ولكنـي عرفـتُ والـديَّ. كان والـدي يـأتي مرَّتـين في السـنة ليُخرِجَنـي مـن المدرسـة لمـدَّة يـوم. أتذكَّـر في مـرَّة أني تسـلَّقتُ إلى داخـل عربتـه حيـث كان ينتظـرني، وتفاجـأتُ جـدًّا لوجـود ولـدٍ آخـر أصغـر منـي هنـاك بالفعـل. قـال لي أبي: "مـا رأيـك بهـذا الشـخص الصغـير يـا روبـرت؟ صافِـحْ أخـاك!". يـا لـه مـن يـوم! أتذكَّـر مكانًـا -بصراحـة ليـس لـديَّ فكـرة أيـن كان- بمـروجٍ خـضراء. أقـذف الكـرة إلى أخـي بـلا توقُّـف، وأخـيرًا تمكَّـن مـن الإمسـاك بهـا مـرَّة أو مرَّتـين، وكـم رقـص فرحًـا بذلـك. لـن أنـسى ذلـك أبـدًا. لاحقًـا علَّمتُـه أيـن يضـع قدمـه كي يصعـد إلى الشـجرة بينـما يقـف أبي بالأسـفل كي يلقفنـا إذا وقعنـا. لم تكـن شـجرةً كبـيرة، ولكنـه لم يكـن ولـدًا كبـيرًا أيضًـا. كُنَّـا كِلَينـا أصغـر مـن أن يعـرف أيٌّ مِنَّـا الفَـرقَ بيننـا، ولكنـي بـدأتُ أعـرف عندمـا عُـدتُ إلى المدرسـة ونزلـت مـن العربـة ورحـل كلاهـما -معًـا- إلى

مـكانٍ يُدعَـى البيـت. لا أعـرف مـا الـذي حـدث بعـد ذلـك. لم أَرَ الولـد مـرَّةً أخـرى، مـع أنني أعـرف اسـمه، وأنـه كان هنـاك المزيـد مـن الأخـوة والأخـوات الذيـن تلـوه. ربمـا لم يكـن مـن المفـترض أن يُشـجِّعنا أبي عـلى معرفـة بعضنـا البعـض، وقـد انكشـف أنـه فعـل ذلـك. ربمـا رأى أن ذلـك ليـس جيِّـدًا. أيًّـا كان السـبب، فأنـا لم أَرَ أخـي مـرَّةً أخـرى. لا أتصوَّر حتـى أنـه يتذكَّـرني. لا أسـتطيع أن أتأكَّـد أنـه يعـرف بوجـودي. هـذ كل شيء عـن عائلـة أبي.

لم أكـن غريبًـا كُلِّيًّـا في منـزل أمـي. سُـمِح لي أحيانًـا بزيـارات قصـيرة في الإجـازات، ولـديَّ ذكريـاتٌ جيِّـدة عـن تلـك المـرات. كان منزلهـا مليئًـا بالـكلام والحركـة والضحـك والحـب. كانـت أُمًّـا جيِّـدة معـي بقـدر مـا جَرُؤَت عـلى ذلـك. وضعـت ذراعيهـا حـولي وقالـت لي إنهـا تُحبُّنـي أكـثر مـن مـرَّة، مـع أنني كنـتُ غـير معتـاد عـلى مثـل هـذه المعاملـة، حتـى إن لسـاني يُعقَـد، ولم أعـرف كيـف أبادلهـا العنـاق. لم يكـن زوجهـا رَجُـلًا قاسـيًا أيضًـا، مـع أنـه كان يقـول لأخـوتي وأخـواتي دائمًـا أن ينتبهـوا لمـا يقولونـه في حضـوري. عندمـا يصبـح الحديـث صاخِبًـا في حضـوري كان يقـول: "روبـرت غـير معتـاد عـلى بذاءتكـم". لم أكـن أرغـب في البُعـد عـن هـذا المنـزل أبـدًا. كنـتُ أظـنُّ دائمًـا أن المـرة القادمـة التـي أذهـب إلى هنـاك فيهـا سيُسـمَح لي بالبقـاء، وكانـت كلُّ مُغـادَرة إحباطًـا. لاحَظـتُ في النهايـة أنني أصبـح أقـلَّ شَـبهًا بأخـوتي وأخـواتي مـع كل زيـارة، وليـس أكـثر شـبهًا. أتى وقـتٌ توقَّفَـت فيـه تلـك الزيـارات التـي كانـت قليلـةً بالفعـل. لم تكـن نهايـة مُفاجِئـة. لم يُقَـل إنهـا لـن تحـدث مـرَّةً أخـرى، مجـرَّد عـدد مـن العُطـلات التـي لم تحـدث فيهـا الزيـارة ثـم تبـزغ معرفـة أنهـا قـد انتَهَـت. لقـد تحوَّلَـت الحـدود بينـي وبـين أخـوتي وأخـواتي إلى حائـطٍ صُلـب.

بدأت الطفلة تتململ وتوقَّف أرمسترونج كي يوقفها على قدميها.

"عندما وصلتُ إلى السابعة عشرة أرسلت لي أمي رسالةً تستدعيني فيها. كانت تحتضر. عُدتُ إلى المنزل، وكان أصغر كثيراً ممَّا أتذكَّر. دخلتُ إلى غرفة نومها وكانت ممتلئةً بالناس. بالطبع كان أخوتي وأخواتي هناك بالفعل يجلسون بجوار سريرها ويركعون على الأرض بالقرب منها. كان بإمكاني أن أطلب الوقوف بجوارها والإمساك بيدها للحظة، وأنا مُتأكِّد أنها إن كانت في وعيها ومُدرِكةً لوجودي لكُنتُ قد فعلتُ، ولكن الوقت كانت قد فات. وقفتُ بجوار الباب بينما يجلس أخوتي ويركعون بجوار سريرها، وعندما لفظت آخر أنفاسها تذكَّرتني إحدى أخواتي، وقالت: "ربما يمكن أن يقرأ روبرت" -قالت: "فهو يقرأ قراءة جميلة"- فقرأت بعض آيات من الإنجيل بصوت الرَّجُل الأبيض الذي أملكه، وعندما انتهيتُ لم يبدُ أن هناك سببًا لأبقى. سألتُ زوج أمي في طريقي للمغادرة إن كانت هناك مساعدة يمكن أن أقوم بها فقال: "أستطيع الاعتناء بأولادي. شكرًا يا سيد أرمسترونج". كان دائمًا يخاطبني باسم روبرت من قبلُ، ولكنِّي أظنُّ أني كنتُ قد أصبحتُ رَجُلًا وقتها، ومنحني هو ذلك الاسم بدلًا عن ذلك. الاسم الذي أتى من اللا شيء، قطفه من العدم، لا يخصُّ أيًّا من والديَّ، ولكنه لي وحدي.

حضرتُ جنازتها بصحبة أبي. كان قد دبَّر أمر دخوله بهدوءٍ من الخلف ورحل قبل أن يستدير أيٌّ من المشيعين ليرحلوا".

هنا توقَّف أرمسترونج. خرجت قِطَّةٌ من الحظيرة، وعندما رأت المزارع خطت نحوه وتوقَّفَت على بُعد ياردة ونصف من الرَّجُل كي تربض على قدميها الخلفيَّتين، ونطَّت مثل عفريت العلبة لتهبط على كتف الرَّجُل.

"يا له من استعراض"، قالت ريتا، بينما القطَّة تستقرُّ وتحكُّ خدَّيْها في فكِّ الرجل.

"إنهـا مخلوقـة طريفـة ومُحِبَّـة". ابتسـم أرمسـترونج وهـو يتقـدَّم والقطـة تتـوازن مثـل بغبغـاء عـلى كتـف صاحبـه القرصـان.

"فكـما تريـن يـا آنسـة سـنداي، أنـا لم أنتَـمِ. في أيٍّ مـن المكانَـيْن. في أيٍّ مـن القَلبَـيْن. هـا هـي المسـألة. أعـرف مـاذا يعنـي أن أكـون غريبًـا. لا تُسـيئي فهمـي: هـذا تفسـيرٌ وليـس شـكوى، مـع أني اسـتفضت قبـل أن أصـل إلى لُـبِّ الموضـوع. اعذرينـي، فهنـاك أشـياء لا يتحـدَّث فيهـا المـرء كثـيرًا، وهنـاك نـوعٌ مُحـدَّد مـن -لا أعـرف مـا أسـمِّيه... مُتعَـة؟ راحـة عـلى أي حـال- في التَّحـرُّر".

قابَلَت ريتا نظرته وهزَّت رأسها.

"كان والـداي شـخصين ذَوَيْ قلـب طيـب يـا آنسـة سـنداي. أنـا متأكِّـد أن كليهـما أحبَّـاني بقـدر مـا سُـمِح لهـم. الحقيقـة أنهـما لم يكونـا أحـرارًا في أن يحبَّـاني كـما أرادا. ثـرائي فَـرَّق بينـي وبـين أخـوتي مـن الأم، وبـشرتي فرَّقَـت بينـي وبـين أخـوتي وأخـواتي مـن الجانـب الآخـر. لا شـكَّ في أني شـكَّلتُ صعوبـةً وحرجًـا لـكلٍّ مـن زوجـة أبي وزوج أمـي. ومـع ذلـك فقـد كنـتُ -ولا أزال- واعيًـا بشـكلٍ اسـتثنائيٍّ بحظِّـي الجيِّـد. عرفـت أني محظـوظ حتـى قبـل بيـسي.

أنـا أعـرف معنـى ألَّا أنتمـي، وعندمـا وُلِـد روبـين رأيـتُ نفـسي فيـه. لـو قُلـتُ الحقيقـة فأنـا أرى نفـسي فيـه أكـثر مـمَّا أرى نفـسي في أيٍّ مـن الآخريـن. الآخـرون لي بمعنـى يفهمـه العـالم. إنهـم لحمـي ودمـي، وأنـا أحبهـم. أحـبُّ أولادي وبنـاتي أكـثر مـن الحيـاة نفسـها. في رؤيتهـم معًـا أرى أولاد أمِّـي والمتعـة التـي كانـوا يجدونهـا في بعضهـم البعـض وفي والديهـم. يسـعدني أن أعـرف أننـي اسـتطعتُ صُنـعَ هـذه الحيـاة لهـم. ولكـن عندمـا أرى روبـين -الـذي لا ينتمـي لي، ليـس بنفـس الطريقـة، وهـذا حـظُّ بيـسي السـيئ وليـس ذنبهـا- فأنـا أرى طفـلًا عـلى طـرف الأمـور. أرى طفـلًا كان مـن الممكـن بسـهولة أن يسـقط في الشـقوق بـين العائـلات. كان مـن

الممكـن أن يضيـع. وقـد صَمَّمـتُ -ليـس يـومَ ميـلاده، ولكـن قبـل ذلـك بكثـير- أن أُبقيـه قريبًـا مـن قلبـي. أن أُقـدِّره كـما يجـب أن يُقَـدَّر الطفـل. أن أحبـه كـما يسـتحقُّ كل طفـل أن يُحَـبَّ. أمنيتـي كانـت أن أضمـن أن يشـعر دائمًـا أنـه ينتمـي في قلبـي. فـإن كان هنـاك شيء واحـد لا أطيقـه فهـو معانـاة طفـل".

صمـت أرمسـترونج، وعندمـا نظَـرَت ريتـا إلى وجهـه رأت خـدود الرجـل تلمـع بالدموع.

قالـت ريتـا: "مثـل هـذه المشـاعر تُعـلي مـن شـأنك. أنـت أفضـل الآبـاء، ومـا رأيتـه مـن عائلتـك اليـوم يُنبِئنـي بذلـك".

نظـر أرمسـترونج إلى الأفـق "كـسر هـذا الولـد قلبـي مئـات المـرَّات، وسـيفعل ذلـك مئـاتٍ مـن المـرَّات الأخـرى قبـل أن تنتهـي أيامـي".

كانـوا قـد وصلـوا إلى حظـيرة الخنازيـر. فتَّـش أرمسـترونج في جيبـه وأخـرج بعـض ثمـار البلـوط. أتـت الخنازيـر الصغـيرة إليـه بنخـير وخنفـرة ودودة، ووزَّع الثِّـمار وربَّـت عـلى الأجنـاب وحـكَّ خلـف الآذان.

ناداهـم دونـت. كان عائِـدًا مـن كولوديـون مـع الصـورة النهائيـة لعائلة أرمسـترونج داخـل إطـار، وأراهـا لأرمسـترونج الـذي هزَّ رأسـه وشـكره.

"ولكــن يــا ســيد دونــت، هنــاك صــورة أخــرى مــن صــورك أودُّ أن أتحــدَّث معــك عنهــا".

سحب من جيبه إطارًا صغيرًا وأداره ليُريه لريتا ودونت.

"الخنزير العَرَّاف! لقد اشتريتها في يوم المهرجان".

"نعـم يـا آنسـة سـنداي"، بـدا أرمسـترونج جـادًّا، "وسـتتذكَّرين أيضًـا أن المشـاعر غلبتنـي عندمـا رأيـتُ هـذه الخنزيـرة. أنـا أعرفهـا يـا سـيد دونت. اسـمها مـود، وهـي خنزيـرتي. هـذه الخنزيـرة"، أشـار إلى الخنزيـرة التـي تـأكل ثمـار البلـوط برقَّـة... "هـي ابنتهـا مابـل، وهـذه الصغـيرة هنـاك هـي

حفيدتها ماتيلدا. لقد أخذت من هذه الحظيرة منذ ثلاث سنوات تقريبًا بلا صوت، ولم أَرَها أبدًا بعد ذلك، حتى انتبهتُ إلى صورة السيد دونت".

"سُرِقَت؟".

"سُرِقَت... خُطِفَت... أي كلمة تفضِّلها".

"هل هذا أمرٌ سهل، أن يُسرَق خنزير؟ لن أرغب في محاولة تحريك واحد منهم".

"لا أدري لماذا لم تشتَكي. يمكن لصياح الخنزيرة أن يوقظ مَنزلًا بأكمله إن أرادت. كانت هناك بُقَعٌ حمراء بين هنا والطريق، وفي البداية خشيت أن تكون دماءً، ولكنها كانت بُقَع توت. كانت تحبُّ التُّوت كثيرًا. أتصوَّر أنهم أغروها بالابتعاد بهذه الطريقة".

تنهَّد بعمق وأشار إلى طرف الصورة.

"ماذا ترى هنا؟ أتصوَّر أني أرى ظِلًّا. نظرت طويلًا، ويبدو لي مُمكِنًا أن يكون هذا ظِلَّ شخصٍ، وأن هذا الشخص كان يقف جانبًا، بعيدًا بينما يتمُّ تعريض الصورة".

هزَّ دونت رأسه.

"هذه الصورة من ثلاث سنوات مضت، وأتفهَّم أنه قد لا يمكن بعد كل هذا الوقت الطويل أن تتذكَّر مَن كان ذلك الشخص، وربما لا يكون هو الشخص الذي استولى على مود إطلاقًا ولكن شخص آخر. ولكني فكَّرتُ؛ فإنَّكَ إن تَذكَّرتَ أيَّ نوع من الرجال هو قد تستطيع أن تقول لي شيئًا عن صاحب هذا الظل".

نظر أرمسترونج إلى دونت وهو يتحدَّث بتعبيرٍ يحمل توقُّعًا بالإحباط أكثر من الأمل.

أخفض دونت عينيه واستشار الصُّوَر التي خَزَّنها في رأسه. طفت الصورة إلى مُقدِّمة ذاكرته.

"رَجُلٌ قصير. أقصر من الآنسة سنداي بثماني بوصات. نحيل. أكثر شيء مُلفِت فيه هو معطفه. كان كبيرًا، أطولَ مِمَّا يُناسِبه، وكتفاه أعرض. تساءَلتُ وقتها لماذا يرتديه في يومٍ صيفيٍّ مُشرِق بينما الآخرون جميعًا بقُمصان. تصوَّرتُ أنه ربما يخجل من بنيته ولديه آمال أن تُقنِع ضخامة ردائه العَينَ أنَّ بداخله رَجُلًا يوازيه في الحجم".

"ما شكله؟ هل كان عجوزًا أم شابًّا؟ أشقر أم أسمر؟ بلحية أو حليقًا؟".

"حليقًا، بذقنٍ رفيع. لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك؛ لأنه كان يرتدي قُبَّعته منخفضة على وجهه حتى كاد يكون خَفيًّا".

حدَّق أرمسترونج في الصور كما لو كانت حِدَّة تحديقه ستجعله يرى ما بعد أطراف الإطار ويجد الغريب القصير.

"كان يصحب الخنزيرة؟".

"نعم. لا يوجد سوى شيء واحد آخر أستطيع أن أحكي لك عنه قد يكون له أهمية. لقد سألته ما إن كان سيقف بجوار الخنزيرة من أجل الصورة، ولكنه رفض. سألته مرَّةً أخرى، وقال "لا" أيضًا. في ضوء ما قُلتَه لنا اليوم عن سرقة خنزيرتك فتصميم الرَّجُل على عدم التصوير له دلالة".

أتت صُغرى بنات أرمسترونج تركض خلفهم وتنادي أن الشاي مُعَدٌّ. ركضت الخالة و ابنة أخيها يدًا بيد أمامهم إلى الداخل، وكانت الطفلة الأكبر تُقلِّل من سرعتها لتناسب الصغيرة.

قال أرمسترونج: "اعذروني على رفع الكلفة، ولكننا نتناول الشاي بعد الظهيرة في المطبخ. يوفِّر ذلك وقتًا، ونستطيع أن نأكل جميعًا بملابس العمل".

في الداخل أُعِدَّت مائدة كبيرة بخبز ولحم، وكانت هناك أنواع مختلف من الكعك ورائحة خَبيز رائعة في الجو. دهن الأطفال الكبار الزبدة على خبز الصِّغار، وكان الأصغر يجلس على رُكبَة أخيه، وسُمِح له بأخذ الأفضل من كل شيء. كان أرمسترونج نفسه مُنشَغِلًا بالتأكُّد من أن كل شخص -طفل أو ضيف- لديه كل ما يحتاجه، وبعد تمرير الأطباق في كل اتجاه حول الطاولة كان أمامه الطبق الوحيد الفارغ.

حثَّته السيدة أرمسترونج "ضَعْ بعض الطعام لنفسك يا عزيزي".

"سأفعل بعد دقيقة، ولكن بيب لا يستطيع الوصول إلى البرقوق...".

قالت لريتا وهي تدفع البرقوق نحو ابنها وتضع باليد الأخرى الخبز والجبنة على صحن زوجها، مع أنه كان لحظتها في الخارج يضع الحليب في صحن القطَّة: "يُفضِّل أن يموت جوعًا عن أن ينقص أبناءه شيء".

استجوبت إحدى بنات أرمسترونج ريتا حول موضوع الطِّبِّ والأمراض، وكانت سريعة الاستيعاب والفهم، حتى إن ريتا استدارت نحو أُمِّها وقالت: "لديكِ مُمرِّضة مستقبليَّة هنا". في الطرف الآخر من الطاولة كان لدى الأولاد أسئلة عديدة لدونت عن التصوير وقيادة القوارب والدارجات الآلية.

عندما لم يتبقَّ سوى الفُتات لاحظ دونت بَرقًا داخل الغرفة وأخرج رأسه من الباب.

"هـل تظـنُّ أن بإمكاننـا الاسـتفادة مـن الضـوء؟ ربمـا صـورة للفَـلَّاح وهـو يعمـل يـا سـيد أرمسـترونج؟ هـل يمكـن أن تقـف مُهرَتُـكَ ثابِتـةً لعـشر ثـوانٍ؟".

"ستفعل إن كنتُ أنا معها".

جُلِبَت فليـت إلى الباحـة ووُضِـع عليهـا الـسَّرج. راقـب دونـت السـماء واعتـلى أرمسـترونج المُهـرَة.

تساءَلَت ريتا بصوتٍ عالٍ "ماذا عن القطَّة الصغيرة. أين ذهبت؟".

وُجِدَت القطَّة، وجُلِبَت، ورُفِعت لتجلس وتموء على كتف سيدها.

هنـا فهـم أبنـاء أرمسـترونج طبيعـة الصـورة؛ فذهبـوا ليبحثـوا عـن الكلـب. سـمح الكلـب العجـوز لهـم أن يقـودوه إلى بقعـة بجـوار أرجُـل فليـت الأماميـة حيـث جلـس مسـتقيمًا ونظـر مبـاشرةً إلى الكامـيرا مثل أكثر المتصوِّريـن طاعَـةً. عندمـا أصبـح الجميـع في أماكنهـم جفـل أرمسـترونج.

صاح "ماتيلدا! لا يمكن أن نستثني ماتيلدا!".

لفَّ ابنه الأوسط وركض بسرعة كبيرة.

بـدأت الغيمـة التـي كانـت مُعلَّقـةً بثبـات في السـماء تتحـرَّك. راقـب دونـت حركتهـا البطيئـة ونظـر بقلـق للرُّكـن الـذي اختفـى عنـده الصبـي. فتـح فمـه ليتحـدَّث بينـا تُـسرِع الغيمـة في طريقهـا عـبر السـماء "أظـنُّ أننـا سـنضطرُّ إلى...".

عاد الصبي راكضًا بشيء تحت ذراعه.

ازدادت سرعـة الغيمـة. مـرَّر الولـد كُتلـةً مُتَملمِلَـةً مـن اللحـم الـوردي إلى أبيـه.

قلب دونت وجهه "لا يمكن أن توجد حركة".

قـال أرمسـترونج: "لـن تتحـرّك. إذا قُلـتُ لهـا فلـن تتحـرّك". رفـع الخنزيـرة الصغـيرة وهمـس لهـا بـشيء في أذنهـا بينـما تتلصّـص القطّـة بـرأسٍ مائـلٍ إلى جانـب واحـد. ثبّـت الخنزيـرة في ثنيـة ذراعـه ومُؤخّرتهـا تحـت كوعـه وهبـط عـلى اللّوحـة كلهـا -الرّجُـل والفَـرَس والكلـب والقطـة والخنزيـرة- ثبـاتٌ كامِـلٌ دام خمـس عـشرة ثانيـة تحديـدًا.

انتظـرت ريتـا مـع بيـسي في المطبـخ بينـما يسـاعد أولاد أرمسـترونج دونـت في إعـادة الأدوات إلى كولوديـون. عـادت عـين بيـسي إلى الصُّـوَر مـرارًا، ونظـرت ريتـا مـن خلفهـا. جلسـت الطفلـة عـلى حِجـر إحـدى بنـات أرمسـترونج الأكـبر، وحولهـا عجـز الأطفـال السـتة الآخـرون عـن كبـت ابتسـاماتهم؛ فأشرَقَـت بثبـاتٍ نحـو الكامـيرا، أمّـا الوافـدة الجديـدة عـلى العائلـة فحدّقَـت في العدسـة. عينهـا التـي كانـت مُحـيِّرةً في الحيـاة برماديّتهـا الخـضراء- الزرقـاء- الطينيـة المتحوّلـة عـلى الـدوام بسـطها غيابُ اللـون، وأقلَقَـت الصـورة ريتـا كـما أقلقتهـا صـورة أميليـا عـلى القـارب. كان للطفلـة هيئـة مسـتكينة منطويـة أقـلّ وضوحًـا في الحقيقـة.

سألت بتشكُّك "هل هي سعيدة يا بيسي؟ أنتِ أُمٌّ. ما رأيك؟".

"حسـنًا، إنهـا تلعـب فعـلًا وتركـض في أنحـاء المـكان ولهـا شـهيّة صِحّيَّـة. إنهـا تحـب الذهـاب إلى النهـر، ويأخذهـا الكبـار إلى هنـاك للتنزُّه كلّ يـوم كي تـرى المـكان وتُـرَشرِش المـاء". قالـت كلـمات بيـسي شـيئًا مـا، وأعطـت نـبرةُ صوتهـا انطباعًـا مُخالِفًـا. "ولكنهـا تتعـب لاحِقًـا. تتعـب أكـثر بكثـير مـمّا يجـب، كـما لـو كان كل شيء يُتعِبهـا ضِعـفَ مـا يتعـب أي طفـل آخـر. ينطفـئ الضـوء فيهـا -العزيـزة الصغـيرة تُنهَـك جِـدًّا- وكل مـا تسـتطيع فِعلَـه بـدلًا مـن النـوم هـو البـكاء، ولا يمكننـي أن أفعـل أيَّ شيء لأواسـيها".

عبثت بيسي بعصابة عينها.

"مـا هـي حالـة عينـك؟ هـل يوجـد شيءٌ يمكـن أن أسـاعد فيـه؟ أنـا ممرِّضـة، وسيسـعدني أن ألقـي نظـرة".

"شكرًا ريتا، ولكن لا. لقد أزَحتُ مسألة عيني جانبًا. إنها لا تزعجني طالما لا أنظر للناس بها".

"لماذا لا؟".

"أحيانًا لا أحب ما أراه بها".

"ماذا ترين؟".

"حقيقة الأشخاص. عندما كنت طفلة كنتُ أظنُّ أن الجميع يمكنهم رؤية ما في قلوب الناس. لم أدرك أن ما أستطيع رؤيته خفيٌّ على الآخرين جميعًا. لا يحب الناس أن تُعرَف حقيقتهم، وقد سبَّب ذلك لي متاعب أكثر من مرة. تعلَّمتُ أن أُبقي ما أراه لنفسي. ولكن انتبهي، فأنا لم أفهم منه سوى ما يمكن لشخصٍ من عمري أن يفهمه، وقد كان في ذلك حماية كافية على ما أظنُّ. ولكن عندما كبرتُ في العمر قَلَّ حُبِّي لذلك. المعرفة الزائدة حمل. عندما بلغت الخامسة عشرة خيَّطتُ لنفسي أوَّل عِصابة، وقد لبستها من وقتها. بالطبع يظنُّ الجميع أني أخجل من عيني، يظنُّون أني أُخفي قُبحي عنهم، مع أنه في الحقيقة ما أخفيه هو قبحهم هم".

قالت ريتا: "يا لها من قدرة استثنائية. لديَّ فضول، هل نَزَعتِها منذ تلك الأيام؟".

"مرَّتين، ولكني فكَّرتُ في الأمر كثيرًا منذ أصبح لدينا هذه الإضافة إلى العائلة. فكَّرتُ في نزع العصابة كي أراها هي".

"كي تعرفي مَن هي؟".

"لن تخبرني بمن هي... كلُّ ما ستخبرني به ما تشعر به لكونها هي".

"ستخبرك ما إن كانت سعيدة؟".

نظرت بيس إلى ريتا بشكٍّ "ستخبرني. هل أفعلها؟".

نظرتا خارج النافذة حيث تلعب البنات مع القِطِّ. كانت بنات أرمسترونج يضحكن ويبتسمن وهنَّ يَشدُدْن قطعة من الخيط كي تقفز القطة من فوقها. راقبت الطفلة هذه الألاعيب بفتور. حاوَلَت الابتسام كل فترة، ولكن بدا أن ذلك يُتعِبها، ودعَكَت عينيها.

"نعم"، قالت ريتا.

خَطَت بيس إلى الباحة وعادت بالطفلة. وضعت ريتا الطفلة على حِجرها، وجلست بيس أمامها. أزاحت عِصابةَ عينها لتغطي بها عينَها السليمة، وأبقت وجهها بعيدًا عن الطفلة حتى تستعدَّ، ثم أمالت رأسها وثبَّتَت الفتاةَ في مجال بصر عينها بعيدة النظر.

طارت يد بيس إلى فمها وشهقت مُرتاعَةً.

"لا! الطفلة الصغيرة المسكينة ضائعة جدًّا! تريد أن تذهب إلى المنزل، إلى أبيها. آه... الطفلة المسكينة!".

أمسكت بيس يد الطفلة وهدهدتها مُلقِيةً عليها كلَّ ما بإمكانها من سلوى. تحدَّثَت إلى ريتا من فوق رأسها "مكانها ليس معنا. يجب أن تعيديها إلى عائلة فون. أرجعيها إلى بيتها اليوم!".

الحقيقة والأكاذيب والنهر

سألها دونت وهما واقفان عند دفّة القيادة "ماذا يقول عِلمُكِ الطبي عن عين السيدة أرمسترونج الشَّوَّافة؟".

"أنتَ عالم البصريات. ما قولك أنت؟".

"لا توجد عينٌ آدمية أو ميكانيكية ترى أرواح الأطفال".

"ولكن ها نحن نأخذ هذه الطفلة الصغيرة عائِدَيْن بها إلى عائلة فون على أساس ردٍّ فِعل بيس. لأننا نثق فيها".

"لماذا نثق في شيء لا يُصدِّقه أيٌّ مِنَّا؟".

"لم أَقُل إني لا أصدقه".

"ريتا!".

"ربما كان الأمر هكذا: مرضت بيس وهي طفلة، فرَّقَتها عينها المائلة عن الأطفال الآخرين. كان لديها فرص أكبر كي تلاحظ، ووقتٌ أكبر كي تفكِّر فيما لاحَظَته. أصبحت حَكَمًا ممتازًا على الشخصيَّات، وتعلَّمَت ما هي الحياة بجوار أُناس آخرين، وأن تعرف عنهم أكثر ممَّا يعرفونه عن أنفسهم. ولكن لا بُدَّ أن فهم أحزان الناس وآمالهم ومشاعرهم ونواياهم بالدِّقَّة التي تفهمها هي أمرٌ مُنهِك. وجدت موهبتها غيرَ مريحة، وأقنَعَت نفسها أن عينها هي التي بها الموهبة، وأسدَلَت حجابًا فوقها".

"لقد كنتِ نِصفَ مُدرِكةٍ أن الطفلة غير سعيدة. لقد خَمَّنتُ ذلك أنا نفسي. وأنتِ كذلك على ما أظن".

هزَّ دونت رأسه.

"لديها خبرة كبيرة بالأطفال. عندما نزعت عصابتها سمَحَت لنفسها أن ترى ما كانت تعرفه بالفعل".

حسم هو الأمر "ونحن نثق في حُكمها؛ ولهذا نحن نأخذ الطفلة إلى بوسكوت لودچ مرة أخرى".

وقَفَت الطفلة على سطح المركب مُمسِكةً السُّور تراقب الماء وتنظر إلى الأمام عند كل انحناءةٍ في النهر. عندما فحَصَت كلَّ مركب على مدى البصر عادت عيناها إلى الماء. بدا أنها لا تنظر إلى السطح الذي غبَّشَته حركةُ الماء عندما قسمه مرور كولوديون، ولكن عبره وبعده.

وصلوا إلى مرفأ القوارب في بوسكوت، وأرسوا قاربهم. رفع دونت الطفلة وأنزلها. تعرَّفَت على طريقها إلى المنزل بلا استعجال ولا دهشة، وقادتهما إلى هناك.

شهقت الخادمة، وركَضَت مباشرة إلى غرفة الجلوس. عندما دخلتها كان الزَّوجان فون يجلسان على مقربة من بعضهما البعض على الأريكة، ويده على بطنها. رفعا بصريهما عندما قاطعتهما، وكان أثر المشاعر القوية لا يزال حاضِرًا على وجه فون المبقَّع بالدُّموع وشحوب هيلينا وعينيها المفتوحتين على اتساعهما. شعرت ريتا ودونت وهما يعودان بالطفلة إلى بوسكوت لودج على متن كولوديون أنهما في قلب حدثٍ عظيم، ولكن أربكهما أن يدخلا إلى المنزل ويعرفا أن شيئًا ضخمًا يحدث هنا أيضًا. ولكنها الحقيقة. شيء مهيب أتى ورحل في هذه الغرفة، شيء جَلَلٌ، حتى إن هواء الغرفة لا يزال يموج بمعرفة أنه لا شيء سيعود كما كان أبدًا.

وقف فون فور أن رأى الطفلة. خطا خطوةً، ثم أخرى، ثم ركض إلى الباب ليرفع الطفلة بين ذراعيه. أمسك بها على امتداد ذراعه، كما لو كان يكاد لا يُصدِّق أنها هنا، ثم وضعها على حِجر زوجته. طبَعَت هيلينا مائة قُبلة على رأس الطفلة، وقالت لها "حبيبتي" ألف مرَّة، وضحك وبكى الزَّوجان معًا.

أجاب دونت على الأسئلة التي لم يسألها الزوجان فون وقد غلبتهما مشاعرهما. "كنَّا نُصوِّر عائلة أرمسترونج هذا المساء، وهم واثقون أنها ليست أليس. مكانها هنا في نهاية الأمر".

تبادَلَ فون وهيلينا نظرةً وافقا فيها على شيء ما بصمت. عندما استدارا نحو دونت وريتا مرَّةً أخرى تكلَّما في نفس اللحظة "إنها ليست أميليا".

جلسوا على الضِّفَّة. من الأفضل حَكيُ مثل هذا الحكايات قريبًا من النهر وليس في غرفة الجلوس. تتراكم الكلمات في الداخل وقد حبستها الحوائط والأسقف. ثِقَلُ ما قيل قد يربض فوق ما قد يُقال

لاحِقًا ويخنقه. عند النهر يحمل الهواء الحكايةَ في رحلة: تطوف جُملَة بعيدًا وتفسح مجالًا للتالية.

نزعت الطِّفلة حذاءها ووقَفَت في الماء الضَّحل تُرشِد النهر، وتقوم بعملها المعتاد بالعِصيِّ والأحجار، وتتوقَّف كلَّ فترة لتنظر إلى الأعلى وإلى النهر في كل اتِّجاه، بينما يحكي فون لدونت وريتا ما حكاه لهيلينا، ومن قبلها للسيدة كونستنتين.

عندما صمت وقد قال كلَّ شيء قالت هيلينا: "عرفت أنها ماتت. عرفت ليلة أن عاد إلى المنزل بدونها. كان الأمر مكتوبًا على وجهه. ولكني لم أكن أستطيع احتمال المعرفة، وهو لم يَقُلها، وادَّعَينا فيما بيننا أن الأمر ليس كذلك. تآمرنا معًا. صنعنا زَيفًا معًا، وكاد أن يُحطِّمَنا. لم نكن نستطيع أن نحزن بدون الحقيقة. لم نكن نستطيع أن نُعزِّي بعضنا بدون الحقيقة. في النهاية تعذَّبتُ بالأمل الكاذب وتعلَّقتُ به، وكنتُ مُستعدَّةً لإغراق نفسي. ثم أتت الفتاة وتعرَّفتُ عليها".

"كنَّا سعيدين. أو فلنَقُل: كانت هيلينا سعيدةً، وكنت أنا سعيدًا لسعادتها".

"كانت كذبة أنتوني المسكين هي الأكبر، ولكنها لم تكن مستديمةً مثل كذبتي. لقد احتفَيتُ برؤية الطفلة، ودفنتُ كلَّ الحقائق المؤلمة. لم أرَ سواها".

"ثم قالت السيدة إيفيس "هالو يا أليس!"".

"لم تكن السيدة إيفيس هي مَن غَيَّرَت الأمر. كنتِ أنتِ يا ريتا".

"أنا؟".

"قُلتِ لي إن طفلًا آخر في الطريق".

تذكَّرَت ريتا اللحظة "قُلتِ "أوه"، ثم قُلتِ "أوه" مرَّةً أخرى".

""أوه" واحـدة للطفـل الجديـد، والأخـرى للمعرفـة التـي أتـت معـه. إن هـذه الطفلـة لم تتقلَّـب داخـل رحمـي أبـدًا. كنـتُ أعـرف أنهـا ليسـت أميليـا، مـع أني افتقدتهـا كـما لـو كانـت هـي. لقـد أعادتنـي للحيـاة، وأعادتنـي لأنتـون،ي ولم أملـك سـوى أن أُحبَّهـا، طفلتنـا الصغـيرة المُلغِـزَة، أيًّـا مَـن كانـت".

"لقـد غيَّرتنـا. بكينـا أميليـا، وسـنبكيها ثانيـة. هنـاك محيطـات مـن الدمـوع تنتظـر أن تسـيل، ولكننـا نحـب هـذه الطفلـة كـما لـو كانـت طفلَتَنـا، وسـتصبح أُخـتَ الطِّفـل القـادم".

مشـوا إلى المنـزل مـرَّةً أخـرى: الزوجـان فـون في المقدِّمـة وبينهـما الطفلـة التـي ليسـت أميليـا وليسـت أليـس. بـدا أنهـا تَقبَّلَـت عودتهـا إلى بوسـكوت لـودج كـما تقبَّلَـت رحيلهـا عنـه.

تبعهما ريتا ودونت، وتأخَّرَا عنهما.

قـال دونـت بصـوتٍ منخفـض: "لا يمكـن أن تكـون شـقيقةَ ليـلي. هـذا غـير منطقـي".

"إذًا مَن هي؟".

"ليسـت طفلـةَ أحـد. لِـمَ لا يأخذهـا الزَّوجـان فـون؟ إنهـما يحبَّانهـا. يمكنهـا أن تحيـا حيـاة جيـدة معهـما". كان في صوتـه نـبرة تعرَّفَـت عليهـا؛ لأن نفـس النـدم والاشـتياق يرقـد في صدرهـا هـي. تذكَّـرَت الليلـة التـي نامـت فيهـا عـلى المقعـد في ذا سـوان بينـما يـتردَّد في الغرفـة صـوت تنفُّـس دونـت والطفلـة نائمـة في حِجرهـا يرتفـع صدرهـا ويهبـط بتناغُـمٍ مـع صدرهـا هـي. أسـتطيع أن أحتفـظ بهـا. هـذه هـي الفكـرة التـي سَـبَحَت إلى داخلهـا في تلـك اللحظـة ولم تغـادر أبـدًا. كان آل فـون أقـدَرَ عـلى العنايـة بهـا منهـا. كان عليهـا أن تكتفـي بحُـبِّ الفتـاة عـن بُعـدٍ.

أخـذت ريتـا نَفَسًـا قصـيرًا وزفرتـه، وحوَّلَـت تفكيرهـا إلى أمـور أخـرى بتصميـم. فكَّـرَت في تَبِعـات مـا قالـه فـون لتَـوِّه، وشـارَكَت أفكارهـا مـع دونـت همسًـا. بـدأت كلامهـا "أيًّـا كان مَـن خطـف أميليـا...".

أكمل دونت بنفس النبرة "هو مَن قتَلَها أيضًا".

"لا يمكن تَركهم يُفلِتون بفِعلَتِهم. لا بُدَّ أن شخصًا ما يعرف شيئًا".

"دائمًـا يوجـد شـخص يعـرف. ولكـن مَـن؟ ومـا الـذي يعرفونـه؟ وهـل يدركـون أهمِّيَّـة مـا يعرفـون؟".

توقَّـف دونـت وقـد فاجأتـه فكـرة "قـد توجـد طريقـة..."، وحَـكَّ رأسـه في شـكٍّ.

لحقوا بالزوجين فون، وطرح عليهم دونت فكرته.

سألت هيلينا "ولكن... هل ستنفع؟".

"لا توجد طريقة كي نعرف".

قال فون: "إلا إذا جرَّبنا".

وقـف أربعتهـم أمـام المنـزل. فتحـت مُدبِّـرة المنـزل البـاب وقـد سـمعتهم يقتربـون، وعندمـا لم يتحـرَّك أحـدٌ أغلَقَـت البـاب.

قالت ريتا: "هل نفعل؟".

قالت هيلينا: "لا أستطيع التفكير في أي طريقة أخرى".

استدار فون نحو دونت "حسنًا إذًا. كيف نبدأ".

"بِتَنانين كريكلاد".

"تنانـين؟". بَـدَت عـلى فـون الحـيرة، ولكـن هيلينـا كانـت تعـرف مـا الـذي يشـير إليـه دونـت، وصاحـت "جَـدَّة روبي! روبي".

تَنانين كريكلاد

كريكلاد بلدة ممتلئة عن آخرها بالقصص. وبينما يمرُّون من أمام الكنيسة على العربة ذات الموتور شرح دونت بعضًا من القصص لريتا.

قال وهم يشقُّون طريقهم عبر البلدة والعربة مُحمَّلة بكل الآلات الفوتوغرافية: "وفقًا للأسطورة، إن كان شخص ما سيِّئ الحظِّ لدرجة أن يقع من البُرج سيتم إلهاء أصدقائه وعائلته عن حزنهم بمشهَدِ مَنحوتةٍ حضرية لعزيزهم وهي تنبع تلقائيًّا من الأرض حيث وقع. أندم إلى حَدٍّ ما أن ليس لديَّ فرصة كبيرة في أن أُصوِّر ذلك".

لم يتوقَّفوا عند الكنيسة، ولكن اتَّجهوا شمالًا إلى الطريق المؤدِّي إلى خارج القرية نحو أمبني داون، وظلُّوا منتبهين بحثًا عن كوخ بسقيفة من القَشِّ وخلايا نحل.

ترجَّت هيلينا ريتا "يجب أن تذهبي من فضلك، لن يصل دونت إلى أيِّ شيء مع روبي بمفرده. ستثق بك. الجميع يثقون بك".

ولذا ها هي تجلس بجوار دونت بين الصناديق بينما يصطدمون ويتقافزون على الطُّرُق الريفية، وتُبقي هي عيونها مفتوحة على اتِّساعها.

"ها هو"، أشارت وقد رأت القِمَم المميَّزة لخلايا النحل من خلف سور. في الحديقة كانت سيدة بشَعرٍ أشيبَ تمشي على أقدام متقلقلة نحو خلايا النَّحر. عند سماعها صوت تحية ريتا أدارات عينين شفَّافتين في اتجاهها "مَن أنتِ؟ هل أعرفك؟".

"أُدعَى ريتا سنداي، وقد أتيتُ لأشتري العسل. لا بُدَّ أنك السيدة ويلر. معي هنا السيد دونت المصوِّر، وهو يَودُّ أن يتحدَّث معك عن التنانين من أجل كتابه".

"كتاب؟ لا عِلمَ لي بذلك... ولكني لا أمانع أن أحكي لك عن التنانين. قد أكون في التسعين، ولكني أستطيع تذكُّرَ ذلك كأنه حدث بالأمس. تعالي واجلسي هنا، وسنتناول الخبز والعسل بينما تسألين أسئلتَكِ".

جلسوا على مقعد في رُكنٍ مُظلَّل، وذهبت المرأة نحو الباب لتتحدَّث بإيجازٍ مع شخص ما بالداخل. عندما عادت حَكَت لهم عن التنانين. كانت طفلةً في الثالثة أو الرابعة من عمرها عندما أتت التَّنانين إلى هذا الكوخ نفسه. شوهدت لأول مرة في كريكلاد منذ مائة عام تقريبًا. ولم يرها أي شخص منذ ذلك الوقت، واليوم هي الشخص الوحيد الباقي في كريكلاد الذي رآهم. استيقظت وهي تسعل مع حرارةٍ في حلقها، ورأت لهبًا في ثقوب السقف حيث لا يجب أن يكون هناك أي شيء سوى قَشِّ السقف. "خرجتُ من سريري إلى الباب، ولكني استَطعتُ سماع التِّنِّين يزأر في الخارج عند بسطة السُّلَّم فلم أجرؤ على فتح الباب. ذهبت بدلًا عن ذلك إلى النافذة، وهناك

رأيت أبي ينظر من الخارج: كان قد تسلَّق أغصان الشجرة التي تنمو خارج شُبَّاكي بالرغم من أن الأغصان نفسها كانت تحترق وعلى وشك الاشتعال في أي لحظة. حطَّم هو الزجاج بقدمه، ومدَّ يده إلى الداخل ورفعني خارجًا. لم يكن النزول سهلًا، وعندما وصلنا إلى الأرض أخذني الجيران من بين يديه ووضعوني على الأرض ودحرجوني عدَّةَ مرات. لم أستطِع فهم ما يفعلونه! ولكن كان قميص نومي قد اشتعل بالنيران مع أني لم أدرك ذلك وقتها، وقد دحرجوني كي ينطفئ اللهب.

حَكَت السيدة قصَّتها بسَكينةٍ كما لو كانت تخصُّ شخصًا آخر من زمن بعيد، ومن وقت لآخر عندما يسألون سؤالًا كانت تدير عينيها الباهتتين الصريحتين نحو المتحدِّث تأدبًا، مع أنه كان واضحًا أنها لا ترى. جلَبَت فتاةٌ نحيفة بمظهرٍ ضامرٍ صينيَّةً إلى الطاولة، ورتَّبَت عليها قِطعًا من الخبز وصحنًا من الزُّبد وبرطمانًا من العسل، مع ملعقة. هزَّت رأسها للزائرين دون أن تبتسم، وعادت إلى المنزل من دون أن ترفع عينيها.

عرَضَت ريتا: "هل أضع الزُّبد على الخبز؟"، وشكرتها الجَدَّة ويلر.

قالت وهي تشير برأسها نحو المبنى الخارجي الحجريِّ "كانت جَدَّتي تُخزِّن العسل هناك، في علبة ضخمة بحجم حوض استحمام، ففَتَحَته من الأعلى ورمتني فيه عاريةً تمامًا، وبقيتُ هناك كل ما بقي من الليل. لم يكن هناك عَسلٌ للبيع ذلك العام؛ لأنه لم يرغب أحدٌ في أكله بعد أن جلَستُ فيه حتى عنقي".

"وهل رأيتِ التنانين؟ هؤلاء الذي سمعتِهم من خلف الباب؟ يمكنني بذل كل شيء مقابل صورة تنِّين... سأكون رَجُلًا ثريًّا!".

ضحكت "إن رأيتهم فسيكون لديكَ أشياء تفعلها أفضل بكثير من أن تقف وتلتقط الصُّوَر! نعم، رأيتهم. كنتُ جالِسةً في العسل عندما رأيتهم يطيرون مبتعدين. كان هناك المئات منهم". نظَرَت إلى الأعلى

كأنها لا تـزال تراهـم. "ثعابين ضخمـة طائـرة. لا آذان، ولا عيـون يمكـن أن أراهـا، ولا حراشـيف، ولا حتـى أجنحـة تُذكَـر. لا تشـبه التنانـين التـي رأيتُها في الصُّـوَر إطلاقًـا.

مجـرَّد أشـياء طويلـة وداكنـة ومصقولـة وسريعـة. كانـوا يتلـوُّون ويتثنُّـون، وكانـت السـماء مُمتلئـةً بهـم، حتـى إن النظـر إليهـم جميعًـا بالأعـلى كان كالنظـر في قِـدرٍ مـليء بالحبر المغـلي. هـل أعجبـكَ عسـلي؟".

انتهـوا مـن الأكل، واسـتعادت السـيدة العجـوز المزيـد مـن ذكرياتهـا عـن ليلـة التنانـين.

أشـارت إلى السـقف "انظـروا هنـا! لم أَعُـد أسـتطيع رؤيتهـا -عينـاي ليسـتا بخـير- ولكـن تسـتطيعوا أنتـم أن تروهـا. العلامـات السـوداء فـوق النوافـذ".

حقًّا وجدوا أثر نارٍ تحت مستوى السقف.

اقـترح دونـت "سـيصنع هـذا تفصيلـةً جيـدة في الصـورة. أنـتِ هنـا بجـوار خلايـا النَّحـر، والمـكان الـذي اشـتعَلَت فيـه النـار في الخلفيـة. سـتظهر السـماء أيضًـا في الصـورة... حيـث كانـت التنانـين".

أقنعـوا الجَـدَّة ويلـر بمقاوَمـةٍ ضعيفـة منهـا بالظهـور في الصـورة، وبينما يحـضر دونـت أدواتـه اسـتمرَّت ريتـا في الـكلام معها.

"لا بُدَّ أنَّكِ أُصِبتِ بحروق شديدة؟".

رفعـت الجَـدَّة ويلـر كُمَّهـا وأرتهـم ذراعهـا "هـذا هـو شـكلي، بطـول ظهـري، مـن رقبتـي إلى خـصري". فقَـدَت مسـاحة واسـعة مـن الجلـد لونَهـا، وكانـت مشـدودة وبـلا خطـوط.

قالـت ريتـا: "هـذا غريـب جـدًّا. إنهـا مسـاحة كبـيرة جـدًّا بالنسـبة لحـرق. هـل سـبَّبَت لـكِ أي متاعـب منـذ ذلـك الوقـت؟".

"لا".

"بسـبب العسـل؟ أنـا أيضًـا أسـتخدم العسـل عندمـا يتعـرَّض مرضـاي للحـروق".

"هل أنتِ مُمرِّضة؟".

"نعـم، وقابِلَـة. أعمـل عـلى بُعـد بضعـة أميـال في اتجـاه التيـار. في بوسـكوت".

جفَلَت السيدة "بوسكوت؟".

سـاد صمـت. ابتلَعـت ريتـا قطعـة خُبـزٍ وعسـل، وانتظـرت حتـى أكملـت السـيدة العجـوز.

"قد تعرفين شيئًا عن الطفلة التي اختفت منذ عامين...".

"أميليا فون؟".

"هـذه هـي. يقولـون إنهـا عـادت... ولكننـي سـمعتُ أنهـا قـد لا تكـون هـي... مـا قَولُـكِ؟ هـل هـي أميليـا أم لا؟".

"تقدَّمَـت امـرأة وبـدا أنهـا تعرَّفَـت عـلى الطفلـة، وأنهـا طفلـة أخـرى، ولكـن العائلـة الأخـرى وصلـت لاعتقـادٍ أنهـا ليسـت ابنتهـم؛ لـذا فقـد عـادت إلى عائلـة فـون مـرَّةً أخـرى. لا أحـد يعـرف مَـن هـي في الحقيقـة، ولكنهـا ليسـت أميليـا".

"ليسـت أميليـا! كان عنـدي أمـل كبـير... مـن أجـل الزوجـين فـون، ولكـن مـن أجـل مصلحـة عائلتـي أيضًـا. كانـت حفيـدتي مُربِّيـة عائلـة فـون، ولم تتوقَّـف متاعبهـا منذ خُطِفَـت هـذه الطفلـة. قيلـت عنهـا أشـياء مـن كل الأنـواع. لم يصـدِّق أيٌّ مِمَّـن يعرفونهـا أي كلمـة، ولكـنَّ الكثيريـن سـمعوا بالقصـة أوَّلًا ثـم رأوهـا في ضـوء القصـة. كل مـا أرادتـه في حياتهـا كان شـابًّا لطيفًـا وعائلـة، ولكـن ليـس لـدى الكثـير مـن الرجـال اسـتعدادٌ لاتِّخـاذ زوجـة متورِّطـة في شيء مثـل هـذا! أمرَضَـت نفسـها مـن الخـوف مـن كل ذلـك. لا تنـام، وتـكاد تـأكل شـيئًا. لا تخـرج؛ خوفًـا مـن أن يقـول

لها أي أحد شيئًا قاسيًا... تكاد لا تخرج من غرفتها في بعض الأيام. لم أسمعها تضحك منذ شهور متواصلة... ثم أتى خبر عودة الطفلة! يقولون إنها عادت عن طريق النهر. كان على الذين ثرثروا عن روبي أن يغلقوا أفوههم الآن. بدأ التيار يتغيَّر، وخرَجَت روبي من قوقعتها، حتى إنها حصلت على عملٍ كمساعِدَةٍ في المدرسة التي كانت تدرس بها. عاد إليها بعضٌ من نضارتها، وبدأت تهتمُّ بالحياة مرة أخرى. كانت أحيانًا تذهب مع الشابَّات الأخريات من المدرسة في جولات بالشوارع، وهل يمكنني أن أرفض بعد كل المصاعب التي عانت منها؟ لِمَ لا تمرح قليلًا مثل الشابَّات الأُخرَيات؟ قابَلَت أرنست، وأعلنا خطوبتهما. كانا سيتزوَّجان في يوليو، ولكن عند وقت الانقلاب الشمسي تحديدًا أخذتها فتاةٌ غيورة جانبًا وهمست أن الطفلة التي وجدوها في بوسكوت ليست أميليا... وأن الفتاة المفقودة لا تزال مفقودة. بدأ الكلام مرَّةً أخرى. كانت الشكوك لا تزال تحيط بروبي. ألغت العرس في اليوم التالي مباشرة... "كيف أتزوَّج وأنجب أطفالًا والجميع لا يزالون يتهامسون عني؟ لن يثقوا في رعايتي لأطفالي أنفسهم! المسألة ليست عادلةً لإرنست. إنه يستحقُّ مَن هي أفضل مني". هذا النوع من الكلام. فعل إرنيست كلَّ ما في وسعه ليُغيِّر رأيها. قال إنه لن يستمع للثرثرة، وهو يقول إن العرس تأجَّل، ولكن الخطوبة لا تزال قائمة، ولكنها ترفض أن تراه، مع أنه يأتي كل يوم. قالت المدرسة إنه من الأفضل أن ترحل، وهي لا تغادر حوائط الحديقة الآن".

تنهَّدَت المرأة العجوز "كنتُ آمل في أخبار أفضل، ولكنكم أكَّدتُم ما أعرفه بالفعل". همَّت بالنهوض ببطء مُتَّكِئة على عظامها العتيقة. "يجدر بي أن أجلب لكم بعض العسل بينما تنتظرون".

قالت ريتا: "اجلسي قليلًا. أنا أعرف عائلة فون. إنهم يثقون بروبي، ويعرفون أنها لم تتسبَّب في أيِّ أذى".

أكَّـدَت السـيدة وهـي تعـود إلى مقعدهـا "هـذا أمـرٌ مهـمٌّ، إنهـم أشـخاص طيِّبـون، ولم يقولـوا أي شيء قـاسٍ عنهـا".

"لا يريـد السـيد والسـيدة فـون شـيئًا أكـثر مـن أن يصلـوا إلى حقيقـة مسـألة الخطـف؛ لأنـه حتـى إن لم يكـن لحفيدتـك صِلَـةٌ بالأمـر فهنـاك شـخصٌ مـا لـه صِلـة... ويجـب أن يُقبَـض عـلى هـذا الشـخص ويُحاسَـب أمـام العدالـة. إن حـدث ذلـك فسيسـاعد روبي كثـيرًا في موقفهـا".

هـزَّت شـاهدة التنانـين رأسـها "بحثـوا في الأمـر وقتهـا ولم يجـدوا شـيئًا. أتصـوَّر أنـه كان مِـن فِعـل غجـر النهـر ولـن يمسـكوا بهـم الآن".

"ولكن إن كان بالإمكان تجربة شيء جديد...؟".

رفَعَـت السـيدة العجـوز بصرهـا وحدَّقَـت عيناهـا الشَّـفَّافتان في ريتـا بحـيرة.

"أنـا أصـدِّق كل مـا قُلتِـه بخصـوص روبي، وأنهـا فتـاة صالحـة؛ لأني سـمعتُ ذلـك مـن قبـل مـن عائلـة فـون نفسـهم. ليـس عـدلًا ألَّا تتـزوَّج، وليـس عـدلًا ألَّا يكـون لهـا الأبنـاء الذيـن تريدهـم، والتـي سـتكون أُمًّـا جيِّـدةً لهـم. قـولي لي: إن كانـت هنـاك طريقـة لإظهـار الحقيقـة وكشـف الجنـاة الحقيقـين وتبرئـة ذِمَّـة روبي... هـل ستسـاعديننا؟ هـل تلعبـين دورًا في ذلـك؟".

اهتزَّت عين المرأة.

انفتـح بـاب المنـزل وخرجـت منـه الشـابَّة الهزيلـة التـي قدَّمَـت لهـم الخبـز والعسـل.

"ما الذي سيكون عليَّ فعله؟".

وبينـما كان دونـت يوقـف الجَـدَّة ويلـر بجـوار خلايـا نحلهـا وتحـت العتبـة الملطَّخـة بلهـب التِّنِّـين جلسـت ريتـا مـع روبي، مُقرِّبـةً رأسـها مـن رأس الفتـاة لتـشرح لهـا الخطـة.

عندما انتهت حدَّقَت بها الفتاة "ولكن هذا سحر!".

"لا ليس سحرًا، ولكنه يبدو كذلك".

"وسيجعل الناس يقولون الحقيقة؟".

"من الممكن. إن كان أي شخص يعرف شيئًا لم يَقُله بعد. ربما شيء لم يعرف أنه مهمٌّ. إن كان ذلك الشخص حاضرًا وكُنَّا محظوظين، فنعم...".

أخفضت روبي عينيها مرَّةً أخرى نحو يديها ذواتَيْ المفاصل البيضاء والأظافر المقروضة، والتي ضمَّتهما بقوَّةٍ في حِجرها. لم تَقُل لها ريتا أي شيء آخر كي تحثَّها، لكن تركتها مع أفكارها. عبثت بكفَّيها ولوتهما، وأخيرًا سكنت.

"ولكن ما الذي تحتاجين أن أفعله؟ أنا لا أستطيع أن أمارس السحر".

كان نور أمل خفيض قد ظهر في عين روبي، والآن ارتعشت شفتاها، ومات الأمل. أسقطت رأسها في يديها.

"لا أحد! قُلتها مرارًا وتكرارًا ولا يُصدِّقونني! لا أحد!".

أمسَكَت ريتا بيَدَيْ الفتاة وأبعدتهما برقَّة عن وجهها. أبقتهما مضمومتَيْن في يديها واستدارات لتنظر مباشرةً في وجهها الدَّامِع.

"إذًا فلماذا خرجتِ؟".

"لن تصدقيني! لن يُصدِّقني أحدٌ. سيقولون إنني كاذبة سخيفة".

"روبي، أنا أعرف أنك فتاة شريفة. إن كان هناك شيء لا يُصدَّق خلف كل هذا فأنا الشخص المناسب كي تخبريه. ربما سنتمكَّن من العمل معًا مستخدمين عقلينا".

كانـت السـنوات التـي تلـت عمليـة الخطـف قـد أهلكـت روبي. كان وجههـا شـاحِبًا، وحُفِـرَت دوائـر داكنـة حـول عينيهـا. كان مـن الصعـب تصديـق أنهـا لم تبلـغ العشريـن بَعـدُ، وحُطِّـم مـرَّةً أخـرى المسـتقبل الـذي ظنَّـت أنـه مُمكِـنٌ حـين عـادت أيمليـا وخُطِبَـت هـي. لم تُعـطِ أي إشـارة أنهـا تُصـدِّق أن بإمـكان ريتـا مسـاعدتها. ومـع أنهـا لم تقتنـع بـأن كشـف مـا حـدث سيسـاعدها بـأي شـكل، إلَّا أنهـا وصلـت أيضًـا درجـة مـن الإنهـاك، حتـى إنهـا أكـثر تعبًـا مـن أن تحافـظ عـلى صمتهـا؛ لـذا، وبكتفـين متهدلتـين، وصـوتٍ منخفـض، وبعـد نفـاد قوَّتهـا- حَكَـت روبي.

بئر الأمنيات

يوجـد بـئر أمنيـات في كلمسـكوت. وكانـت سُـمعة البـئر أن لـه قُـوًى سـحريّة كثيرة، منهـا إمكانيـة عـلاج الأمـراض العضويـة مـن جميـع الأنـواع المعروفـة، بالإضافـة إلى المسـاعدة في حـلٍّ جميـع المشـاكل الزوجيـة والعائليـة. عـزَّزَت صفـةٌ واحـدة فريـدة مؤكَّـدة مـن صفـات البـئر الإيمـانَ بقدراتـه: أيًّـا كان الطقـس، وفي أيِّ موسـم، كانـت الميـاه في بـئر كلمسـكوت دائمًـا مُثلَّجـة.

كان البـئر جميـل المنظـر، بأحجـاره وقُبَّتـه، وقـد صوَّره دونـت أكـثر مـن مـرة. في الربيـع تصنـع زهـور التـوت المتناثـرة خلفيَّـةً جيـدة لـه، ووتتسـلَّق الـورود دعائِمَـه في الصيـف. كان قـد التقـط لـه صـورةً ثالثـة يبـدو فيهـا جميـلًا بشـكل صـارخ في عبـاءة شـتويَّةٍ مـن الثلـج، ولكنـه يفتقـد لصـورة خريفيـة تكمـل الرباعـي.

"دعينا نتوقَّف" اقترح عليها، وأشار إلى البئر المكلَّل بأوراق الأشجار دائمة الخضرة، والتي ربطها أهالي القرية بالأشرطة وزينة من القَشّ. "لدينا ضوء".

أعدَّ الكاميرا وعاد إلى كولوديون ليُعدَّ اللوح، بيما تلكَّأت ريتا بجوار البئر وسحَبَت سطلًا من الماء واختبَرَت درجة حرارته. كان كما تقول الأسطورة: الماء باردٌ بردًا قارسًا.

مرَّ وقتٌ منذ صوَّر دونت ريتا آخر مرَّة، وفكَّر في أنه يعرف السبب. كانت جلسات تصويرهم حميميَّةً. كم مرة أمسك يدها كي يقرِّرَا شكل الوقفة، ويميلها في جميع الاتجاهات ويشاهد سقوط النور على بشرتها وهو يتجمَّع ويفيض وفقًا لخطوط وجهها. كانت ترخي عضلات رقبتها لتسمح له أن يحرِّكها في كل اتجاه، ومن حين لآخر تلتقي عيونهم وتعترف بدون أي كلمة بالمشاعر التي لم ينطقوها. عندما عرَّض اللوح للضوء وكان هو مُختبًأ تحت الستارة السوداء -عندما ساد الصمت والثبات- شعرت مع ذلك بحدَّة التَّواصُل، بينما يفيض من نظرتها كل ما لا تقوله. بالطبع توقَّفَ عن التقاط صور لها. كان ذلك ضروريًا.

صورة اليوم تَحوُّل مفاجئ ومُحيِّر. ربما كان يعني أنه نجح في تحرير قلبه، ويمكنه الآن أن يتصرَّف بطريقة عادية. لم تستطِع مَنعَ نفسها من الاستياء أنه قد وصل إلى ذلك بهذه السهولة بينما لا يزال تيَّارُ مشاعرها متدفِّقًا بشكل خطير.

سألت بتردُّد "أين أقف؟".

قال وهو يشير إلى الستارة الدَّاكِنة: "خلف الكاميرا مباشرة".

"تريدني أن ألتقط الصورة بنفسي؟".

"لقد رأيتِني أنزع غلاف اللوح وأرفع غطاء العَدَسَة. لا تسمحي للضوء أن يدخل من تحت الستارة. عدِّي خمس عشرة ثانية ثم أعيدي الغطاء. لا تَبدئي قبل أن أرفع الماء وأغوص فيه".

"ماذا تعني؟".

"تغمرين وجهك تحت الماء، ومن المفترض أن يُريكِ تحقُّقَ أمانيكِ".

راقَبَت ريتا دونت من تحت القماشة السوداء وعبر الزجاج وهو يغمر أصبعه ثم يهزُّ القطرات المثلَّجة ويرتعش. ذكَّرها ذلك باليوم الذي نزع فيه ملابسه بجوار النهر حتى كاد أن يصبح عاريًا وغطس حتى رقبته ليساعدها في تجربتها التي أظهَرَت عكس ما كانت تتمنَّى. كان وجهه الذي زال منه اللون جامِدًا من البرد في ذلك اليوم، ولكنه لم يشتَكِ، وبقي غاطسًا داخل الماء حتى تفاحة آدم بينما تعدُّ هي حتى الستين.

صاحت "ماذا ستتمنَّى؟".

"أَلَا يَفسَدُ السِّحر إن حكيتُ لك؟".

"في الأغلب".

"حسنًا، إذًا لن أقول لك".

كان لديها أمنيات كثيرة ولم تعرف من أين تبدأ. أن ترى مَن خطفوا أميليا يعاقَبون على جريمتهم. أن تعتني بالطفلة وتحفظها من الأذى دائمًا. أن تجد لنفسها مَخرجًا من التردُّد الأزليّ بين مَحبَّة دونت والخوف من الحَمل. أن تفهم ما حدث لنبض قلب الطفلة في ليلة الانقلاب الشتوي.

"أنا مستعدٌّ". أخذ دونت نَفَسًا وغطس وجهه في الماء المثلج.

عند واحد رفعت ريتا غلاف اللوح ونزعت غطاء العدسة.

عند اثنين أدرَكَت الفكرة التي ترتفع من أعماق ذهنها.

عنـد ثلاثـة طَفَـت الفكـرةُ عـلى السَّـطح، وعرفَـت فـورًا -وبـلا أدنى شـكٍّ- أنهـا مهمَّـة.

عنـد أربعـة هجـرت الكامـيرا بينـما يعمـل عقلُهـا أسرع من أن تسـتطيع اللحـاق بـه، غـيرَ عابِئـةٍ بـأي ضـوء يدخـل مـن تحـت الغطـاء الـذي رُمِـي باسـتعجالٍ، وركَضَـت نحـو البـئر، مُخرِجَـةً سـاعتها مـن جيبهـا في نفـس الوقـت.

عنـد خمسـة كانـت عنـد البـئر مُمسِـكَةً برسـغ دونـت بـين إبهامهـا وأطـراف أصابعهـا لتقيـس نبضـه وهـي تفتـح غطـاء سـاعتها.

نسيت ستَّة تمامًا: كانت تعدُّ أرقامًا أخرى الآن.

دقَّ نضبـه تحـت أطـراف أصابعهـا، ودار عقـرب الثـواني في سـاعتها حول مينـاء السـاعة، وخـلا عقلهـا مـن أي شيء سـوى مجموعتـين مـن الأرقـام والعلاقـة بينهـما. لم يقفـز قلبهـا حتـى عندمـا أتـت الصَّدمـة، ولكنـه ركَّـز انتباهـه أكـثر حتـى لا يتباطـأ عَدُّهـا. لم يَعـنِ الزمـنُ والمـكان أي شيء. هـي نفسـها كانـت لا شيء. دونـت كانـت لا شيء. وتقلَّـص الكـون إلى دَقِّ قلبـه في الدقيقـة الحاليـة وذهنهـا هـي وهـو يعـدُّ ويعـرف.

بعـد ثمـاني عـشرة ثانيـة، ارتفـع دونـت مـن المـاء بوجـه متجمِّـدٍ وشـاحب. ملامحـه كانـت قناعًـا مُتخشِّـبًا، وبـدا أقـرب لجُثَّـةٍ منـه لرَجُـلٍ حـيٍّ، إلى أنـه شـهق مُتنفِّسًـا وترنَّـح ثـم جلـس.

بقيـت ريتـا مُمسِـكةً برسـغه، ولم ترفـع بصرهـا، ولكـن حافَظَـت عـلى العَـدِّ.

بعـد دقيقـة أعـادت سـاعتها إلى جيبهـا وأخرجـت قلـمًا وكتبـت الأرقـام عـلى عَجَـلٍ بأصابـع مرتعشـة، وضحكـت ضحكـةً مقتَضَبـة ومندهشـة قبـل

أن تستدير نحوه بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وتهزُّ رأسها على غرابة الأمر برُمَّته.

قال: "ما الأمر؟ هل أنت بخير؟".

"هل أنا بخير؟ دونت هل أنت بخير؟".

"وجهي باردٌ. أظنُّ أني على وشك...".

فزعت لأنه مال مُبتَعِدًا كما لو كان يشعر بالغثيان، ولكن بعد لحظة استدار نحوها مرَّةً أخرى "لا، استقرَّت الأمور".

أخذت يده في يدها وتَفحَّصَته عن قُرب "نعم، ولكن... دونت... بماذا تشعر؟".

بادَلَها النظرة الحادَّة المحتارة بنسخة أكثر هدوءًا من نفس الشيء.

"في الحقيقة إنني أشعر بشعور غريب بعض الشيء. لا بُدَّ أنه البرد. أنا بخير".

رفعت قطعة الورق.

"لقد توقَّفَ قلبُكَ".

"ماذا؟".

نظَرَت على ملاحظاتها "إنه لديَّ هنا عند... فلنَقُل ست ثوانٍ بعد الإغراق. في حدود ذلك الوقت. كان نبضك في المعدل الطبيعي وقتها: سبعون دقَّة في الدقيقة. عند إحدى عشرة ثانيةً توقَّف كُلِّيًا لثلاث ثوانٍ كاملة. عندما استأنف النبض كان مُعدَّلُه ثلاثين نبضةً في الدقيقة، وبقي على هذا المعدَّل لسبع ثوانٍ. ارتفع تدريجيًّا من بعدها".

أمسكت بيده لتفحص نبضه مرَّةً أخرى، وعدَّت "عاد إلى المعدَّل الطبيعي. سبعون دقَّة في الدقيقة".

شعر دونت بقلبه يدقُّ، وانتبه له كما لم ينتبه له من قبل. وضع يده داخل سترته، وشعر بقوة المضخَّة في صدره مقابل يده.

قال: "أنا بخير؟ هل أنت متأكِّدة؟".

كان سؤال سخيفًا. إنها ريتا. لا تقع في أخطاء في أمور مثل هذه "ما الذي جعلك تفكِّرين في ذلك؟".

"ذكَّرني الماء البارد بالتجربة الأولى في النهر. خطَرَت لي فجأة حقيقة أنك لم تغطس بأكملك في الماء، وإنما حتى رقبتك فقط، واليوم كان الجزء الغاطس داخل الماء المثلج هو الجزء الوحيد الذي لم يغطس داخله من قبل، وأظن أنني ربطتُ بين ذلك وبين إصابات الرأس التي عالَجتُها في الماضي، ومعرفة أن الكثير ممَّا يجعلنا آدميين يوجد هناك... اجتمَعَت كلُّ الأمور فترَكتُ الكاميرا وركضت...".

كان اكتشافًا، وملأها الفرح. دفعتها الغريزة لتمدَّ يدها نحو يد دونت، ولكنها لم تمسك بها؛ فقد كان واضحًا أن بهجتها ليست مشتركة. قام من على العشب، يبدو متعبًا ومُستَنزَفًا. قال بلا تعبير وهو يتَّجِه نحو الكاميرا: "يُستَحسَن أن أستعيد اللوح الذي تعرَّض لضوءٍ زائد".

فكُّوا الأغراض وأعادوها إلى أماكنها بصوت متوتِّر، وعندما انتهوا من حفظ كلِّ شيء وقف دونت ساكنًا.

قال لها فجأة: "لم أتمنَّ أي شيء. أنا لا أؤمن بآبار الأمنيات. مع أنه يبدو أن أمنيتك قد تحقَّقَت. إن كنتُ من النوع الذي يتمنَّى كنتُ قد تمنَّيتُكِ أنت وطِفلًا. الاثنين. معًا. ولكني لا أعرف إن كنتُ قادرًا على أن أتمنى شيئًا لا ترغبين فيه. لقد تخيَّلتُه يا ريتا. نحن الاثنان نترك مشاعرنا تقودنا والطبعية تأخذ مجراها وندرك أن هناك طفلًا في الطريق... ما قيمة السعادة إن كانت لا تأتي إلا على حساب أسى شخصٍ آخر؟".

استدار مُتجهًما بعيدًا عنها، واتَّخذ موقعه عند دفَّة القيادة. حملتهم كولوديون عكس التيار نحو كوخ ريتا، تقطع النهر وتخضُّ الصوت والرذاذ، وتترك خلفها أثر صخب طويل. رَحَلَا في صمت، وعندما وصَلَا إلى كوخ ريتا همهما تمنِّياتٍ جافَّةً بليلة سعيدة، وذهب هو إلى ذا سوان.

دخلت ريتا إلى الكوخ، ووضَعَت كرَّاستها على الطاولة التي تستخدمها كمكتبٍ، وفتحت الصفحة التي تضمَّنَت ملاحظات اليوم. تسبَّبَت نشوتها الثانوية في أن يقفز قلبها قليلًا. يا له من اكتشافٍ! وتَبِع ذلك أن غاص قلبها. أي بئر أمنيات يعطيك أحد أكثر الأشياء التي ترغب فيها بدون حتى أن تتمنَّاها، وفي نفس الوقت يجعلك تُدرِك بألمٍ كلَّ شيء آخر لا تستطيع الحصول عليه؟

عَرضُ الفانوس السِّحري

في ذا سوان تحوَّل الصيف إلى خريفٍ ولم يتوقَّف المطر. لم تَعُد تدور الحوارات المتجهِّمة حول خطر موسم حصاد سيئ؛ فقد أصبح ذلك حتميًّا الآن. لا يمكن لأي قَدرٍ من ضوء الشمس أن يُغيِّر شيئًا الآن. رقد المحصول الآن مُتقزِّمًا ومسوَدًّا في الحقول، وكيف يمكن حصاده على كل حال بينما التربة مُشبَعة بالماء؟ حاول عمَّال المزارع الذين فقدوا وظائفهم أن يجدوا عَملًا في الرَّصف وفي أماكن أخرى، ومع أن الجميع ذهبوا إلى ذا سوان لينالوا هُدنَةً من متاعبهم، إلَّا أن مزاجًا قَلِقًا عَلَق بالمكان.

انتشر في هذه الأجواء خبر أن الطفلة عادت من عند عائلة أرمسترونج لتعيش مع عائلة فون مرَّةً أخرى. ما القول في هذا الأمر؟ تصوَّروا أنه قد اتَّضح أنها ليست أليس في نهاية الأمر. تصوَّروا أنها أميليا مرَّةً أخرى. لم يقابل هذا التحوُّل في القصة حماسةً كبيرة. يجب

على القصة أن تسير في اتجاه واحد، ثم تتحول إلى اتجاه آخر بعد لحظة أزمة مُحدَّدة. هذا الانزلاق الهادئ إلى الوراء إلى القصة الأصلية يفتقد للدراما المطلوبة. لاحقًا قيل إن عائلة أرمسترونج سُمِعَت تنادي الطفلة "ميلي". وثار بعض الجدل حول ما إن كان ذلك اختصارًا غيرَ معهودٍ لاسم أميليا أو اسمًا مختلفًا كُلِّيًّا، إلَّا أنها ليست على قدر الجدل حول لون عينيها، وعندما يُقاس مقابل الجدل المتَّقِد حول ما إن كان مستحيلًا يعني أن الشيء لا يمكن أن يحدث؛ فسيكون شاحِبًا بوضوح. وقد خمد نشاطهم بسبب المطر المتواصل أيضًا. بل إن الحكايات بدأت تضعف مثل المحاصيل في الحقول. وجد الحَكَّاؤون أنفهسم في أوقاتٍ يشربون في صمت. عندما حاول چوناثان أن يحكي حكايته عن الفلاح الذي ركب حصانه وعربته إلى البحيرة، ثم شيئًا أو آخر لا يستطيع أن يتذكَّره تمامًا -وينتهي بـ "ولم يُشاهَد بعد ذلك أبدًا!"- لم يَلقَ الكثير من التشجيع.

مرض جو أيضًا. كان يرقد غاطِسًا في الغرفة الخلفية أكثر وأكثر، وعندما يظهر نادرًا في الغرفة الشتوية كان يبدو أكثر هزالًا وشحوبًا عن ذي قبل. ومع أنه يعاني كي يتنفَّس إلَّا أنه كان يحكي قصَّةً أو اثنتين، قصص غريبة مُختَصَرة تؤثِّر في المستمع، وفي نهايتها يبدو وكأنها تنفتح على الأبدية، ولا يمكن لأحد أن يُفسِّرها أو يعيد حَكيَها لاحقًا.

شهدت البذرة التي زُرِعَت منذ بضعة أشهر -والتي لم تنتج شيئًا في وقتها- زرعًا جديدًا على هذه الخلفية، وبعد أن تغذَّت على الشك في هويَّة الطفلة. كانت أخت جَدَّة إحدى حافِري الحصى قد حَكَت أنها شاهَدَت الطفلة بلا انعاكس وهي تنظر إلى النهر، والآن قال أحد أقارب مزارع الجرجير إن ذلك غير حقيقي، وأنه قد شاهد الطفلة تُحدِّق في النهر، وشهد شيئًا غامضًا: كان للطفلة انعكاسان، كلٌّ منهما يشبه الآخر في كل تفصيلة. شجَّع ذلك قصصًا أخرى على أن تنتشر. أن الفتاة ليس لها ظلٌّ، وأن ظِلَّها على شكل عجوز شمطاء، وأنك إذا

نظَـرتَ طويـلًا إلى عينيهـا الغريبتـين سـتُفيد مـن حالتـك السـارحة في أن تَقـصَّ ظِلَّـك مـن أعقـاب قدميـك وتأكُلَـه.

"لقـد حـدث ذلـك معـي!"، قالـت أرملـة عجـوز بأمـراض حقيقيـة ومُتَخيَّلـة لريتـا وهـي تحـدِّق في قدميهـا، وأشـارت "لقـد أكلـت ابنـة السـاحرة ظِـلِّي!".

شجَّعَتها ريتا "انظري إلى الأعلى، أين الشمس؟".

فتَّشَت الأرملة في السماء "غارقة، حقًّا غارقة".

"نعـم. لا توجـد شـمسٌ اليـومَ؛ ولهـذا لا يوجـد ظِـلٌّ. لا شيء في الأمـر سـوى ذلـك".

بـدا أنهـا اطمأنَّـت، ولكـن ذلـك لم يسـتمرَّ طويـلًا. الـشيء التـالي الـذي سـمعته ريتـا مـن مريضـة هـو أن الفتـاة أكَلَـت الشـمس وجلبـت المطـر كي يُدمِّـر المحصـول.

سـمعوا ذلـك في ذا سـوان، وهـزُّوا أكتافهـم. هـل هـو منطقـي؟ تذكَّـروا أنهـا كانـت ميِّتـةً وعاشـت مـرَّةً أخـرى، وهـو شيء لا يمكـن لأيِّ آدمـيٍّ عـاديٍّ أن يفعلـه إلَّا ابنـة السـاحرة! تباحثـوا، ولكنهـم امتنعـوا عـن تأييـد النظريـة.

ثـم وُضِـع كل ذلـك جانبًـا في بدايـة سـبتمبر بسـبب بدعـة. ظهـر مُلصَـقٌ مُعلّـق عـلى أحـد الأعمـدة في حائـط في ذا سـوان، يعلـن أنـه في ليلـة الانقـلاب الخريفـي سـيُقام عـرض لصنـدوق الدنيـا. وسـيقدِّمه مجَّانًـا السـيد دونـت مـن أوكسـفورد كبـادِرَةِ شُـكرٍ للأشـخاص الـذي سـاهَمَت سُرعَـة تَصرُّفهـم وبديهتهـم كثـيرًا في مسـاعدته عندمـا أصيـب مـن تسـعة أشـهر.

شرحت مارجو لجوناثان "أنه قصَّة تُحكى بالصور. صور على زجاج كما أعتقد ويُمرَّر ضوءٌ عبرهم. لا أعرف كيف تعمل سيكون عليك سؤال السيد دونت".

"أي نوع من القصص هي؟".

ولكن ذلك كان سرًّا.

أُغلِقَت الحانة يوم الانقلاب الخريفي في وجه الشاربين -حتى الزبائن الدائمين منهم- حتى الساعة السابعة مساء. لم يُصدِّق بعض الزبائن الدائمين أن ذلك ينطبق عليهم: ذهبوا على كل حال إلى هناك، وغضبوا لمنعهم من الدخول. سمعوا صوتًا مستمرًا يأتي من الداخل، ورأوا الباب الذي ظلَّ يُفتَح ويُغلَق للسماح بدخول شباب غُرَباء يحملون صناديق ضخمة وصَحَّارات. رحلوا وحكوا لآخرين أنهم مُنِعوا من الدخول، وأن هناك شيئًا غير معتاد يحدث.

بدأ دونت استعداداته مُبكِّرًا. ركض بين كولوديون والحانة مائة مرَّة ينظِّم عمل مساعدين وأبناء أرمسترونج. أي أوعية بأي ترتيب في أي غرفة... في لحظةٍ ما احتاجوا لستَّة رجال كي يرفعوا مُستطيلًا ضخمًا وثقيلًا مُختفيًا تحت غلاف. رفعوه بعناية جادَّة، ولم يرمش دونت بينما يصعدون المنحنى زحفًا، يسيل عرقهم بوجوه مشدودة، كان نظرته بهذا القدر من الحدَّة، وعندما دخلت الحانة بنجاحٍ صدرت تنهِدةُ ارتياح جماعية ووُزِّعَت المرطِّبات على الجميع قبل أن يعودوا إلى مهام الرَّفع والحمل العادية. لم يُرفَع الغطاء والغلاف ويُكشَف عن أن الشكل الغامض هو لوحٌ ضخم من الزجاج إلَّا عندما أصبح دونت وحده مع عائلة أوكويل.

"سأضعها هنا. يجب ألَّا يدخل أحد خلف الستار. سيكون الزجاج خَفيًّا في الظلام. لا نريد أي إصابات. والآن، هل يجفُّ الطِّلاء في الغرفة الرئيسية لصندوق الدنيا؟".

وصلت ريتا بعد الظُّهر تصحبها امرأةٌ مُغطَّاة بشالٍ، حتى إنه من المستحيل رؤية وجهها. أتت أغلب صغار المارجو ليساعدن، وجلبت إحداهنَّ معها ابنها الأصغر، طفلة في الثالثة كان لها دور هام ستلعبه.

عند السادسة والنصف مُنِح چوناثان شرف فتح الباب وإبقائه مفتوحًا ليدخل الفضوليُّون. وُجِّهوا جميعًا إلى الغرفة الصيفية الكبيرة. تحوَّل ذا سوان فغطَّت ستارةٌ مخمليَّة أحدَ الحوائط لتُخفي القوس المؤدي إلى الغرفة الشتوية، وأعيد طلاء حائط آخر -أمام الكراسي- باللون الأبيض. أُزيلَت الطاولات، وخلف المقاعد وقف هنري دونت على منصَّةٍ صغيرة مرتفعة بأداة ميكانيكية غريبة وصندوق من الألواح الزجاجية.

دخل عدد كبير من الناس، وأصبح هناك ضجيج عددٍ من الحوارات معًا: عُمَّال المزارع وحَفَّارو الحصى وجميع الزبائن الدائمين مع زوجاتهم وأبنائهم وعدد كبير من الناس من القرى المجاورة الذين سمعوا بالأمر. حضر أرمسترونج مع بيسي والأبناء الأكبر. وجلس، يبدو عليه قلقٌ جاد. كان لديه فكرة مُبهَمة عن جزء من محتويات العرض... وقد ساعد بالفعل في تحضيره. كان روبين مَدعوًّا، ولكنه لم يظهر، ولم يُدهِش هذا أحدًا، أمَّا الزوجان فون فقد ابتعدوا. اتَّفَق الاثنان على أنه من الأفضل ألَّا يحضرا، وقد عَلِما مُسبَقًا بالقصَّة؛ ففي النهاية لا يوجد تأكيد بأنها ستؤدِّي إلى شيء. ساهموا بما هو ضروريٌّ، وعلى كل الأحوال فسُيَحَسُّ وجودهم بطرق أخرى. قدَّمَت صغار المارجو خمر التفاح للجميع، وفي الساعة السابعة تحديدًا ألقى دونت خُطبةً قصيرة ليشكر عائلة أوكويل. كان چوناثان على وشك إغلاق الباب حين وصَلَت ليلي وايت تلهث وهي تحمل سَلَّةً مُغطَّاة.

اضطرَّت ليلي للجلوس على كرسيٍّ في الخلف لأن جميع المقاعد كانت مشغولة. كانت تمسك بالسَّلَّة فوق ركبتيها وقد غُطِّيَت بقماشة

حمراء ومن تحتها كان شيءٌ ما يتلوَّى. وضعت يدًا فوق الجرو الذي اشترته بعد الظهيرة كهديَّةٍ لآن لتُهدِّئه فَهَدأ. هل هي آن؟ نظَرَت من فوق رؤوس الجمهور بحثًا عن رأس طفلة صغيرة بين رأسين كبيرين، ولكن وقبل أن تنتهي من تَفحُّص نصف الصفوف خفتت أضواء المصابيح وغرقت الغرفة في الظلام.

سادت في الجوِّ حالة من الترقُّب وصوت حفيف أقدام على الأرض وترتيب تنانير وبعض من النحنحة، ثم سُمِع وسط كل ذلك تكَّة ميكانيكية حادَّة و...

"أوه!".

تجسَّد بوسكوت لودج على الحائط الأبيض. بيت آل فون: حُفِرَت في واجهته الحجرية الشاحبة سبع عشرة نافذة، مُرتَّبَة بطريقة مُنظَّمة، حتى أن لا أحد يقدر على تصوُّر أي شيء سوى التناغُم تحت سقفه الرمادي الهادئ. تطلَّع البعض ليروا كيف طارت الصورة على الحائط من آلة دونت في الخلف، ولكن الأغلبية سُحِروا أكثر من أن يفكِّروا في الأمر.

تكَّة. يختفي بوسكوت لودج، وفجأة يصبح السيد والسيدة فون في مكانه. بينهم طفلة هي غبش مُتقلِّب، أميليا في عمر الثانية. تصدر عن النساء بين الجمهور همهمة عاطفية.

تكَّة. ضحكات: لم يتوقَّع أيُّ شخص هذا... إعلان، كتابة ضخمة في تيار الضوء. يقرأ دونت بصوت عالٍ من أجل من ليسوا سريعين في القراءة، وبينما يقرأ تبدأ التعليقات همسًا:

-ستيلا-

الخنزيرة الحكيمة

أكثر الكائنات إبهارًا

تتهجَّى وتقرأ وتعدُّ حسابات



وتلعب الورق
تقول الوقت بالدقيقة لأيٍّ شخص
من ساعته هو

وأيضًا

تعرف عمرَ أيٍّ شخص موجود
والأكثر إدهاشًا أنها تكشف أفكار أي شخص
شيء لم يُسمَع به من قبل

كما أنها

تقرأ الطالع في مقابلات خاصَّة

بما في ذلك

النجاح في المال والزواج

"إنها الخنزيرة التي كانت في المهرجان!".

"حكيمة؟ ماذا يعني هذا؟".

"إنها كلمة مُثقَّفة تعني أنها تفكِّر جيِّدًا. وهو شيء كنت ستعرف إن كنت أنت نفسك حكيمًا".

"هذه الخنزيرة تكتب أفضل مني أنا".

"كنتُ أتمنَّى لو أنها لا تلعب الورق بكل هذه المهارة. لقد خسرت ثلاثة بنسات أمامها".

"قالت الخنزيرة إنني أبلغ الثالثة والسبعين! لقد أغضبتني!".

"غادَرتُ قبل أن تبدأ في قراءة الأفكار. لم أطِق أن تبحث خنزيرةٌ في أفكاري، أبدًا، أبدًا، أبدًا!".

"طلبوا شِلِنًا لمقابَلةٍ خاصَّة. غباء! مَن هنا يملك شِلنًا ليصرفه على مقابلة مع خنزيرة؟".

أتى الصوت الميكانيكي ثانيةً، أفسح الإعلان المكان للخنزيرة نفسها. في الحقيقة ليست مود، ولكن ابنتها مابيل التي تشبهها تمامًا بالنسبة إلى أي شخص سوى أرمسترونج. أمام الخنزيرة تجلس شابَّةٌ يعرفونها جميعًا.

"روبي!".

يخفت ضجيجُ المناقشات فجأة.

في الصورة تمدُّ روبي يدها بشِلِن، وتمتدُّ ذراعٌ داكنة اللون لتأخذه منها. في نفس الوقت تُحدِّق هي في عين الخنزيرة.

يخترق صوتٌ الصَّمتَ في الظلام... وهو صوت روبي نفسها.

"احكي لي عن مستقبلي يا ستيلا، مَن سأتزوَّج؟ أين سأقابل الشخص الذي سيفوز بالزواج مني؟".

يشهق الحضور ويصدر صوتُ تَمَلمُل في الكراسي عندما يدير الناس رؤوسهم في اتجاه الصوت، ولكن لا يتمكَّن أي شخص من رؤية أي شيء في الظلام، وعلى كل حالٍ تَردُّ الخنزيرة من الجانب الآخر للغرفة بصوت إحدى صغار المارجو "اذهبي إلى هويس سانت چون عند منتصف ليلة الانقلاب الشتوي، وانظري داخل الماء. هناك سترين وجه الذي سيفوز بالزواج منكِ".

تكَّة. يلمع وجه ساعة في الظلام: إنه منتصف الليل.

تكَّـة. هويـس سـانت چـون: يعرفـه الجميـع. وهـا هـي روبي مـرَّةً أخـرى تجلـس عـلى يديهـا وركبتيهـا تحـدِّق بتركيـز في النهـر.

"أنا مذهول"، قال أحدهم، وقال الآخرون جميعًا: "ششششش".

تكَّـة. وعُدنـا إلى هويـس سـانت چـون. تقـف روبي بيديهـا عـلى خصرها في أداءٍ يَـدلُّ عـلى الاسـتياء.

"لا شيء!" أتى صـوت روبي مـرَّةً أخـرى. "لا شيء مُطلَقًـا! إنهـا خدعـة شريـرة!".

لم يُحـدِّق أي شـخص في مصـدر الصـوت. كانـوا جميعًـا مندمجـين في القصـة التـي تتكشَّـف أمـام أعينهـم في الظَّـلام السـحري.

تكَّة. بوسكوت لودچ مرة أخرى.

تكَّة. داخل غرفة طفلة. هيئة طفلة صغيرة تحت الملاءة.

تكَّـة. نفـس الغرفـة، ولكـن ينحنـي فـوقَ السَّريـر شـخصٌ يرتـدي ملابـسَ داكنـةً ويديـر ظهـره إلى الجمهـور.

لا تتحرَّك قَدمٌ ولا تعبث يد. يكتم ذا سوان أنفاسه.

تكَّـة. نفـس الغرفـة، ولكـن السريـر الآن فـارغٌ، والنافـذة مفتوحـة للسـماء.

يجفل ذا سوان.

تكَّـة. منظـر خارجـي للمنـزل مـن الجانـب. سُـلَّم يصـل إلى النافـذة المفتوحـة.

يهزُّ ذا سوان رؤوسه العديدة اعتراضًا.

تكَّـة. شـخصان مـن الخلـف. ذراعـه حـول كتفيهـا. رأسـاهما مائـلان نحـو بعضهـما البعـض في حـزن. لا شـكَّ في مَـن هـما. إنهما السـيد والسـيدة فـون.

تكَّة. قطعة ورق كانت مُجعَّدة وقد فُرِدَت الآن.

السيد فون.

1000 باوند ستضمن عودة ابنتك.

يُطلِق ذا سوان شهقةً سخطٍ عارِمَة.

"ششش!".

تكَّة. حقيبة نقود على المكتب وقد انتفخت من الامتلاء.

تكَّـة. نفـس حقيبـة النقـود، وهـذه المـرة هـي موضوعـة عـلى الطـرف القَـصيِّ مـن جـسر رادكـوت عـلى مسـافة قصـيرة مـن المـكان الـذي يجلسـون جميعًـا فيـه الآن.

همهمات هلع.

تكَّـة. السـيد والسـيدة فـون ينتظـران بجـوار المدفـأة، والسـاعة ظاهـرة بينهـما تشـير إلى السادسـة.

تكَّة. نفس الصورة ولكنها الثامنة.

تكَّـة. الحاديـة عـشرة. رأس السـيدة فـون عـلى كتـف زوجهـا، يبـدو عليهـا اليـأس.

يتساقط ذا سوان وينتحب تعاطُفًا.

تكَّـة. شـهقة! طـرف جـسر رادكـوت مـرَّةً أخـرى... ولكـن المـال قـد اختفـى!

تكَّة. من الخلف نرى السيد والسيدة فون ينهاران في أحضان بعضهما البعض.

يثور ذا سوان. بكاء عَلنيٌّ، والكثير من صيحات الغضب والخوف. يُهدِّد الفاعلون: واحد سيدقُّ أعناقهم، وآخر سيشنقهم، والثالث يريد أن يربطهم في أجولَةٍ ويلقي بهم من على الجسر.

تكَّة. مَن خطف أميليا الصغيرة.

يصمت ذا سوان.

تكَّة. تظهر صورة الخنزيرة مرة أخرى. يأخذ دونت عصًا ويستخدمها في تحديد ما فشل ذا سوان في ملاحظته من قبل. يوجد ظِلٌّ.

تُسمَع "أوه!" مكتومة.

تكَّة. يبدو أنه نفس المشهد، مابيل تقف مرَّةً أخرى بديلة لأمها. الصورة مقصوصة هذه المرة كي لا يبقى ظاهرًا سوى ذيل الخنزيرة، وفي طرف الصورة الجزء السفلي من معطف طويلٍ وبضع بوصات من ساق سروال وزوج الأحذية بدعامة عند الأصابع.

صدرت شهقة صدمة. "ليس الخنزير هو مَن خدع روبي! إنه هو!".

وقف شخصٌ وأشار وصاح. "إذًا فهو مَن أخذ أميليا!".

يغرق ذا سوان في الفهم ويتكلَّم بمائة لسان.

"كان شخصًا قصيرًا!".

"نحيلًا مثل عصا المقشَّة!".

"شخص كريه!".

"المعطف أيضًا... عريض من الأكتاف".

"وطويل بالنسبة له".

"دائمًا يرتدي هذه القُبَّعة".

"لا ينزعها أبدًا!".

لقد تذكَّروه فعلًا. الجميع تذكَّره. ولكن لم يستطع أي شخص أن يعطي وصفًا فيما عدا المعطف والقُبَّعة وحجم الرجل.

ومتى كانت آخر مرة شوهِدَ فيها؟

"منذ عامَيْن".

"عامان؟ على الأقل ثلاثة أعوام!".

"نعم أقرب إلى ثلاثة".

وصلوا إلى إجماع. وُصِف الرَّجُل الذي يصحب الخنزيرة بأنه ضئيل الحجم، ويرتدي معطفًا كبيرًا، بقُبَّعة تغطِّي وجهه، ولم يره أحدٌ منذ ما يقرب من ثلاث سنوات.

تباحَثَ دونت مع ريتا. كانا يصغيان بحرص، ولكن لم يوجد شيءٌ يشير إلى أنه أي شخص هنا على وشك كشف معلومة ليست معروفة بالفعل.

مال وهَمهَمَ في أذنها "أظنُّ أني أضَعتُ وقتَ الجميع".

"لم يَنتَهِ الأمر بعدُ. هيا. الجزء الثاني".

بينما يملأ الغضب الغرفة بالضجيج ينسلُّ دونت وريتا خلف الستار. تُراجِع ريتا التعليمات مرَّةً أخرى مع مارجو الصغيرة وطفلتها، بينما يفحص دونت أجهزة الصوت المختبئة في مكانٍ آخر، والتي لا يتبيَّن الغرض منها من مجرَّد شكلها إلَّا لمديري العروض المسرحية أو الرُّوحانيِّين. "سأهزُّ رأسي عندما أكون مُستعدًّا كي ترفعوا الستار. اتَّفقنا؟".

في خلفية الغرفة، ومن ركنها المعتم، لم تكن ريتا قد رأت من قبل أي شيء يشبه الصُّوَر الضخمة الموجودة على الحائط، تشبه الحقيقة جدًّا، ومستحيلة. عندما قالوا إنها ستكون قصَّةً تُحكَى بالصُّور ما خطر في بالها كان الإنجيل للأطفال الذي كانت تدير صفحاته بينما أُمُّها تقرأ. لم تكن تعرف أنها ستكون الحقيقة بالأبيض والأسود مستوية مثل الزهور المضغوطة وموضوعة عالية وعريضة على الحائط، وتلمس حقيقة حياتها هي. أمسكت يدها برقبتها وحدَّقت مُمتلِئةً بالنَّبض والعرق والارتعاد، ولم يكن هناك مكان في ذهنها المرعوب كي تفكِّر في نقطة ارتكاز. لقد سقَطَت في كابوس يقظة.

جفَلَت لصوت شوكة تَطرُق على الزجاج. أرسلت صوت رنينٍ في الهواء، وهدَّأت الجمهور. استقرُّوا في مقاعدهم: سيأتي المزيد.

بدلًا من التَّكَّة أتى صوت السِّتارة وهي تتحرَّك إلى جانب واحد. أدرك الأشخاص الأقرب إلى الستارة أن هناك حركة. أصبح القوس الذي يؤدِّي إلى الغرفة الشتوية مكشوفًا الآن، ولمع ضوء مفاجئ.

استدارت الرؤوس في ارتباك.

ساد صمتٌ مُتوتِّر ومصدوم.

كانت هناك طفلة في الغرفة الشتوية. ولكنها ليست طفلةً عاديَّةً. وليست صورة. يتحرَّك شَعرُ الطفلة كما لو كانت موجة ترفعه ويطفو قميصها الأبيض بشفافية و -وهذا أغرب ما في الأمر- لا تلمس قَدماها الأرض. تتحرَّك هيئتها وتلمع وهي هنا وغائبة في نفس الوقت. يحمل وجهها أثرًا خفيفًا لملامح، أثر أنف، عيون تحدِّق بطريقة باهتة، فم مَمحوٌّ لتتكلَّم عبره. تطفو ثنيات ثوبها حولها كما لو كان الهواء ماءً، وهي تنجرف دون كُتلَةٍ تُذكَر.

"يا طفلة" يأتي صوت روبي "هل تعرفينني؟".

تهزُّ الطفلة رأسها.

"تعرفين أني روبي مُربِّيتُكِ القديمة التي أحبَّتكِ واعتنت بك جيِّدًا؟".

هِزَّة رأس أخرى.

لم يتحرك أحد. يُبقيهم في مقاعدهم إمَّا الخوف أو الخوف من أن يفوتهم شيء.

"هل أنا مَن أخذتك من سريرك؟".

تهزُّ الطفلة رأسها نفيًا.

"كان شخصًا آخر إذًا؟".

تهزُّ الطفلة رأسها ببطء كما لو كانت الأسئلة تَصِلُها عن بُعدٍ إلى العالم الآخر حيث هي الآن.

"مَن هو؟ مَن أخذك إلى النهر وأغرَقَكِ؟".

"قولي لنا!". صاح شخص من الحضور. "قولي لنا مَن!".

ورفَعَت الطفلة ذات الوجه الشَّفَّاف -حتى أنه يصلح وجهًا لأيِّ طفلة- رفعت أصبعها وأشارت، ليس على الشاشة، ولكن إلى داخل الغرفة. إلى الحضور أنفسهم.

هرجٌ وضوضاء. ارتفعت صرخاتٌ وصيحاتٌ مُرتَبِكة. قام الناس مصدومين وقلبوا الكراسي. استداروا وحدَّقوا في الضوء المنعكس هنا وهناك وفي كل مكان قد يكون الأصبع المتحرِّكة اللامعة قد أشارت نحوه. وفي كل مكان كانت الوجوه تشبههم: مُستاءَة ومذهولة ومُبقَّعة بالدموع. فَقَدَ شَخصٌ الوعيَ، وانتحب آخر، وتأوَّه ثالث.

همست ليلي "لم أقصد أن أفعل ذلك!"، ولم تُسمَع وسط كلِّ الفوضى. فتحت الباب بِيَدٍ مرتعشة وعيون تسيل منها الدموع وهربت كما لو كان الخداع البصريُّ يتعقَّبها.

عندما رحل الجميع قامت عائلة أوكويل وأبناء عائلة أرمسترونج بإعادة الحانة إلى نظامها. تثاءَبَ الشبح الصغير في هيئته الصُّلبة المعتادة كحفيدة مارجو الصغرى وهم يشدُّون الرداء الأبيض الخفيف من فوق رأسها، ودقَّت الأرض حول الغرفة بقبقابها. وُضِعَت المرآة الكبيرة في علبتها وحُمِلَت بحرصٍ والكثير من الزمجرة. أُنزِلَت الستارة المخمليَّة وطُوِيَت واهتزَّ الشاش وارتعش وهو يسقط داخل الكيس. فُكِّكَت لمبة الغاز. فُكِّك وَهمُ الشَّبح عُنصرًا تلو الآخر، وعُبِّئ في كراتين، ووُضِعَ بعيدًا، وعندما ذهب ونظروا إلى بعضهم البعض داخل ذا سوان كما يظهر في مساءٍ عاديٍّ رأوا أن أملهم قد ذهب أيضًا.

تهدَّلَت كَتِفا روبرت أرمسترونج، وكانت مارجو هادِئةً على غير عادتها. أتى دونت وذهب بين الحانة وكولوديون بالصناديق، مُحبَطًا، لدرجة أن أحدًا لم يجرؤ على توجيه الكلام له. ذهبت ريتا لترى جو الذي كان في سريره. رفع عيونه تَرَقُّبًا، وعندما هزَّت رأسها رمش في أسى.

فقط چوناثان احتفظ بروحه المرِحَة المعتادة غيرَ متأثِّر بالمزاج العام. ردَّد "كِدتُ أظنُّ أن ذلك حقيقيٌّ مع أني أعرف بأمر المرآة والشاش واللمبة الغاز. حتى مع معرفتي أنها بولي. كِدتُ أصدِّق!".

كان يشارك الآخرين في إعادة الكراسي إلى أماكنها الأصلية، ثم صاح في الرُّكن وهو يتَّجِه نحو المقاعد القليلة الأخيرة في الخلف.

"ما هذا! مَن ترَكَكَ ورحل؟".

اختبأ جروٌ في ركن الغرفة تحت المقعد الأخير. أتى روبرت أرمسترونج ليرى. انحنى ورفع الحيوان في يده الكبيرة وقال للجرو: "إنك أصغر من أن تَخرُجَ إلى العالم بمفردك". وشَمَّ الجرو جلده وجاهد راكِضًا كي يقترب منه أكثر.

قـال دونـت: "إنـه ملـكُ المـرأة التـي أتـت عنـد النهايـة". استشـار ذاكرتـه وعـدَّدَ كُلَّ تفاصيـل مظهرهـا.

قالـت مارجـو: "ليـلي وايـت. هـي تعيـش في كـوخ باسـكيتمان. لم أكـن أعـرف أنهـا هنـا".

هـزَّ أرمسـترونج رأسـه "سـآخذ الصغـير معـي إلى المنـزل. إنـه ليـس بعيـدًا، وعـلى كل حـالٍ فـأولادي ليسـوا مُسـتعدِّين".

اسـتدارت مارجـو إلى حفيدتهـا "والآن أيَّتهـا الآنسـة الصغـيرة. أتصـوَّر أنَّـكِ نِلـتِ نصيبًـا كافيًـا مـن الأشـباح في يـومٍ واحـد. هـا؟ جـاء وقـت النَّـوم!"، وأخـذت الطفلـة بعيـدًا.

قـال دونـت: "مجـرَّد خدعـة. ولم تُحقِّـق الكثـير". اسـتدار نحـو روبي التـي كانـت تجلـس عـلى صنـدوق في الرُّكـن تحـاول ألَّا تبـكي. "أنـا آسـف. لقـد أملـت في المزيـد. لقـد خَذَلتُـكِ".

قالـت لـه ودموعهـا تسـيل: "لقـد حاوَلـتَ. عائلـة فـون هـم أكـثر مَـن يعانـون".

عن الخنازير والجِراء

خبّأ أرمسترونج الجرو تحت معطفه كي يُبقيه دافِئًا، تارِكًا زِرًّا واحدًا مفتوحًا كي يتمكّن من إخراج أنفه وشَمّ هواء الليل.

قالت ريتا: "يجب أن آتي معك. قد تَفزَع السيدة وايت إن جاءها غريبٌ في ذلك الوقت المتأخِّر، وبعد مثل هذه النهاية المُربِكَة للأمسية".

اتَّجَها إلى الجسر في صمتٍ، وكل منهما يفكِّر في إحباطه في الأمسية التي كَلَّفَت الكثير من الوقت والمجهود ولم يَنتُج عنها شيء. عبَرَا نهرًا مُمتَلِئًا بالنجوم على الجانب الآخر. أتَيَا بعد وقتٍ ليس طويلًا إلى المكان الذي انهارت فيه الضِّفَّة وتَمَدَّد النهر إلى اتِّساعٍ جديد. كان عليهما أن يركِّزا كي يتخطَّيا الجذور المتشابكة وحبال اللبلاب في الظلام. سَمِعَا صوتًا عبر الرنين القاتم للنهر.

"هـي تعـرف أنني كنـتُ أنـا! لم أقصـد أيَّ شَرٍّ! أقسـم! لم يكـن بإمـكاني إيـذاء ولـو شَـعرة عـلى رأسـها! إنهـا غاضِبَـة لأني أخذتُهـا وأغرَقتُهـا... لقـد رفعـت أصبعهـا! لقـد أشـارت إليَّ! إنهـا تعـرف أننـي أنـا مَـن فعلـت ذلـك".

حـدَّق المتصنِّتـان في الظـلام كـما لـو كان ذلـك سيُحسِّـن مـن سـمعهما، وانتظـرا صـوت الشـخص الـذي تتحـدَّث معـه، ولكـن لم يـردَّ أيُّ صـوت. همَّـت ريتـا بالتقـدُّم إلى الأمـام، ولكـن أرمسـترونج مـدَّ يـده وأوقفهـا. كان صـوتٌ آخـر قـد وصـل إلى أذنيـه. خنفـرة مكتومـة. كان صـوتَ حيـوان. كان صـوتَ خنزيـر.

بدأ ذهنه يلفُّ.

عندما هدأ صوت الخنزير انطلق صوتُ ليلي مرَّةً أخرى.

"لـن تسـامحني أبـدًا. مـاذا أفعـل؟ إنَّ شَرًّا مثـل الـشَّرِّ الـذي مارَسـتُه رهيـب، لا يمكـن أن يُغفَـر لي أبـدًا. إنـه اللـه بنفسـه، أرسـلها لـكي تعاقبنـي. يجـب أن أفعـل مـا فعلـه صانِـعُ السِّـلال، مـع أننـي خائفـة جـدًّا. أوه! ولكـن عـليَّ أن أفعـل ذلـك وأعـاني مـن العـذاب الأبـديّ؛ فأنـا لا أسـتحقُّ أن أعيـش يومًـا آخـر في هـذه الحيـاة...".

تكسَّر صَوتُها مُتحوِّلًا إلى دموع مختنقة.

أصغـى أرمسـترونج السَّـمع لصـوت الحيـوان وهـو يُخَنفِـر ردًّا عـلى كلـمات ليـلي. هـل هـي...؟ بالطبـع لا. ولكـن...

نبـح الجـرو. خَطَـوَا خارِجَـيْن مـن تحـت غطـاء أشـجار الحـور، وبـدآ يمشـيان صاعِدَيْـن المنحنـى.

نـادت ريتـا "نحـن مُجـرَّد أصدقـاء يـا سـيدة وايـت. نعيـد لـك الجـرو. لقـد تركتِـه في عـرض صنـدوق الدنيـا".

كانت تعاسة واضحة للنَّظَر الآن "لم يتأذَّ. لقد اعتنينا به".

ولكن وبينما تقترب ريتا نحو ليلي وتتكلَّم معها بصوتٍ مُلطف طوال الوقت ركض أرمسترونج باندفاعٍ صاعِدًا المنحنى. ركض نحو ليلي وخلفها، ثم شَقَّ طريقه إلى حظيرة الخنازير حيث وقع على ركبتيه في الطين ووضع يده عبر قضبان السياج وصاح "مود!".

حدَّق أرمسترونج بحبٍّ وعدم تصديق في وجهٍ ظَنَّ أنه لن يراه مرَّةً أخرى. ومع أنها كانت أكبرَ وأكثر إنهاكًا، أكثرَ نحافةً، ويبدو عليها الحزن -مع أن جِلدَها فَقَدَ إشراقته الورديَّة، وشَعرُها فقد لمعته النحاسية المضيئة- إلَّا أنه عرفها. لم ترفع الخنزيرةُ بَصَرَها عنه أيضًا، وإن كان هناك أدنى شكٍّ فقد أزاله ترحيبُها به، فقد قامت فورًا وحرَّكَت قدميها في رقصة مُتحمِّسة ووَضَعَت خطمها على السياج كي يتمكَّن من التربيت على أذنها ويحكَّ خدَّها الخَشِن. ضغطت نفسها على السور كأنها ترغب في إيقاعه كي تصل إلى صديقها القديم العزيز. وشعر أرمسترونج بحلقه يؤلمه من اختناقه بالدموع بينما تحنو عيون مود بمشاعر اللقاء.

"ما الذي حدث لك يا حبيبتي؟ كيف وصلتِ إلى هنا؟".

أخرج ثمار البلوط من جيبه، وقبلتها مود بنعومة على كفِّ يده كما لا تعرف الكثير من الخنازير أن تفعل فامتلأ قلبه بالسعادة.

في ذلك الوقت كانت ليلي مستمرَّةً في دعك عينيها وتكرار "لم أقصد. لم أعرف!".

نظرت ليلي بين ريتا وأرمسترونج والخنزيرة، ثم إلى ليلي مرَّةً أخرى. أين تبدأ؟

"ليلي، ماذا كنتِ تقولين عندما وصلنا؟ ما الذي لم تقصدي فعله؟".

كـرَّرَت ليـلي وكأنها لم تسـمع "لم أكـن أعـرف!"، ولم تفهـم السـؤال إلَّا بعـد أن كرَّرَتـه ريتـا عـدَّةَ مـرَّات.

استنشَـقَت وقالـت: "لقـد حكَيـتُ كل شيء للخنزيـرة، وهـي تقـول إن علـيَّ الآن أن أعـترف للقـسِّ".

عن الأخوات والخنازير الصغيرة

دعا القسُّ في ملابس نومه ضيوفه الليليِّين للجلوس. اختار أرمسترونج كرسيًّا بجوار الحائط، وجلست ريتا على الأريكة.

قالت ليلي: "لم أجلس أبدًا في بيت الأبرشية، ولكني جئتُ كي أعترف، وبعد اليوم لن آتي إلى هنا مرَّةً أخرى؛ لذا أظنُّ أني سأجلس"، وجلست بتوتُّر بجوار ريتا.

سأل القس بعد نظرة نحو ريتا "ما أمرُ هذا الاعتراف".

قالت ليلي: "أنا مَن فعلتُها". لقد بكت طوال الطريق بمحاذاة النهر، وهي الآن في بيت الأبرشية وصوتها مُنهَكٌ. "كانت أنا. إنها تخرج من النهر وتشير بأصبعها نحوي. إنها تعرف أن أنا مَن فَعلتُ ذلك".

"مَن التي تشير بأصبعها؟".

شرَحَت ريتا للقسّ الخدعةَ في ذا سوان، وما الذي أرادوا تحقيقه عبرها، ثم استدارت إلى ليلي "لم يكن ذلك حقيقيًا يا ليلي. ولم يكن القصد منه إخافتك".

"كانت تأتي إلى كوخ باسكيتمان. تَخرُج من النهر وتشير بأصبعها نحوي... كانت حقيقيَّة. أنا أعرف أنها حقيقية. كانت تقطر ماءً على ألواح الأرض، وتتركها رطبة. عندما لم أعترف وأبقيتُ شَرِّي سِرًّا أتَت إلى ذا سوان، والآن تشير بأصبعها نحوي. إنها تعرف أنها أنا".

جثَمَت ريتا أمام ليلي، وأمسَكَت بيديها الاثنتين "ما الذي فعَلتِه يا ليلي؟ قولي لنا مباشرة".

"لقد أغرقتها!".

"أغرَقتِ أميليا فون؟".

"إنها ليست أميليا فون! إنها آن!".

"أغرَقتِ أُختَكِ؟".

هزَّت ليلي رأسها "أغرقتُها، وهي لن تتركني أرتاح قبل أن أعترف".

قال القسُّ: "فهمتُ. إذًا يجب أن تعترفي. احكي لنا ما حدث".

الآن، وبعد أن وصَلَت الأمور إلى هذه النقطة أصبحت ليلي هادئة. جفَّت دموعها، وانزاحت هواجسها المختلطة. بَدَت أصغر من عمرها وهي تحكي الحكاية على ضوء الشموع في مطبخ بيت الأبرشية، بشَعرِها الذي هرب من دبابيس الشَّعر، وعينيها الواسعتين الزَّرقاوين، ووجهها النَّحيل.

"كنتُ في الثانية عشرة من عمري على ما أظنُّ. ربما كنتُ في الثالثة عشرة. كنت أعيش مع أمي في أوكسفورد، ومعنا زوج أمي وابنه. كان لي أخت صغيرة اسمها آن، وفي الفناء الخلفي كان لدينا خنازير صغار للتَّسمين والبَيع، ولكن زوج أمي لم يعتَنِ بهم جيِّدًا،

ومرضوا. لم تكن أختي قويَّةً. كانت صغيرةً، ومع أني أنا وأمي نُحبُّها إلَّا أن زوج أمي خاب أمله فيها. كان يريد ولدًا آخر، الأولاد هم ما يهمُّ بالنسبة له. كان يستاء من الطعام الذي آكله أنا وأختي، وكنَّا نخاف منه -كما تخافه أمي أيضًا- وحاوَلتُ أن آكل كَمًّا أقلَّ من الطعام كي يبقى كَمٌّ أكبر لأختي التي كانت هزيلة جدًّا. ولكن صِحَّتها لم تنتعش. في أحد الأيام عندما كانت أختي مريضةً في السرير حمَّلَتني أمي مسؤوليتها بينما خرَجَت هي لتشتري بعض الأدوية لها. كان عليَّ أن أُحضِّر الطعام، وأُنصِت لأختي؛ تَرَقُّبًا لأن تدخل في نوبة سعال. كان زوج أمي سيغضب منها لأنها تشتري دواءً؛ فقد كان غاليًا جدًّا، والفتيات لا يتسحققن. كنتُ متوتِّرة جدًّا، وكذلك كانت أمي. وبينما أمي في الخارج أتى أخي غير الشقيق إلى المطبخ مع ربطةٍ. كان شوالًا مربوطًا جيِّدًا بخيطٍ. قال لي إن أحد الخنازير الصغار قد مات، وأن زوج أمي يأمرني أن آخذه إلى النهر وألقيه به كي أوفِّر عناء حَفرِ حُفرةٍ ودفنه فيها. قلت لأخي إنني أُعِدُّ العشاء، وأن عليه هو أن يأخذ الخنزير إلى النهر، ولكنه قال لي إن زوج أمي سيُشبِعُني ضربًا إن لم أفعل ما يأمرني به، فذهبتُ. كانت الربطة ثقيلة، وعندما وصلت إلى النهر وضعت الربطة على الضِّفَّة حيث كان المنزل منحدرًا ودَفَعتُها. ثم ذهبت إلى المنزل. عندما وصَلتُ إلى شارعنا كان الجيران جميعًا في الخارج، وكان هناك ضجيج كثير. أتت أمي نحوي ركضًا وقالت: "أين آن. أين أختُكِ؟"، أجَبتُها "في غرفة النوم"، فصاحت وبكت، وسألت مرَّةً أخرى "أين آن؟ لماذا لم تكوني هنا؟ وأين ذهَبَت هي؟".

قال أحد الجيران إنه رآني أمرُّ من قبل بحمل ثقيل في ذراعي، وقالت هي: "ما الذي كان في الشوال؟"،

قلتُ: "خنزير صغيرٌ ميِّت"، ولكن عندما بدؤوا في استجوابي حول أين أخذته وماذا فعلت لم أستطع أن أَرُدَّ. كان لساني معقودًا من الارتباك.

عندها ركض بعض الجيران إلى النهر، وأَرَدتُ أنا أن أبقى بجوار أمي، ولكنها كانت غاضبةً مني لأني لم أعتنِ بأختي، ولم تكن هي تُطَمئِنني؛ لذا -وفي النهاية- ذهبتُ لأختبئ.

كان أخي دقيقَ الملاحظة، ويعرف الأماكن التي يختبئ بها عندما يكون زوج أمي غاضبًا. وجدني. "كنتِ تعرفين ما الذي كان في الشوال، أليس كذلك؟".

قلتُ له: "كان خنزيرًا صغيراً"، لأني صَدَّقتُه.

عندما قال لي ما الذي فعلتُه في الحقيقة. "آن كانت في الشوال. لقد أغرَقتِها".

هرَبتُ. ولم أَقُل لأي شخصٍ الحقيقةَ بخصوص أختي منذ ذلك اليوم وحتى الآن".

اقترَحَت ريتا -ووافَقَ القسُّ- أن تقضي ليلي الليلة في غرفة الضيوف في بيت الأبرشية. وافَقَت ليلي مثل طفلة صغيرة.

عندما أُعِدَّ السَّرير وكانت ليلي على وشك الصعود إلى الطابق الأعلى لتخلد للنوم وريتا تودِّع القس تَنَحنَح أرمسترونج وتكلَّم لأوَّل مرَّة.

"لديَّ سؤال... قبل أن نرحل...".

نظروا إليه جميعًا.

"كانت ليلةً طويلة، وبالنسبة للسيدة وايت كانت مُتعِبَةً أيضًا، ولكن هل لي أن أسأل سؤالًا واحدًا فقط قبل أن نرحل؟".

هزَّ القسُّ رأسه مُوافِقًا.

"كيف وصَلَت خنزيرتي مود لكوخ باسكتمان يا ليلي؟".

بعـد اعترافهـا بجريمتهـا العظيمـة لم تَعُـد أسرار ليـلي الأخـرى تُثقِلُهـا

"جَلَبَهـا ڤيكتـور".

"ڤيكتور؟".

"أخي غير الشقيق".

"ما هو اسم عائلة أخيك غير الشقيق؟".

"اسمه ڤيكتور ناش".

عنـد سـماع الاسـم جفـل أرمسـترونج كـما لـو كان قـد قطـع أصابعـه بسـكين الذَّبـح.

الجانب الآخر من النهر

قال فون: "لا يمكن أن يكون في المصنع. أنا أبيع محتوياته ويوجد أشخاص يجيئون ويذهبون هناك منذ شهور. إن كان شخصٌ يختبئ هناك فسيُرَى. ومصنع الكبريت له نوافذ عالية:سيُرَى الضوء من على بُعد أميال. لا، المكان الوحيد الذي يتَّسِع لمعمل تقطير ويُخبَّأ بعيدًا عن الأنظار ولا يصادفه أحدٌ هو في المخزن القديم".

طعن أصبعه المكان على خريطة جزيرة براندي.

سأل دونت "أين نقطة الإنزال؟".

"سيتوقَّع أن يأتي أي شخص من هنا. ولكن من الممكن الرُّسوُّ على الجزيرة من الطرف الأقصى بعيدًا عن المصنع والأبنية الأخرى. سنفاجئه".

سأل أرمسترونج "كم سيكون عددنا؟".

"أستطيع أن أجلب ثمانية رجال من منزلي والمزرعة. أستطيع أن آتي بالمزيد، ولكننا سنحتاج قوارب أكثر، وقد يثير ذلك الشكوك".

"يمكنني أن آخذ عددًا أكبر على متن كولوديون، ولكن ذلك سيثير ضجيجًا، ويكون مرئيًّا بشكل زائد عن اللازم. عدد أصغر منّا في قوارب بمجاديف هو الطريق الوحيد".

"ثمانية آخرون بالإضافة إلى ثلاثتنا...". نظروا إلى بعضهم البعض وهزُّوا رؤوسهم. كان ذلك كافيًا.

"ثم؟" قال فون.

في سواد الليل ترك أسطولٌ صغيرٌ المرسى عند بوسكوت لودج. لم يتكلَّم أحد. كادت راحة المجاديف ألَّا تُحرِّك الماء حالك السَّواد بينما يغطسها المُجدِّفون في الماء ويرفعونها. أصدرت المجاديف صريرًا، وخبط الماء جوانب القوارب، ولكن هذه الأصوات ضاعت في الهدير العميق للنهر. انزلق المجدِّفون خفيةً من الأرض إلى الماء، إلى الأرض مرَّةً أخرى.

عند الجانب البعيد لجزيرة براندي رفعوا قواربهم من النهر وصعدوا بها المنحدر ليُخفوها تحت الفروع المتهدِّلة لصفصافة. كانوا يتعرَّفون على بعضهم البعض من هيئاتهم المظلَّلة، وكل ما يحتاجونه للتواصُل هو هزَّات الرؤوس؛ فقد كان مع كل رجل تعليماته.

انقسموا إلى أزواج، وانتشروا بطول الضفَّة كي يشقُّوا طُرقًا مختلفة وسط النباتات نحو المصنع. كانت الجزيرة مألوفةً للجميع ما عدا دونت وأرمسترونج. صحب دونت فون، وصحب أرمسترونج نيومان- أحدُ رجال فون. دفعوا الأغصان جانِبًا، وتعثَّروا فوق الجذور، وتحرَّكوا غير مُبصِرين في الظلام. عندما قَلَّت النباتات وفتحت الطريق لممرَّاتٍ يعرفونها كانوا يقتربون من المصنع. استداروا حول الحوائط، وأسرعوا يعبرون المنطقة المفتوحة بلا صوتٍ تقريبًا.

وصل دونت وفون إلى المخزن. لم يكن من الممكن رؤية الضوء في نوافذه من الضِّفَّتين؛ لأنه مُحاطٌ بالمصنع من جانبٍ وبالشَّجَر الكثيف من الجانب الآخر. تبادَلَ الرَّجُلان نظرةً في الظلام. أشار دونت إلى الجانب الآخر. حركة طفيفة في الأشجار أضاءها نورٌ خافت من المبنى. لقد وصل آخرون.

تحرَّك أرمسترونج أوَّلًا. أسرع نحو الباب، وضربه بقدمه مستخدمًا ثِقَلَ جسمه. ترَكَت رَكلَتُه البابَ يتأرجح ويكاد ينخلع من مفصَّلاته. دفعه فون لينفتح على مصراعيه، وكان دونت خلفه تمامًا وهو يتفحَّص الغرفة. أحواض وزجاجات وبراميل. الهواء كثيرٌ في الخميرة والسُّكَّر. موقد صغير استُخدِم حديثًا. كرسي فارغ. ضغط دونت يده على الوسادة.

"إنها دافئة".

"اللعنة!" صاح فون.

صوت في الخارج. من الشجرة.

"من هنا!" أتت صيحة. انضمَّ دونت وفون وأرمسترونج إلى الآخرين. حدثت مُجاهَدة كبيرة عبر الشُّجَيرات بينما يتدافع الرجال مُتتبِّعين أثر الصوت. اصطدموا بالغصون وكسروا فروعًا تحت أقدامهم وصاحوا وهم يتعثَّرون حتى لم يعودوا يعرفون إن كانت الأصوات تصدر عن الطَّريدة أم الصَّيَّادين أنفسهم.

اجتمعوا مرَّةً أخرى. ومع أنهم كانوا مُحبَطين إلَّا أنهم لم يستسلموا. قسموا المساحة وغطوا كل ياردة من الجزيرة. غاصوا في داخل كل شجيرة وحدَّقوا أعلى أغصان كل شجرة وفتَّشوا كلَّ غرفة وكلَّ مَمرٍّ في كل مبنى. اقترب اثنان من رجال فون من أغصان متشابكة ذات أشواك وضربوها بانتظام بعِصيٍّ ثقيلة. حركة في الجانب البعيد: هيئة، تنحني إلى الأسفل، وفجأة قفز واختفى وسط طرطشة.

صاحوا لينبِّهوا الآخرين "لقد نزل إلى النهر!".

سريعًا انضمَّ إليهم الآخرون.

"إنـه في مـكانٍ مـا هنـاك. لقـد أجبرنـاه عـلى الخـروج مـن مخبئـه وسـمعنا الطرطشـة".

نظـر الصيَّـادون عـبر النهـر الداكـن. ومـض المـاء ولمـع، ولكـن دون أثـر لطريدتهم.

في بدايـة دخولـه إلى المـاء ظـنَّ أن الـبرد سـيقتله فـورًا. ولكـن عندمـا طفـا إلى السـطح وأدرك أنـه لم يمُـت، لم يقـترب مـن المـوت، اكتشـف أن الأمـر ليـس مُميتًـا. لقـد خـرج من غطسـته العُظمـى في مـكانٍ لـه مُميِّزاته. يبـدو أن النهـر حليفـه. كان يمكنـه أن يتعلَّـق بغُصـنٍ كبـير ينحنـي قريبًـا مـن المـاء بينـما يفكِّـر هـو فيـما سـيفعله. كانـت العـودة إلى الجزيـرة غـيرَ مطروحـة. عليـه أن يعـبر النهـر. عندمـا يصبـح في منتصـف التيَّـار سـيحمله النهـر معـه، وإن اقـترب ببـطء نحـو الضفَّـة طـوال الوقـت فـلا بُـدَّ أنـه سـيجد مكانًـا يرفـع فيـه نفسـه إلى الخـارج. بعـد ذلـك...

بعد ذلك سيتدبَّر الأمر بأفضل ما بإمكانه.

أنـزل يديـه مـن حـول الغُصـن، وتـرك نفسـه ينتقـل إلى المـاء بالكامـل، وبـدأ في الـرَّكل.

أتـت صيحـةٌ مـن الجزيـرة -لقـد رأوه- فغطـس تحـت السـطح. شَوَّشـه مهرجـانٌ مـن الحركـة والأضـواء فـوق رأسـه. مـرَّ فيلَـقٌ مـن النجـوم. ألـفُ قَمـرٍ صغـير يلمـع مـارًّا بـه مُطـوَّلًا مثـل سرب مـن صغـار الأسـماك. كان عملاقًـا وسـط جِنِّيَّـات.

خطـر لـه فجـأة أن لا عجلـة في الأمـر. قـال لنفسـه أنـا لا أرتعـد، يـكاد الجـوُّ أن يكـون دافئًـا.

كانت ذراعاه ثقيلتين، ولم يكن متأكِّدًا ما إن كان يركل برجليه أم لا.

عندمـا لا تشـعر بالـبرد في النهـر البـارد فهـذه هـي الإشـارة أنـك في مـأزق. كان قـد سـمع ذلـك في مـكان مـا. متـى؟ منـذ زمـن طويـل. أقلقـه وضغـط عليـه شـعور بالتوجُّـس. حـاول التَّملُّـصَ، ولكـن أطرافـه لم تُطِعـه.

لقـد أيقـظ النهـر، وسـيطر عليـه تيَّـاره. الماء في فمـه. أسـماك القمـر في رأسـه. المعرفـة: خطـأ. تحسَّـس السـطح، ولكـن يـده التقـت بنباتـات سـابحة تطفـو. أمسـك بهـا كي يشـدَّ نفسـه إلى الأعـلى، ولكـن أصابعـه أغلقـت عـلى حصًى وطـينٍ. تخبَّـط... تَلـوَّى... السَّـطح! ذهـب مـرَّةً أخـرى. دخـل إليـه مـاء أكـثر مـن الهـواء، وعندمـا صـاح طلبًـا للمسـاعدة -وهـل سـاعده أيُّ شـخص مـن قبـل؟ أليـس هـو أكـثر الرِّجـال الذيـن تعرَّضـوا للخيانـة عـلى الإطـلاق؟- عندمـا صـاح طلبًـا للمسـاعدة لم توجـد إلَّا شـفاه النهـر، وهـي تضغـط فـوق شـفاهه وأصابعـه، تضغـط عـلى فتحتـي أنفـه وتغلقهـما.

كل هذا للأبد...

حتـى لم تبـقَ بـه أي مقاومـة، فشـعر بأنـه يُمسَـك ويُرفَـع للأعـلى خارجًـا مـن الماء، كـما لـو كان لا يَـزِن أكـثر مـن ورقـة صفصـاف، ويوضَـع، يُسـجَّى ليرتـاح عـلى قـاع قـارب.

كوايتـلي؟ كان يعـرف القصـص. قائـد المعدِّيَـة الـذي يأخـذ مَـن حـان أجلهـم إلى الجانـب الآخـر، والـذي يأخـذ مَـن لم يَحِـن أجَلُهـم إلى الأمـان.

الهيئـة الطويلـة النحيلـة ترمـي العصـا نحـو السـماء وتتركهـا تسـقط عـبر أصابعــه حتـى تختـرق أرض النهـر، ثـم بـأي رشـاقة وبـأي قـوَّة ملحوظـةٍ تُـسرع المعدِّيَـة عـبر المـاء الداكـن. شـعر ڤيكتـور بسَـحبَتِها وابتسـم. الأمـان...

بقـي نصـف الرجـال عـلى الجزيـرة متمركزيـن في نقـاط تُمكِّنهـم مـن رؤيتـه إن حـاول أن يعـود إلى اليابسـة. عـاد الآخـرون إلى القـوارب وخرجـوا إلى الماء ليبحثـوا عنـه.

همهم دونت "البرد لعين".

وضع أرمسترونج يده في الماء وسحبها سريعًا إلى الخارج.

سأل "هل نبحث عن رَجُلٍ حيٍّ أم جُثَّة؟".

قال فون بجديَّة: "لا يمكنه أن يبقى حيًّا طويلًا".

جدَّفوا حول الجزيرة مرَّةً ومرَّتين وثلاث مرات.

أعلن أحد رجال فون "لقد انتهى أمره".

هزَّ الآخرون رؤوسهم.

انتهت المطاردة.

عادت القوارب إلى المرسى وبوسكوت لودج.

كتب القسُّ رسالة إلى كاهن الأبرشية التي عاشت بها ليلي مع أُمِّها وزوج أمها. جاءه ردٌّ سريع. أحد أعضاء الأبرشية لديه ذكرى واضحة عن الأحداث التي جَرَت منذ ثلاثين عامًا. وقعت فوضى وضجيج كبير عندما فقَدَت آن في البداية. بدأت إشاعة عن أن الابنة الكبرى أغرَقَت أختها في النهر بسبب الغيرة. أسرع الجيرانُ إلى النهر، ولكن لم يُعثَر على الشوال فورًا. وقد هرَبَت الابنة الكبرى بينما أُمُّها تنضمُّ إلى فرقة الباحثين.

بعد بضع ساعات عُثِر على الطفلة حيَّةً وبخير على مسافة من البيت أبعد من أن تتمكَّن هي من المشي إليها وحدها بدون مساعدة. كانت تشتعل بالحُمَّى، ولم يمكن لأيِّ دواء أن يُنقِذَها، وماتت بعد بضعة أيام.

عُثِر أيضًا على الشوال، وقد احتوى على خنزيرٍ صغيرٍ مَيِّت.

لم يُعثَر على ليلي أبدًا. ماتت أمها كسيرةَ القلب بعد بضع سنواتٍ، وشُنِق زوج الأمِّ لجرائم ثبَتَت عليه. أخيرًا، لا صِلَة لها بهذه. أمَّا ابن زوج الأم فقد كان فاسِدًا ولا يقدر على الإبقاء على وظيفة لفترة طويلة، ولم يسمع به أحدٌ منذ سنوات.

قال القس لليلي: "لا لوم عليكِ".

وضعت ريتا ذراعها حول المرأة الحائرة "إن أخاك هو مَن خَدَعكِ بسبب غيرته، ولأن له روحًا مُدمَّرة. كان يعرف أنكِ بريئة، ولكنَّه شَجَّعكِ على تصديق أنَّكِ مُذنِبة منذ ذلك الزمن. أنتِ لم تُغرقي أختك".

"ماذا أرادت آن إذًا عندما خرجت من النهر وذهبت إلى ذا سوان؟".

"لم تكُن هذه آن. آن ماتت. وهي ليست غاضِبةً منكِ. إنها في سلام".

قالت لها ريتا: "الذي ترينه في كوخ باسكيتمان هي كوابيس، ثم ما رأيتِهِ في ذا سوان كان خدعة، شاش ومرايا".

قال القسُّ لليلي: "والآن بعد أن غرق أخوك، فلن يقدر على أن يُخيفَكِ مُجدَّدًا. يمكنك أن تحتفظي بنقودك وتتخلَّي عن كوخ باسكتمان وتأتي لتعيشي في الدفء هنا في بيت الأبرشيَّة".

ولكن ليلي كانت تعرف عن الأنهار أكثر من أي شخص آخر... تعرف أن الغرق مسألة أكثر تعقيدًا ممَّا يتصوَّر الآخرون. ڤيكتور غارقًا ليس أقلَّ رهبةً في ذهنها من ڤيكتور حيًّا. بل إنه أكثر شناعة. سيكون غاضِبًا لأنها وَشَت به، ولن تجرؤ على أن تزيد من غضبه بترك المكان الذي يعرف كيف يجدها فيه. كل ما عليها تَذكُّره هو كيف وجدها ڤيكتور مع السيد وايت، والأشياء التي حدثت وقتها.

وُجِـدَ السـيد وايـت ميِّتًـا، ومـع الـضرب الـذي تلقَّتـه... فاجأهـا أنهـا لم تَمُـت هـي الأخـرى. لا، هـي لا تجـرؤ عـلى إغضابـه.

قالـت: "أظـنُّ أني سأسـتمرُّ في كـوخ باسـكتمان". حـاوَلَ القـسُّ إقناعهـا، وحاوَلَـت ريتـا إقناعهـا، ولكنهـا نالـت غرضهـا بـإصرار الوُدَعـاء.

عندمـا ذهـب أرمسـترونج ليجلـب مـود مـن كـوخ باسـكتمان وجدهـا تحمـل جنينًـا.

لم يرغـب في تحريكهـا مـن مكانهـا في مثـل تلـك الحالـة الدقيقـة؛ فقـد كانـت تنـال عنايـةً جيِّـدةً، ورأى هـو ذلـك.

"هل تعتنين بها يا سيدة وايت حتى تضع حَملَها؟".

"لا أُمانع. ماذا عن مود؟ هل تُمانع هي أن تبقى؟".

لم تمانع مود؛ وبالتالي حدث الاتفاق.

"وعندما آخذها معي إلى المنزل سأعطيك خنزيرًا صغيرًا بدلًا منها".

الجُزءُ الخامِس

السّكّين

كان الدجاج مهتاجًا، وتفادت القطّةُ يدَه التي تُربِّت عليها لتنزلق بتعاسةٍ بمحاذاة الحائط، وحدّقَت الخنازير بنظرةٍ تُنذِر بشيء مشؤوم. عبس أرمسترونج. ما الأمر؟ لقد رحل لساعتين فقط ليرى بعض الأبقار المعروضة للبيع.

أتت ابنه الوسطى عَدوًا من المنزل، ورمت ذراعيها حوله، فلم يبقَ لديه شكٌّ أن شيئًا سيِّئًا قد حدث. كانت منقطعة الأنفاس، حتى إنها عجزت عن الكلام. سألها "روبين؟".

هزّت رأسها.

"أين أُمُّكِ؟".

أشارت باتجاه باب المطبخ.

عمَّت الفوضى كل شيء. غلى الحساء على النار دون رقيبٍ، وهُجِرَت العجينة على الرخامة، ووقفت بيسي خلف الكرسيِّ الهَزّاز تقبض على إطاره، ويبدو عليها سَمتٌ شَرِسٌ حِمائيٌّ. جلست ابنته الكبرى في الكرسيِّ تهتزُّ وتميل للأمام بوجه شاحب. كُتِّفت ذراعاها بشكلٍ غريب فوق صدرها، ووُضِعَت يداها على رقبتها. تَجمَّع حولها الأخوة الثلاثة الأصغر ونقروا تنُّورتها في قلق.

أرخت بيسي قبضتها من على الكرسي بارتياحٍ عندما دخل، وأدارت نحوه عينين قلقتين. حذَّرَته بنظرة من عينها ألّا يقول شيئًا.

"خذوا"، قالت للصغار الذين يتعلَّقون بأختهم. "اذهبوا بهذه إلى الخنازير". وألقت بالقشور إلى طبقٍ وأعطته لأكبرهم، وبعد تربيتة مواساة أخيرة على رُكبَة أختهم فعلوا ما طُلِب منهم.

سألها فور أن أُغلِق الباب "ماذا أراد؟".

"المعتاد".

"كم هذه المرَّة؟".

قالت له المبلغ فتخشَّب روبرت. لقد تجاوَزَ المبالغ التي أخذها منهم من قبل .

"أيُّ نوع من المشاكل يجعله يريد هذا النَّوع من المال؟".

أشارت بإيماءة امتعاضٍ "أنتَ تعرف كيف هو. كذبة تلو الأخرى. استثمار جيد، فرصة تأتي مرَّةً في العمر، سُلفَة حتى الأسبوع التالي... أنا لا أنخدع، وهو يعرف ذلك. لم تنفع أساليبه النَّاعِمة معي منذ زمن طويل جدًّا". عبَسَت. "ولكن لم يكن أيُّ شخص سينخدع فيه. ليس اليوم. كان مُتسارِعَ الأنفاس، ولا يستطيع التوقُّفَ عن الحركة: كان في حاجة مُلِحَّةٍ للمال وللرحيل مرَّةً أخرى. ظلَّ يقترب من النافذة بتوتُّر شديد. كان يريد إرسال أخيه إلى البوَّابة كي يرقب الطريق، ولكني

لم أدعه يذهب. بعد فترة قصيرة توقَّف عن الكذب وبدأ في الصِّياح "أقول لكم فقط أعطوني مالًا! وإلَّا سيكون هذا سبب موتي!"، كان يَطرُق بقبضتَيْه على الطاولة ويقول إن الأمر كله ذنبنا نحن، وأنه لولا أننا أَعَدنا الطفلة إلى عائلة فون لَمَا كان في هذا المأزق. كانت هناك رعشة في صوته. شيء ما كان يُخيفه.

سألتُه "ما الذي يمكن أن يكون قد أوصلك إلى مثل هذه الحالة؟"، وقال إن شخصًا ما يُلاحِقه. شخصٌ لن يردعه شيءٌ عن نَيْل ما يريد".

أضافت سوزان من فوق الكرسي الهزاز "قال إن حياته في خطر؟ "إن لم تُعطيني الأموال فأنا رَجُلٌ ميِّت"".

حكَّ أرمسترونج جبينه. "هذه ليست مناقشةً لكِ يا سوزان. اذهبي إلى غرفة الجلوس بينما أتحدَّث في الأمر مع أُمِّكِ".

أدارت ابنته عينيها نحو أمِّها.

قالت "قولي له يا أمي".

"رفَضتُ إعطاءه المال؛ فتكلَّم معي بغضب".

"قال إنها دائمًا ضدَّه، وقال إنها غير طبيعية. قال أشياء عنها من قبل أن تتزوَّجَكَ...".

"سَمِعَت سوزان كلَّ شيء فدَخَلَت".

"كنتُ سأقول له ألَّا يغضب هكذا من أُمِّنا. كنتُ...".

امتلأت عيون ابنته بالدموع.

وضعت بيسي يدًا على كتف ابنتها.

"استدار سريعًا، وفي لمح البصر أخذ سِكِّينَكَ من غمده خلف الباب، وأمسك بسوزان".

تيبَّس أرمسترونج. السكين في غمده خلف الباب يعني سكِّينَ الذَّبح الخاص به، الذي لا يعيده إلى مكانه بدون أن يصقله إلى حِدَّةٍ قاتلة. نظر إلى ابنته مرَّةً أخرى، واستوعب وضعها المنحني ووجهها الشاحب بفهم جديد.

قالت سوزان: "كنت سأهرب منه. كان يمكنني ذلك، إلَّا أني...".

عبر روبرت الأرض وأمسك بِيَدِ ابنته ونزعهما عن رقبتها. كانت تقبض على قماشة مُبقَّعة بالدَّم. جرى خَطٌّ واضح أحمر بميل حول الجِلد الطَّريِّ، وغاص عميقًا بما يكفي أن يسحج الجلد، وكان يبعد جزءٌ من البوصة عن أن يقطع شرايين الحياة الأساسية. غادَرَت كلُّ الأنفاس جسده.

"صاحت أُمِّي ودخل الأولاد. تَردَّد عندما رآهم... فهُم بحجمه الآن، وأقوياء، وكانوا اثنين. اهتزَّت يده والتَوَيتُ مُبتَعِدَة...".

"أين هو الآن؟".

قالت بيسي عابسةً: "ذهب إلى البلوطة القديمة عند النهر بجوار جزيرة براندي. قال أن أخبرَك أن تجده هناك".

أمسكت سوزان بيده مُرتَعِدَة "إمَّا أن تأخذ المال، وإمَّا تنتهي حياته. هكذا كانت الرسالة".

غادر أرمسترونج المطبخ ودخل إلى عمق المنزل. سمعوا باب مكتبه يُفتَح ويُغلَق، وبقي هناك للحظات، وعندما عاد كان يُزرِّر معطفه.

"أرجوك ألَّا تذهب يا أبي!".

وضع يده على رأس ابنته وقبَّل جبين زوجته ثم غادر بلا كلمة. لم يكد الباب يُغلَق حتى انفتح مرَّةً أخرى. تحسَّس مكان سكِّينه خلف الباب. كان الغمد في مكانه ولكنه فارغٌ.

قالت بيسي: "لا تزال معه".

قابَلَت كلماتُها البابَ وهو يُغلَق.

أفسحت السيول الغزيرة التي انهمرت في الصباح المجال الآن لمطرٍ ثابتٍ لحوح. أصدرت كلُّ قطرة ماء سواء وقعت على نهر أو حقل أو سقف أو ورقة شجرة أو شخص، صوتها الخاص. وكان كل صوت مميَّزًا عن الآخرين. صنعت معًا ملاءةً من الصوت المبلَّل تلتفُّ حول أرمسترونج وفليت، وتعزلهم.

"أعرف"، قال الراكب لركوبته، "أُفضِّل أنا أيضًا لو كنت في الداخل، ولكن الاحتياج يُجبِرُنا".

كانت الطريق مُنقَّرًا ومُمتلئًا بالأحجار، وشقَّت فليت طريقها بانتباهٍ، تختار مسارها بين الحُفَر، وتتفادى العقبات. من وقت لآخر رفَعَت رأسها لتشمَّ الهواء، وكانت أذناها منتبهتين.

غرق أرمسترونج في أفكاره.

تساءل بصوتٍ عالٍ "ماذا يريد بكل هذا المال؟ ولماذا الآن؟".

طرطشوا عبر الماء الراكد كلما انخفض الطريق.

"أخته! أخته نفسها!"، صاح أرمسترونج وهو يهزُّ رأسه، وصهلت فليت تعاطُفًا. "أحيانًا أتصوَّر أنه لا يوجد شيء آخر يمكن للمرء أن يفعله. الطفل ليس وعاءً فارغًا يا فليت كي يُشكِّله الآباء بأي شكل وطريقة يرونها مناسبة. إنهم يولدون بقلوبٍ خاصَّة بهم، ولا يمكن أن نُغيِّر ذلك مهما يُغدِق الشخص عليهم من الحب".

استمرَّا في طريقهما.

"ما الذي كان بإمكاني أن أفعله أيضًا؟ ما الذي فاتني؟ ها؟".

هزَّت فليت رأسها، وتَطايَر رذاذ ماءٍ من لجامها.

"لقد أحببناه. أحببناه بالفعل، أليس كذلك؟ اصطحبتُه معي وأَرَيتُه العالم. علَّمتُه ما أعرف. كان يعرف الخطأ من الصواب. لقد تلقَّى ذلك مني يا فليت. لا يمكنه أن يقول إنه لم يعرف".

تقدَّمَت فليت في الظلام، وتنهَّد أرمسترونج.

"لم تعتادي عليه أبدًا، أليس كذلك؟ حاوَلتُ ألَّا أنتبه إلى ذلك. كيف تُرجِعين أذُنَيكِ إلى الوراء وتنفرين منه عندما يقترب. ما الذي فعله بك؟ لم أكن أريد أن أظنَّ به شرًّا، ولم أُرِد أن أعرف، ولكن حتى الأب لا يتمكَّن من التَّجاهُل للأبد".

رفع أرمسترونج يده ومسح البَلَل من عينيه.

قال لنفسه "ليس هذا سوى بعض المطر"، مع أن الألم في حلقه أخبره عن شيء آخر. "ثم يوجد أمر الطفلة. أوَدُّ أن أعرف ما هي تلك المسألة بالتحديد يا فليت. ما الذي وَرَّط نفسه فيه؟ لا يوجد أبٌ يتعامل مثل هذا العبث. أي نوع من الآباء لا يتعرَّف على طفله؟ هي لم تكن ابنته، وهو يعرف ذلك منذ البداية. فما الأمر إذًا؟ هل تعتقدين أنه سيحكي لي ما هي المشكلة؟ كيف يمكنني أن أُصلِح الأمور إن كنتُ لا أعرف ما هي؟ إنه يربط يديَّ خلف ظهري ثم يشتكي أنني لا أقدر على تقديم المساعدة الكافية له".

شعر بالثِّقَل في جيبه. كان قد ملأ محفظته بالمال من الخزنة، وكانت المحفظة ثقيلة.

توقَّفَت فليت. خَبَّت بتوتُّر في مكانها، وانتفضت وتَقَلقَلَت في لجامها.

رفع أرمسترونج رأسه بحثًا عن تفسير. لم تجد عيونه إلَّا الظلام. كان المطر قد غسل كلَّ رائحة من الهواء وكتم الصوت. لم تَشِ له حواسُّه الآدمية بشيء.

مال إلى الأمام من على السرج "ما الأمر يا فليت؟".

انزلَقَت مرَّةً أخرى، وهذه المرة لمست قدمه طرطشة ماء. ترجَّل، فوصَلَت المياه إلى قمَّة حذائه ذي الرَّقَبة.

"الطوفان. لقد جاء".

تبدأ وتنتهي في ذا سوان

استمرَّ المطر لأسابيع. كان عليهم بَذلُ جهد كافٍ للتأمين ضد الفيضان دون ما يُذكِّرهم أيضًا بأن عليهم الاستعداد لغَجَر النهر. فقد حان موعد وصولهم إلى هذا الجزء من النهر، ولن توقِفَهم بعضُ مياه الفيضان، بل إنه سيساعدهم على الاقتراب من الممتلكات: البيوت والأكواخ، المباني الخارجية والحظائر والاسطبلات. يجب أن توضع كلُّ أداةٍ وآلة في الداخل، ويجب إغلاق كلِّ بابٍ؛ فسيأخذون أي شيء غير مُؤمَّن، بغضِّ النظر عن عدم معقوليَّة ذلك. أصيص الزهور على حافَّة الشباك ليس آمِنًا، والويل للبستاني الذي ينسى محراثًا أو منكاشًا مستندًا على الباب الخلفي، وفوق كل ذلك كانت ليلة الانقلاب الشتوي. مَرَّ عامٌ بالتمام منذ أتت الطفلة. والأمر الأهم هو هيلينا التي كادت حيويَّتها المتعجِّلة تهجرها في تلك الأيام الأخيرة

مـن انتظـار قـدوم وليدهـم. فعـل رجـالُ فـون كلَّ مـا بالإمـكان فِعلُـه، فشـكرهم وذهـب ليبحـث عـن زوجتـه.

قالـت: "أنـا متعبـة جـدًّا، ولكـن تعـال معنـا إلى الحديقـة قبـل أن تخلـع معطفـك. نريـد أن نـرى النهر".

"لقـد صعـد عشريـن يـاردة إلى داخـل الحديقـة بالفعـل. ليـس آمِنًـا لطفلـة في الظـلام".

"قلـتُ لهـا إن النهـر قـد يدخـل إلى الحديقـة، وهـي متحمِّسـة جـدًا. تشـتاق لرؤيتـه".

"حسنًا، أين هي؟".

"لقـد وقَعـتُ في النـوم عـلى الأريكـة. في الأغلـب أنهـا تجوَّلَـت حتـى المطبـخ لـترى الطاهيـة".

ذهبا إلى المطبخ، ولم تكن هناك.

قالت الطاهية: "ظَنَنتُها معكِ".

التقت عينا فون بعيني هيلينا في هلع مفاجئ.

"لا بُدَّ أنهـا ذهبـت لـترى النهـر، سـنجدها هنـاك وقـد سـبَقَتنا"، ومـع أن الكلـمات التـي نطقتهـا كانـت أكيـدةً، إلَّا أن صـوت هيلينـا تضمَّـن رجفـةً تفضـح شَـكَّها.

قـال لهـا زوجُهـا: "ابقـي هنـا. سـأكون أسرعَ وحـدي"، وركـض خارجًـا مـن الغرفـة، ولكـن هيلينـا لحقـت بـه.

تقدَّمَـت ببطء؛ فالمـرج كان طينيًّـا، وقـد جـرف السَّـيلُ في الأسـابيع الماضيـة الممـرَّاتِ المرصوفـة بالحـصى. لم يَعُـد معطـف المطـر يُغلَـق بالكامـل فـوق بطنهـا، وتسـاءلت بينـما يُغـرِق المطـر فسـتانها مـا إن كانـت قـد أخطـأت تقديـر قوَّتهـا. أكملـت بعـد وقفـة قصـيرة للاسـتراحة.

تخيَّلَت ما ستراه: الطفلة واقفة مسحورة عند طرف الماء، يُبهِرها ارتفاع النهر. توقَّفَت عندما وصلت إلى فجوةٍ في السور يظهر منها النهر. كان زوجها هناك يَهزُّ رأسه ويتحدَّث بطريقة مُلِحَّة، ويومئ مع البستاني، ورجلان آخران يَهزَّان رأسيهما بوجهين جادَّين، ثم ركضا بسرعة كي ينفِّذا أوامره.

ضربت السخونة جسدَها بأكمله، ودقَّ قلبها عاليًا. انطلَقَت في ركضٍ أخرقَ وهي تنادي اسمه. استدار ليرى عينيها تتَّسِعان، وتتعثَّر في الطين، ومع أنه وصل في الوقت المناسب ليُخفِّف من وقع سقوطها إلا أنها أطلقت صيحة ألم.

"لا تقلقي، لقد نَشَرتُ الخبر. إنهم يبحثون عنها. سنجدها".

هزَّت رأسها وهي منقطعة الأنفاس ووجهها أبيض.

"ما الأمر؟ هل هو كاحلك؟".

هزَّت رأسها "إنه الطفل".

نظر فون بطول الحديقة وهو يلعن نفسه لأنه أرسل جميع الخدم الرِّجال للبحث عن الطفلة. قدَّر المسافة حتى المنزل والممرَّات الزَّلِقَة والظلام. هل سيقدر؟ لا توجد طريقة أخرى. رفع ثقلها بالكامل بين ذراعيه، واستعدَّ كي يبدأ.

سمع صوتًا ينادي عليه، ثم سمع النداء مرة أخرى بصوت أعلى.

أتت كولوديون تسبح بهدوءٍ فوق الماء الشاسع.

عندما رفعوا هيلينا على متنها وبدؤوا في التحرُّك مرَّةً أخرى قال له دونت: "ريتا في ذا سوان. سآخذ هيلينا إلى هناك، ويمكنك أنت أن ترجع بكولوديون كي تبحث عن الطفلة".

"هل غرق كوخ ريتا؟".

"نعم، ولكن يوجد ما هو أكثر. إنه جو".

كان الشاربون في ذا سوان قليلين. قد يكون هذا وقت الانقلاب الشتوي، ولكن الفيضان فيضانٌ في نهاية الأمر، ويحتاج إلى كل الشباب: يُثبِّتون الأبواب بالألواح الخشبية، يُحكِمون إغلاقها، ينقلون الأثاث إلى الطوابق الأعلى، يسوقون الماشية إلى أراضٍ أعلى... الرجال الوحيدون في الحانة كانوا مَن لا يقدرون على الحَدِّ من قدرة النهر على التدمير: العجائز والعاجزون، والذين كانوا سكارى بالفعل عندما أتى الفيضان. لم يحكوا حكايات. كان جو الحَكَّاء يحتضر.

كان جو يغرق في سريره في الغرفة الصغيرة الواقعة في أبعد مكانٍ مُمكِن عن النهر دون أن يكون خارج ذا سوان. يُهَمهِم بأصواتٍ بين نوبات شهيقه طلبًا للهواء. تتحرك شفتاه بلا توقُّف، ولكن الأصوات التي تَصدُر من تحت الماء لم تُوضِّح نفسها في كلماتٍ يمكن لأي شخص أن يفهمها. تَقطَّب وجهه، وارتعشت حواجبه مُعبِّرة. كانت قصَّةً أخَّاذة لا يمكن لأي شخص سواه أن يسمعها.

جاءت بنات جو وذهبن بين سريره والغرفة الشتوية. وضعت صغيرات المارجو اليوم ابتساماتهن المرحة جانِبًا، وارتدين نفس الأسى العميق الذي يُكلِّل وجه أُمِّهِنَّ الجالسة بجوار السرير ويدها في يد جو.

كانت هناك لحظة بدا خلالها أن جو يطفو مؤقَّتًا. كانت عيونه نصف مُغمَضَة، ولكنه ألقى بضع مقاطع صوتية قبل أن يغرق مرَّةً أخرى.

سأل چوناثان حائِرًا "ماذا قال؟".

ردَّت أُمُّه بهدوء "نادى على كوايتلي"، وهزَّت بناته رؤوسهنَّ. لقد سَمِعنَه هُنَّ أيضًا.

"هل أذهب لأناديه؟".

"لا يا چوناثان . هذا ليس ضروريًّا"، قالت مارجو، "إنه في الطريق".

سَمِعَت ريتا كلَّ ذلك وهي تقف بجوار النافذة تنظر إلى الخارج نحو البحيرة الكبيرة التي تحيط بذا سوان مثل صفحة فارغة، والتي أتت حتى بضع أقدام من حوائطه لتعزل الحانة وتجعلها جزيرة.

رأت كولوديون تظهر في الأفق، ورأت دونت يُنزِل قارب تجديف في المياه العميقة. ساعَدَ هيلينا أن تنزل إليه -كانت ظِلًّا داكِنًا- وجدَّف حتى مدخل ذا سوان. فَهِمَت ريتا دلالة حضور هيلينا المفاجئ من الرعاية المفرطة التي يوليها لها دونت.

"السَّيِّدة فون هنا يا مارجو- يبدو أن أوانها قد جاء".

"من الجَيِّد وجود الكثير مِنَّا هنا. بناتي أُمَّهاتٌ، وسيكون بمقدورهنَّ المساعدة".

تمكَّن دونت خلال الانشغال الذي سبَّبه وصول هيلينا أن ينتحي جانبًا بريتا.

"الفتاة فُقِدَت".

"لا!"، وأمسَكَت ببطنها عند الفراغ الضَّخم الذي شعرت به هناك.

"ريتا... هل أنت بخير؟".

بذلت جهدًا لتستجمع نفسها. هناك رجل يُحتَضَر وطفلٌ يوشك أن يولد.

"منذ متى؟ أين شوهِدَت آخر مرة؟".

قال له دونت القليل الذي يعرفه.

نادت إحدى صغار المارجو ريتا طالِبةً منها تعليمات.

كان وجـه ريتـا أبيـض، وبـدا ممتلئًـا بالهلـع، حتـى إنـه لم يرغـب لأوَّل مَـرَّة في تصويـره.

"يجـب أن أذهــب. جـو وهيلينـا يحتاجـان لي. ولكــن يـا دونــت..."، واسـتدارت عائِـدةً إلى داخـل الغرفـة كي يلتقـط آخـر كلماتهـا التـي نُطِقَـت بشراسَـةٍ "اعـثُر عليهـا!".

السـاعات التـي تلـت كانـت طويلـة جـدًّا. وقصـيرة جـدًّا. بينـما رقـدت الميـاه مــن حولهــم ســاكِنةً ولا مباليــة انشــغلت النســاء في ذا ســوان بملاحقــة الشــؤون الآدميــة للمــوت والميــلاد. عــلى أحــد أطــراف الحائــط كانــت هيلينــا تكافــح لتــأتي بابنهــا إلى الحيــاة. عــلى الجانــب الآخــر كان جــو يكافــح كي يغادرهــا، وقامــت صغــار المارجــو بــكل شيء احتجــن لفِعلــه كي تبــدأ الحيــاة وكي تنتهــي: حَمَلــن المــاء والخِــرَق النظيفــة، مــلأن ســلال الحطــب وأشــعلن النــيران وأضــأن الشــموع وصنعــن أطبــاق الطعــام التــي لم يملــك أحــدٌ الشــهية كي يأكلهــا، ولكنَّهــم أكلوهــا عــلى كلِّ حــال مــن قبيــل حُســن الأدب، وبينــما كل ذلــك يحــدث كُــنَّ أيضًــا ينتحــبن ويخففــن ويَهــدأن ويرتحــن.

تحرَّكــت ريتــا في كل اتجــاهٍ، تفعــل مــا هــو ضروريٌّ، وفي الممــر بــين الغرفتــين كان چوناثــان قَلِقًــا وخائِفًــا.

"هــل وجدوهــا يــا ريتــا؟ أيــن هــي؟". كان يريــد أن يعــرف في كل مــرَّة تــترك فيهــا هيلينــا.

قالــت لــه وهــي تدخــل مــرَّة أخــرى إلى غرفــة جــو: "لــن نعــرف أي شيء إلَّا عندمــا يعــودون ويحكــون لنــا".

سـلَّموا أنفسـهم إلى الوقـت. مضـت سـاعاتٌ كانـت كأنهـا دقائـق، وسـمعت ريتـا مارجـو تقـول: "كوايتلي قـادم يـا جـو. مـع السـلامة يـا حبيبـي".

تذكَّرَت ريتا ما سمعته في ذا سوان منذ ما يقرب من عام "لا أحتاج سوى أن أنظر داخل عيني الشخص كي أرى البصر يغادرهم"، لقد رأت البصر يغادر عيني جو.

"صَلِّي من أجلنا يا ريتا من فضلك؟" طلَبَت منها مارجو.

صلَّت ريتا، وعندما انتهت أفلتت مارجو يدَ جو وشبكت يديه في بعضهما البعض، ثم وضعت يديها هي في حِجرها. سمحت لدمعتين أن تهربا، واحدة من كل عين.

قال لريتا: "لا تنشغلي بي. استمرِّي فيما تفعلينه".

مضت دقائق يمكنها أن تكون ساعات على الجانب الآخر من الحائط، ثم دفعت انقباضةٌ أخيرة الطفلَ ليولد. سقط في يَدَي ريتا بسرعة زَلِقَة.

"آه!" همست صغار المارجو في سعادة مندهشة "ما هو؟".

رمشت ريتا مُتفاجِئَةً.

"لقد سمعت بذلك من قبل ولكني لم أره. عادةً ما ينفجر الكيس قبل أن يخرج الطفل. هذا هو ما يخرج الماء. ولكن هذا الكيس لم ينفجر".

كان الطفل الكامل في عالمه تحت الماء. عيونه مُغمَضَة بقوَّة، وتنفتح القبضة الصغيرة وتنغلق كما في الأحلام مع حركة السائل. كان يسبح نائمًا داخل غشاء شفَّاف يمتلىء بالماء.

لمست ريتا الغشاء لؤلؤي اللون بطرف سكين فسَرَى قَطعٌ كبير حوله. طرطشت المياه.

فتح الولد عينيه وفمه في نفس الوقت، واندهش لاكتشاف الهواء والعالَم.

آباء وأبناء

داست حوافر فليت عبر الماء. في الضوء الشحيح ظهرت لمعةٌ مثل القصدير من حوله، لا يُعكِّرها سوى حركتهم. فكَّر أرمسترونج في كل مخلوقات الأرض الصغيرة، الجرذان وفئران الحقل و ابن عرس، وتمنَّى أن يكونوا جميعًا في أمان. فكَّر في الطيور، صيَّادو الليل الذين أُبعدوا عن مرعاهم الأرضي الطبيعي. فكَّر في الأسماك التي شُتِّتَت دون أن تعرف عن تيَّارها الأساسي، ووَجدَت نفسها الآن تسبح بين العُشب على ارتفاع بوصاتٍ قليلة من الأرض، وتتقاسم المساحة معه هو وحصانه. تمنَّى ألَّا يدوس على أيِّ كائنٍ تائه في هذا المشهد الذي لم يَعُد ينتمي بوضوحٍ للأرض أو للماء. تمنَّى أن يكونوا جميعًا بخير.

وصلوا إلى شجرة البلوط القديمة بجوار جزيرة براندي.

سمع صوتًا، وبينما يستدير فصل ظِلٌّ نفسَه عن ظلام جذع الشجرة.

"روبين!".

"لم تُسرِع!".

ترجَّل أرمسترونج.

في الظلام كان ابنه يجثم في مواجهة البرد ويرتعد داخل سترته الخفيفة. انطلَقَت كلماته فجأة بتباهٍ ذُكوريٍّ، ولكن رعشة كسَرَت صوته وتركت جرأته مُهَلهَلَة.

ارتفع التعاطُف عفويًا داخل أرمسترونج، ولكنَّه تذكَّر الخطَّ المائل الأحمر على رقبة ابنته. قال بصوتٍ مُثقَل: "تفعل ذلك في أختك! إنه أمرٌ لا يُصدَّق...".

قال روبين: "كان ذنبَ أُمِّي، لو كانت قد فعَلَت ما قُلتُه لها لم يكن ذلك سيحدث".

"تلوم أُمَّك؟".

"ألومها على أشياء كثيرة، ونعم، هذه واحدة منها".

"كيف يمكنك أن تجعل من ذلك ذنبها هي؟ أُمُّكَ أفضل امرأة في العالم. يَدُ مَن أمسكت بالسِّكِّين على رقبة سوزان؟ يَدُ مَن لا تزال تمسك بالسكين؟".

صمت، ثم:

"هل جلَبتَ المال؟".

"سيكون هناك وقت للحديث عن المال لاحقًا. توجد أمور أخرى يجب أنت نتكلَّم عنها أوَّلًا".

"لا يوجد وقت. أعطِني المال الآن ودعني أذهب. لا توجد دقيقة لأضيِّعَها".

"لماذا العجلة يا روبين؟ مَن يَتعقَّبُك؟ ماذا فعلت؟".

"ديون".

"اعمل لتُخرِج نفسك من الديون. تعالَ إلى المنزل في المزرعة واعمَلْ مثل أخوتِكَ".

"المزرعة؟ يمكنك أنت أن تستيقظ في الخامسة كل صباح لتُطعِم الخنازير في البرد والظلام. أنا خُلِقتُ لحياةٍ أفضل من هذه".

"يجب أن تصل إلى اتِّفاق ما مع الشخص الذي أعطاك القَرضَ. لا يمكنني أن أدفعه كله. إنه كبير جدًّا".

"أنا لا أتحدَّث عن قرضٍ بين أشخاص مُهذَّبين. إنه ليس رَجُلَ بنوكٍ مُستعدًّا لإعادة التفاوُض حول الشروط"، أتى صوتٌ يمكن أن يكون نحيبًا أو ضحكًا. "إنه يُعيرني مالًا منذ شهور، وإن لم أدفع له الليلة فسيرسلني إلى حتفي. اصمت!".

أَطرَقوا السمع في الظلام. لا شيء.

"المال! إن لم أهرب الليلة...".

"إلى أين؟".

"بعيدًا. أي مكان. حيث لا يعرفني أحد".

"وتترك كل هذه الأسئلة خلفك؟".

"لا يوجد وقت!".

"قُل لي الحقيقة عن زوجتك يا روبين. قُل لي الحقيقة عن أليس".

"ما أهمية ذلك؟ لقد ماتا! انتَهيَا. ذهبا".

"لا كلمة أسى واحدة؟ لا ندم؟".

"ظننتُها ستأتي بالمال معها. قالت إن والِدَيْها سيغيِّران رأيهما. سيُدعِّماننا في الحياة. وعِوَضًا عن ذلك كانت حجرًا مربوطًا في رقبتي. لقد ماتت وأغرقت الطفلة وتخلَّصتُ منهما".

"كيف يمكنك أن تتكلَّم هكذا؟".

تخشَّب الظِّلُّ النحيل المرتعد فجأة.

سأل روبين هامسًا "هل سَمِعتَ شيئًا؟".

"لا شيء".

أنصت ابنه للحظاتٍ، ثم وَجَّه انتباهه إلى أرمسترونج "إن لم يَكُن هنا بالفعل فهو على وشك الوصول. أعطِني المال ودعني أذهب".

"ماذا عن الطفلة التي كانت في ذا سوان. تلك التي لم تدعي أنها لك ولم تتركها. تلك الخدعة في المهرجان الصيفي. احكِ لي عن ذلك".

"كما هي العادة دائمًا! ألا تعرفني بعد كل هذا الوقت؟ نفس الشيء الذي يتعلَّق من حزامك في الجراب الجلدي".

"توقَّعتَ أن تجلب لك المال؟".

"من عائلة فون. كان واضِحًا من اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى ذا سوان تلك الليلة أن فون كان يعرف أن الطفلة ليست ابنته. لم يكن ذلك مُمكِنًا. أنا كنت أعرف وهو كان يعرف. كان بالإمكان الحصول على المال من الأمر لو كان لديَّ بعض الوقت للتفكير. فقَدتُ الوعيَ، أو ظنُّوا هم أني فقدتُه، ودبَّرتُ الأمر هنا فورًا من على أرض المكان. كنت أريد المال، ويُمكنني أن أدَّعي أنها طفلتي".

"كنتَ تقصد أن تدَّعي أنها لك ثم تبيع ادِّعاءَكَ؟".

"كان فـون عـلى وشـك أن يدفـع، ولكـن بعـد أن أعـادت أمـي الطفلـة لم يَعُـد يحتـاج إلى ذلـك. أنـا مَديـنٌ بفضلهـا".

"لا تتحـدَّث بشـكل سـيِّئ عـن أُمِّـكَ. لقـد علَّمتـكَ الخطـأ مـن الصـواب. إن كنـتَ قـد سـمعتها بشـكل أفضـل كنـتَ سـتصبح رَجُـلًا أفضـل اليـوم".

"ولكنهـا لم تفعـل الصـواب، أليـس كذلـك؟ فقـط تتحـدَّث عـن فِعلـه! كنـت سـأصبح رجـلًا أفضـل إن كانـت هـي امـرأةً أفضـل. أنـا أضـع المسـؤولية عندهـا".

"انتَبِه لما تقوله يا روبين".

"انظـر إلى ثلاثتنـا! هـي بيضـاء ناصعـة، وأنـت أسـود حالِـكٌ! وانظـر إليَّ! أنـا أعـرف أنـك لسـت أبي. أعـرف منـذ طفولتـي أنـك لسـتَ أبي".

استغرق أرمسترونج لحظة كي يجد الكلمات المناسبة.

"لقد أحبَبتُكَ مثلما يحبُّ الأب طفله".

"لقـد خَدَعَتـكَ، أليـس كذلـك؟ كانـت تحمـل طفـلَ رَجُـلٍ آخـر، ترغـب في يـأسٍ أن يتزوَّجهـا شـخصٌ مـا، ولكـن مَـن سـيرغب في أن تكـون زوجتـه امـرأةً عرجـاءَ وعَـوراء؟ ليـس والـد الطفـل بالتأكيـد. ثـم أتيـتَ أنـتَ. المـزارع الأسـود. وحـدَّدَت هدفهـا أليـس كذلـك؟ نِعـمَ التبـادُل هـذا! عـروس بيضـاء للمُـزارع الأسـود... وأنـا، بعـد ثمانيـة أشـهر".

"أنتَ مُخطئ".

"أنـتَ لسـتَ أبي! دائمًـا مـا كنـت أعـرف ذلـك. وأعـرف مَـن هـو أبي الحقيقـي".

جفل أرمسترونج "تعرف؟".

"هل تتذكَّر عندما كسرت قفل الدُّرج وسرقت النقود؟".

"كنتُ أفضِّل نسيان ذلك".

"عَثَرتُ على الخطاب في ذلك الوقت".

ارتبك أرمسترونج، ثم اتَّضح له ما حدث "الخطاب المُرسَل من اللورد إمبري؟".

"الخطاب المُرسَل من أبي. الذي يقول فيه أن يصل إلى ابنه الطبيعي. المال الذي تحرمونني منه أنتَ وأمِّي، والذي أخذتُه منكَ بالخداع".

"أبوك أنت...".

"نعم. أنا أعرف أن اللورد إمبري هو أبي. لقد عرفتُ منذ كنت في الثامنة".

هزَّ أرمسترونج رأسه "إنه ليس أباك".

"لقد قرأتُ الخطاب".

هزَّ أرمسترونج رأسه مرَّةً أخرى "إنه ليس أباك".

"الخطاب معي!".

هزَّ أرمسترونج رأسه للمرة الثالثة وفتح فمه كي يُكرِّر الكلمات. كان صوت الكلمات مُبلَّلًا في الهواء -"إنه ليس أباك!"- ولكن الصوت الذي نطقها لم يكن صوتَ أرمسترونج.

تفاجَأ أرمسترونج بأن الصوت مألوف نوعًا ما.

تلوَّى وجه روبين في يأس.

"إنه هنا!". أنَّ هامِسًا.

استدارا ونظرا في جميع الأنحاء، ولكن لم تستطع عيونهم أن تخترق الظلام. كل جذع شجرة وكل شجيرة يمكنها أن تُخفي شخصًا، وطاف حشدٌ من الأشباح الضبابيَّة في الرطوبة السوداء. وأخيرًا، وبقوَّة التحديق، تمكَّنَت عيونهم من تحديد شكلٍ نِصفُه ماءٌ ونصفه ليلٌ،

وقـد تبخـتر باتجاههـم. هيئـة مبتـورة تجـرُّ ملابسـها في المـاء، وتُميـل قُبَّعتـه مُنخَفِضـةً لتُخفـي ملامحـه.

اقتربت من روبين طرطشةٌ تتلو طرطشةً.

أخـذ الشـابُ خطـوةً إلى الـوراء. لم يسـتطِع إبعـاد عينيـه الخائفتـين عـن الهيئـة المقترِبـة، ولكـن وفي نفـس الوقـت كان ينكمـش أمامهـا.

حـين وصـل الرَّجُـل -فقـد كان رَجُـلًا- إلى بُعـد خمـس أقـدام مـن روبـين توقَّـف وأنـاره ضـوء القمر.

"أنا أبوك".

هزَّ روبين رأسه.

"ألا تعرفني يا بُنيّ؟".

"أعرفـك"، ارتعـش صـوت روبـين. "أعـرف أنَّـكَ شِرِّيـر وضيـع الأصـل، رجـلٌ مـن القـاع يعيـش بقـوَّةِ سِـكِّينه والجريمـة. أعـرف أنَّـكَ مُـدَّعٍ ولـصٌّ وكاذبٌ، وأسـوأ مـن ذلـك".

تجعَّد فم الرجل في ابتسامة فخورة.

"إنه يعرفني!"، قال لأرمسترونج. "وأرى أنك أيضًا تعرفني".

قـال أرمسـترونج ضاغِطًـا عـلى كلماتـه: "ڤيكتـور نـاش. تَمنَّيـتُ ألَّا أراكَ أبـدًا بعـد أن طُـرِدتَ مـن مزرعتـي قبـل كل تلـك السـنوات. ولكنَّـكَ عُـدتَ كـما العُملَـة الرديئـة، ولم أكـن آسِـفًا عـلى ظَنِّـي أنـكَ غَرقـتَ عنـد جزيـرة برانـدي".

انحنـى ڤيكتـور. "غرقـتُ؟ لم يَكُـن أَجَـلي قـد حـان. أنـا أعيـش كي آخـذ مـا لي. أنـا مَديـنٌ لـك بالشـكر يـا أرمسـترونج لتربيـة ابنـي وتعليمـه. ألا يتحـدَّث بشـكلٍ راقٍ بعـد كلِّ هـذا التعليـم؟ أسـمع مـا يخـرج مـن فمـه... بـل إننـي أحيانًـا لا أفهمـه جيِّـدًا عندمـا ينطلـق باللاتينيـة واليونانيـة،

وكلماتـه الطويلـة التـي لا يعرفهـا أحـد. ويكتـب جيّـدًا أيضًـا. راقِبْـه وهـو يمسـك قلـمًا، وشـاهِدْ كيـف يَخـطُّ مـا ينطقـه لسـانُكَ بسرعـة بالحـبر، ولا يـترك بُقَعًـا! كل كتابتـه حلقـاتٌ والتفافـاتٌ وتبـدو مثـل الصـورة، حقًّـا. وسـلوكه! لا يمكـن أن يُعلّـق شـخصٌ بكلمـة عـلى سـلوكه: إنـه مثـل أرقـى لـورد في البـلاد. أنـا فخـورٌ بابنـي، فخـورٌ حقًّـا. فبـه أفضـل مـا بي: كل مكـري ودهـائي، يختلـط بأفضـل مـا في زوجتـك: ألا تـرى جَمالَـه، بشَـعرِه الناعـم وبشرتـه البيضـاء؟ لقـد قُمـتَ بـدورك يـا أرمسـترونج. لقـد صَقَلتَـه بأفضـل مـا فيـك".

ارتعد روبين.

قـال للرَّجُـل: "هـذا ليـس حقيقيًّـا!"، واسـتدار نحـو أرمسـترونج "هـذا ليـس حقيقيًّـا، أليـس كذلـك؟ قُـل لـه! قُـل لـه مَـن أبي!".

ضحك الرجل.

"إنها الحقيقة"، قال أرمسترونج لروبين، "هذا الرجل أبوك".

حدَّق روبين "ولكن اللورد إمبري...!".

ردَّد الرجـل وهـو يضحـك "اللـورد إمـبري! اللـورد إمـبري! إنـه أبـو شـخصٍ مـا بالفعـل، هـا يـا أرمسـترونج؟ لِـمَ لا تقـول لـه؟".

"اللـورد إمـبري هـو أبي يـا روبـين. لقـد وقـع في غـرام أُمِّـي عندمـا كان شـابًّا صغـيرًا، وكانـت هـي خادمـة. هـذا هـو مـا يشـير إليـه الخطـاب. إنـه الاتِّفـاق الـذي عقـده كي يضمـن لي مسـتقبلي المـالي. أنـا روب أرمسـترونج المذكـور في الخطـاب".

نظر روبين مصدومًا في وجه أرمسترونج.

"إذًا فأُمِّي...".

"لقـد تـمَّ اسـتغلال براءتهـا بـأشَرِّ الطُّـرق مـن قِبَـل هـذا الوغـد، وأنـا فَعَلـتُ أقـصى مـا في وسـعي كي أُصحِّـح الأمـر لهـا. وأُصحِّحـه لـك".

"نعم، حسنًا... هذا يكفي. لقد أتيتُ لأعلن انتماءه لي. جاء أوان أن تتخلَّى عنه لي. لقد حصلتَ عليه لخمسة وعشرين عامًا، والآن لا بُدَّ أن يأتي لأبيه الحقيقي. ألا يجب أن يحدث ذلك يا روب؟".

"أجيء إليك؟ تظنُّ أنني سأجيء إليكَ؟". ضحك روبين. "أنت مجنون".

"ولكن لا بُدّ أن يحدث هذا يا ولد. العائلة هي العائلة. نحن أقارب، أنا وأنت. بتخطيطي الأساسي ومظهرك الجيد، بمعرفتي المتدنِّية وسلوكك العالي- أظنُّ أن بإمكاننا النجاح! بالكاد بدأنا! لا بُدَّ أن نكمل ما بدأناه! سنصنع المعجزات معًا يا ولدي! لقد آن وقتنا بعد كل هذا الانتظار!".

زمجر روبين "لا أريد أيَّ صِلَةٍ بكَ! أقول لك الآن أن تتركني! لن أعترف بك إن جئتني، ولن أسمح أن يُقال إنني ابنُكَ. إن قُلتَ هذا لأي مخلوق فسـ.... فسـ...".

"ما الذي ستفعله يا روبين يا ابني؟ ماذا؟ ها؟".

لهث روبين.

"ما الذي أعرفه يا روبين؟ قُل لي. ما الذي أعرفه عنك ولا يعرفه أيُّ شخصٍ آخر؟".

تجمَّد روبين "أيًّا كان ما ستقوله فستسقط معي".

هزَّ الرجل رأسه "وهو كذلك".

"لن تدين نفسك".

نظَرَ الرجل إلى الماء. "مَن يمكنه أن يعرف ما الذي قد يفعله المرءُ وما الذي قد لا يفعله عندما يُنكِره ابنه؟ إن الأمر يخصُّ العائلة يا ابني. لقد فقَدتُ أمِّي في أيامٍ أقدم من أن أتذكَّرها. عَلَّمني أبي كل شيء أعرفه: كيف أسرق وأتشاجر وأُفلِتُ عندما أقتل... ولكنه أُعدِمَ

قبـل أن أصـل إلى سِـنِّ الرجولـة. كان لـديَّ أخـتٌ في وقـتٍ مـا -عـلى الأقـل أطلـق عليهـا أختـي- ولكـن حتـى هـي خانتنـي. خانتنـي معَـكَ أنـت يـا أرمسـترونج مـن دون جميـع النـاس مـن أجـل لا شيء سـوى خنزيـرٍ مسروق. إنهـا لا تعنـي لي شيئًا الآن. أنـتَ كلُّ مـا أملـك يـا روبـين بشَـعرِكَ الناعـم وكلماتـك الحريريـة وأسـاليبك الأرسـتقراطية... أنـتَ كُلُّ العـالم بالنسـبة لي يـا روبـين، وإن لم أسـتطِع أن أحصـل عليـكَ فـما جـدوى حيـاتي؟ لا، مستقبلنا واحـد يـا روبـين، وعليـكَ أنـتَ أن تختـار في أيِّ اتجـاه سـتمضي. نسـتطيع أن نتشـارك في الأعـمال كـما فعلنـا مـن قبـل، أو تنكـرني وأتـبرأ أنـا منـكَ ونُسَلسَـل إلى بعضنـا البعـض في الزنزانـة، ونذهـب إلى المشـنقة، أبًـا وابنـه، معًـا، كـما هـي طبيعـة الأمـور".

بكى روبين.

سـأل أرمسـترونج "بمـاذا يُسَـيطر عليـك هـذا الرَّجُـل؟ أي مؤامـرة تربطكـم؟".

سأل الرجل "هل أقول له؟".

"لا!".

"أظـنُّ أني سـأفعل. سـأغلق هـذا الملجـأ، وعندمـا يختفـي سـيكون السَّـنَد الوحيـد هـو بجـواري". اسـتدار إلى أرمسـترونج. "أنـا أعـرف أن هـذا الشـاب الكريـم يُحـبُّ أن يـشرب في مـكانٍ عـلى أطـراف أوكسـفورد، وتعرَّفـتُ إليـه هنـا ببـطء وبالتدريـج. زَرَعـتُ خُطَّـةً في رأسـه، وتركَتُـه يظـنُّ أنهـا مـن اختراعـه. ظـنَّ أني أتبعـه في كل خطـوة، بينـما في الحقيقـة أن الطريـق كان طريقـي أنـا. سرقنـا خنزيرتَـكَ معًـا يـا أرمسـترونج... كان ذلـك الأمـرَ الأوَّل! كنـت أضحـك خلسـةً في تلـك الليلـة وأنـا أفكِّـر فيـما قُلتَـه لي قبـل عشريـن عامًـا مَضَـت عـن أن أبعـد ولا أقـترب حتـى عـشرون ميـل منـك أنـت وبيـسي "لا أريـد أن أراك في محيـط عشريـن ميـلًا منِّـي أنـا وبيـسي"، وهـا أنـا أدخـل إلى فنـاء بيتـك لأسرق خنزيرتَـكَ المفضَّلـة،

وابني أنا وهو مَن يفكُّ قُفلَ البوَّابة ويُغريها بالتوت كي يساعدني! هربنا معًا، وقمنا بأعمال جيدة لفترة. كنت أعرف كيف أرتب خدعة الخنزيرة التي تقرأ الطالع. أتت لنا المهرجانات بأموال جيِّدة. أبلينا بلاءً حسنًا بالنسبة لمثل أصنافنا الدنيئة، إلَّا أن ابنك لم يكن راضيًا. كان يرغب في المزيد. فاستخدمنا ما لدينا (الخنزيرة والمهرجان)، وقفزنا إلى أمور أعظم. ألم نفعل ذلك يا روب، يا ابني؟".

ارتعد روبين.

"طفلة فون..." همهم أرمسترونج فَزِعًا "الخطف...".

"أحسَنتَ! استخدَمَ روب كلَّ ما يملك من حديثٍ ليستدرج تلك الفتاة الحمقاء روبي كي تتخلَّى عن الشِّلِن. نظَرَت خنزيرتُكَ الذَّهبيَّة بنعومةٍ في العينين المستديرتين للفتاة السخيفة، وقال لها روبين من خلف ستارٍ بألطف صوتٍ لخنزيرٍ أين تذهب لترى وجهَ حُبِّها الحقيقي في ليلِ النَّهر. ألم تفعل يا ابني؟".

وضع روبين وجهه بين يدَيْه واستدار نحو أرمسترونج، ولكن أرمسترونج أمسك برسغيه وأجبره على النظر إلى عينيه.

"هل هذا حقيقيٌّ؟".

انكمش روبين وتهاوى وَجهُه.

"وهناك المزيد، أليس كذلك يا روبين، يا ولدي؟".

"لا تَسمعْه!".

"نعم، فلم تكن تلك سوى البداية. كانت فكرةَ مَن يا روبين منذ البداية؟ فكرة مَن أن نأخذ الفتاة الصغيرة من عائلة فون، وكيف نفعل ذلك؟".

"كانت هذه فكرتك أنتَ!".

"نعـم، كانـت فكـرتي أيضًـا، ولكـن كنـتَ تظـنُّ أنهـا فكـرة مَـن في البدايــة؟".

أدار روبين وجهه بعيدًا.

"مَـن الـذي تَباهَـى بذكائـه؟ مَـن الـذي أعطـى أوامـر للرجـال في المركـب، ومَـن كتـب ورقـةَ الفديـة، ومَـن حـدَّد لـكلِّ رَجُـلٍ مخبـأه؟ مَـن الـذي تبخـتر في تلـك الليلـة نفسـها ليفحـص أن كل رَجـلٍ قـد فهـم التعليـمات جيِّـدًا؟ كنـتُ فخـورًا بـك وقتهـا! عندمـا رأيتـك مجـرَّدَ مراهِـق، ولكنَّـكَ واثـق مـن نفسـك ومـن شَـيطَنتِكَ. قلـتُ لنفـسي "هـذا ولـدي. في شرايينـه دمـي، وفي قلبـه قسـوتي، ولا يوجـد شيء يمكـن لأرمسـترونج فِعلـه لتنظيـف ذلـك منـه. إنـه لي، بجسـده وروحـه"".

همـس روبـين في أذن أرمسـترونج "أعطِـه المـال". ولكنـه لم يخفـض صوتـه بمـا يكفـي؛ لأن الكلـمات حُمِلَـت فـوق المـاء المسـتمر في الارتفـاع، وضحـك الرجـل "المـال؟ نعـم سـنأخذ المـال فعـلًا، أليـس كذلـك يـا ابنـي؟ نصيـبٌ لي ونصيـبٌ مسـاوٍ. سأقسـمه معـكَ يـا روبـين يـا ولـدي، نصفًـا بنصـف!".

ارتفـع المـاء ليصـل إلى ركبـة ثلاثتهـم، وسـقط المطـر مُغرِقًـا قُبَّعاتهـم، وسـال عـلى رقابهـم إلى داخـل قمصانهـم، وفي وقـت قصـير صـار نصفهـم الأعـلى مُبتـلًا مثـل نصفهـم الأسـفل، ولم يصبـح هنـاك فَـرقٌ إن كانـوا داخـل المـاء أم خارجـه.

أكمل الرجل "والباقي يا روبين. الباقي!".

"لا تفعَـلْ...". تـأوَّه روبـين، ولكنـه صوتـه كاد ألَّا يرتفـع فـوق صـوت المطـر الـذي يسـيل فـوق المـاء.

"نعـم، البقيـة... كانـت معنـا الطفلـة الصغـيرة، أليـس كذلـك يـا روبـين؟ كانـت في قبضتنـا. خـارج النافـذة، ونزلنـا عـلى السُّـلَّم، وركضنـا في الحديقـة حتـى النهـر حيـث ينتظـر قاربنـا".

اسـتدار نحـو أرمسـترونج "كان داهيـةً! هـل تعـدَّى حـدود الحديقـة؟ هـل تسـلَّق السُّـلَّم؟ هـل اقتحـم المنـزل؟ ليـس بنفسـه! الآخرون فعلـوا كل العمـل الخطـير، وهـو انتظـر في القـارب. فهـي عقليـة تنظيميـة أكـبر مـن أن تَتِـمَّ المخاطـرة بهـا. يوجـد رأسٌ فـوق كتفيـه، أليـس كذلـك؟". اسـتدار إلى روبـين. "فقطعنـا الحديقـة بالطفلـة معنـا مُخـدَّرة داخـل شـوال. كانـت معـي؛ فأنـا ضئيـل الحجـم، لكـن قـوتي هائلـة، وقـد ألقيتهـا مثـل كيـس جرجـيرٍ بـين ذراعَـيْ روب".

انتحب روبين.

"قذفتهـا فـوق المـاء إلى ابنـي المنتَظِـر في القـارب. ومـا الـذي حـدث يـا روب؟".

هزَّ روبين رأسه وكتفاه تهتزَّان.

"لا!". صاح أرمسترونج.

"نعـم!"، قـال الرجـل. "نعـم! مـال القـارب، وكاد يسـقطها. كان هنـاك شرخٌ في جانـب القـارب، وبينـما هـو يصـارع للإمسـاك بهـا أفلتَـت قبضتـه مـرَّةً أخـرى، ونزلـت هـي في المـاء. غطَسَـت مثـل شـوالٍ مـن الأحجـار. جعـل الرجـالَ يتحسَّـسون المـاء بمجاديفهـم، هـذا مـا فعلـه، لا أدري سـوى أننـا وجدناهـا في النهايـة. كـم كان الوقـت يـا روبـين؟ خمـس دقائـق؟ عـشرًا؟".

لم يُجِب روبين الذي تحوَّل إلى وجه أبيض في الظلام.

"وجدناهـا عـلى كل حـال. وانطلقنـا عائديـن إلى جزيـرة برانـدي. وضعناهـا عـلى الأرض هنـاك وفتحنـا الشـوال، ألم نفعـل ذلـك يـا روب، يـا

ابنـي؟ كان بالإمـكان أن يضيـع كلُّ شيء". كان يتحـدَّث بجدِّيَّـة، وبهـزَّةِ رأسٍ كئيبـة. "كان يمكـن أن تكـون هـذه نهايـة كل شيء. ولكـن روب أنقـذ الأمـر برأسـه المتَّـزِن، وقـال: "لا يهـمُّ إن كانـت حيَّـةً أو ميِّتـة؛ فلـن تعـرف عائلـة فـون بالأمـر حتـى يتـمَّ تسـليم النقـود!"، وكتـب الرسـالة -لم أرَ رسـالة أجمـل منهـا- ومـع أن البضاعـة لم تكـن معنـا -عـلى الأقـل لم تكـن في حالـة صالحـة عـلى كل حـال- فقـد أرسـلنا الفاتـورة مـع ذلـك. قـال لِـمَ لا؟ لقـد قمنـا بالجهـد والمخاطـرة عـلى كل حـال، هـا يـا روب؟ عرفـت وقتهـا أيضًـا أن هـذا هـو ابنـي...".

طـوال ذلـك الوقـت كان أرمسـترونج يصعـد المنحـدر ببـطء بعيـدًا عـن المـاء الهـادر، ولكـن روبـين بقـي ثابتًـا في مكانـه. لَفَّـت الميـاه في دوَّامـاتٍ حولـه، وبـدا أنـه لا يشـعر بهـا.

"فأخذنـا الفديـة مـن فـون. أخذناهـا وأعطينـاه ابنتـه أيضًـا، ألم نفعـل؟ مـع أنـه قـال إنـه لم يأخذهـا. كَفَتنـا تلـك الأمـوال لفـترةٍ طويلـة. روب حصـل عـلى منـزل جميـل. لقـد رأيتُـه. كـم انتفـخ قلبـي بالفخـر وابنـي في منـزلٍ أبيـض راقٍ في مدينـة أوكسـفورد. انتبِـهْ، فهـو لم يَدعُنـي هنـاك أبـدًا. ولا مـرة واحـدة. بعـد كل مـا مررنـا بـه معًـا: سرقـة الخنزيـر، والخدعـة خـلال المهرجـان، والخطـف والقتـل... تظـنُّ أنهـا هوايـات تربـط الرجـال إلى بعضهـم بالبعـض في رفقـة؟ لقـد آلمنـي ذلـك يـا روب. وعندمـا نفَـدَت الأمـوال -فابننـا هـذا مُقامِـرٌ يـا أرمسـترونج، هـل كنـتَ تعـرف ذلـك؟ لقـد حَذَّرتُـه، ولكنـه لا يسـمع- بعـد أن نفَـدَت تلـك النقـود كنـتُ أنـا مَـن نَجَّيتُـه مـن الغـرق. كل بنـس أملكـه دخـل في جيبـه. لقـد أفنَيـتُ نفـسي في العمـل لأُبقـي ابنـي في رفاهيتـه، كي تقـول أنـت الآن إنـه ملـكي. والآن وأنـت تعـرف أني أبـوك لـن تكـون قاسـيًا مـرَّةً أخـرى، أليـس كذلـك؟ وفي وجـود كل تلـك الكمبيـالات؛ فذلـك البيـت الأبيـض الجميـل ملـكي الآن، ولكـن لا يوجـد شيءٌ أملكـه لسـتُ مُسـتعدًّا لمشـاركته مـع ابنـي".

نظـر روب إلى الرجـل. كانـت عينـاه قاتمتـين وهادئتـين، وقـد انتهـت رِعشَـتُه.

تنهَّـد ڤيكتـور "انظـر إليـه. انظـر إلى هيئتـه الراقيـة. هـذا ولـدي. تعـال، فسـنأخذ المـال يـا أرمسـترونج ونرحـل في طريقنـا. هـل أنـت مسـتعدٌ للرحيـل يـا روب؟".

خطـا نحـو روبـين مـادًّا يـده. قطـع روبـين الهـواء بيَـدِه، فأخـذ الرجـل خطـوةً مرتبكـة إلى الخلـف وتعـثَّر. رفـع يـده إلى الأعـلى ليحـدِّق فيهـا مُتفاجِئًـا، ورأى سـائِلًا داكِنًـا يسـيل عليهـا.

"يا ابني؟" قالها بتردُّد.

خَطَـا روبـين خطـوةً واحـدة نحـوه. رفـع يـده مـرَّةً أخـرى وفي هـذه المـرة انعكـس الضـوء عـلى نصـل سـكين الذَّبـح الخـاص بأرمسـترونج.

"لا!". انطلـق زئـير أرمسـترونج، ولكـنَّ يـد روبـين هبطـت مـرَّةً أخـرى في خَـطٍّ سريـع في الهـواء، وخطـا الرجـل إلى الـوراء مـرَّةً أخـرى. هـذه المـرة لم تكـن الأرض حيـث توقَّـع أن تكـون. ترنَّـح عـلى الحافَّـة، وأمسـك بمعطـف ابنـه الـذي شـقَّه -مـرَّةً، مرَّتَـين، ثـلاث مـرَّات- بالسِّـكِّين. كانـا عـلى حافَّـةِ ضِفَّـةٍ، ووقعـا في النهـر الجـاري... معًـا.

صـاح روبـين وهـو يسـقط "أبي!" ورفـع يـدًا مسـتميتة نحـو أرمسـترونج، وصـاح مـرَّةً أخـرى "أنقِـذْني يـا أبي!".

"روبـين!" خـاض أرمسـترونج في المـاء حتـى النقطـة التـي رأى ابنـه يدخـل فيـه. شـعر بالتَّيَّـار يشـدُّ قدميـه، ورأى روبـين يغـوص. مسـح المـاء بعينيـه كي يـراه يظهـر عـلى السـطح مـرَّةً أخـرى، وعندمـا رأى الأطـراف تـركل في كل اتجـاه صَدَمَتـه المسـافة التـي سـحب التَّيَّـارُ إليهـا ابنـه. كان مـن غـير المعقـول أن يرمـي بنفسـه في المـاء -يجـب أن يعـود إلى الضفَّـة ويركـض مـع

اتجاه التيار ويجد قاربًا أو يطلب مساعدة- ولكن وقبل أن يفعل أيًّا من تلك الأشياء توقَّف وحدَّق.

ظهر زورقٌ من وسط المطر. دفع خيال رَجُلٍ طويل بزانةٍ نحو السَّماء، وعندما هبطت والتقت بجسم النَّهر تحرَّكَت المركبة الرفيعة الطويلة بقوَّةٍ ملحوظة عبر الماء تشقُّه برشاقة سَلِسَة. مال قائد الزورق نحو الماء ورفع بيديه الرفيعتين العاريتين وبقوَّة لا يصحبها مجهودٌ جسدَ رَجُلٍ في معطف طويل مُتَّسِخ. أرقد الجسد في عمق الزورق.

"ابني!" صاح أرمسترونج. "بحق الله، أين ابني؟".

مال الرجل مرَّةً أخرى، وبنفس السهولة شدَّ جسدًا آخر من الماء، وبينما يرفعه لمح أرمسترونج وجه روبين جامِدًا وخاليًا من الحياة، يُشبِه -شبهًا شديدًا- الرَّجُل الآخر.

صاح صيحةً مؤلِمةً، وعرف ما هو شعور انكسار القلب.

أطلق قائد المركب الزَّانة في الهواء وتركها تسقط عبر أصابعه.

ناداه أرمسترونج "كوايتلي! أَعِدْه لي! أرجوكَ!".

لم يَبدُ على قائد المركب أنه قد سمعه. اختفى الزورق سريعًا في المطر.

مشى أرمسترونج وفليت، الرَّجُل والدابَّة، خارِجَيْن من الماء عبر السيل إلى المأوى في ذا سوان. قطعا طريقهما في صمتٍ أغلب الوقت. أرمسترونج مُثقَلٌ بعبء حُزنِه الذي لا يُطاق. ولكنه كان يقول بعض الكلمات من آنٍ لآخر لفليت. تصهل فليت مُجيبَةً.

همهم "مَن كان يتخيَّل هذا؟ أعرف قصصًا عن كوايتلي، ولكنني لم أصدِّقها أبدًا. أن تتخيَّل أن العقل البشري قادِرٌ على إنتاج صور مثل هذه. لقد بدا حقيقيًّا لوهلة. هل ظَنَنتِ أنتِ ذلك؟".

ولاحِقًا "لا بُدَّ أن هناك قصصًا أكثر ممَّا تتخيَّلين".

وبعد وقت طويل، عندما أوشَكَا على الوصول "كان بإمكاني أن أُقسِم أني رأيت... في الزورق... خلف قائد المركب ... هل جُننتُ؟ ماذا رأيتِ يا فليت؟".

صهَلَت فليت بصوتٍ مهزوزٍ ومتوتِّر.

"مستحيل!" هزَّ أرمسترونج رأسه كي يُبعِد الصورة. "إن ذهني يخدعني. لا بُدَّ أن هذه الرؤى هَذَيان يأس".

ليلي والنهر

برد. تشعر بالبرد. وهي تعرف أنها إن كانت تشعر بالبرد فذلك يعني أنها مستيقظة. كان الظلام ينحسر من الغرفة، الفجر يأتي و-بالتأكيد- شيء آخر أيضًا. فتحت عينيها على قرصة برد على عينيها. ما الخطأ؟

هل هذا هو؟ عاد من النهر؟

"ڤيكتور؟".

لا إجابة.

ترك ذلك شيئًا واحدًا. اختنَقَت.

بعد ظُهر اليوم لاحَظَت أن إحدى بلاطات الأرض في المطبخ كانت مرتفعةً. كانت معتادةً على أنها تتحرّكون قليلًا أحيانًا عندما تمشي. ولكن بَدَت أن هذه البلاطة قد زاد عدم استوائها عن قبل. دفعت

الطـرف العـالي بأصبـع قدمهـا لتعدلـه. غطـس في خـطٍّ فـضِّيٍّ مـن المـاء الـذي ظهـر عـلى أطرافـه. أسرعـت قُدُمًـا كي تنسـاه. والآن تذكَّـرَت.

رفعـت ليـلي نفسـها عـلى كـوعٍ واحـد، وألقـت نظـرةً نحـو المطبـخ في الأسـفل. في الضـوء الضعيـف كان الانطبـاع الأول هـو أن كل شيء قد تضاءل. كانـت الطاولـة أقـصرَ مـمَّا يجـب أن تكـون، والحـوض أقـرب لـلأرض. تقَزَّمَـت الكـراسي، وعندمـا لاحَظَـت حركـةً كان حـوض الصفيـح يتأرجـح بنعومـةٍ مثـل مَهـدٍ. بلاطـات الأرض بلونهـا الطينـي الباهـت اختفـت، ومـن فوقهـم اسـتواء شاسِـعٌ يَـبرُق مثـل شيء يوشـك أن يصـل إلى قـرار.

ومـع أنهـا لا تـراه ينمـو، إلَّا أنـه كان ينمـو؛ فقـد كان في البدايـة عـلى بُعـد بضـع بوصـات مـن أوَّل درجـات السُّـلَّم، ثـم وصَلَـت إليـه، ولاحقًـا ابتلعتـه تمامًـا. زحـف ببطء ولكـن بإصرار، صاعِـدًا عـلى الحوائـط وضاغِطًا عـلى البـاب.

خطـر لليـلي أن الـشيء يبحـث عنهـا. قالـت لنفسـها إنـه يريـد الطريـق إلى الخـارج. عندمـا اقـترب مـن السُّـلَّمة الثانيـة طغـى خوفهـا مـن عـدم التـصرُّف عـلى خوفهـا مـن التـصرُّف.

قالـت لنفسـها وهـي تنـزل الـدَّرَج لـن يختلـف الأمـر عـن الوقـوف في مغطـسٍ سـوى في أنـه أكـثر بـرودة. عندمـا قطَعَـت ثلاثـة أربـاع المسـافة إلى الأسـفل جمعـت قميصهـا في كومَـةٍ وحشرتـه تحـت إبطهـا. درجـة أخـرى ثـم التاليـة... دخَلَـت!

وصـل إلى فـوق ركبتهـا، وقاوَمَهـا وهـي تحـوم فيـه. أكملـت وأثـارت حركتُهـا دوائـرَ ودوَّامـاتٍ مـن حـول جسـده.

أبى البـاب أن يُفتَـح بسـهولة. تـورَّم الخشـب المبتـل فمَـوَّج البـاب وجعلـه يَعلَـق في إطـاره. وضعـت كلَّ ثِقَلهـا عليـه، ولكـن لم يحـدث شيء. صدمتـه بكتفهـا بهَلـعٍ فانخلـع عـن حلقـه لينفـح، ولكنـه بقـي ثابتًـا.

أفلتـت ليـلي قميصهـا الـذي سبح في الماء ودفعـت البـاب دفعـة مزدوجـةً كبـيرة. انفتـح عـلى عالَـمٍ جديـد.

كانـت سـماء سـاقِطَة في فنـاء بيـت ليـلي. جـاء سَـوادُها المضـاء بالنجوم إلى الأرض، وفـرَدَ نفسـه عـلى العشـب والصخـور والممـرَّات والحشـائش. طفـا القمـر عنـد مسـتوى الركبـة. نظـرت ليـلي بحـيرة. أيـن عمـود الفيضان الخـاصّ برَجُـل السَّـلال؟ أيـن عمـود الفيضـان الجديـد؟ رفعـت نظرهـا تلقائيًـا للنهـر، ولكنـه كان قـد اختفـى. امتـدَّت سَـكينةٌ مسـتويةٌ فضِّيَّـة فـوق كل شيء. بـرزَت مـن وسـطها شـجرة هنـا أو هنـاك وانعكسـت مـع السـماء فـوق سـطحها المصقـول. بُسِـطَ كلُّ مُنحـدَر وانحنـاءة في المشـهد، واختفـت كلُّ تفصيلـة، ومُحِـيَ كلُّ مَيـل. كان كل شيء بسـيطًا وعاريًـا ومسـتويًا، وكان الهـواء منـيرًا.

ابتلعـت ليـلي ريقهـا وصعـدت الدمـوع داخلهـا. لم تتصـوَّر أن الأمـر سـيكون هكـذا. توقَّعَـت تدفُّقـات مـن المـاء، وتيَّـارات عنيفـة وأمواجًـا قاتلـة، ولكـن ليـس هـذا. إنهـا سَـكينةٌ لا نهائيـة. وقَفَـت عنـد عتبـة بابهـا ثابِتـةً تُحـدِّق في الرَّوعـة الرهيبـة. كادت تكـون بـلا حركـة، ولكـن أحيانًـا تلمـع فقـط حيَّـةً في سـلام. أتـت بجعـةٌ تَسـبَح عـبر الغيـوم، وخلفها اسـتقرَّ الأثـر الـذي تركتـه في الغيـوم داخـل الاسـتواء.

تساءَلَت أين السمك؟

خَطَـت بحـرصٍ خـارج بيتهـا تُحـاوِلُ ألَّا تُحـرِّك المـاء قـدر الإمـكان. كان طـرف قميـص نومهـا مُشـبعًا بالمـاء، ولكنـه الآن التصـق بسـاقَيْها بعـد أن زحفـت الميـاهُ صاعِـدَةً.

أخَـذَت بضـعَ خطـواتٍ هابطـةً عـلى المنحـدر، فارتفعـت الميـاه مـرة أخـرى حتـى فخذيهـا.

تقدَّمَت. وصل الماء إلى خصرها.

يمكنك أن ترى أشكالًا بالأسفل، وحركة خاطفة لأشياء حيَّة تحت السطح. ما إن تتمكَّن عيناك من تحديد ما تبحث عنه تَرَ شرائِطَ من الحركة في كل مكان. وشعرت بها مُثيرةً في عروقها. خطوة أخرى، وأخرى. وصَلَت إلى مكانٍ تَصوَّرَت أنه حيث كان العمود القديم. تكاد تراه تحت الماء. كم هو رائع وغريب أن تكون هنا على الشاطئ والماء أعلى ممَّا كان عليه في أي وقت من حياة العمود القديم. هل هذا هو الخوف؟ كانت في قبضة شعورٍ عظيم. شيء شاسع أكثر كثيراً من الخوف... ولكنها لم تكن خائِفةً.

قالت لنفسه كم أبدو غريبة بالتأكيد. صَدرٌ ورأسٌ فوق الماء مُنعَكِسة بالمقلوب تحت ذقنها.

لوَّحَت الأعشابُ والنباتات حالِمةً في عالمها الجديد تحت السطح. أمامها أفسح الفضي الطريق أمام مكان أكثر إظلامًا. هناك كانت الضفَّة تسقط بانحدارٍ أعلى. هناك كان التَّيَّار لا يزال موجودًا تحت السطح. قالت لنفسها. لن أخطو أبعدَ من ذلك. سأتوقَّف هنا.

كانت توجد أسماك كثيرة هنا، وأيضًا -أوه!- شيء أكبر، مُلحِمٌ وزَهريٌّ. كان يطفو ببُطءٍ وثِقَلٍ في الماء، ويأتي نحوها، تكاد تلمسه.

مَدَّت ليلي ذراعًا نحو الجسد. إن استطاعت فقط أن تمسك بطرفٍ بِيَدٍ واحدة وتجذبه نحوها...

هل هو بعيد جدًّا؟ طفا الجسد الصغير مقتربًا. في لحظةٍ سيكون في أقرب نقطة إليها، ولكنه لا يزال بعيدًا عن يدها.

بلا تفكيرٍ في الخوف انطلقت ليلي إلى الأمام.

أغلَقَت أصابعها على الطرف الزهري.

لم يكن هناك شيء تحت أقدامها سوى الماء.

چوناثان يحكي حكاية

زمجر أرمسترونج "ابني أنا!" بهزَّة رأسٍ مضطربة عندما انتهى من قصَّته .

ذكَّرته مارجو "ولكنه ليس ابنكَ. يؤسفني أن أقول إن أباه الحقيقي كان بداخله".

"يجب أن أصلح الموقف. لا أعرف كيف، ولكن يجب أن أجد طريقة. وقبل ذلك هناك مَهمَّة أهابها ولكن لا يمكن تأجيلها. يجب أن أحكي لآل فون ما حدث لابنتهم ودور ابني فيه".

قالت له ريتا برقَّة: "ليس الوقت المناسب لتحكي عن هذا الأمر للسيدة فون. عندما يعود السيد فون سنحكي له معًا".

"لماذا هو ليس هنا؟".

"إنه مع الرجال الآخرين يبحثون عن الطفلة. إنها مفقودة".

"مفقودة؟ إذًا يجب أن أبحث معهم".

حاوَلَت النساء ثَنيَه عندما رأين وجهه التائه ويديه المرتعشتين، ولكن لم يكن من الممكن إيقافه. "في هذه اللحظة هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أفعله كي أساعدهم؛ فيجب أن أفعله".

عادت ريتا إلى هيلينا الي كانت تُرضِع طفلها.

سألت "هل توجد أخبار؟".

"لا شيء حتى الآن. لقد انضمَّ السيد أرمسترونج إلى البحث. حاولي ألَّا تَقلَقي يا هيلينا".

نظرت الأمُّ الشابَّة إلى وليدها، وذاب بعضٌ من القلق عن وجهها وهي تضع أصبعها الصُّغرى على خدِّه وتُربِّت عليه. ابتسَمَت "أستطيع أن أرى فيه والدي العزيز يا ريتا! أليست هذه هدية!".

رفعت هيلينا بصرها عندما لم يأتها رَدٌّ "ريتا! ما الأمر؟".

"لا أعرف ما شكل أبي. ولا حتى أمي".

"لا تبكي! ريتا يا غالية!".

جلست ريتا بجوار صديقتها على السرير.

"لا تستطيعين تحمُّل رحيلها، أليس كذلك؟".

"لا. قبل أن تأتوا لتأخذوها -في تلك الليلة منذ عام- وقبل أن يظهر أرمسترونج -وقبل ليلي وايت- خلال تلك الليلة الطويلة عندما كان دونت غائِبًا عن الوعي في سريره وأنا كنتُ هنا في هذا الكرسي- أخذتُها في حِجري. سقطنا في النوم معًا. فكَّرتُ في ذلك الوقت أنه إن اتَّضح أنها ليست ابنة دونت وإن لم تكن تنتمي لأي أحد في العالم فأنا...".

"أعرف".

"تعرفين؟ كيف؟".

"رأيتـك معهـا. لقـد شـعرتِ كـما شـعرنا جميعًـا. دونـت يشـعر بذلـك أيضًـا".

"هـو أيضًـا؟ كل مـا أريـده هـو أن أعـرف أيـن هـي. لا أسـتطيع أن أتحمَّـل ألَّا تكـون هنـا".

"ولا أنا. ولكن الأمر أصعب بالنسبة لك".

"أصعب بالنسبة لي؟ ولكن أنتِ...".

"ظَنَنـتِ أني أُمُّهـا؟ لقـد ظننـتُ أيضًـا أني أخترعتهـا. هـل تتذكَّريـن مـا قُلتُـه لـكِ إننـي أحيانًـا أتسـاءل مـا إن كانـت حقيقيَّـةً؟".

"نعم. لماذا تظنين أن الأمر أصعب بالنسبة لي؟".

أومأت هيلينا برأسها باتجاه الطفل وقالت: "لأنه هو عندي".

مدَّت ريتا ذراعيها ووضعت هيلينا الطفل فيهما.

"ليس هكذا. ليس كممرِّضة. احمليه كما أحمله أنا. كأُمٍّ".

أراحت ريتا الطفل في ذراعيها. استسلم للنَّوم.

"هـا هـو". همَسَـت هيلينـا بعـد فـترة صمـت. "كيـف هـو الشـعور الآن؟".

خبطـت ميـاه الفيضـان حـول ذا سـوان، وأتـت حتـى البـاب، ولكـن لم تتجـاوزه.

عندمـا عـادت كولوديـون وأرمسـترونج بعدهـا بقليـل هـزَّ الرجـال رؤوسـهم بوجـوه متجهِّمـة. ذهـب فـون مبـاشرة لـيرى زوجتـه والطفـل. كانـا نائِمَـيْن. ووجـد ريتـا هنـاك.

همست "وجدتم شيئًا؟".

هزَّ رأسه نفيًا.

انضمَّ إلى ريتا في الغرفة الشتوية بعد أن حدَّق لفترة طويلة في صَمتٍ حريصٍ كي لا يوقظ ابنه، وقبَّل رأس زوجته النائمة. كانت الأحذيةَ المبتلَّة قد نُزِعَت، والأقدام مُمدَّدة نحو النار، والجوارب تُبخَّر. وضعت صغار المارجو بعض الحطب في النار، وجلبن مشاريب ساخنة للجميع.

"جو؟" سأل فون، مع أنه كان قادرًا على تخمين الإجابة.

"رحل"، قالت بناته.

ثم لم يتحدَّث أحدٌ، وتنفَّسوا الدقائق، يشهقونها ويزفرونها، حتى أتمُّوا ساعة.

فُتح الباب.

لم يسرع أيٌّ من كان مَن فتحه إلى الداخل. هزَّ الهواء البارد شُعلةَ الشموع، وجلب رائحة النهر بقوَّةٍ أكبر إلى الغرفة. رفعوا أبصارهم.

كلُّ عينٍ رأت، إلَّا أن أيًّا منهم لم يتفاعل. كانوا يحاولون أن يفهموا ما يرونه وقد وُضِع داخل إطار الباب المفتوح.

"ليلي!". صاحت ريتا. كانت هيئةً من حلم. سال الماء من قميص نومها الأبيض، والتصق شَعرُها بفروة رأسها، وكانت عيونها مفتوحةً على اتِّساعها من الصَّدمَة. حملت بين ذراعيها جسدًا.

صُدِم بمنظرها جميعُ مَن كانوا موجودين ليلة الانقلاب الشتوي منذ عام. في البداية وصل دونت إلى الباب بجُثَّة بين ذراعيه. لاحِقًا -وفي نفس الليلة- جاءت ريتا تُمسِكُ الفتاة بين ذراعَيْها، والآن للمرة الثالثة يُعاد نفس المشهد.

ترنَّحَت ليلي عند العتبة ورمشت عيناها. هذه المرة قفز دونت وفون كي يمسكا بالقادمة الجديدة وهي تقع، وأرمسترونج هو مَن

مَـدَّ ذراعيـه ليسـتقبل الجسـد الملتـوي للخنزيـرة الصغـيرة التـي أوشـكت عـلى الغـرق.

صاح أرمسترونج "يا إلهي! إنها ميسي!".

وقـد كانـت بالفعـل... ألطـف الخنازيـر الصغـار الذيـن أنجبتهـم مـود، تلـك التـي أعطاهـا لليـلي وفـاءً لوعـده عندمـا ذهـب ليأخـذ مـود ويعيدهـا إلى المزرعـة.

تولَّـت صغـار المارجـو أمـر ليـلي بطيبـةٍ، وسـاعدنها أن ترتـدي ثيابًـا جافَّـةً، وصنعـن مشروبـاتٍ سـاخِنةً ليوقفـن الرعشـة، وعندمـا عـادت إلى الغرفـة الشـتوية هنَّأهـا أرمسـترونج عـلى شَـجاعتها في إنقـاذ الخنزيـرة الصغـيرة مـن ميـاه الفيضـان.

تدفَّأت الخنزيـرة عـلى حِجـر أرمسـترونج، وعندمـا اسـتعادت معنوياتها أصـدرت صياحًـا، وتقلَّبَـت بحيوية.

أخرجـت ضجَّـةُ المفاجـأة چوناثـان مـن الغرفـة حيـث كان يراقـب جثـمان والـده. تبعتـه إحـدى أخواتـه وهـي تتثـاءب.

جلس دونت بثِقَلٍ ودَعَكَ عينيه بأسى.

سألته مارجو الصغيرة "لم تَعثُر عليها؟".

هزَّ دونت رأسه.

تساءل چوناثان "يَعثُر على مَن؟".

ذكَّرَتـه ريتـا "الطفلـة الصغـيرة الضائعـة"، وقالـت لنفسـها تأخَّـر الوقت. إنـه مُتعَـبٌ؛ فـلا يتذكَّـر. يجـب أن نضعـه في سريـره.

قال بدهشة: "ولكنها وُجِدَت. ألم تعرفوا؟".

"وُجِـدَت؟". نظـروا إلى بعضهـم البعـض متسـائلين "لا يـا چوناثـان. لا نظـنُّ".

"نعم"، وهزَّ رأسه بثقة. "لقد رأيتُها".

حدَّقوا.

"لقد أتت الآن".

"هنا؟".

"خارج النافذة".

قفَزَت ريتا وركضت نحو الغُرفَة التي أتى منها، والنافذة، ونظَرَت بتوتُّرٍ في كل اتِّجاه. "أين يا چوناثان؟ أين كانت؟".

"في الزورق الذي أتى من أجل أبي".

"آه يا چوناثان". وقادته بيأسٍ إلى الغرفة الشتوية مرَّةً أخرى. "قُل لنا ما الذي ظَنَنتَ أنك رأيتَه بالترتيب، ومن البداية.

"حسنًا. مات أبي، وكان ينتظر كوايتلي، وأتى كوايتلي كما قالت أُمِّي إنه سيأتي. أتى حتى النافذة في زورقه ليأخذ أبي إلى الجانب الآخر من النهر، وعندما نظَرتُ إلى الخارج كانت هناك. في الزورق. قلتُ لها "الجميع يبحثون عنكِ". فقالت "قُل لهم إن أبي أتى ليأخذني" ثم رحلوا. إن أباها قويٌّ جدًّا في زورقه. لم أرَ أبدًا زورقًا يتحرك بهذه السرعة".

كانت هناك لحظة صمت ممتدَّة.

سأل دونت بحنوٍّ "ولكن الطفلة لا تتكلَّم يا چوناثان. هل تتذكَّر ذلك؟".

قال چوناثان: "إنها تتكلَّم الآن. بينما يرحلون قُلت لها "لا تذهبي الآن". فقالت "سأرجع يا چوناثان. ليس لفترة طويلة، ولكني سأرجع وأراك". ثم ذهبوا".

"أظنُّ أنَّكَ نِمتَ... ربما كنتَ تحلم؟".

فكَّـر في الأمـر جيِّـدًا للحظـة وهـزَّ رأسـه بحسـم "كانـت هـي نائمـة"، وأشـار إلى أختـه "أنـا لم أكـن نائمًـا".

نبَّهه دونت "الأمر جادٌّ أكثر من أن يحكي صبيٌّ عنه حكاياتٍ".

فتـح جميـع الحاضريـن أفواههـم وقالـوا في نَفَـسٍ واحـد: "ولكـن چوناثـان لا يسـتطيع أن يحـكي حكايـات".

هـزَّ أرمسـترونج رأسـه في دهشـة هادئـة مـن مكانـه في الرُّكـن. لقـد رآهـا أيضًـا تجلـس خلـف والدهـا قائـد الزَّورق بينـما هـو يوجِّـه الـزروق بقـوَّة بـين عـوالم الأحيـاء والمـوتى، وبـين الحقيقـة والحكايـة.

قصّة طفلين

احـترق اللهـب مضيئًـا في المسـتوقد في بيـت المزرعـة في كلمسـكوت، ومـع ذلـك لم ينجـح أي شيء يفعلونـه في تدفئـة الجالسَـيْن في مقعديهـما عـلى جانِبَـي المدفـأة.

جفَّفوا عيونهم، وكانوا الآن يحدِّقون في اللهب بحزن عميق.

قالت بيسي: "أنت مُتعَب. لم يكن بإمكانك أن تفعل أكثر من ذلك".

"هل تعنين في النهر؟ أم في الحياة كلها؟".

"كلاهما".

حـدَّق حيـث كانـت هـي تحـدِّق في اللهـب "هـل كان الأمـر سـيختلف لـو كنـتُ أكـثر قسـوة معـه مـن البدايـة؟ هـل كان مـن المفـترض أن أجلـده عندمـا سرق لأوَّل مـرَّة؟".

"كان مـن الممكـن أن تختلـف الأمـور. أو لا تختلـف. لا يمكنـك أن تعـرف. وإن اختلفـت فـلا يمكـن معرفـة إن كان ذلـك للأفضـل أو للأسـوأ".

"كيف يمكن للأمور أن تكون أسوأ؟".

أدارت نحوه الوجه الذي كان مختبئًا في الظِّلال.

"أنا رأيته".

رفع بصره عن النار متسائِلًا.

"بعـد واقعـة الخزانـة. أعـرف أننـا اتفقنـا أني لـن أفعـل، ولكنـي لم أسـتطِع تَمالُـكَ نفـسي. كنـتُ قـد أنجبـتُ الأولاد الآخريـن وقتهـا، وكنـتُ أعـرف أيَّ نـوع مـن الأطفـال هـم بالنظـر إليهـم بعينـي العاديـة. كانـت وجوههـم الوليـدة مفتوحـة: كان واضحًـا مَـن هـم. ولكـن روبـين كان مختلفًـا. لم يكـن مثـل المواليـد الأخـرى. دائمًـا مـا كان يبقـي نفسـه مُختفيًا. لم يكـن طيِّبًـا مـع الصغـار. أنـت تذكـر كيـف كان يقرصهـم ويُرهبهـم. كانـت هنـاك دمـوع دائمًـا حيـث يوجـد روبـين، ولكـن بدونـه كانـوا يلعبـون جيِّـدًا جـدًّا؛ لـذا فقـد فكَّـرتُ في الأمـر كثيرًا، ولكنـي قلـتُ إننـي لـن أسـتخدم عينـي، وفكَّـرتُ أن مـن الأفضـل أن ألتـزم بذلـك. حتـى يـوم الخزانـة. كنـتُ أعـرف أنـه مَـن فعلهـا: لم يكـن كاذبًـا بارعًـا مثلـما هـو الآن -يجـب أن أقـول كـما أصبـح لاحقًـا- لم أصدِّقـه عندمـا قـال إنـه رأى رجُـلًا يركـض في الطريـق، وأنـه وجـد المكتـب مفتوحًـا عنـوةً، فنزعـتُ العِصابـةَ وأمسـكت بـه مـن كتفيـه ورأيتُـه".

"ماذا رأيتِ؟".

"لا أكـثر ولا أقـلَّ مـمَّا رأيـتَ أنـتَ الليلـة. إنـه كاذب ومخـادع. إنـه ليـس بـه قطـرةُ اكـتراثٍ لأي شـخص في العـالم سـوى نفسـه. إن أول وآخـر فكـرة في حياتـه سـتكون عـن راحتـه، هـو وتسـهيل أمـوره، وإنـه سـيؤذي

أي شخص سواء كان أحد أخوته وأخواته أو أباه شخصيًا إن أتى ذلك بأي ميزة صغيرة له".

"فلم تفاجئك أيٌّ من هذه الأشياء".

"لا".

"تقولين إنه لا يمكن تقرير إن كانت الأمور ستجري للأفضل أو للأسوأ... لا يمكن أن يوجد ما هو أسوأ من هذا".

"لم أحبَّ أن تتبعه الليلة وأنا أعرف أن السِّكِّين معه. بعد ما فعله بسوزان خفتُ ممَّا قد يفعله بك... ومع أنه لحمي ودمي، ومع أن من المحتَّم أن أُحبَّه في كل الأحوال، فسأقول لك إنه في الحقيقة فقدانك هو الأسوأ".

جلسوا في صمتٍ لفترة. تتبع كلٌّ منهم أفكاره، ولم تكن أفكارهم بعيدة جدًّا عن بعضها.

ثم أتى صوت خفيض. نَقرٌ خفيفٌ من على مسافة. تجاهلوه في البداية؛ فقد غرقوا في أفكارهم، ولكنه تكرَّر. نظَرَت بيسي إلى زوجها.

"هل هذا الباب؟".

هزَّ كتفيه "لن يأتي أحدٌ ليطرقَ الباب في هذا الوقت من الليل".

عادوا لاجترارهم، ولكنَّ النَّقر عاد، ليس بصوتٍ أعلى، ولكنه استمرَّ مُدَّةً أطول.

قال وهو يقف: "إنه الباب. يا لها من ليلة. سأجعلهم يرحلون، أيًّا كانوا".

أخذ الشَّمعة وعبر البَهوَ نحو الباب الضخم من خشب البلُّوط، وفتح الأقفال. فتَّح شقًّا صغيراً في الباب ونظر إلى الخارج. لم يكن هناك أحدٌ، واستعدَّ لغلق الباب مرَّةً أخرى عندما أوقفه صوتٌ صغير.

"أرجوك يا سيد أرمسترونج...".

نظر إلى الأسفل. على ارتفاع خصره وقف زوجٌ من الأولاد.

همَّ بالكلام "ليس الليلة يا أولاد... المنزل في حالة حدادٍ...".

ثـم أمعـن النظـر إليهـم، ورفـع شـمعته، وحـدَّق في الولـد الأكـبر. كان يرتـدي أسـمالًا، ويرتعـد، وكان نحيـلًا، ولكنـه عرفـه "بـن؟ هـل هـذا أنـت يـا بـن، صبـي الجـزَّار؟".

"نعم يا سيدي...".

"ادخُـلْ". فتـح البـاب عـلى مصراعيـه. "إنهـا ليسـت أفضـل الليـالي للزَّائريـن، ولكـن تعـال، لا أسـتطيع أن أتـركك في الخـارج في مثـل هـذا البرد".

أدخـل بـين الصبـي الثـاني قبلـه، وعندمـا مـرَّ الصبـي الأصغـر أمـام الشـمعة اختنقـت أنفـاس أرمسـترونج داخـل صـدره.

صاح "روبين!".

انحنـى وأمسـك بالشـمعة ليقـع ضوؤهـا وينـير وجـه الصبـي. كان وجهًـا دقيـقَ العِظـام، وقـد زاد الجـوع مـن نحولـه. كان لـه دِقَّـة جبـين روبـين. فتحتـا الأنـف لهـما نفـس التمـوُّج الرقيـق الـذي لـدى روبـين.

ارتعش صوت أرمسترونج "روبين؟".

كـم مـن الاسـتحالة في ذلـك. روبـين رَجُـل. روبـين مـات الليلـة، هـذه الليلـة ذاتهـا وقـد رأى ذلـك يحـدث. هـذا الطفـل لا يمكـن أن يكـون روبـين، ومـع ذلـك...

جفلـت العيـون، ورأى أرمسـترونج أن الطفـل الـذي يطـلُّ مـن وجـه روبـين ليـس روبـين، ولكـن ولـدٌ آخـر. كانـت عيونـه ناعمـة وخجولـة... ورماديـة. في قلـب دهشـته سـمع أرمسـترونج همهمـةً خافتـة مـن بـن،

واستدار ليرى الطفل يترنَّح ويتأرجح. أمسك بين قبل أن يسقط ونادى على بيسي.

شرح لها "هذا ابن الجزار الذي فُقِد في مامبتون. لقد غلبه الدِّفءُ بعد أن قضى كل هذا الوقت في الخارج.

قالت بيسي وهي تنحني لتسند الطفل الذي كان يستعيد وعيه "وشكله يدلُّ على أنه عانى من نقص الطعام مؤخَّرًا".

تنحَّى أرمسترونج جانبًا كي ترى زوجته رفيقَ بين، وأشار إليه بيده "لقد أتى بهذا الصغير معه".

"روبين! ولكن..."، حدَّقَت بيسي في الطفل. لم تستطع جرَّ عينها بعيدًا عنه، وعندما فعلت كان ذلك فقط كي تستدير نحو زوجها.

"ليس روبين"، كان صوت بن ضعيفًا، ولكنه لم يفقد عادته في دفع الكلمات بسرعة ولا وقفات. "يا سيدي هذه هي الطفلة التي تبحث عنها. إنها أليس، لقد قَصَصتُ شَعرها... سامِحني، لم أكن أريد أن أفعل ذلك، ولكننا كنَّا معًا في الطريق طويلًا فبدا أنه أكثر أمانًا أن نكون أخَوَيْن عن أن نكون وَلدًا وفتاة، وإن كنتُ قد أخطأتُ فأنا آسف".

حدَّق أرمسترونج. أعادت ملامح روبين ترتيب نفسها في عينيه. مدَّ يدًا ووضعها مرتعشةً على رأس الطفلة المحلوقة.

"أليس". أطلق الكلمة مع أنفاسه.

جاءت بيسي لتقف بجوار أليس.

نظَرَت الطفلة لبين، فهزَّ رأسه. "لا بأس هنا. يمكنك أن تصبحي أليس مرَّةً أخرى".

أدارت وجهها نحو الزَّوجَيْن أرمسترونج. وفي منتصف الطريق إلى رسم ابتسامةٍ على وجهها تَبدَّل فمها وتمدَّد إلى تثاؤبٍ ضخم مُنهَك. رفعها جَدُّها بين ذراعيه.

لاحقًا جلسوا في المطبخ بعد وليمة منتصف ليل من الحساء والجبنة وفطيرة التُّفَّاح. نامت أليس في ذراعَيْ جدِّها، بينما عمَّاتها وأعمامها يتجمَّعون في ملابس النوم حول موقد المطبخ ويستمعون جميعًا إلى حكاية بين حول كيف وجد الطفلة.

"بعد وقت قصير من مقابلتي مع السيد أرمسترونج جلدني أبي طويلًا، حتى أصبح العالم أسود، وعندما استَعدتُ وعيي مرَّةً أخرى كنتُ متأكِّدًا أنني في الجَنَّة بالتأكيد، ولكني كنت على أرض مطبخ، متألِّمًا حتى النُّخاع، وأمي زحفت نحوي وقالت إنها كانت تتساءل ما إن كنتُ ميِّتًا، وأني بالتأكيد سأموت في المرة القادمة، وقرَّرتُ أن الوقت قد حان كي أتبع خُطَّتي في الهرب التي رتَّبتُها منذ وقت طويل؛ لأني فكَّرتُ أنه من الأفضل أن أكون مُستعدًّا، وفعَلتُ كل شيء وفقًا لهذه الخطَّة، وهي أن أذهب إلى الجسر وأتسلَّق السور وأنتظر مرور قارب، مع أنه ليس من السهل دائمًا أن أرى قاربًا في الظلام، ولكن يمكنك دائمًا أن تسمعه، فوقَفتُ هناك ولم أجلس أبدًا خوفًا من أن أنام، وارتعشتُ؛ لأن ضربًا مثل ذلك دائِمًا ما يترك رعشةً في الجسد، وأخيرًا أتى صَندَلٌ يمشي في النهر في الظلام، وتسلَّقتُ أعلى السور، وأخفضت نفسي فوقه وتدلَّيتُ من أطراف أصابعي، وكانت كتفاي وذراعاي سودًا وزُرقًا من الضرب، وتؤلمني بشدَّة، وظنَنتُ أني قد أقع في الماء، ولكني لم أقع لأني تعلَّقتُ حتى أصبح الصَّندل تحتي مباشرةً، ثم سمحت لنفسي أن أسقط، وتمنَّيتُ أن أقع على شيء طريٍّ مثل الفرو وليس على شيء صلب مثل براميل الشَّراب، وفي النهاية لم يكن الأمر جيِّدًا لهذه الدرجة، ولا سيِّئًا كما كان يمكن أن يكون؛ فقد وقَعتُ فوق جُبنٍ بين الطَّريِّ والصُّلب، ولكنها صدَمَت عظامي أيضًا، وآلَمَتني حيث أنا متألِّم بالفعل، ولكني لم أصِح؛ خوفًا من أن أفضح أني تسلَّلتُ، وبدلًا عن ذلك بكيتُ بهدوءٍ واختبأتُ بأفضل طريقةٍ مُمكِنة، وحاوَلتُ ألَّا أسقط في النوم، ولكن سقطت في النوم

فعلًا، واستيقظتُ لأني هُـزِزتُ بخشونةٍ، وكان أحـد رجـال الصنـدل يقـف فوقـي ساخِطًا، وصاح بنفس الكلمات مـرَّاتٍ ومـرَّات "ملجـأ أيتـام! مَـن تَظنُّنـي؟ أنـا لسـتُ ملجـأ أيتـام لعينًـا!". وفي البدايـة لم أفهـم مـا يقولـه لأني مُشـوَّش العقـل مـن النـوم، ثـم اتَّضَحَـت كلماتـه كالجـرس في أذني، ثـم مـن هنـاك إلى عقـلي حيـث التقـت هنـاك بكلـماتٍ أخـرى موجـودة هنـاك بالفعـل عـن أليـس التـي اختفـت في النهـر، وسـألتُ الرجـل: هـل التـي سـقَطَت عـلى الصنـدل في المـرة الماضيـة كانـت فتـاةً، ومـا الـذي حـدث لهـا؟ وكان غاضبًـا أكـثر مـن أن يجيبنـي أو يسـمع أسـئلتي، وهـدَّدَني أن يرمينـي في المـاء ويجعلنـي أسـبح كي أنجـو بحيـاتي، وفكَّـرتُ "هـل هـذا مـا حـدث لأليـس؟"، وسـألته، فاسـتمرَّ في سـخطه لبعـض الوقـت، إلا أنـه فجـأةً جـاع، ففتـح قطعـة جـبن وأكل بعضًـا منهـا، ولكـن لم يُعطِنـي أيًّـا منهـا، وعندمـا أكل وهـدأ سـألته مـرَّةً أخـرى، وهـذه المـرة قـال لي نعـم، في المـرة الماضيـة كانـت فتـاةً، ولا، لم يجبرهـا عـلى السـباحة كي تنقـذ حياتهـا، ولكـن عندمـا عـاد إلى لنـدن تركهـا في رعايـة ملجـأ أيتـام يأخـذون إليـه الأطفـال غـير المرغـوب فيهـم، فقُلـتُ "مـا اسـم ذلـك المـكان؟"، ولم يكـن يعـرف، ولكنـه قـال لي في أي جـزء مـن المدينـة، وبقيـت أنـا معـه وسـاعدته عـلى التحميـل والتنزيـل، وأعطـاني الجـبن مقابـل مسـاعدته، ولكـن ليـس الكثـير منـه، وعندمـا وصلنـا إلى لنـدن هربـتُ وسـألت عـن إرشـاداتٍ مـن عـشرة أشـخاص أرسـلوني هنـا وهنـاك وفي جميـع الاتجاهـات، وأخـيرًا وصلـتُ إلى المـكان، وسـألت عـن أليـس، وقالـوا إنـه لا توجـد أليـس هنـا، ثـم إن الأيتـام ليسـوا هنـا كي يأخذهـم أيُّ شـخص، وفي النهايـة أغلقـوا البـاب في وجهـي. في اليـوم التـالي، في وقـتٍ مُختَلِـف كان هنـاك شـخص مختلـفٌ فتـح البـاب، فقلـت لـه إني جائـع وبـلا مـأوى ولا أم أو أب لي، فأدخلـوني، وأعطـوني عَمـلًا، وبقيـت طـوال الوقـت مُنتَبِهًـا أبحـث عـن أليـس، وسـألت جميـع الأولاد، ولكـنّ الأولاد كانـوا مفصولـين عـن البنـات؛ فلـم أرَهـا، حتـى أُرسِـلتُ في أحـد الأيـام كي أدهـن مكتـبَ مديـر الملجـأ،

ومـن النافـذة رأيـت مـا وراء الحائـط نحـو فنـاء منطقـة البنـات، وهنـا رأيتُهـا، وعرفـت أني في المـكان الصحيـح، وسُرِرتُ لأن ذلـك لم يكـن ضياعًـا للوقـت، حتـى ذلـك الوقـت عـلى الأقـل. ففكَّـرتُ وفكَّـرتُ كيـف أصـل إليهـا، وفي النهايـة كان الأمـر ببسـاطة: الفطـيرة؛ لأن سـيدةً راقيـة أعجبهـا أن تصنـع شـيئًا جيِّـدًا للأيتـام، فأرسَـلَت سـلَّةً ضخمـةً مـن الطعـام كي يُـوزَّع، وتـمَّ ذلـك فعـلًا، ولكـن المديـر ورفقـاؤه هـم فقـط مَـن تَذوَّقهـا ولم يَصِلنـا أيٌّ منهـا، ولكـن لاحقًـا أُخِذنـا جميعًـا إلى الكنيسـة لنقـدِّم الشُّـكر عـلى الخـير العظيـم الـذي فُعِـل لنـا، وعندمـا جلسـنا ووقفنـا وجلسـنا مـرَّةً أخـرى، وصَلَّينـا للسـيدة الفاضلـة، قادونـا جميعـا للخـارج: الفتيـات مـن جانبهـنَّ مـن المقاعـد، ونحـن الأولاد مـن الجانـب الآخـر، وكانـت أليـس هنـاك بجـواري تمامًـا، فهَمَسـتُ لهـا "هـل تتذكَّرينني؟"، وهـزَّت هـي رأسـها، فقُلـتُ: "عندمـا أركـض اركـضي، حسـنًا؟". وأمسـكتُ بيدهـا، وعندمـا ركضـتُ ركَضَـت معـي، ولكـن ليـس لمسـافةٍ طويلـة، فقـد اختبأنـا خلـف تمثـالٍ، ولم يلاحـظ أحـدٌ أننـا رحلنـا، وبعـد أن خـرج الجميـع مـن الكنيسـة انطلقنـا وحدنـا ومشـينا كلَّ يـومٍ مُتتبِّعـين النهـر، وقُمـتُ ببعـض الحمـل والنَّقـل عندمـا كنـتُ أسـتطيع، وكنَّـا نـأكل مـا نجـده، وقَصَصـتُ شَـعرها عندمـا حاوَلَـت سـيِّدة شريـرة أن تسرقهـا منـي لأني ظنَنـتُ أن ولدَيْـن معًـا كانـا أكـثرَ أمانًـا، واسـتغرق الوصـول إلى هنـا وقـتٌ طويـل، حتـى قائـد الصنـدل رفـض أن يسـمح لكلَيْنـا أن نصعـد؛ لأني وحـدي مَـن كنـتُ كبـيراً بمـا يكفـي كي أعمـل، وسـيكون عليـه إطعامنـا معًـا، فصـارت أقدامنـا تؤلمنـا، وجُعنـا أحيانًـا، وبردنـا في أحيـانٍ أخـرى، وأحيانًـا جُعنـا وبَرَدنـا في نفـس الوقـت، والآن...".

توقَّـف ليتثـاءب، وفي نهايـة تثاؤبـه رأوا فجـأةً كـم تبـدو عيونـه دائِخـةً وأنـه عـلى وشـك النـوم.

مسح السيد أرمسترونج دمعةً من عينه.

"لقد أحسَنتَ صُنعًا يا بن. لم يكن بالإمكان فِعلُ شيء أفضل".

"شكرًا يا سيدي، وشكرًا على الحساء والجبن وفطيرة التفاح... إنها رائعة".

انزلق من كرسيِّه وحَيًّا العائلة. "والآن من الأفضل أن أذهب".

"ولكن أين ستذهب"، سأله السيد أرمسترونج، "أين بيتُكَ؟".

"لقد عَزَمتُ على الهرب، ويجب أن أهرب".

وضع روبرت يديه على الطاولة "لن نقبل بذلك. يجب أن تبقى هنا وتصبح فردًا من العائلة".

نظر بين حوله على البنات والأولاد المجتمعين حول الموقِد. "ولكن لديك الكثيرُ مِمَّن يأكلون أرباحَكَ بالفعل يا سيِّدي، والآن هناك أليس أيضًا. الأرباح لا تنمو على الشَّجَر كما تعرف...".

"أعرف. ولكن إن عملنا جميعًا معًا فسنُحقِّق أرباحًا إضافية، وأنا أرى أنك صبيٌّ تعمل بجدٍّ، وستؤدِّي نصيبَكَ من العمل. بيس... هل هناك سرير للطفل؟".

"سينام مع الأولاد الأواسط. يبدو في نفس عمر جو ونيلسون".

"ها نحن، هل رأيت؟ وستساعد في أمور الخنازير. اتَّفقنا؟".

وهكذا تَمَّ الاتفاق.

حدَثَ ذات يومٍ مُنذُ زمنٍ بعيد

لاحقًا، ولكن قبل أن يتراجع الفيضان بالكامل أخذ دونت ريتا على متن كولوديون عائِدًا بها إلى كوخها الغارق. استخدما القارب الصغير ذا المجاديف ليصِلَا إلى الباب، وعندما خطا دونت خارِجَه كي يدفع الباب -الذي تموَّج من الماء- بكل عزمه وصل الماء حتى ركبتيه. في الداخل التفَّ خَطٌّ حول الحوائط يظهر أن الماء كان قد وصل إلى ثلاث بوصات أعلى في ذلك المكان. كان الدِّهان يتقشَّر من على الحوائط في أرجاء الغرفة، وقد تركت المياه المتراجعة تشكيلةً من الفروع والحصى وأشياء أخرى غير مُحدَّدة الهوية على مقعد الكتابة الخاصِّ بريتا، وكأنها تحمل معنًى ما. امتلكت البصيرة المسبقة كي ترفع المقعد الأزرق فوق الصناديق، فكانت قوائمه في الماء، ولكن وساداته على حالها. لم تكن السجادة الحمراء قادرة على تحديد ما

إن كانـت ترغـب في أن تطفـو أو تغـرق، وانتـشرت في كل مـكان رائحـةٌ رطبـة منفِّـرة.

تحـرّك دونـت جانبًـا كي يَـدَع ريتـا تـرى الداخـل. خاضـت في المـاء عابِرةً البـاب، ودخلـت إلى غرفـة الجلـوس. راقَـبَ وجهها وهـي تتفحَّـص منزلهـا، مُعجَبًـا بـبرودة أعصابهـا وهـي تتأمَّـل الدَّمـار.

"سيستغرق شهورًا، أو حتى أسابيع كي يجفَّ".

قالت: "نعم".

"أيـن سـتذهبين؟ إلى ذا سـوان؟ قـد تَسـعَد مارجـو وچوناثـان بصُحبَتِـكِ عندمـا تعـود بناتهـا إلى منازلهـنَّ. أم إلى عائلة فون؟ سـيسرُّهم اسـتضافَتُكِ".

هـزَّت كتفيهـا. كانـت أفكارهـا مُركَّـزةً عـلى أمـور أكـثر جذريَّـة. هـذا الدمـار في منزلهـا كان تفصيلـةً تافهـة.

قالت: "الكتب أوَّلًا".

خـاض في المـاء حتـى المـكان المحـدَّد، ورأى أن الأرفـف السُّـفليَّة فارِغَـة. حمَلَـت الأرفـف العلويَّـة فـوق خـطِّ المياه ضِعـفَ الكتـب. "كنـتِ جاهزةً".

هزَّت كتفيها "عندما تحيا بجوار النهر...".

أعطاهـا كُتُبهـا مناوِلًا إيَّاهـا مجموعـةً في كلِّ مـرَّة. مرَّرَتهـا خـارج النافـذة ووضعتهـا في القـارب الـذي يتقافـز تحـت مستوى النافـذة تمامًـا. عَمـلَا في صمـت. وضعـت هـي كتابًـا واحـدًا جانبًـا عـلى وسـادة فـوق المقعـد الأزرق.

عندمـا فرغـت أرفـف الكتـب وانخفـض المركـب في المـاء جـدَّف هـو عائـدًا بـه إلى كولوديـون، حيـث أفرغـه هنـاك. في طريـق عودتـه إلى الكـوخ وجـد ريتـا في المقعـد الأزرق الـذي كان لا يـزال فـوق الصناديـق. كات المـاء يغمِّـق لـون قـماش تنُّورتهـا.

رفعت عينيها من الكتاب "لقد أنهوا البحث، أليس كذلك؟".

"نعم".

"إنها لن تعود".

"لا". كان يعرف أن تلك هي الحقيقة. كانت يشعر أن من السهل أن يتوقَّف العالم عن الدوران بدون الفتاة في قلبه. كانت كل ساعة مُنهِكة، وعندما تنتهي كان عليه البدء في ساعة أخرى ليست أفضل منها. تساءل كم يمكنه أن يستمرَّ.

قال: "انظري. لقد مَرَرتِ بكل هذه المتاعب كي تنقذي الكرسيَّ الأزرق، والآن يُبلِّله فستانُكِ".

"لا يهمُّ. الفكرة أن العالم بدا مُكتَمِلًا قبل أن تأتي هي. ثم أصبَحَت هي هنا. والآن رحَلَت وفُقِد شيء ما".

"لقد وجدتُها في النهر، وأشعر كما لو كان بإمكاني العثور عليها مرَّةً أخرى".

هزَّت ريتا رأسها "عندما ظَنَنتُها ميِّتةً رغبتُ بشدَّة أن تعيش، وبدلًا من تركها وحدها هناك بقيتُ معها. أمسكتُ بمعصمها، وعاشت. أريد أن أفعل نفس الشيء الآن. أفكِّر بلا انقطاع في قصة كوايتلي وما فعله كي ينقذ ابنه. لقد فَهِمتُه الآن، وسأذهب إلى أي مكان يا دونت، سأتعذَّب بأيِّ ألمٍ كي تصبح طفلتي في أحضاني مرَّةً أخرى".

جلَسَت بتنُورتها المبتلَّة على المقعد الأزرق فوق الماء، ووقف هو بلا حراك في الماء. لم يعرفا ماذا يفعلان بحزنهما. ثم، وبدون كلام بدأ في نقل الكتب مرَّةً أخرى.

أفرغا الرَّفَّ الثاني، وجدَّف هو عائِدًا إلى كولوديون كي يفرغها هناك.

عند عودته كانت ريتا تقرأ الكتاب الذي فصلته عن الكتب الأخرى.

ومـع أن السـماء كانـت كئيبـةً وتلقـي بضـوء لا مبـالٍ إلَّا أن لمعـة فضِّيَّـةً أحيـت رماديَّتهـا حتـى في الداخـل: انعكاسـات مـن المـاء لا النهـائي طبَعَـت تَموُّجًـا مـن الضـوء عـلى وجـه ريتـا وهـي تقـرأ. راقـب ملامحهـا وهـي تـضيء وتُظلِـم في الإضـاءة المتغـيِّرة، ثـم نظـر إلى مـا هـو أبعـد مـن التحـوُّلات المسـتمرَّة كي يـدرس سـكونَ تعبيرهـا. كان يعـرف أن كاميرتـه غـير قـادرة عـلى التقـاط هـذا... وأن بعـض الأشـياء لا تراهـا حقًّـا سـوى العـين البشريـة. كانـت هـذه هـي إحـدى صـور حياتـه. ببسـاطة عـرض شـبكية عينـه وتـرك الحُـبَّ يحـرق وجههـا المنشـغل الـذي يومـض ويلمـع عـلى سـطح روحـه.

أخفضـت ريتـا الكتـاب ببـطء جانبهـا، واسـتمرَّت تُحـدِّق في نفـس المـكان الـذي كان الكتـاب عنـده كـما لـو كان النَّصـلُ مكتوبًـا هنـاك عـلى ضـوء المـاء.

قال: "ما الأمر؟ فيمَ تفكِّرين؟".

لم تتحرَّك "مُزارِع الجرجير" واستمرَّت تحدِّق في اللا شيء.

وقـع في حـيرة. لم يكـن يتخيَّـل أن مُزارعـي الجرجـير قـادِرون عـلى إلهـام مثـل ذلـك التركيـز. "مـن ذا سـوان؟".

"نعـم". أدارت عينيهـا نحـوه. "تذكَّرتُـه ليلـةَ الانقـلاب. وُلِـد الطفـل في سَـلَاه".

"ما السَّلى".

"إنـه كيـسٌ بـه سـائل. ينمـو الطفـل بداخلـه خـلال كامـل فـترة الحمـل. عـادة مـا ينفجـر خـلال الـولادة، ولكـن أحيانًـا -في أحـوال نـادرة- يبقـى كامـلًا، ويخـرج الطفـل بالسَّـلَى سـليمًا. لقـد فتحتُـه ليلـة أمـس، وخـرج يسـبح منـه فـوق موجـة".

"ولكن... ما علاقة ذلك بمُزارِع الجرجير؟".

"لأني سـمعتهم يقولـون شـيئًا غريبًـا في ذا سـوان. كانـوا يتحدَّثـون عـن داروين، وكيـف أن الإنسـان يولـد مـن القـرود، وأن أحـد مُزارِعـي الجرجـير سـمع في مـرَّةٍ قِصَّـةً عـن أن الرجـال كانـوا في يـوم مـن الأيـام كائنـاتٍ مـن عـالم تحـت المـاء".

"هراء".

هـزَّت رأسـها، ورفعـت الكتـاب وخبطـت عليـه "إنـه هنـا. في يـومٍ مـن الأيـام منـذ زمـن بعيـد أصبـح قـردٌ إنسـانًا. وفي يـوم مـن الأيـام قبـل ذلـك بكثـير خـرج كائِـنٌ مـائيٌّ مـن المـاء وتَنفَّـس الهـواء".

"حقًّا؟".

"حقًّا".

"و؟".

"وفي يـوم مـن الأيـام منـذ اثنـي عـشر شـهرًا لم تغـرق طفلـةٌ صغـيرة كان يجـب أن تغـرق. دخلَـت إلى المـاء، وبـدا أنهـا ماتـت هنـاك، وأخرجتَهـا أنـتَ. وَجدتُهـا بـلا نبـض ولا أنفـاس، وبؤبـؤ عينهـا مُتمـدِّد. قالـت لي كل الإشـارات إنهـا يجـب أن تكـون ميِّتـةً، ولكنهـا لم تكـن. كي يمكـن أن يحـدث ذلـك؟ لا يعـود المـوتى إلى الحيـاة.

إغـراق الوجـه في المـاء البـارد يبطـئ القلـب بشـكل كبـير. هـل مـن الممكـن أن يتسـبَّب الإغـراق في المـاء المثلَّـج فجـأة في أن يبطـأ القلـب ويقـلَّ تَدفُّـق الـدم بشـكل جـذريٍّ حتـى يبـدو الشـخص ميِّتًـا؟ يبـدو ذلـك أغـرب مـن أن يكـون حقيقيًّـا، ولكـن إن تذكَّـرتَ أن كُلَّ واحـدٍ منَّـا قـضى أوَّل تسـعة شـهور مـن وجـوده مُعلَّقًـا في كيـس يمتلـئ بالسـائل فربمـا يجعـل ذلـك الأمـر أقـلَّ اسـتحالة. ثـم تذكـر نفوسـنا التـي تسـعى فـوق الأرض وتتنفَّـس الأوكسـچين تـأتي مـن حيـاةٍ تحـت المـاء... إننـا عشـنا في

وقتٍ ما في الماء كما نعيش الآن في الهواء. فكِّرْ في ذلك، ثم ألن يبدأ المستحيل في التحرُّك والاقتراب ممَّا يمكن استيعابه؟".

وضَعَت الكتاب في جيبٍ ومَدَّت يدًا نحو دونت ليساعدها على النزول من على الكرسي. "لن أخوض في الأمر أكثر من ذلك على ما أظن. لقد وصَلتُ إلى أقصى ما يمكن أن أصل إليه. أفكار ومفاهيم ونظريات".

عبَّأت ريتا أدويتها وبقجة من ملابسها وملاءاتها وحذاء يوم الأحد وغادَرَت، دون أن تحاول إغلاق الباب. جدَّفوا عائدين إلى كولوديون.

قال: "والآن إلى أين؟".

"لا مكان"، ورَمَت نفسها على المصطبة وأغلقت عينيها.

"وهذا على أي جانب من النهر؟".

"إنها هنا يا دونت. أحبُّ أن أبقى هنا".

لاحقًا أحبَّ دونت وريتا بعضهما البعض على السرير الضيف بينما يُهَدهِد النهر القارب. في الظلام رأت يداه ما لم تَرَه عيناه: تموُّج شَعرِها المنسدل، انحناءة وطرف ثديها، الانخفاض الضَّحل أسفل ظهرها، واتِّساع ردفَيْها نحو الخارج. رأتَا نعومة فَخِذَيْها والتَّعقُّد اللحيم بينهما. لمسها، ولمسته، وعندما دخلها شَعَر بنهرٍ يرتفع فيه. تمكَّن من النهر لبرهة، ثم كبر فسلَّم نفسه له. وقتها لم يَبقَ سوى النهر، لا شيء سوى النهر، وكان النهر كلَّ شيء... حتى ارتفع التيار أخيراً، وانكسر وانحسر.

لاحقًا استلقَيَا معًا يتحدَّثان بهدوء عن أمور غامضة: تساءَلا كيف وصل دونت من ديفيلز وير إلى ذا سوان، ولماذا ظنَّ الجميع أن الطفلة لعبة أو دمية عندما رأوها لأول مرة. تساءَلا: لماذا كانت قدماها دقيقتين كأنهما لم توضعا على الأرض أبدًا، وكيف يمكن لأب

أن يعبر إلى عوالم أخرى ليعيد ابنته إلى المنزل، وأدركا أنه لا توجد قصصٌ عن أطفال عبروا إلى عوالم أخرى كي يجدوا والديهم. احتارا حول ما الذي رآه چوناثان بالتحديد من النافذة في الغرفة التي رقد فيها أبوه ميِّتًا. تكلَّما عن القصص الغريبة التي جاء بها جو من نوبات غرقه، وكل القصص الأخرى في ذا سوان، وتساءلا عن علاقة الانقلاب الشمسي بأيٍّ من ذلك. عادا أكثر من مرَّة إلى سؤالَيْن: من أين أتت الفتاة؟ وإلى أين ذهبت؟ ولم يَصِلا إلى إجابة حاسمة. فكَّرا أيضًا في أمورٍ تافهة ومُهمَّة. انتفخ النهر، وانحسر دون إلحاح.

طوال الوقت كانت يَدُ دونت فوق بطن ريتا، ويدها فوق يده.

تحت أياديهم في الشرايين الرطبة للجذع كانت الحياة تسبح بإلحاح مع التيار.

شيءٌ ظَنَّ كلاهما أنه يوشك أن يحدث.



وعاشوا في تبات ونبات

في الشُّهور التالية تزوَّجَت روبي بيلر من إرنست. في الكنيسة أمسكت جَدَّتُها يدَيْ دونت وريتا، وقالت: "فليبارككما الله. أتمنَّى لكما كل السعادة معًا".

في بيت المزرعة في كلمسكوت طال شَعرُ أليس مرَّةً أخرى. بدأ الشبه بأبيها عندما كان طفلًا يقلُّ، ويزداد شبهها بالفتيات من أقرانها. نزعت بيس عِصابتها، وأعلَنَت: "لا يوجد الكثير من روبين فيها مُطلَقًا. لا بُدَّ أن الفتاة التي تَزوَّجها كنت سيِّدةً جيِّدة. هذا طفلة رائعة". وقال أرمسترونج" "أظنُّها تشبهك من بعض النواحي يا عزيزتي".

لم يَعُد كوخ باسكتمان قابِلًا للسُّكنى بعد الفيضان، وسيبقى كذلك للأبد. انتقلت ليلي إلى بيت الأبرشية. نظرت في أرجاء غرفة مديرة المنزل بذهولٍ، ولمست ظهر السرير والطاولة المجاورة له وخزانة

الأدراج المصنوعة من خشب الماهوجني، وذكَّرَت نفسها أن الأيام التي كانت تقول لنفسها فيها عن أصغر الأشياء "ولكني سأفقده" قد انتهت. نام الجرو في سَلَّةٍ في المطبخ، وأحبَّه القسُّ كما تحبه هي. في الحقيقة وعندما فكَّرَت في الأمر تساءلت ما إن كانت هي التي كانت شغوفةً بالجراء وهي طفلة... أو ربما كانت هي وأختها معًا.

عندما انحسر الماء ترك خلفه هيكلًا عظميًا صغيرًا على سهل الفيضان. كانت سِلسلَةٌ دقيقة ملتفَّة حول رقبته، وبين عظام الضلوع هلبُ سفينة من الفضة. حزن الزوجان فون على ابنتهما، وفرحا بابنهما. ذهبا معًا إلى البيت في أوكسفورد، حيث استمعت لهم السيدة كونستنتين وهما يتحدَّثان حول كل ما حدث، وبكيا في غرفتها الهادئة، وغسلا وجهيهما فيما بعدُ، وبعد وقت قصير عُرِض بوسكوت لودج والأراضي الزراعية الملحَقَة به وجزيرة براندي للبيع. ودَّع هيلينا وأنتوني أصدقاءهما ورحلا مع ابنهما الوليد إلى أنهار جديدة في نيوزيلاندا.

قرَّرَت مارجو مع رحيل جو أنه قد حان الوقتُ لجيلٍ آخر أن يستلم الدفَّة في ذا سوان. انتقل ابنتها الكبرى إلى الحانة مع زوجها وأولادها، ونجحوا في مَهمَّتم نجاحًا كبيرًا. فبقيت مارجو حاضِرةً في الحانة تُحضِّر خمر التفاح كما هي، إلا أنها تركت لزوج ابنها -الذي كان رَجُلًا قويًّا- مَهمَّة قَطع الحطب وحَمِله إلى البراميل. ساعد چوناثان أخته كما كان يساعد أُمَّه، وكثيرًا ما حكى حكاية عن طفلة أُخِذَت من النهر في ليلة الانقلاب الشتوي غارِقةً أوَّلًا، ثم حيَّةً مرَّةً أخرى، ولم تنطق بكلمة حتى ارتفع النهر إلى الضفاف مرَّةً أخرى ليطالب بها بعد عامٍ على التمام، وعادت لأبيها قائد الصَّندَل. ولكن إن طَلَبتَ منه أن يحكي حكايةً أخرى لم يكن يستطيع.

بقيت ذِكرى جو الحَكَّاء في ذا سوان لزمنٍ طويل جدًّا، ولكن، ومع أنه قد أتى يَومٌ نُسيَ فيه الرَّجُل نفسه، إلَّا أن قصصه لا تزال حيَّة.

انتهى دونت من كتاب صُور، ونال نجاحًا متواضِعًا. فكَّر في إنتاج كتاب قَيِّم يتضمَّن كلَّ بلدة وكلَّ قرية وكلَّ أسطورة، وحتى القصص الشعبية، وكلَّ مرسى وساقية وكلَّ انحناءة ولفَّةٍ في النهر- ولكن لم يَرقَ الكتاب لطموحه بالطَّبع. ومع ذلك فقد باع مائة نسخة؛ ممَّا يكفي لطلب إعادة طبعه، وقد أسر الكتابُ كثيرين، بما فيهم ريتا.

كان على دونت أن يعترف، وهو واقف عند دفَّة القيادة وكولوديون ينطلق، أن النهر كان شاسِعًا أكثر من أن يحتويه أي كتاب. يترك نفسه بصبر لأفعال الرجال، وهو مهيبٌ وقويٌّ وعصيٌّ على المعرفة، حتى يُقرِّر ألَّا يفعل، وعنده يمكن أن يحدث أي شيء. في أحد الأيام يساعد النهر ويدير عجلةً كي تطحن حنطتَك، وفي اليوم التالي يُغرِقُ محصولَك. راقَبَ الماء وهو ينزلق مارًّا بإثارة يبدو في لمعان الضوء الذي يعكسه كأنه يتضمَّن شظايا من الماضي والمستقبل. كان يعني أمورًا كثيرة لأشخاص كثيرين عبر السنوات، وقد ضمن الكتاب قطعةً نثريَّةً صغيرة عن ذلك. شطح بخياله وتساءَل ما إن كانت هناك طريقة لإرضاء روح النهر. طريقة لتشجيعه أن يكون في صَفِّكَ ولا يشكِّل خطورة ضدَّكَ. يوجد في قاع النهر بجوار الكلاب الميِّتة والخمر غير القانونية وخواتم الزواج التي أُلقِيَت بتهوُّر والأشياء المسروقة المنثورة فيه عطايا من الذهب والفضة في الأسفل. أضحيات طقسية تعصى على الفهم بعد قرون عديدة. قد يرمي شيء هناك بنفسه. كتابه؟ فكَّر في الأمر. كان ثمن الكتاب خمسة شِلِنات، وتوجد ريتا الآن. يوجد بيت يجب الاعتناء به، وقارب، وعمل، وغرفة طفلٍ يجب أن تُزيَّن. خمسة شِلِنات مبلغ كبير لكي يُضحِّي به شخص ليُرضي الآلهة التي لا يؤمن بها. سيلتقط له صورًا. كم صورة يمكن لرجُلٍ أن يلتقطها طوال حياته. مائة ألف؟ في هذه الحدود. مائة ألف شطفة من حياة، عشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية يلتقطها الضَّوءُ على الزجاج. سيقدر بشكل ما في كل هذه الصور أن يلتقط النهر.

استدارت ريتا مع مرور الشهور، وكبر الطفل بداخلها. ناقشت مع دونت أسماء للطفل. فكَّرا في أيريس، كالزهرة التي تزدهر على ضفاف النهر.

سألت مارجو "وإن كان صبيًّا؟".

هزَّا رأسيهما. كانت طفلةً، وهما يعرفان ذلك.

فكَّرَت ريتا أحيانًا في النساء اللواتي فقَدنَ حياتهن أثناء الوضع، وفكَّرَت كثيرًا في أمِّها هي. تذكَّرَت كوايتلي عندما شعرت بالطفل يلتفُّ في عالمها المائي. لم يكن المستقبل معروفًا، ولكن كل دقَّة قلب كانت تُقرِّب ابنها منها.

والطفلة؟ ماذا عنها؟ ظهَرَت أقاويل أنها شوهِدَت مع غجر النهر. ويبدو أنها مرتاحة هناك. يُقال إنها وقعت من فوق قارب في الظلام في ليلة الانقلاب الأولى ولم ينتبه والداها أنها فُقِدَت سوى في اليوم التالي. سلَّموا بموتها، حتى وصلهم كلامٌ عن أن أشخاصًا أثرياء في بوسكوت يعتنون بطفلة. بدا أنها ستكون بخير. لا يوجد سبب لاستعجال العودة. سيمرُّون من ذلك الاتجاه في نفس الوقت من العام المقبل. قيل إنها بَدَت سعيدةً بالعودة إلى الحياة الغجريَّة بعد عام من التوهان.

أتت تلك الحكايات بالنهار من بعيدٍ في سطر أو اثنين، تقريرين يفتقران للتفاصيل بلا لونٍ أو إثارة. يتبناهما الزبائن الدائمون في ذا سوان ويُفكِّرون فيهما ويتخلَّصون منهما. شعروا أنها ليست قصصًا، ولكنهم على كل حال لا يحبُّون قصص الآخرين مثل قصصهم. كانوا يُفضِّلون نسخة چوناثان.

يوجد مَن لا يزالون يرونها في الطقس الجيِّد والسيئ عندما يكون التيار هادِرًا أو بطيئًا، عندما يحجب الضباب الرؤية، وعندما يلمع السطح. يراها الشاربون عندما يتعثَّرون إعياءً بسبب كأس زائد عن

الحدِّ. يراها الصبيان المتهورون وهم يقفزون من فوق الجسر في أيام الصيف الرائقة، ويكتشفون كيف يُبطِّن سكون السطح سُدَّة التيار تحته. يرونها عندما يجدون أنفسهم في الخارج بعد الشَّفَق، وعندما لا يقدرون على الهرب بالسرعة التي ظنُّوا أنهم قادرون على بلوغها. لفترة كانت تلك الأخبار عن رَجُلٍ وطفلة معًا في زورق. مع السنوات كبرت الطفلة حتى صارت تقود الزَّورقَ بنفسها، ثم أتى وقتٌ -لا يتذكَّر أحدٌ متى بالتحديد- عندما لم يعودا معًا، ولكن أصبحت هي وحدها. يقولون إنها مهيبة، قوية كثلاثة رجال، واهية مثل الضباب. تقود الزورق برشاقةٍ ناعمة، ولديها كلُّ تَمَكُّن أبيها من الماء. إن سألتَ أين تسكن فسينفخوا خدودهم ويهزُّوا رؤوسهم بغموض. "ربما في رادكوت"، ويقترحوا بوسكوت، ولكن في رادكوت يهزُّون أكتافهم ويتساءلون إن كانت تعيش في بوسكوت.

في ذا سوان يقول لكم آل أوكويل إن أصررتَ أنها تعيش في الجانب الآخر من النهر إلَّا أنهم لا يعرفون أين على وجه التحديد. ولكن أيًّا كان المكان الذي تعيش فيه -إن كانت تعيش في مكانٍ مُعيَّن، وأنا أميل للشك في ذلك- فهي دائمًا قريبة. وتتواجد دائمًا عندما تتعرَّض روحٌ ما إلى الخطر. عندما لا يكون الوقت قد حان للعبور إلى الجانب الآخر، ستضمن لك أن تبقى على الجانب الصحيح. وعندما يحين الوقت فستصحبك بالتأكيد أيضًا إلى الوجهة الأخرى، تلك التي لم تعرف أنَّكَ تتَّجِه إليها... على الأقل ليس اليوم.

والآن عزيزي القارئ، انتهت الحكاية، وجاء الوقت كي تَعبُر الجسر مرَّةً أخرى وتعود إلى العالم الذي أتيتَ منه. هذا النهر الذي هو وليس هو التامز يجب أن يستمرَّ في السريان دونك. لقد طُفتَ هنا طويلًا، كما أن لديك بالتأكيد أنهارًا أخرى لتعتني بها؟!

كلمة من الكاتبة

لا يسقي نهر التامز المشهد فقط، ولكن الخيار أيضًا، وبينما يفعل ذلك فهو يُغيِّر أيضًا. في أحيان استدعت القصة أن أعبث بأوقات السَّفر وأدفع المواقع بضعة فراسخ مع أو عكس التيار. إن ألهمتك قراءة كتابي أن تذهب في نزهة بمحاذاة النهر (وهو شيء أوصي به من كل قلبي) فأرجو أن تأخذ هذا الكتاب معكَ- ولكن قد ترغب في أن تأخذ معك خريطةً أو دليلًا سياحيًّا أيضًا.

شخصية هنري دونت مُستوحاة من مُصوِّر التامز الحقيقي العظيم هنري تونت. ومثل هنري الخاص بي كان له منزلٌ على سطح قارب مُجهَّزٌ كغرفة تحميض. التقط على مدار حياته 53000 صورة مُستخدمًا أسلوب بالكولوديون المبلَّل. كادت أعماله أن تُدمَّر عندما بيع منزله وحديقته بعد وفاته، وتمَّ تفكيك ورشة العمل الخاصة به. عندما عرف المؤرِّخُ المحلي هاري بينتين بأن آلاف الألواح الزجاجية

حُطِّمَـت أو مُسِـحَت كي تُحـوَّل إلى زجـاجٍ لصوبـات الزراعـة نبَّـه إي. سـكوس المسؤول عـن مكتبـة المدينـة في أوكسـفورد. تمكَّـن سـكوس مـن إيقـاف العمـل، ورتَّـب لنقـل الألـواح الناجيـة كي تُحفَـظ. أذكـر أسـماءهم هنـا امتنانًـا لتصرُّفهـم السريـع. بفضلهـم تمكَّنـتُ مـن استكشـاف التامـز في العـصر الڤيكتـوري بصريًّـا، وغـزل هـذه القصـة حـول صـور تونـت.

هـل يعـود الغرقـى إلى الحيـاة مـرة أخـرى؟ في الحقيقـة لا، ولكـن يمكـن أن يبـدو كذلـك. منعكـس الغطـس عنـد الثدييـات يعمـل عندمـا يغمـر الشَّـخصُ فجـأة بوجهـه وجسـده في مـاء شـديد الـبرودة. تبطـأ الوظائـف الحيويـة للجسـم عندمـا يقـوم المنعكـس بتحويـل الـدورة الدمويـة بعيـدًا عـن الأطـراف، ويقـود الـدم بـين القلـب والعقـل والرئتـين فقـط. يمكـن للقلـب أن يـدقَّ ببـطء أكـبر، ويحفـظ الأوكسـچين للعمليَّـات الجسـمانية الأساسـية ليحفـظ الحيـاة أطـول فـترة مُمكِنـة. عنـد انتشـاله مـن المـاء سـيبدو الشـخص الـذي أوشـك عـلى الغـرق ميِّتًـا. كُتِـب عـن هـذه الظاهـرة الفيسـيولوچية لأوَّل مـرَّة في الدوريـات الطبيـة في منتصـف القـرن العشريـن. يعتقـد أن منعكـس الغطـس يحـدث لجميـع الثدييـات الأرضيـة والبحريـة، وقـد لوحـظ عنـد الإنسـان البالـغ، ولكـن يُعتَقـد أنـه يحـدث بأكـثر تجلِّياتـه دراميَّـةً عنـد الأطفـال الصغـار.

شُكر

توجد أوقاتٌ يصنع فيها الأصدقاء كلَّ الفَرق. هيلين بوتس، يدين لك هذا الكتاب بدَينٍ ضخم من الامتنان. چولي سمرز، تمشياتنا الكتابية بمحاذاة التامز لا تُقدَّر بثمن. شكرًا لكما.

قدَّم جريهام ديبروس إرشادات ثمينة متعلِّقة بتاريخ الفوتوغرافيا، وحكى لي چون بروير بصبر عن عملية التحميض الفوتوغرافي بالكولوديون المبلَّل.

نيك رينولز من مركز البيئة والهيدرولوچيا في والينجفور صحَّح لي معلوماتي عن الفيضان بلُغةٍ تُثبِت كم يقترب العِلمُ من الشِّعر.

ساعدني القبطان كليف كولبورن من جميعة القوارب التقليدية في التامز من استنتاج كيف يمكن أن تقع الحادثة التي وقعت لدونت.

قدَّمَت الدكتورة سوزان هوكينز من جامعة كينجستون معلوماتٍ قيِّمةً حول الممرِّضات واستخدامهن لمقياس الحرارة في القرن التاسع عشر.

البروفيسور جوشوا جتزلر والبروفيسورة ريبكا بروبرت قدَّما اقتراحات مفيدة متعلِّقة بالمطالبة بالأطفال المعثور عليهم في القرن التاسع عشر.

سيمون ستيل أضاءت لي موضوع التقطير.

ناثان فرانكلين يعرف كل شيء يمكن أن يُعرَف عن الخنازير.

عدد كبير من الناس شرحوا لي جوانب عن التجديف، وبرغم مجهوداتهم الكبيرة إلا أني لا زلتُ لا أفهمه. شكرًا سيمون وويل وچولي ونعومي على كلِّ حال.

شكرًا أيضًا لماري وچون أكتون وچون أنسون ومايك أنسون ومارجو أرندس وچين بايلي وجايا بانكس وأليسون بارو وتوبن بيك وإميلي بستلر وكاري بولين وڤاليري بوركاردت وويل بورن تايلور وماجي بودن وأرين وڤرجوس وبولا وروس كاتلي ومارك كوكر وإما داروين وچين داروين وفيليب ديل نيفو ومارجريت دينمان وأسلي إلفينز ولوسي فاوست وآن فرانكلين وڤيڤيان جرين ودوجلاس جور وكلاوديا هامر هيوستون وكريستين هارلاند- لانج وأورسولا هاريسون وبيتر هوكينز وفيليب هل وچيني چاكوبز وماجي جو وماري وروبرت جولير وهاكون لانجبال وأونيس مارتين وجاري ماكجيبون وماري موير وسالي ريد وماندي مترفيلد وچيفري وبولين سترفيلم وجو سميث وبرناديت سوارس دي أندراد وكرولين ستوي لمارشال وراشيل فيبس من مكتبة وودستوك وكريس ستيل وجريج توماس وماريان فلمانز وآن ويزرز.

المصادر

- بيتر أكرويد: التامز: نهر مُقدَّس.
- ألفريد ويليمز: حول التامز الأعلى.
- روبرت جيبنز: التامز اللطيف يجري بنعومة.
- هنري تونت: خريطة جديدة للتامز.
- سوزان ريد: تامس هنري تونت.
- جريهام ديبروس وچيف روبينز: زيارة أخرى للتامز.
- مالكوم جريهام: هينري تونت من أكسفورد: مصوِّر ڤيكتوري.
- يوجد موقع إلكتروني واحد بحثتُ فيه آلاف المرات خلال كتابة هذا الكتاب، وهو لا يُقدَّر بثمن بالنسبة لي. يأخذك الموقع في رحلة في المكان والزمان عبر النهر. أنشأ چون إيد موقع Thames Smooth Water Glide ويديره بإخلاص. إن لم تكن تستطيع الذهاب إلى التامز نفسه فهذا هو البديل الأفضل.

نبذة عن الكاتبة

دايـان سـترفيلد هـي مؤلِّفـة كتـاب القصَّـة الثالثـة عـشرة وبيلـمان أنـد بـلاك اللتـين حصلتـا عـلى المركـز الأول في قوائـم الكتـب الأكـثر مبيعًـا لصحيفـة النيويـورك تايمـز، وهـي أكاديميـة سـابقة، مُتخصِّصـة في الأدب الفرنـسي في القـرن العشريـن، وتعيـش في أوكسـفورد بانجلـترا.





حدث ذات نهر

أجفلوا لرؤية الرجل -إن كان رَجُلًا- الذي كان طويلًا وقويًا، ولكن رأسه كان وحشيًا. هل كان وحشًا من قصة شعبية؟ هل هم نائمون وهذا كابوس؟ كانت الأنف معوَجَّة ومُسطَّحة، وتحتها فراغٌ مُفغَر مُظلِم من الدماء. كان المنظر في حدِّ ذاته مُخيفًا بما يكفي، ولكن الكائن البَشِع كان يحمل على ذراعيه دُميةً ضخمة بوجه شَمعيّ، وأطراف، وشعر مُلوَّن ببراعة.

«رواية جريئة، جذابة.. تجمع العلم بالأسطورة والغموض» - *ذي ميل*

«ربما يكون الدرس الأكثر عمقًا في هذا الكتاب الرائع هو أنه لا يوجد شيء دائم أو يمكن التنبؤ به» - *ذي تايمز*


ISBN 978-977-313-875-2

